مصطفى محا

سلسلة نافذة على المعرفة - ٥

سَجينُ الصّحراء

(الفار عاملي الإمام موسى الصدر)

"وفي ٢٧ نيسان ١٩١٩ شهرتُ السلاح في وجوه الذين جاءوا لاعتقالي، وكانوا ثلاثة رجال، فعادوا أدراجهم، ولم تتكرر المحاولة"

أدولف هتلر

"كفاحي" من ١٢٠

[illegible] - ١٩٦٨

١٩٨٨

مصطفى جحا

سلسلة نافذة على المعرفة – ٥

سَجينُ الصّحراء

(الفار عاملي الإمام موسى الصدر)

"وفي ٢٧ نيسان ١٩١٩ شهرتُ السلاح في وجوه الذين جاؤوا لاعتقالي، وكانوا ثلاثة رجال، فعادوا أدراجهم، ولم تتكرّر المحاولة"

أدولف هتلر

كفاحي ص ١٢٠

الترجمة الكاملة بقلم لويس الحاج – دار بيروت ١٩٦٨

١٩٨٨

كتب للمؤلّف

- المخالب
- صدى ونغم
- أية عروبة أية قضية ؟
- رسائل من خلف المتراس (١) و (٢)
- الى امرأة واحدة
- لبنان في ظلال البعث
- يوميات تائه
- في سبيل وطن وقضية
- الخميني يغتال زرادشت
- محنة العقل في الاسلام
- أبعد من زحلة وصور
- جزيرة الكلمات : الجزء الاول
- شاهد الثعلب ذنبُه
- رسالتي الى المسيحيين
- قاموس حرب علي ومعاوية وسباعية طلال سلمان
- نحن وصنمية التاريخ
- قضايا مشرقية
- سجين الصحراء : الفارعاملي الامام موسى الصدر

المحتويات (*)

الفصل الثالث

هجرة الثورة

(من قم الى جبل عامل)

الفصل الرابع

عشية الهجرة

(١٩٤٩ – ١٩٥٩)

الفصل الخامس

الاجتماعي : السيد

(١٩٦٠ – ١٩٦٧)

الفصل السادس

السياسي : الامام

الفصل السابع

الثورتان

الاهداء

ومِنَ الذين أحبّوا الفارعاملي الإمام موسى الصَدر وأخلصوا له ووثقوا به وائتمنوه لبنانيون اعتقدوا بالحوار والتفاهم الوطني والعدالة الاجتماعيّة خير ضمان للبنان: الوطن والحرّية والاستقلال.

أولئك أرادوا "لبننة" حركة الفارعاملي الاجتماعية واخراجها من الدائرة الطائفية الى الدائرة اللبنانية الوطنية، ولكن الاحداث كانت أسرع منهم وأقوى، فإذا بينهم وبين صاحبهم وهادٌ وبحارٌ وصحارى لن يستطيعوا تجاوزها ولا عبورها. وعلى الرغم من ذلك فإن معظمهم ما زالوا ينتظرون رجوعه ليتابعوا المسيرة معاً.

إليهم جميعاً أينما كانوا وحيثما حلّوا: "سجين الصحراء"، على أمل أن يعود إلينا لبناننا الواحد الموحّد المتوازن...

مصطفى

المقدّمة

سبقني الدكتور فؤاد عجمي [1] الى الكتابة عن الإمام موسى الصدر فطلع على الناطقين بالانكليزية بمؤلَّف عنوانه :

« The Vanished Imam : Musa Al Sadr and the Shia of Lebanon » [2]

وهذا تُرجم الى العربية بعنوان « الإمام المغيَّب موسى الصدر وشيعة لبنان » [3] ، فسبقني الى قراءته

---

(١) استاذ الدراسات الاسلامية في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة « جونس هوبكنس » (Johns Hopkins) نال جائزة ماك آرثر (Mack Arthur) تقديرا لابحاثه في السياسة والحضارة العربيتين . ولد في أرنون ـ قضاء النبطية ـ الجنوب ، وترعرع في بيروت، وله «المأزق العربي» .

(٢) Ichaca : Cornell University Press , 1988.

(٣) ٣١٣ صفحة من القياس الكبير مجلدا ، دار الاندلس ، وفيه كلمة من رئيس حركة « أمل » الوزير نبيه بري، وأخرى من الناشر ، من دون ذكر اسم المترجم ، طبعة اولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م .

ومراجعته الدكتور طريف الخالدي في مقالة له [٤] يغلب عليها نوع من العقلانية ، ليس من الضرورة أن يكون سببه حبّ الخالدي للإمام الصدر أو اعجابه بتاريخ جبل عامل • فاذا اعتبرنا الخطر الذي بات يهدّد العلاقات الشيعية ـ الفلسطينية في لبنان ، وبخاصة في جبل عامل ، هو الدافع الحقيقي لهذه المداخلة أو المراجعة ، فلا يعني أننا راغبون في التقليل من أهمية آراء الدكتور الخالدي الفلسطيني وملاحظاته، كما لا يعني أبدا الطعن في مصداقيته، كناقد ، واخلاصه ، كباحث ، لجبل عامل وذخائره النفيسة والعظيمة •

والحقيقة أنني سُررتُ كثيرا بهذه المبادرة من الدكتور الخالدي ، ولا سيما أنه قرأ وراجع الكتاب المذكور في نسخته الاصلية الانكليزية التي لم يتسنّ لي الاطلاعُ عليها حتى الآن •

فبعد العرض السريع ، والسريع جدا ، لفصول الكتاب الستّة : « الغريب الحميم » [٥] ، « العالَم الذي تبنّاه العالِم الديني » [٦] ، « الطريق الذي سلكه عالِم

(٤) السفير ١٩٨٧/٣/٢٨ ص ٩

(٥) في الترجمة العربية : « الغريب الحميم : السيد موسى القادم من قم » (ص ٢٧) .

(٦) في الترجمة العربية : « العالم الذي تبنّاه رجل الدين » (ص ٦١) .

الدين » [٧] ، « إعادة تفسير التشيّع » [٨] ، « السيْر على الحبال » [٩] ، « التركة الموروثة » [١٠] ، ينقل الخالدي ، بطريقة البتْر ، كلمات من مقاطع وأحيانا كلمة واحدة من جملة ليمارس عليها النقد والتعليق ، وغالبا ما جاء عمله دون مستوى المطلوب • فبرزت « المجاملة » الخالدية الفلسطينية على حساب منطق الكتاب التحليلي أولا ،وعلى حساب الغاية من النقد التي يتوخاها عادة المخلصون من النقاد ثانيا • وبالاسلوب «البورجوازي »الناعم والخفيف استمر الخالدي في الضغط على الكتاب حتى سلبه براهينه وشواهده ، ولما ثبت له انه بات شبه كتلة من « المعايب » صعّر له الخدّ ومشى غير آسف ؟!

ثلاثة عناوين ، بعد العرض ، كانت حدود مقالة الخالدي وهي : «تشويه الحقائق التاريخية»، «التعميمات والتناقضات المنطقية » ، « أغلاط مطبعية وأخرى تتعلق

(٧) في الترجمة العربية : « الطريق الذي سار عليه رجل الدين : الامام موسى الصدر ورفاقه » (ص ١٠٩) .

(٨) في الترجمة العربية : « اعادة تفسير الفكر الشيعي : الامام الصدر وأفكار التاريخ الشيعي » (ص ١٦٥) .

(٩) في الترجمة العربية : « مرحلة المواقف الحرجة : الامام موسى الصدر والسير بين قطرات الماء » (ص ٢١٧) .

(١٠) في لترجمة العربية : « الورثة والتراث » (ص ٢٦٥) .

بنقل حروف العربية الى الانكليزية وأغلاط في الحقائق » .

بيد أن العرض السريع كما قلنا ينتهي بدقّ أول مسمار في « نعْش » كتاب الدكتور العجمي ، على الرغم من اقرار الخالدي بجَمال أسلوب الكاتب (العجمي) وملاحقتـه لدرامية الاحداث ، اذ يقول الخالدي :

« لكنني مع الاسف أعتقد أن هذا الكتاب مشُوب بشوائب خطـيرة تجعل منـه كتابـا لا يصلح لاستعمال الباحثين » (١١) .

ويمضي الخالـدي في تفصيل « الشوائب » التي تخيـّلها أو تمناها أن تكون موجودة فيقصّص ويقطّع كما يحلو له ، ثم يجمع القصيص بعض أجزائه الى بعض بواسطة الخيوط « الأكاديمية » فيبدو المَخِيط أو المخيوط كأنه قميص من الكتان الاسود وُضع على خشبتين متعارضتين في حقل ذرة أو خضار ناءٍ ليرعِّب الوحوش والطيـور المهاجمة . واذ تضمَّن هذا العرض المستعجل سبـع عشرة « قصيصة » من الكتاب ، فان الجزء الباقي من المقالة ، بعناوينه الثلاثة حسبما ذكرنا،قد تضمّن ثمانين «قصيصة»، فهذا أمر غير معقول بالنسبة الى حجم مقالة الخالدي التي لا تتعدى أربعة أعمدة في صفحة من جريدة يومية .

---

(١١) السفير : العدد نفسه .

إنّ المقالة « الخالدية » المثقلة بـ « العجميات » وإنْ ترمي الى تجميل العلاقات الشيعيـة ـ الفلسطينية ، فهي تحرّض الشيعـة على الدكتور العجمي الشيعي وكتابه ، وتدعو الى نبذه كما نبذوا غيره من قبل ، وليس أدلّ على ذلك من قوله : « أما فيما يختص بتفسير المؤلف أن الشيعة حاربوا اسرائيل لانهم يتوقون الى الانتساب الى العالم العربي ، فهذه لا بد من أغرب الدوافع التي طرحها مؤرّخ ما لتفسير حرب مقاومة شعبية » (١٢) ؟!

ويبتعـد بالدكتـور الخالدي الغضب على الكتاب وصاحبه الى اثارة مشاعر الطائفة العلوية ، فيدعوها هي ايضا الى مثل ما دعا الشيعة والفلسطينيين وكـل العـرب والمسلمين قائلا :

وحين يقوم (الصدر) بدور المقرّب بين الطـائفة العلوية وبين الاسلام العربي الاوسع ، فان المؤلف يستشهد بباحث اسرائيلي يقول ان الصدر كان يقايض المحسوبيـة مقابل الشرعية . وهذه التفسيرات لا تترك مجالا للاخلاص الحقيقي » (١٣) .

---

(١٢) السفير : العدد نفسه .
(١٣) السفير : العدد نفسه .

والواقع أن الإمام الصدر ليس أول من دعا العلويين الى التشيّع ، بل قام بهذه المهمة قبله الكثيرون نذكر منهم: السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد محسن الحكيم والشيخ حبيب آل ابراهيم والشيخ محمد جواد مغنية والسيد حسن الشيرازي . فهؤلاء جالوا على العلويين في مدنهم وقراهم ، وتفقدوا أحوالهم وأوضاعهم الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية والمعيشية ، والتقوا شيوخهم وزعماءهم ووجهاءهم ، وناقشوهم في العقيدة والايمان والسلوك ، فلم يجدوا عناء في تحقيق التفاهم والتوافق معهم كما كانوا يحسبون . ومنهم من كتب عن رحلته الى بلاد العلويين رسائل ومقالات تؤكد أن هؤلاء هم في صلب الاسلام ــ العقيدة ، ويفتون ويتعبدون ويتقاضون في أحوالهم الشخصية على مذهب الامام جعفر الصادق . فمنذ تسع وثلاثين سنة تقريبا قال الشيخ حبيب آل ابراهيم مثلا :

« لقد رأيت أنا وجملة من مفكري الشيعة العلويين عند زيارتي لهم في شهر ذي القعدة من سنة ١٣٦٩ هـ وقد ادركنا جميعا حاجة البلاد عامة الى الفقه الاسلامي الجعفري باعتبار انهم شيعة على مذهب الأئمة أهل البيت عليهم السلام وان الفقه الجعفري هو فقه أهل البيت . ان الواجب يقضي علينا أن نقوم بتأسيس مدرسة كلية تدرّس الفقه الجعفري

ومقدماته مع العلوم العصرية المطلوبة لاهل العصر ، وأن تكون المدرسة في طرطوس مدرسة اللاييك »[١٤] .

وحاول أيضا علماء دمشقيون إزالة الحواجز التي تفصل الطوائف الاسلامية بعضها عن بعض ، فاستقدموا الى مدارس الشريعة الاسلامية في الشام طلابا اسماعيليين وعلويين ودروزا . ومن هؤلاء الطلاب من تابع الدراسة ومنهم من تخلف أو تراجع لاسباب محض شخصية . وأما أصحاب هذه المساعي التوحيدية فهم : الشيخ كامل القصار والشيخ عز الدين القسام (قبل رحيله الى فلسطين) والشيخ بهجت البيطار والسيد محسن الامين العاملي والامير عادل أرسلان ، والجميع خبروا بأحاسيسهم وعقولهم خطورة الاستمرار في التباعد والتنافر ، فدعوا الى التعارف والتعاون مدخلا الى الوحدة التي لا بد منها ، ولكن الاحزاب القومية والاشتراكية سرقت منهم هذا الدور ، فعادت مدارس الشريعة الى سيرتها الاولى أو مثلما كانت قبل تلك المحاولات المخلصة والصادقة التي بذلها علماء كانوا على وفاق تام فيما بينهم .

وقد تم في ٢٧ نيسان من عام ١٩٥١ في اللاذقية (كان محافظا عليها

(١٤) الشيخ حبيب آل ابراهيم : مجلد « الاسلام في معارفه وفنونه » الجزء الثاني من المجلد الرابع ، غرة جمادى الثاني ١٣٧٠ هـ / الموافق لأول آذار ١٩٥١ ، ص ٦٩

آنذاك الاستاذ عاصم الرافعي) تأسيس « الجمعية الاسلامية الجعفرية » شارك فيها : الشيخ عبدالله بك الفضل من اللاذقية والشيخ عيد الخيّر من القرداحة والشيخ محمد حامد من طرطوس والشيخ عبد اللطيف ابراهيم من صافيتا والشيخ حسين سَعّود من جبلة والشيخ يوسف حمدان من بانياس والشيخ حيدر محمد من جبلة والشيخ أسعد حسن الحارة من الحفّة والشيخ سليمان الخطيب من جبلة والشيخ كامل يوسف الخطيب من جبلة والشيخ رجب سعيد من الشير ــ اللاذقية والشيخ يونس علي من الجبيلية ــ جبلة والشيخ كامل حاتم من البهلولية ــ اللاذقية .
وأُسندت أمانة السر الى الاستاذ عبد الرحمن الخيّر وأمانة الصندوق الى السيد محمد رشيد سليمان .

ومنذ انشاء هذه الجمعية أخذت المآذن ترتفع في اللاذقية وصافيتا وطرطوس وجبلة وبانياس وحيثما يوجد علويون، بعد أن مضت عليهم مئات من السنين الظالمة والحاقدة والقاهرة والمستبدّة ، التي بدأت إثر زوال شمس الدولة الفاطمية واستمرت حتى نهاية الانتداب الفرنسي . ولا نبالغ اذا ما قلنا ان في كل بيت من بيوت العلويين عشّش الخوف والرعب والحزن والشعور بالاضطهاد والحرمان طيلة العهود الماضية الممتدة بين العهد الفاطمي والاستقلال .

وبينما الامام الصدر يتابع اتصالاته بالعلويين ، وفي سنة ١٩٧٣ ، صدَرت الطبعة الرابعة من كتاب الدكتور مصطفى الشكعة : « اسلام بلا مذاهب » وفيها رسالة من شاب علوي كان تلميذا للدكتور الشكعة في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية ، يدعوه بموجبها الى الفصل بين جماعة الغُلاة وبين الجمهرة ، مؤكدا على أن العلويين هم شيعة ولهم الشرف بحب النبي محمد وآله وصحابته ، ويؤمنون بيوم القيامة ، ويفهمون التقمص لا كما يفهمه غيرهم (؟)، وعندهم جوامع عديدة ، ويصومون كسائر المسلمين لا فرق أبدا . ويأسف هذا الطالب الذي « ربما منعه حياؤه من مواجهتي » على قول الشكعة ، اذ يذكرُ أستاذُه أن العلويين « لا يحجّون » و « يعتبرون الحج كفرا » فيسأله : « أهذا حق يا دكتور ؟ أهذا علم ؟ أعدل ؟ أن لا تقول بما هو واقع » .

ويضيف الطالب العلوي قائلا :

« والله العظيم إننا نحجّ ونعظّم كلّ ما تعظّمونه وسنوياً يذهب عدد ضخم للحج الى مكة المكرمة واسألْ السنيين في مناطقنا يدلّونك على صدق ما أقول » .

ويقول أيضا :

« ويلاه إنْ كنا نعتبر الحج كفرا ويلاه من العقاب

وويل من لا يقول عنا الصدق من العقاب . لقد كنا في حالة فقر وخوف لا نستطيع الحج أما الآن فكل شيء عاد الى طبيعته العادية » (١٥) .

وفي كتابنا : « محنة العقل في الاسلام » أيّدنا ما قاله الطالب العلوي من جهة ، وانتقدنا من يقول بأن العلويين أمّة من جهة أخرى . واذ برهنّا على أن الاسلام وُلد ممزقا قلنا للذين لا يفرّقون بين الامة والطائفة ما يلي :

« العلويون ، الدروز ، الشيعة ، الارثوذكس ، الموارنة ، السريان ، (الآشوريون) ، الكاثوليك ، وغيرهم من الاقليات ، شعوب هذه البلاد ، يضاف اليهم السنّة ، والملحدون ، هم ضحية الحروب الطائفية والسياسية المحلية والدولية . وضحية العقل الاسلامي الذي يعاني محنة رهيبة قاتلة . وهم أيضا ضحية حرب « الكبار » مع الكبار فلن تزيد الدويلات الفئوية أو الطائفية أياً من هؤلاء ، اذا قامت ، الا بؤسا وشقاء وتشتتا وانغلاقا » (١٦) .

وجاء الامام الصدر ليكمل ما فعله السيد شرف الدين

---

(١٥) اسلام بلا مذاهب : دار النهضة العربية ــ الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢ ص ٣٦٨/٣٧٠

(١٦) مصطفى جحا : «محنة العقل في الاسلام» ، الطبعة الثانية ص ٣٤٠

وسواه من علماء الشيعة ، فوجد جماعات من العلويين في طرابلس والساحل السوري على استعداد كبير للتجاوب مع رغبته ، فعيَّن عام ١٩٧٣ الاديب والشاعر الشيخ علي منصور ، الذي كان أمين سر نقابة محامي الشمال لمدة سبع وعشرين سنة ، والمعروف جيدا من القضاة والمحامين والمثقفين ورجال الاعمال والاعيان في محافظة الشمال ، مفتيا جعفريا . فلاقت هذه المبادرة التأييد من قبل الجميع ، وتحوّل الاحتفال بتعيينه ، الذي أقيم في فندق المنتزه ــ طرابلس ، الى مهرجان كبير حضرته شخصيات رسمية وشعبية لبنانية وسورية ، اسلامية وعلوية ومسيحية ، وتحدث الامام في المناسبة مركزا على ضرورة رجوع العلويين الى عقيدتهم الامامية الاثني عشرية ، والى جذورهم وأصالتهم . ولكن بعض السياسيين ، على ما يبدو ، ابوْا الا أن يفشّلوا هذه الخطوة الجريئة لتبقى كل طائفة على وضعها .

وهنالك من يقول : كان العلويون في مدينة طرابلس فريقين اتخذ الامام له الفريق الاضعف ، فسرعان ما ذوَت هذه الحركة بل هي أُخمدت في المهد لان الفريق المعارض للامام وحركته هو الاكثر عددا والاقوى عدّة ، وقد استدرج المحافظون المجدّدين الى معركة كانت نتائجها مؤلمة على صعيد الفريق الثاني ومخيّبة لآمال الامام ودرسا قاسيا لن يُنسى ربما .

وعلى كل حال ، فان الصحيح أيضا ما جاء في كتـاب الدكتور مصطفى الرافعي : « اسلامنا في التوفيق بين السنَّة والشيعة » ، حيث يقول :

« كما وأن العلويين لو كانوا حسبما افتـرى عليهم المفترون وتعمَّد الاساءة اليهم المؤرخـون المغرضون لا ينتسبون الى الشيعة الامامية الاثني عشرية لما كان يسوغ للمجلس الاسلامي الشيعي الاعلى في لبنان(بشخص رئيسه آنذاك الامام موسى الصدر) أن يسند منصب الافتـاء الجعفري في طرابلس لشيخ علوي » (١٧) هو الشيخ علي منصور الذي يثق به أصدقاؤه وعارفوه من أبناء ملتـه وغيرهم .

لقد أردنا أن نذهب بهـذه المسألة الى هنا لنقـول للخالدي : ليس الاستشهاد بباحث يهودي ممنوعا .

يعرف الخالدي أن الحقيقة وطنها العالم كلّه ،والبحث عنها في أي مكان أمر غير محرَّم بل واجب علمي وتاريخي وأدبي وثقافي . فلماذا النهي اذن عن التقصّي والتنقيب ؟

---

(١٧) الدكتور مصطفى الرافعي : اسلامنا في التوفيق بـين السنّة والشيعـة ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٨٤ ، ص ٤٦

ولماذا لا نطلبها الا من مصدر واحد وكأن المصادر الاخرى لا قيمة لها ولا شأن ؟!

واذا كنا نطلب التكامل حقا ، يجب أن نـأخذ العلم والمعرفة من الجميع، من اليهود كما من غيرهم، الى حيث تدعو الحاجة ، والا بقينا في عصر الكتاب الواحـد الذي انتهى حسبما يعلم الدكتور الخالدي نفسه .

لم تبق طائفة ولا دولة ولا جماعة دينية أو قوميـة أو اشتراكية أو أممية الا وسعى الدكتور الخالدي بـالدكتور العجمي عندها ، فنمَّ عليه ووشى به ، لكي يبيد الكاتب الجنوبي ـ العاملي « المتأمْرك » كما وصفه رئيس حركة « أمل » الوزير نبيه بري في تصديره للكتاب ؟! حتى مجلة « العرفان » الشيعية لم ينسها الخالدي من « فضلـه » و « احسانه » فقال : « أما موقع الصحافة الفكرية في جبل عامل فلا حاجة للبحث فيه طويلا .وقد مر بنا سابقا ما يقوله المؤلف عن مجلة « العرفان » من انها عجيبة حينا وتبعث على الكآبة أحيانا . وهذا الحكم على احدى أهم مجلات عصر النهضة العربية أقل ما يقـال فيـه انه لا فائدة منه على الاطلاق » (١٨) ؟!

---

(١٨) السفير : العدد نفسه .

مع أن العجمي يقول :

« الكتب والمكتبات الضخمة العائدة للشيعة،أُحرقت في مركز سلطة الجزار القريبة . كان انتاج علماء الـدين ورجـال الادب الشيعة ضخما لكن الجزار أخمد روحهم المستقلة » (١٩) .

أليس هذا القول اعترافا من المؤلف بدور جبل عامل الثقافي والفكري والادبي ؟

كان انتاج العامليين الثقافي والادبي ضخما فـأباده الجزار مما سبب لا ضحالة فحسب بل قحطا أيضا ، والى ان يعطي العامليون ما يعادل الذي خرّبه الحاقـد الجزار يلزمهم الوقت الكافي والظروف الملائمة . أرجو أن لا يُفهم من هذا القول ان العامليين بعد تلك المحنة قـد تقاعسوا عما يصلهم بتراثهم الشهيد ويلحقهم بمـواكب التجديـد والتحديث .

ماذا عسانا نقول في أسلوب الخالدي وغايته أكثر مما قلناه ؟

---

(١٩) الدكتور فؤاد العجمي : الامام المغيّب / الترجمـة العربية ص ٦٤

في الواقع ان « الضغينة العجمية » الكثيرة التي بثها الخالدي ، إن لم نقل اخترعها ، وقع هو في مثلها ، فـراح يعالج « الداء» بداء أشد وأفتك ،مصوّرا لنفسه أن العجمي غارق في « الخطيئة المميتة » لانه حاول أن يبحث ويحلّل ويستنتج في منأى عن الامراض الشرقية التي منها ما يقرض أقلامنا ومنها ما يمتص الجسد والسائل النخاعي .

لقد طالعتُ مقالة الدكتور الخالدي فنما فيّ احساس جديد ، شعور جديد ، تمثّل ، قبل أي شيء ، بالسؤال في المكتبات عن الكتاب : « الإمـام المغيَّب موسى الصدر وشيعة لبنان » ، ولما توصلتُ اليه اندفعتُ في قراءته ولم يكن في نيتي آنذاك معارضة الدكتور الخالدي ، على الرغم من اعتقادي المسبق ان الخالدي قد ظلم العجمي وقسا عليه أكثر من الـلازم . وما كدت أبلغ بداية الفصل الاول : « الغريب الحميم » حتى انتابني حزن كاد يقتل رغبتي في متابعة القراءة ، الا أنني صبرتُ وتجلّدتُ حينما ظهر لي أن مصيبة أخرى قد حلّت ، يا للأسف ، بهذا الكتاب يتحمل مسؤوليتها الناشر : « دار الاندلس » والمصدّر الـوزير نبيه بري نفسه . فالترجمة سيئة جدا ، والاسلوب العربي كأنه من عصر الانحطاط : المترجم يكتب من الشمال الى اليمين ، والاغلاط اللغوية بالعشرات ، والجُمل المعترضة عديدة وطويلة الى درجة أنها تخنق النفَس وتصدم الذوق .

لقد ساقني هذا الغبن الجاثم على الدكتور العجمي وكتابه الى السؤال عمَّن يكون المترجم الذي لا ذكر له في الكتاب ، فاتصلتُ بالآنسة سميرة عاصي ، صاحبة « دار الاندلس »،فقيل لي:«انها مسافرة»•عندئذ كان لا بد لي من الاتصال بمصدّر الكتاب ، الوزير المحامي نبيه بري ، وبما أن الامر ليس هيّنا عليّ أنا بالذات اعتمدتُ«الحيلة» ــ هذه المرة ــ لئلا يأتيني الجواب الذي عوّدوني اياه: « الاستاذ مش موجود » • فاتخذتُ لنفسي مرغما اسم الدكتور فلان (•••) حتى نفَذ هاتفي الى رئيس حركة « أمل » فرد قائلا :

ــ أهلا يا دكتور

ــ أهلا بك يا معالي الوزير

ــ نعم يا مولانا ؟

ــ عندي بعض الملاحظات على كتاب الدكتور فؤاد عجمي

ــ تفضّل !

ــ هذا الكتاب كما يبدو لي ، يا معالي الوزير ، شوّهته الترجمة •

ــ صحيح ؟

ــ أجل • وشوّهه أيضا الدكتور طريف الخالدي

ــ ما لي وما للثاني

ــ تُرى من يكون المترجم ؟ أظنه المؤلف نفسه ؟

ــ لا يا مولانا • المؤلف جنوبي « متأمرك » يا دكتورنا •

ــ من أرنون قضاء النبطية ؟

ــ ولو يا مولانا ! من أرنون نعم

ــ ولكنك كتبتَ له التصدير يا معالي الوزير • ألم تقرأه من قبل ؟!

ــ (مرتبكا) هه • قرأتُ الطبعة الانكليزية

ــ إن هذا أمر غير جائز • الكتاب مهم على صعيد التحليل الاجتماعي • كان عليكم أن تهتموا بترجمته وطبعه •

ــ المسؤولة عن « دار الاندلس » (شقيقة زوجة الوزير بري) مسافرة الآن • اتصلْ بي بعد خمسة أيام • أستطيع أن أجمعك باللجنة المشرفة على الترجمة والطبع • نريد اصدار الطبعة الثانية • نرحّب بمساهمتك •

ــ ولكن •••

ـ ولكن ماذا ؟

ـ الامر صعب ...

ـ لماذا يا دكتورنا ؟

ـ عفواً يا معالي الوزير أرجو منك أن لا تغضب

ـ لماذا الغضب ؟

ـ لا تغضب يا معالي الوزير . أنا فلان (...) انتحلتُ اسم الدكتور (ح. ش) لئلا يغيّبوك أو تغيّب نفسك مثلما دائما . ان بيننا كما يظهر سداً منيعا يا معالي الوزير .

ـ هذا السد أنت بنيته

ـ أنا لم أبنِ سدودا يا معالي الوزير . اختلافُ الرأي يجب أن لا يُفسد الود .

ـ (مقاطعا) عندي اجتماع . خرجتُ من الاجتماع لأردّ عليك . حسبت الامر غير ما تقول .

وقبل أن تبرد حرارة الهاتف قلت للوزير :

ـ أعطيك رقم هاتفي .. اتصلْ بي اذا شئتَ يا معالي الوزير .

ـ طيّب . طيّب .

وانتهت « المقابلة » الهاتفية التي ما كانت لتتم لولا « الحيلة » و « الخطف » على الهاتف ، ولولا اسم الدكتور « ح. ش » أيضا .

في جبل عامل أسرار هائلة يكتمها أهلنا منذ مئات السنين ، هي من أبرز أسباب همومنا وآلامنا وأحزاننا وعِقدنا . كشف الدكتور العجمي وكشفنا نحن أيضا عن بعض منها،لا ازدراء واحتقارا لتراثنا وشعبنا،مثلما يحسب الخالدي وسواه ، بل لمعالجتها والتخلّص منها .

قبل خمس سنين وبضعة أشهر كتبتُ الى المغفور له الشيخ الدكتور صبحي الصالح ما يلي :

« كنا (في جبل عامل) نلعن أبا بكر وعمرا وعثمانا ومعاوية ويزيدا . يومذاك كانت قوافل من هذا الجبل تذهب إما الى فلسطين وإما الى بلاد حوران ، لتعود الينا محمّلة بالبضائع ، من كل صنف ولون ، فيما كان يحمل المسافرون في الذاكرة والأعين أخبارا من فلسطين وحوران كأنها الاساطير » .

من هذه الاخبار :

« المتوالي (الشيعي) في بلاد فلسطين وحوران كان يُعرف بالرافضي ، وأحيانا بالكافر . وكان لـ «المتوالي» في تلك الايام ذنب كذنب الكلب أو الحمار . كان أدنى من القرد » .

وكان « اذا سرَق لص حوراني أو فلسطيني بضاعة أو مالا أو متجرا أو قافلة أو قطيعا من الماشية ، كانت التهمة توجّه فورا لـ « المتوالي » ، صاحب « الذنب » ، لان « المتوالي » عند أهل البلاد هو السرّاق والخسيس والحقير والنجس والخبيث والرافضي • وعليه كانت تنزل اللعنات من كل مكان ، حتى من السماء » (٢٠) أيضا •

ولكن الشيخ الصالح ، رحمه الله ، لم يشأ أن يرد آنذاك ، على اعجابه بهذه الرسالة ، بل ظل ينكرني (*) حتى استشهد صباح السابع من تشرين الاول ١٩٨٦ •

وقَبْلها كتبتُ الى الامام موسى الصدر رسائل مطوّلات نشرتُها في بعض الصحف (•••) أعلنتُ فيها خوفي عليه من « ثورته » ومن حلفائه ، فاستعجل ،سامحه

---

(٢٠) مصطفى جحا : جزيرة الكلمات ، الجزء الاول ،طبعة ١٩٨٢ : ص ٢٣٨

(*) عندما صدر كتابه « الاسلام ومستقبل الحضارة » دعا الناشر (دار الشورى) الى حفل توقيع الكتاب في فندق كارلتون ، مساء الثاني من أيلول ١٩٨٢ ، فحضرت الى هناك فتعانقنا ، الشيخ وانا ، طويلا ، ثم تناول نسخة من كتابه المذكور وكتب بخط يده : « الصديق الاستاذ مصطفى جحا مع محبتي وتقديري واعجابي » (التوقيع : صبحي الصالح).

الله ، الحكم عليّ ، وكان جوابه حادا مثلما السكّين عندما قال لي : « لقد خرجتَ عن جلدك » (٢١) •

واستمر الامام يقسو عليّ أكثر فأكثر (ما زلت أذكر كيف ان سماحته رفض أن يمد اليّ يده لأسلّم عليه ،وذلك في الاحتفال الذي أقامه في بيت الطائفة في الحازمية لاستقبال السيد جلال الدين الفقيه ايماني منـدوب المرجع الشيعي الاعلى السيد أبي القاسم الخوئي) (٢٢) حتى امتدت اليه يد الإثم والغدر • ومنذ تلك الساعة السوداء وأنا في حزن ليس كأحزان الآخرين ، ولا هو من النوع الذي يقعدني عن واجباتي ومهماتي التي منها درْس شخصية هذا الامام ومراحل حياته ونشاطاته الدينية والاجتماعية والسياسية •

ومثـل كل مشروع يبدأ بمدماك ، هكذا بـدأتُ دراستي للإمام : خبرا فخبرا ، وكلمة فكلمة ، ورأيا فرأيا، حتى أبصر كتابُ الدكتور العجمي النور•وعندئذ وجدتني كالجندي الاحتياطي الذي يدعى الى ساحة الشرف،والاسباب

---

(٢١) مصطفى جحا : صدى ونغم (١٩٧٦–١٩٧٧)حاشية (١) ص ٥٥

(٢٢) انظر رسالتنا الى المرجع الاعلى : السيد « ابو القاسم الخوئي » ، المنشورة في كتابنا : رسائل من خلف المتراس ، الجزء الاول ١٩٧٧ ، من ص ٢٢٢ الى ص ٢٣٥

كثيرة منها : تضارُبُ الآراء حول مسألة اختفاء الامـــام ، والاقاويل التي تُطلق من هنا وهناك وهنالك ، بعضهـــا يمجِّد ويعظّم الامام ، وبعضها الآخر يدينه حتى « العمالة للمخابرات الدولية » !! وكنتُ أتوقع أن يأتيني كتـــابُ الدكتور العجمي بما يُسعد نفسي الحزينة ويهدّىء عقلي القلق ويُسقط عني واجبا ما زال يلاحقني منذ السادس من أيلول ١٩٧٨ ، ولكنه جاء لا عكس ما كنت أتمنى بل ضعيفا قدماه من خشب أو « بلاستيك » ويداه فيهما رُخوة كأنهما بلا عظام وبلا أعصاب •

لم أر في كتاب الدكتور العجمي ضغينة كما يـــدّعي الدكتور الخالدي ، وهذه الكلمة — على كل حال — هي عندي من أكره الكلمات ولا أطيق تداولها بين الناس • فكيف اذا ما درج على استعمالها مفكرون وأدباء من وزن الدكتور طريف الخالدي وباتت وسيلة للتخاطب فيما بينهم !

ان اقصى ما فعله الدكتور العجمي أنه حاول ممارسة النقد الذاتي على العامليين (شيعة الجنوب) فكشف عن بعض معانياتهم حاملا على زعاماتهم السياسية والدينية ، وأكاد أقول انه « استفرد » بالزعامة الاسعدية حتى الشطط متجاوزا القدْر والحد ، فكأن النكبـــات والكوارث التي ضربت جبل عامل وسائر مناطق الشيعة في لبنـــان هي من

عمل الزعيم الشعبي أحمد الاسعد وولده كامل فحسب • في حين أن الدكتور الخالدي جامل بعض القيادات الشيعية ، وبخاصة الدينيـــة منها ، وادّعى الحبّ للامـــام الصدر والاعجاب بتاريخ جبل عامل والتراث الشيعي ، كما جامل العلويين لغاية لا تتفق والوسيلة •

الواجب الذي تحقق

لهذه الاسباب وغيرها صمَّمتُ على اداء الواجب ، لا للرد على العجمي والخالـــدي بـــل لاعلان الحقيقة كما ظهرت لي بدون تكلّف ولا تصنّع ، فكان هذا الكتـــاب بفصوله السبعة : « النهاية البداية » « لعنة الصحراء » ، « هجرة الثورة » (٢٣) ، « عشية الهجرة » ، « الاجتماعي : السيد » ، « السياسي : الامام » ، « الثورتان » •

وأما مادة البحث الاساسية فهي ما أمكنني الحصول عليه من محاضرات الامام وخطبـــه وأحاديثـــه الصحافية وبياناته (٢٤) ، وما أدركته من علاقاته الدينية والاجتماعية

---

(٢٣) من هنا بدأنا استعمال : « الفارعاملي » بدلا من « الامام » أو « السيد » ، وهي اختصار لكلمة « الفارسي ـ العاملي » .
(٢٤) كنت قد طلبت ، عبر الهاتف ، من مكتب الاعلام لحركة « أمل » ملف الامام فوعدني أحد المسؤولين (...) بارساله الي وقال : « اتصل بي في الاسبوع القادم » . ولما اتصلت به =

والسياسية مع الاشخاص والمؤسسات والاحزاب والهيئات والدول ، الامر الذي كلفني كثيرا من الجهد والوقت كوني لا أستطيع الوصول الى حيث يجب أن أصل . فكان الهاتف ، على رداءة الخطوط ، أفضل السبل ، وما اكثر ما سببت لي صعوبة الاتصال حرق الاعصاب والاضطراب النفسي والتوتر . فالى كل الذين اتصلت بهم وتجاوبوا معي عميق شكري واخلاصي ويا ليت الظروف تسمح بذكر أسمائهم واحدا فواحدا .

وتستند مادة البحث أيضا الى تلك المقابلات التي حققتها مع من قدّر لي التقاؤهم ان في مكاتبهم وان في منازلهم ، وسواء اختلفت آراؤنا أو اتفقت فاليهم جميعا

= في الموعد المحدد رد قائلا: «يؤسفني يا أستاذ ان اقول لك: القضية اكبر مني. لقد وضعوا عليك «ڤيتو». لا تؤاخذني .. انها مشيئة الكبار » وطلب مني هذا المسؤول أن لا اذكر اسمه .

ثم اتصلت بالأمين العام لـ « المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى » الاستاذ محمد شعيتو فابدى تجاوبا شديدا ووعدني بأنه سيحضّر لي في غضون أسبوع ، « أرشيفا كاملا » عن الامام ، الا انه أدخل المستشفى لاجراء عملية جراحية ، ولما رجع الى منزله سالما والحمد لله اتصلت به مطالبا اياه بـ « الأرشيف » كما وعدني ، فجدد الوعد ، ولما تأخر عدت واتصلت به أيضا ، فاعتذر وجدد الوعد مرة أخرى . ولكن الوعد لم ينفذ حتى الآن ؟!

تقديري ومحبتي ووفائي . من هؤلاء كثيرون لم يتحفظوا عن ذكر أسمائهم وقد ذكرتهم باعتزاز كبير وثقة لا تحدّ .

وممن طلبوا الي أن لا اكشف عن اتصالاتهم معي أولئك الذين أمدّوني بالمصادر والمراجع المختصة ، وكذلك الذين تكبّدوا عناء نقلها من المنطقة الغربية الى المنطقة الشرقية ، فكان لهؤلاء وأولئك ما أرادوا لان حبي لهم كبير وكبير جدا .

على أن شكري الخاص هو للذين سمعوا أو قرأوا مقاطع أو فصولا من هذا الكتاب ، وقد أبدى بعضهم ملاحظات سديدة وجليلة كان لي شرف احترامها والتقيد بها . هؤلاء أيضا ، ما عدا الصديق الاستاذ جبرائيل يونس الذي قرأ ثلاثة فصول : الثالث والرابع والخامس، والصديق الدكتور جورج متري عبد المسيح الذي قرأ الكتاب كله ما عدا الفصل السابع ، تحفظوا عن ذكر أسمائهم وللاسباب نفسها المعروفة والمعلومة . في حين قرأ مشكورا الصديق نسيب نمر الكتاب كاملا فكانت له هو أيضا بعض الملاحظات المحقّة والصائبة ، فأكبرت اهتمامه وشمولية ثقافته وشكرته بأن قبلتها واستحسنتها بفرح وسرور . وكذلك أشكر « دار الصياد » و « الاسبوع العربي »

و «المركز الكاثوليكي للاعلام» و «النهار العربي والدولي» و « المكتب الاسلامي » و « بيت المستقبل » و « جهــاز الاغتراب اللبناني» لتزويدي بالمصورات اللازمة والضرورية.

ولن أنسى الجميل الذي أسداه الي السيد جوزف واكيم وقد أعارني لبعض الوقت ثلاثة كتب من تأليف أو اعداد شقيقـه البـاحث والمؤرخ الدكتور سليم واكيم ، أعانتني على وضع جزء من دراستي .

ولما ذهب الكتــاب الى المطبعـة جبهتني الصعوبات والشدائد الناجمة عن غلاء سعر الورق من جهة ، وارتفاع تكاليف الطبع والتجليد من جهــة أخرى ، وكدتُ أن لا أغامر في طبعه لولا كرم الاصدقـاء وحبهم للكلمة الحرة والصادقـة والشجاعــة ، فليسمحوا لي بأن أشكر لهـم عاطفتهم النبيلة والسخية . وانني لعلى ثقة بأنهم يدركون جيدا اخلاصي ووفائي .

مصطفى

الفصل الأول

النهايةُ البدايةُ

" سأل جابر بن عبدالله الأنصاري النبي (ص) : هل ينتفع الشيعة بالقائم في غيبته ؟ فقال (ص) : أي والذي بعثني بالنبوة انهم لينتفعون به ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وان جللها السحاب ".

بحار الأنوار للمجلسي ج ٢ ل ص ٩٣

تمهيد :

نبدأ من « غيبة » الامام موسى الصدر ، لا لان الستار قد أُسدل على جانب من جوانب قصة هذا الامام، وانتهت مرحلة من مراحل التاريخ الشيعي ، كما يحسب الدكتور فؤاد عجمي [1] ، بل لانه من « الغيبة » يبدأ الامام ، وعليها يتكىء تاريخ المعارضة الاسلامية المكتوب بالدم والمشحون بالنكبات .

ومما لا جدال فيه ، بالنسبة الى الإماميين ، كل الاماميين ، هو ان في « الغيبة » حكمة الله وتقديره ، ولها فوائد ومصالح ثابتة ومعلومة .

وكونُ الامام « المغيَّب » السيد موسى الصدر ، موضوع بحثنا ، هو شيعي تحديدا ، قررنا أن نكتفي ، هنا، بما أجمعتْ عليه المصادر والمراجع الشيعية، بخصوص غيبة المهدي التي يُعتبر الايمان بها والجهاد بين يديه ،

---

(١) الإمام المغيَّب : ص ١٧

غائبا وحاضرا ، من أركان عقيدة الشيعة الاثني عشريين ، على ان هنالك تقاربـا ملحوظا وشديدا بين مفهوم هذه الطائفة ومفاهيم الفِرق الامامية الاخرى ، ولا سيما منها الاسماعيلية السبعية ، للمهدي والغيبة وقيامة القائم •

ومن الكتب الحديثة التي يمكننا الاعتماد عليهـا : « الامام المهدي وظهوره » [٢] لمؤلفـه « أقل المتمسكين بحبل ولايته» السيد حسين الحسيني آل علي الشاهرودي، وفيه يقول عن الحكمة في غيبة المهدي ما يلي :

« قد يقع في النفس ما هي العلة في غيبة الحجة (ع) ، ولمـاذا لا يكون ظاهرا بين الناس يصبح ويمسي ويمشي في الاسواق كما كان كذلك أجداده الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين » •

أضاف :

« يتضح لك هذا وغيره من كل ما يجري هذا المجرى (من معرفة فلسفة الاحكام) ببيان مقدمة موجزة : وهي

---

(٢) ٣٦٦ صفحة من القياس الكبير . دراسة روائية تتناول حياة المهدي وغيبته الصغرى والكبرى ونهضته . طبعـة أولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ ، مكتبة دار الارشاد ، الكـويت ـ السالمية .

انه بناء على ان الله تعالى حكيم لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء ولا يفعل شيئا الا عن مصلحـة كما هو مقرر في محله وان تلك المصالح ترجع الى المكلفين (كما هو مذهب أهل الحق) اذ لا نقص ولا احتياج في ساحته المقدسة وهو غني" مطلق فأفعاله تعالى كلها جارية على وفق المصالح وهذا بلا فرق فيما عرفنا تلك المصلحة أو لم نعرف » •

وقال :

« ومن الامور المعلومة التي يعرفها كل أحد انه يقع في هذا حوادث اختيارية وغير اختيارية ، ولا بد وأن تكون بتدبير منه تعالى بل وانشائه • ومن أهم تلك الامور غيبة المهدي المنتظر ، فلا بد وأن تكون جارية على وفق المصلحة والحكمة أدركنا ذلك أو لا » [٣] •

ويستند الشاهرودي الى ما رواه الصدوق ، في كتابه « علل الشرايع » ، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي القائل : « سمعت الصادق جعفر بن محمد (ع) يقول : ان لصاحب هذا الامر غيبة لا بد منها يرتاب فيها كل مبطل ، فقلت له : ولِمَ جُعلتُ فـداك ؟ قال : لامرٍ لم يُؤذن لنا كشْفُه (على التفصيل) لكم ، قلت : فما وجهُ الحكمة في غيبته ؟ قال : وجهُ الحكمة في غيبته (يعني على سبيل الاجمال)

---

(٣) الامام المهدي وظهوره : ص ١٦٢

في غيبات مَن تَقَدَّمه من حجج الله تعالى ذكره ، ان وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف الا بعد ظهوره كما لم ينكشف وجهُ الحكمة لما أتاه الخضرُ (ع) من خرْقِ السفينة وقتلِ الغلام واقامة الجدار لموسى (ع) الاّ وقت افتراقهما ، يا ابن الفضل ان هذا الامر أمرٌ من أمر الله وسر من سِرّ الله وغيبٌ من غيْب الله ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم صدّقنا بأن أفعاله كلها حكمة وان كان وجهها غير منكشف لنا » (٤) .

أما فوائد غيبة المهدي فكثيرة ومنها : « مجازاة الشيعة وتأديبهم بل وتأديب غيرهم » (٥) ، و « الاستقلال بالامر والحرية في الدعوة » (٦) ، و « امتحان العباد بغيبته واختبار مرتبة تسليمهم لكشف حالهم » (٧) ، و « تكميل النفوس وتهذيبها » (٨) .

وفي كل الاحوال ، فان الثابت ، عند الشيعة ، هو ان « أهل البيت عليهم أفضل التحية والسلام لاقوا أشدّ أنواع الاذى والشدائد من أسْر وقتْل وحبْس وصلْب

---

(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر نفسه : ص ١٦٥
(٦) المصدر نفسه : ص ١٦٦
(٧) المصدر نفسه : ص ١٦٧
(٨) المصدر نفسه : ص ١٦٨

وتشريد ونفي عن الاوطان مع عدم قيام الامة بواجب حقهم الذي أمرَهم الله تعالى به وجعله أجرَ الرسالة » (٩) . وبحيث أن « المهدي المنتظَر قد أحاط علمه بجميع تلك الاخبار ، وعلم أن تلك الاعمال ستكون بالنسبة اليه أشدّ وأقسى وأمرّ لما علموا من سيرته (ع) وأنه يخرج بالسيف فاعتزل واختفى حتى لا يعاملوه معاملة آبائه وأجداده الكرام ، ولم يفعل ذلك الا تأديبا وتنبيها للامة » (١٠) .

فاذا ما سلّمنا بأن « غيبة المهدي » هي ميزان عقيدة الشيعة وجوهرها ، قد حدثتْ عندما انشغلت الامة عن « القيام بواجبها تجاه الرسول او الامام من الامتثال لاوامره ونواهيه ومعاونته » (١١) بل هي عصتْه وتجاوزت الحد الى أن صارت تؤذيه بكل وسيلة » (١٢) ، فمعناه أن « غيبة » الامام الصدر قد فرضتها الاسباب عينها ، بصرف النظر عن اختلاف الزمان والمكان والاشخاص أيضا ، ولذلك فهي إما انها من علائم ظهور المهدي ، وإما تدبير سياسي هادف وخطير .

ان هذا ما قصدنا كشفه وتبيانه، بما استطعنا تحصيله

---

(٩) المصدر السابق : ص ١٦٥
(١٠) المصدر نفسه
(١١) المصدر نفسه
(١٢) المصدر نفسه

من أخبار ومعلومات صالحة ومفيدة ، وليس من غاية لنا سوى خدمة الحقيقة ، الامر الذي جعلنا نسلْك الطريق الناهجة ولو ركبْنا الصعاب والاخطار .

القرار

من المفترض أن يكون الامام موسى الصدر قد ألقى عشية سفره الى ليبيا نظرة ولو خاطفة ، على أحداث الرابع والعشرين من آب ١٩٧٨ . ولكن اصراره على مقابلة العقيد القذافي يجعلنا نعتقد أن الامام لم يعالج الاخبار الامنية والسياسية بدقة وهدوء على عادته . وأنّى له أن يفعل ذلك وهو صائم من جهة، وبعيد" عن أسْرتِه المهجَّرة في باريس ، حيث تعاني زوجته السيدة « أم صدري » ألما حادا في الرأس من جهة أخرى ؟ كما لا يُستبعد أن تكون مواعيد ذلك اليوم اكثر وأهم ربما من أي يوم مضى ، ولا سيما ان الامام على سفر خصوصا الى عند العقيد « المزاجي » و « المجنون » معمر القذافي .

فمنذ أعلن الامام عن تسلمه دعوة رسمية لزيارة الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، والنصائح تنهال عليه من كل مكان ، وبخاصة من المقرّبين اليه و «الصدّيقين» ، أصحاب الآراء والاجتهادات والامكانات المادية والمعنوية ، وكلها أجمعتْ على أن هذه الرحلة لن

تكون سعيدة ولا موفّقة . فخاف وارتبك ، الا انه استطاع المحافظة على جزء غير قليل من ثقته بنفسه ، مما جعل الشيخ محمد شحادة يعقوب عضو المجلس الشيعي الاعلى والصحافي عباس بدر الدين صاحب « وكالة أخبار لبنان » يوافقان على مرافقته .

تترك الامام الصدر يدبّر أعماله ومواعيده ، لننظر الى أحداث الرابع والعشرين من آب ١٩٧٨ ، وما تخبئه من خوف على الوطن والحرية والمصير .

تقول التقارير السياسية ، في ذلك اليوم : « ان الحكم أدرك انه في سباق مع الوقت ... والا أفلت زمام الهدنة من يديه ... وعادت ترزح مجددا تحت رحمة الحوادث المتلاحقة من الجنوب الى الشمال ، وتلتف حول العاصمة ثم تمتد الى داخل شوارعها وضواحيها ، فيصعب اذ ذاك ضبط الوضع ، فيقتضي عليها العمل مجددا من نقطة الصفر » .

وتقول أيضا :

« من هنا ، كان الانشغال بهذه الامور مجتمعة ، عنوانا للاجتماعات في قصر بعبدا..وفي السرايا، واستعجال حسم الحوار مع الولايات المتحدة حول الوضع في

الجنوب ... وتحقيق تقدم على صعيد الاتفاق على قانون الجيش قبل الوصول بمناقشته الى المجلس النيابي عبر اجتماعات اللجان المشتركة ، وتجديد موعد زيارة وزير الخارجية والدفاع السيد فؤاد بطرس الى دمشق ، لاقرار خطة عمل مستقبلية تتضمن حلولا أمنية وسياسية ، قبل أن تتجاوزها اية تطورات جديدة ، فتسعى الدولة لتنفيذها بعد فوات الاوان »(١٣) .

وعلى صعيد الامن ، فقد توتّر الوضع في الشمال ، اثر مقتل ثمانية أشخاص في كمين مسلح وقع على طريق كفتون ـ بقسميا التي تصل بين الكورة والمنطقة الوسطى من قضاء البترون (١٤) .

ومن بلدة فالوغا (قضاء المتن) وردت أنباء عن وقوع حادث هناك أدى الى مقتل خمسة من أبنائها ... الا انه تبين فيما بعد أن شجارا وقع في البلدة بسبب خلاف بين ولدين ، ما لبث ان امتد الى ذويهما ... فاشتبكوا بالعصي

---

(١٣) انطوان خوري : وأخيرا حرقوه (حوادث لبنان ١٩٧٧ـ ١٩٧٨) الجزء السادس ، الطبعة الاولى ١٩٧٨ ، ص ص ٤٢٠/٤٢١.

(١٤) المصدر نفسه

والمدى وأسفر الحادث عن وقوع خمسة جرحى من الفريقين . وما كان لقوات الردع العربية الا ان قامت بالقاء القبض على ستة أشخاص اتهموا بأن لهم علاقة بالحادث المذكور (١٥) .

ان هذه الوقائع الخطيرة والمثيرة ، التي سبقها منذ فترة اغتيال طوني سليمان فرنجية في اهدن ، لم تثنِ الامام الصدر عن « مشروعه » فكأن حل مسألة الجنوب بل المسألة اللبنانية هو في ليبيا فعلا !

لقد مضى ذلك النهار الحار والمثقل بالاشغال سريعا، على عكس الايام التي تسبق المواعيد التي نحبها . فصعد الامام الى كيفون ، وهي قرية شيعية من أعمال عاليه ، وفي المنزل الصيفي لصديقه ، بل أمين سره ، التاجر أحمد علي اسماعيل ، صلّى وأفطر ، وعلى الشرفة سهر مع النسمات الناعمة التي كانت تتحرك وتهب بلطف من وقت الى آخر . وفيما كان الامام يقرأ بعض الادعية الرمضانية ، ذهب به الخيال بعيدا وبعيدا ، فتجاوز عاليه وبيروت ، الى طرابلس الغرب ، ثم الى باريس ، وربما الى طهران أيضا . فمرة يجد نفسه في حضرة العقيد معمر القذافي هاوي «النضالات

---

(١٥) المصدر السابق .

الثورية» (١٦) ومؤسس مصرف خاص لتمويل حركات التمرد في العالم (١٧) ، يرد على أسئلته الصعبة والمعقّدة ، ومرة أخرى يحسب نفسه في منزله الباريسي ، الذي اختلف في وصفه الصحافيون ، فقال بعضهم : هو منزل صغير ومتواضع.وقال البعض الآخر:هو اكبر من «فيللا»وأصغر من قصر . ومهما يكن هذا المنزل ، فالقضية بالنسبة الى السيدة « أم صدري » هي أهم من القصور وأهم من شوارع باريس وأحيائها كافة . فـ« الست » هناك غريبة، ومريضة ، بل هي صريعة الأفكار الهائلة والمروعة التي تأتيها لا من لبنان فحسب ، بل من ايران أيضا حيث الاهل والاقارب . ويتخيلها الامام ، الذي في كيفون ، تبكي وتصرخ : ما هذه الحياة يا « ابو صدري » ؟! لا أريد باريس . لا أريد هذا العالم الصاخب والمسعور . خذني الى بيروت ، الى مدينة الاشباح والموت والدمار . خذني الى قم . أريد أن أحيا . تكاد الغربة أن تدمرني وتقضي علي . انقذني بربك يا موسى . خلّصني . لست أدري لماذا تغمرني الهواجس والاحزان.انني لاشعر بأن مستقبلي بات مهددا . أنا لا أعرف كيف ؟ ولا لماذا ؟.

الامام ، على الشرفة في كيفون ، مستسلم لخياله .

---

(١٦) الياس حرفوش : الحوادث ٧/٤ ١٩٧٨

(١٧) المصدر نفسه

ترك الدعاء . الصورة مزعجة . فتح عينيه الكبيرتين .. ثم أغمضهما ، ثم أعاد فتحهما ، ثم أغمضهما ، فتراءت له طهران ، وزلازل العنف التي أخذت تضرب النظام الايراني على موجات متوالية منذ حوالى عشرة أشهر (١٨).فالاخبار الآتية من بلاد « آيات الله » متضاربة ومتباينة . والمراقبون يتوقعون أن يتنازل الشاه عن العرش لولي عهده وولده الامير رضا ، مثلما فعل والده وتنازل له عام ١٩٤١ اثر دخول الحلفاء الى ايران ، وصار بنعمة الله والذين بيدهم السلطان ملكا ثم امبراطورا . وعلى قول المراقبين ، بعض المراقبين ، فان هذه التسوية ، التي هي أحسن الاسوأ ، اذا نجحت ، يأتي الامير رضا ، ابن السابعة عشرة ، لا ليكون سِرّ أبيه ، بل ليمسح ، أو ليمسحوا له أخطاء أبيه ، مقابل أن يبقى النظام ، ويبتعد الخطر الاحمر عن الخليج (١٩) . الصورة أيضا مزعجة : من شاه الى شاه . لا . الثورة أبعد من هذا . الثورة لن تهادن ، ولن تصالح، ولن تخلع امبراطورا ليخلفه امبراطور . الحاكم الآتي هو الفقيه وليس الملك ، أيا كان هذا الملك ، ومهما يكن بريئا. قال الامام هذا محدّثا نفسه ، ثم حكّ جبينه ،وفرك رقبته، متحسسا التعب والارهاق . لاحظ هذا أحمد اسماعيل ، فدخل لينام ، فقال الامام : وأنا أيضا أريد أن أنام .

---

(١٨) الحوادث : ١٩٧٨/٨/٢٥

(١٩) المصدر نفسه

لم يرغب الامام في القراءة ولا في الكتابة • لانه
بحاجة الى النوم فعلا • ولما أغمض عينيه عاودته «الصور»
الليبية والباريسية والطهرانية نفسها ، فتضايق ، وتمنى
لو تفارقه • و حاول أن ينام ولو لساعة ، نصف ساعة ،
ربع ساعة ، وانما عبثا فعل • حينئذ أخذ يستعرض الحالة
السياسية في عاصمة السجاد وثورة العمائم ، فظهر له ان ما
يطمئن ويعزز الآمال هو ان اللعبة في ايران ، حتى يوم
أمس (٢٣ آب) ، هي لصالح المعارضة اكثر منها لصالح
الشاه ، لان قوى المعارضة ، على تنافرها العقائدي ، اكثر
تماسكا من قوى النظام • ففي حزب « راستا خيس »
ــ مثلا ــ اكثر من تيار • وفي جهاز « سافاك » روح
تململ ، وبلبلة ، ووعود الشاه باصلاح ما أفسده
« الآخرون » تأتي متأخرة بعض الشيء [٢٠] • وما وعده
(الشاه) باطلاق حرية الشعب الا مصيدة لا بد من أن
يقع فيها ، وربما قبل أن يعود من قصره الصيفي «ناوشهر»
المشرف على شاطىء بحر قزوين • وحسبما قيل فان
الامبراطور قد ذهب الى هذا القصر ليعتكف فيه أربعين
يوما وليلة ، يقرأ التقارير ، ويناقش المسؤولين ، على أمل
أن يمسك بخيوط الازمة بعدما فشلت جميع أجهزته في
السيطرة عليها [٢١] •

---

(٢٠) المصدر السابق •
(٢١) المصدر نفسه

وبينما الامام يعيش بخياله المضطرب والهائج هذه
اللحظات العنيفة والقاسية ، فاجأه المؤذّن من مسجد
كيفون : الله اكبر • الله اكبر • وحيي على الصلاة • حيي
على الفلاح • حيي على خير العمل • اذ ذاك أدرك ان
الليل قد انتهى ، ونا الموعد مع ليبيا القذافي بات وشيكا •
فقام الامام من السرير ذي الفراش الناعم والوثير ليتوضأ
ويصلّي •

بعد الصلاة ، قرأ الامام « دعاء كُميْل » ، ثم تلا
آيات الوعد : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد
الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من
آياتنا انه هو السميع البصير • وآتينا موسى الكتاب
وجعلناه هدى لبني اسرائيل الاّ تتخذوا من دوني وكيلا •
ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا • وقضينا
الى بني اسرائيل في الكتاب لتُفسِدُنّ في الارض مرتين
ولتعلُنّ عُلوا كبيرا • فاذا جاء وعد أُولهما بعثْنا عليكم
عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان
وعدا مفعولا • ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددنا لكم
بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيرا • ان أحسنتم لانفسكم
وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم
وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرّوا ما علوا
تتبيرا • عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا

جهنم للكافرين حصيرا . ان هذا القرآن يهْدي للتي هي أقْومُ ويبشر المؤمنين الذين يعملــون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » [٢٢] .

لقد طلب الامام من أحمد اسماعيل أن يرافقــه في السفر هذه المرة أيضا . وخلافا للعادة لم يلق طلبه تجاوبا ، ذلك لان « أبو غياث » قد سئم من السفر ، وتأخر كثيرا عن مؤسسته ، وبخاصة خلال الرحلة الاخيرة التي شملت بعض البلدان الاوروبية . فاقتنع الامام ، وترك لاحمــد حريته على أن يتصل (أحمد) بالدكتور مالك بدر الدين ويدعوه للانضمام الى الوفد المرافق ، واذا « الحكيم » مالك مريض ، وقد أقعده « الديسك » عن العمل والسفر وحتى عن المشي ، فقبل اعتذاره بدون وسائط . وهكذا اقتصر الوفد على الامام والشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين .

ليس بين رحلات الامام ، على كثرتها ، الشرقية منها والغربية ، ما يشبه الرحلة الى ليبيا. فالانصار والمعاونون، كما عُرف عنهم ، كانوا يتسابقون على كسب « رضا » الامام ، عند كل مشروع سفر . وأيهم لا يريد لنفسه هذا « الشرف » وهذا « الحظ » ! ما عدا الرحلــة السوداء

---

(٢٢) الإسراء : ٨/١

الغامضة والمريبة . فهذه كرهها الجميع ونفروا منها نفورهم من الموت أو ما يقاربه . فمن دعي منهم رد قائلا : اسمح لي يا مولانا هذه المرة . أشغالي كثيرة ، وعنــدي بعض الارتباطات مما لا يمكنني تأجيلهــا . وكان الامام يتلقى الردود بصمت وحزن بالغين . الا العقيد عباس مكي [٢٣]، الذي نشأت على يده ميليشيا حركة « أمــل » ، ولكنــه وصل المطار بعدما كانت الطائرة التي تقل الامام ورفيقيه قد أقلعت وطارت ، فصح فيه المثل : فاته القطار ، بل فاتته الطائرة . والخطأ ليس من صنع العقيــد ، اذ هو كان في الضاحيــة الجنوبية من بيروت ، عندما اتصل به أحدهم ليبلغه طلب الامام اليه بالسفر معه الى ليبيا ، فقال العقيد عندئذ : « أنا حاضر . ولكن ليس لدي سائق يأخذني الى المطار . فابعثوا الي بسيارة اذا أردتم » . فوعده الذي اتصل به ان يرسل سيارة من عند الامام .والاخير قيل له ان العقيد عباس سيأتي الى المطار في الوقت المحدد . وعلى ما يبدو وقع التباس أو سهو أو خطأ ، عن قصد أو غير قصد، فكان ما كان . فعتب العقيد وحزن لما حدث ، وقال لابي غياث : أراكَ فوّت علي فرصة كم انتظرتها ! فرد أبو غياث:

---

(٢٣) عيّنه الإمام عام ١٩٧٥ رئيس اللجنة المركزية للخدمات والنوادي للشبيبة التابعة أو المنسقة مع حركة « أمــل » وكافة الشؤون الرياضية والكشفية .

لم أقصد هذا أبدا يا أبا غسان ، وانما هي الظروف فحسب (*١) .

في تمام الساعة التاسعة صباحا ، أقلعت سيارة أبي غياث «الكاديلاك» العسلية من كيفون باتجاه عرمون حيث منزل السيد حسين الحسيني ، وهي تقل الامام وأمين سره. الامام قرأ : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا » (٢٤) . الاخبار التي تبثها الاذاعات مشوشة وغير واضحة . وهي صورة عن الاجواء السياسية العامة ، المحلية ، والعربية ، والدولية . انها تنذر بانفجار قريب ومروّع . الامام تذكّر كمال جنبلاط . هو لم يقل شيئا بخصوصه لابي غياث . الطريق طويلة . الطريق قصيرة . كل دقيقة تمر انما هي من عمر الامام . من الذي يتحدى مترين من اللحم والعظم والايمان ؟ اليد التي ستمتد الى الامام لم تُخلق بعد ولن تُخلق . في وسط عرمون قال الامام لأبي غياث : رحم الله ايام عرمون .. واللقاءات الاسلامية والوطنية . رد أبو غياث : فعلا يا مولانا . رحم الله تلك الايام . ثم قال الامام : يجب أن نكون في « دار

(*١) نقل الي احدهم ان هذا الحديث بين العقيد مكي واحمد اسماعيل لم يجر من دون أن ينفي بقية التفاصيل ؟؟

(٢٤) يس:٩ والآية كاملة هي:« وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم وهم لا يبصرون » .

الزهراء » قبل العاشرة والنصف . الاخوان سيأتون الى هناك .

ووصلت « الكاديلاك » الى امام منزل السيد حسين الحسيني الذي كان ينتظرهما . لقد تصفح الحسيني الجرائد .. وسمع الاخبار جيدا . وما دام غير ذاهب الى ليبيا فنظرته الى الاحداث لا بد انها تختلف عن نظرة الامام . السيد متشائم جدا ، والامام متفائل جدا . ولطالما تفاءل الامام ولكن كثيرا ما خيبت الأحداث والظروف آماله وأمانيه . من منزل الحسيني أجرى الامام بعض الاتصالات الهاتفية مودعا أصدقاءه من رجال الدين وأعضاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى . لا وقت للمناقشة . ما يجب أن يُقال فلنقله في « دار الزهراء » قال الامام للسيد، وأشار الى أبي غياث أن هيا . الوقت يكاد أن يفوتنا . صحيح ان خلدة ليست بعيدة ... ولكن الصحيح ايضا هو ان النهار قصير جدا . انه ، كما تعلم يا أبا غياث ، نهار غير عادي : اللقاء مع الاخوان .. والسفر .. والله يوفق. وتابعت «الكاديلاك» طريقها نحو خلدة زاهية ومتكبرة.

لقد دُعي بعض قياديي حركة « أمل » الى الاجتماع في « دار الزهراء » ، لالقاء اللمسات الاخيرة على ملف الجنوب الذي يحمله الامام الى « عاصمة الارهاب »

طرابلس الغرب ، ولتوزيع الادوار على القياديين في غياب الامام القائد •

الى « الزهراء » ــ كما يدعونهــا أيضا ــ وصل في أوقات متفاوتة الدكتور حسين كنعان مدير المكتب المركزي للحركة،والدكتور حسين يتيم،احد المسؤولين عن الشؤون الثقافية المختصة بالحركة ، والعلاقات مع النقابات المهنية ، والشيخ محمــد يعقوب ، والاستــاذ عباس بدر الدين • والاخير جاء حوالى الساعــة الثانية من بعد الظهر ، في سيارته التي كان يقودها بنفسه والى جانبه زوجته السيدة زهرة يزبك بدر الدين وابنة شقيقتها الآنسة دينا يزبك ، وهما أتيا معه ليودعاه ، مع ان السيدة زهرة لم يكن قد مضى على خروجها من المستشفى سوى اسبوع واحد فقط لا غير •

ربما لن يفيدنا استعراض وقائع اجتماع «الزهراء» ، بل اجتماع الخامس والعشرين من شهر آب ١٩٨٧ ، ما دام القرار الذي اتخذه الامام هو الاهم والاخطر •

وعلى كل ، لم يكن الاجتماع صاخبا مثلما يعتقــد البعض • ولماذا الصخب والانفعال ، اذا كان لا مبرر لهما ؟ أجــل ، لقد كان الحاضرون متخوفين من الرحلــة وانما بحدود • فهؤلاء اعتقدوا أن الزعيم الليبي ربما لن يستقبل

الامام ، واعتقــدوا أيضا ان لا نتائج ايجابية للزيارة على صعيد الجنوب • وبالتالي ، فهي أيام وتنتهي ويعود الوفد بعد أن يكون قد قام بواجبــه • المهم أن يبقى الامــام والشيعة على اتصال دائم مع القذافي •

ان أحدا من الــذين كانوا في « الزهراء » لم يفكر اطلاقا في ما جرى للامام ورفيقيــه • الامام اكبر من أن يتطاولوا عليه • واكبر من أن يعتدوا عليه • فلماذا الخوف اذن؟ وعلى ما قيل، فان اجتماع «الامليين» أو «الصدريين» لم يتجاوز الساعــة ، اذ ان القضايا التي بُحثت ، هي في معظمها واضحة ومبَسَّطة ومعروفة• وقد بدا الامام مرتاحا لما سمع من ملاحظات وتعليقات صدرت عن بعض الحاضرين• وباختصار فان الرحلة الى ليبيا ، وبخاصة في هذا الوقت ، لا بد منهــا • قال الامــام هذا ، فرد الحاضرون بصوت واحد : الله يوفق •

بعدما فُضّ الاجتمــاع ، التقى عباس بدر الدين حسين يتيم على الدرج • قال الاول : أنا خائف من هذا المشوار يا دكتور حسين • ليتك تقول للامام لو يؤجله ، أو يسمح لي بالرجوع الى منزلي • رد يتيم : أنت اقرب مني الى الامــام • والافضل ، في رأيي ، أن تفاتحه أنت بهذا الموضوع • فسكت عباس ، بينما تابع يتيم طريقه •

في هذا الوقت ، دخل عليهم السيد عباس الحاج ، من وجهاء الشياح، والمشهور بولائه للرئيس كميل شمعون، بطربوشه « المدوزن » وقامته الضخمة والشديدة، فوجدهم يستعدون للذهاب الى المطار . سلّم عليهم وقال موجها كلامه للامام :

— اراكم على سفر يا مولانا ؟

الامام : ان شاء الله .

عباس الحاج : الى أين يا مولانا ؟

الامام : الى ليبيا .

وهنا صرخ عباس مستغربا : الى ليبيا ؟ الى عند اللئيم والمجنون القذافي ؟

الامام : مهلا يا عباس . لا شيء يدعو الى هذا الكلام .

عباس الحاج : هذا الرجل غدار وحقير . يجب أن يكون قد دبّر لكم مكيدة يا سماحة الامام . الناس هناك (في ليبيا) يكرهون الشيعة منذ أجيال وأجيال . وعلى قول المثل : كاره أبيك كيف يحبك . أرجو منك يا سماحة الامام أن تؤجل هذه السفرة . أنا خائف عليكم من

كلاب الزمان . خائف عليكم من الغدارين والحاسدين والناقمين .

ضحك الامام من الرجل « الفج » و « العفوي » عباس الحاج ، وسار باتجاه « الكاديلاك » ، فسار معه البقية (*٢) . ونظر الامام الى ساعته فقال : الوقت قد حان ... صار يجب أن نذهب الى المطار .

سيارة « الكاديلاك » العسلية تنتظر . والحقائب تنتظر . الامام وأحمد اسماعيل والشيخ محمد يعقوب وعباس بدر الدين الى « الكاديلاك » . الآخرون كل الى سيارته .. والمطار قريب . ويفترض أن يكون قد وصل الى المطار القائم بأعمال السفارة الليبية محمود محمد بن كورة ، وبعض « الصدّيقين » و « الصدريين » .

قبل أن يعلن « مدفع رمضان » موعد الافطار بثلاث ساعات تقريبا ، انطلقت الطائرة الى ليبيا ، لتبدأ الرحلة التي لم تنته بعد .

(*٢) اطلعت احد مرافقي الامام على هذه الرواية ، فقال انها تمت عبر الهاتف بين سماحة الامام والسيد عباس الحاج، وذلك باتصال الثاني بالامام تليفونيا ، عندما كان الامام لا يزال في منزل السيد حسين الحسيني في عرمون .

على الارض بقي طربوش عباس الحاج و «كاديلاك» أبي غياث يزهوان حتى أخذت تتسرب أخبار المأساة التي طوت عهدا وفتحت عهدا جديدا!! وكما خسرت «الكاديلاك» عزها ومجدها ، كذلك خسر رجال كانوا « الرسل » و « الحواريين » كل ما عندهم حتى الاحلام ، وربح رجال كانوا في « الظل » أو « مجهولين » كل شيء حتى القيادة والقرار .

الهبوط الحيوي

قبل الكلام عن الرحلة وظروفها وما آلت اليه ، هنالك ثلاثة أسئلة ما زالت تشغل الكثيرين منا ، هي :

ـ لماذا لم يتراجع الامام عن « مشروعه » ؟

ـ ألم يكن باستطاعة قياديي حركة « أمل » وأعضاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى صرف الامام عن مقابلة القذافي ؟

ـ كيف أقنع الامام نفسه ثم الشيخ محمد يعقوب ثم عباس بدر الدين بأن انقاذ الجنوب سيأتي من ليبيا ؟

سنحاول الرد على هذه الاسئلة بطريقة الاستقراء والاستنباط ، وعسى أن يكون جوابنا معقولا ومقبولا .

يرى عارفو الامام ان مقابلة القذافي ، على الرغم من

خطورتها ، لا تحمل أسبابا غير عادية وغير معروفة . وعلى قولهم ، فان اللقاء بينهما مهما عصف فلن يفشل الامام في الدفاع عن وجهة نظره ، ولسوف يُظهِر للزعيم الليبي انه على حق ، وعندئذ تُصحَّح العلاقات المضطربة نوعا ما بينهما ، وتأخذ سياسة القذافي في لبنان منحى الاعتدال والتعقل .

وعند أهل هذا الرأي ، كما يقولون ، براهين كثيرة ، بل ان يقينهم قاطع لا يحتمل الشك ولا الريب . ويقول هؤلاء : لو عُدنا الى رحلات الامام العربية ، ونظرنا الى وقائعها وبالتالي الى نتائجها ، فاننا لن نجد ما يدعونا الى القلق أو الحذر من أي لقاء يعقده الامام،أينما كان ، ومع أي كان ، ولا سيما في ليبيا . وليست علاقته بملوك العرب ورؤسائهم الا واضحة وصريحة . وبشهادة معظم هؤلاء وأولئك فان الامام لقوي الحجة وصاحب منطق وشجاع ومخلص لقضيته : الاسلام . على ان الامام لا يفرّق بين الدين والسياسة . وان أقصى غاياته أن يحقق المسلمون سياسة اسلامية تقوم على الوحدة الاسلامية والعدالة والكرامة ورضا الله .

ويقول عارفو الامام أيضا : لقد وشى خصوم الامام به الى الملوك والرؤساء العرب ، وأعملوا المكر فيه ،

ودسوا عليه في كل مكان ، لكي يتخلصوا منه ، وتفرغ الساحة اللبنانية ، على الوجه العام ، والجنوبية على الوجه الخاص ، من هذا الضمير الحي ، والوعي الاسلامي الفذ والنادر ، ويستفردوا بالارض والعرض والكيان • بيد ان الامام كان أقوى من دسائسهم وأحقادهم وضغائنهم • وأقوى أيضا من ألاعيبهم وحيلهم وأكاذيبهم • فهو صادق وشريف وأمين ، وهم كذبة وخونة ولصوص •

ويمضي أنصار الامام في استعراض المواقف الجريئة والحاسمة التي اشتهر بها الامام فيقولون : من المعروف ان مجموعات من المغتربين الجنوبيين ، الذين جلبوا ثروات طائلة أو متوسطة من أعمالهم التجارية الصعبة في ديار الاغتراب ، قد تنادت لانشاء تنظيمات جنوبية مسلحة لمقاومة الاخطار التي تهدد المنطقة، واختيار عناصرها ورصد الموازنات المطلوبة منها • ولما توجه بعض هؤلاء الى بيروت، وطلبوا موعدا لمقابلة الامام، في مقره في الحازمية، استقبلهم واستمع الى وجهة نظرهم • واطّلع على التخطيط الاولي لمشروع تسليح الجنوبيين ، فانتفض الامام غاضبا وقال لزائريه وهو يهم بالوقوف :

« أنا أرفض اعتماد مثل هذه الوسائل لمعالجة مشكلة الجنوب وأرفض مجرد التفكير في دفع الجنوبيين الى حمل

السلاح كما تقترحون ، لانني لا أريد أن تحمل الطائفة الشيعية أمام الاشقاء العرب وأمام التاريخ وزر الإقدام على ضرب المقاومة الفلسطينية او ابادة الشعب العربي الفلسطيني ، الذي يقاتل من أجل استرداد حقوقه • واعتقد ان هناك وسائل أخرى غير حمل السلاح لمحاربة التجاوزات » [٢٥] •

وفي مناسبة أخرى ، قال الامام بصراحته المعهودة :

« يخطىء كثيرا من يظن أنني أسير ضد الفلسطينيين، فأنا معهم عقلا وقلبا ، وجهدا • لكنني فقط أطالب بضبط النشاطات المسلحة ومنع التجاوزات والتوقف عن ممارسة النشاطات غير المجدية حتى لا نسبب في وقوع المزيد من المآسي وحتى لا نعطي اسرائيل وأعوانها ذرائع جديدة للاعتداء على الآمنين وهذا أمر متفق عليه مع ياسر عرفات لكنه لا ينفذ على الارض كما هو مطلوب بسبب تضارب الآراء وتعدد القيادات » [٢٦] •

وبالرغم مما تقدم ظل خصوم الامام ، حسبما يقول « الصدريون » وأصدقاء الامام ، يوغرون صدور الحكام ضد الامام ونهجه وتطلعاته ، مما دعاه الى مواصلة زياراته

---

(٢٥) ريمون عطاالله : الحوادث ١٩٧٩/٦/٨
(٢٦) المصدر نفسه

للدول العربية ، من أجل احباط مؤامرات الاعداء وكشف
نياتهم ، ومن أجل أن يخذل مفاسدهم أيضا ، في حين ان
أصحاب السوء كانوا يزدادون سوءا وحقارة • ولئلا
يستسلم الامام لهؤلاء الخبثاء والملاعين صمم على مقابلة
القذافي ، بقلب سليم ونية صافية ، من دون أن يساوره
الشك بمضيفه ، وهو المعروف بـ « الغدّار » و « المنتقم »
و « الموتور » •

وفي حوار أجراه وليد عوض مع نائب الامام الشيخ
محمد مهدي شمس الدين، في أواخر كانون الاول ١٩٧٨ ،
نقرأ ردا للشيخ على سؤال عوض حول المساعي العربية
لاسترجاع الامام قال فيه :

« ان جميع الملوك والرؤساء العرب الذين اتصلنا بهم
لم يخذلونا ، بل بذل كل من جانبه ما يستطيع » •

أضاف :

« لقد كان الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين
متألما جدا لما أصاب سماحة الامام الصدر • وكان ضيفه
لاشهر خلت ، بل لقد أخبرنا بعض القادة الجزائريين ان
الرئيس بومدين مات وفي قلبه حرقة من حادث الاختفاء •
لقد غضب كل الغضب حين جاءه النبأ ، ولم يصدّق ان

هناك من يجسر على احتجاز حرية قائد ديني كبير كالامام
الصدر • كذلك أبدى الرئيس العراقي أحمد حسن البكر
تعاطفا مع الموضوع ، وأرسل لي كتابا يقول انه وضع كل
وسائله في خدمة الهدف ، ألا وهو استرجاع الامام ، الا
ان هذه الوسائل ــ على حد تعبيره ــ تكاد تكون محدودة
في هذا الشأن • ومثله أيضا الملك حسين • لقد أتيح لي
أن أجتمع بجلالته مرتين ، وكان شديد الغضب والتأثر
لانقطاع أخبار سماحة الامام ، وقال انه يواجه نقصا في
المعلومات ، ومن غير المعلومات تتعذر الحركة وتعذر
المبادرة » •

وقال أيضا :

« اما الرئيس حافظ الاسد فان قضية سماحة الامام
الصدر هي من كبريات القضايا عنده ، ويتابع معالجتها
شخصيا ، من غير تردد ، فالامام الصدر صديق شخصي
لسيادته ورفيق جهاده » [٢٧] •

وكما صرح الشيخ شمس الدين لمحاوره ، فان الذين
ذكرهم جميعا ، وخصوصا الرئيس الاسد « يتابعون ملاحقة
القضية حتى ينبلج فيها الصباح (؟) ويحملون تفويضا منا
بأن كل ما يستطيعه المسلم الشريف هم فيه مطلقو

(٢٧) الحوادث : ١٩٧٢/١٢/٢٦

الصلاحية ، كل رئيس عربي ، وحتى الرئيس الليبي معمر القذافي نفسه ، مفوض من قبلنا بأن يستخدم كل ما يملكه المسلم الشريف في سبيل أن يضع نهاية سعيدة لقضية الامام الصدر »[٢٨] .

ويخلص أصحاب الامام الى القول بأن قائدا ، من هذا القبيل ، نال اعجاب الحكام والوزراء والنواب وسواهم من المسؤولين القياديين ، العرب وغير العرب ، ممن اتصل بهم ، كيف له أن لا ينتزع من أنصاره الولاء المطلق لنهجه والاخلاص المتطرف لشخصه حتى الاستشهاد ! وعلى هذا يُعتبر الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين شهيدي الامام القائد الذي رفض الخضوع لغير الله تعالى .

بعد الوقوف على ما مر معنا من آراء وتحليلات يتمسك بها جماعة الامام ، أو « الصدريون » كما يحلو لهم أن يُدعوا ، نرغب لا في النقد أو المعارضة ، بل في الاستعانة بنظرية « الايقاع الحيوي » (Purism) للطبيب الالماني فيلهلم فلييس ، وصولا الى تحليل علمي مجرد لهذا الحدث الغامض والرهيب ، على أن نعرّف أولا بهذه النظرية الطريفة والمثيرة .

---

(٢٨) المصدر السابق .

تفترض نظرية « الايقاع الحيوي » ان ايقاعات حياة الانسان تبدأ عند مولده ، وهي ثلاثة :

ــ ايقاع لحياته الجسمانية .

ــ ايقاع لحياته العاطفية والنفسية .

ــ ايقاع لحياته العقلية أو قدراته الذهنية .

ويكون لكل من هذه الايقاعات الثلاثة أوجُهُ الاعلى وحضيضُه الاسفل ، مما يجعل قدرات الواحد منا واداءه متفاوتا من وقت لآخر .

والذي يعقّد أمر حساب هذه الايقاعات هو ان كل ايقاع منها له دورته الزمنية الخاصة التي تختلف عن دورة الايقاعين الآخرين .

ويؤكد الطبيب فلييس ان الدورة الجسدية مداها ٢٣ يوما ، فيما الدورة العاطفية مداها ٢٨ يوما ، مثلما مدى الدورة الشهرية عند المرأة ، وأما الدورة العقلية فمداها ٣٣ يوما .

ووفقا لهذه النظرية يكون الشخص في قمة قدرته الجسدية يوما من كل ٢٣ يوما ، وفي أحسن أحواله العاطفية يوما في كل ٢٨ يوما ، وفي أعلى ايقاعه العقلي يوما

كل ٣٣ يوما • معنى القول ان كل ايقاع من هذه الايقاعات يتضمن يوما تكون القدرة عنده في قمتها ، ويوما آخر تكون في حضيضها • ولذلك فان الايام التي على طرفي يوم القمة تعتبر جيدة ، والايام التي على طرفي الحضيض تعتبر سيئة (٢٩) •

ان محاولتنا تطبيق هذه النظرية على رحلة الامام الصدر ورفيقيه الى ليبيا ، غايتها الكشف عن سر يوم الخامس والعشرين من آب ١٩٧٨ ، بالنسبة الى رجال هذه الرحلة ، فلعله أكثر الايام هبوطا لكل منهم ، علما بأن هبوط القوى البشرية يُعتبر السبب الرئيسي لعدد كبير من الحوادث الاندثارية (٣٠) • وفي مختلف الاحوال فان اقدار الناس ، سواء كانت من انتاج المصادفة المحوضة، أو بفعل ارتباط طبيعي أو فوق طبيعي بين الذين لهم الاهتمامات والمشاعر والمشاكل المشتركة ، يجب درسها وتحليلها من دون قلق أو تبرّم •

وبما اننا لا نثق تماما بتاريخ ميلاد الامام أو الشيخ

---

(٢٩) راجي عنايت : لعنة الفراعنة وهم ام حقيقة ؟ دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م • ص ص ٣٨/ ٣٩

(٣٠) المصدر نفسه

أو الصحافي ، سننصرف عن حساب دورة كل منهم وفقا لتاريخ الميلاد ، الى درس أحوالهم النفسية والاجتماعية والسياسية والدينية التي كانوا عليها حتى ذلك اليوم المشؤوم ، مع ان هذا الامر ليس سهلا كما سنرى ، وان بدا ان الثلاثة لهم ظرف سياسي وأمني واحد، انعكس الى حد غير قليل على ظروفهم الاخرى •

ــ فاذا عرفنا أن الامام قد طوّقته ــ منذ بداية ظهوره ــ التهم والانتقادات القاسية والمدمّرة ، حتى من بعض أبناء طائفته ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر المحامي محسن سليم الذي أصدر عام ١٩٧٧ كتيبا عنوانه : «هذا الامام ماذا يريد ولماذا هوى » ، استعار فيه من المأمون عبارته الشهيرة التي ضمنها رسالته الى أحد عملاء والده الخليفة هارون الرشيد يعلمه فيها بأنه يريد عزله قائلا : « عرفناك فوليناك • خبرناك فعزلناك • يدُكَ على الكتاب ورجلك في الركاب » •• ليقول المحامي سليم : « هذه هي حالنا مع إمام المحرومين وإمام منظمة « أمل » ، وإمام « السلاح زينة الرجال » ، وإمام الهزيمة » (؟!)

ــ واذا عرفنا ان الامام كان هدفا للحاسدين لا من خصومه فحسب ، بل من الكثيرين ممن حوله •

ــ واذا عرفنا أن الامام كان يعاني الكبت الجنسي

والعاطفي بسبب بعده عن زوجته المهجّرة أو المريضة .

ـ واذا عرفنا ان الامام قد هجر مقره في الحازمية قسرا ، مما اضطره أن ينام كل ليلة في منزل من منازل الانصار الميسورين .

ـ واذا عرفنا ان الامام لم ير ، منذ ما يزيد على السنتين ، مدينة صور التي أحبها وانطلق منها .

ـ واذا عرفنا ان الامام عاش القلق ، كل القلق ، على آيات الله والحوزات العلمية في ايران ، اذ كان خائفا عليهم من جيش الشاه القمعي ، وأجهزته السرية والاستخباراتية .

ـ واذا عرفنا كذلك ان الامام كان ينتابه الشعور بأن عمله الجهادي قد يذهب سدى .

فكيف سيكون تصورنا لهذا « الغريب » الذي حاول أن يصنع ثورة في بلد ممنوع عليه أن ينجب الابطال[٣١]؟

صحيح ان الامام هو متران من اللحم والعظم والذكاء ، ولكن الصحيح أيضا ان أعداءه وكارهيه ، ولو كانوا قصارا ، انما هم في مجموعهم أميال من اللحم والعظم

(٣١) مصطفى جحا: «محنة العقل في الاسلام » طبعة٢ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م . ص ٤٦٨

والذكاء . أما العصر فعصر الخطف والخطف المضاد يدعى . ويُدعى أيضا عصر الاغتيالات السريعة التي تنفذها الاجهزة الالكترونية الآخذة في التطور والاستحداثات يوما فيوما .

والواقع ان الامام لم يُمنح « ثقة » الملوك والرؤساء العرب كما يظن انصاره ، بل العكس هو الصحيح ، ودليلنا على ذلك هو ان محنته مع الاحزاب والفلسطينيين ، أو محنة الاحزاب والفلسطينيين فيه ، التي تفاقمت وتصاعدت ، قد تنصّل منها جميع الذين اتصل بهم الامام من المسؤولين العرب ، بحيث حصروا الحل والانقاذ في ليبيا دون غيرها من البلاد العربية . واذ كرّسوا الزعيم الليبي « قيّما » على مسألة الجنوب فلكي يوقعوا الامام في المصيدة القذافية التي عجز عن فتحها حتى أقرب زعماء العرب الى القذافي ، عندما أطبقت على رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى .

نختصر ، الآن ، عرض واقع الامام المأزوم ، كي ننظر الى واقع الصحافي عباس بدر الدين ، ثم الى واقع الشيخ محمد يعقوب .

قلنا ان السيدة زهرة يزبك بدر الدين كانت في المستشفى ، أو هي خارجة توّاً منه ، حيث كانت تعالج التهابا في الشريان الرئيسي في ساقها اليسرى ، عندما طلب من زوجها عباس أن يرافق الامام الى ليبيا ، وبهذا يكون

ايقاع عباس الجنسي يماثل ، الى حد ما ، ايقاع الامام الجنسي ، ما جعل عباس يتعاطف بسرعة مع مطلب الامام، فيهرب من الروتين اليومي الضاغط عليه في وكالة الاخبار، وخصوصا ان الاجواء السياسية والامنية معبأة بعناصر التفجير حتى الانهيار ، ولا بد ، والحالة هذه ، أن يكون عباس قد أحسّ برغبة في الخروج من بيروت ، وهو الذي سافر مع الامام في غير رحلة ، فضلا عن خوفه من اسرائيل على أرضه في الناقورة ورأس العين ، التي ورثتها زوجته عن والدها الحاج موسى يزبك ، الذي كان أحد ملاّكي الجنوب البارزين • وكما هو معروف فان عباسا كان هو الذي يشرف على ادارة هذه الارض المزروعة حمضيات أو موزا ، وقد خصص لها يوم الاحد من كل اسبوع ، على أن تسمح الاوضاع الامنية ، التي غالبا ما كانت تهتز وتضطرب •

أما التردد الخجول الذي أظهره عباس حينما التقى حسين اليتيم على درج « دار الزهراء » ، كما ذكرنا ، فهو، في تصورنا ، نتيجة صراع الرغبات المتناقضة التي كانت تتجاذبه آنذاك • وكما الامام كما عباس ، من حيث الايقاع الجسماني ، أي ان كليهما كان يشعر بتعب يقارب الارهاق، الامر الذي جعل الواحد منهما يعتقد ان هذه الرحلة ستعيد اليه نشاطه وحيويته،أو على الاقل جزءا من نشاطه وحيويته•

ومن المحتمل أن يكون الصحافي عباس قد رمى الى تعزيز علاقات مؤسسته « وكالة الاخبار » مع الجماهيرية ومؤسساتها الصحافية والاعلامية • وهكذا ارتبطت اهتمامات الاثنين ومشاعرهما فكان القرار المشترك والمصير المشترك •

بعد هذا الكشف السريع عن هبوط القوى عند الامام وعباس ، نأتي الى الشيخ محمد يعقوب • والاخير ، كما عرفنا عنه ، هو من عشاق اللقاءات السياسية والفكرية ، ويهوى المجادلة والمناقشة ، وعنده ميل شديد الى الصحافة والاعلام ، وتثيره الاضواء بقدر ما يسعى الى الشهرة والصيت الذائع • والشيخ اذا ما اطمأن الى جلسائه « يترحرح » ويفلش نفسه ، بل هو يتسامح بكثير من الاصول الدينية ، فيأكل ويشرب مما يتيسر ، ويطيل الاقامة، وبخاصة اذا ما ضمت الجلسة بعض الحسان ، وحجته في ذلك ان الله جميل ويحب الجمال • وكثيرا ما نام هو ايضا في غير منزله ، بسبب أو بدون سبب ، على غرار صاحبه الامام •

قيل عن محمد شحاده يعقوب انه تقدم يوما الى المدرسة الحربية ، رغبة منه في التخرج ضابطا ، فلما طُلبت منه الاوراق الثبوتية والشهادة التي يحمل ، أبرز شهادة

«الفلسفة» وانما مزورة ، فلما اكتشف امره احيل على المحاكمة «بتهمة التزوير والاحتيال»،وقبل أن يصدر الحكم في حقه ، تدخل احد السياسيين الهرمليين فأفرج عنه،فاتجه محمد ، وفي نفسه حقد على الدولة ، الى النجف لتحصيل العلم الديني ، ولكنه ما لبث ان رجع ، اذ طُرد من البلاد، ولم يمض عليه سوى بضعة أشهر •

وقيل أيضا ان محمد يعقوب«شيّخ نفسه»،أي وضع العمة على رأسه ولبس الجبّة ، وارتفع مقامه بين الناس ، فدعا الى حملة لجمع التبرعات من أجل بناء مسجد أو حسينية في قريته : مقنة البعلبكية•واذ اجتمع لاهل القرية مبلغ من المال محترم سلّم هذا المبلغ الى الشيخ «الجليل» أمانة الى حين يبدأ تنفيذ البناء ، فما كان من الشيخ الا ان توارى عن القرية الى بيروت ، واستعصى على المال رافضا حتى الاعتراف به •

ونظر الشيخ محمد الى الامام الصدر فرأى نجمه يلمع في سماء لبنان ، فتقرّب منه آملا أن يحقق بفضل التعاون معه مشتهاه ، ويصل الى ما يصبو اليه ، فتقبّله الامام حبا ورضا • ويوما فيوما اشتد التصاقه بالامام مثلما التصق به غيره ممن يحسبون أنفسهم مغبونين أو محرومين•

ولكن هذا الالتصاق الشديد ضعف قليلا ، وراح

الشيخ يبتعد عن الامام مع الذين ابتعدوا ، الا انه آثر أن يبقي رجْلا في الفلاحة وأخرى في البور على قول المثل• فنسج الشيخ شبكة من العلاقات مع ياسر عرفات وبعض قياديي الأحزاب اللبنانية ، وعبر هؤلاء اتصل بالاجهزة الليبية ، فسافر الى ليبيا ، ونال سلاحا ومساعدات مالية ، فراج اسمه في المناطق الشيعية ، وبدأ يُدعى الى مهرجانات التأبين التي تقام ، عادة ، في المساجد والحسينيات ، في الجنوب وبعلبك ، فيخطب ، وينظّر ، وأحيانا يغمز من قناة الامام وينتقده ، ويحمّله مسؤولية ما جرى للشيعة في النبعة وتل الزعتر وسائر المناطق الشرقية من بيروت •

ولاحظ الامام هذا الفتور في حب الشيخ له ، فلم يبد نفورا ولا غضبا ، فكما أن الشيخ بحاجة الى الامام ،كذلك الامام هو بحاجة الى الشيخ وسواه ، ولهذا ظلت العلاقة، فيما بينهما ، تتراوح بين الشد والارتخاء • ويقال ان الشيخ كان في اجتماع « الزهراء » المشجع الوحيد على الرحلة الى ليبيا ، ربما لانه طموح يستهويه السفر والدخول على الملوك والرؤساء • الا أن الشيخ ،كما نُقل عنه ، كثيرا ما ردد على مسمع الامام : مولانا ، يقول الله تعالى : « اذا عزمتم فتوكلوا ، ان الله يحب المتوكلين » • وهذا ما يجعل عددا من أصدقاء الامام يشكّون في الشيخ محمد ويحسبونه « متواطئا » مع عرفات والقذافي ضد الامام ؟؟

ومهما يكن ، فان الشيخ محمد يعقوب هو من جهة مغامر ومقحام ، أي يخوض معظم الشدائد ، من اجل رفع مستوى أبناء طائفته سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا. ومن جهة أخرى ، عاشق المال والسلطة ، حتى انه كان يعاني ضعفا بالغا تجاههما . فاذا ما سمع باحتفال أو اجتماع أو مأدبة سياسية أخذ بعضه الى هناك ، فيفرض نفسه على المجتمعين ، ويحاور هذا ، ويناقش ذاك ، وان دعت الحاجة وقف خطيبا ، ليحلل الاحداث ، ويدعو الى الغاء الطائفية السياسية ، والى الثورة على الرجعية والفساد في الدولة والادارة ، ويطالب بالوحدة العربية والعدالة الاجتماعية، ثم يوسّع مطاليبه فيدعو الى الوحدة الاسلامية التي لا بد منها على حد قوله .

وكمن ليس له قرين ، كان الشيخ محمد يعقوب يأتي بيوت اصدقائه ، على طريقة صاحبه الامام أيضا .وان أحدا لم يذكر ان الشيخ قد ظهرت معه زوجته ، أو هو اصطحبها ولو مرة واحدة ، الى أي من المنازل التي أكثر التردد اليها. فالسيدة « أم حسن » محجّبة ، وغير مسموح لها بأن تخرج من المنزل الا عند الضرورة القصوى . وحسبما هو معلوم فان نساء المشايخ لا يخرجن مع رجالهن ،بل منفردات، وزياراتهن ، على العموم ، قليلة ، ان لم نقل نادرة ،وتقتصر على الاهل وعدد محدود جدا من البيوت . وفي الحالتين

يجب أن تؤخذ موافقة الزوج مسبقا . وهنا يتفق كذلك واقع الامام مع واقع الشيخ ،ومن المحتمل أن تكون معانيات الثاني ، في هذا المجال ، فائقة على معانيات صاحبيه : الامام وعباس بدر الدين ، الناجمة عن مرض زوجتيهما .

وكما تناهى الينا ، فان امرأة الشيخ عادية وبسيطة وهادئة وراضية بعيشتها ، وعندها مقدرة على الصبر تحسد عليها ، وتفضّل الصمت على الكلام ، وتكره المناكفة ، وتحترز من غضب الشيخ وتتقيه ، لان غضبه سريع وشديد. يجاريها في هذا ــ طبعا ــ معظم نساء ذوي العمائم من السادة والمشايخ ، من دون أن يحميهن شرّ الضرائر ، وقد درج رجال الدين المسلمون ، وخصوصا الشيعة منهم ، على تعدد الزوجات ، وعلى الزواج بالمتعة الذي تخلت عنه الطوائف الاسلامية باستثناء الشيعة .

ان هذه العلاقات والشواهد ، التي تسنى لنا جمعها ممن اختبروا الشيخ محمد يعقوب ، تخفي وراءها ، لا شك، أسرارا كثيرة ومتنوعة أهمها عدم الاستقرار ، والخوف على المصير ، كما هو ثابت في التنافر والتجاذب اللذين سادا علاقاته بالامام . كما أن الاخير هو أيضا غير مستقر ويحاصره الخوف من جهات عديدة ، مع اختلاف الاسباب التي هي لدى كل من الامام والشيخ . ولن يفوتنا القول

ان السيد حسين الحسيني ، الذي أصرّ الامام على تعيينه وزيرا حتى أغضب السلطات السورية ، يوم لم تكن راضية عنــه ، كاد أن ينضم الى الوفد « الصدري » .. وفـد « الغيبة » ، لو لم يتحسس بطريقة ما ، خطر الرحلة، وخطر الاقتراب من القذافي .

لقـد توافقت اذن أسباب الهبوط الحيوي ، عنـد الثلاثة : الامام والصحافي والشيخ ، حتى جعلتهم يواجهون معا القدر الواحد ، الذي ذهب بنصائح الاصدقاء أدراج الرياح .

واذ نشارك هؤلاء الضحايا وذويهم وأصدقاءهم ، في أمرهم ، ننتقل الى وقائع هذه المحنة ، لنقدّرها ونقيسها بمقياس العقل والمنطق .

العاصفة

بين مساء اليوم الاخير من شهر آب ١٩٧٨ ، ومساء السادس من الشهر الذي تلاه (ايلول) ، هبّت على لبنان عاصفة صحراوية آتية من ليبيا لم تُعرف ، على اليقين ، هل هي حارة أو باردة ، أم حارة وباردة في آن معا . ولكن جل ما عرفناه انها ليبية فحسب ، فكثرت الاقاويل واختلفت مصادر التأويـل والتفسير ، وهـاج الشيعة كموج البحر

الهادر ، فتراءى لنا اننا نستقبل يوم القيامة وظهور الامام الثاني عشر المستتر أو الغائب محمد بن الحسن .

جرح" سرى الى النفس فأثّر فيها حتى هلكت: الامام الصدر اختفى في ليبيـا والغموض يلف هذا الحدث ـ الجرح .

في أول الروايات قال نائب الامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين للصحافة :

« حينما ودعت سماحة الامام يوم الخامس والعشرين من آب (اغسطس) الماضي وهو يقوم بهذه السَّفرة التي لم تنته حتى الآن اتفقنا على أن يكون سماحته في لبنان بعد أسبوع ، أي قبيل أيام من عيد الفطر المبارك . وقد انقضت الايـام العشرة الاخيرة من شهر رمضان دون أن يتصل سماحته بي كما عودني دائما ، بأي شكل من الاشكال ، وكان تقديري لهذا الصمت أن الخدمات التليفونية السيئة في لبنان لم تتح لهذا الاتفاق أن يجري ، وانه ربما يكون قد اتصل بغيري من الاخوة اعضاء المجلس الشيعي ، من العلماء أو النواب أو غيرهم » .

وقال أيضا :

« لكن عيد الفطر مضى دون أن يعود سماحة الامام ،

فاتتابتني الهواجس ، وبادرتُ الى سؤال أحد أصدقائه ومعارفه اذا كان قد اتصل بأحد منهم ، فأجابوا بالنفي ، واكتشفنا معا بأنه لم يتصل بأحد في بيروت على الاطلاق. فاذا الامر يزيدني قلقا ، خصوصا ان عدم الاتصال هو ظاهرة شاذة في حياة رجل تعوّد على أن يكون دائما على اتصال بأصدقائه ، واحاطتهم بأخباره ، وأنباء تنقلاته ، وزادت مخاوفنا أكثر فأكثر حينما اكتشفنا من نجله السيد صدري المقيم مع العائلة داخل منزل عادي في باريس انهم هم أيضا لم يسمعوا له صوتا ، ولا أجرى معهم أي اتصال، علما بأن السيدة زوجته كانت مريضة ، ونصح الاطباء بدخولها المستشفى ، فكان علينا ، والحالة هذه ،أن تتقصى الحقائق ونحيط بالملابسات التي تكتنف عدم اتصاله بنا ، أو بعائلته ، وأكبر المشاكل التي واجهتنا في أثناء ذلك هو مسؤولية المعلومات ، او لا يمكن الاخذ بأية معلومات غير رسمية ، او لا تستند الى مصدر رسمي ، والموقف الصحيح يجب أن يُبنى على المعلومات الصحيحة » [٣٢].

قالت العامة : « حصّ ملح وذاب » .

وقالت الخاصة : وأخيرا اصطيد الطائر الجميل الذي طالما غرّد في غير سربه .

---

(٣٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : الحوادث : ٢٢/ ١٩٧٨/٩

العرب ، من المشرق الى المغرب ، تحاوروا وتشاوروا، وجاءت النتيجة على الوجه التالي :

غادر الامام الفندق [٣٣] . لم يغادر الامام الفندق. خرج الامام من ليبيا . لم يخرج الامام من ليبيا . ركب الامام الطائرة . لم يركب الامام الطائرة . دخل الامام روما. لم يدخل الامام روما . ولكنه ليس في ليبيا . قطعا هو ليس في ليبيا . ولا في روما . جزيرة مالطة على الخط . جزيرة مالطة ليست على الخط . الامام إما في ليبيا وإما في روما. واذا لا هنا ولا هناك فينبغي له أن يكون في مالطة.والحقيقة انه ليس في مالطة . لانه ليس في روما .

وتساءل أحد الصحافيين الظرفاء : ما هو دخلُ جزيرة مالطة في مثل هذا الموضوع ؟!

منزل عباس بدر الدين في بيروت لبس السواد .

ومنزل الشيخ محمد يعقوب في الحازمية سُلب ونُهب . وقيل مثله عن منزله في بعلبك .

أما عائلة الامام المهجّرة والمشرّدة فقد أخذتها الصاعقة .

---

(٣٣) فندق « الشاطىء » في طرابلس الغرب حيث كان ينزل الامام ومعاونوه .

ماذا بعد ؟!

قال أحد « المجانين » للشيخ محمد شمس الدين : أراكم تبحثون عن « حص الملح » الذي ذاب إما في البحر، وإما في الصحراء ؟

وانتظر السائل جوابا يشفي غليله .. الا ان الشيخ بقي صامتا لا يتكلم وظل المجنون يكرر سؤاله ويكرّره، حتى خرج الشيخ عن صمته وقال :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

قال هذا وصمت . عندئذ فهم « المجنون » ان الشيخ يكره الالغاز ويرفض الضرب بالرمل .

وجال « المجنون » على اصحاب الامام واحدا واحدا ليقول لهم ما قاله للشيخ نائب الامام ، فوجد بعضهم كالعود الذي تثنّى من غير كسر بيّن . وبعضهم يردد : «ان البغاث بأرضنا مستنسر » . والتقى فريقا يرغي ولا يزبد .فسألهم « الجوّال » أو « المجنون » : لماذا أنتم هكذا ؟ فردوا بصوت واحد : لقد ذلّنا العرب وقهرونا . قال : ماذا بعد ؟ قالوا بصوت واحد : الحق على اسرائيل . قال: وماذا بعد ؟ قالوا : اننا نعبد إلهاً واحدا . قال : ماذا يعني ؟قالوا:

عبادة الله لا تحتاج الى تأويل أو تفسير . قال : وبعد ؟ قالوا : العِلم عند الله .

واستمر « المجنون » في جولته على أصحاب الامام المغيَّب ، فاذا هو أمام جماعة تزبد بدون رغاء .فتعجّب منهم وسألهم قائلا : وأنتم ما الذي حدث لكم ؟ قال الناطق بلسانهم : صعُب الامر علينا واستبهم . فردّ رجل كان يجلس في الصف الاخير : بل أعجم علينا الامر . ثم نهض شاب أرخى لحيته وقال : لقد تعاجم الإمام . ومعناه تنكّر وتظاهر بالعُجْمة . لذلك لسنا خائفين عليه . وهنا أخذ الجميع يهتفون : بالدم بالروح نفديك يا إمام . قال « الجوّال » : ولكن الامام اختفى في ليبيا ... فانظروا ماذا تفعلون ؟

قالوا : ماذا نفعل أيها المجنون ؟

قال : ان مقتل الرجل بين فكّيه . ولا بد أن يكون الامام قتله لسانه .

ولما سمعوا ذلك صرخوا قائلين : ما كل قول له جواب، اخرج من هنا ايها المجنون . ألا ردّك الله الى الصواب . انها الغيبة . الغيبة الصغرى . عجّل الله ظهورك يا صاحب العصر والزمان .. أيها الإمام المستتر .

---

(٣٤) الحوادث : ١٩٧٨/٩/٢٢

ختم « المجنون » جولته وعاد الى منزله ، فيما ظل « الصدريون » يهتفون : بالدم بالروح تفديك يا امام .

ومع الغروب نظر « المجنون » من شرفة منزله المطل على البحر الى المدينة ، فرآها تنفخ في النار ، والشيطان ينفخ في انفها . عندئذ أخذ « المجنون » على عاتقه قضية الامام ورفيقيه ، وانطلق يتتبع اثرهم في كل مكان ، دون أن يوفر التاريخ ، الحاكم الاكبر ، والقاتل الاول .

القذافي يكشف نفسه

صبيحة أحد الايام البيروتية الحزينة قرأ « المجنون» هذا التقرير الصحافي :

« .. ونقلت المعلومات التي وصلت الى باريس من مصادر دبلوماسية عربية اشتركت في احتفالات الثورة ، ان أمرا أُصدر باعتقال الصدر ومرافقيه بعد ٢٤ ساعة من اعلان رغبتهم في السفر ، وان ضابطا من المخابرات الليبية دخل الى غرفة الصدر في (فندق الشاطىء) صباح الواحد من أيلول وأبلغه أمر « التوقيف الاحتياطي » الا ان احد ممثلي الدول العربية الذي حضر الاحتفالات نُقل عن لسانه ، بأن الصدر نُقل فورا الى غرفة التحقيق في سجن

« الصحراء » وهو الآن قيد الاستجواب ، فيما ظل مرافقاه قيد الاقامة الجبرية في الفندق المذكور » (٣٥) .

خفض «المجنون» رأسه وأرخى عينيه ينظر الى الارض لا يعرف ما يقول . ومرت لحظات قليلة عاد بعدها ليسأل نفسه : بأي حق يأمر القذافي باعتقال الامام الصدر ؟ وهل للرئيس الليبي سلطة على الامام الفارسي ــ العاملي تمكّنه من القبض عليه وحجز حريته ؟ وحاول « المجنون » أن يبتكر جوابا عن هذا السؤال ، ولما فشل وخاب سعيه ، تذكّر تلك الجولة التي قام بها على أصحاب الامام ، وكيف عاد منها بخفَّي حنين .

ترك المجنون السؤال ، ليفتش عن الحقيقة . ولكن أحدا ممن اتصل بهم لم يرغب في لعبة الموت . لذلك طوى أوراقه ، وأجّل الأمر الى وقت آخر .

ابتعد به الزمان حتى كاد أن ينسى هذا الموضوع المثير الذي شغله فترة غير قصيرة . وفجأة وقعت الحرب على مغدوشة بين حركة « أمل » من جهة ، والمنظمات الفلسطينية من جهة أخرى ، فاذا العقيد معمر القذافي يشن

---

(٣٥) انطوان خويري : وأخيرا حرقوه ، الجزء السادس ص ٤٥٣

حملته على الشيعة ، ويحث الفصائل الفلسطينية على الاحتفاظ بمغدوشة حتى فك الحصار الذي تضربه حركة « أمل » على المخيمات الفلسطينية ، معتبرا ان « الطرف المعادي للفلسطينيين (يقصد الشيعة) لم يكن له ضمير » و « ان أفواج المقاومة اللبنانية الشيعية بزعامة نبيه بري ليست حامية لبنان بكامله . (و) لذا فانه ليس لها الحق وحدها في أن تحدد مصير الفلسطينيين في لبنان . وليس من المسموح التفاوض أو التوصل الى اتفاق معها،لانها لا تملك الشرعية أو السلطة لذلك » (٣٦) .

والذي يبكي ويضحك في آن معا ، ان القذافي قد ادعى حرصا على مغدوشة ، اذ قال : « مغدوشة هي قرية مسيحية لا علاقة للشيعة بها » (٣٧) ؟!

وقبل أن ينهي « المجنون » القراءة أحسّ بصدمة فجّرت عنده شعورا دفينا ، أو مكبوتا ، فتذكر الامام الصدر والعاصفة الليبية الهوجاء التي اجتاحت صيف ١٩٧٨ لبنانه الجريح والمغدور .

ترى هل وجدتُهم ؟ سأل المجنون نفسه .

---

(٣٦) السفير : ١٧/١٢/١٩٨٦

(٣٧) المصدر نفسه

« المجنون » لا يريد أن يفتعل جوابا غير واقعي وغير دقيق عن سؤاله هذا . ولكنه أيضا لا يريد أن يكون كأصحاب الإمام .

واذا ،فان الامر لا يعالَج بهذه السرعة والبساطة . قال هذا ، وصمّم على ملاحقة الاحداث الجارية .

في اليوم الثاني ردّ رئيس حركة « أمل » الوزير نبيه بري على القذافي قائلا :

« فوجئنا بتصريح القذافي الذي يقول بأن مغدوشة قرية مسيحية ولا علاقة للشيعة بها . نريد أن نصحّح أن مغدوشة لبنانية وليست قرية ليبية ، وبالتالي ما دخْله في هذه الامور » ؟

أضاف :

« .. نبيه بري لا يمثل كل الشرعية في لبنان ، ولكن يمثل جزءا من الشرعية باعتباره أولا لبنانيا وثانيا عربيا وثالثا جزءا من الحكومة المركزية في لبنان (...) وكيف يعتبر (القذافي) أن مغدوشة قرية مسيحية ليس للشيعة علاقة بها ؟ » (٣٨) .

---

(٣٨) السفير : ١٨/١٢/١٩٨٦

خطَر لـ « المجنون » هذا المثل : « ما أنت بخَلٍّ ولا خمْر » (٣٩) . ولم يشأ أن يزيد عليه ولا كلمة واحدة.

حينما اطلع القذافي على رد بري ، صعّد حملته ودعا « كل القوى الوطنية اللبنانية للقتال الى جانب الفلسطينيين ضد حركة « أمل » لانقاذ لبنان من التمزق » (٤٠) .

ونقلت وكالة الجماهيرية لـلانباء عن القذافي نفسه اتهامه حركة « أمل » « بمحاولة اقامة دويلة متحالفة مع اسرائيل في جنوب لبنان » (٤١) .

وأكّدت الوكالة ان القذافي أبدى استعداده لتقديم أسلحة « دون تحفظات لمقاومة الاهداف المزعومة لحركة « أمل » .. وقال « ان القتال يجب أن يمتد من بيروت الى الحدود الفلسطينية لاحراق التقسيميين المنحطين » (٤٢) .

قال « المجنون » الذي حاول أن لا يصدق ما يقرأ : آن للشيعة أن يعرفوا عدوّهم . هو لم يكترث لرد نبيه

---

(٣٩) كان بعض العرب يجعلون الخمر خيرا للذتها والخل شرا لحموضته ولأنه لا يقدر الانسان على شربه .
(٤٠) السفير : ١٩٨٦/١٢/١٩
(٤١) المصدر نفسه
(٤٢) المصدر نفسه

بري الجديد (٤٣) . لان عضو اللجنة المركزية لحركة « فتح » هاني الحسن قد صرّح لصحيفة « السياسة » الكويتية قائلا : « ان هناك خطة مدروسة كانت تستهدف سحق المخيمات الفلسطينية في الرشيدية والجنوب وبيروت وبرج البراجنة » (٤٤) . وأكد الحسن ان الفلسطينيين «لن ينسحبوا أو يسلّموا مواقعهم الى حركة « أمل » لان ذلك سيكون انتحارا ذاتيا » (٤٥) .

وتلاحقت الردود والبيانات الشيعية على القذافي والفلسطينيين ، مما أثار اهتمام « المجنون » ان لم نقل فضوليته ، فاستخرجها من الصحف وجمعها على الوجه الآتي :

ـ قال رئيس مجلس النواب حسين الحسيني :

« (...) ونحن في لبنان أقدرُ الناس على معرفة ما عاناه ويعانيه الشعب العربي الليبي من وجود معمر

---

(٤٣) من دمشق قال بري في هذا الرد : « ان هذه الطائفة هي التي قاتلت اسرائيل واعتبرت التعامل معها « حرام »، ولو قبل الشيعة كانتونا لمدحوهم ، ونعتقد ان قتالها هذا وشعارها المذكور هو السبب في الحملة ضدها (...)» ـ « السفير » ١٩٨٦/١٢/١٩
(٤٤) السفير : ١٩٨٦/١٢/١٩
(٤٥) المصدر نفسه

القذافي لان الشعب اللبناني وكل شعب عربي لا سيما الشعب الفلسطيني قد نالهم الشيء الكثير منه » .

أضاف :

« من هنا كان تمييزنا الواضح بين الشعب العربي الليبي عندما تعرّض للاعتداء الاميركي وبين معمر القذافي (...) فبادرنا الى استنكار وشجب الاعتداء الاميركي على الشعب الليبي (...) والامة العربية لا يمكن أن تنسى معارضته لحرب رمضان عام ١٩٧٣ ، ولم تنس دوره (...) في أحداث لبنان والتسبب في استمرار أزمته واحتلال اسرائيل لارضه واثارة الفتن بين أبنائه من جهة وبين اللبنانيين والفلسطينيين من جهة اخرى . وماالتصريح ـ الجريمة الاخير الا الاستمرار في تأدية الدور ، مما يدعونا الى مطالبة القادة العرب القيام بواجبهم القومي حياله » (٤٦) .

وقال نائب الامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين :

« ... ولا نريد أن ننسى ان نظام القذافي وجهازه هما مرتكبا جريمة اختفاء سماحة الامام السيد موسى الصدر رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ورفيقيه

---

(٤٦) صحف ١٩٨٦/١٢/٢٠ .

منذ عام ١٩٧٨ ، وهذا النَّضْح الذي عبّرت عنه تصريحات القذافي الاخيرة هو جزء من العقلية والاتجاه اللذين ارتكبا جريمة اخفاء الامام الصدر ورفيقيه » (٤٧) .

وأصدر المكتب الاعلامي المركزي لحركة «امل» بيانا جاء فيه :

« ... وترى حركة « أمل » في الحملة المذهبية المسعورة والبذاءة التي يتصف بها معمر القذافي ضد الطائفة الشيعية والمطالبة بمحاربتها من بيروت الى الجنوب تواطؤاً ورضا مع العدو الاسرائيلي بحيث اننا أمام مؤامرة ابادة جماعية لاهلنا وشعبنا تتعاقب على ادوارها اسرائيل وعرفات والقذافي . والمطلوب من القادة السياسيين والروحيين في الصف الاسلامي والوطني موقف واضح وصريح من الارهابي معمر القذافي لان عدم اتخاذ هذا الموقف يجعلنا ننظر الى مصداقية العمل الوطني والاسلامي نظرة ألم وشك » (٤٨) .

وتوجه المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الامير قبلان في خطبة القاها في مسجد الامام الحسين بن علي في الرمل، الى القذافي فقال :

---

(٤٧) المصدر السابق .
(٤٨) المصدر نفسه

« لماذا لا تأخذ الفلسطينيين اليك لكي يحموا لك الشواطىء(؟) والقوى الوطنية والثورة الفلسطينية والمنظمات الموالية ليردوا لك الغزو الاميركي ؟ لماذا لا تدعوهم الى التعاون مع حركة « أمل » لقتال اسرائيل في الجنوب ؟ لماذا لا تطلق سراح الامام الصدر ؟ نحن نطلب منك الاعلان اما موت الامام الصدر أو بقاؤه على قيد الحياة »[٤٩].

وصرح السيد محمد حسين فضل الله قائلا :

« نحن الان نعيش فتنة تتشابه فيها الشعارات وتتشاكل الاهداف (...) في هذا الوقت ينطلق الينا صوت العقيد القذافي والذي يتحدث عن الشيعة وعن ضرورة الوقوف في وجه الشيعة لحماية الفلسطينيين من الشيعة . ما هذه اللغة ؟ هل هذه لغة العروبة والاسلام »[٥٠] .

وفي حديث أدلى به نائب رئيس حركة « أمل » العقيد عاكف حيدر ، لرئيس تحرير الاخبار الفرنسية في اذاعة لبنان اتهم حيدر ياسر عرفات والقذافي و « القوات اللبنانية » والحكم بالضلوع في حرب المخيمات[٥١] .

---

(٤٩) المصدر السابق .
(٥٠) المصدر نفسه
(٥١) صحف ١٩٨٦/١٢/٢١

فواصل العقيد القذافي هجومه على الشيعة مؤكدا على ضرورة القتال ضد هذه الطائفة التي ، على حد قوله، « يتزعمها نبيه بري عدو الفلسطينيين وعميل اسرائيل »[٥٢]. ولئلا يستدرج الصراع الفلسطيني ــ الشيعي سوريا الى اتون النزاع اللبناني فتنشغل عن « صمودها في مواجهة العدو الصهيوني »، ناشد الزعيم الليبي المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين الى توجيه بنادقهم ضد الشيعة فقط « لان أي مواجهة مع سوريا لا تخدم الا مصلحة الشيعة والعدو الاسرائيلي »[٥٣] .

في المقابل ، نقل عن رئيس حركة « أمل » نبيه بري الموجود في دمشق قوله هذا :

« لا يترحمن احد ، ان هذا الكلام صادر عن مجنون بل عن اسرائيلي عاقل يدافع عن بني قومه ضد الطائفة التي اشتهرت بقتالها ضد اسرائيل وليس في امكان القذافي ان يسمع اسما واحدا تابعا له استشهد ضد اسرائيل .. وكيف يقاتل بني امه . بعد اليوم التعامل مع اسرائيل والنظام الليبي حرام فهو من خطف الامام (موسى الصدر) ويريد

---

(٥٢) المصدر السابق .
(٥٣) المصدر نفسه

قتله » (٥٤) (*٣) .

وعقدت « الفعاليات الروحية البقاعية اجتماعا في منزل المسؤول الثقافي لحركة « أمل » في البقاع الشيخ عباس حسن ، حضره المسؤول الثقافي المركزي للحركة الشيخ اديب حيدر ، وعضو المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى الشيخ خليل شقير وعدد من رجال الدين في المنطقة . وعند الانتهاء تلا الشيخ حيدر بيانا صادرا عن « الهيئة الشرعية والعلمية في البقاع » جاء فيه :

« تتكشف المؤامرة اكثر وتبرز اصولها في كل يوم ، وأخطر وجه في المؤامرة دعوة القذافي للقضاء على الشعب

---

(٥٤) المصدر السابق .

(*٣) يقول الصحافي الفرنسي تييري دي جاردان ، في كتابه: « مئة مليون عربي » : « ... غريب هذا القذافي فعلا ... فقد وُلد اثناء الحرب العالمية الثانية في مكان من الصحراء ، يقع بين طرابلس وبنغازي ، من أب بدوي زعيم قبيلة صغيرة ترعى الغنم في هضاب الصحراء ، ويبدو ان القذافي قد تأثر بتلك البيئة ، واعتبر ولادته في تلك المنطقة المتوسطة بين بنغازي وطرابلس افضلية له ... اما والدة القذافي فهي يهودية من بنغازي تزوجت والده الشيخ وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وهذا يتأكد أن القذافي يهودي — لان ابن اليهودية هو يهودي حسب قوانين الديانة العبرية — وله خالان يعيشان الآن في اسرائيل ، ويتمتع بالتالي بحق الهجرة الى اسرائيل !! » (مئة مليون عربي — ص ٣٣٩) .

المسلم وابادته في الجنوب ، ووضع كل امكانياته لتحقيق ابادتهم ، بعد ان عجزت اسرائيل عن ذلك من أجل تحرير مخطط الاستسلام والتوطين الذي هو مقدم للعمل المرسوم وحيث اننا اعتدنا ان القذافي يطالعنا ببدع جديدة ابتداء من « القرآن الاخضر » (٥٥) وخطف الامام الصدر وصولا الى استنهاض الهمم للقضاء على المسلمين في الجنوب ووسم الطائفة الشيعية بـ « العفنة » وهي التي رفعت رأس المسلمين والعرب تحت قرص الشمس » .

« لذلك لا ندري أن طائفة الوزير بري « العفنة » هي غير طائفة الامام الخميني ؟؟ ولا ندري هل العفونة وصلت الى طهران وقم بعد الجنوب والضاحية (وبعلبك — الهرمل) .

« ولذلك ليس الخطر في تصريح القذافي ، بل الخطر ألاّ يكون هناك موقف من العقيد المعتوه ، وآن الاوان للأمة الاسلامية والعربية أن تقذف العقيد النابح ، بحجر ، وان بقاءه خطر على الامة لان النابح عند كلَبه يُقتل أو يُحجر كي لا يصاب العالم بالكلَب » (٥٦) .

بعد الشيخ أديب حيدر وبيانه ، تلا عضو المجلس

---

(٥٥) يقصد « الكتاب الاخضر » الذي وضعه العقيد القذافي .

(٥٦) صحف ١٩٨٦/١٢/٢١

الاسلامي الشيعي الاعلى الشيخ خليل شقير بيانا باسم رجالات الفكر في لبنان (؟) جاء فيه :

« لقد نقلت « وكالة الجماهيرية الليبية للانباء » تصريحا للقذافي ينال فيه من احدى أشد الطوائف الاسلامية جهادا بوجه اسرائيل ، وهو يرمي هذه الطائفة « بالعفن » وما اليه ، وقد نهانا القرآن الكريم عن السبّ » ، ونحن نرد على القذافي بما أمر الله تعالى أن يرد به على أمثاله حيث قال : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ... واذا مرّوا باللهو مرّوا كراما » [57] . فسلاما يا عقيد سلاما ، وعلى المسلمين ألا ينخدعوا بألاعيب هذا المستهتر بكل القيم » [58] .

وفي البقاع أيضا ، أدلى رئيس حركة «أمل» الاسلامية (المنشقة عن حركة « أمل » المركزية) حسين الموسوي بتصريح قال فيه :

« نحذر من ادخال المسلمين في فتنة مذهبية عجز عنها الصهاينة والكتائب وعملاؤهم مجتمعين » .

أضاف :

---

(٥٧) الفرقان : ٦٣

(٥٨) صحف ١٩٨٦/١٢/٢١

« ان الشيعة يستطيعون أن يتهموا كل الناس ولا يستطيع أحد أن يتهمهم ، لان جهادهم ملأ السماء والارض ، وكانت دماؤهم الزكية تحرق كل أصابع الاتهام وتحرق كل المتهمين والمتطاولين الحاقدين ، بل تتوجه الى المسلمين في العالم لنؤكد لهم أن المسلمين في لبنان قد بلغوا رشدهم » [59] .

لقد أوشك « المجنون » أن يستعيد عقله ، اذ هو شمّ رائحة « سجناء » الصحراء الليبية : الإمام والشيخ والصحافي ، كما لو انهم عادوا الى بيروت وبأيديهم الأعلام السود والخضر .

هل قامت القيامة ؟

عينا « المجنون » تتوقد فيهما النار . وقلبه يخفق أو هو يكاد أن يتوقف إما من الخوف وإما من الفرح .

وخرج «المجنون» من معقله راكضا ليبشر الناس بعودة الإمام المغيَّب ومعاونيْه ، وهو يقول :

« ظهر الامام . ظهر الحق . ما ضاع حق وراءه مطالب .

---

(٥٩) المصدر السابق .

هنيئا لكم أيها الشيعة نصركم المبين .

مبارك جهادكم المقدّس .

اطمئني يا بيروت .. وافرح يا جنوب .

انتهت الحرب . انتهت الحرب .

ظهر الإمام . ظهر الحق . الله أكبر من كل ظالم .

الله أكبر » .

اضطرب الذين سمعوا ما قاله « المجنون » فتضاربت الآراء والاقوال في ما سمعوا : هذا يضحك . وذاك يبكي. وذلك يصفّق . والكثيرون منهم قالوا : خير إن شاءالله. الذي ذوّب حص الملح في البحر أو في الصحراء يستطيع أن يجفف البحر أو يغربل كل الصحارى ويعيد حص الملح الى سيرته الاولى .

وفيما « المجنون » يواصل الركض والتبشير بظهور الامام ، مرّت سيارة فيها ثلاثة رجال مسلّحين فخطفوه ، وتواروا عن الانظار الى جهة مجهولة .

بعد الاعلان عن اختفاء « المجنون » سارع المفتي الشيخ حسن خالد والرئيس رشيد كرامي والوزير الدكتور سليم الحص وقياديون آخرون من السنة ، الى الرد على

بيانات القذافي ، أو « ما نسب اليه » (حسب قولهم) مؤكدين ان السنّة والشيعة « جسم واحد » ، مثلما جاء في بيان المفتي خالد ، وان « وحدة المسلمين ستبقى هدفنا »، على قول الوزير الحص ، بينما رأى الرئيس كرامي ان تصريحات القذافي « تصب في المذهبية » [٦٠] .

لم ينسَ « اللقاء الاسلامي » أن يبدي أسفه للتصريح الذي « بدر أخيرا عن العقيد القذافي » [٦١] . فدعا الى « رفض ما انطوى عليه هذا التصريح مهيبا بأبنائه اللبنانيين والمسلمين خصوصا والقيادات العربية واللبنانية جميعا ، تقدير دقة المرحلة الخطيرة التي نجتاز والتزام الحذر في كل عمل أو تصريح أو تعليق بأي شكل كان » [٦٢] .

ومن حذا حذو « اللقاء الاسلامي » ، في هذا المجال، الرئيس رشيد الصلح ، والنائب عثمان الدنا ، ومنح الصلح، وتجمعات وهيئات حزبية منها : « حزب الله » و « تجمع العلماء » و « التجمع المستقل » ، والجميع دانوا تصريحات القذافي وحذروا من «الفتنة» [٦٣] .

---

(٦٠) صحف ١٩٨٦/١٢/٢٣
(٦١) المصدر نفسه
(٦٢) المصدر نفسه
(٦٣) المصدر نفسه

والجدير بالذكر ان الامين العام للجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الدكتور جورج حبش ، قد وجّه برقية الى القذافي عبّر فيها عن « عميق الامتنان والتقدير لهذا الموقف الذي يأتي انسجاما مع المواقف المبدئية الحازمة التي دأبت الجماهيرية الليبية على اتخاذها وتجسيدها دعما للشعب الفلسطيني وثورته وحقه المشروع بمواصلة حمل السلاح ضد العدو الصهيوني وعملائه دفاعا عن مخيماته وحقوقه السياسية والمدنية في لبنان » (٦٤) .

في الحقيقة ، ان هذه الحملة القذافية على شيعة لبنان ليست الاولى من نوعها . بل ان القذافي قد تعوّد «دغدغة» هؤلاء خصوصا في المناسبات « الحارة » و «مواسم الدم» .

ففي حرب المخيمات ،صيف ١٩٨٥ ، وقفت الجماهيرية الليبية الى جانب ياسر عرفات ضد الشيعة ، وصدر عن السلطات المسؤولة هناك تعليق جاء فيه :

« ان عرفات بريء هذه المرة وقد تأكد الآن انطرْد عرفات وقيادته (من دمشق في حزيران ١٩٨٣) كان جزءا من مخطط سيتم بموجبه طرد الفلسطينيين الآخرين من

(٦٤) صحف ٢١/١٢/١٩٨٦

المنطقة وكذلك القيادات الوطنية اللبنانية بحيث لا يبقى في النهاية الا الشيعة والموارنة » (٦٥) .

وردّ عليه ، آنذاك ، نبيه بري فقال :

« ان الذي أقدم على خطف الصدر قبل ٧ سنوات في الوقت الذي كانت اسرائيل في جزء من الجنوب اللبناني، وبتواطؤ بعض الفئات الفلسطينية ، والذي يحرّض على الفتنة بين المسلمين بهذا الكلام ، هو أول من وضع الإسفين لتجزئة لبنان ، وتفتيت الصف الاسلامي والتمهيد لايجاد كانتونات واسرائيلات في المنطقة تتيح بقاء مثل هؤلاء المستعمرين في مراكزهم » (٦٦) .

وفي الثامن عشر من حزيران ١٩٨٥ عاد القذافي ليقول:

« اذا كنا نعتبر (اريبل) شارون عدواً فاننا يجب أن نعتبر نبيه بري عدوا وان دمه مستباح والاسلام منه براء » (٦٧) .

مع كل حملة قذافية على شيعة لبنان ، كانت تنتشر

(٦٥) مصطفى جحا: «قاموس حرب علي ومعاوية وسباعية طلال سلمان » طبعة ١٩٨٥ ص ١٥٣ ، عن صحف ١/٦/١٩٨٥
(٦٦) المصدر نفسه ص ١٥٤
(٦٧) المصدر نفسه ص ١٥٥ عن صحف ١٣/٦/١٩٨٥

رائحة الامام الصدر ورفيقيه في بيروت وبعلبك والجنوب، ويتكاثر الذين يبثون الاحاديث والاخبار عن عودة الامام، ومعظم هؤلاء يؤكد ان هذه العودة باتت وشيكة ، وهي تحتاج الى بعض الاجراءات الضرورية ،فتتخذ الاستعدادات اللازمة واللائقة لاستقباله ، الا انه سرعان ما تتلاشى الآمال ويختفي المخبرون والمبشرون ، بعد أن تكون رائحة الامام قد زالت وزال معها التوتر المتحكم في المواقف القذافية والشيعية . ولا ريب في ان القيادات السنية ، في لبنان ، الروحية والسياسية ، هي التي تبدد ، كما في كل مرة،هذه الرائحة ، وما يرافقها من ظواهر مقلقة ومرعبة ، بما يصدر عنها من بيانات وتعليقات مهدّئة ومسكّنة .

وبعد كل حملة قذافية على شيعة لبنان ، « يراجع القذافي حساباته » ، و « يوضح مواقفه » ، فتدخل مسألة الامام الصدر في النسيان ، ولو الى حين ، وتتراجع حدة النزاع الشيعي ـ الفلسطيني بعض الشيء .

ان آخر « مراجعة » للحسابات ، وآخر « توضيح» للمواقف ، أجراه العقيد القذافي ، ما نشرته مجلة « الكفاح العربي » في عددها الصادر يوم السبت الموافق الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٨٧ ، وذلك في حديث أجرته معه المجلة نفسها ، حيث قال :

« الحقيقة أنا لم أقصد الشيعة الذين أحترم نضالهم من ضمن نضال الشعب اللبناني ضد العدو الاسرائيلي . لقد قصدتُ الطائفية . فأنا المسلم لا أؤمن بالسنّة أو الشيعة أو الدرزية أو العلوية او الاسماعيلية . أنا أؤمن بالاسلام وأعتبر المذهبية محاكاة للمسيحية » .

أضاف :

« والمسلم الحقيقي لا يمكن أن ينضم الى أي طائفة. القرآن الكريم نهى ، بعدد من آياته ، عن ذلك . لهذا فالمنهجية تعني الخروج عن تعاليم الله .

« المذاهب ليست من أصول الاسلام . فهي بدع بدليل انها نشأت وتمّت بعد وفاة الرسول . لهذا فقد اعتمدنا التأريخ بوفاة الرسول على اعتبار ان انقطاع الصلة بين السماء والارض جعل كل ما يجدّ في الاسلام هو قضايا مدنية ودنيوية . وبما ان هذه المذاهب جاءت بعد وفاة الرسول فهي باطلة ولا بد من العودة الى الاسلام بلا مذاهب لتوحيد المسلمين » (٦٨) .

وكمن يحاول غسل يديه من دم الجنوب والامام قال:

---

(٦٨) الكفاح العربي : ١٩٨٧/١/٢٤

« هذه هي قناعاتنا وهذا هو فهمنا للاسلام • فأنا ضد الطوائف جميعها وهذا ما قصدته بتصريحي • والا كيف أقصد الشيعة ونحن على ما نحن عليه من روابط مع قياداتها الروحية في ايران ؟

« أنا ضد الاقتتال الذي يمنع الكفاح ضد العدو الاسرائيلي • ليس عندي خصومة مع أي تنظيم لانه شيعي • لا أبداً • في يوم ما عندما كان القتال ضد الاسرائيليين وقفتُ في الجماهير وخطبتُ ممتدحا ومشيدا بهذا التنظيم » •

وقال :

« المسألة بالنسبة اليّ واضحة • القتال الدائر الآن يجب أن يتوقف ويجب أن يعود التلاحم بين الجنوبي والفلسطيني •

« عموما يجب أن يفهم الجميع موقفي • ومن الآن فصاعدا لن تكون لي علاقة مع أي جماعة ، أيا كانت شعاراتها وواجهاتها ، اذا ما كانت خلفيتها طائفية أو مذهبية •

« أنا رافع لواء القومية العربية • ومن يقاتل معي تحت هذا اللواء فليتفضل ومن لا يريد أن يقاتل يكون في الجانب الآخر » •

وقال أيضا :

« للحقيقة لا بد أن يكون موقفي حاسما في هذا الخصوص • ولا بد من أن يُحسم الآن بالفعل • لهذا ، ومنذ هذه اللحظة ، لن أمد يدي الى أي تنظيم أساسه طائفي أو مذهبي ولن اساعده ولن اتحاور ولن أضيع وقتي معه » (٦٩) •

وبصراحته « القومية » أعلن القذافي :

« الدرزي اذا كان مؤمنا بالقومية العربية عليه أن ينضوي تحت لواء القومية العربية معنا • وكذلك السنّي أو الشيعي أو الماروني أو الارثوذكسي أو الكاثوليكي أو الارمني ، أما أحزاب الطوائف وتنظيماتها فلا علاقة لي بها •
وعلى كل الشباب من كل الطوائف والمذاهب أن ينضوي تحت لواء القومية العربية لان الامة العربية الآن في خطر حقيقي » (٧٠) •

وأفصح القذافي عن اتخاذه قرارا بترك لبنان فقال :

« ما دام الرئيس الاسد يعالج الموقف فأنا مطمئن •
وأحب أن أضيف ان قرار ترك لبنان يرمي أيضا الى منع

(٦٩) المصدر السابق
(٧٠) المصدر نفسه

استغلال وجودنا كما لو كان منافسا للدور السوري .
ونحن قد نُستغَلّ فعلا كأنْ يضعنا فريق في وضع فنبدو معه اننا كذلك . هذا شيء لن نسمح به ، فنحن لا يمكن أن ننافس سوريا . دورنا في الازمة اللبنانية هو دور مساعد لسوريا من أجل مساندة اخواننا الفلسطينيين واللبنانيين .
نحن لا نريد ولا نستطيع أن نتخطى الدور السوري في لبنان وأنا واثق ، كما قلت ، بالموقف السوري وتوجهاته القومية وحرصه على اللبنانيين جميعا » .

وقال :

« ولهذا أترك لبنان بالكامل وأترك معالجة الازمة اللبنانية لأخي الرئيس الاسد ، ونحن في ليبيا على أتم الاستعداد لمساعدة اللبنانيين والفلسطينيين اذا طلبت منا سوريا ذلك ، وبالتأكيد ستتم المساعدة عن طريقها » [٧١].

وعن مسيحيي لبنان ، الذين طالما دعاهم الى الدخول في الاسلام ، وحرّض عليهم اليساريين والقوميين والتقدميين والفلسطينيين والاصوليين الاسلاميين وكل من حمل سلاحا في لبنان [٧٢] ، عاد ليقول ، وانما بلهجة « تنازلية » هذه المرة :

(٧١) المصدر السابق .

(٧٢) « جذور الفكر القذافي » دراسة من وضعنا ، نشرت في كتابنا : « شاهد الثعلب ذنَبه » طبعة ١٩٨٤ ، ص ص ١٤١/ ١٥٧

« لقد تم استفزاز المسيحيين العرب في لبنان الى درجة كبيرة من الطائفيين والناس غير المسؤولين . وساهم التطرف الديني القائم في المنطقة في دفع بعض المسيحيين الى تجاوز الخط الاحمر فتعاون مع الاسرائيلي وبعضه مع الاميركي والبعض الآخر مع الفرنسي .

« والاستفزاز يلد المخاوف والمخاوف قد تدفع المسيحي الى التعاون مع الشيطان . والمسيحي يعتبر الاسرائيلي الشيطان الاكبر . ولهذا على الجميع ان يتوقف عن استفزازهم . لكن ويا للأسف يجري استفزازهم الآن في صورة أكبر مثل الدعوة الى قيام جمهورية اسلامية في لبنان ، كيف يمكن دعوة مثل هذه أن تعلن في بلد نصفه مسيحي ؟ هذا عمل غير مسؤول » .

وختم قائلا :

« أنا أؤيد بعض التنظيمات التي تنسب اليها هذه الدعوة ، كحزب الله ، لكنني أؤيده في جهاده ضد العدو الاسرائيلي . لكنني ضد مثل هذه الدعوة اذا كان يقف معها وعليه ، كما على الاحزاب والمذاهب ، الامتناع عن أي سلوك قد يستفز المسيحيين العرب . القضية الآن هي الدعوة الى الاستشهاد على أرض الجنوب لتحريره من

العدو الاسرائيلي أو على أرض فلسطين . الجهاد يجب ألا يكون الا ضد العدو الاسرائيلي »[٧٣] .

اذن ، لقد غسل القذافي يديه من دم الشيعة ودم المسيحيين ، فبرع في تمثيل هذا « الدور » المسرحي أيما براعة . ولكن بقي أمر واحد تجاهله العقيد في « نقده الذاتي » ، هو اختفاء الامام الصدر والشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين ؟ فكأني به يعتبر هذا الحدث إما من التاريخ وإما غير موجود أصلا .

ألمْ يكن في نية القذافي أن يقول : رحم الله موسى الصدر ، ولكم من بعده البقاء ، وما حدث قد حدث ؟

يعرف القذافي ، كما يعرف الشيعة ، ان ما له بداية له نهاية .

فلماذا لم يعترف العقيد ــ حتى الآن ــ بخطأه اذاً، مثلما اعترف بأخطاء كثيرة ، ويصالح الشيعة ، أو من يقبل مصالحته منهم ، ما دامت علاقته مع قياداتهم الروحية في ايران كما وصفها ؟! أم انه لا يزال يعتقد ان ساعة هذا القرار لم تقترب بعد ؟!

---

(٧٣) الكفاح العربي : ١٩٨٧/١/٢٤

على كل حال ، انها « حفلة غسل يدين » ليس الا . ولن يحدث أكثر مما حدث : بيانات .. وخطب .. وشتائم .. وانذارات .. وتهديدات .. ووعود .. وحرق دواليب السيارات .. واضراب ليوم أو يومين أو ثلاثة .. ولنفترض لاسبوع كامل ، وأخيرا « دملة وانفجرت » وما يراه الحاضر لا يراه الغائب . ولن يبقى سوى غفر الله للامام الشهيد. لقد كان نورا من نور الله ، وضل من يطفىء نور الله . هذا ، وفي أسوأ الاحتمالات مثلها مثل كل المصائب والاحزان التي تبدأ عظيمة وهائلة وجليلة ثم تخف تدريجيا حتى تنتهي وتصبح في ذمة « القاتل الاكبر » التاريخ . على ان النية الجديدة هي الغالبة في النهاية .

فباسم القومية العربية ، وباسم الاسلام بلا مذاهب، استباح القذافي دم نبيه بري .

ولو تهوّر بري وزار ليبيا مثلا ، التساوى ، بكل تأكيد ، والامام الصدر من حيث القدَر على الاقل . ولكن بري في غنى عن هذه التجربة الانتحارية ، ولا أعتقد انه سينخدع أو سيُستنزَل مهما تراكمت عليه الهموم والانكسارات .

ان الوزير نبيه بري هو ضامن لنفسه « الجنة »،

وللشيوعي جورج حاوي « النار » ،فلماذا أخذ مستعجلة من الطريق ؟!

لقد وقع الامام الصدر ، يا للاسف ، في هذه التجربة، فتغيّرت معادلات ، وانقلبت مفاهيم ، وكانت النهاية البداية، كما ظهر لنا حتى الآن • وهي جاءت نتيجة تمسّك الفلسطينيين بوجودهم المسلّح المدعوم من الزعيم الليبي معمر القذافي وسواه من قادة العرب ، على أرض الجنوب، وهذا ما سنبينه في الفصل الثاني •

الفصل الثاني

لعنة الصحراء

"... فمن حق الجمهورية الاسلامية أن تبحث في أي موقع يؤكد وجودها ويرفع الحصار عنها ولو بنسبة معيّنة ، لأن المصلحة الاسلامية العليا وبعض القضايا الاسلامية، تقضي بأن تتقدم مصلحة حماية الجمهورية الاسلامية وفك الحصار عنها على أي مصلحة، لأن انتصارها هو انتصار للاسلام. ولهذا علينا أن نجمّد كل الخطوات التي تريد أن تربك اتجاه الجمهورية الاسلامية نحو النصر. لا تعتبروا المسألة استهانة بالجريمة التي تمثلت في اختفاء السيّد موسى الصدر ، بل مسألة مراعاة طبيعة الظروف الامنية السياسية".

السيّد محمّد حسين فضل الله
في الذكرى التاسعة لاختفاء الامام الصدر
صحف ٢١/٨/١٩٨٧

"المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى ليس عنده أي جديد عن وضع الإمام الصدر ورفيقيه، كل ما تسمح به المعلومات القديمة، والتي لم تتجدّد اطلاقاً، هو أن المجلس وأنا لسنا يائسين من حياة الامام الصدر، وانه ورفيقاه موجودون في ليبيا، خُطِفوا في ليبيا وأُخفُوا في ليبيا وهم موجودون في ليبيا احياء أو أمواتاً. كلما بلغنا نبأ عن مصير الامام ورفيقيه نطرح قضيتهم فنُستمع كلامنا باحترام ونواجه بصمت".

الشيخ محمّد مهدي شمس الدين
صحف ١٩٨٧/٩/١

"إن موسى الصدر لا يزال حيًّا موجودًا واقتناعنا هذا ثابت. أما الاشاعات عن أننا سنعلن اليوم انتهاء موسى الصدر فهي ليست صحيحة وسنعلن اليوم حياة موسى الصدر وولادته. ونقول لجميع "الموشوشين" اننا من المؤمنين والمؤمن متفائل أبدًا!"

الشيخ عبد الأمير قبلان
المفتي الجعفري الممتاز
في الذكرى التاسعة لاختفاء الامام الصدر
صحف ١٩٨٧/٩/١

تمهيد :

بعد أشهر قليلة مرّت على ثورة اللواء جعفر النميري في السودان ، وقبل أن يصبح رئيسا لجمهورية بلاده ، وتحديدا في الرابع والعشرين من آذار ١٩٧٠ ، ذهب (اللواء النميري) في جولة في منطقة النيل الابيض،فوقعت حوادث عنف بين صفوف المتظاهرين من أبناء المنطقة ،ممن خرجوا لاستقبال الضيف القائد الجديد • وقد خطط لهذه الاشتباكات الهادي المهدي ، من مقره في جزيرة أبا، طمعا في القضاء على النميري والوصول الى الحكم • غير ان هذه الحركة سرعان ما أُخمدت على يد الرائد أبوالقاسم محمد ابراهيم ، الذي اقتحم بقوّاته المسلّحة جزيرة أبا، معقل الإمام الهادي المهدي المتمرد ، وطهّرها من جيوب الانصار المتمردين ، وهرب الامام باتجاه الحبشة فلاحقه الرائد أبو القاسم وجيشه حتى الحدود ، حيث جرت معركة فاصلة قُتل فيها الامام [١] ، واستقر الحكم بعد ذلك ، للنميري بين المد والجزْر •

---

(١) الاسبوع العربي : ١٩٧٠/٤/٦

ورفضت طائفة الامام الهادي ، التي يبلغ عددهـا مليون نسمة أو أكثر ، الاعتراف بمقتله ، بل هي اعتبرت ان رئيسها الروحي قد اختفى في ظروف غامضة ، وظلّت تمنّي النفس برجوعه ، وآمنت بأنه لا بد سينتصر ، مهما طال الزمن .

ولما مضى على هذه الحادثة سبع عشرة سنـة ، تم العثور على رفات الإمام الهادي المهدي واثنين من مساعديه في كورموك بالقرب من حدود الحبشة أو إثيوبيا كما تدعي . وبثّت اذاعة أم درمان الرسمية أن مجلس رأس الـدولة السوداني وافق على اعلان الحداد يومي السادس والعشرين والسابع والعشرين من نيسان ١٩٨٧ ، بناء على توصية من لجنـة تضم جميع الاحزاب وتتولى الاشراف على مراسم اعادة دفن الإمام . الا ان السيد ولي الدين المهدي ، نجل الامام ، نفى وجود دليل على ان الجثة التي عُثر عليها هي جثة والده . واتهم الصادق المهدي رئيس الوزراء ، وهو ابن أخي الإمام ، بالتلاعب بأفراد الاسرة تحقيقا لمكاسب سياسية ، ملمحاً الى ان الصادق يريد أن يصير إماما . فعاد الصادق وأكد ان الامام الهادي قُتِل عمدا ، في حين ابدى وزير الصناعة السوداني السيد مبارك المهدي ، وهو عضو في حزب الامة الذي يتزعمه الصادق نفسه ، أسفه لتصريحات

ولي الدين المهدي ووصفها بأنها تتنافى مع القيم الاخلاقية والانسانية والدينية (٢) .

وقيل ان ولي الدين أقام دعوى قضائية تطالب بارجاء عملية الدفن ، حتى يتوصل الى براهين تؤكد ان هذه الجثة انما هي جثة والده ، بينما قال احمد المهدي ، وهو أخ للإمام الراحل ، انه لا يساوره أدنى شك في ما توصلت اليه اللجنة . وقال ايضا ان الاجراءات التي أُعلنت والحقائق التي نُشرت في هذا الصدد كلها صادقة وتوضح ما جرى بدقة لانها مدعومة بالبراهين والادلة الراهنة (٣) . وكانت النتيجة أن تغلّب رأي الدولـة على رأي « المعارضة » وانتهت قضية الامام الهادي المهدي التي استمرت سبع عشرة سنة من الانتظار والترقب ، اللذين تخللتهما من وقت الى آخر قلاقـل واضطرابات شغلت الدولة عن الكثير مـن واجباتها .

نفتتح كلامنا على «لعنة الصحراء» التي ذهب ضحيتها الإمام موسى الصدر ومعاوناه ، بهذا التمهيد ، على أمل أن يتفهم شيعة لبنان عموما ، و « الصدريون » خصوصا ، الواقع ، وينتبهوا لما يحاك ضد لبنان ، ولا سيما الجنوب

(٢) صحف ١٩٨٧/٤/٢٧
(٣) صحف ١٩٨٧/٤/٢٨

منه ، من مؤامرات ودسائس غايتها أن يضيع الجنوب كما ضاع الامام الصدر •

ومما لا شك فيه ان مؤامرة قد دُبِّرت في الظلام للقضاء على الامام الصدر وسياسته ومنهجه الفكري والديني • فلننظر لماذا كانت هذه المؤامرة ، وما هو سر « لعنة الصحراء » التي نزلت عليه ، وأي النتائج والاهداف التي حققتها •

لعبة العرب

في غمرة الانهماك الإعلامي بقضية اختفاء الامام موسى الصدر ، نُشرت ، في بعض الصحف ، تعليقات حول الحادث وتحليلات ألقت أضواء على علاقة الامام بالسلطات الليبية ، وانتهت الى الحكم على الإمام بأنه متورط في أمر مالي كبير مع القذافي مما استدعى اعتقاله للاستجواب •

ولكن « الصدريين » وعددا من أصدقاء الامام نفوا نفيا قاطعا أن يكون الامام قد قبل من القذافي أي مبلغ من المال ، قل أو كثر ، وانما هي مؤامرة دبّرها « الختيار » الفلسطيني ياسر عرفات ، ونفذها « المعتوه » الليبي معمر القذافي •

وأياً كانت نسبة صحة هذه المعلومات والاستنتاجات التي يرفضها « الصدريون » جملة وتفصيلا ، فان الضرورة العلمية التي تتمسك بها في هذا البحث ، كما في سائر بحوثنا ، لتَفرضُ علينا استعراضها والاطلاع على تفاصيلها ، حسبما جمعها الاستاذ انطوان خويري في كتابه « وأخيرا حرقوه » ، نقلا عن صحف ومجلات ذلك الزمان ، وهي كما يلي :

« كشفت مصادر دبلوماسية عربية في طرابلس الغرب ، أن خلافات وقعت منذ حوالى شهرين بين موسى الصدر وبعض الزعماء الليبيين حول أسباب الشلل السياسي الذي أصاب الصدر على الساحة اللبنانية • على الرغم من الوعود التي قطعها للرئيس القذافي شخصيا بأنه سيقوم بتحرك سياسي وشعبي في لبنان لتأييد ومساندة اليساريين والفلسطينيين في لبنان • وتردد في هذا المجال ، ان غداة وصول قوات الطوارىء الدولية الى جنوب لبنان ، استدعى القذافي الامام الصدر ، وطلب اليه اعلان تعبئة « حركة أمل » ومقاومة قوات الطوارىء (الدولية) ومساندة اليساريين وبعض الفصائل الفلسطينية في التسلل الى ما وراء خطوط هذه القوات •

«وقد تولى القذافي تمويل هذه العمليات و « منح »

(المزدوجات من الاستاذ خويري) الصدر رصيدا ماليا كبيرا في بعض المصارف اللبنانية والاوروبية • كما تعهد الصدر بتنفيذ خطة عسكرية وسياسية في لبنان من شأنها عرقلة مسيرة العهد والحكومة واعادة اجواء الحرب الاهلية في لبنان •

«ولكن حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر، وفشل الصدر في تنفيذ الخطة الموعودة ، بفضل الضغوط التي مارسها حكام سوريا عليه » •

ويواصل المحللون القول :

« ويُروى هنا أن الصدر قابل بعد عودته من ليبيا الرئيس حافظ الاسد في دمشق ، وأطلعه على الرغبة الليبية، وعلى المخطط ، وقيل ان الرئيس السوري حذّره من مغبة هذا التحرك معلنا ان أي تحرك عسكري أو عمليات وراء خطوط قوات الطوارىء في الجنوب أو أي محاولة لاثارة الاضطرابات في أي منطقة من لبنان تتحمل مسؤوليته قوة الردع العربية ولا سيما السورية منها • وان التزامه بدعم عهد الرئيس الياس سركيس لا رجوع عنه ، وان سوريا أعلنت موافقتها على تواجد قوات الطوارىء الدولية في الجنوب • وانه يعتبر كل استفزاز لهذه القوات بمثابة استفزاز علني للموقف السوري »•

ويقولون :

« وبالفعل قامت بعض محاولات آنذاك من قبل الفلسطينيين المسلحين (وهم من جماعة الرفض) للتسلل الى ما وراء خطوط قوات الطوارىء الدولية ، الا ان « جماعة أمل » لم تشترك فيها ولم تساندها الامر الذي أثار حفيظة ليبيا •

«وفي حزيران الماضي (١٩٧٨) فوجىء الامام موسى الصدر بدعوة رسمية لزيارة الجزائر حيث قابل الرئيس هواري بومدين ، الذي فاتحه بموضوع « الخطة الليبية» التي لم تنفذ ، وأبلغه استياء الرئيس القذافي شخصيا من هذا الامر • عندها صارح الصدر بومدين بالحقيقة،وأبلغه بأن الرئيس السوري حال دون تنفيذ خطته ، وأكد له بأن سوريا لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية حرب سورية ــ اسرائيلية لا تحدد دمشق مكانها وزمانها ، وان أي تحرش بالقوات الدولية في الجنوب قد يؤدي الى اجتياح اسرائيلي آخر للمنطقة الامر الذي لا تستطيع سوريا مواجهته في الوقت الذي تقف فيه دول « التصدي والصمود »مكتوفة الايدي كما حدث خلال الاجتياح الاسرائيلي للجنوب »•

ويقولون أيضا :

وقد حذّر بومدين الصدر من زيارة ليبيا قبل أن

يتوسط هو شخصيا بالامر وسيشرح للقذافي أسباب «فشل تنفيذ الخطة الليبية » •

« وفي المعلومات أيضا ان الجزائري توسط بين القذافي والصدر عن طريق رسائل تبودلت بينهما في هذا الصدد ، أسفرت عن ترتيب زيارة الصدر الى طرابلس الغرب بمناسبة احتفالات « الفاتح من سبتمبر » •

« وذهب الصدر الى ليبيا حيث اعتُقِل وأُخضع لاستجواب طويل •• عن مصير « الخطة الليبية » في لبنان وعن مصير الاموال التي تلقّاها وعن طبيعة تحركاته واتصالاته مع سوريا وغير سوريا » (٤) •

سألنا بعض« الصدريين » والمقرّبين من الامام: ماذا تقولون في هذه التحليلات ؟ فأكّد الجميع الرحلة الى الجزائر ، والتحذير السوري من خطر التحرك العسكري، أو العمليات وراء خطوط قوات الطوارىء • وأكدوا ايضا ان الرئيس بومدين نصح الامام بعدم الذهاب الى ليبيا قبل ان يسوّي هو بنفسه مشكلة الامام مع القذافي ، التي ما كانت مالية كما يُظن ، وانما هي مشكلة التجاوزات

(٤) انطوان خويري : وأخيرا حرقوه، الجزء السادس ١٩٧٧–١٩٧٨ ص ص ٤٥٣/٤٥٤

الفلسطينية على أرض الجنوب ، اذ لم يبق بالامكان احتمالها والسكوت عنها •

ومن « الصدريين » من ذهب في ردّه على أولئك الذين يحسبون ان الامام قد تلقّى من القذافي رصيدا من المال، الى القول بأن العداء بين الامام والفلسطينيين استحكم تماما الى درجة لا رجوع عنها • ولا سيما ان هذا العداء قد انتقل الى أهل الجنوب فأصبحوا ممتلئين كرها للفلسطينيين ، بعد ما ثبت لهم ان الفلسطينيين أخطر عليهم وعلى أرضهم من اسرائيل وأطماعها ومخططاتها التوسعية• وبتفاقم التجاوزات الفلسطينية على أرض الجنوب أصبح شيعة الجنوب على ثقة بأن الوجود الفلسطيني المسلّح بينهم انما هو الدافع الاول ، ولعله الوحيد للاعتداءات الاسرائيلية عليهم ، وهي ظلّت تتكرر وتتكرر منذ نشأة المقاومةالفلسطينية(١٩٦٤)، ثم تصاعدت حتى كان الاجتياح الاسرائيلي الاول للجنوب في الرابع عشر من آذار ١٩٧٨، والذي وصل الى الليطاني كما هو معلوم •

ونقل بعضهم عن الامام الصدر انه استقبل ذات يوم الامين العام لمنظمة الصاعقة ورئيس « الدائرة العسكرية»في منظمة التحرير الفلسطينية » زهير محسن ، الذي جاءه لينقل اليه خبرا سريا للغاية مفاده ان « الختيار » (ابو

عمار) قد اتخذ بنفسه قرار تصفية الامام الصدر ، بأي طريقة من الطرق ، وبأسرع وقت ممكن . وعلى ما قيل فان زهير محسن توسع في الكلام مع الامام ، فكشف له ان « الختيار » قد عيّن لبعض قياديي منظمة التحرير (...) ثلاث مهمات مصيرية... وطالب بالعمل من أجلها « حتى ولو دفعنا الغالي والنفيس » وهي :

ـ التعامل مع موسى الصدر على أساس أن الطائفة الشيعية في الجنوب أصبحت لا تطيقنا نحن الفلسطينيين .

ـ العمل بشتى الطرق للابقاء على الجيش الاسرائيلي في الجنوب .

ـ تمكين الجيش الاسرائيلي من احتلال أراضٍ عربية أخرى من دون تحديد جغرافي معيّن .

ولما طلب المجتمعون ، والقول منسوب الى زهير محسن ، من « الختيار » أن يوضح لهم خطته ويشرح أسبابها ، قال (أبو عمار) : ان موسى الصدر ، كما تعلمون ، لم يُبقِ لنا ولا صديقا واحدا في الجنوب ، بل حوّل الشيعة كافة أعداء لنا وخصوما لا يقاومون . فاذا انسحب الجيش الاسرائيلي من الجنوب فان ابناء الطائفة الشيعية لا بد من أن يمزّقونا بأسنانهم وأظافرهم ، ولن

تبقى لنا قائمة بينهم . لذلك أرى ان مصلحتنا هي في ان يستمر الاسرائيليون في احتلالهم الجنوب وإلا فقدنا مبرر وجودنا هناك . بل أرى ان مصلحتنا في المدى البعيد هي في دوام الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وما يجب أن نفعله باستمرار هو استفزازنا لاسرائيل لكي تتابع تمددها في الارض العربية ، وبهذا نكون قد أمنّا على وجودنا العسكري ، وحافظنا على استمرار دعم دول الخليج لنا .

ويحسب الذين حدّثهم الامام بما قاله له زهير محسن ، أن ربما اغتيل (زهير) بتدبير من « الختيار »[٥] ، كما اغتال غيره من قبل .

اذا صحّت هذه « الرواية » يسقط القول بأن الامام قد أخفي في ليبيا لاجل المال الذي أخذه من القذافي .

واذا صحت هذه « الرواية » أيضا يكون الامام قد

---

(٥) اغتيل زهير محسن بعد منتصف ليل الاربعاء ٢٥ تموز ١٩٧٩ في مدينة « كان » (Cannes) بجنوب فرنسا . عن هذه المدينة قال ظريف اكويتي « انها اصبحت مدينة العرب والعجم والقحاب ، لانها أصبحت مصيفا للبورجوازية العربية والفارسية » . جاء اليها زهير محسن وزوجته الحلبية الحسناء « عليا شيط » للاحتفال بعيد زواجهما على الشاطىء اللازوردي (الكوت دازور) بدعوة من انطوان فرنسيس سفير لبنان السابق في بلجيكا الذي يعمل كنائب لرئيس مجلس ادارة مؤسسة ألبير أبيلا (الحوادث : ١٩٧٩/٨/٣) .

ذهب ضحية الزعيمين : « الختيار الفلسطيني » ، والعقيد الليبي .

فما هي قصة الامام مع « الختيار » والفلسطينيين ؟ ان هذا ما سنحاول أن نبينه الآن استنادا الى أحاديث صحافية أجراها مع الامام مندوبو بعض الصحف والمجلات اللبنانية، والى بيانات ونداءات وجّهها عبر الصحف في أوقات متفاوتة، مطالبا بانقاذ الجنوب من « الفوضى المسلحة » التي غرق فيها ، وعودة الشرعية اليه والى سائر المناطق اللبنانية .

الاخوّة الزائفة

كثيرا ما تحدّث كل من الامام و « الختيار » وغير الامام وغير « الختيار » من الشيعة والفلسطينيين ، عن الاخوّة بين هؤلاء وأولئك ، القائمة ، كما يحسبون، على وحدة الدين واللغة والارض والمصير ، فضلا عن وحدة المصالح الاقتصادية فيما بينهم والمشاعر الانسانية لديهم .

وفي المقابل نرى أسباب النزاع بين الشيعة والفلسطينيين تزداد يوما اثر يوم، كما لو ان الاخوّة التي يُحدَّث عنها هي مزيفة بل مزعومة لا مبرر لها سوى الكلام فحسب .

فاذا كان على الشيعة وسواهم من اللبنانيين واجب

الدفاع مع الفلسطينيين عن الحق الفلسطيني ، فان على الفلسطينيين أيضا أن يحترموا حق هذه الطائفة أو تلك من الطوائف اللبنانية ، لا أن يكونوا أداة للتخريب والتدمير والتهجير ، أو عنصر الاستفزاز الذي تتمناه اسرائيل وتنتظره من أجل تنفيذ سياستها التوسعية .

ولو قارنّا بين ما فعله اللبنانيون ، والشيعة خصوصا، تجاه الفلسطينيين ، وبين ما فعله هؤلاء ، في لبنان، وخصوصا في الجنوب ، فما هي النتيجة التي سننتهي اليها ، وهل من مجال للمقارنة أو الموازنة بين ممارسة وممارسة ؟!

قبل الكشف عن قصة الامام مع الفلسطينيين، نشير هنا الى ان الامام قد زار المملكة العربية السعودية في شهر تشرين الثاني ١٩٧٧ ، واستقبله الملك خالد لمدة ساعة في جدة ، ثم اجتمع الى الامير (الملك الحالي) فهد بن عبد العزيز ، ثم أقام الامير (ولي العهد حاليا) عبد الله النائب الثاني لرئيس الوزراء آنذاك ، مأدبة عشاء تكريما للامام والوفد المرافق . وفي أعقاب اللقاءات الثلاثة ادلى الامام بتصريح أكد فيه « ان المسؤولين السعوديين متفهمون حقيقة الموقف في لبنان وخاصة في الجنوب ، وانهم لن يتوانوا عن بذل اي جهد من شأنه اعادة العافية الى لبنان، واستكمال مسيرة السلام فيه بحيث تشمل كل اراضيه »[٦] .

---

(٦) الانوار : ٢٠/١١/١٩٧٧

عن أي موقف تحدث الامـام في المملكة العربيـة السعودية يا ترى ؟ وهل ان الامام ذهب الى هناك ليطلب مالاً أم «ضغطا» سعوديا على «الختيار» ـ «النبي الفلسطيني» والفلسطينيين؟ وهل بالتالي نفعت «الوساطة» المملكية السعودية؟

ان أحدا لم يستطع منع الفلسطينيين من القيام بالاعمال العسكرية في الجنوب الا اسرائيل .. وحتى هذه الدولة المدججة بأحدث أنواع الاسلحة والمعدات لم تحسم الامر مثلما تشتهي ، لا في الاجتياح الاول (١٩٧٨) ولا في الاجتياح الثاني (١٩٨٢) ، وربما لن تقدر على هذا ابداء ومن يدري لعلّ اسرائيل هي ايضا تجد مصلحتها في الابقاء على الفلسطينيين في الجنوب، مثلما «النبي الفلسطيني» يرى ان مصلحة الفلسطينيين هي في استمرار الاحتلال الاسرائيلي لهذا الجزء الحيوي والاستراتيجي من لبنان !

« الختيار » يصارع من أجل البقاء ، وانما على غير أرضه ، الا بما يسمح به الشعور القومي العربي والشعور الاسلامي (؟) . واسرائيل تصارع من أجل البقـاء حيث تكون . وبين هذين المتصارعين التاريخيين يقف الشيعـة اللبنانيون ، وبخاصة الجنوبيون منهم ، فاذا تحالفوا مـع اسرائيـل فلعنة العرب والمسلمين تنزل عليهم ، واذا مـا ساعدوا الفلسطينيين خسروا الارض والوجود . فأي طريق

سلكوا لن يكونوا في مأمن ولن يكونوا الرابحين . على ان « الختيار » يعرف هذا تماما ، ولذلك فهو يستميت « دفاعا » عن الوجود الفلسطيني المسلّح بين الشيعـة، لكي يحرجهم فيخرجهم من أرضهم باسم الاسلام وبـاسم القومية العربية .

في حديث أجراه مع الامام ، في دمشق ، مندوب مجلة « الصياد » فؤاد دعبول ، وكانت العلاقات بين سوريـا والمقاومة الفلسطينية في أسوأ أيامها ، سأل الصحافي الامام:

ـ صاحب السماحة ، كنت ولا تزال نصيرا للقضية الفلسطينية ... لكن هناك من يتهمكم في موقفكم منها.. ويقول ان الامام « كوّع » عن موقفه الاساسي من المقاومة، فما هي قصتكم مع المقاومة وهل تغيّر موقفكم فعـلا منها .. تبعا لموقف سوريا الآني ؟

تقبّل الامام السؤال بصدر رحب وطول أناة ، على قول فؤاد دعبول ، ثم اطرق هنيهة ، لكنه ما لبث أن قال:

« ان القضية الفلسطينية ليست ملك أحد . انهـا مسؤولية هذه الامة ، بكل فئاتها وأشخاصها ودولهـا. وانني من خلال تقارير متواصلة كنت ولا ازال مؤمنا بأن اسرائيل هذه الدولة العنصرية الطائفية بما لها من أبعاد ،

شرّ مطلق • ولذلك فان الواجب يتطلب الوقوف في وجهها • وعندما نجد منظمة تتفرغ لمكافحة اسرائيل، فانها بطبيعة الحال تنفّذ ايماني ، بل تنفّذ ما ورد في القرآن الكريم في الوعظ الصريح في الآية الكريمة : « ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » (٧) من دون فرق بين أن تكون هذه المنظمة تحبني أم لا ، تثق في او لا تثق » •

وقال :

« انني سأكون حزينا جدا لتلك المنظمة اذا لم ترد الاستفادة من الطاقات المتوفرة لدى المؤمن بها ، نزولا عند رغبة المؤسسات السياسية التي تتاجر بها كبعض الاحزاب اللبنانية التي أعطت المقاومة قليلا لكي تأخذ منها كثيرا • ثم انني لا يمكنني أن أقبل اتهام سوريا بأنها ضد المقاومة، فانني شاهدتُ قبل الازمة وابانها ، وبعدها ، سلوك السلطات السورية وشخص الرئيس الاسد • فقد كان يعامل المقاومة الفلسطينية ـ ومهما قيل عن هذه المعاملة ـ كان يعاملها كابنه •• أو أخيه الصغير • وكان يتطلع بشوق وتلهف الى ساعة اللقاء معها » •

وقال أيضا :

(٧) البقرة : ٦١

« لقد دفعتُ ثمن اخلاصي الكبير للمقاومة وأنا أمام المهمات لا أشعر بالخسارة ، لاني مارستُ فعل ايماني • لكني آسف من أن خسارة المقاومة كانت في موقفها السلبي كبيرة • كان بامكانها تجنبها ، بل توفير فوائد كثيرة عنها • كل ذلك مع العلم ، ورغم الاعلام الفلسطيني الذي كان قد سيطر عليه الشيوعيون في فترة من الزمن ، انني كنت طوال المحنة على علاقة جيدة بكثير من رجالات فتح • وكان التفاعل موجودا بيننا • ولعل هذه العلاقات ساهمت الى حد كبير في عدم حصول الانفجار النهائي •• واني احمد الله على ذلك » (٨) •

وعاد فؤاد دعبول ليسأل الامام :

ـ ماذا تعني بقولكم : لقد دفعتُ ثمن اخلاصي الكبير للمقاومة وانّك تفاديت الانفجار الكبير معها ؟

لقد أحب الامام هذا السؤال واهتم به كثيرا ، اذ اعتبره ، على قول فؤاد دعبول ، الفرصة المؤاتية التي كان ينتظرها بفارغ الصبر ، ليحكي عن جرحه العميق الذي احدثته له المقاومة ، والذي تواصل الاحزاب نكأه وتفجيره، فرد باسهاب قائلا :

(٨) الصياد : ١٩٧٦/١١/١٤

« ان كلمتي في انني دفعت ثمن اخلاصي ، لا تعني انني أشعر بخسارة في تعاوني مع المقاومة ، ولكنني أقصد ان الذين تعاونوا مع المقاومة كانوا قسمين :

« الاول : المتجسد في قمة عرمون . وكان هذا القسم بجماهيره المؤمنة ، يعطي المقاومة بدون حساب ، وبدون أن يطلب عوضا أو موقعا .

« أما القسم الثاني فهو بعض الاحزاب الحليفة لها ، والتي يؤكد تاريخها بعدم الايمان بالقضية الفلسطينية بشكل مطلق ، بل كانت تلتقي مع المقاومة كقوة كبرى في سبيل تحقيق أهدافها ، أي أهداف هذه الاحزاب ، فكانت تأخذ منها وتشكل غطاء لبنانيا لها » .

أضاف :

« لقد كان التجاذب بين المحورين هذين منذ بداية الازمة على قدم المساواة . وانفجر هذا التفاوت في الموقف، في مهرجان الاونيسكو ، الذي أقيم تكريسا للشهيدة « أمل » . فقد صارحت في ذلك المهرجان بأن قمة عرمون ترفض حرب الجبل ، وترفض العلمنة ، وترفض الادارة المحلية ، كما نرفض حكومة الظل والاعتداءات التي بدأت في بداية الازمة من قبل اليمين . وتحدثنا في المهرجان ذاك عن رفضنا لوجود أي خلاف بين المقاومة وبين سوريا ،

وقلنا ان سوريا هي البعد الاستراتيجي للمقاومة وشريكتها في عملية التحرير ، وانها امتداد قوي للارادة الوطنية اللبنانية ، وان الخلاف بينهما أي بين سوريا من جهة والمقاومة من جهة أخرى ان هذا الخلاف حلقة من المؤامرة.

« وقلنا اننا نرفض أيضا الممارسات الشاذة الطائفية والانتقام من الابرياء وارتكاب أعمال تتنافى مع القيم اللبنانية والعربية . وقلت في نهاية الحديث : يا أبو عمار ـ وكان حاضرا ـ عندما يتآمر عليك الشرق والغرب ، أي اليسار واليمين ، ستجدنا الى جانبك نمسح آلامك ونضمد جراحك ، ونضعك كرمز للشعلة المقدسة بين أضلعنا . وأضفت قائلا : يا أبو عمار ان شرف القدس يأبى أن تتحرر الا على يد المؤمنين » .

وقال الامام :

« انتهى المهرجان، وبدأت الحملات من قبل الاحزاب. وكانت تحاول من خلال بعض العناصر العقائدية ضمن المقاومة والمسيطرة على بعض أجهزة الاعلام الفلسطينية ، وبعض قطاعاتها الاخرى، أن توجه المقاومة ضد قمة عرمون بشكل عام وضدي بوجه خاص . ومن جملة الحملات اتهامي بالانصياع لرأي سوريا ، بعد اتهام سوريا بخصومة المقاومة .

« هذا مع العلم بأن سوريا كما اعترف بذلك عشرات المرات كبار القادة الفلسطينيين وشخص « أبو عمار » بالذات حتى خلال الازمة ، وفي ساعات حصار تل الزعتر ، هي حليفهم الاستراتيجي وانهم لن يصطدموا مع سوريا.

« ثم انني لستُ منصاعا لارادة سوريا ولن أكون . ويَشهد الله انني لو لم اكن مقتنعا بموقفها أي سوريا ، في الازمة اللبنانية ، لما وقفت معها » .

وقال أيضا :

« ان المحنة بالنسبة لسوريا ليست مستعصية الحل لانها دولة تتمكن من الدفاع عن نفسها ، وعن مواقفها ، ولها اعلامها وحلفاؤها وامكاناتها وتاريخها . كما وان المحنة بالنسبة الى رجال قمة عرمون وليدة صورة معينة.. ولي بصورة خاصة لانني مؤمن بالله الذي أكد ان العاقبة للمتقين وان الحق سيظهر وسينتصر . ان الآلام سبيل الكمال .

« لكن المحنة تعاظمت على شباب حركة المحرومين ، وعلى جماهيرها الذين قدموا أشرف ما يملكون في سبيل القضية الفلسطينية ثم فوجئوا بأن بعض حلفائهم يتهجمون، ويضربون ، ويعتدون عليهم بحجة الدفاع عن القضية

الفلسطينية . وقد عانيت صعوبات بالغة في اقناعهم بعدم الرد . وقد وفقني الله في ذلك حيث ان نخبة شباب هذه الحركة هم عميقو الايمان ، فلم يردوا رغم انهم تعرضوا لاقصى درجات الاستفزاز الى ان تجاوزت المحنة .. وبدأ الآن التعاطف والتعاون ينمو بينهم من جديد » [٩] .

أجل ، لقد كانت ردود الفعل ، على الامام ، الصادرة عن الشيوعيين وسائر حلفاء المقاومة ، والمقاومة ، عنيفة وعنيفة جدا . ولا شك في ان تقارير شتى ومطوّلة نظمها رجال المخابرات العربية والاجنبية، الذين تغص بهم بيروت، في حق الامام ، وكل مخبر حسب اسلوبه وانتمائه ، الامر الذي جعل عام ١٩٧٦ عام التشهير بالامام، لكثرة المتحاملين عليه والحاقدين والساخطين . وأول المهتمين بالتحالف الفلسطيني ــ الشيوعي ، من الزعماء العرب ، هو العقيد معمر القذافي ، الذي يمد الفلسطينيين والشيوعيين والتقدميين والقوميين بالمال والعتاد . فعندما بدأت أخبار الامام تصله بشكل واضح ومفصّل ، أخذ يبدي اهتماما خاصا بهذه الشخصية المثيرة ، وكلما وصله تقرير من لبنان تناوله على عجل ، لكي يعرف أين صار الامام ، الذي « كوّع » عن موقفه الاساسي من المقاومة ، وما هي حقيقة أهدافه السياسية.على ان القذافي هو أشد الملوك والرؤساء

(٩) المصدر السابق .

العرب كراهية للحركات الامامية في المشرق والمغرب . فلا يستبعد أن يكون قد خالجه الشعور بأن الامام موسى الصدر ربما كان « فاطمي » العصر ، ويريد بعث « الدولة الفاطمية » من جديد .

وعلى كل ، فان القذافي لن ينسى انه في ليبيا كان اتباع الطريقة السنوسية يتوسمون أن يكون شيخهم محمد المهدي السنوسي [10] هو المهدي المنتظر ويترقبون اعلانه اياهم بذلك ، وان زعماء السنوسية كانوا يعدّون لذلك بدقة ، بحيث أرسل الشيخ محمد السنوسي زوجته الى ماسا لتلد له هناك محمد المهدي هذا ، لان بعض الروايات

---

(10) هو محمد المهدي بن محمد علي السنوسي ، ولد بماسا بالمغرب في ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م وخلف أباه في زعامة الطريقة السنوسية في ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م ، ولصغر سنه كانت أمور الطائفة في يد أوصياء حتى بلغ الرشد . ازداد عدد المريدين في زمنه وبلغت شهرة الطائفة شأواً عظيما ويقال انه كان يعد نفسه للمهدية . عمّت صلاته بالامم الافريقية جنوب الصحراء الكبرى الى واحة كفرة بعد أن ترك أخاه في جغبوب ، عاصمة السنوسية التقليدية . اتصل به المهدي (السوداني) وعرض عليه خلافة عثمان بن عفان ، وهو ثالث منصب من مناصب الخلافة عنده ، وخيّره بين الانضمام اليه والهجوم على مصر ولكنه رفض العرض ولم يشأ أن يرد عليه مما أدى الى توتر في العلاقات بين اتباعه في حوض تشاد وبين انصار المهدي . ومن جهة الشمال كان السنوسي يواجه التوغل الاوروبي في ليبيا . توفي سنة ١٩٠٢ .

تنبأت بأن ظهور المهدي المنتظر يكون بماسا هذه ، وقد أطلق على المولود « محمد المهدي » وهو من أسماء المهدي المنتظر في بعض الاقوال . وقد بلغ خبر المهدي المرتقب هذا السودان ، وذكر مهدي السودان (١٨٤٣ — ١٨٨٥) انه كان يتوسم المهدية في شخص محمد المهدي السنوسي وانه ومريديه كانوا عازمين على الهجرة اليه عند ظهوره وانهم بادروا بالكتابة اليه [11] ، كما ولن ينسى (القذافي) ما لدى معظم مسلمي المغرب العربي من رغبة في تصديق الدعوة الى المهدي والدولة المهدية .

لهذه الاسباب كلها ، مجتمعة او متفرقة ، بلغ سوء ظن العقيد القذافي بالامام الصدر أعلى درجات الشكوك والريَب ، فبات لا يرى فيه سوى العدو المتآمر الذي قد ينقضّ عليه بين عشية وأخرى ، فيخلعه عن « العرش » مثلما خلع هو ادريس السنوسي بعد تسع عشرة سنة قضاها في المُلك .

نعود الى حديث الامام لـ « الصياد » ، بل الى

---

(11) الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم : الحركة الفكرية في المهدية ، دار الجيل — بيروت ، طبعة ثانية ١٩٨١ ، ص ٩/ ١٠ . والدكتور أبو سليم ترجم في كتابه هذا للمهدي مؤسس « الدولة المهدية » في السودان .

قصته مع المقاومة الفلسطينية وحلفائها .فقد سأل فؤاد دعبول محاوره هذا السؤال أيضا :

ـ سماحة الامام يُنسَب اليكم أنكم خلال جولتكم العربية مثلتم دور المحامي عن سوريا ، امام الرئيس السادات والملك خالد والشيخ صباح السالم الصباح وانكم شهّرتم بموقف المقاومة ؟

فرد الامام قائلا :

« ان هذا جزء من الحملة المسعورة التي وُجهت الي . وبامكان قادة المقاومة والقادة اللبنانيين أن يستفسروا عن خلاصة حوارنا مع الرئيس السادات والملك خالد والامير صباح السالم الصباح الذين كانوا يضعون كبار مستشاريهم في جو محادثاتنا . مع العلم ان لقاءاتي مع هؤلاء الرؤساء في كثير من الاحيان لم تكن منفردة . ثم ان النتائج التي ساهمتُ بتواضع فيها ولو من قبيل « البحصة التي تسند الخابية » (قد) أسفرت عن الخط الذي كنت أتحرك فيه . وقد شهد جلالة الملك خالد بعد تشرفي بمقابلته ، أمام كبار مستشاريه بقوله : ان ما سمعتُه من موسى الصدر كان أصدق تحليل ، وأدق عرض لابْعَاد الازمة . وعلينا أن نستمع اليه باهتمام ، ونتجاوب معه . كما أبلغني الاخ أحمد بن سودة مندوب جلالة الملك الحسن الثاني الذي قام بدور مؤثر جدا في التمهيد للقاء الرياض عن لسان

الرئيس السادات انه أكد عليه بعد مقابلته : عليك أن تلتقي بموسى الصدر في رحلتك ، وتنسق معه ، فقد وجدته موضوعيا وهادئا . والحقيقة ان هذا هو سر نجاحي في هذه المهمة . فسوريا لها رجالها الاذكياء الذين يملكون القدرة للدفاع عن مواقفها دون حاجة الى مثلي » (١٢) .

اذاً ، الاحزاب والمقاومة مقتت الامام ، فمقتتها هو أيضا ، فعزل الواحد منهما الآخر ، وكادت لعبة شد الحبال أن تبلغ مداها لولا الوسطاء من الداخل والخارج .
فما نسبة وجودهما عند كل من الامام و « النبي الفلسطيني » المسلّح (*) .

يتفق عارفو الرجلين على ان الفرق بينهما كبير وعميق . فالاول مثالي وقلق وسلس وعميق ولسِن . والثاني واقعي وليْلي" وخبيث ومعبأ ونمّام وكذّاب ، والصفة الاخيرة أطلقها عليه المرحوم الشيخ بشير الجميل . فقد يقول الامام ، في جلسة واحدة ، كل ما في باله تقريبا ، ويقدم أقصى ما لديه . بينما « النبي » يأخذ قبل أن يعطي ، ولا يعطي الا" بحساب . هو يؤمن بالمقايضة : أعطيك « أمنا »

(١٢) الصياد : ١٩٧٦/١١/١٤
(*) لقد دعوت ياسر عرفات أو « الختيار » ـ حسبما يدعوه انصاره ـ « النبي الفلسطيني المسلح » (انظر كتابي قضايا مشرقية ، طبعة ١٩٨٦ ، ص ١٩٦) ولذلك سيتكرر منذ الان اما هذا اللقب واما « الختيار » واما الاثنان معا (م.ج).

وتعطيني دولارات • أعطيك دولارات فتعطيني اعلاما •
أعطيك بندقية فتعطيني عبودية • وفعلا كان المقاتلون
الشيعة ممن انضموا الى « فتح » ــ قبل حركة « أمل » ــ
يجاهدون بين يدي «النبي الفلسطيني» كأنهم العبيد• واحد
هذا « النبي » دائما واحد ونصف • وأحيانا اثنان• والويل
لمن يتوسع معه في العلاقات • « فواتيره » جاهزة على
الدوام • وكان الله في عون من يتخلف عن الدفع •

عندما قال سليم اللوزي لـ «الختيار» ـ«النبي» مرة :
« لقد أصبحتم طرفا في السياسة اللبنانية » رد عليه
« النبي » قائلا :

« نحن لم نفكر أبدا في أن نكون طرفا في الساحة
اللبنانية وبذلنا كل جهد ممكن لتجنب ذلك • لقد وُجدنا
في لبنان نتيجة الظروف المعروفة • ثم كانت اتفاقية
القاهرة (١٣) التي نظمت هذا الوجود • وهي اتفاقية وقعها
رئيس الجمهورية وقائد الجيش ووافق مجلس النواب
اللبناني وضمنتها كل الدول العربية • ولكن الفارق بين

(١٣) الغى هذه الاتفاقية مجلس النواب اللبناني في جلسة
يوم الخميس ١٩٨٧/٥/١٥ . والذي يجب التذكير به حديث
العميد ريمون اده لـ « النهار العربي والدولي » العدد ٥٢٦
تاريخ ٧ حزيران ١٩٨٧ ، والمنشور كراسا تحت عنوان :
« العميد ريمون اده يتكلم بعد الغاء اتفاق القاهرة » .

وعد بلفور واتفاقية القاهرة ان الحكومة البريطانية لم
تتنكر لوعد بلفور • وباستمرار كنا في موقف دفاعي ولم
تتخذ أبدا موقفا عدوانيا ، او الرغبة في تفجير الوحدة
اللبنانية ، لاننا كنا ولا نزال نؤمن بأن وحدة واستقرار
لبنان هما من مصلحة الثورة الفلسطينية • ونحن لا ننسى
لبنان انه أعطانا حرية العمل السياسي وفرصة مخاطبة الرأي
العام العالمي » (١٤) •

مَن يُصدّق هذا الادعاء •

والاصح : مَن الذي لا يُكذّب هذا الادعاء ؟

« النبي الفلسطيني » حرّف الشعار الصهيوني: ادفع
دولارا تقتل عربيا ، فصار : ادفع دولارا تقتل شيعيا أو
مارونيا •

ولما قال له سليم اللوزي : « ولكن الموارنة لا
يستطيعون أن ينسوا الشعار الذي ارتفع خلال حرب
السنتين والقائل : (تحرير فلسطين يمر بجونيه) جاوبه
قائلا :

« هذه كلمات انفعالية يُقال مثلها واكثر خلال
المعارك ، وعندما يتوقف الحوار • والحقيقة التي يجب أن
لا ننساها هي وجود أزمة بين اللبنانيين سابقة على الوجود

(١٤) الحوادث : ١٩٧٨/٥/٢٦

الفلسطيني ، ووجود عوامل ومخططات اقليمية ودولية ، استدرجنا من خلالها لكي نكون طرفا في القتال الذي لم نرده ، ان لم نقل اننا كنا الهدف لهذا القتال » (١٥) .

هنا قال سليم : « ولكن الطرف الماروني يقول انهم لجأوا الى السلاح لوضع حد للتجاوزات الفلسطينية التي مست سيادة لبنان . فهز « أبو عمار » رأسه متأسيا وقال:

« لقد سلّمنا بوقوع تجاوزات ، فليست هناك ثورة قامت بدون تجاوزات ، خصوصا في ظروف الثورة الفلسطينية والحصار الذي تواجهه في كل مكان ، وعدم وجود تقاليد للعمل المسلّح الشعبي في الوطن العربي . ولقد حاولنا بكل وسيلة ضبط هذه التجاوزات بالتعاون مع السلطة اللبنانية يوم كانت هناك سلطة » (١٦) .

وانتقل « الختيار » ـ « النبي » في حواره مع سليم اللوزي ، من موقع المجيب الى موقع السائل ، فقال :

« ما اكثر الاتهامات التي توجه الينا في لبنان وهي أشد على النفس الفلسطينية من المعارك . عندما جاء الرئيس الياس سركيس الى الحكم رغم معارضة اليسار

---

(١٥) المصدر السابق .
(١٦) المصدر نفسه

اللبناني وتحذيره لنا بأنه مرشح القوى المعادية للثورة الفلسطينية ، فقد أيّدنا ممارسته لسلطته الشرعية ، وقبلناه حكَما ، وبذلنا جهودا معروفة لتسهيل مهمته في اعادة بناء المؤسسات اللبنانية ... فهل ينطبق الموقف نفسه على الجبهة اللبنانية ؟ وأخيرا لا آخرا ، هل التجاوزات على السيادة اللبنانية تبرر هدم لبنان كله ؟ » (١٧) .

اذ ذاك ، قال سليم : « لنترك الماضي ، نحن الآن أمام أوضاع جديدة ، فالمفهوم أنكم قد أُخرجتم من جنوب لبنان على يد الجيش الاسرائيلي وقوات الامم المتحدة ، فما هو الحل ؟ »

وغيّر « النبي المسلّح » ، عندئذ ، موقعه وراح يقول:

« أولا ، لقد قاتلنا اسرائيل ثمانية أيام وأجبرناها على تحويل ما ادّعت انه عملية بوليسية الى حرب كاملة استخدمت فيها كل ترسانتها العسكرية من الطائرة ف ١٥ الى قنبلة « البلي » المحظورة ، الامر الذي أثار احتجاج حتى أنصار اسرائيل داخل الكونغرس الاميركي . أما قرار الامم المتحدة فلا يتضمن اكثر من الاشراف على جلاء اسرائيل من الاراضي اللبنانية ، ولا يتضمن اية اشارة

---

(١٧) المصدر السابق .

لاخراجنا من الجنوب . واية محاولة لتفسير قرار الامم المتحدة رقم ٤٢٥ على انه يعني خروج الاسرائيليين والفلسطينيين معاً هي مطلب اسرائيلي »[١٨] .

في ختام هذه الجلسة ، وككل جلسة عرفاتية ، أطلق « الختيار » (أبو عمار) « بالونا » وطيّره في سماء لبنان، وقد ربطه بشريطة بيضاء لئلا تطلق اسرائيل عليه النار ، وهو يعبُر نحو العرب ... ويقول « البالون » العرفاتي :

« بالنسبة للامم المتحدة لقد أعطيناها كلمتنا ونؤيد مهمتها لتحقيق سرعة واجلاء الاسرائيليين . أما بالنسبة للمبرر ، فمنذ وعد بلفور والعرب يعرفون ويتحدثون عن أطماع اسرائيل في جنوب لبنان . والعملية الفدائية الاخيرة التي تذرعت بها اسرائيل[١٩] جاءت من البحر وليس من الاراضي اللبنانية . ومع ذلك فالفلسطينيون ، وأصدقاؤهم من اللبنانيين هم وحدهم الذين دافعوا عن جنوب لبنان».

ويضيف « البالون » قائلا :

---

(١٨) المصدر السابق .

(١٩) يقصد عملية الاوتوبيس الاسرائيلي التي قامت بها مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين على الشاطىء الاسرائيلي (الفلسطيني) ، وفي مكان قريب من الناقورة اللبنانية . وعلى أثرها تم الاجتياح الاسرائيلي الاول للجنوب .

« ان الثقل الاساسي للثورة الفلسطينية أصبح داخل فلسطين . كل ما نريده من الدول العربية ، بما فيها لبنان ، أن تتيح لنا حق الوجود السياسي والاعلامي ، والسماح لنا باقامة مراكز لتعليم أولادنا حقهم في وطنهم فلسطين ، واعدادهم للدفاع عن هذا الحق » .

ويقول أيضا :

« المسيحيون يطلبون بلدة الدامور ، ونحن على استعداد لردها اليهم ، شرط أن يعود اليها المهجّرون من أهلها وليس المسلّحون من الميليشيات »[٢٠] .

خرج سليم اللوزي من عند « الختيار » ليبشّر الرئيس صائب سلام ، زعيم المصيطبة سابقا ، بما سمع ورأى ، فاعتقد البيروتي العتيق ، ان « الختيار » صادق هذه المرة ، فقال لسليم : « ما يعرضه أبو عمار يعبّر عن رغبة الاهالي الذين يطالبون بجعل بيروت مدينة منزوعة السلاح . ولذلك فأنا لا يمكن أن أوافق على خروج المسلّحين الفلسطينيين وحدهم من العاصمة بل يجب خروج جميع المسلّحين سواء كانوا لبنانيين او فلسطينيين »[٢١].

---

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) المصدر نفسه

فاطمأن « الختيار » الى ما قاله الزعيم البيروتي ، الذي لما رأى « بالون » صاحبه في سماء المصيطبة ضاحكا، حيّاه وقال له : امضِ بسلام ، بأمر من ابن سلام البيروتي، السني ، الحافظ ، المحافظ ، الى جدة أو الرياض ، وان شئت الى مكة أو الطائف . وسلّم على الاخوان ، من الملك خالد ، الطويل العمر ، الى آخر رجال المملكة والديوان . ومضى « البالون » يتابع سيره ، وهو يرتل :

« الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا منبسطة في السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً فترى الودْق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوا من قبل ان يُنزّل عليهم من قَبْلِه لمُبْلسين. فانظرْ الى آثار رحمة الله كيف يُحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمُحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . ولئن أرْسَلْنا ريحا فرأوْهُ مُصْفرّاً لظلوا من بعده يكفرون » (٢٢) .

بين «الفاكهاني» ،مقر «النبي المسلّح» ـ الامبراطور (٢٣) والمصيطبة ، كانت رحلة سليم اللوزي السعيدة . وكان

---

(٢٢) الروم : ٥١/٤٨ . الودْق : المطر . وقيل الودق موضوع في الاصل لشيء يشبه الغبار في وسط المطر ثم استعمل للمطر تجوّزا .

(٢٣) مصطفى جحا : « في سبيل وطن وقضية » طبعة ١٩٨٠ ص ١٤٢/١٣٨

التذكير بالسؤال الذي طرحه العقيد القذافي ، في احدى خطبه الاخيرة وهو :

« لماذا ينهزم العرب ويعجزون عن استثمار امكاناتهم الجغرافية والبشرية والنفطية والمالية من أجل حمل المجتمع الدولي على تنفيذ قراراته باقامة وطن للفلسطينيين واعطائهم حقوقهم المشروعة ؟ »

وبوحي من « النبي ـ الختيار » ، ربما ، قال سليم اللوزي مفتتحا محضر الجلسة أو « الرحلة » :

« **هذا السؤال لا يمكن الاجابة عنه الا في مناخ** الحرية الذي عرفه لبنان قبل حرب السنتين، أي عام ١٩٧٥ . وكثير من المراقبين في العالم العربي يعتقدون ان عودة مناخ الحرية الى لبنان هو الذي سيوفر عوامل النجاح لمؤتمر قمة عربي يحاول الاجابة عن هذا السؤال » (٢٤) .

من الذين انطلت عليهم كلمات « الختيار » كما نقلها اللوزي ، الامام موسى الصدر النائم على مجد شهادتي الملك خالد والسادات بموضوعيته وهدوئه وفهمه للاحداث . استيقظ الامام على هدير « البالون » يمر من فوق المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى بالحازمية ، فقال :

---

(٢٤) الحوادث : ١٩٧٨/٥/٢٦

فـُرجت والحمد لله • الآن صار يجب أن تتحرك • اذا لم تأتِ من المشرق فقد تأتي من المغرب • بل هي آتية من المغرب حتما • القذافي والحرية صنوان • هزيمة العرب لا يعرفها الا القذافي وأنا • يبدو أن « أبو عمار » قد تغيـّر • لِمَ لا ؟ أليس «أبو عمار» من البشر ؟ هو مجاهد ، وأنا مجاهد • ومهما بلغ النزاع بيننا وبينه ، فهو لا شك أفضل من الشيوعيين والقوميين والتقدميين • و « أبو عمار » ، طلع أو نزل ، « إخـْونجي » يعرف قيمة الدعوة الى الوحدة الاسلامية • وليس أفضل من « أبو عمار » والقذافي في هذه الايام • ما أحلى الرجوع الى جبل عامل • الى صور • الى شوارع صور • الى نادي الامام الصادق في صور • الى « مؤسسة جبل عامل » في البرج الشمالي • الى شاطىء صور • الى بساتين صور •

وتذكـّر الامام لقاءه الصاخب مع خالـد الحسن في الكويت ، فراح يحدّث نفسه : كيف كان ذلك اللقاء ؟ ماذا قال خالد ؟ ماذا قلت أنا ؟ المهم ، الآن ، العودة الى « أبو عمار » • والأهم أن يتصالح « أبو عمار » وحافظ الاسد • اذا رجع « أبو عمار » الى دمشق تستقبلني ليبيا استقبال الفاتحين •

نظر الى « الارشيف » والحزن يملأ عينيه الواسعتين•

مد يده وسحب بعض الاوراق ، ثم أخذ يقرأ مما قاله خالد الحسن :

« اننا نعرف جيدا سماحة الامام ، ما يعانيه الجنوبي بسبب الوضع الشاذ الموجـود الآن فوق أرضه • وأنتم تعرفون ، بالضبط ، تفاصيل كثيرة عن سبب تدهور الامور الى هذا الحد ، وتعرفون أكثر عن الاوضاع الامنية التي طرأت ، بعد دخول قوات الردع العربية لبنان ، والفـراغ الامني الحاصل في الجنوب ، وأسباب ونتائج القتال الذي دار طوال السنة المنصرمة فوق أرض الجنوب • ولن اعيد صياغة الحوادث وترتيبها بحيث أجزم ، بعد العرض ، بأنه لم يكن للمقاومة حيلة في منع ما جرى ، فلقد فرضت عليها الاوضاع فرضا ، ولم تكن البادئة بأي حال من الاحوال• فضلا عن ان عدم تنفيذ المرحلة الاخيرة من اتفاقية شتورة لا تعود اسبابه اليها • فاسرائيل تعنـّتت • والسلطة اللبنانية طرحت بديلا للاتفاق • ولم تلتقط المقاومة أنفاسها لتدرس العرض الجديد حتى انقلبت الاوضاع رأسا على عقب في العالم العربي واتجهت الاحوال في الجنوب نحو التجميد الكامل •• ثم ماذا ؟ نعترف ان هناك تجاوزات • وهـذه أفرزتها ظروف قاسية على الثورة والثوار والقضية والقضاة » [٢٥] •

---

(٢٥) الصياد : ١٩٧٨/١/٢٦

أخذتْ الدهشةُ الامام ، كما لو انه لم يصدقّ ما
يقرأ • وبهدوء ضرب كفّا بكف • تلمس ساعته • شد على
صدغيه بأصابع يده اليسرى ليمارس التأمل • ولأن عمامته
لم تكن مثبتة على رأسه تماما ، بدت غرته التي خالطها
الشيب مثل المكان المنحدر من مكان شاهق • همس متأملا:
اذا كان خالد قال هذا ، فكلامه صحيح ، ولا غبار عليه •
ولكن جوابي كيف كان اذاً ؟ عينا الامام على الصحيفة •
العنوان : « التجاوزات هي المأساة » • قال : ليست المقاومة
وحدها التي تسبب التجاوزات • الاحزاب كلها في وضع
لا تُحسد عليه • اليمين مثل اليسار • الكل في مأزق • لا
فضل لحزب على آخر • ان هذا ما قلته في الكويت • ولكنني
لا أذكر ما قلت • ربما قلت غير ذلك • الكلمات مرهونة
بأوقاتها • لنراجع اذن •

تقول الصحيفة :

« ورجع الامام الصدر للإمساك بالحديث :

نعم •• لقد وصلت (الكلام موجه الى محاوره خالد
الحسن) الى صلب الموضوع • التجاوزات ؟ حسنا ، نحن
سنفترض معك ان هذه التجاوزات انما كانت طارئة على
الوضع العام المأساوي في الجنوب •• لكنني اقول لك
صراحة ، والتقارير اليومية تأتيني من كل قرية ومدينة في

الجنوب ، ان هذه التجاوزات ، بعد تجميد الاوضاع في
المنطقة ، بل لو سمحت لي بالقول ، انه حتى قبل التجميد
بكثير ، شكّلت هذه التجاوزات ، وما زالت تشكّل ،
المأساة الحقيقية لابناء الجنوب • التجاوزات ، هل هناك
حاجة ، لان أفصّل لك معناها ، وأسرد لك حوادثها ؟
أظنكم تحفظونها عن ظهر قلب •• فلم تعد سرا ، ولا همسا
يتداول بين المتذمرين •• وقد لا أكون مغاليا ، لو قلت لكم
ان لب الصراع وجوهره قد طمس أخيرا ، مع تفاقم موجة
التجاوزات ، وردود فعلها وآثارها بحيث بتّ مضطرا لأن
أحذّر ، من موقع الغيور المحب للقضية ، بأن مصالحكم
كلها مهددة في الجنوب اذا استمرت الاوضاع على هذه
الحال المتردية ولم تتدارك المقاومة الخطر القادم اليها بيد
أعز وأهم حلفائها » (٢٦) •

لقد أغضبتْ الامام هذه الكلمات ، فتصبب العرق
من جبينه على عينيه وخديه • فرك يديه وأصلح عمامته، ثم
تابع القراءة •

أضافت الصحيفة :

« وتساءل الحسن :

---

(٢٦) المصدر السابق .

— هل تملك ، سيدي ، معلومات دقيقة حول الخطر؟ انك تحذّر ...

أجابه الامام :

— نعم . أنا أحذّر من منطلق الملتزم المؤمن بقضيتكم ..فالأمور أفلتت في الجنوب من أيدي الناصحين والحكماء، وصارت بيد العامة ؟! وأنتم تعرفون ماذا يعني ذلك ؟

سأل الحسن :

— ماذا تعني سيدي ؟

ردّ الامام :

— أعني ان لدي معلومات تقول بأن الوضع بالجنوب ينذر بالانفجار ضد كل التجاوزات الحاصلة ، ولا أستبعد مثلا أن تتغير التحالفات وتنقاد فئة ما هاجسها فك حصار اليأس الى القيام بأعمال انتحارية ، أو قل غير طبيعية ضدكم !

أجاب الحسن :

— أستبعد ذلك...اذ ان قيادة المقاومة تعمل،منذ أن تجمد الوضع ، على تنفيذ سياسة جديدة ، ترمي الى ضبط

عناصرها وتأمين عزلها عن قضايا الناس العادية في الجنوب وارجاعها الى ثكناتها .

قال الامام :

— اني هنا أنصحكم ، فأنا منكم ولكم . الوضع ينذر بانفجار .. فماذا تقترحون ، وأنتم في مركز المسؤولية من أجل تدارك الامور قبل فوات الاوان ، خاصة وحالة الجمود هذه قد تدوم أشهرا ، أو سنوات ، والمقاومة لن تخرج من الجنوب قريبا ؟» (٢٧)

جبة الامام بللها العرق . هو تضايق من نفسه متسائلا : لماذا الانفعال الى هذا الحد ؟ الى أين يذهب الفلسطينيون ؟ لقد طُردوا من المناطق المسيحية من بيروت، فهل نطردهم نحن أيضا من الجنوب ؟ ألم يكن باستطاعتي لجم عواطفي ؟ وتابع القراءة :

« بعد هذه المناقشات العاصفة ، التي اهتزت لها الكويت ، قُدمت اقتراحات عملية منها : تأليف لجنة فلسطينية لبنانية جنوبية تدرس على الطبيعة مقتضيات المرحلة الجديدة وتضع يدها على الجرح وتصف الداء . كان هذا اقتراح خالد الحسن . بينما اقترح الامام العمل

---

(٢٧) المصدر السابق .

فورا على تشكيل اللجنة بحيث تكون أولى مهماتها تغيير قيادات المقاومة في الجنوب ، وتسليم المسؤولية لعناصر لم تشترك في « المعمعة » الجنوبية ، وترضى عنها الشخصيات الجنوبية التي ستشارك في اللجنة . واقترح الامام أيضا أن تكون هذه اللجنة بمثابة « محكمة أمن عليا » ، أو لجنة ارتباط ذات فعاليات وصلاحيات ، وبامكانها تنفيذ برامجها فورا .

« على ضوء هذه الاقتراحات حدد المجتمعون مكان العمل وتاريخه للبدء في تنفيذها .

« وفعلا ، وصل خالد الحسن ، مساء اليوم التالي الموافق التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٧٨ ، الى بيروت ، في زيارة خاطفة . واجتمع فورا بقيادة المقاومة ، وبالامام الصدر ، وبوشرت الخطوات العملية التي تم الاتفاق عليها في الكويت » (٣٨)

واذ أنجز الامام مراجعة وقائع اجتماع الكويت عض على شفته السفلى قليلا ... وسكت بضع دقائق ، حتى برد جوفه وجفّ عرَقه ، فقال : لا بد من السؤال : من

(٣٨) المصدر السابق .

غلّب من في هذا الاجتماع ؟ وطوى الاوراق ، ثم أعادها الى الخزانة .

لا شك ان كلا من الامام وخالد الحسن يحسب نفسه المنتصر .

التجاوزات موجودة وغير موجودة . المقاومة مخطئة وليست مخطئة . عند الجنوبيين جزء من الحق وجزء من الباطل . هذا هو ملخص « الاجتماع التاريخي » الذي يحتم التعقل والاستعجال في الانقاذ . ولكن انقاذ من ؟ انقاذ الجنوب ؟ لا . ان هذا لمن المهمات المستحيلة . اذن ، لا بد من أن يكون انقاذ الإمام .

من ينقذ الامام ؟

ليس مثل الحرية تخلّص الامام والجنوب . والحرية ، في هذا الزمن ، هي اشارة أو جزء من اشارة من القذافي .. العقيد الرئيس .

هذه الافكار التي راودت الامام جعلته يعود الى الاوراق التي كانت بين يديه ثانية . هو لم يقرأ كل ما قاله خالد الحسن . عدّل الامام جلسته . حرّك رأسه يمينا ثم شمالا . تناول سيجارة ، وأخذ يقرأ بكل هدوء :

« وقال خالد الحسن :

ان هنالك اشاعات كثيرة ، تروجها مصادر معروفة تضخم التجاوزات وتضخم النقمة ضدها ، وهي في كل الحالات عملت في الماضي ، وتعمل في الحاضر ، وستعمل في المستقبل ، من أجل تشويه وجه المقاومة ودورها وأهدافها، وتحميلها مسؤولية كل الامور المتدهورة في لبنان ، وذلك رغبة في إحكام سيطرتها على الموقف ، وتنفيذا لسياساتها التي باتت معروفة ومشهورة . ولقد سمعنا بأخبار مذهلة عن هذه التجاوزات فلما ذهبنا نتحقق (وأؤكد لكم ان الضرر منها يصيب المقاومة بالصميم قبل أن يصيب أياً كان) (الكلام بين القوسين للحسن) استطعنا أن نفرز التهويل من الحقيقة ، ونحدد بالضبط أين ، وكيف ، ولماذا هذا الخلل » .

وقال الحسن أيضا :

« نقرّ معكم ، سيدي ، (والكلام موجه الى الامام)، ان ثورة من هذا النوع ، عانت من كل أشكال الضغط ومحاولات التصفية وأهوال الحروب ، ليست معصومة أبدا ، وأفرادها هؤلاء الذين ترعرعوا بين الفقر والتشرد، لن يكون باستطاعتهم ، تجاوز أوضاعهم السيئة، بالتنسك، والعصمة ، والعفة الشديدة ، هذه الامور نفهمها جيدا ،

وان كنا لا نقرها ، ونحن ميالون بطبيعتنا ومصالحنا الى ضربها بقسوة . لكننا نعرف انها موجودة ، وانها وليدة أقسى الظروف ، وان علينا ايجاد طرق ناجعة جديدة لمكافحتها .. لكننا كما قلنا لا نقبل العمل من منطلق المبالغات والتهويلات التي يمارسونها حربا نفسية مركزة ضد وجودنا في الجنوب اللبناني » [٢٩] .

لقد استنتج الامام من مجمل ما قرأ ، أن خالد الحسن يفكر مثل «الختيار ـ النبي»، مثل جورج حبش ، مثل آخر قيادي فلسطيني .. بل مثل الفلسطينيين جميعا ، قياديين وغير قياديين ، خاصة وعامة . على ان كل هؤلاء ، مهما اختلفت مستوياتهم وكوادرهم وأفعالهم ، انما يفكر عنهم زعيم عربي واحد ، هو العقيد معمر القذافي . مما يعني ان المصالحة الشيعية ـ الفلسطينية لا تتم ولن تتم الا في ليبيا ، وتحديدا على يد قائد ثورة الفاتح من أيلول . لا أعتقد ان الامام نسي انه ، بعدما رجع من الكويت ، حذّر من تحويل صور الى جزيرة سوفياتية مسلّحة ؟ ولكن المثل يقول : الذي اصبعه في النار ليس مثل الذي اصبعه في الماء .

من الطبيعي أن يكون المتضرر الاكبر من هذا التحذير

---

(٢٩) المصدر السابق .

هو القذافي وليس الاتحاد السوفياتي كما يتوهم البعض .
فالسلاح الذي يأتي الى الفلسطينيين والاحزاب ، عبر ميناء
صور وغيرها ، هو من سلاح القذافي فحسب . وأخطر ما
في تحذير الامام كشفُه عن « سماح اسرائيل بوصول
الاسلحة الى صور »[٣٠] لكي « تقول للعالم ان هذه
البقعة هي جزيرة سوفياتية مسلّحة على حدودها»[٣١]،
مع ما في هذا من استفزاز لاسرائيل يدفعها الى استحداث
« مجازر واحتلال يفرض شروطا عدوانية على لبنان »[٣٢].

وسواء فطن الامام لهذا التحذير او لم يفطن ، فان
شيئا لم يشغله مثل مصالحته مع الفلسطينيين ، وهذه لن
يتسنى له تحقيقها بدون العقيد القذافي . أما السوريون ،
الذين طالما لعب ورقتهم وحيدا تقريبا ، فعنده شعور قوي
بالاطمئنان اليهم ، وهم اذا غضبوا فالى حين . وقد لا
يعترض سواهم على اجراء هذه المصالحة ، الا انه وفي
أسوأ الاحتمالات يستطيع القذافي أن يتعهد « المباركة
السورية » ويتكفلها . فالعقيد ، في هذه الايام ، ان رضي
رضي الرئيس الاسد ، وان غضب ربما لن يتحمس الفريق
الحافظ كثيرا للإمام . ولعل الرئيس الاسد يؤثر الابقاء

(٣٠) النهار العربي والدولي : ١٩٧٨/٢/٥
(٣١) المصدر نفسه .
(٣٢) المصدر نفسه

على النزاع الشيعي ــ الفلسطيني ، من أجل المحافظة على
توازنه في « الحروب » اللبنانية .

المهم ان الإمام قد بدأ ، منذ ذلك الوقت ، التوجه
نحو ليبيا ، ولكن بسرية تامة . وهنالك من يقول بأن
الامام قضى بضعة أشهر في استجداء دعوة ليبيا لحضور
احتفالات الفاتح من أيلول ، لا من أجل المناسبة الغالية على
قلب القذافي ، بل سعيا للحصول على لقاء مع العقيد .
وكاد استجداؤه أن يذهب سدى لولا تدخل الرئيس
الجزائري هواري بومدين الذي دعاه لمقابلته في حزيران ،
أي قبل شهرين من عيد الثورة الليبية . ولما حمل القائم
بأعمال السفارة الليبية في بيروت محمود محمد بن كورة
الى الامام دعوة رسمية لزيارة الجماهيرية ، لم يكن الامام
ليدرك انه بقبوله هذه الدعوة انما قبل لنفسه المؤامرة ،
بل قبِل الاستسلام لـ « لعبة العرب » التي تحاول تقليد
« لعبة الامم » . فهل كان الامام يجهل حقيقة السجايا التي
جُبل عليها معمر القذافي ، أم انه لم ينظر ، أولا وأخيرا ،
سوى الى الوجه الايجابي منه ؟

حيال هذه المعضلة ، أردنا أن نستدل على طبع العقيد
معمر القذافي وخُلقه وفهمه للدين والسياسة ، لكي نسهّل
للقارىء الكشف عن ذلك الغموض الذي يحاصر ، منذ

تسع سنين ، عملية اخفاء مترين من اللحم والعظم والايمان والدكاء ، في بلد لا يزال البدو يشكلون نسبة في التوزيع الاجمالي لسكانه [٣٣] •

فالى أضواء على شخصية القذافي « المحبَّبَة » الى المحللين النفسانيين والصحافيين ورجال الاعلام •

الرئيس الطائش (Inconsiderate)

لم تتردد في وصف العقيد القذافي بالرئيس الطائش ، لما عُرف عنه من الخفة والحركة من جهة ، وعدم الصبر وسرعة الانفعال من جهة أخرى ، اذ لا يقصد وجها واحدا ، ولا يستقر على رأي مهما يكن وجيها وسديدا • وعنده : لكل ساعة ملائكة ، ولكل ملاك شيطان • الغائب غائب ، والحاضر حاضر • ليس بين لسانه وعقله أية صلة • وقلبه اما مفتوح واما مغلق • والعقيد مفرط في مزاجيته حتى لكأنه عَزِق" ، أي سيء الخلق • حلفاؤه شهب وكواكب ما داموا حلفاءه ، وخصومه كلاب وخنازير ما داموا خصومه •

(٣٣) ليبيا بين الماضي والحاضر : تأليف الدكتور هنري حبيب ، ترجمة شاكر ابراهيم ، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان في الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية ، طبعة ١٩٨١ ، ص ٣٢

في « دكان » العقيد الرئيس معمر القذافي موازين كثيرة • والعيارات بعضها من القرن السابع ، وبعضها من أيام بني عثمان • والاكثرية منها لا تنتسب ولا الى أي عصر من العصور •

يحمل القذافي عصاً رفيعة قصيرة لتساعده على التعبير عندما تعز الكلمات • وغالبا ما تكون هي لسانه وبيانه في لقائه مع « الجماهير » • ويمكن وصفه بالشَّمُوم ، بل ان حاسة الشم لديه أقوى من حاسة الشم لدى أي مخلوق آخر •

وجهه حرقته الصحراء ، فبات يكره النظر الى كل أبيض أو أشقر الا" من علٍ •

بدوي هو من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ثعلب بين الثعالب ، وخروف بين الخراف• مسلم سلفي «مالكي» في حضرة المفتي ورجال الدين • وقومي عربي كلما أتاه رؤساء الاحزاب العربية ، وأصحاب المنظمات الفلسطينية ، والصحافيون ، والاعلاميون ، ليأكلوا من خبزه وغير خبزه ، ويشربوا من مائه وغير مائه •

وكما تمكن المصريون القدماء من جعل مقابر فراعنتهم مصائد للموت ، بأن حموا هذه المدافن بما سمي « لعنة

الفراعنة »[٣٤] ، كذلك تمكن القذافي ، منذ قيامه وبعض الضباط الليبيين بالثورة (١٩٦٩) ، من جعل نظامه في مأمن وسلام ، بفضل ما قد يسمى « لعنة الصحراء » .

فاذا كان الفراعنة ، أو كهنتهم ، قد بذلوا جهودا لحماية مقابرهم وتأمينها بعد موتهم حتى يرقدوا في سلام الى أن تدب الحياة مرة ثانية في أجسادهم[٣٥] ، فان الزعيم الليبي يستميت دفاعا عن نظامه ، لئلا يتطاول عليه « الاوغال » و « الخونة » و « العضاريط » ، وتفقد البشرية « النظام الوحيد الذي يحل مشكلات الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعيةعلى هذه الارض»[٣٦]، و « يعد بالحياة السعيدة في الآخرة »[٣٧] .

قد لا يكون هنالك فرق بين « فخاخ » الكهنة المصريين ، التي تحمي هذه المومياء أو تلك ، و « فخاخ » العقيد القذافي حامية نظامه من المتمردين . الا ان هذه « الفخاخ » جميعها ، المصرية والليبية ، تمارس مهماتها بسرية مطلقة ، وبصمت كأنه صمت أهل القبور .

---

(٣٤) لعنة الفراعنة ، المذكور سابقا ، ص ٨
(٣٥) المصدر نفسه
(٣٦) ليبيا بين الماضي والحاضر : ص ٢٧
(٣٧) المصدر نفسه

قالت « فخاخ » مصر : « سيَذبَح الموتُ بجناحيه كل من يبدّد سلام مرقد فرعون »[٣٨] .

وقالت «فخاخ» ليبيا : ان غضبنا هو كالريح الاصفر، والويل لمن يذكرنا بسوء .

منذ تحوتمس الاول[٣٩] ، وحكام الدنيا يرددون : « الذين يلعنون ملِكَهم سيموتون »[٤٠] .

ومنذ كانت الصحراء ، ولهيبها يصدّ « الغزاة » و « اللصوص » و « المتآمرين » و « المتسللين » .

خيمة القذافي تتحدى البيت الأبيض الاميركي وقصر الكرملين السوفياتي . اذا عصفت بها الريح فقل ان العالم كله سيكون في حالة اضطراب لا مثيل لها .

---

(٣٨) لعنة الفراعنة : ص ٢٤
(٣٩) تحوتمس : اسم اربعة من فراعنة مصر من السلالة ١٨ . الاول ـ (نحو ١٥٣٠ ـ ١٥٢٠ ق.م) غزا بلاد الفرات. الثاني ـ (١٥٢٠ ـ ١٥٠٤ ق. م) شيّد بنايات الكرنك. الثالث ـ (نحو ١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق. م) من أعظم ملوك مصر القدماء . غزا البلاد السورية ١٧ مرة وأنشأ امبراطورية بين الفرات ومصر . الرابع ـ حكم (نحو ١٤٢٥ ـ ١٤٠٥ ق.م).
(٤٠) لعنة الفراعنة : ص ٢٤

في تمام الساعة الثانية والثلث فجر الخامس عشر من نيسان ١٩٨٦ ، أعلن البيت الابيض أن القوات الاميركية نفذت غارات جوية على ما وصفه بأهداف « مرتبطة بالارهاب » في ليبيا • وأكد أن هذه الغارات نُفّذت، انطلاقا من مبدأ « الدفاع المشروع عن النفس » (٤١) •

وازدحمت « السوق السياسية » يومي الثلاثاء والاربعاء (١٥ ، ١٩٨٦/٤/١٦) ، بالشائعات والظنون ، ولا سيما ان مقر العقيد القذافي قد أصيب اصابات مباشرة • فقيل ان القذافي غادر ليبيا ، وانه قُتل ، وانه انقلب عليه •• وانه •• وانه •• حتى ظهر القذافي ، بعد كل هذه المعلومات المتضاربة ، على الشعب ، عبر التلفزيون الليبي ، واستهل خطابه لليبيين قائلا :

« اشعلوا الاضواء وارقصوا في الشوارع ••• اننا لسنا خائفين من اميركا • أعيدوا الموسيقى العادية الى الاذاعة » •

أضاف :

« ان الغارة الاميركية التي اشتركت فيها ٣٣ مقاتلة

---

(٤١) صحف ٨٦/٤/١٥

و ١٠٠ طائرة للامداد والتزود بالوقود جواً والتي كانت تستهدف خيمتي قد فشلت اذن في تحقيق أهدافها » •

وقال :

« ان الامة العربية وافريقيا والعالم الثالث وكل قوى التحرر أعربت عن استعدادها للقتال الى جانبنا » •

وأكد القذافي في قوله :

« اننا سنواجه الغارات بكل صلابة وشجاعة وسوف نكبدهم خسائر جسيمة » (٤٢) •

وبعد عشر دقائق من انتهاء الخطاب ، أضيئت شوارع طرابلس الغرب التي كانت قد أطفئت أنوارها تحسبا من غارات ليلية ، وخرج ألوف من الليبيين الى الشوارع وهم يرقصون ويهتفون تأييدا للقذافي ويرددون شعارات مثل : « فلتسقطْ الولايات المتحدة الاميركية » •

ومن جهة أخرى ، أفاد مراسلو وكالات الانباء الغربية، ان العقيد القذافي كان يتحدث بلهجة هادئة وواثقة، كما بدا بصحة جيدة ، وكان يرتدي بزّة عسكرية بحْرية بيضاء وبدت خلفه خارطة كبيرة لليبيا (٤٣) •

---

(٤٢) صحف ٨٦/٤/١٧
(٤٣) صحف ٨٦/٤/١٧

كتب طلال سلمان ، أحد الصحافيين من غير الليبيين، من يضربون بسيف القـذافي ، « زغرودة » عنوانهـا : « صواريخ على اسمر البشرة » جاء فيها :

« مبكرا جاء الموت الاميركي واختطف الطفلة العربية « هناء » وهي لمّا تتم شهرها السادس عشر ،

« وبالمصادفة ، وحدها نجا أطفال آخرون كانوا مع « هناء » في البيت ذاته ، وان كان اثنان منهم قد أصيبـا بجراح خطرة هما « سيف العرب » و « خميس » ،

« لم يكن ثمة خطأ في الامر ، فليس الهدف الامس العربي ، او حتى الحـاضر العربي ، بل هو ، على وجـه التحديد ، الغد العربي ،

« ولكي يكتسب الواقع وهج الرمز نجح الاميركيون في اغتيال « هناء » العرب وفي ثلم « سيف العرب » وشقيقه « خميس » وكلهم من عدة الغد، وكلهم وعْد" بالافضل».

أضاف :

« لم يكن ثمـة خطأ في الامر ، ولم يرتبك ريغـان والريغانيون أمام صور الاطفال الممزّقة اجسادهم الصغيرة، المشوّهـة وجوههم والابتسامـات الملائكيـة التي كانت

مرتسمة عليها لحظة الاغارة ومعها تلك الاحلام الساذجة عن رمضان الآتي وبيده الهدايا بعد أيام قلائل ،

« على العكس تماما ، فلقد هتف « الرئيس » وردّد من خلفه الهتيفة : « لقد ضربنا الاهداف فأصبنا منه مقتلا، وأما الاطفال فكانوا سيصيرون ارهابيين بالتأكيد في المستقبل، ومن حقنا في حـرب وقائيـة مشروعيـة كالتي نشنها أن نستأصل شأفة الارهابيين الحاليين والمستقبليين » .

وأكد سلمان في قوله :

« لم يكن في الامر خطأ ، فالرئيس قد سجل اسمه في التاريخ بوصفه أول من استخدم اسطولا كاملا في محاولة اغتيال رجل هو قائد لشعبه وزعيم في أمته التي تفصلها عن الولايات المتحدة الاميركية آلاف الاميال .

« ولقد هتف الرئيس : « فعلتها ونجحت » وردّد الهتيفة من خلف الكاوبوي الدولـي : « برافوا ! ونحن نشهد معك بأنك كنت في حالة دفاع عن النفس » .

وتساءل قائلا :

« ومن يمكنه الانكار ان « هناء » العربيـة كانت تنغّص على ريغان ، والريغانيين ، في أربع رياح الارض ،

« هناء » عيشه كسيد للكون ، كلي القدرة ، كلي القوة ، كلي السيطرة ، يرفع من يشاء ويذل من يشاء . يحيي من يشاء ويميت من يشاء ، ولا تسقط شعرة من رأس مخلوق الا بإذنه » (٤٤) .

في هذا الوقت ، كانت عائلات شيعية في بيروت وبعلبك والجنوب ، تدعو الى الله أن يخلّص الامة من « الطاغية » الليبي ، ويفرج عن الامام الصدر ، والشيخ يعقوب والصحافي بدر الدين الذين ما نغصوا عليه « هناء » عيشه ، ولا تسللوا الى خيمته التي تحميها « لعنة الصحراء » ، ولا حاولوا حقنه بالمخدّر ليخطفوه ، ولا دسّوا له السم في طعام أو شراب .

ليس غريبا أن تُظهر غلطة ريغان هذه الرئيس الطائش معمر القذافي « مظلوما » و « مفترى عليه » .

وليس غريبا أيضا أن تكرس « غلطة » ريغان هذه الرئيس الطائش معمر القذافي « بطلا أسطوريا » لا يُغلب ولا يُقهر .

لم تخفف الايام ولا الاحداث من طيش القذافي ، بل

(٤٤) طلال سلمان : السفير ٨٦/٤/١٧

هو اليوم ، وربما غدا ، مثلما بدأ . ومن الخطأ ان يقال بأن مواقف القذافي هي مثل غيم شباط عندنا ، أي « ما عليها رباط » على قول العامة .

فمثلا ينقل الينا محمد حسنين هيكل ، في كتابه « الطريق الى رمضان » (٤٥) ، جانبا من المناقشات التي دارت بين الرؤساء العرب في مؤتمر القاهرة الذي عُقد على اثر تدهور العلاقات بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية في أوائل أيلول ١٩٧٠ ، وكان قد مضى على الثورة الليبية عام واحد فقط لا غير ، وحسبما روى هيكل :

« الملك فيصل : اني متفق مع فخامتكم (لعبد الناصر) ان ذلك كله يبدو كأنه خطة لتصفية المقاومة .

« القذافي : اني غير متفق معكم في الجهود التي تبذلونها . وأعتقد انه لا بد من ارسال قوات مسلحة الى عمان (٤٦) .. قوات مسلّحة من العراق وسوريا .

(٤٥) ٢٥١ صفحة من القياس الوسط ، نقله الى العربية : يوسف الصبّاغ ، دار النهار للنشر ١٩٧٥ .
(٤٦) يذكر هنا ان السوريين ارسلوا وقتذاك بعض دباباتهم عبر الحدود الاردنية الى الرمثا ، وجاء نور الدين الاتاسي ، رئيس الدولة السورية ، الى القاهرة ، يحمل رغبة واضحة من جانب السوريين والعراقيين في التدخل بالقوة في القتال=

« الرئيس عبد النـاصر : أظن ان علينا أن تتحلى بالصبر .

« الملك فيصل (ينظر الى القذافي) : أظن انه اذا كان علينا أن نرسل جيوشنا الى أي مكان ، فلا بد من ان نرسلها لتقاتل اليهود .

« القذافي : ان ما يفعله حسين أبشع مما يفعله اليهود ... والمسألة كلها اختلاف في الاسماء .

« الرئيس عبد الناصر : الصعوبة هي اننا اذا أرسلنا جنودا الى الاردن ، فان ذلك لن يؤدي الا الى تصفية المقاومة الفلسطينية ... وأريد منكم أن تستمعوا الى

= الدائر في عمان . وفي الوقت نفسه، فان الامريكيين ابلغوا الروس انهم لن يقبلوا مثل هذا التطور ، ونقل الروس هذا التحذير ـ الذي صيغ بلهجة شديدة ـ الى عبد الناصر . وكان الجو عندئذ جو ازمة دولية خطيرة لم يجد عبد الناصر معها بدا من ان يدعو الى مؤتمر قمة لملوك الدول العربية ورؤسائها .

ويذكر ايضا أن ياسر عرفات قد خرج من جبل عمان بطريقة التهريب ، اذ هو ارتدى « دشداشة » سكرتير سعد العبدالله ، وزير الدفاع الكويتي ، الذي كان في عمان وسكرتيره مع الرئيس السوداني السابق جعفر النميري والمصري حسين الشافعي ، في محاولة للتوسط بين الملك والمقاومة ، ودخل عرفات المطار بثياب كويتية .

رسالة تلقيتها هذا الصباح من الاتحاد السوفياتي . انهم يطلبون منا التمسك بأقصى قدر من ضبط النفس ، لان الموقف الدولي أصبح دقيقا للغاية ، وأي خطأ في التقدير يمكن أن يؤدي الى أن يفقد العرب كل السمعة التي اكتسبوها خلال السنوات الثلاث الماضية .

« القذافي : ما زلت معترضا .. فاننا اذا كنا نـواجه مجنونا كحسين يريد أن يقتل شعبه،فلا بد من أن نرسل من يقبض عليه ويضع الاغلال في يديه ، ويمنعه من أن يفعل ما يفعل ، ويحمله الى مستشفى مجانين .

« الملك فيصل : لا أظن انه من اللائق أن نصف ملكا عربيا بأنه مجنون يجب أن يوضع في مستشفى مجانين .

« القذافي : لكن أسرته كلها مجانين . والمسألة مسألة سجل .

« الملك فيصل : حسنا .. ربما كلنا مجانين .

« الرئيس عبد الناصر : في بعض الاحيان حينما ترون جلالتكم ما يجري في العالم العربي ، ان ذلك ربما يصبح صحيحا . وأقترح أن نعيّن طبيبـا يكشف علينا بصورة منتظمة ليتبين من هم المجانين من بيننا .

« الملك فيصل : أريد أن يبدأ طبيبك بي ، لأني أشك بالنظر الى ما أراه ، في اني أستطيع الاحتفاظ بتعقلي .

« الرئيس عبد الناصر : على أية حال .. دعونا نعد الى موضوعنا الاصلي . اني أقترح أن يصدر على الفور بيان باسم الرئيس نميري يقول ان الملك حسين قطع للوفد عهدا بانهاء « القتال » .

« القذافي : الملك حسين لن يتراجع ما لم يحس بخنجر فوق عنقه » (٤٧) .

وانتهى المؤتمر ، فتوفي ، كما نعلم ، الرئيس عبدالناصر ، ثم تلاه بعد خمس سنوات الملك فيصل ، ثم الرئيس هواري بو مدين عام ١٩٧٨ ، وأُسقط أو اعتزل ملوك ورؤساء ليحل محلهم ملوك ورؤساء آخرون ، وغابت وجوه قيادية ومسؤولة ، شرقية وغربية ، فيما ظل القذافي يحمل خنجره مهددا به كل من لم يعجبه « موقفه » أو حتى « شكله » من الحكام وغيرهم .

وفي مكان آخر من كتاب « الطريق الى رمضان » يروي هيكل عن القذافي ما يلي :

---

(٤٧) الطريق الى رمضان : ص ٩٥/٩٦

« وفي احدى المرات التي كان فيها عبد الناصر يشرح له (القذافي) الفرق بين قوة العرب وقوة اسرائيل من حيث الدبابات والطائرات وغيرها ، تحمّس القذافي وقال : « لا . لا . لابد لنا أن ندخل في حرب شاملة نبيد فيها اسرائيل » . وردّ عليه عبد الناصر ــ وهو بادي الصبر ــ ان ذلك مستحيل ، لان الموقف الدولي لن يسمح لنا بأن نفعله ، ولأنه لا الروس ولا الاميركيون يمكن أن يسمحوا بقيام موقف يمكن أن تترتب عليه حرب نووية » .

أضاف هيكل :

« وسأل القذافي : « لدى الاسرائيليين قنابل نووية ؟ » . وردّ عليه عبد الناصر بأن ذلك احتمال قوي . فعاد فسأل : « وهل لدينا نحن قنابل نووية ؟ » وردّ عبد الناصر : كلا ليس لدينا شيء منها » (٤٨) .

وفكّر القذافي في شراء قنبلة نووية ، فأرسل ، بعد ثلاثة أشهر ، الرجل الثاني في ليبيا الرائد عبد السلام جلود (٤٩) ، الى القاهرة لأخذ رأي عبد الناصر في ما

---

(٤٨) المصدر السابق : ص ٧٤/٧٥
(٤٩) يقول الصحافي الفرنسي تييري دي جاردان في كتابه « مئة مليون عربي » : « وكان هنالك رجل في ليبيا اسمه آدم حواز ــ انه الان تحت المراقبة في العاصمة ولا أحد =

ينوون القيام بـه . وطلب جلود أن تحاط زيارته للقاهرة بالسريـة التامـة ، لان الغرض هـو استشارة الرئيس عبد الناصر . وفي المقابلة التي تمت بين عبد الناصر وجلود، قال الاول : « ان مدى علمي أن القنابل النووية لم تكن ابدا سلعة للبيع » (٥٠) ، فأجابه جلود : « لا .. نحن لا

= يتحدث عنه ـ يمسك بزمام امور البلد بحكم كونه رئيس الاستخبارات أيام الملك ادريس ... يمكن القول فعلا ان آدم هذا هو الوالد الحقيقي للانقلاب الليبي ... فقد هيأ كل شيء ، وحث الضباط الليبيين على القيام بحركة مـا ، دون أن يدري احد بذلك .. وعندما قام الانقلاب تحوّل الحواز الى الرجل الثاني بعد القذافي ،حيث استلم منصب وزير الحربية ، كما مثل بلاده في الخارج أكثر من مرة قبـل أن يبعده القذافي عن ساحة الانقلاب .. في هذا الوقت كان العالم يتساءل عن هؤلاء الشباب الذين استولوا على الحكم في ليبيا ؟

لقد رأى العالم آدم الحواز في اجتماع مجلس الامن للجامعة العربية ، وظهر كأنه المفكر الاول للثورة الليبية ،وقد شبهه الاختصاصيون بناصر الثورة ، وشبهوه القذافي (بمحمد) نجيب ... لكن تصوراتهم كانت خطأ لان الذي كان مثـل (محمد) نجيب فعلا هو الحواز نفسه ... وبالفعل اتهمه القذافي فيما بعد بأنه عميل للغرب ، ولو كان كذلك لاستطاع انقاذ مملكة ادريس ، أو السماح للاميركيين بتعيين رئيس يلائمهم وربما وقعت القرعة عليه . والمهم ان القذافي هـو الذي انتصر في النهاية » (ص ص ٣٣٨/٣٣٩) .

(٥٠) الطريق الى رمضان : ص ص ٧٤/٧٥

نريد قنبلة كبيرة ، انما نريد قنبلة تكتيكية . وقد أجرينا اتصالا بالصين ، وقلنا لهم اننا نريد أن يذهب واحد منا في زيارة لبلادهم ، فردّوا بأنهم يرحبون بنا .وهكذا فانني سأسافر »(٥١) الى الصين .

وبالرغم من نصيحة عبد الناصر لليبيين التي تجسدت، آنذاك ، بالطلب اليهم أن لا يستعجلوا القضايـا ، سافر جلود الى بكين ، متنكرا ، عن طريق باكستان والهند ،ولم يكن الصينيون يعرفون الغرض من الزيارة ، لكنهم رتبوا له اجتماعا مع شو إن لاي شرح فيه نائب رئيس مجلس الثورة الليبي انه جاء الى بكين لمسألة مهمة جدا . وقال (جلود) « ان الصين فخر لجميع بلدان آسيا . لقد فعلتم الكثير لمساعدة البلدان النامية ، وأثبتّم للعـالم انكم لا تقلون قوة عن الغرب . لذلك فقد جئنا اليكم من ليبيـا نطلب عونكم . ونحن لا نريد أن نكون عبئا عليكم،ونعرف ان هذه الاشياء تكلف الكثير من المال . انما نريد شراء قنبلة نووية » (٥٢) .

ويتابع هيكل قائلا :

« وكـان شو إن لاي مهذّباً جدا ، وراح يشرح

---

(٥١) المصدر السابق .
(٥٢) المصدر نفسه

لزائره بكل اللباقة والادب اللذين تشتهر بهما الصين ، ان القنابل النووية ليست للبيع ، وانه وان كان مما يسعد الصين بطبيعة الحال أن تساعد في عمليات الابحاث ، الا ان انتاج الاسلحة النووية لا بد أن يتم بأيدي الليبيين أنفسهم، ولا بد لكل شعب من أن يتدرب على الاعتماد على نفسه ... الخ . وهكذا عاد جلود خالي الوفاض » [٥٣] .

والاخبار الطريفة عن القذافي،الرئيس الطائش،كثيرة بكل تأكيد وكثيرة جدا ، ان في كتاب « الطريق الى رمضان » أو في « مئة مليون عربي » .

يريد القذافي « الوحدة العربية » بالقوة وكيفما كان. طلبها من المصريين والجزائريين والسودانيين والمغاربة والتونسيين ، فلم يلق التجاوب الذي كان يتوخاه ، وغالبا ما قيل له « لا بد من استيعاب دروس المحاولة السابقة للوحدة بين مصر وسوريا » [٥٤] .

يقول الصحافي الفرنسي تييري دي جاردان :

« وعلينا أن نسجل الآن ان القذافي يعتقد شخصيا

---

(٥٣) المصدر نفسه
(٥٤) المصدر نفسه

وبصدق بـ « الامة العربية » التي يبتسم الغرب عندما يسمعون كلاما عنها ...

« هنالك قصص كثيرة تروى ، وأعتقد انها قصص حقيقية ، ففي أحد الايام أبرقت طائرة ليبية لبرج المراقبة الجزائري قائلة انها ستهبط اضطراريا في مطار الجزائر ، وعلى متنها العقيد القذافي العائد من موريتانيا ، وجن جنون الضباط الجزائريون (كذا) الذين لم يكونوا يترقبون مثل هذه الزيارة ، فأعلموا الرئيس بو مدين الذي خف الى المطار ليستقبل أخيه (كذا) .. ولم يخفِ الرئيس بو مدين استغرابه من هذه الزيارة المفاجئة وغير المرتقبة ، لكن القذافي « الرائع » ابدا ، بادره بالقول: انني عربي ، والعرب في ديارهم في أية أرض عربية ! »

أضاف دي جاردان :

« علينا هنا أن نسجل بأن القذافي قد قام بعدة محاولات وحدوية باتجاه المغرب .. لكن الصعوبات الكثيرة كانت تواجهه هنالك ... كان عليه في البدء أن يتخلص من الملك الحسن الثاني ملك المغرب ... وقد عمل جاهدا لذلك ، فحاول القيام بمحاولتي انقلاب فاشلتين الاولى في قصر الصخيرات ، والثانية بطائرة البوينغ الملكية ...

« ثم كان هنالك في المغرب العربي أيضا بومدين، ذلك الثوري الجدي الذي يملك هو الآخر النفط ، والذي لم يكن يظهر استعدادا لتقبّل آراء « فتى طرابلس »... عندئذ نقل القذافي كل نشاطه شطر بو رقيبة ... فعرض على المحارب العظيم القديم وحدة سريعة بين بلديهما يتولى بو رقيبة رئاسة الدولة الجديدة فيها ، وقد كان على القذافي في المحاولة الاولى أن يتلقى درسا في السياسة والبروتوكول، وفي المحاولة الثانية دفع المصمودي ثمنا باهظا اذ فقد منصبه كوزير للخارجية » [٥٥] .

وغريبة عجيبة هي أخبار القذافي مع الرئيس السادات أيضا . وكذلك مع الرئيس الاسد ... ودائما كان يقال له : « سعيكم مشكور ، وعملكم مبرور . انما الوقت هو سيد الاحكام » . وعبثا حاول « تثوير العالم العربي » كما يحلم ، فبقي يحارب ، باسلام الصحراء « غير المنسّق» [٥٦]، الشرق والغرب ، من خيمة تحميها « لعنة الصحراء» وتعاويذ أم معمّر اليهودية .

زحفاً .. زحفاً .. الى القدس . هذا هو شعار القذافي الذي ما زال مرفوعا منذ ثماني عشرة سنة .

ولكن أي قدس ؟ وأي زحف ؟

---

(٥٥) مئة مليون عربي : ص ص ٣٥٠/٣٥١

(٥٦) المصدر نفسه : ص ٣٥٢

ان للرئيس الطائش حكاية مع ايران ـ الخميني ، ومع العراق بل مع كل دولة ، وبخاصة في المغرب .وأغرب حكاياه « الدولية » قصته مع تشاد وفرنسا .

كل حرب هي « غير واقعية وتبعث على السخرية» ـ كما وصف الحرب الايرانية ـ العراقية ـ الا حروبه هو فحسب . وملعون من يقول : لا . أو يعترض ...أو..

فبعد الهزيمة المروعة التي منيت بها قواته في نجامينا في شهر آذار ١٩٨٧ قال في خطاب ألقاه لمناسبة الذكرى السابعة عشرة لجلاء القوات البريطانية عن ليبيا :

« ان أي نظام معادٍ لليبيا في نجامينا يمكنه أن يثق تماما من انه لن ينعم بنوم هادىء لليلة واحدة » .

أضاف :

« ان ليبيا لا تريد أن تستعمر تشاد ، ولا تريد الحرب أو تغيير خريطة افريقيا ، ولكنها اذا قبلت التحدي وقررت الحرب والتعبئة العامة فان آلاف الدبابات ومئات الطائرات التي تمتلكها ستكون قادرة على تحرير كل المستعمرات الفرنسية في افريقيا حتى خط الاستواء» [٥٧].

---

(٥٧) صحف ١٩٨٧/٣/٢٩

والذي يدعو الى السخرية ان القذافي ، في خطابه هذا ، نفى وجود قوات ليبية في تشاد ، مع انه سبق أن تحدثت تشاد عن مقتل ١٢٦٩ ليبياً ، وأسر ٤٣٨ جنديا،في معركة استعادة وادي دوم [٥٨] . جاء نفيه هذا في مطلع الخطاب ، ولما تابع الكلام قال مهددا :

« ان (الرئيس التشادي) حسين حبري يعلم جيدا كيف احتلت القوات الليبية كل تشاد وأتت بغوكوني (عويدي) الى السلطة في نجامينا » [٥٩] .

وبما ان القذافي « لا يخاف من احد » [٦٠] فقد دعا « الى الأمام لمواجهة جميع التحديات » [٦١] ، وبكل ثقة قال : « اننا سننتصر ومعنا الشعوب في تشاد والعالم العربي وافريقيا واميركا اللاتينية ، اننا أقوياء وقادرون على أن ندفع بآلاف الدبابات ومئات الطائرات وخمسمائة ألف جندي في أي اتجاه لحسم أي معركة » [٦٢] .

اذا كان هذا هو القذافي المنهزم ، فكيف هي حاله لو حدث العكس وانتصر ؟!

---

(٥٨) صحف ١٩٨٧/٣/٢٥
(٥٩) المصدر نفسه
(٦٠) المصدر نفسه
(٦١) المصدر نفسه
(٦٢) المصدر نفسه

وكمن يحسب ان العالم نسي حرب تشاد ، قال في كلمة ألقاها في الدورة العاشرة للجمعية العمومية للمنظمة العربية للاتصال (عربسات) التي عقدت في طرابلس :

« ان استمرار الحرب العراقية ـ الايرانية بذريعة الرغبة في الاطاحة بصدام حسين تعني احتلال العراق وبغداد وابادة الجيش والشعب في العراق ، وكذلك تدمير الاقتصاد العراقي »[٦٣] .

وقال :

« ان الحرب التي مضى عليها أكثر من ست سنوات ونصف السنة بين العراق وايران هي حرب مجنونة وتحركها أغراض حـُمَقاء وصبيانيين » [٦٤] .

وقال أيضا :

« حين يقول أحد ان أرضا ملكه ويحتلها يكون ذلك مفهوما . ولكن حين يقول احد انه يقاتل للاطاحة بشخص آخر وحكومته أو ثورته فان هذا غير واقعي ويصبح الامر كله مبعثا للسخرية » [٦٥] .

---

(٦٣) السفير : ١٩٨٧/٤/٢٥
(٦٤) المصدر نفسه
(٦٥) المصدر نفسه

وعلى عادتـه ، حمل بشدة على كـل من أميركـا واسرائيـل وفرنسا ، والاخيرة وصفها بأنها « تستحـق الازدراء » (٦٦) لا لانها هزمته في تشاد بل لانها « الدولة الاولى التي تحرّض على استمرار الحرب العراقيـة ـ الايرانية لتنتفع منها » (٦٧) • ولانها أيضا « اصبحت دولة امبريالية تسعى الى بسط هيمنتهـا على شعوب الـدول الافريقية الناطقة بالفرنسية » (٦٨) •

ويأتي دور الملك فهد بن عبد العزيز ، خادم الحرمين الشريفين كما يُدعى ، الذي كان ، في هذا الوقت ، يزور بريطانيا ، فيندد الرئيس الطائش بهذه الزيارة كونها « تلحق الضرر بسمعته التي يتمتع بهـا في ليبيا » (٦٩) • ويعلن القذافي ان على الملك أن « يقطع علاقاته مـع بريطانيـا والولايات المتحدة ، عقب الغارة التي شنتها الولايات المتحدة علـى ليبيـا في ١٥ نيسان (١٩٨٦) » (٧٠) والا عُدّ ، أي الملك ، من الفريق الآخر •

---

(٦٦) المصدر السابق •
(٦٧) المصدر نفسه
(٦٨) المصدر نفسه
(٦٩) المصدر نفسه
(٧٠) المصدر نفسه

وفي الكلمة نفسها تطرق القذافي الى مشروع « الاتحاد العربي » فقال :

« ان ليبيا ليس لها بديل آخر في حالة رفض مبادرته الا التحريض على الثورة وإلغاء الحدود بالقوة » (٧١) وكيفما كان •

ماذا يريد القذافي ؟

في الحقيقة ، ان احدا لا يمكنه أن يعرف ، على التمام ، ما الذي يريده هذا الرئيس الطائش • وفي الحقيقة أيضا ان أحدا ممن يعرفون سمات القذافي ، وطبعه ، لا يتردد في الحكم عليه بأنه من النوع الذي لا سبيل الى ضبطه أو السيطرة عليه (Incontrallable) وبأنه هو قاتل الامام الصدر أو مغيّبه ، بصرف النظر عما صدر ، حتى الآن ، من معلومات تبيّن كيف ان القذافي اغتال الامام ورفيقيه (٧٢) •

---

(٧١) المصدر نفسه
(٧٢) ان أهم هذه المعلومات ما صرح به السفير الليبي في الاردن عزيز عمر الشيب ، ومفاده أن القذافي عندما وجد نفسه غير قادر على اقناع الامام بسياسته في لبنان ، أمر باغتياله قبل أن يغادر طرابلس ، وتمت العملية في معسكر العزيزية في طرابلس (العمل ، الانوار ١٩/٧/١٩٨٣) .
وقد سبق لصحيفة « الجهاد » (لسان الحركة الوطنية الليبية المعارضة) أن اتهمت في عددها الاول الصادر في أيار ١٩٧٩ « نظام طرابلس الغرب بأنه نفذ جريمة تصفية الصدر =

وليس أشد خزياً من الاتهام والاتهام المضاد اللذين تبادلهما القذافي وعرفات عندما ساءت العلاقات فيما بينهما.

ففي الحادي عشر من كانون الاول ١٩٧٩ كتبت صحيفة « فلسطين الثورة » في مقالها الافتتاحي تخاطب القذافي قائلة :

« هل تريدنا — يا سيادة العقيد القذافي — أن تفتح ملف اختفاء الامام موسى الصدر، وتقول للملأ انك تسلّمت تقريرا أمنياً من قائد الثورة الفلسطينية ، يتضمن ١٤ قرينة وواقعة تؤكد أن الامام الصدر لم يغادر ليبيا الى روما ، وانه أخفي داخل ليبيا ، وانك تعرف هذه الحقائق الدامغة كلها ؟ لقد جن جنونك ، فلائحة الاتهام لا ترحم ، ولكنها الحقيقة انك وحدك تتحمل شخصيا مسؤولية اخفاء الامام موسى الصدر . وثورتنا الفلسطينية رفضت ان تبرئك من

= ورفيقيه من خلال واقع عمالته للولايات المتحدة الاميركية، وانه ما كان يقدم على ذلك لولا تغاضي بعض الحكام العرب عن اعماله خوفا أو طمعا ، ونتيجة لصمت بعض أجهزة الاعلام العربية التي يغدق عليها الاموال الوفيرة » .

وتابعت الصحيفة تقول : « ان هذه الجريمة ليست الاولى في سجل النظام الليبي فهناك جرائم جماعية ارتكبت ضد بعض الدول العربية المحيطة ، مات ضحيتها مئات من الابرياء الليبيين والعرب » .

مسؤوليتك الشخصية المباشرة في اخفاء الامام الصدر »[٧٣].

وردّت السلطات الليبية على ما قالته « فلسطين الثورة » فقالت :

« ان حركة « فتح » وهي الحركة الرئيسية في منظمة التحرير الفلسطينية ، اغتالت الامام الصدر » [٧٤] .

وطالبت السلطات الليبية في ردّها المذكور « بسحب الاتهام فورا » [٧٥] وبالعودة « الى فتح التحقيق الايطالي » [٧٦] .

وما هي الا أيام قليلة مضت ، حتى عادت قضية الامام الصدر الى « حجمها الطبيعي » . فلا « فتح » استمرت في « معركتها » مع القذافي وفتح ملف هذه القضية ، ولا القذافي أيضا واصل الكلام وقال لنا كيف ان « فتح » هي قاتلة الامام . على ان ما يزيد الامر خطورة ان ما وقع بين القذافي و « فتح » ، انما وقع على مرأى ومسمع من

---

(٧٣) ذكره عادل رضا في كتابه « مع الاعتذار للامام الصدر » الصادر عن دار الحوراء ومؤسسة رفيدة — بيروت ، من دون ذكر تاريخ الصدور ، ص ٢٤٩
(٧٤) المصدر نفسه
(٧٥) المصدر نفسه
(٧٦) المصدر نفسه

الجمهوريـــة الاسلاميـــة الايرانية التي مارست الصمت لاعتبارات شتى ، أو قل لاسبابها المعروفة ، فبدت كأنهـا مشاركة في « لعبة العرب » ضد من كان لفترة من الزمن احد الدعاة الذين انتشروا في الارض ليدعوا الناس الى دولة الفقيه أو الإمام ؟!

صفحة لم يقرأها الإمام

هنالك مثل يقول : « قتلت أرض" جاهلَها » .

فهـل ان الامـام كان يجهل ليبيا ولعنة الصحراء الليبية ؟

لنحسبْ ان الامام كان لا يعرف الكثير عن ليبيـا والطبع الليبي ، الا انه على المقتول أيضا يقع قسم مـن الجريمة ، فما هو يا ترى ؟

في الثامن عشر من شباط ١٩٧٨ ، وبينما كان الصراع على أشده بين الامام وشيعة الجنوب من جهة ، والمقـاومة الفلسطينية من جهة اخرى ، اغتال مسلّحان فلسطينيان،في نيقوسيا ــ عاصمة قبرص ، يـوسف السباعي ، الاديب والصحافي المصري المشهور وسكرتير منظمـة تعـاون الشعوب الافريقية الاسيوية .

ان ذنبَ السباعي ، الاديب والصحافي ، كما حدّده قاتلاه ، آنذاك ، هو انه رافق الرئيس السادات في زيارته لمدينة القدس ؟! وكأني بهذين الفلسطينيين ، والذين يقفون وراءهما ، قـد نسوا ما صنعته منظمـة تضامن الشعوب الافريقية ــ الآسيوية ، التي يحفظ أمانة سرها يـوسف السباعي ، لاجل فلسطين والفلسطينيين .

لقد أصدرت هذه المنظمة مئة قرار ايدت فيه الحق الفلسطيني في الوطن والمصير والعيش الحر . الا ان هذه المواقف المتعاطفة مع المواقف الفلسطينية والمساندة لهـا لم « تغفر » للانفتاح المصري على العدو . والأصح انها لم تغفر ليوسف السباعي الصحافي الذي لبى دعوة رئيس بلاده وذهب معه في رحلة السلام ، بقلب سليم ونيّة جيدة .

وقبل يوسف السباعي بشهر وأربعة أيام ، أي فـي الرابع من كانون الثاني ١٩٧٨ ، اغتيل دبلوماسي شاب في منظمة التحرير الفلسطينية ، يدعى سعيد حمامي ، لانه قال: « لنقبل بما يعرضونه علينا » .

على اثر مقتل حمامي تذكرت الصحافة العالمية مسلسل الاغتيالات الذي كان قد أطاح ، حتى ذلك الحين ، الكثير من أعضاء المنظمة في عواصم عديدة،مثل : الناشر الفلسطيني محمـود صالـح في بـاريس ،ومحمود الهمشري وباسل

قبيسي في باريس أيضا ، ومكرم زعيتر في روما ،والجزائري
أحمد بو شبلي الذي كان يعمل لحساب منظمة التحرير في
النروج ، وكمال ناصر وكمال عدوان وأبو يوسف
النجار في بيروت (١٠ نيسان ١٩٧٣) ، وندى ابو غنيمة
يشرطي وغسان كنفاني أيضا •

ثم تحرك المفسرون والمحللون في كل مكان ،فنسجوا
من الروايات ما نسجوا ، وحدّثوا بما شاء لهم أن يحدثوا،
اذ وجدوا الميدان واسعا ، والموضوع شائكا ومعقّدا •
ولكنهم أجمعوا ، تقريبا ، على ان هناك أكثر من جهة
ومصدر ، عربي وعالمي،يشارك في تصفية أعلام الفلسطينيين،
وتفتيت الصف العربي ، ولو بالطرق المأساوية ، مما يؤكد
على ان المنطقة العربية قادمة على أيام تصبح فيها لا أحلام
لها ولا قضايا •

الى هنا ، قد يُعتبر الامر عاديا ، بل عاديا جديدا،
بالنسبة الى الامام الصدر ، وان كنا نرى ان العكس هو
الصحيح •

أما الذي لا خلاف عليه فهو التحقيق الصحافي الذي
نشرته مجلة « الحوادث » ، حول فشل محاولة اختطاف
الدكتور محمود المغربي أول رئيس وزراء في ثورة الفاتح
من ايلول١٩٦٩ •واننا لعلى يقين من أن الامام لو قرأ هذا

التحقيق الذي نشرته « الحوادث » المذكورة قبل شهر
واحد من رحلته الملعونة ، لاستجاب حتما لنصائح اصدقائه
وعارفيه ممن تمنوا كثيرا أن يؤجل سفرته هذه بأي شكل
من الاشكال •

يقول التحقيق :

« خلال زيارة الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي
لالمانيا الشرقية انشغلت الصحف العالمية بالاخبار المثيرةعن
الاحداث الدموية في اليمنين الشمالي والجنوبي،واستئناف
الحرب في لبنان • لكن جريدة « ايفننغ ستاندارد »
(Evening Standard) اللندنية نشرت يوما في صفحاتها
الداخلية خبرا اعتبرته الاوساط العربية في اهمية الاحداث
العربية الدامية • فقد جاء في الخبر الذي نشرته الجريدةأن
محكمة « مارلبورن » (Marlborn) أصدرت قرارا
بتوقيف وليم برايس (٥٢ سنة) وابنه تريفور برايس
(٣٠ سنة) بتهمة الاعداد لخطف او اغتيال الدكتور محمود
المغربي أول رئيس حكومة في ليبيا بعد ثورة الفاتح من
أيلول » •

أضاف التحقيق :

«وقد اعترف المتهمان بالخطة التي كلّفا بها ،وقالا
انه كان عليهما ان يخطفا الدكتور مغربي ، وأن يضعاه في

تابوت ويتوليا شحن التابوت جواً الى طرابلس الغرب .
كذلك اعترف المتهمان بأسماء محرّضيهما وهم مجموعة من الرسميين الليبيين على رأسهم الملحق العسكري في السفارة الليبية في لندن . وقد ضبطت سلطات الامن البريطانية معهما مخدرات ومسدّسا مزوّدا بكاتم للصوت وبضعة آلاف من الجنيهات قالا انها تشكل دفعة على الحساب» .

وتابع التحقيق يقول :

« بعد هذا الاعتراف الواضح اتصلت دائرة سكوتلنديارد (Scotlandyard) بالسفارة الليبية في لندن، وأطلعتها على مضمون التحقيق مع المتهمين ، ثم أبلغتها ان التحقيق قد يستوجب الاستماع الى الملحق العسكري الليبي الذي قال المتهمان انه كان يتعامل معهما.

« ولم تجد السفارة بدا من الاتصال بوزير الخارجية الليبي الذي كان يرافق العقيد القذافي لالمانيا الشرقية ، والوزير بدوره أطلع العقيد على ما يعرف اليوم في لندن باسم « عملية محمود المغربي » .

« بعد ساعات على هذا الاتصال دق جرس الهاتف في شقة الدكتور محمود المغربي في لندن ، وفوجىء الدكتور بأن المتحدث اليه هو وزير الخارجية الليبي الذي ابلغه ان

العقيد القذافي استغرب ما حدث لانه لم يكن يعرف شيئا عن هذه القضية ، وانه لذلك سوف يرسل اليه مبعوثا حاملا رسالة خاصة ومكلفا التحقيق في الموضوع.ويقول أصدقاء الدكتور المغربي : ان الدكتور ضحك عندما سمع خبر الرسالة الخاصة ، وقال مازحا : المهم ألاّ تكون الرسالة شبيهة بتلك التي تلقاها النقيب المحيشي (٧٧) في صنعاء!..
ثم استطرد بأسلوبه الجدي المعروف عنه قائلا : أرجو أن تشكر لي العقيد لفرط اهتمامه بي ، على أية حال ، اعتقد أن لا حاجة لارسال مبعوث خاص أو رسالة خاصة ، اذ يمكنه الاستعاضة عن ذلك باجراء بسيط هو تسليم الاشخاص الذين اعترف المتهمان بأسمائهم الى العدالة البريطانية لتحقق معهم » (٧٨) .

هل قرأ الامام هذا التحقيق ؟

مرة أخرى نقول : لو قدّر للامام أن يطلع على ما ذكرته « الحوادث » ولو فقط على جواب الدكتور محمود المغربي لوزير الخارجية الليبي ،لردّ « الدعوة الرسمية » التي جاءه بها القائم بأعمال السفارة الليبية في لبنان محمود محمد بن كورة ، معتذرا مع الشكر .

---

(٧٧) هو النقيب عمر المحيشي الذي اتهمه القذافي بالماركسية « وهي خطيئة ليبية لا تغتفر » (مئة مليون عربي — ص٣٤١)
(٧٨) الحوادث : ١٩٧٨/٧/٢١

أهو القدَر الذي اذا جاء « لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »[79] أم الانهيار في الايقاع الحيوي الذي اذا وقع يعمي البصر ويعطّل الذهن ويشلّ الارادة ، أم الاثنان معا ؟؟

وللمزيد من المعلومات حول عمليات الارهاب الدموي العربي ، نعود الى التحقيق نفسه ، حيث نقرأ :

« بهذه المناسبة استعادت أوساط اللاجئين البيض من ليبيين وعراقيين ويمنيين وغيرهم قصة الصندوق الشهير في تاريخ المخابرات المصرية التي كانت عملية الخطف ستنهج نهجها .

« ففي عام ١٩٦٥ صدرت الاوامر من ادارة المخابرات الحربية في القاهرة الى الملحق العسكري في السفارة المصرية في العاصمة الايطالية بوجوب اختطاف العميل اليهودي الذي كان يتعامل مع المخابرات ، ثم تبين انه عميل مزدوج ، ووضعه في صندوق وارساله الى القاهرة على متن أول طائرة مصرية .

---

(٧٩) الاعراف : ٣٤ . والنص الكامل للآية : « ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . ومثلها : الآية ٤٩ من سورة يونس والآية ٥ من سورة الحجر والآية ٦١ من سورة النحل والآية ٤٣ من سورة المؤمنون .

« وقد نفذ الملحق العسكري الاوامر ، فجاء بالعميل اليهودي الى مكتبه في السفارة المصرية . وهناك انقضّ عليه مع احد معاونيه ، فحقن بالمخدر . وبعدما استغرق في النوم وضع في صندوق أحكم اغلاقه ، وختم بالشمع الاحمر على أساس انه يشكل حقيبة ديبلوماسية ثم نقل الصندوق الى المطار » .

ويواصل التحقيق القول :

« الذي حدث يومها ان الطائرة المصرية تأخرت — كعادتها — عن موعد اقلاعها ، فانتهى مفعول المخدر الذي حقن أسير الصندوق به ، فما كان منه ، وقد افاق على واقعه المر ، الا أن راح يصيح بأعلى صوته ، ويضرب جدران الصندوق بيديه وقدميه ورأسه ، حتى استلفت الامرُ رجالَ الشرطة الايطاليين في المطار فأمر بفتح الصندوق بالرغم من صفته الديبلوماسية وانتهى الامر الى فضيحة ظل العالم يتحدث عنها فترة غير قصيرة »[80] .

ويمضي التحقيق في الكشف عن عملية اخرى من عمليات الاجهزة المخابراتية جرت قبل حوالى خمسة أسابيع من تاريخ التحقيق في مطار أورلي الفرنسي ، وتحديدا في

---

(٨٠) الحوادث : ٢١/٧/١٩٧٨

غرفة الانتظار الخاصة بشركة العال الاسرائيلية ، فيقول :

« فالمعروف ان المجموعة التي قامت بهذه العملية أطلقت على نفسها « أبناء جنوب لبنان » وقد قُتل أفرادها الثلاثة جميعا . لكن التحقيق الذي أجرته السلطات الفرنسية كشف عن الاسلحة التي استعملها الفدائيون الثلاثة قد حصلوا عليها من سفارة ليبيا في باريس .وقيل يومها ان بصمات الارهابي كارلوس كانت واضحة في تلك العملية . على ان الحكومة الفرنسية حرصا منها على عدم تعريض العلاقات مع ليبيا الى مزيد من التردي اكتفت بابلاغ السفارة الليبية وحكومة طرابلس نتائج التحقيق الذي أبدى العقيد القذافي اهتماما خاصا به لانه لم يكن على علم بالتخطيط للعملية ولا بموعدها . وقد اكتشف العقيد القذافي بعد ذلك ان جهازا تابعا للعميد ابو بكر يونس القائد العام للقوات المسلّحة ورئيس اركان الجيش وعضو مجلس قيادة الثورة ، كان وراء العملية ، وان هذا الجهاز هو الذي أرسل المجموعة الثلاثية الى باريس وأمر السفارة بتزويدها بالسلاح . وقد استدعى القذافي حينذاك العميد يونس ووجّه اليه لوما شديدا اختتمه بقوله: «باهي ـ اي الحمد لله ـ اللي ماتوا .. شو كان صار فينا لو ما ماتوا ... »

« وقيل بعد ذلك ان العقيد القذافي اصدر أوامر مشددة تحظّر القيام بأية عمليات خارجية اذا لم تكن مقترنة بتصريح شخصي منه » .

هنا يعلق كاتب التحقيق (؟) على هذه القصص فيقول:

« وعمليات الخطف والتصفية ، وسرقة المعارضين بالصناديق ، أو نسفهم أو القضاء عليهم احيانا ، اصبحت من الامور المتداولة في العالم العربي ، ابتداء من اليمنين والعراق وانتهاء بليبيا بالذات حتى لقد أصبحت ليبيا هي المتهمة دوليا ـ ظلما او حقيقة ـ بتدبير مثل هذه العمليات والتخطيط لها وتمويلها » .

أضاف :

« ويروي كثيرون في القاهرة تفاصيل محاولة خطف الطائرة التي كان المفروض أن تقل عبد المنعم الهوني عضو مجلس الثورة الليبي اللاجىء الى مصر ، يومها كان مقررا ان يغادر الهوني القاهرة الى روما في عمل خاص . ويبدو ان المخابرات المصرية علمت بوجود محاولة لاختطاف الهوني دون أن تتوافر لديها تفاصيل كاملة عن خطة الاغتيال ، فرأت على سبيل الاحتياط تغيير الطائرة التي كان الهوني مزمعا السفر على متنها . وقد تم التغيير في اللحظة الاخيرة ، بحيث لم يتح للمجموعة المكلفة بخطف

الطائرة التخلف عن ركوبها ، انما فوجىء أفرادها بعد اقلاع الطائرة ان الهوني لم يكن فيها ، وبالتالي لم يتعرضوا للطائرة . لكن ما كادت الطائرة أن تحط في روما حتى كان رجال المخابرات الايطالية في انتظارهم (فقبضوا) عليهم و (صادروا) ما معهم من أسلحة ، ثم (حققوا) معهم فاعترفوا بكل شيء » .

وختم التحقيق بالقول :

« وقبل الدكتور المغربي ، وعبد المنعم الهوني، هناك أيضا قصة مصطفى بن حليم أحد رؤساء الوزراء السابقين في ليبيا الذي اختطف في لبنان ووضع في صندوق احدى السيارات، ثم عثر عليه بالمصادفة قرب جونيه » (*٢) .

---

(٨١) المصدر لسابق .

(*٢) يروى ان مصطفى بن حليم عندما كان رئيسا للوزراء قد ساعد أحد رجال الاعمال اللبنانيين في ليبيا حتى أثرى وعاد الى لبنان وفي ذمته لابن حليم مبلغ من المال كبير . ولما أبعد بن حليم جاء الى لبنان ليطلب ما له في ذمة اللبناني فرفض استقباله ، وعندئذ تذكر ابن حليم انه استقبل ذات يوم وجيها لبنانيا جاء ليطلب منه المساعدة على أمر ما ، فاتصل به بعد ان كان ابن حليم قد فرغ من المال ولم يعد في استطاعته تسديد تكاليف الفندق، فعرض له حاله فأعطاه الوجيه اللبناني مبلغا من المال متواضعا لكي يسدد فاتورة الفندق ، وبعد يومين اكتشفت جثة الليبي ابن حليم قرب جونية !!

ونحن اذ نـذكّر بهذه العمليات الارهابية ، فلكي نسأل : ألم يعلم أي « جهاز » ،عربي أو غير عربي، بوجود محاولة لخطف ضيف ليبيا الامام الصدر ، فيبادر الى انقاذه ، مثلما أنقذت المخابرات المصرية عبد المنعم الهوني مثلا ؟ بل لنسأل : اذا كانت السلطات الليبية « بريئة » — على ما يقولون — من دم الامام ورفيقيه ، فمن هي الجهة التي نفذت هذه العملية اذن ؟ وكيف استطاعت الى ذلك سبيلا ؟ وأخشى ما أخشاه أن تكون عملية خطف الامام قد تمت بمشاركة « أجهزة » عديدة ، شرقية وغربية، وافقت مصالحها في ذلك مصالح ليبيا والمقاومة الفلسطينية .

من المحتمل أن لا تكون عملية خطف الامام قد تمت بواسطة صندوق أو تابوت ، وانما الثابت أو شبه الثابت ، ان الامام قد حُقن بالمخدر ، ثم حصل ما لا طاقة لنا على معرفته حتى ولا على تصوره . وان آخر ما سمعته هو ان مصرع الامام قد تم دون أن يكون القصد القضاء عليه، بأن حُقن بكمية من المخدر أكثر من اللزوم ، أي « زوّدوا له العيار » (Dozage) ، بما لا يلائم الحال والسن ، بلغة الاطباء ، وكان الامام يشكو اما من تصلب في شرايين القلب ، وإما من خلل في الضغط ، أو ربما من «السكري» أيضا ، فـ « فرط » بين أيدي « المحققين » ، الذين لم يتمكنوا من انقاذه . وعندئذ أرغم « المحققون » على

قتل معاوني الامام أسوة به لكي يبقى الامر «سريا للغاية»، ويفسح المجال للتفسير والتأويل .

ما أسوأ حظ الامام ورفيقيه !

وما أسوأ حظ الجنوب اللبناني والجنوبيين !

لقد نزلت على هؤلاء وأولئك « لعنة الصحراء » ، ولم يلقوا رحمة أحد ، ولا مغفرة ولا احسانا ؟!

قبل أن نأتي الى نهاية هذا الفصل ، نرتدّ الى جواب الدكتور محمود المغربي الذي نجا من « لعنة الصحراء »، لنستخلص منه العبرة والاختبار وما يليهما .

فعندما سئل المغربي عن أسباب محاولة خطفه في تابوت ، قال :

« الحقيقة انني أستغرب الامر . فأنا لا أقوم بأي نشاط يستوجب مثل هذه العملية اللهم الا اذا كان مجرّد عدم الموالاة أصبح في هذه الايام .. جريمة لا تغتفر ، وتستدعي الاختطاف والتعذيب والتصفية » (٨٢) .

ونرتد أيضا ، للغاية نفسها ، الى مقابلة صحافية أجريت مع الرئيس الطائش العقيد القذافي ونشرت في

(٨٢) المصدر السابق .

جريدة « لوموند » الفرنسية ، وفيها ان الرئيس العقيد سئل عن دوره في حركة الارهاب الدولي فأجاب :

« الارهاب الحقيقي هو الارهاب الامبريالي . اننا ندعم القضايا الوطنية — القضية الفلسطينية مثلا — لكننا نترك اختيار طرق العمل لاصحاب العلاقة . بتعبير آخر الهدف النهائي نبيل . أما الوسائل فلا تعنينا . لنا النتائج البطولية ولهم الايدي القذرة » (٨٣)

هل تصدّقون ؟

« لنا النتائج البطولية .. ولهم الأيدي القذرة » ..

من أي نوع بشري هذا الرئيس الذي يتفوّه بمثل هذه الكلمات ؟!

بدوي هو ؟

نعم. ولكن البداوة ، وان هي خلاف الحضارة ، لا تستهويها الايدي القذرة دائما . على أن « القمع الحضاري » لا يعادله « القمع البدوي » وفي الحالين تكون النتائج بعضها كالبعض الآخر .

مما لا شك فيه ان اخفاء الامام الصدر أو اغتياله ،

(٨٣) المصدر السابق .

انما هو من أعمال « الايدي القذرة » ، التي هي أعجز من أن تحقق « النتائج البطولية » حسبما يدعي الرئيس الطائش . والاصح ان « الايدي القذرة » مهما كان لونها وشكلها ، ما أتت الا بنتائج تخريبية وتدميرية وقذرة على صورتها ومثالها شكلا ومضمونا .

لنا أن نحسب أن « لعنة الصحراء » بمن تمثل وما تمثل ، لا بد من أن يصلها ، غدا ، رأينا المتواضع في فعلة كانت منها عشية الفاتح من أيلول ١٩٧٨ ، ولذلك نواصل بحثنا في سيرة الامام موسى الصدر وشخصيته ونشاطاته الدينية والاجتماعية والسياسية وبالموضوعية عينها التي وعدنا بها والتزمناها في ما تقدم، على صعوبتها وخطورتها.

الفصل الثالث

هِجرةُ الثورة

(مِن قُم إلى جَبل عَامل)

« انما سُمّي قم لأنه لما وصلت السفينة اليها في طوفان نوح (ع) قامت وهو قطعة من بيت المقدس ».

سفينة البحار للمحدث الشيخ عباس القمي ج٢ ص ٤٤٦
رواه ابو مقاتل الديلمي نقيب الري عن الامام علي بن محمد الهادي

تمهيـد :

الثورة ، مهما كان نوعها ، هي حركة تغييرية يمكن « تصديرها » ، من بلد الى آخر ، وليس شرطا أن يكـون المنشأ والمصب متقاربين في الطبيعة والحدود ، ومتفاهمين في الثقافة والعقيدة . وقد تخرج الثورة من أرضها مثلما يخرج الرجال من بلادهم ، فاما قسرا واما في طلب الرفيق أو الحليف أو الصديق أو الثلاثة معا . وحيث يجد الخارج أو المهاجر ، المناخ المؤاتي والقبول والاستحسان ، يوطـد الارض لتصلب من اجل اساس بناء جديد أو غيره ، بعد ان يكون قد أثر في جماعة من الناس ، وتأثر ايضا بجماعة من الناس ، من مختلف الهيئات والمستويات . وكمـا الثائـر كذلك الثورة ، والعكس هو الصحيح .

ولا يعتبر ثائرا تغييريا من يقصر في أي من هذين الامرين ما دامت الثورة هي الكمال في الذات والصفات والافعال .

لقد ظهر لنا ، بعد الدرس والمراجعة ، أن الامام موسى الصدر ، خرج أواخر ١٩٥٩ من قم ، في ايران الى جبل

عامل ، في لبنان ، حاملا معه ثورة والاصح مشروع ثورة، فكان مثله مثل الامام الخميني الذي خرج اثر احداث ١٩٦٣ من قم نفسها الى تركيا ثم الى النجف في العراق ، ومنها الى باريس في فرنسا ، الا ان الاول أخفق وانتهى حسبما مر معنا في الفصلين السابقين، فيما نجح الثاني وأثبت ان للعجوز جدا وحظا في الدنيا، وعنده المناعة، فلا يقدر عليه من يريده من المعارضين والاعداء .

فاذا كانت ثورة الخميني « تجربة فريدة في التاريخ الحديث » (١) ، كما يقول محمد حسنين هيكل ، فان تجربة الامام الصدر ، على الرغم من سقوطها ، هي منها ولها ، وربما لو انتصرت لكانت اكثر فرادة من قسيمتها، وذلك نظرا لما بين البلدين : ايران ولبنان ، من تباين عميق، ولا سيما في التركيب السوسيولوجي والتعددي .

وظهر لنا أيضا ، وبالوضوح عينه ، أن محاولة الامام الصدر ما كانت « غريبة » عن جبل عامل كما يعتقد البعض، بل هي حركة من حركاته ، وقبس من ناره ، وأما اختلافها عما قبلها فسببه عدم التكافؤ في الظروف التي ترافق هذه الحركة وتلك ، وان اقرب دليل على قولنا هو ان حالة

(١) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. ص ١١

جبل عامل ليلة أشعله « الامام الصدر » ، ليست مثلها حالته ليلة « أشعله » سلفه الامام السيد عبد الحسين شرف الدين ، الذي قال : لا لفرنسا ، نعم لسورية الطبيعية .

ولكي ندرس محاولة الامام الصدر ، لا يسعنا الا أن نتبصر ولو بواحدة من « العامليات » السابقات، ولتكن الاقرب مودة وعهدا التي هي « عاملية » الامام عبد الحسين شرف الدين، على أن نوازن فيما بعد بين واقع ايران الذي غيّرته الثورة ، وواقع لبنان المعاند ، وعندئذ لا بد من أن ندرك لماذا فشلت ثورة الصدر ونجحت ثورة الخميني .

لذلك نعقد هذا الفصل وقد اعتزمنا الطريق التي بدأناها ، على أن نعطي لكل ذي حق حقه .

النجم الوافد

يقول الامام موسى الصدر :

« أنا أنتمي الى عائلة جذورها موجودة في لبنان: أنا متحدّر من سلالة الامام موسى بن جعفر (الامام السابع من الأئمة الاثني عشر والمتوفى سنة ٧٩٩ م) أجدادي تركوا لبنان عندما وصل الاضطهاد التركي الى ذروته وتم احراق كتبنا وقتلُ علمائنا . لقد غادر اجدادي الى العراق وايران حيث أسسوا عائلة كبيرة .

« أنا ولدتُ في ايران (٢) حيث والدي ، صدرالدين الصدر ، عاش وأسَّس جامعة دينية في مدينة قم . درستُ في البداية في تلك الجامعة ، بعدها نلتُ شهادة جامعية في القانون من جامعة طهران . أكملت دراستي الدينيــة في النجف ، في العراق . استلمتُ مهامي الدينية في جنــوب لبنان بعد وفــاة أحـد أقاربي السيد عبد الحسين شرف الدين » (٣) .

اذاً ، كان الامام موسى الصدر «قميا» فصار «عامليا» و « ايرانيا_فارسيا » فأصبح «لبنانيا_عربيا» . وهجرته الى أرض الجذور والجدود ما كـان لها أن تثير الغيرة والحسد والشكوك لو انه قلّص جبّته وانزوى فـي صور بين الرمل والمسجد .

ولكن « السيد » ما جاء الى هنا ليعيش في قفص ولو

(٢) تحديدا في مدينة قم في ١٥ آذار ١٩٢٨ ، على مـا في الصحف والمجلات اللبنانية : وفي الكتب التي تناولت الامام في شكل او آخر . ولكن النائب اللبناني الاستاذ بيار حلو، صديــق الامــام اللدود ، والذي ما زال يحفظ لــه الحب والتقــديــر ، قــال لي في احــدى مقــابــلاتي معــه : ان الامام كان يقول لي دائما انه من مواليد ١٩٢٧ وليس كمـا اصطلحت عليه المصادر والمراجع .

(٣) العرفان : عدد ٥٨ ، ايــار ١٩٧٠ ، ص ١٢٩ . ذكره الدكتور عجمي في كتابه : ص ٣٢/٣٣

من ذهب ، بـل ليحطم « الاقفاص » جميعها ، ويطلـق « صقور الحرية » في سماء لبنان الاخضر ، استعـدادا لاستقبال « الثورة الأم » الواعدة بـ «العهد الالهي » و « المنصب المحفوظ » الذي منحه الأئمة للفقهاء (٤) ، الا ان الكارثة وقعت ولما تغادر تلك الثورة الملجأ الباريسي الحصين والمنيع .

فبعد مضي سنتين على اختفاء الامام الصدر ،استقبل الامام الخميني المتربع على عرش الفقيــه ، عائلة الامــام المغيَّب ، وقد جاءت اليه ، من لبنان ، تشكوه مصيبتها وبليّتها فردّ عليها قائلا :

« اننا وشعبنا والامام الصدر ، سلّمه الله تعالى(؟)، سائرون في الخط الفكري والاسلامي ، ومشاكلنا ناتجة عن اصرارنا على القيام بواجبنا من أجل خدمة الاسلام .

« أنا عشتُ مع الامام الصدر سنين طويلة . ويمكنني القول بأنني أنا ربّيْتُه . وأعرف فضائله كما أعرف خدماته وانجازاته في لبنان . وأعرف أن لبنان في حاجة اليه ،وآمل في أن يعود قريبا الى وطنه ان شاء الله » (؟!)

(٤) آية الله الخميني : الحكومة الاسلامية ، دار الطليعة_ بيروت ، الطبعة الاولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٩١

أضاف :

« ان احتجاز الامام الصدر في ليبيا يُعتبر عناءً يتحمله في سبيل الاسلام ، فيكتب له عبادة وتعبدا لله • ويجب أن تتحمل هذه المصاعب برحابة صدر ، لاننا نعرف ان اولياء الاسلام وعلى رأسهم رسول الله والأئمة من بعده، عانوا كثيرا وتعذبوا وذاقوا مرارة السجون • وكل هذا كان من أجل الوصول الى الهدف » (؟!)

وقال الامام الخميني أيضا :

« ان الامام الصدر محتجَز منذ سنتين ، ويجب أن تتذكر أنّ جده الامام (موسى) الكاظم سُجن سبع سنين ، والبعض يقول ١٤ سنة ••• اني أسأل الله تعالى أن يسعدنا بعودته ليستمر في جهاده ، ويرزق عائلته واخوانه الصبر على فراقه الى أن يعود الى ساحة جهاده »[٥] •

سواء كان الامام الخميني صادق القول أو مجاملا، فان وحدة الهدف التي أشار اليها ثابتة وأكيدة : ثورة في لبنان وثورة في ايران • هنا نظام جمهوري رئيسه مسيحي، وهناك نظام ملكي شاهنشاهي ، وكلاهما « فاسد » ، يجب

(٥) عادل رضا : مع الاعتذار للامام الصدر ، عن الصحف اللبنانية ١٩٨٠/٨/٣١ . والمقابلة بين الامام الخميني وعائلة الامام الصدر تمت يوم ١٩٨٠/٨/٢٨

محاربته والقضاء عليه • بل ان الثورة السياسية ضرورة لا في ايران ولبنان فحسب ، بل في كل قطر ومكان ، أو كما يقول الخميني :

« في صدر الاسلام سعى الامويون ومن يسايرهم لمنع استقرار حكومة الامام علي بن أبي طالب (ع) مع انها كانت مرضية لله وللرسول • وبمساعيهم البغيضة تغيّر أسلوب الحكم ونظامه وانحرف عن الاسلام • لان برامجهم كانت تخالف وجهة الاسلام في تعاليمه تماما • وجاء من بعدهم العباسيون ، ونسجوا على نفس المنوال • وتبدلت الخلافة ، وتحوّلت الى سلطنة وملكية موروثة ، وأصبح الحكم يشبه أكاسرة فارس ، وأباطرة الروم ، وفراعنة مصر، واستمر ذلك الى يومنا هذا » •

ويقول :

« الشرع والعقل يفرضان علينا ألا نترك الحكومات وشأنها • والدلائل على ذلك واضحة ، فان تمادي هذه الحكومات في غيّها يعني تعطيل نظام الاسلام وأحكامه • في حين توجد نصوص كثيرة تصف كل نظام غير اسلامي بأنه شرك، والحاكم والسلطة فيه طاغوت • ونحن مسؤولون عن ازالة آثار الشرك من مجتمعنا المسلم ، ونبعدها تماما عن حياتنا • وفي نفس الوقت نحن مسؤولون عن تهيئة

الجو المناسب لتربية وتنشئة جيل مؤمن فاضل يحطم عروش الطواغيت ، ويقضي على سلطاتهم غير الشرعية ، لان الفساد والانحراف ينمو على أيديهم ، وهذا الفساد ينبغي إزالته ومحوه وانزال العقوبة الصارمة بمسببيه • وقد وصف الله المجيد فرعون بأنه كان من المفسدين » [٦] •

ويقول أيضا :

« وفي ظل حكم فرعوني يتحكم في المجتمع ويفسده ولا يصلحه ، لا يستطيع مؤمن يتقي الله أن يعيش ملتزما ومحتفظا بايمانه وهديه • وأمامه سبيلان لا ثالث لهما : إما أن يُقسَر على ارتكاب أعمال مردية ، او يتمرد على حكم

---

(٦) الامام الخميني : الحكومة الاسلامية : ص ٣٣/٣٤
واما ذكر فرعون في القرآن فكثير : البقرة ٤٩/٥٠، آل عمران ١١ : الاعراف ١٠٣ / ١٠٤ / ١٠٩ / ١١٣ / ١٢٣ / ١٢٧ / ١٣٠ / ١٣٧ / ١٤١ ، الانفال ٥/٥٤ ، يونس ٧٥/ ٧٩ / ٨٣ / ٨٨ / ٩٠ ، هود ٩٧ ، ابراهيم ٦ ، الاسراء ١٠١/ ١٠٢ ، طه ٢٤/٤٣/٦٠/٧٨/٧٩ ، المؤمنون ٤٦ ، الشعراء ١١ / ١٦ / ٢٣ / ٤١ / ٤٤ / ٥٣ ، النحل ١٢ ، القصص ٣/٤/٦/٨/٩/٣٢/٣٨ ، العنكبوت ٣٩ ، ص ١٢ ، غافر ٢٤/ ٢٦/٢٨/٢٩/٣٦/٣٧/٤٥/٤٦ ، الزخرف ٤٦/٥١ ، الدخان ١٧/٣١ ، ق ١٣ ، الذاريات ٣٨ ، القمر ٤١ ، التحريم ١١ ، الحاقة ٩ ، المزمل ١٥/١٦ ، النازعات ٧٩ ، البروج ١٨ ، الفجر ١٠ ، وكلها تهديد ووعيد وتحقير وذم واستنكار ولوم وتثريب •

الطاغوت ويحاربه ، ويحاول ازالته ، أو يقلل من آثاره على الاقل • ولا سبيل لنا الا الثاني ، لا سبيل لنا الا أن نعمل على هدم الانظمة الفاسدة المفسدة ، ونحطم زمر الخائنين والجائرين من حكام الشعوب • هذا واجب يكلَّف به المسلمون جميعا أينما كانوا ، من أجل خلق ثورة سياسية اسلامية ظافرة منتصرة » [٧] •

وفعلا خلق الخميني ثورة فنجح كما قلنا • وخلق الصدر أو هو كاد أن يخلق ثورة ، ولكن رياحا عاتية شديدة قاومته حتى أبعدته عن الساحة الى « الابد » ان الكلام على هاتين الثورتين تركناه الى الفصل السابع الذي خصصناه للبحث في سياسة الامام الصدر ، الثورية منها والتراجعية ، وأيضا للمقارنة بين الثورة الايرانية و « الثورة » اللبنانية •

يهمنا أن نؤكد ، الآن ، على المعنى السياسي والتيولوجي لكلمة « الشاهد الاخير » شهبور بختيار القائل :

« ولو كنت قد تسلمتُ الحكومة قبل ستة أشهر لما كان في وسع الخميني أن يعود الى طهران ، بل كان قد اكتفى بالعودة الى بيروت ليحل مكان الامام موسى الصدر • وثمة خطة لحظت هذه العودة اللبنانية في حال بدت العودة الى ايران صعبة أو مستحيلة ، ولو تسلمتُ السلطة قبل

---

(٧) الخميني : الحكومة الاسلامية ص ٣٤

ستة أشهر ، لكان الخميني قد وصل الى أي مكان في العالم باستثناء طهران » [٨] .

ليس من الصعب حصول هذا أو مثله فيما لو بقيت الدولة الشاهنشاهية وأجهزتها المعلومة والمعروفة على حالها .

ثورة في ايران وثورة في لبنان . والامام الذي يظل واقفا يأخذ مكان الامام الذي يسقط أو يغيَّب . المهم ان تستمر « الراية » خفاقة ، و « العقيدة » في مأمن . وعلى قول المثل : يفنى ما في القدور ويبقى ما في الصدور .

عندما كان الخميني في المنفى ، كان هنا في لبنان الدكتور صادق قطب زاده والدكتور مصطفى شمران ورهط كبير من « المعمَّمين » الايرانيين ، للعمل في خدمة الصدر ، ولما استدعتهم « الثورة الام » اختفوا عن الأعين وما عدنا نرى أيا منهم . يعرف « الصدريون » وأصدقاء الامام الصدر معظم هؤلاء جيدا . ويخص النائب الاستاذ بيار حلو والدكتور فؤاد نجيب البستاني والمحامي انطوان ابراهيم خميس كلا من الدكتورين زادة وشمران بالثناء الجميل والعظيم ، ويؤكدون على لطفهما الفائق وأخلاقهما

---

(٨) الاسبوع العربي : العدد ١٤٤٢ ، ١ حزيران ١٩٨٧ ، أجرى معه الحوار : مندوب المجلة الدكتور فؤاد أبو منصور .

الحميدة ، مع الوفاء والتواضع من جهة ، والعلم الواسع والثقافة الشمولية من جهة أخرى ، ويمكن اعتبارهما مهندسي العلاقات الفلسطينية ــ الخمينية . بيد ان الامام الصدر هو المحرك لهذه الطاقات المعجّلة (Charioteer) والمرشد والقائد والمدبّر والمسؤول . وهنا نبادر الى السؤال : لو ان الامام الخميني ما عاد الى طهران على قول بختيار ، فأي دور كان ينتظر زادة وشمران وغيرهما من الايرانيين ممن كانوا حول الصدر ، وبخاصة لو ان الاخير قدر له أن يستمر في ثورته ويحقق أهدافه ؟ ان هؤلاء ايضا موعودون بـ « المنصب المحفوظ » ، اذ لا فرق ، عند الإماميين ، بين لبنان وايران ، ولا بين مكان وآخر ، في ظل « الشريعة الألهية » ، وقل في عصر ظهور المهدي .

الجدود

يكفي هذا النجم الوافد ، أو العائد ، الامام الصدر ، مجدا وفخرا ، انه من أبناء الصدر ، الجناح الثاني لعائلة شرف الدين العاملية التي يقول فيها أحد أبنائها النائب السابق السيد جعفر عبد الحسين شرف الدين ما يلي :

« استوطن بلدة شحور (قضاء صور ــ الجنوب) جدنا السيد ابراهيم أبو الحسن الملقب بشرف الدين سنة

١٠٧٨ للهجرة قادما من (جبع) [٩] موطن أجداده . والسيد ابراهيم ابن السيد زين العابدين الذي خلف والده المرجع الكبير في عصره السيد علي نور الدين أخ السيد محمد صاحب « المدارك » لأبيه وأخ الشيخ حسن صاحب « المعالم » لأمه . خلفه على مدرسته في (جبع) بعد ان ارتحل عنها الى مكة المكرّمة . ويصفه السيد علي خان في كتابه « سلافة العصر » بعد ترجمة حياته بقوله : « استوطن مكة وهو كعبتها الثانية تستلهم أركانه كما تستلهم اركان البيت العتيق . ورأيته وقد أناف على التسعين والناس تستعين به ولا يستعين » .

ويتابع شرف الدين قائلا :

« ولاستيطانه مكة حكاية طريفة ومؤلمة معا . ذلك ان زعيم المناكرة على عهده في جبع ناصر المنكري نقل اليه

---

(٩) جبع أو جباع : بلدة اصطياف في جنوب لبنان (قضاء النبطية) تعلو عن سطح البحر ٦٠٠ م ، مشهورة ببساتينها وجنائنها ، انشأ فيها صاحبا « المدارك والمعالم » حوزة توقفت او تعطلت حتى اعاد انشاءها الشيخ عبدالله نعمة المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ . وجبع ، أو جباع هذه ، هي غير جبعون المدينة القديمة في فلسطين ، التي يرجح أن يكون موقعها في قرية الجب شمالي اورشليم . والتي فيها انتصر يشوع بن نون لسكانها على الكنعانيين . وهي (جبعون) شهيرة ببئر عميقة ذكرت في التوراة ولا تزال قائمة حتى اليوم .

رغبة الامير فخر الدين المعني بمصاهرته فأمهله السيد ريثما يهيء ابنته للحياة في قصر أمير . لانها مهيأة طبيعيا للحياة في بيت علم لا امارة . وفي نفس الاسبوع ارتحل مع عائلته الى مكة تجنبا لهذا الاحراج وتوفي فيها سنة ١٠٦٨ . والسيد علي نور الدين الجبعي المكي هذا هو ابن السيد نورالدين علي مجدد الحوزة العلمية في جبع ابن المرجع الكبير السيد حسين أبو الحسن المتوفى سنة ٩٦٣ للهجرة » .

ويقول شرف الدين أيضا :

« هؤلاء الاقطاب الاربعة هم آباء شرف الدين الادنون . وقد عاش في شحور سنتين فقط اذ توفي سنة ١٠٨٠ وله من العمر خمسون عاما . بينما عمّر ولده السيد محمد الاول تسعين سنة اذ كانت وفاته في شحور سنة ١١٤٩ للهجرة . فخلفه ولداه السيد صالح والسيد محمد الثاني . ونحن أبناء السيد محمد استمررنا بهذا اللقب (شرف الدين) أما أبناء أخيه السيد صالح فقد انتسبوا الى ابنه السيد صدر الدين وأولهم ولده المرجع الاكبر في عصره السيد اسماعيل الصدر جد السيد موسى الصدر لأبيه . وكذلك انتسب ابناء اخيه السيد محمد علي اليه وأولهم حفيده المرجع الاكبر في عصره السيد حسن الصدر والد الزعيم السيد محمد الصدر رئيس الوزارة

العراقية سنة ١٩٤٨ ورئيس مجلس الاعيان على مدى عشرين سنة » (١٠) .

ويعتبر السيد جعفر شرف الدين انتقال السيد صالح شرف الدين من لبنان الى العراق « مأساة » (١١) (...) « ارتكبها والي عكا أحمد الجزار » (١٢) ، وهي « تتمثل في الاجتياح والقتل والتنكيل بأهل جبل عامل وعلمائه وزعمائه واحراق مكتباته العلمية والادبية والتراثية » (١٣).

وعن الرموز المقاومة لهذا الاجتياح « الجزاري » يحدّث شرف الدين فيقول :

« وأشهر من استشهد في ساحة القتال (آنذاك) زعيم عاملة وقائد جيش دفاعها الشيخ ناصيف النصار وابنه وأخوه . وأشهر من استشهد في السجن تعذيبا من العلماء هما السيد فخر الدين فضل الله والشيخ علي خاتون . وأشهر من شرّد من العلماء الشيخ ابراهيم يحيى

---

(١٠) السيد جعفر شرف الدين : من دفتر الذكريات الجنوبية (الجزء الثاني) منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، توزيع دار الكتاب اللبناني ، طبعة ١٩٨٤ ، ص ١٣/١٤

(١١) المصدر نفسه

(١٢) المصدر نفسه

(١٣) المصدر نفسه

والسيد محمد الامين والشيخ محمد الحر والسيد صالح شرف الدين » (١٤) .

ويستعير محدّثنا السيد جعفر من محمد جابر آل صفا ، صاحب « تاريخ جبل عامل » ، كلامه على شحور (١٥) وثورتها ضد الجزار ، لينوه بـ « الشهيد الفتى هبة الدين شرف الدين بن السيد صالح » (١٦) وبأنه « لا يزال أهالي شحور وجوارها حتى اليوم يسمّون ساحة المعركة (صدر القتلى) وكان السيد صالح في هذه الظروف معتقلا في سجن (عكا) . وقد هيأ الله له النجاة فرارا بمساعدة خفير السجن فقصد متسترا الى وادي الليطاني

---

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) محمد جابر آل صفا : تاريخ جبل عامل ، دار النهار للنشر ، طبعة ثانية ١٩٨١ ، وفيه يقول المؤلف :

« ان شحور ثارت بقيادة الشيخ حمزة النصار من آل علي الصغير وادارة الشيخ علي الزين صاحب شحور وقد داهم هؤلاء الثوار قلعة تبنين وقتلوا حاكم البلاد فيها من قبل الجزار وأثخنوا بأعوانه . وعلى الاثر داهم الجزار قرية شحور في حرب لا قبل لها قتل فيها الشيخ حمزة وخلق كثير . وسار الشيخ علي الزين الى العراق فايران فالهند فكان له شأن كبير فيها » (ص ص ١٣٨/١٣٩) .

وعن معارك الشيعة مع المعنيين والجزار ، يراجع كتاب محمد جابر آل صفا نفسه من ص ١٠٨ الى ص ١٤٣

(١٦) السيد جعفر شرف الدين : المصدر نفسه .

تحت قريته شحور واتصل بأخيه السيد محمد ليخبره بعزمه على الهجرة الى العراق ويوصيه بموافاته بعائلته الى النجف. وهكذا كوّن أبناؤه في العراق ثم في ايران عائلة جديدة انتسبت الى ولده السيد صدر الدين » (١٧) .

ويتوقف السيد شرف الدين عند ذكر وادي الليطاني فيقول :

« ان السيد صالح التجأ الى كهف هناك سنة ١٧٨٣ ميلادية فرارا من جور الجزار وهو نفس الكهف الذي التجأ اليه السيد عبد الحسين شرف الدين سنة ١٩٢٠ فرارا من الحملة الفرنسية التي داهمت شحور لاعتقاله. وهكذا يتكرر الحادث في هذه الاسرة بعد ١٣٧ سنة . ويتكرر أيضا حادث التشريد فالسيد محمد الصدر شُرّد من العراق الى لبنان سنة ١٩٢٠ من قبل السلطة الانكليزية . والسيد عبد الحسين شُرّد من لبنان الى فلسطين من قبل السلطة الفرنسية . وكان لا بد من لقاء الرجلين ولا يستطيع أحدهما دخول البلد الذي التجأ اليه الآخر . وهكذا التقيا على الخط الفاصل قرب بنت جبيل » (١٨) .

---

(١٧) السيد جعفر شرف الدين : المصدر نفسه ، وايضا : « مؤتمر وادي الحجير » ، مقالة بقلم احمد اسماعيل ، العرفان ، العدد ١ و ٢ ، المجلد ٧٥ ، ص ٨٨/٨٩

(١٨) شرف الدين واسماعيل ، المصدران المذكوران .

هؤلاء هم جدود نجمنا الفارسي العاملي واختصارا: الفارعاملي الامام موسى الصدر . فهل من مجال ، بعد ، للقول بأنه ، وهو الذي وُلد كبيرا في عائلة سيرتها الجهاد من أجل الحرية والتصدي للظلم من أي جهة أتى ،لم يولد ثائرا ومصلحا وتغييريا ؟

ولمزيد من الشواهد والأدلة على ما نقول ينبغي لنا أن نتلمس بعضا من المظاهر التاريخية لمدينة قم ، المنشأ أو المنطلق لثورة كل من الخميني والصدر ، لنعرّج بعدها على تاريخ الامام المؤسس عبد الحسين شرف الدين، الذي هيأ للامام الصدر المنبر والمحراب ومهّد له الطريق وأسس القاعدة الشعبية كما سنرى .

كنوز الله

في دراسة حددت الخريطة السياسية لعصر ظهور المهدي ، يقول الشيخ علي كوراني ، في كتابه « الممهدون للمهدي » ، عن ايران والايرانيين ، ما يلي :

« تأتي ايران في طليعة القوى الفاعلة في احداث عصر ظهور المهدي ، ويُسمّى الايرانيون في الاحاديث الشريفة « أهل المشرق الموطّئون للمهدي » ، وقوم سلمان (الفارسي) ، ورايات المشرق ، وأصحاب الرايات السود، والخراسانيون .

« وتسمي الأحاديث عددا من قادتهم كالسيد الاكبر الذي تكون راياتهم مختومة بخاتمه ، والهاشمي الخراساني الزعيم السياسي الذي بكفه اليمنى خال ، وشعيبا بن صالح الفتى الاسمر الحديدي من أهل الري (طهران) قائد قواتهم الذي يجعله المهدي (ع) قائدا لقواته ، وكنوز الطالقان ، وهم شبان من منطقة الطالقان ، الى الشمال من طهران ، من أصحاب المهدي (ع) وصفتهم الاحاديث بأنهم من كنوز الله وانهم عرفوا الله حق معرفته ووصفت صلابتهم العقائدية والعسكرية وحبهم للمهدي (ع) » .

أضاف :

« وتمدح الاحاديث بلدة قم التي يظهر فيها العلم ويفيض على أهل المشرق والمغرب ويكون حجة على الناس ، وأنه يخرج منها رجل يدعو الناس الى الحق وأن قلوب أصحابه كقطع الحديد كناية عن صلابة عقيدتهم وقوتهم ، وأنهم لا تزعزعهم العواصف ، أرسى من الجبال الرواسي ، لا يكلّون من القتال ولا يجبنون ، يؤيد الله معهم الدين » .

ويقول :

« وتصف الأحاديث الايرانيين بأنهم يطلبون الحق فلا يُعطَوْنه ثم يطلبونه فلا يُعطونه ، فيقاتلون ويصبرون ، فيُعطَون ما سألوا فلا يقبلون .. حتى يدفعوا الراية الى

المهدي (ع) . ويقتضي أن يكون الحق الذي يطلبونه من أعدائهم هو أن لا يعتدوا عليهم ، ولا يعملوا على منعهم من انتهاج سياستهم الاسلامية » .

ويقول أيضا :

« والاحاديث عن الايرانيين منها أحاديث عامة في مدحهم وبيان دورهم في التمهيد للمهدي (ع) وهي أحاديث كثيرة في مصادر السنّة والشيعة على السواء . ومنها ما يتعلق بمرحلة ما قبل ظهور الهاشمي الخراساني وشعيب بن صالح وهي قليلة نسبيا واكثرها في المصادر الشيعية »(١٩) .

وليست الساحة الجغرافية للحدث : الظهور ، هي ايران فحسب ، بل كل بلاد الشام والعراق والحجاز ، وهذه المنطقة بالتحديد « هي مصدر الموج الاسلامي الهادر الذي تتحدث عنها النصوص » (٢٠) . و « هي ملتقى الصراع السياسي والعسكري بين ثورة المهدي (ع) وبين الاتجاه التحريفي العميل للغرب ـ حركة السفياني أولا ، ثم بينها وبين الصهيونية والغرب

(١٩) الشيخ علي الكوراني : الممهدون للمهدي (دراسة في الخريطة السياسية لعصر الظهور) الدار الاسلامية ـ بيروت ، طبعة اولى ١٤٠٥ هـ / ص ص ٥٣/٥٤

(٢٠) المصدر نفسه ص ٤٥

مباشرة »[٢١] . و « تتسع ساحة الظهور فتشمل مصر والمغرب الاسلامي واليمن وبلاد الروم ، فتكون الاحداث فيها امتدادا وانعكاسا لموج وأحداث هذه الساحة التي يُصنع فيها مستقبل العالم وتصاغ أوضاعه الجديدة»[٢٢] .

لقد أردنا الدخول الى تاريخ قم من هذا الباب الواسع والمزخرف ، لئلا تكون رحلتنا القصيرة مع هذه « المدينة المقدّسة » رتيبة وعادية . والواضح ان كل ما حولنا بات معبأ بأحداث المواد التفجيرية وأخطرها ، مما ينذر بالانهيار الفظيع الذي ان وقع سيُغرق العالم وبخاصة المشرق في ظلمة لا تعرف لها نهاية .

أي حلم هذا الذي يراود فئة من الناس ،فيحرّضها على اللهو والعبث بحقوق الشعوب وكراماتها وشؤونها؟

يبشّرون بـ « عصر الظهور » من جهة ،ويدمّرون الانجازات الحضارية من جهة أخرى ؟! وهم اذ يفعلون هذا وذاك فباسم « قم » التي كرّسوها أرض الحشر والمعاد، وموطن الحقيقة المطلقة؟!

والواقع ان مدينة قم الفارسية « مستحدثة اسلامية

(٢١) المصدر السابق .
(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٦

لا أثر للاعاجم فيها »[٢٣] ، وان « أول من مصّرها طلحة ابن الأحوص الأشعري »[٢٤] ، وذلك « في أيام ولاية الحجاج يوسف على العراق » كما يقول الحسن بن محمد ابن الحسن القمي ، واضع أول كتاب في تاريخ قم [٢٥].

ويحفظ المؤرخون عن هذه المدينة أن فيها آبارا «ليس في الارض مثلها عذوبة وبرودا »[٢٦] ، و «ربما خرج منها الثلج في الصيف »[٢٧] ، و « فيها سراديب في نهاية الطيب »[٢٨] ، وهي واحدة من سبع قرى نزل عليها الاشعري واخوته حتى « افتتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها وانتقلوا اليها واستوطنوا واجتمع اليهم بنو عمّهم وصارت السبع قرى سبع محال بها وسميت باسم احداها وهي كمندان فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم

(٢٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الرابع ،ص ٣٩٧
(٢٤) ياقوت الحموي : المصدر نفسه
(٢٥) الدكتور احمد لواساني : تاريخ قم للحسن بن محمد القمي الموضوع سنة ٣٧٨هجرية ، مجلة «الدراسات الادبية» الصادرة عن الجامعة اللبنانية ــ قسم اللغة الفارسية وآدابها ، العدد الاول ربيع ١٩٥٩ ، ص ١١٥
(٢٦) ياقوت الحموي : المصدر نفسه
(٢٧) ياقوت الحموي : المصدر نفسه
(٢٨) ياقوت الحموي : المصدر نفسه

قماً »[٢٩] وعلى يد هذا الإمامي ، ابن الاشعري ، الذي تربّى في الكوفة ، غدت قم مدينة شيعية لا أثر فيها لسنّي قط [٣٠] . وفيها مثوى السيدة فاطمة بنت الامام موسى الكاظم وأخت الامام علي الرضا ولي عهد المأمون . ومنذ العقد السادس من هذا القرن ، اصبحت عاصمة التدريس الديني الجعفري وقاعدة مرجع الشيعة الإمامية ، من أهم مراكز الشرق الاوسط الاقتصادية ، وذلك بسبب اكتشاف بئر للنفط في جوارها .

يتناقل القميون حكاية طريفة تخفي وراءها ما تخفي ، وهي أن سنّيا متشددا وُلّي عليهم فبلغه عنهم أنهم لبغضهم صحابة النبي لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر ولا عمر ، فجمعهم يوما وقال لرؤسائهم : بلغني انكم تبغضون صحابة رسول الله (ص) ، وانكم لبغضكم اياهم لا تسمّون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي انه اسمه لأفعلنّ بكم ولأصنعنّ ، فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلا صعلوكا حافيا عاريا أحول أقبح خلق الله منظرا اسمه ابو بكر لان اباه كان غريبا استوطنها فسماه بذلك ، فجاؤوا به فشتمهم وقال :

---

(٢٩) ياقوت الحموي : المصدر نفسه

(٣٠) ياقوت الحموي : المصدر نفسه

جئتموني بأقبح خلق الله تتنادرون علي ! وأمر بصفعهم ، فقال له بعض ظرفائهم : أيها الامير اصنع ما شئت فان هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا ، فغلبه الضحك وعفا عنهم [٣١] ، فمضى كل لسبيله .

وروي في « بحار الانوار » لشيخ الاسلام في أصفهان محمد باقر المجلسي (١٦٢٧ ــ ١٧٠٠) عن علي بن ميمون الصائغ عن الامام جعفر الصادق قوله :

« وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على الخلائق ، وذلك في زمان غيبة قائمنا الى ظهوره ، ولولا ذلك لساخت الارض بأهلها » [٣٢] .

ويُنسب الى الامام الصادق نفسه قوله أيضا :

« ستخلو كوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحية . يظهر العلم ببلدة يقال لها قم وتصير معدنا للعلم والفضل حتى لا يبقى في الارض مستضعَف في الدين حتى المخدّرات في الحجال ، وذلك عند قرب ظهور قائمنا ، فيجعل الله قُمّ وأهلها قائمين مقام الحجة ، ولولا ذلك لساخت الارض بأهلها ولم يبق في الارض حجة ، فيفيض

---

(٣١) ياقوت الحموي : المصدر نفسه

(٣٢) بحار الانوار : ج ٦ ص ٢١٣ ، عن « الممهدون للمهدي » ــ كوراني ، ص ١٠٤

العلم منه الى سائر البلاد في المشرق والمغرب فتتم حجةُ الله على الخلق حتى لا يبقى أحد على الارض لم يبلغ اليه الدين والعلم • ثم يظهر القائم ويصير سببا لنقمة الله وسخطه على العباد ، لان الله لا ينتقم من العباد الا بعد انكارهم حجة » (٣٣) •

والاحاديث عن تمهيد الفرس ، أو الايرانيين ،لخروج المهدي ، كثيرة ومنها :

ـ « يخرج رجل قبل المهدي من أهل بيته من المشرق يحمل السيف على عاتقه ثمانية أشهر يَقتل ويَقتل ويتوجه الى بيت المقدس فلا يبلغه حتى يموت » (٣٤) •

ـ « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حرّاث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطّئ أو يمكّن لآل محمد كما مكّنت قريش لرسول الله (ص) على كل مؤمن نصرُه أو قال إجابته » (٣٥) •

---

(٣٣) الشيخ علي كوراني : الممهدون للمهدي ص ١٠٤

(٣٤) اخرجه : الحنفي في « كنز العمال » ج ٧ ص ٢٦١ ، والسيوطي في « العرف الوردي » ج ٢ ص ٧٠ وفي الحاوي ج ٢ ص ١٤٢ و ١٤٦ ، وابن حمّاد في « الفتن والملاحم » ص ص ٨٦/٩٦ (مخطوطة) ، والكاظمي في « بشارة الاسلام » ص ص ١٧٧/١٨٤ ، عن « الممهدون للمهدي » ص ١٠٤ •

(٣٥) اخرجه : الحنفي في « كنز العمال » ج ٦ ، ص ٩٣ ،

=

ويُنقل عن (النبي) أنه قال :

« يوشك أن يملأ الله تبارك وتعالى أيديكم من العجم ثم يكونون أُسْداً لا يفرّون فيقتلون مقاتِلتكم ولا يأكلون فيأكم » (٣٦) •

وعن أبي هريرة قال :

« ذُكرتْ الاعاجم عند رسول الله (ص) فقال النبي (ص) : لأنا بهم أوثقُ مني بكم » (٣٧) •

وتتنوع هذه الاحاديث ، شكلا ومضمونا ، فمنها ما ينسب « رجل المهدي » أو « بشارته » ، الى طالقان ،ومنها الى خراسان ، مما يحيّر الباحث والمحلل ، فيجعل له ست أعين ، وثلاثة قلوب ، وثلاثة وجوه ، وثلاثة عقول ،موزعة على قم وطالقان وخراسان ، وربما على شيراز وتبريز وأصفهان أيضا ؟!

=

والسيوطي في « العرف الوردي » ج ٢ ، ص ٥٢ ، وفي « الحاوي » ج ٢ ص ١٢٦ ، وابو داود في سننه كما في « التاج الجامع للاصول » ج ٥ ، ص ٣٦٤ ، والقندوزي في « ينابيع المودة » ج ٣ ، ص ٨٧ ، عن « الممهدون للمهدي » ص ١٠٥

(٣٦) أخرجه احمد في مسنده ج ٥ ص ١١ ، عن « الممهدون للمهدي » ص ١٠٨

(٣٧) أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٣٨٢ ، عن « الممهدون للمهدي » ص ١٠٨

روى المجلسي في بحاره ما يلي :

« عن بعض أصحابنا قال : كنت عند ابي عبدالله (الامام الصادق) (ع) جالسا اذ قرأ هذه الآية « فاذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مقبولا » (٣٨) فقلنا : جُعِلنا فداك من هؤلاء ؟ فقال ثلاث مرات : هم والله أهل قم ، هم والله أهل قم ، هم والله أهل قم » (٣٩) .

وروى المجلسي نفسه :

« له كنز بالطالقان ما هو ذهب ولا فضة ، وراية لم تنشر منذ طويت ، ورجال كأن قلوبهم زُبَرُ الحديد لا يشوبها شك في ذات الله ، أشدّ من الحجر ، لو حملوا على الجبال لأزالوها ، لا يقصدون براياتهم بلدة الا خرّبوها ، كأن على خيولهم العقبان ، يتمسحون بسرج الامام يطلبون بذلك البركة ويحفّون بأنفسهم في الحروب ، ويكفونه ما يريد منهم » (٤٠) .

---

(٣٨) الاسراء : ٥

(٣٩) بحار الانوار : ج ٦ ص ٢١٩ ، عن « الممهدون للمهدي » ص ١٠٣

(٤٠) المصدر نفسه : ج ٥٢ ص ٣٠٨ ، عن « الممهدون للمهدي » ص ١٠٩

وأخرج ابن حمّاد والشافعي والسيوطي وابن طاووس وابن حجر وابن الصبّان والكنجي وابن خلدون والحنفي وغيرهم :

« يخرج شاب من بني هاشم ، بكفه اليمنى خال ، من خراسان برايات سود ، بين يديه شعيب بن صالح ، يقاتل أصحاب السفياني فيهزمهم » (٤١) .

وأخرجوا أيضا :

« اذا خرجتْ خيلُ السفياني الى الكوفة في طلب أهل خراسان ، ويخرج أهل خراسان في طلب المهدي ، فيلتقي هو والهاشمي برايات سود ، على مقدمته شعيب بن صالح ، فيلتقي هو والسفياني بباب اصطخر فيكون بينهم ملحمة عظيمة فتظهر الرايات السود وتهرب خيلُ السفياني ، فعند ذلك يتمنى الناس المهدي ويطلبونه » (٤٢) (*١) .

من تلك الارض ، وبالتحديد من قم ، خرج السيد

---

(٤١) الشيخ علي الكوراني : الممهدون للمهدي ص ١٠٩

(٤٢) المصدر نفسه .

(*١) وإصطخر هي مدينة قديمة جنوب غربي ايران . بنيت من أنقاض برسيبوليس واصبحت المركز الديني للساسانيين وعاصمتهم . فتحها العرب ٦٤٣ م . قضى عليها تأسيس شيراز بالقرب منها ٦٨٤ م . أعاد لها الشاه محمد رضا بهلوي مجدها وعزها كما سنرى في الفصل السابع .

موسى الصدر سنة ١٩٥٩ ، بطلب من السيد جعفر عبد الحسين شرف الدين ، وكان قد مضى على وفاة الامام المؤسس ما يقارب السنتين .

كانت صور تنتظر سيّدها وإمامها ، وقد جرّبتْ ، خلال هاتين السنتين ، أن تستقرب « المشوار » ، فدعت اليها القاضي السيد نورالدين شريف شرف الدين فاعتذر ، ثم السيد عباس أبو الحسن فلبى ما طُلب اليه ، ولما استقرأ الامر وعرف أحوال المدينة وخواصها انسحب ولم يودّع كي لا يحرجوه . واستعانت (صور) بالشيخ حبيب آل ابراهيم ، الا انه آثر عليها بعلبك ، فعادت الى الشيخ موسى عز الدين ، والاخير ردّ قائلا : « من أين لي سعة صدر السيد عبد الحسين شرف الدين . كان حمّال الاثقال ، فيما كتفاي لا يحملان ما قد حمل ؟! » وهكذا نفض الجميع عن أنفسهم المسؤولية ، تاركين الميدان لفارس يأتي من المشرق ، يكون عقله « حاراً » كما عقل الامام المؤسس، وطبعه مثل طبعه ، كأن يحب الجماهير ، ويعشق المنابر ، وتستهويه الاضواء ، ويكره الظلم ، ويقارع الخصوم ، ويجادل الاحزاب ، ويوجه الانصار ، وعنده ولع شديد بالسفر ومقابلة الملوك والرؤساء . فكان لا بد من استدعاء الشاب السيد موسى الصدر الذي طالما حدّث عنه الامام

المؤسس جلساءه ، وأبرز صفاته ، بعد أن استكشف عن طياته وامكاناته العلمية والادبية والنفسية والخُلقية .

فهلاّ ادخلْنا محراب هذا الامام العظيم الذي كان ينظر الى البعيد البعيد ، ويعالج المسائل الدينية والاجتماعية بفصاحة كلامه وقوته وجزالة منطقه واصالة عربيته، فنرى كيف حدّد لخلَفه النهج ورسم له الطريق ؟

الامام المؤسس

ليس بين أعمال الامام موسى الصدر ، المجموعة في كتب ، لا محاضرة ، ولا دراسة في سيرة الامام المؤسس عبد الحسين شرف الدين ، أو أثره ، ما عدا « مناجاة » كتبها لمناسبة مرور سبع سنين على وفاته ، وخصّ بها مجلة « رسالة الجعفرية » التي كانت تصدرها الثانوية الجعفرية في صور ، فاستحسنّاها السبيل الى عالم الامام شرف الدين الواسع والزاخر بالمواقف البطولية والعطاءات الدينية والفكرية والثقافية والاجتماعية .

في هذه المناجاة التي عنوانها « الغائب الحاضر » قال الامام الصدر :

« عبثا حاولت الايام والسنون ، أن تبعدك عن

قلوبنا ، أيها الغائب الكبير • وحاول التراب ، وبعد المزار (٤٣) ، أن يغيّب وجهك المشرق عن حياتنا •

«عبثا حاولت الاطوار والتغييرات العميقة ، التي طرأت على مجتمعنا ، وغيّرت منه كل شيء ، أن تزيل آثارك فينا •

«عبثا حاولت هذه العوامل ذلك ، فأنت بالرغم من هذا كله ، بيننا ، وفينا ، حاضر عندنا ، تضيء دروبنا ، وترشدنا ، وتبارك أعمالنا •

« انك أيها الغائب الحاضر عندنا : نسمع صوتك الرهيب الحبيب ، عند كل معروف ، فتأمر به • وعند كل منكر فتنهي عنه •

« نرى وجهك المشرق المرهَق ، يطل علينا في أيامنا العابسة ، فيملؤها أملا ونشاطا • وفي ليالينا الحالكات فتبعث خشوعا وصلاة •

« نلمس مسحات يدك الباسطة الرقيقة ، عند كل ملمّة ، وأمام كل أزمة ، ونحس بخفقات قلبك الدافقة الخافقة ، في كل محنة ، وعند كل معركة » •

---

(٤٣) لأن الامام شرف الدين دفن في النجف بناء على وصية منه .

أضاف :

« هذه الكلمات الخالدات ، تملأ مسامع الكون ، لتعطينا قواعد للسلوك المستقيم •

«وهذه كتبك الكريمة ، ترفرف على العالم الاسلامي ، من أندونيسيا الى كانو ، ومن القاهرة الى الصومال •

« وهذه بطولاتك ، تحرّك ضمير مواطنيك ، فتدعوهم الى القيام لله ، مثنى وفرادى •

«وهذا خلقك النبوي ، يهز كل مسؤول وكل كبير ، فيعطيه الطريقة المثلى للسلوك •

« وهذا صرحك الشامخ — الكلية الجعفرية — تؤذّن كل صباح ، وتنادي كل مساء ، فتهيب بنا الى تحمل مسؤولياتنا ، وتذكّرنا بثقل أماناتنا ، وتوحي الينا : هكذا فليعمل العاملون •

«وهذه قوة ايمانك الدافعة الرافعة ، تشق لنا الطريق ، تلو الطريق ، تدفعنا الى الامام ، وترفعنا الى السماء » •

ويتابع الفارعاملي الامام الصدر مناجاته فيقول :

« سيدي : عرفك بيتك أبا عطوفا ، وارف الظلال ،

مضيافا يخدم الضيف الذي يحج اليه ، رجالا وركبانا ، وعلى كل ضامر يأتيه من كل فج عميق .

« وعرفك صحبك مرشدا مربيا،لا ينقطع عن النصيحة والتوجيه ، لحظة واحدة .

« وعرفك بلدك مصلحا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، تقيم الشعائر ، وتنصر المظلوم ، وتحكم بين الناس بالقسط .

« وعرفك وطنك قائدا ثائرا ، يبذل أقصى ما يمكن بذله ولا يثنيه جبروت المستعمر ، ولا حيلة العدو الماكر، ولا ايلام الحرب الباردة التي يشنها الخصم الداخلي .

« وعرفك التاريخ صفحة بيضاء ، لا زيغ فيها،ولا تحريف ، بل مطلع فصل يأبى المغالطة ، ومدخل كتاب فيه تبيان وفرقان بين الحقيقة والوهم .

« وأنت أمام الله ترزق ، فرح بما أتاك ، وتستبشر بالذين لم يلحقوا بك فأصبحت الخالد المبدع » .

ويقول أيضا :

« سيدي : حوّلْتَ فكرك الى كتبك الخالدة ، فأهديتها الينا .

« وحوّلتَ طاقتك الى مؤسساتك العظيمة ،فوهبتنا اياها .

« وحوّلتَ عواطفك الرقيقة ، فأصلحتَ ما فسد وجبرت ما انكسر في مجتمعنا .

« وحولت خلقك الكريم الى تنشيط الحق ، وتعميم الجمال ،وتهدئة القلوب ، وتسلية المحزون ، وراحة اللاجىء والاصلاح بين الناس .

« وحولت وجودك كله الى كمال مجتمعنا : وأهديت كل ما تملك الينا ، ثم حملت جسدك المرهق المتهدم ، حملته الى منبت علمك، الى باب مدينة العلم ، الى بلد النور والولاء الى النجف لكي تجذب قلوبنا ، وتحافظ على ربط ايماننا وتمسكنا بسفينة النجاة وأحد الثقلين » .

وختم الفارعاملي مناجاته قائلا :

« ذهبتَ بعدما أعطيتنا كل شيء،سُمُوّاً في الحياة وفي الممات ، لكي تضرب مثلا آخر بموتك بعدما ضربت الامثال للناس بحياتك » (٤٤) .

لقد حركت هذه الصور الادبية الساحرة والفاتنـة بعض مشاعـري الدفينة ، فذكرتني بمدرستي الحبيبة : « الجعفرية » ، وبالطريق القصيرة التي تصل المدرسة ـ

---

(٤٤) منبر ومحراب ، دار الحوراء ، طبعة ثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الصرح بمعقل الامام ، المربع صحنه ، والوسيعة أرجاؤه ، والعالي سقفه ، وكان المؤسس لا البيت المجيد فحسب، بل المدينة (صور) من « الرمل » الى « المنارة » ، بل القضاء كله ، وقل معي : كان هو جبل عامل من شاطئه الى قمة رأسه . ولست أدري لماذا كنت كلما أمر من امام دارة « السيد » يخيل الي ان الامام، في غرفته، جالس ينظر في نزاع بين اثنين أو أكثر، فأسمعه يهدّىء هذا ، ويقرّع ذاك ويقول : الحق مقدس وعظيم ، والباطل محتقر وذليل . والقوي ، من بعد الله ، هو صاحب الحق ولو كان مقعدا كسيحا ، واما المتسلط أو المفتري أو الجائر فعليه اللعنة حتى يتوب ويخرج من جهالته .

ولكني اقول للامام الصدر بمثل ما قاله هو للصديق الاديب سليمان كتاني ، بعد ان استمع اليه في « صومعته ببلدة بسكنتا على سفح جبل صنين وهو يتلو كتابه العزيز: (فاطمة الزهراء وتر في غمد) » (٤٥) . وكما شعر هو

---

(٤٥) اشترك هذا الكتاب في مسابقة في النجف الاشرف ونال الجائزة الاولى بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٢ ، وكان مؤلفه الصديق سليمان كتاني (ماروني) قد دعا الامام الصدر الى منزله في بسكنتا، فلبى الامام هذه الدعوة ، وبعد الصلاة والغداء (قال لي سليمان : عندما رأيت الامام يصلي بخشوع كدت أن أصلي وراءه) جلس كتاني الى الإمام يقرأ عليه فصولا من كتابه ، =

(الامام) « بالحاجة الى سرد موجز لحياة فاطمة الزهراء لكي نجعلها قائدة ونقتبس من فيض سيرتها في طريق الصلاح والاصلاح » (٤٦) ، كذلك شعرت أنا بالحاجة الى مراجعة سيرة الامام المؤسس ، لكي نستضيء بنوره تلك الدروب الشاقة والخطيرة التي سلكها الامام الصدر فاثارت حوله الشكوك والانتقادات العنيفة، واقلقت فئات عديدة ومختلفة مما عجل في ازالته مثلما ازيل غيره ، من قبله ومن بعده ، ممن كانت لهم المواقف الصعبة والمتشددة مثل : معروف سعد وكمال جنبلاط وبشير الجميل ورشيد كرامي، وأيضا نقيب الصحافة رياض طه ، والصحافي سليم اللوزي، والشيخ أحمد عساف، والشيخ حليم تقي الدين، والشيخ صبحي الصالح والدكتور حسين مروه ، والدكتور حسن حمدان (مهدي عامل)، ثم محاولة اغتيال « الناصري » النائب الشاب نجاح واكيم الذي نجا من القتل بحيث أردى مهاجمه قتيلا، ويا ليت كل الذين يتعرضون للقتل أو الخطف يفعلون مثلما فعل النائب

=

ثم طلب منه أن يضع له مقدمة ، واذ سُرّ الامام بما سمع كتب بحثا بعنوان : « الزهراء : فصل من كتاب الرسالة » فكان المقدمة المطلوبة والضرورية .

انظر كتاب « فاطمة الزهراء وتر في غمد » دار الصادق – بيروت ، و « منبر ومحراب » ص ١٦١

(٤٦) فاطمة الزهراء وتر في غمد – المقدمة ، منبر ومحراب ص ١٦٢

واكيم ، او مثلما فعل الفوهرر (*٣) .

لقد سأل الامام الصدر الاديب سليمان كتاني قائلا :

« وهل خصصت معرضك الفاطمي البديع هذا بالذين عرفوا فاطمة واطلعوا على حياتها عن طريق كتب السيرة والسرد ، ومنعت الذين يريدون أن يطلعوا على سيرتها ؟

« هلاّ رسمت الطريق للوصول الى عين الشمس ونبع الحياة لكي يتمكن مجتمعنا الذي يقرأ الكتاب من تربية المرأة الفاطمية والرجل الفاطمي ؟ »

وقال :

« ان هذه اللوحات الرائعة سوف تعجب وتجتذب أرواح الناس الحائرة التي ضاقت بالابحاث والآراء والتجارب عن المرأة حتى أصبحت المرأة هي عقدة العقد في المجتمع القديم والحديث ، وهذان الاعجاب والاجتذاب بدورهما يؤديان الى البحث والتفتيش عن المواد التي كونت هذه اللوحات ، عن الحديد والكبريت (*٣) ،وعن المدخل الى

(*٢) انظر الغلاف

(*٣) اشارة الى قول كتاني في مستهل كتابه: « لهذا فسوف اكتب في فاطمة الزهراء متنكرا قدر الامكان لحرف الجر هذا يعني حرف « عن » الاداة المستعملة في كتب السير ـ وسأكون متنكرا للسرد ايضا ، فالريشة التي في أنملي ، ليس عليها أن تكون مختبرا يحلل نسبة الحديد والكبريت في ساق الزهرة ، اكثر مما لها أن ترسم اللون فيها وتهتز من موج العبير » .

هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع » .

وقال ايضا :

« ان الباحثين الجدد في معالم الحضارة الحديثة يسمونها حضارة الجنس وهذا يكشف عن خطورة عقدة الرأي في المرأة وعن الاخطاء الكبرى التي تعانيها من جراء الخطأ في تجربة الحضارة حول المرأة .

« ان آراء الكتّاب وعلماء النفس والمادية المتحكمة في كل شيء وفي المرأة بالذات ، قد أظلمت الدروب واغرقتها في الاهواء فضاع الصواب وعمت الحيرة وانهارت انسانية المرأة تحت وطأة التجارب القديمة والحزينة » (٤٧) .

سمع كتاني هذا كله ، فرد بصوت واثق وبشعور من « أدى الواجب » (٤٨) قائلا للامام :

« لقد تركت لك هذا الامر حتى تكتب في مقدمة الكتاب وتؤدي هذه المهمة فيكتمل العقد ويبلغ الكتاب النصاب » (٤٩) .

وعندئذ شعر الامام « بالاحراج الكبير امام الغاية

---

(٤٧) فاطمة الزهراء وتر في غمد ـ المقدمة ، منبر ومحراب ص ١٦٢

(٤٨) الزهراء .. ومنبر ومحراب

(٤٩) الزهراء .. ومنبر ومحراب

السامية وامام الوسيلة أيضا » (٥٠) ، فما كان منه الا ان استجاب لطلب كتاني ، فاتاه بما كمل « العقد » واتم جماله فعـلا .

ونحن اذ نراجع بعضا من سيرة الامام المؤسس ، نستعيد هذه الاسئلة عينها التي ألقاها الفارعاملي الامام الصدر على صاحبنا، لنوجهها الى الامام نفسه في محنته ، ويا ليته يسمعها أو يقرأها ، وكنا سنبلغ الهدف الاسمى لو ان الامام الصدر ظل حرا طليقا ، فلربما لقي طلبنا هذا عنده ما لقيه طلب الاديب سليمان كتاني . واننا لعلى ثقة بأن كان سيأتينا بما غاب عن دارسي الامام المؤسس حتى الان ، مع تقديرنا للجهود المخلصة التي بذلها هؤلاء في سبيل ما رموا اليه .

قال الشيخ عبد الحميد الحر يصف وفاة الامام عبد الحسين شرف الدين :

«حتى كان يوم الاثنين الثامن من جمادى الاخرة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٣٠ كانون الأول ١٩٥٧ م الساعة الخامسة والنصف صباحا ، فاذا بالقلوب واجفة والنفوس باهتة ، واذا بالدموع تتلاقى ، واللوعة والاسى يعمان الجميع ، الكبير والصغير ، الغني والفقير ، لقد نعى الناعي : الامام

---

(٥٠) المصدران السابقان

شرف الدين الذي ملأ دنيا العروبة والاسلام ، فضلا وعلما ، وأثرا » (٥١) .

وقال عن تشييعه :

«وكان سيدنا قد أوصى رحمه الله ان يدفن في «النجف الاشرف » بجوار جده أمير المؤمنين (ع) وكان يوم تشييعه في لبنان يوما مشهودا، احتشدت فيه الجماهير على اختلاف طبقاتها وهيئاتها ، منذ الصباح الباكر امام المستشفى تنقل الجثمان الى المطار المدني : حيث يواصل سفره الى العراق»

اضاف :

« ولست أنسى ما عشت تشييع جثمانه الكريم في العراق، ولا يعرف الناس تجمعا هائلا يخشع في اثر راحل، كالتجمع الذي شهدوه تحت نعشه . كانت المدن والقرى من الكاظمية وبغداد الى كربلاء فالنجف تلقي باحشائها في الموكب لا يملها طول الانتظار ولا يتعبها تموج الزحام . وفي النجف خاصة أعلن نفير عام لم يسبق له مثيل في حيـاة النجف » (٥٢) .

---

(٥١) الشيخ عبد الحميد الحر : الامام عبد الحسين شرف الدين (قائد فكر وعلم ونضال) دار الصادق ، طبعة اولى ١٩٧٢ ، ص ١٣٣

(٥٢) المصدر نفسه ص ص ١٣٤/١٣٥

وهل يمكننا ، ونحن نطالع هذين « البيانين » من الشيخ عبدالحميد الحر ، الا أن نسأل :ألا يستحق جبل عامل أن يكون مدفنا لعظمائه وكبّاره وعلمائه ؟

قد يكون الامام شرف الدين ، الذي قاوم الاتراك والفرنسيين في جبل عامل ، على حق ، اذ هو أوصى بدفنه في « النجف الاشرف » • ولكن قبور زعمائنا وأئمتنا يجب أن تحمي جبلنا ، مثلما تحمي أضرحة الائمة النجف والكاظمية وكربلاء وسامراء • ولو ان تراب جبلنا احتضن مشاهيره وبخاصة الشيخ بهاء الدين العاملي [٥٣] ، ومرجع عصره السيد اسماعيل الصدر ، والفقيه محمد الجواد الامين العاملي [٥٤] ، والسيد حسن الصدر ، والسيد محسن

---

(٥٣) بهاء الدين العاملي بن الحسين (٩٥٣ — ١٠٣٥ هـ / ١٥٤٧ — ١٦٢٦ م) : عالم إمامي من الشعراء ، يعرف ايضا باسم الشيخ البهائي . وُلد في بعلبك وتوفي بأصفهان. أصله من جبل عامل . اشتهر بآثاره في التفسير والآداب والحديث والفقه . أما كتبه في الرياضيات والفلك فقد ظلت زمنا طويلا مرجعا لكثير من علماء المشرق . من مؤلفاته «تشريح الافلاك» و « خلاصة الحساب » و « الكشكول » .

(٥٤) محمد الجواد الامين العاملي (١٧٥١ — ١٨١١ م / ١٢٢٦ هـ) فقيه شيعي . اشتهر بلقب صاحب « مفتاح الكرامة » وهو اسم كتاب له يعتبر من اعظم ما ألف الشيعة في الفقه .

الامين [٥٥] ، والسيد عبد الحسين شرف الدين ، لصار هذا الجبل مجموعة مزارات يحج اليها المعجبون ، وعندئذ تصبح صيانتها وحمايتها واجبا وطنيا ودينيا ، بل جزءا من صيانة جبل عامل وحمايته ، تماما مثلما هي الحال بالنسبة الى العتبات المقدسة في جنوب العراق وبعض أماكن الائمة والاولياء في ايران •

ولقد ذكّرني الشيخ عبد الحميد الحر بما كتبه عن موكب الامام عبد الحسين شرف الدين وهو يشق المدن العراقية الى مثواه الاخير في النجف ، بموكب « الست فاطمة ••• » (والدة الرئيس كامل الاسعد) ، اذ انطلق صباح الخامس من آذار ١٩٧٨ من أمام مستشفى « اوتيل ديو » في بيروت الى مقر السيدة زينب في دمشق ، وقد جمع هذا الموكب الضخم الشخصيات الرسمية ، والدينية ، والشعبية ، وعلى ما قيل فان أربعمئة « عالم » من مختلف الاقطار الشيعية قد استوقفوا هذا الموكب ، قبل الوصول

---

(٥٥) السيد محسن الامين (١٨٥٦ — ١٩٥٢) : اشتهر بلقب المجتهد الاكبر . وُلد في شقرا ، وعاش ودفن في دمشق . تعلم في جبل عامل وفي النجف . عُرف بثورته الاصلاحية التي هاجم فيها أساليب الاحتفال بذكرى مقتل الحسين في المحرّم . من مؤلفاته « أعيان الشيعة » في ستة وخمسين مجلدا ، « خطط جبل عامل » ، « شرح أحاديث الائمة » .

الى مقام السيدة وحملوا الجثمان على الاكف ، الامر الذي احزنني جدا وساقني الى الاستغراب والاستنكار ، فكتبت اذ ذاك ، رسالة الى الرئيس الاسعد ، عنوانها : « لو تحول موكب « الست أم كامل » الى الجنوب » ومما جاء فيها :

« مسكين هذا الوطن (لبنان) .

« تحت سمائه نولد ، وعلى أرضه ننمو ونكبر ، وتتخذ منه مركزا لوجاهتنا ، ونفوذنا ، وسلطاتنا ، وقبل ان تغدر بنا المنية نكتب « الوصية » ، التي نصر فيها على دفننا في غير أرضه ، فكأنه لا يجوز أن تختلط أجسادنا بترابه ، وكأن تراب دمشق ، أو النجف ، أو خراسان ، أو غيرها ، أحق بنا من تراب « الطيبة » (مسقط رأس كامل بك) أو صور ، أو الشياح ، أو « برج البراجنة » [56] (*٤) .

---

(٥٦) مصطفى جحا : رسائل من خلف المتراس ــ الجزء الثاني طبعة ١٩٧٨ ، ص ٢٢٦ــ٢٢٧

(*٤) حدثني احد الذين رافقوا موكب « الست أم كامل » الى دمشق قال : ان هذا العدد مضخم كثيرا ، والحقيقة هي ان سبعين معمما معظمهم من افغانستان والتيبت وباكستان كانوا يدرسون في النجف ، ولما أمرت الحكومة العراقية بابعاد الطلاب الايرانيين عن البلاد ، ارتأى السيد محمد الشيرازي انتقال هؤلاء السبعين الى مقر السيدة زينب في دمشق حيث يهتم بهم شقيقه السيد حسن الشيرازي (قتل في بيروت) فيؤمن لهم المنامة والاقامة والقروانة ، ولما جيء بجثمان «الست أم كامل» خرج هؤلاء « المعممون » بطلب من السيد الشيرازي ، الى استقبال الموكب .. وهكذا كان . (م) .

وقلت ايضا :

« ماذا عساه يفعل دولة الرئيس الاسعد ، غدا ، ان هو اشتاق (الى) زيارة ضريح السيدة والدته ؟

هل سيذهب الى دمشق كل مرة ؟

لا ! ابدا .

«هنالك « علماء » ــ على غرار الاربعمئة ــ لا يرون صعوبة في الامر ، لانه ، بنظرهم ، أمر بسيط ، وبسيط جدا ما دام « الاجتهاد » قائما ، وما بقي « المجتهدون » .

« يذهب أحد « العلماء » ، نيابة عن دولته ، الى دمشق ، ليزور « الست فاطمة ... » ويقف عند مقصورتها ، ليبلّغها السلام من ابنها ، « حامل » هموم الجنوب وكروبه وآلامه ومصائبه ، مقدما لها شتى الاعـذار ، لان ليس لدولته الوقت الكافي ، ولكن « البك » اذا أتى الى دمشق ، بصفة رسمية فلا بد (من) أن يمر بحضرتك ، ليقرأ الفاتحة ويسلّم .

«وسيقول « العالِم » (الموفد) لـ « الست فاطمة» :

« على كل حال لا تيأسي ، فالعلاقات بين دمشق وبين دولة « البك » هي على أحسن ما يرام . لا شك أنك تعلمين كيف استقبلتك سوريا الرسمية والشعبية ، وما هو مقدار

الحفاوة والتكريم ، الذي شهدناه ، هنا ، يوم وصول موكبك الى الشام . فاطلبي ، من الله ، عز وجل ، وبحق جارتك « الغريبة » ، « أم المصائب » السيدة زينب ، كي يحفظه ، ويهيّىء له دوام التوفيق ، ويحنّن عليه القلوب القاسية والعاصية » (٥٧) .

ولكن العلاقات « الاسعدية » ـ السورية ساءت وتدهورت ، منذ الاجتياح الاسرائيلي للبنان (١٩٨٢) ، مما يعني أن الرئيس الاسعد اليوم ، لا يمكنه زيارة ضريح والدته التي أحبها وتعلّق بها ، وكان يقف على رضاها . وبهذا يكون « البك » قد أضاف الى « همومه » الكثيرة والمتنوعة ، « همّاً » آخر ، ان لم يكن الأشد والاعظم . كما لن ينسى العامليون أن الفلسطينيين قد نبشوا مقابر آل الاسعد في « الطيّبة » ، وقتلوا ابن عم « البك » عبد الكريم الاسعد . وانما فعل الفلسطينيون هذا وغيره ليذلّوا العامليين ويخضعوهم لنفوذهم ، ويغتالوا لهم عزّهم وكبرياءهم وحريتهم وحقهم التاريخي العريق والأصيل .

ومن مفارقات هذا الزمن أن يستحيل دفنُ الاديب والمفكر الشيعي ـ الشيوعي الدكتور حسين مروة ، في

---

(٥٧) مصطفى جحا : رسائل من خلف المتراس ، نفسه

مسقط رأسه ، حداثا ـ الجنوب ، مما اضطر الحزب الشيوعي اللبناني أن يلتمس من الحكومة السورية السماح بدفن الدكتور مروة في مقام السيدة زينب ، ولو الى حين ؟!

بعد هذا الاستطراد الذي طال ربما ، نعود الى الامام المؤسس ، والى أبرز المحافل « التي عُقدت لرثائه ، والتحدث عن مآثره ، وسيرته الهادفة » (٥٨) ، بل الى ذلك المحفل الذي « أقيم حيث قضى حياته » (٥٩) ، في لبنان ، ويقصد به « محفل دار الفتوى » ، ببيروت ، وفيه قال الشيخ عبدالله العلايلي :

« في العلم ، حدّثْ عن البحر ولا حرج ، وفي التقوى ، لعلّها اتخذت من قلبه محرابها ، ومن ضميره ، هيكلها ... كان الوطنية ، يوم كانت آلاما ، وتضحيات حمرا ... وكان النزاهة يوم كانت حكاية تروى ...

« ... وكان الفكر الحر النيّر ، يوم كانت حرية الرأي سبيلا الى الاعواد .

« ... وكان الصراحة المجلجلة الهادرة ، يوم كان الهمس الرعديد ، عنوان الجرأة والاستبسال » (٦٠) .

---

(٥٨) الشيخ عبدالحميد الحر : الامام عبد الحسين شرف الدين ص ١٣٦

(٥٩) المصدر نفسه .

(٦٠) المصدر نفسه .

وقال الحاج حسين العويني (٦١) ، في كلمته الرسمية:

« وقد أجمعت الكلمة ، اجماعا منقطع النظير ، على تقدير هذا المجتهد المجدد • وتيسّر لـه اجماع الطوائف والمذاهب ، على محبته واحترامه • وحسبنا أن نستعرض أسماء دارسيه ، ومعددي مزاياه ومناقبه ، حتى نؤمن ، بأن في هذا الرجل صفات ألّفت حوله القلوب ، وجمعت على محبته النفوس ••• صفات يندر أن تجتمع في رجل واحد ، ومن هنا سر عظمتـه ، وسر اجماع الناس على تمجيده ، والانضواء تحت رايته •

« ••• وما أجدر هذا العصر ، أن نسميه ، عصر الامام شرف الدين » (٦٢) •

ومما جـاء في خطـاب مؤسس الحزب التقـدمي الاشتراكي الزعيم كمال جنبلاط قوله :

« واذا شئنا أن نضع ـ الامام شرف الدين ـ في اطاره التاريخي ، استطعنا أن نسلكه في سلسلة الأئمـة والقادة من القمم البشرية عبر العصور • ونعدّه واحدا في

(٦١) الحاج حسين العويني كان رئيس مجلس وزراء لبنان في حينه .

(٦٢) الشيخ عبد الحميد الحر : المصدر نفسه ص ١٣٧ .

تلك المجموعة النيّرة ، التي برزت ، فتألفت ، وتعاقبت ، على الايام ، جبالا انسانية حقيقية ، تتعالى وترسخ متوالية، منذ بداية الدعوة ، حتى يومنا هذا • وفي الواقع ، كان فيه شيء كثير ، من روح علي بن أبي طالب ، كان يبـرز ويرتفع بقوة واعتلاء ، على من سواه ، كان قمة الطود ، بالنسبة لسهول العامة ، وكان يستمد شموله هـذا من ديموقراطية متقدمة ميّزت شيعة الاسلام بحرية الانتقاد وحقه ، باجتهاد عبر العصور الثقافية » •

وقال جنبلاط أيضا :

« كان لا يطيق الاعوجاج ، ولا يتحمل الاختلال ، ولا يحترم سلطة جائرة ، ولا يجامل كبيرا ، اذا وجب قول الحق أو فعله • وكان يجابه الباطل ، ويدفع التعسف والطغيان •

« ••• عرفناه قمة من هذه القمم المتتابعة ، على مر التاريخ تحوي خصائص السهول ونفوذها ، لانها ترفعها وتشمخ بها •

« بهذا ما كان مثال « شرف الدين » لينحصر بشيعة، وانما كان من التراث الانساني الشامل » (٦٣) •

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

ومما قاله نائب الجنوب وابن صور الاستاذ يوسف سالم في اليوم نفسه :

« واذا كان لنا اليوم ، أن ننعم بهذه النهضة المباركة، ترتفع بمجتمعنا ، وتنهض به ، على قواعد العلم والحرية ، والاخلاق الفاضلة ، فان حق الوفاء علينا ، أن نذكر فضل هذا الامام الكبير ، والمصلح الحكيم ، والقائد الشجاع . فهو الذي فتح لنا أبواب المعرفة ، وسار أمامنا في طريق الكرامة ، فتأتّى لنا ، نتيجة فضله وارشاده ، وبفضل صموده وجهاده ، أن نرى حولنا جيلا جديدا من بني قومنا ، قد أخذوا من العلم بأقوى نصيب ، ومن الثقافة بقدر غزير ، فكأنهم وثبوا في برهة نصف قرن ، مسافة مئات السنين » (٦٤) .

انتهى المحفل « البيروتي » ، ليعود كل الى حيث أتى ، حاملا أطيب الذكريات وأجمل العبارات . فيما الامام شرف الدين بقي باسطا كفيه على جبل عامل ، وخصوصا صور المجلّلة بالسواد ، واستمر في « الجعفرية » كما في « المسجد » و « نادي الامام الصادق » و« الدارة » ملهما ومراقبا ومحذرا ومحاسبا . وظن بعضهم (...) أن الغائب قد ختم على الزمان بخاتمه ، وأخذ معه كل شيء

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٨/١٣٩ .

حتى مفاتيح بوابات الحديد السود والكتب والدفاتر والاقلام والمحابر والمساطر والطباشير .

ثم فرح الذين « أزعجتهم » انجازات الامام شرف الدين ، اذ اعتقدوا ، فيما اعتقدوا ، أن الحياة ، من بعده، آخذة في التراجع ، وأن الصخرة التي زحزحها « السيد» لا بد عائدة ، فبرزت « الطرابيش » تختال تيهاً وكبرياء، و « الخيازر » تحوّم استهزاءً وتشوّفاً ، وعادت« الهتّيفة» الى الشوارع لتحيّي« زعامات » نخرها السوس فكانت على وشك أن تنقرض وتزول .

لقد أرادت هذه « الزعامات » « الميتة » أو شبه الميتة ، أن تردّنا الى ما قبل عصر « الجعفرية » ، بل الى ما قبل عصر الامام شرف الدين ، فاحتدم الصراع بين « الجعفريين » من جهة ، وبين « القيّمين » على شؤون المنطقة ورقاب العباد من جهة أخرى ، فتغلّب الفريق الاول على الفريق الثاني ، وواصلت « الجعفرية » « المشي على النار مع الاحرار من مناضلي صور والجنوب » (٦٥) ، و « على الخط الوطني الصحيح الذي مشى عليه شرفاء

(٦٥) السيد جعفر شرف الدين : من دفتر الذكريات الجنوبية ص ٥١ .

لبنان من أجل اعادة الاصالة اللبنانية في القوة والمحبة والتسامح »[٦٦] .

كان في نية أولئك « القيّمين » و « المتزعمين » أن يشلّوا أعصاب الجيل الجديد ، ويردّوه الى أيام زمان، والى مدرسة السنديانة أو البيدر ، ولكن خططهم ومساعيهم خابت ولم تنجح ، ومع هذا ظلّوا يزوّرون الوقائع والاحداث ، وينشرون الفتن بين الناس ، وما علموا أنهم هم الخاسرون مهما طال عهدهم ، وأنهم في أعمالهم هذه كمن يحفر قبره بيديه .

عن تلك الايام التي حاول « القيّمون » الفاشلون إحياءها وتجديدها يقول السيد جعفر شرف الدين :

« لم يحدّثنا التاريخ ولم يرو لنا المعمّرون عن دار علم أو مدرسة بالمعنى الصحيح قبل الحرب العالمية الاولى الا اللهم ما كان يُسمّى بالمكتب السلطاني وهو عبارة عن كُتّاب رسمي ، ولولا الجهد الذاتي الذي كان يبذله علماء البلاد في تثقيف النابهين ممن ينضمون الى حلقاتهم العلمية لكانت البلاد في تخلف مطلق . الأن هذه الحلقات أخرجت العديد من المثقفين باللغة والادب وسطوح

(٦٦) المصدر نفسه .

الفقه . (فـ) منهم من هاجر الى النجف ، ومنهم من بقي في جبل عامل يعطي غيره مما أخذه . ومن بين هؤلاء وبين تلامذتهم انتشرت الكتاتيب تحفظ على الجيل رمق اللغة صرفاً ونحواً وكتابةً وشعرا . ومن بين زملائهم القدامى الذين عادوا من النجف انبثق نور العلم والمعرفة والبحث والتأليف »[٦٧] .

والأصح هو أن خريجي « النجف » القدامى كانوا، في معظمهم ، يتفيأون ظلال « زعماء » البلاد وأزلامهم ومحاسيبهم ، حفاظا على حياتهم ومعاشهم ، وأما من استنكف منهم ، ورفض السير في ركاب غير أهل الحق ، فكان يلقى العذاب والقهر ، فإما يُهجّر ويشرّد ، وإما يُعزل ويُنحّى ، فاستحال التجديد والتحديث، واستحكم التخلّف والجمود ، حتى نهاية الثلث الاول من القرن العشرين تقريبا .

ويرجع بنا السيد جعفر شرف الدين ، في مذكراته، الى مدرسته الاولى ، فيصف لنا أساليب التربية والتعليم التي كانت متبعة في تلك الايام ، وصفا دقيقا وموضوعيا، فلا بالغ ولا جامل ، ولا خضد العود ، بل نقل الينا واقعا تاعسا وظالما ليس له فيه يد ولا ارادة ، فقال :

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

« يحدّثنا المعمّرون في صور عن مرحلة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، ان أول مدرسة قرآنية يتذكرونها في صور هي مدرسة الشيخ ديب بيضون القادم من بنت جبيل عاصمة علاّمة جبل عامل الاكبر الشيخ موسى شرارة في ذلك الوقت . وينصرف الشيخ ديب الى المنبر الحسيني بعد أن عاد من مصر الشيخ ابراهيم بارود وهو في مطلع شيخوخته فقام بها خير قيام بلهجته المصرية المحببة سواء في تقريع الطالب المقصّر أو في تشجيع التلميذ المتقدم وكان ذا نكتة طريفة يقذف بها الطلاب في المدرسة ويطلقها على مجالسيه خارجها ، وسمة أخرى تميّز هذا الاستاذ هي تفرّده بعدم استعمال الضرب عن سائر اصحاب الكتاتيب ، هذه الصفة جعلت التلاميذ يقبلون على مدرسته عن رغبة لا عن رهبة .

« وكان أبرز خريجي هذه المدرسة استاذنا نورالدين الأخوي وأنجح أصحاب الكتاتيب في الثلث الاول من القرن العشرين رغم استعماله العصا على الكفين والرجلين» .

ويتابع شرف الدين قائلا :

« فتحتُ عيني في صور وأنا تلميذ في مدرسته التي اتخذ من بيته مكانا لها ، وكان يجلس الى طاولة على كرسي يشرف منه على التلاميذ ويعطي توجيهاته بصوت يشيع الهدوء ويبعث الرهبة فلا تسمع الا أصواتا هامسة تتدارس

اجزاء القرآن الكريم .وربما تسمع صرير الاقلام الحجرية تخط على الحروف ألواحها . وحلقات أرقى من هذه وتلك هي حلقات تحسين الخط وضبط الاملاء . ولهذه جلسات خاصة يقتعد تلامذتها وقد وضع كل منهم قدمه اليسرى على الحصير وطوى ركبته بحيث توازي صدره ووضع اليها اللوح الحجري أو كراس الورق وفق درجة الكتابة. فالأول يكتب بالقلم الحجري ، والثاني بريشة الحبر ، وهكذا يرافق تعلّم الكتابة مسيرة تعلّم القراءة من بدء رحلتها الى خاتمتها ، والى جانب ذلك يتلقى مبادىء علم الحساب ، وهكذا يتخرج التلميذ قارئا كاتبا حاسبا،ويقام له حفلة تخرّج حين يختم القرآن » .

وقال :

« وكان للمدرسة أناشيد ومحفوظات شعرية ونثرية يختارها الاستاذ من التراث . وكان استاذنا يلقي عظة اسبوعية ظهيرة يوم الخميس ، وهو الوقت الذي تبتدىء فيه العطلة الاسبوعية لتنتهي صباح السبت . والحق أن عظته كانت تأخذ منا الاسماع والابصار والافئدة ، لما كانت تتضمن من توجيهات في السيرة والسلوك مع الاهل والمجتمع وفي التركيز على قيمة الوقت في حياة الانسان . ومثلما كانت نبرات الاستاذ تسير بمثل الرعدة في كيان التلاميذ وهو يجود بهذه التوجيهات كانت الجملة الاخيرة

التي يختتم بها عظته تبعث نفَس الصعداء في الصدور لانها
آذان بالانصراف وهي الجملة التقليدية لدى كل انصراف:
(ضبّوا على السكت) ويا لها بلسما تجري في وجع الجنب
أو اليد أو الرجل فتأسرها • ويهرع التلاميذ الى البـاب
فيستوقفهم صوت الاستاذ يعطي أولوية الخروج على الشكل
التالي :

« أصحاب الأحذية أولا ، أصحاب (الشحاطات)
ثانيـا ، وثالثا أصحاب القباقيب ويندفعون نحو البـاب
ليتنفسوا من ورائه هواء الحرية » •

وقال أيضا :

« على أن العطلة الاسبوعية مرصودة أيضا • ذلك
أن الاهل هم عيون الاستاذ التي يرى بها ، وعليهم أن
يزوّدوا أولادهم (بسجل عدلي) يقدمونه للاستاذ صبيحة
يوم السبت ، وكان الاهل كثيرا ما يسجلون الواقـع ،
بعضهم يشيد بتقدم أولاده وعرفان فضل الاستاذ، وبعضهم
يتذمر من أخطـاء أولاده ، وبعضهم يرمز الى ذلـك
رمزا » [٦٨] •

ان هذا الواقع التربوي والتعليمي الذي كان سائدا

(٦٨) المصدر السابق : ص ٣٩/٤٠

في جبل عامل ، قد حدّثه الامام المؤسس وطوّره ، ببنائه
« المدرسة الجعفرية » عام ١٩٣٨ ، وهي « بدأت بـأربعة
صفوف » [٦٩] ، وفي السنة الثانية ٣٩ ــ ٤٠ أنشأ السيد
جعفر ، الذي انصرف كليا الى ادارتها ، الصف الخامس [٧٠] ،
و « بقيام هذه المدرسة انتهى عهد الكتاتيب في صور ،
وانتقل أبرز أصحابها السيد نور الدين الاخوي الى الجعفرية
لانه كان بنظر رجال تلك الحقبة الرجل المناسب في المكان
المناسب • لان الجعفرية كما تصوروا لا يقوم لها قائمة الا
بنظـارة رجـل لـه مـاضٍ في الحزم وهيبة في نفوس
التلاميذ » [٧١] •

فهـل كـان من المعقـول والمقبول إلغاء ما حققته
« الجعفرية » ، خلال عقدين من السنين ، والرجوع الى
الوراء ، لكي يرضى من كانـوا يعتبرون انفسهم وجـه
الجنوب السياسي وروحه وتاريخه ومستقبله ؟

ان صراعا اجتماعيا عظيما وُلد في جبل عامل ، مع
ولادة لبنان الكبير ، بطله الامام شرف الدين ، واستمرّ
يعنف حينا ويهدأ احيانا ، فكان من نتائجه انه أصـاب

(٦٩) المصدر السابق : ص ٤٢ .
(٧٠) المصدر نفسه .
(٧١) المصدر نفسه .

الاقطاع السياسي هناك اصابة مباشرة، فاستغل الفلسطينيون، فيما بعد، هذا الوضع الناشىء أيما استغلال، مما أدخل المنطقة في دوّامة رهيبة جذبت اليها كل الافرقاء: اللبنانيين والفلسطينيين، لتضرب بعضهم بالبعض الآخر، كما سنرى في الفصل الاخير.

والآن، ماذا عن ولادة الامام المؤسس ونشأته وحياته العلمية والسياسية؟

وُلد السيد عبد الحسين شرف الدين في الكاظمية ـ العراق ١٢٩٠ للهجرة، من أبوين كريمين تربط بينهما أواصر القربى، ويوحّد نسبهما كرم العرْق، فأبوه الشريف يوسف بن الشريف جواد بن الشريف اسماعيل، وأمه البرّة (الزهراء) بنت السيد هادي بن السيد محمد علي، منتهيين بنسب قصير الى شرف الدين أحد أعلام هذه الاسرة الكريمة (٧٢).

ثم درج في بيت زعامة علمية، دعائمه مرفوعة على أعلام لهم، في أقطار شتى من دنيا الاسلام، ذكرٌ محمود،

(٧٢) الشيخ مرتضى آل ياسين: من مقدمته لكتاب «المراجعات» للامام عبد الحسين شرف الدين الطبعة الثانية التي طبعت في دار الساعة ـ بغداد ١٣٦٥ هـ/ ونقلت الى الطبعة الواحدة والعشرين ١٤٠١ هـ/١٩٨٠، مؤسسة الوفاء ـ بيروت ص ١١

وفضل مشهود، وخدمات مشكورة، فكان هذا الإرث الأثيل يحفزه من جهة، ودواعي الحياة تقوي ثباته، وتصقل جوهره من جهة أخرى، وتربيته الدينية ـ أساسا ـ تصوغه على خير مثال يصاغ عليه الناشىء الموهوب، فهو أنّى التفت من نواحي نشأته، استقى النشاط والتوفّر على ما بين يديه من حياة: مؤملة لخيره ولخير من وراءه من الناس (٧٣).

ثم شب «السيد» في هذا البيت الرفيع، يرتع في رياض العلم والاخلاق، ويصعد في مدارج الكرامة، فلما بلغ مبلغ الشباب الناضر اصطلحت عليه عوامل الخير، وجعلت منه صورة للفضيلة، أثّرت بوضوح في تحصيله العلمي، ومكانته الدينية فيما بعد. وما أن خطا الخطوة الاولى في حياته العلمية حتى دلّت عليه كفايته، فلزمه طلابه وتلامذته، ودوى صوته في منتديات سامراء والنجف العلمية. وبات شخصه يومأ اليه بالبنان (٧٤).

ويوما اثر يوم أخذ نجمه يلتمع في الاوساط العلمية، ويعظم صيته كلما تقدم في مراحل دراسته، حتى اتصل بأبرز أقطاب العلم في النجف وسامراء، كالطباطبائي،

(٧٣) الشيخ مرتضى آل ياسين: المصدر نفسه.
(٧٤) الشيخ مرتضى آل ياسين: المصدر نفسه.

والخراساني ، وفتح الله أصفهاني ، والشيخ محمد طـه النجفي ، والشيخ حسن الكربلائي ، وعلى يد هـؤلاء ارتاضت له الحياة العلمية ، فاستوفى حظه مـن الثقافـة الاسلامية العالية ، فوفـّق بينها وبين فنه اللغوي ، اذ صاغ لنفسه أسلوبا في البحث والتحليل والمناظرة بات يُعرف به، وكان محببًا الى خصومه كما الى مؤيديه سواء بسواء[٧٥] .

واذ ذاك عاد « السيد » الى جبل عامل ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره[٧٦] ، وكان يوم وصوله يوما مشهودا ، قذفت فيه عاملة (جبل عامل) بأبنائها لتستقبل مقدمه مشرقا في ذراها وأجوائها ، واستقبلته مواكب العلماء والزعماء والعامة ، الى حدود الجبل من طريق الشام ، في مباهج كمباهج العيد[٧٧] .

ولا عجب اذا ما غالت عاملة بمظاهر الحفاوة بالنجم الذي هبطها من « سماء العلم » ، أو بالغت بتعليق الآمال عليه ، وقد ثبت لها أنه هو زعيمها الذي ترجوه لدينهـا ودنياها معا ، بعد طول انتظار ، عانت خلاله ما عانت من

---

(٧٥) الشيخ مرتضى آل ياسين : المصدر نفسه .
(٧٦) حري بنا أن نذكر ، هنا ، ان الامام موسى الصدر كان هو ايضا في الثانية والثلاثين ، عندما عاد الى صور بطلب من السيد جعفر شرف الدين .
(٧٧) الشيخ مرتضى آل ياسين : المصدر نفسه .

الاهمال الذي أدى ، فيما أدى ، الى الجهل والبـؤس والانعزال عن المجتمعات الارقى والاعلم[٧٨] .

ولما استقر به المقام في صور ، انطلق في اصلاحـه ، باتجاه العامة التي ما كانت تملك من أمر نفسها شيئـا ، فأرشدها الى حقها ، وهداها الى حريتها ، ثم دعاها الى الثورة على النظام الجائر المستبد ، فأحدث بينهـا وبين الاقطاعيات المنكرة هوّة سحيقة ، مستقطعا الصبر على الاهانة ، والرق والعبودية . وعندئذ استغلظ الشر بينه وبـين المترعمين والمستعمرين ، فحرّضوا عليه أزلامهم ، واتهموه بما لا يليق بمن هو دونه شرفا وعلما ، ولكنهم ستطوا حيث نجح ، فشمل التغيير مختلف جوانب الحياة في الجبل الكئيب[٧٩] .

قبل متابعة الحديث عن نضالات الامام شرف الدين في سبيل رفع مستوى طائفته وجبله ، لا بد لنا من مطالعة

---

(٧٨) الشيخ مرتضى آل ياسين : المصدر نفسه .
(٧٩) الشيخ مرتضى آل ياسين : المصدر نفسه . ايضـا كتاب الشيخ عبد الحميد الحر ، ومذكرات السيد جعفر شرف الدين ، و « الاتجاهات السياسية في جبل عامل ١٩١٨ ـ ١٩٢٦ » (أطروحة دكتوراه في التاريخ) مخطوطة (١٩٨٣) للدكتور محمد سعيد حسن بسام ، وكتابنا « نحن وصنمية التاريخ » الفصل الاول من الباب الاول .

شهادات هذا الامام واجازاته ، التي منحه اياها اساتذته ومشائخه ، مما يساعدنا على فهم مواقفه المتصلبة والعنيدة من الاقطاعيات والاحتلالات الاجنبية ، وهذه قد سببت له التشريد والآلام والمتاعب ، كما استحدثت له أعداء نسبوا اليه ما يفاد منه ان السيد « طائفي » و «متعصب» و«كاره» لمن هم على غير مذهبه من مواطنيه ، بينما اثبتت الايام والدراسات عكس ذلك .

فهذا هو شيخ الطائفة في عصره الشيخ محمد طه النجفي يدون في اجازته العامة للسيد شرف الدين، المؤرخة في مستهل محرم سنة ١٣٢٢ هـ ، ما يلي :

« وان ممن حمل العلم من عدول هذا الخلف لينفي عنه تحريف الغالي وانتحال المبطل ، وتأويل الجاهل، وهو قوي على ذلك بعلمه وفهمه وحكمته لولدنا البر الثقة العدل الورع الهمام المقدام ، الفقيه ، الاصولي ، المحقق، المدقق البحاثة القوي في حجته ، الصدوق في لهجته، المعتدل في أسلوبه وطريقته ، المتفاني في النصح لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامته ، الباذل نفسه لخدمة الشريعة المقدسة ، شريعة جده سيد المرسلين ، والمجاهد في سبيل احياء امر العترة الطاهرة آبائه الميامين ، السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي العاملي أعز الله به الاسلام وأهله، فانه من أعلام الهدى ومصابيح التقى بَلَوْتُه فوجدته

ذا ملكةٍ قدسية في ارتباط (استنباط) الاحكام الشرعية من ادلتها التفصيلية فاذا هو مصداق الرجل الذي عناه الامام أبو عبدالله الصادق عليه السلام بقوله : انظروا الى رجل منكم قد روى حديثنا وعرف أحكامنا فاجعلوه قاضيا فاني قد جعلته قاضيا فتحاكموا اليه » .

وقال الشيخ النجفي أيضا :

« فعلى المؤمنين أن يرجعوا اليه في الفتوى ،وفصل القضاء ، فان حكمه الفصل وقضاءه العدل لا يسمعه المؤمن الا انقاده والنجوع له وليهتدي المؤمنون بهديه وليكونوا عند أمره ونهيه » (٨٠) .

وشهد له « إمام العلم » الشيخ محمد كاظم الخراساني « الآخند » في اجازة مؤرخة في التاسع من ربيع الاول سنة ١٣٢١ هـ ، قائلا :

« وان سيادة السيد السند والثقة الفقيه المجتهد المنزّه من كل شين السيد عبد الحسين شرف الدين شدّ الله أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه ، مجتهد مطلق وعادل موثوق وقد أصبح من أهل الذكر الذين ترجع اليهم العباد،

---

(٨٠) الشيخ محمد طه النجفي : عن الشيخ عبد الحميد الحر ، ص ٩٥/٩٦ .

وترقّى من حضيض التقليد الى أوج الاجتهاد فخفقت ألوية النيابة عليه وألقت بأزمّتها اليه ، فليمتثل المؤمنون بأمره فانه حجّة عليهم ماضية فيهم حكومته ونافذ قضاءه ويُحرّم الرد عليه فان الرادّ عليه رادّ على الله تعالى وهو على حد الشرك بالله عز وجل » (٨١) .

وأجاز له الامام الشيخ آغا رضا الهمداني في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ١٣٢٠ هـ بقوله :

« وان من الطبقة العليا ولدنا الأبرّ التقي النقي العدل الامين على شؤون الدنيا والدين السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي ، جمع الله به الحكمة ورفع بجهوده شأن الامة ، فقد اشتهر بفضله وبهر في نبله ، وعلت منزلته في الدين والعلم فقهاً وأصولا وما الى ذلك من علوم وفنون ، فهو ذو ملكة راسخة قدسية في استنباط الاحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية يباح للعوام أن يرجعوا اليه في تلك الاحكام ، ويجب عليه تنفيذ حكمه في المرافعات ، وفصل الخصام فانه من العلماء المحققين

(٨١) الشيخ محمد كاظم الخراساني : عن الشيخ عبد الحميد الحر ، ص ٩٦ .

والفقهاء المجتهدين الذين أشار اليهم الامام الصادق عليه السلام في حديثه مع عمر بن النعمان » (٨٢) .

ومنحه الفقيه الشيخ عبدالله المازندراني ، في صفر سنة ١٣٢٢ هـ ، شهادة جاء فيها :

« أما بعد فان جناب السيد السند والكهف المعتمد عماد الملة والدين وثقة الاسلام والمسلمين السيد عبدالحسين نجل الأجل السيد يوسف شرف الدين العاملي ، مجتهد مطلق في الاحكام الشرعية ، جامع لشرائط الافتاء والقضاء من الاجتهاد والعدالة وغيرهما ، يجب عليه أن يعمل بما يراه ويحرّم عليه أن يرجع في أحكام الدين الى مجتهد سواه » (٨٣) .

وفي الرابع من محرّم سنة ١٣٢١ هـ ، قال الفقيه الشيخ فتح الله الشيرازي المعروف بـ « شيخ الشريعة الاصفهاني » في اجازته العامة ما يلي :

« وان من هذه الروضة المرضية المخضرة الاطراف ، والدوحة البهية الزاهرة الاكناف ، غصن شجرة السيادة

(٨٢) الشيخ آغا رضا الهمداني : عن الشيخ عبد الحميد الحر ، ص ٩٦/٩٧ .

(٨٣) الشيخ عبدالله المازندراني : عن الشيخ عبد الحميد الحر ، ص ٩٧ .

ونور حدقة السعادة ، صاحب الذهن الوقاد والطبع النقاد والقريحة القويمة والسليقة المستقيمة ، السالك أوضح المسالك في استنباط الفروع من المدارك العالم العامل البهي التقي المبرّأ من كل شيء السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي أيّده الله بلطفه الخفي الجلي » .

وقال أيضا :

«فانه هاجر من وطنه ونفر من مسكنه وبعد عن الأتراب والأقران وشطّت به الديار والسكان فحضر الى ثلّة من العلماء والاعيان ، وعلّ هذا الضعيف مرة من الزمان فلم يقنع من السماع الا الى التحديق ، وجدّ واجتهد في طلب المعالي ووصل يقظة الاحلام باحياء الليالي ، وناظَر ونوظر وراجَع وروجع حتى فاق الأمثال والاقران وصار مشارا اليه بالبنان ، بصيرا بمعضلات المسائل الفقهية ومشكلات المطالب الاصلية والفرعية .
تكلم معي مرارا بما كشف عن كونه نظيره نزيرا واختبرته ببعض مقفلات المسائل فوجدته بطرق فتحها وحلّها خبيرا فحق لي أن أقول انه قد ترقّى من حضيض التقليد الى أوج الاجتهاد وصار من أهل الذكْر الذين يرجع اليهم العباد فيما يتعلق بالمعاش والمعاد » (٨٤) .

---

(٨٤) الشيخ فتح الله الشيرازي : عن الشيخ عبد الحميد الحر ، ص ٩٨ .

اذاً ، حمل السيد عبد الحسين شرف الدين ، من سامراء والنجف ، الى جبل عامل ، « البركة المقدسة » التي تخوله القيادة والزعامة والرياسة ، في زمن عز القائد والزعيم والرئيس ، فهل يتوانى « السيد » ويتساهل ، أم ينتزع الزمام من الايدي الضعيفة والهزيلة ، ويخرج الى الجهاد ، أيا كان العدو ، ويتخطى كل الاسباب التي قد تحول بينه وبين طلبه للحق والحرية والعدالة والسيادة والاحترام ؟

وبعد أربع سنوات تقريبا من وصول « السيد » الى جبل عامل ، وبالتحديد في السادس عشر من ذي الحجّة سنة ١٣٢٦ هـ ، أرسل الامام اسماعيل الصدر الى أهالي صور رسالة يدعوهم فيها الى الالتفاف حول « السيد » والاهتداء بهديه ، ومما قاله :

« أما بعد فقد سرّنا قيامكم بوجائب الوظائف من خدمة السيد السند والثقة الفقيه المعتمد قدوة العلماء الفاضلين وأسوة الفقهاء المبرزين الاوثق لدينا والأعزّ علينا السيد السند السيد عبد الحسين شرف الدين .

«فاهتدوا بهديه واعتمدوا على رأيه واعرفوا عظيم قدره ، وكونوا نصب نهيه وأمره فانه لا يأمركم الا بمعروف ولا ينهاكم الا عن منكر وارجعوا اليه في أحكام الدين ».

وقال أيضا :

« واسمعوا قوله فانكم لا ترون منه الا عدلا، امضوا حيث يمضي واذعنوا حيث يقضي وتعبّدوا بأقواله واقتدوا بأفعاله واستضيئوا بنور علمه فانه من زيتونة لا شرقية ولا غربية مرجع عام ومفزع في فتاوى الاحكام » (٨٥) .

فازداد شيعة صور والمنطقة تمسكا بالقائد، « المصنوع » أو « المهيأ » في سامرا والنجف ، وتكاثر المؤيدون والمشجعون والمحازبون ، حتى كانت أحداث ١٩١٨/١٩٢٠، التي وقف منها موقف المعارض الصلب ، رافضا الانتداب الفرنسي أولا ، وانشاء لبنان الكبير تحت ظل السيادة الفرنسية ثانيا . ومن جهة أخرى ناصر السياسة الهاشمية العربية ، وأيد تتويج الامير فيصل الاول ، ابن الشريف حسين ، ملكا على سورية الطبيعية ، وأخلص له أيما اخلاص ، ولما لم يتمكن الامير فيصل من تحقيق هدفه ، أُبعد « السيد » الى دمشق ، ثم الى فلسطين ، ومنها الى مصر ، ومعه نفر من أهله ، بعد أن وزّع أسرته في فلسطين بين الشام وبين أنحاء جبل عامل ، في مأساة تضيف أدلة الى الأدلة على لؤم ، (بحيث) ظل ثقل من أهله الذين ذهبوا

(٨٥) الامام اسماعيل الصدر : عن الشيخ عبد الحميد الحر ص ٩٨/٩٩ .

الى « عاملة » يجوبون الفلوات والوديان في « عاملة » ليالي وأياما لا يجدون بلغة من العيش يحشون بها معد صغارهم الفارغة على أنهم يبذلون من المال أضعاف القيمة، ويبسطون أكفهم بسخاء نادر » (٨٦) ، فكان لا بد من « توزيع قافلتهم في الاطراف المتباعدة ، بين من بقي من أوليائهم وأصدقائهم على شيء من الوفاء والشجاعة» (٨٧).

وظل « السيد » في منفاه وغربته ، حتى اطمأن الى الوعد الذي قطعته السلطات الفرنسية على نفسها « بانصاف جبل عامل واعطائه حقوقه كاملة » (٨٨) و « بالسماح له (ولسائر المجاهدين المبعدين عن أهلهم وقراهم) بالعودة الى الوطن مطمئنا » (٨٩) ، وحينئذ عاد فكان يوم عودته من « أبهج وأحشد أيام جبل عامل » (٩٠) ، وقد هبّ العامليون ، من كل جهة ، لاستقباله ، فتحولت صور عندما وصلها « بحرا من الناس يموج بعضه فوق بعض » (٩١)، وكذلك شحور ، لما صعدها والخيل في ركابه تمتد أميالا حتى اذا وطىء أرضها غصت بالمستقبلين، فلم يبق شجرة

(٨٦) الشيخ مرتضى آل ياسين : المصدر السابق ص ١٦/١٧
(٨٧) الشيخ مرتضى آل ياسين : نفسه .
(٨٨) الشيخ عبد الحميد الحر : ص ٥٦ .
(٨٩) المصدر نفسه .
(٩٠) الشيخ مرتضى آل ياسين : نفسه ص ١٨ .
(٩١) المصدر نفسه .

تتدلى فروعها على غير محبيه وزائريه . ولبثت الـوفود
تترى اثر الوفود وفيهم العلماء والادباء والشعراء ، وكان
في ضيافته لكل هؤلاء سيد العرب أعاد لهم به عهد حاتم
طي ، على قول صاحب مجلة « العروبـة » محمد علـي
الحوماني (٩٢) . وتغالب الشعراء في تفخيم « السيد »
وتعظيمه ،فتحولت ساحة شحور الى مهرجان للشعر والادب
سيظل علامة بارزة في تاريخ جبل عامل ومحطة من محطاته .

بعد هذا ، راح « السيد » يرمّم منزليه في صـور
وشحور ، ويزيل عنهما الخراب الذي حلّ بهما على يـد
سلطة الاحتلال وعملائها ، ثم انصرف الى تدبير القضايـا
الاجتماعية التي سببها فشلُ المقاومة والمعارضة ، فأسس
« مدرسة الجعفرية » ، كما قلنا ، وجدّد « المنبر الحسيني »
سنة ١٩٣٩ ، الذي من رواده : الشيخ محمد نجيب زهر
الدين ، والسيد علي الحكيم ، وأنشأ « الجمعية الخيرية
الجعفرية » سنة ١٩٥٦ ، وبهذا يكون قد شجع الارادات
والامكانات العاملية ، المقيمة والمغتربة ، على العمل الخيري
سدّاً لبعض الثغرات العميقة والكبيرة في الجسم العاملي ،
الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، التي أحدثتها المحـن
والشدائد المتتالية .

(٩٢) محمد علي الحوماني : العروبة العدد ٢٠ السنة الاولى
ذكره السيد جعفر شرف الدين في مذكراته ، ص ٢٦ .

على أن هذه الهموم والانشغالات لم تصرف « السيد »
أو الامام المؤسس عن متابعة البحث والمطالعة والمنـاظرة
والكتابة ، بل كان « يخلو باستمرار الى مكتبته ، فيأخذ
نصيبه منها ، وينسى ما وراءها من حياة لا تنتهي مشاكلها
ولا تهدأ طلباتها » (٩٣) ، فأغنى المكتبة الاسلامية بمـا
صنّف من الكتب والابحاث والمقالات ، بعضها أُحرق أو
ضاع خلال أحداث سنة ١٩٢٠ ، وبعضها طبع قسم منه ،
ولا يزال القسم الآخر ينتظر الافراج عنه ، وعسى أن يكون
قريبا .

ان من أهم مؤلفات الامام المؤسس : « المراجعات » ،
وهذا اعتمدنا عليه في بحثنا « الدولة المهدوية حلم الشيعة
الاكبر » المنشور في كتابنا « قضايا مشرقية » ، الصادر
منذ مدة وجيزة ، و « الفصول المهمة في تأليف الامـة »
و « أبو هريرة » ، و « فلسفة الميثاق والولاية » و« أجوبة
مسائل موسى جار الله » و « ثَبْت الاثبات في سلسلة
الرواة » و « النص والاجتهاد » ، وهذه جميعها طُبعت
في مطبعة العرفان بصيدا ، ثم طبعت في بيروت والقـاهرة
والكويت وطهران والنجف ، وما زالت تطبع ، نظرا للاقبال
الذي تشهده في البلاد العربية وغيرها .

(٩٣) الشيخ عبد الحميد الحر : نفسه ص ٨٩ .

بعد الذي تقدم ، يبقى علينا أن نتحدث عن الامام شرف الدين السياسي ، وكيف بعث النضال في جبل عامل ضد الانتداب الفرنسي ، وما هي الاهداف التي جاهد ، مع الذين جاهدوا من العامليين ، من اجلها . وان خير مصدر سيعيننا على هذا ، هو ما كتبه الامام المؤسس نفسه عن تلك المرحلة من مراحل حياته وحياة العامليين .

يقول الامام المؤسس في مذكراته :

« ثم كانت لنا مواجهات مع المسيطرين الفرنسيين كبيكو وغورو وشربتيه ولبستر ونيجر . وقد حضر بعض هؤلاء الى صور وفاوضونا دون خجل في أن تكون لنا الادارة المطلقة في أسس الحكم المحلي وفي التعيينات . ولكننا رفضنا هذه المساومة ، وقد شهد بعض هؤلاء في صور احتشادات الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الوطنية الخافقة وهتافاتها الصاخبة فكان له وقع في نفوسهم وعلموا ان الشكيمة التي يحاولونها شكيمة لا تروّض » .

أضاف :

« وازداد موقفنا تعقدا بنتيجة استفتاء اللجنة الاميركية وقد زارت صور في هذا السبيل فيما زارت من أمهات البلاد سنة ١٩١٩ م . فسلّمتها مذكرة جاء فيها :

« أما بعد فانني أؤكد البحث الذي ادرته وأخي حجة الاسلام الشيخ حسين مغنية معكم في صور . وأسجل في هذه الوثيقة خلاصة الرأي الذي أدلينا به ، منعا لكل لبس لدى المترجم ، ودفعا لاي تقول من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

« أولا : لا نرضى بغير استقلال سورية التام الناجز بحدودها الطبيعية التي تضم قسميها الجنوبي (فلسطين) والغربي (لبنان) وكل ما يعرف ببرّ الشام .

« ثانيا : تكون الحكومة فيها ملكية ذات عدالة ومساواة يستوي فيها الناس في الحقوق والواجبات .

« ثالثا : الامير فيصل هو مرشّح العرب لملك سورية ، لما له من جهاد في سبيل القضية العربية ، ومن عبقرية سياسية وخلقية .

« رابعا : لا حق لما تدعيه فرنسا من أية بقعة في سورية . ولا نقبل أية مساعدة منها » (٩٤) .

---

(٩٤) الامام عبد الحسين شرف الدين : « آل شرف الدين في عصورهم ومعاصريهم » (مخطوط) ذكره السيد جعفر شرف الدين في مذكراته : ص ١٨/١٧

وتفاقمت الاحداث من جراء رفع الاعلام العربية في مرجعيون والنبطية والزهراني وصور وبنت جبيل ، فدار لغط حول « المقاومة » ومسلكها ، فظهرت علامات تشير الى تفكك في « الصفوف العربية » و « الوطنية »، وسرت الفتن الطائفية في البلاد ، فدعا الزعيم العاملي كامل بك الاسعد بالاتفاق مع الامام عبد الحسين شرف الدين، الزعماء السياسيين و « العلماء » ورؤوس الثورة : صادق حمزة وأدهم خنجر ومحمود الاحمد ، الى مؤتمر وادي الحجير ، وفي يوم انعقاده (السبت ٥ شباط ١٣٣٨ للهجرة ١٩٢٠ للميلاد) أقسم الامام شرف الدين اليمين وأخذها على كل من حضر ، من المسؤولين والقياديين ، ان يتضامنوا على حفظ الامن والحرص على سلامة النصارى بوجه خاص [٩٥] (*٥) .

---

(٩٥) الامام شرف الدين : المصدر نفسه .

(*٥) ومما يجب ذكره هنا ان الزعيم العاملي الكبير كامل الاسعد قد شرد أيضا على اثر اندحار الدولة العربية . ويتناقل العامليون بعضا من قصة تشرده فيروون ان الحاج اسماعيل يحيى والد النائب كاظم الخليل قد جاء الى البك في دارته في الطيبة فاستقبله البك على الرحب والسعة ، وراح الحاج الضيف يحدث البك بمختلف الاحاديث بقصد الهائه الى حين وصول رجال الامن الفرنسيين المكلفين القبض على البك ، وبينما هما في انسجام دخل عليهما احد حراس البك ليقول له : « سيدنا البك ان المسلحين الفرنسيين اصبحوا على =

ولكن أيدي السوء ما لبثت أن حرّفت قول « السيد » الامام ، مدعية أنه حرّض على مقاتلة النصارى وتهجيرهم واحتلال قراهم وممتلكاتهم، فأثارت فتنة ، في عين إبل وبنت جبيل وسواهما ، كادت ان تقضي على التعايش الاسلامي ـ المسيحي الذي امتاز به جبل عامل منذ أمد بعيد. والحقيقة أن خطاب « السيد » ـ الامام ، وهو الوحيد الذي ألقي في المؤتمر المذكور ، لا يقبل الافتراء ، ولا يحتاج الى تأويل أو تفسير ، وانما هو واضح وصريح ، ويؤكد على ضرورة التفاهم بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم ، وليس كما يدّعي « المفسدون » الذين لا همّ لهم سوى زرع الشقاق بين أبناء الشعب الواحد، وايقاد نار الفتن والحروب الاهلية . فلنستمع اليه يقول :

« ألا وان جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين : إما عز لا تفصم عروته ولا تقرع مِرِته (حجته) أو ذلّ تهان

= مقربة منا فيجب ان نتدبر امرنا » . عندئذ التفت البك الى الحاج اسماعيل وقال له : « الان فهمت سر مجيئك الى هنا » . ثم سحب مسدسه وقال : ما رأيك لو اقول لسعيد محبوبة (أحد مرافقي البك) ان يفرغ رصاصات هذا المسدس في رأسك ؟ على كل اذهب من هنا بسرعة واخلص بجلدك . فخرج الحاج اسماعيل من الطيبة وهو يتلمس صدره ورأسه بينما كان البك وبعض مرافقيه يحملون امتعتهم ويغادرون الطيبة على أحصنتهم المطهمة باتجاه فلسطين .

معه كواكب السعد وتقوض به سرادق المجد . فان نبذتم الأهواء الشخصية وآثرتم شرف القضية فلتكونن في حرز لا يُفصم وتكون بلادكم حمى لا يُقتحم . أما اذا غلبكم الهوى فلتكونن مَذْقة الشارب ونَهْزة الطامع وقَبْسة العجلان ، أمام قوة العدو ، وشدة الفتن ،وتظاهر الزمان» .

ويقول :

« فوّتوا على الدخيل الغاصب برباطة الجأش فرصته وأخمِدوا بالصبر الجميل فتنته ، فانه والله ما استعدى فريقا على آخر الا ليثير الفتنة الطائفية ويشعل الحرب الاهلية حتى اذا صَدَق زعمه وتحقق حلمه استقرّ في البلاد تعلّة حماية الاقليات » .

ويقول :

« ألا وإن النصارى اخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير فأحبّوا ما تحبونه لانفسكم وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم وبذلك تحبطون المؤامرة وتخمدون الفتنة وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيكم » .

ويقول أيضا :

« ان هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية . ويأبى

الا الاستقلال التام الناجز المعتمر تاج فيصل العرب،عاهلا مؤثّلا وقائدا محجّلا . يقيم دولة شرعية تجعل من الوطن جبهة منيعة ينحدر عنها السيل ،ولا يرقى اليها الطير»(٩٦) .

ويصف هذا المؤتمر الاستاذ ،محمد علي الحوماني،في رسالة له وجّهها الى « السيد » قال فيها :

« ولقد شهدتُه ــ أي المؤتمر ــ بنفسي ورأيتُ كل عالِم وزعيم وردَه دون أن يحس الحضور بوروده لكثرة ما ازدحم فيه من الخلق ، حتى اذا أوشكت ركابك أنْ تحلّ به حسبنا أن الارض قد تزلزلت والسماء أطبقت فوقنا . ولما تكشّف هذا الرهج المعقود فوق الوادي برزتَ من تحته كالبدر ينشقّ عنه الغمام ليلة تمّه .واذا بالقسطل المعقوف فوقك تثيره سنابك الخيـل المحدقة بك ، واذا بالرعود القاصفة مما تبعثه البنـادق والحراب المشرعـة حولك » .

وقال أيضا :

« لم يبق في الوادي فردٌ واحد لم يهرع الى استقبالك ويتشوّق الى ركبك ولما جلست في خيمة العلماء جفوا

---

(٩٦) السيد جعفر شرف الدين : المصدر نفسه ص ٢٠/١٩ أيضا « مؤتمر وادي الحجير » بقلم احمد اسماعيل ، المشار اليه سابقا .

بك وتهافت الحفل المحشود عليك كلهم يحدق بك ويستمع اليك وأنت مندفع تخطب كالسيل تبعث في نفوسهم الحمية وأنت دائب فيهم تحرضهم على الجهاد في سبيل الحق»(٩٧) .

ويبرز وفاء « السيد » للملك فيصل في خطاب له ألقاه في دمشق في ١٩ شعبان ١٣٣٨ للهجرة الموافق ١٨ أيار ١٩٢٠ للميلاد ، باسم الوفد العاملي الذي رأسه الزعيم كامل بك الاسعد والسيدان عبد الحسين شرف الدين وعبد الحسين نور الدين ، ومما قاله :

« أما بعد فانني أتقدم بتحية جبل عامل وولائه للمليك المفدّى ثمالة السلف وبقية الخلف وذؤابة الشرف . أجل اليك يا ابن رسول الله أرفع تحية شيعتك المتمسكين بالعروة الوثقى من ولايتك ، العاقدين نية القربة على مبايعتك بيعة قائمة مستقرة حتى بلوغ الهدف . ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم . والهدف يقوم على دعامتين اثنتين هما : تطهير أرضنا من رجس الاحتلال . وجمع شتاتها تحت لواء وحدة وحرية واستقلال . وقد اجمع الرأي العام عندنا على المناداة بذلك ، والجهاد في سبيل تحقيقه . وواجه به لجنة الاستفتاء الاميركية . ولا عبرة

---

(٩٧) السيد جعفر شرف الدين : عن العروبة العدد ٢٠ السنة الاولى .

بمن شتّ عن ذلك من كل مستأجر شرك الشيطان في جنانه ونطق على لسانه . وكانت مقررات وادي الحجير الحد الفاصل بين الحق والباطل والوثيقة التي رفعناها لجلالتكم أمس الاول تفصل ما نجمل » (٩٨) .

وفي حوار جرى بين الاستاذ محمد الحوماني من جهة، والاستاذ احسان الجابري من جهة اخرى ،يظهر لنا« السيد» كم كان نزيها ، مترفعا عن المكاسب الانية ، وأمينا لقضيته ، وعلى ما في الحوار :

« ان الزعيم الوطني محمد علي الطاهر كان يتنكر للزعيم رياض الصلح . قلت يشاركك في هذا التنكر العلاّمة شرف الدين . وقد أفاد من تنكره له نصف مليون ليرة لبنانية كانت نواة لمعهد علمي شاده في مدينة صور يضم المئات من طلاب العلم العامليين ، وذلك على أثر طلبه من حكومة رياض الصلح عونا لتعزيز هذا المعهد فلم يجد هذا العون . وقد اتصل بالمغتربين في افريقيا اخفاق « السيد » بما طلب ، وهو المجاهد الاول في سبيل الحق فلبوا دعوته بالمبلغ الذي ذكرت .

« قال السيد الجابري : حقا ان السيد شرف الدين

---

(٩٨) المصدر السابق .

خليق بالتلبية من الامة لأنه أسمى إباء وكرامة من كل رجل عرفته . قلت : لقد نقل الي الامير شكيب ارسلان إباءه بين يدي الملك فيصل بن الحسين . قال الجابري : لقد أخذ الامير الارسلاني ذلك عني . قلت : أحب أن أسمعه من فمك . قال :

« لقد عهد الي المغفور له فيصل أن أقدم لهذا السيد يوم زاره في نفر من جبل عامل خمسة آلاف دينار مصري . وكانت يومئذ أنفس من الدينار السكسوني الذهب فلما رأى السيد المال شاع الغضب في وجهه وقال : بلّغ صاحب الجلالة اننا لم نثر في سبيل المال وانما هي عقيدة درج عليها كل شيعي من عهد الامام علي حتى نجله فيصل هذا .

« ولما عدت (يقول الجابري) بالهدية الى الملك انتصب متأثرا ثم قال : هذا ما لم أعهده في حياتي ولم يمر بي رجل ممن أحترم من رجال الامة من يحمل هذا الإباء ويتحلى بهذه الكرامة » (٩٩) .

ولئلا نكون ممن ينظرون الى الرجال وأحوالهم

(٩٩) محمد علي الحوماني : « من يسمع » ص ١٣٣ . ذكره السيد جعفر شرف الدين ص ٢٢/٢١ والشيخ عبد الحميد الحر ص ٣٤/٣٣/٣٢ .

وعقائدهم ومذاهبهم وأفكارهم وعواطفهم ومواقفهم بعين واحدة، سنذكّر بتلك « الحرب » التي شنّها اثنان من الشعراء العامليين ، في الثلاثينات ، على الامام المؤسس متهمين اياه بـ « مجاملة الفرنسيين » و « التواطؤ معهم » على حساب الامة وقضاياها الدينية والقومية .

ففي عام ١٩٣٣ ، نظم ابن بنت جبيل الشاعر موسى الزين شرارة قصيدة بعنوان : « لا تذكر الشرق » جاء فيها :

« لا تذكر الشرق لا تفخر بدولته
ما الشرق الا خيال" في حقيقته
الشرق نضو نيوبُ الداء تنهشه
ورأسه من قديم أسٌّ علّته
داءُ التعصب قدماً كان آفته
ولم يزل عثرة في درب نهضته
فكيف يبرأ هذا الشرق من سقم
ومدية الدين تفري في حشاشته
الشيخ حوّل للتفريق جامعه
والقسّ يبذر حقدا في كنيسته » (١٠٠)

(١٠٠) موسى شرارة : من دفتر الذكريات الجنوبية طبعة ١٩٨١ ، توزيع دار الكتاب اللبناني ، ص ٦٨/٦٧

فقيل ان الامام المؤسس قد اعتبر هذه الابيات «كفرا وارتدادا »[١٠١] و « حكم بسفك دم الشاعر »[١٠٢] ، الامر الذي استنكره والد زوجة شرارة الحاج عقيل الشامي وبعض وجهاء بلدة بنت جبيل آنذاك ، فاتصلوا بالامام شرف الدين الذي لم يدع رأيه في قصيدة الشاعر مكتوبا ، طالبين منه فتوى بخط يده لتكون مستمسكا عليه لدى المراجع العليا ، فامتنع مكتفيا بما قاله في احدى الخطب أو شفاهة . ولكن الشامي والذين كانوا معه استفظعوا ، لغاية ما ، هذه « المسألة » التي كان من الممكن حلها بالتفاهم مع شرف الدين ، وبعثوا بالابيات نفسها الى النجف والشام وطيردبا ــ قضاء صور ــ يستفتون بشأنها المراجع الشيعية العليا .

فمن النجف ــ تقول المصادر ــ رد العلاّمة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء بشهادة كتبها بخط يده يقول:

« سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم . الدين عند الله أجلّ وأسمى من أن يزول بهذه الاقوال الشعرية والخيالات الوهمية »[١٠٣] .

(١٠١) موسى شرارة : المصدر نفسه .
(١٠٢) موسى شرارة : المصدر نفسه .
(١٠٣) عن موسى شرارة : المصدر نفسه .

وردّ أيضا الامام السيد أبو الحسن الاصفهاني يقول :

« لا أرى في هذا الشعر ما يشعر بالكفر أو الارتداد »[١٠٤] .

ومن طيردبا ــ قضاء صور ــ وردت على أصحاب الشاعر رسالة من العلامة الشيخ حسين مغنية يقول فيها :

« ان الشاعر مؤمن بذات القصيدة بقوله :

« خلّوا الصلاح وهارونا وشأنهما
دعوهما يرتعا كلا بجنته »[١٠٥]

ومن الشام أرسل العلاّمة السيد محسن الأمين يقول :

« اني أرى الافضل للذين يطلبون العلم ويكبّرون العمائم ليكفّروا عباد الله أن يرقعوا المدس »[١٠٦] .

فشجّع هذا التأييد الشاعر على مواصلة حملته على السيد شرف الدين دون أن يذكر اسمه ، فنشر قصيدة في

(١٠٤) عن موسى شرارة : المصدر نفسه .
(١٠٥) عن موسى شرارة : المصدر نفسه .
(١٠٦) عن موسى شرارة : المصدر نفسه .

مجلة « العروبة » كانت اشرس وأعنف من سابقتها ومنها:

« قالوا كفرتَ فقلتُ في أفعالكم
وسخرتُ من تضليل كل مدجّلِ
يغري الانام بعمّة نسجت على
نول الرياء لصيد كل مغفل
كبرتْ قماشا انما صغرت حجى
فبدت كبرج فوق حبة خردل
قسماً بقدس ترابها لو أُنطقت
لتألمت من لمْس تلك الأنمل »

وفيها أيضا :

« قد كنتُ إن رأيتُ عمامة
كخشوع راهبة أمام الهيكل
والآن إن لاحت أفرّ أمامها
ذعرا فرار طريدة من أجدل»(107)

وحمل على الامام المؤسس أيضا شاعر من الخيام هو الشيخ عبد الحسين عبدالله ، إثر وليمة أقامها الامام شرف الدين في صور على شرف المسيو دافيد (M. David) مندوب المفوض السامي لدى الحكومة اللبنانية ، وذلك في قصيدة له ساخرة ومؤلمة قال فيها :

(107) موسى شرارة : المصدر السابق .

« لمن الوليمة في مدينة صورِ
محفوفة بالطبل والزمّورِ
جلس الرجال الى الموائد وحدة
فالسيد المفضال جنب الخوري
والكأس دار على الجميع فلا ترى
عيناك غير الشارب المخمور
بشراك قد طوي التعصب بيننا
وانحلّ كل معقّدٍ وعسير
قد كنتُ عندك حين أسكر كافرا
واليوم أنت مشابهي و « نظيري »

وقال :

«اشرحْ لنا أرأيت مطعم «طانوس»(108)
وأكلت لحم الكافر الخنزير
وفهمت ان الخمر ليس كشايننا
والبطحة الحسناء غير القوري(109)
اشربْ هنيئا كل صاحب عمة
ما كان مثلك في لظى وسعير

(108) مطعم في بيروت ، منه جيء – على ما يقال – بالطعام الذي قدم الى الضيف الفرنسي والمدعوين .
(109) القوري : ابريق الشاي .

الكـل دونك أنت قـد نجيتنا
من مشكـل التنجيس والتطهير»

ويتابع الشاعر عبدالله قائلا :

« لا شك أنـك نـادم عما مضى
مذ كنت ترمي الناس بالتكفير (١١٠)
فالخمر مثل الشاي عندك قد غـدا
وكذلك الخنـوص كالقرقـور
لا تعجبن فكل شيء قـابـل
في الكـون للتبديـل والتغيير
مـا انـزل الرحمن نصا ثـانيا
لكن تبـدل منهـج التفسير
لو تشهد «الكتكات» (١١١) والكأس
تنصبّ بـين كواعب وبـدور
لتركت نـاحيـة المصلّى جانبا
وزهـوت بـالتهليل والتكبير »

وختم يقول :

« سرْ الامام ففي ركابك عصبة
تزري بكـل معمّم مغـرور

---

(١١٠) اشارة الى موقف الامام شرف الـدين من قصيدة موسى شرارة .

(١١١) ملهى مشهور في شارع الزيتونة ـ بيروت .

وارمِ العمامـة انها مشؤومـة
كم اوقعتْ أوطاننـا بشرور
ما دمتَ في صُور فكـل نقيصة
فيهـا مخلّدة لنفـخ الصُّور
وادي الحجير ولست أذكر يومه
أخشى فضيحة سره المستور » (١١٢)

روي ان الامام المؤسس قد غضب غضبا شديـدا حينما سمع بهذه القصيدة ، فوشى بالشاعر الى مندوب المفوض السامي ، والاخير أمر بالقبض عليه وسجنه في قلعة راشيا بدون محاكمة . ومكث الشاعر العبدالله في سجن راشيا فترة من الزمن عانى فيها التعذيب والتجويع الى أن أُفرج عنه .

ماذا كان يريد الشاعران : شرارة وعبدالله من الامام المؤسس ؟ ربما لا شيء سوى « المعارضة » التي أوحتها وغذّتها قيادات عاملية سياسية ودينية ، عُرفت بكرهها للامام وحقدها عليه . وفي كـل الاحوال فان ما تقوله انجازات الامام شرف الدين لهي الردّ الأهم والأصدق على

---

(١١٢) هذه القصيدة بقي بعض العامليين ، ولا سيما في منطقتي الخيام وبنت جبيل : يتناقلونها فيما بينهم الى ان نشرت في ديوان صغير للشاعر نفسه .

هذين الشاعرين وسواهما ممن خاصموه وعارضوه وتعرضوا له بالتهم الباطلة والنقد غير الموضوعي. وحسبما علمت من أستاذي السيد جعفر شرف الدين فان الشاعر حسين العبدالله نفسه قد بعث الى الامام المؤسس بقصيدة أملاها على ابن أخيه كامل عبد الرضا عبدالله فخطّها بيده وفيها يؤكد الشاعر توبته ويثني على تسامح الأمام وسعة صدره وعلمه على المتاعب والنكبات فيقول :

« أتيتُك يوما عندما تبتُ نادما
فحييتني طلقا محياك باسما

تعفّ عن الجاني يضل طريقه
وترحم مغرورا وتعذر آثما

سجايا الكرام الغر من آل هاشم
فلا يصحبون الناس الا أكارما

حنوتُ على تلك اليمين لثمتُها
وألقيتُ عني ما حملتُ مآثما

بني هاشم فخر العروبة انتمُ
ذراها صنعتم مجدها والملاحما

ففي كل ميدان تركتم ضحيةً
تظل لها الدنيا تعجّ مآتما

حملتُ لك الاخلاص من قلب عامل
يلف أزاهيرا ويهفو نسائما

بلادٌ لهذا البيت تاقت نفوسها
وشدّت على حب الحسين العمائما »

ذاك هو « السيد » عبد الحسين شرف الدين، الامام المؤسس، والسياسي المقبول، الذي تسلّم منه الفارعاملي السيد موسى الصدر الراية، وورث عنه المنبر والمحراب والجماهير العاملية، التي حملته على الاكف من الجنوب الى بيروت فالى بعلبك، زعيما دينيا وسياسيا، فارتعب منه حلفاؤه كما خصومه، اذ تأكد لهم ان الامام الوارث ذو دم حار (Warm-blooded) يريد أن يمحو مأساة هزيمة ثورة الامام المؤسس الموروث.

الفصل الرابع

عشيّة الهجرة

(١٩٤٩-١٩٥٩)

"اللهم أغفر لنا ما به إليك خطئنا، وما إلى لبنان أسأنا، واهدنا الصراط المستقيم.
"اللهم، عينك على لبنان، يدك مع لبنان، وخلّص بنعمتك لبنان، واجمع شمل اللبنانيين، وانصرهم على الشر فيهم، والخطر الذي يهددهم، ردّنا إلى الإيمان الحقيقي، كالأبدية، وعلى دينه، وطهّر قلوبنا من التعصّب، والترهّب، والأثرة، والاستعلاء واحتكار الحقيقة، فليس بين أديانك دين يبقى بغير المحبة، والمعروف، وخير العمل، وإعطاء، فبدّل الزمن الرديء تبديلاً".

النائب المحامي ادمون رزق
في ذكرى الإمام الحسين بن علي
صوفر ٥/٩/١٩٨٧

تمهيد :

النافذة « التيولوجية » التي فتحناها ، في الفصل السابق ، على قم وخراسان وطالقان ، وعلى دور الايرانيين في التمهيد لظهور المهدي المنتظَر ، لن تغنينا ، أبدا ، عن فتح نافذة سياسية ــ اقتصادية على كل من ايران ولبنان، تبيِّن لنا كيف كانت سياساتنا ومعايشنا ، هنا وهنـاك ، عشية هجرة ـ عودة الفارعاملي الامام موسى الصدر من قم الى جبل عامل .

لقـد حاولنا أن نتقاصر عن هذا الامر فنعتبر مـا توصّلنا اليه حتى الان كافيا ووافيا، ولا سيما ان المثل يقول « رُبَّ طَلَب جرَّ الى حرَب » ، فضلا عن الآية القائلة: «وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون»[1] . كما وان النافذة ليست كالباب ، بل هي خرْق" في البناء ينفذ منه النور فحسب ، وكل « طاقة » تجلب الريح انما يجب سدّها فورا وبإحكام . ولكننا عدنا عن رغبتنا هذه،

---

(١) البقرة : ١٨٩

عندما ثبت لنا أن الدخول من باب واحد ، مهما يكن واسعا ، يسبب الزحمة والمضايقة ، في الخلق والمكان معا • وعلى الرغم من اختلاف الشراح والمفسرين اعتمدنا الآية : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » [٢] ، والاية : « وقال يا بني لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة » [٣] • ولعلة واحدة هي ان المعرفة ، مثلها مثل الكون، ذات اسرار كلما ادركنا منها سرا غمض علينا سر آخر ، صفحنا عن كل ما يفرق بين الباب والنافذة ، مع تأكيدنا على أهمية الشكل والهيئة •

كيف كانت ايران ، وكيف كان لبنان ، في أواخر عام ١٩٥٩ ؟

ان هذا السؤال قد فاجأنا ، ونحن نتابع البحث في سيرة الفارعاملي الامام موسى الصدر ونشاطاته الاجتماعية والسياسية فكان لا بد من الاجابة عنه سعيا للحقيقة التي اردناها غايتنا ورجاءنا • ولم نستغرب ،ابدا ، التداخل الاقليمي والدولي الذي أملى علينا جوابا كأنه رد على مسألة هي أبعد من سؤالنا : كيف كانت ايران وكيف كان لبنان ، في اواخر عام ١٩٥٩ ؟ وهكذا كنا نتخطى البلدين الى غيرهما من

(٢) الانعام : ٤٤
(٣) يوسف : ٦٧

بلدان المنطقة ، وأحيانا الى أبعد من الشرق ، بفعل التأثير المباشر لهذه الدولة أو تلك على سياسة ايران ولبنان واقتصادهما •

ان « اللاعبين » الكثر يؤلفون ، مجتمعين ، « جوقة العازفين » (Orchestra) ولكل منهم دوره المحدد زمانه ومكانه ، وله ايضا « أهدافه الخاصة والتي لا تتفق واهداف الاخرين » [٤] ، فمتى أنجز دوره يصبح وجوده ثقيلا وهامشيا • ومن « اللاعبين » من أسقط قبل أن يغادر « الميدان » الذي يمارس فيه هواياته وتسلياته الغالية على قلبه « الحار » • ومنهم من تهجره الاضواء لينتظر امرا كان مفعولا •

فالى مسرح ١٩٥٩ الايراني – اللبناني ، الذي شارك فيه « لاعبون » من الشرق والغرب •

ولادة مؤتمر

أراد الملك سعود بن عبد العزيز (١٩٠٢ – ١٩٦٩م)،

(٤) زكريا محيي الدين : من محاضرة له القاها في الكلية الحربية المصرية ، في أيار ١٩٦٢ ، عن « لعبة الامم »، تاليف مايلز كوبلند ، ترجمة : ابراهيم جزيني ، طبعة ١٩٧٠ ، ص ٥

الذي خلف أباه الملك عبد العزيز عام ١٩٥٣ ، أن يدشن عهده بعمل عظيم ، فوسع الحرمين المكي والمديني ، لكي يجعل « بيت الله » جامع شمل المسلمين وشمل العرب ، فبلغت نفقات هذا المشروع سبعماية وخمسة وخمسين مليون ريال سعودي • واصبحت مساحة الحرم النبوي ١٦٣٢٣ مترا مربعا بعد أن كانت ١٠٠٣ أمتار مربعة ، وغدت ابوابه عشرة : ثلاثة من الناحية الغربية : باب جبريل ، وباب النساء، وباب عبد العزيز ، وثلاثة من الجهة الشمالية وهي : باب عثمان بن عفان ، وباب عبد المجيد (السلطان عبد المجيد العثماني) ، وباب عمر بن الخطاب ، واربعة من الجهة الشرقية وهي : باب الصدّيق ، وباب الرحمة ،وباب سعود، وباب السلام •

وقبل ان يمضي على هذا المشروع العظيم سنة ، أي في الاسبوع الاول من شهر آب ١٩٥٤ ، دعا الملك سعود مسلمي الارض الى مؤتمر ديني ، فأمت مكة وفود اسلامية أتت من مشارق الارض ومغاربها ، وكان بينهم الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، وغلام محمد الحاكم العام للباكستان ، ومحمد علي رئيس وزرائها ، وسيف الاسلام اسماعيل•ومثّل الوفد المصري ، الى هناك،البكباشي حسين الشافعي، وزير الحربية المصرية ، والقائمقام انور السادات والشيخ محمد حسنين مخلوف فقيه الديار المصرية ، وكان

السيد جعفر شريف امامي يرأس بعثة الشرف الايرانية ، والسلطان علي بن عبد الكريم العبدلي سلطان لحج،والشيخ علي بن الخوجة ، والسيد الحاج الحبيب القياري من الوفد التونسي • وحضر ايضا السردار شاه محمود خان نيابة عن ملك الافغان ، والشيخ محروث الهزّال رئيس قبائل عنزة العراقية ، والشيخ مثقال الفائز أحد رؤساء قبائل الاردن، وغيرهم من الوفود الاندنوسية والسودانية والسورية واليمنية •

وفيما الوفود تتقادم الى المملكة ، قام الملك سعود ، يوم ٦ آب ١٩٥٤ ، بغسل داخل الكعبة بماء الورد وماء زمزم ، ودعا للاشتراك بهذه المراسيم رؤساء بعثات الشرق وفي طليعتهم الرئيس عبد الناصر •

ثم اقام الملك سعود مآدب كبرى واحتفالات مهيبة على شرف الوفود والمهنئين ، ألقيت خلالها الخطب الحماسية وتعالت الهتافات بحياة القطبين : الملك سعود والرئيس جمال عبد الناصر •

وفي ١٠ آب ١٩٥٤ ، اجتمعت الوفود في مكة، واخذ المؤتمرون يتناقشون ويبحثون حال الاسلام•وكانت انظار الوفود كلها متجهة نحو الضابط الشاب المملوء حيوية ونشاطا الرئيس جمال عبد الناصر، وقد وقف خطيبا ،

فانتزعت آراؤه الثورية وبلاغته التصفيق الحاد بين الفينة والفينة ، ومما قاله :

« يجب أن تتغير نظرتنا الى الحج ، ولا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر جديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة » .

أضاف :

« يجب أن يكون الحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورة طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأي والعلماء والكتاب في كافة انحاء المعرفة ، وملوك الصناعة ، وتجارها ، وشبابها ، ليضعوا في هـذا البرلمان الاسلامي العالمي خطوطا عريضة لسياسة بلادهـم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عـام » .

وقال ايضا :

« يجتمعون خاشعين .. ولكن اقوياء ، متجردين من المطامع .. عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن اشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى .. ولكن مؤمنين

أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة » [٥] .

فأجابه الملك سعود :

« ان هذه هي فعلا ، الحكمة الحقيقية من الحج » [٦]

وفي ساعات المؤتمر الاخيرة اقترح الرئيس عبد الناصر ، وأيده الملك سعود في ذلك ، انشاء سكرتارية للمؤتمر أنيطت مهامها بالقائمقام أنور السادات . كما تقرر انشاء مجلس أعلى قوامه الملك سعود ، والرئيس عبد الناصر ومحمد علي رئيس وزراء باكستان السابق ، وتبنى المؤتمرون هذه المقررات بأغلبية ساحقة باستثناء وفدي ايران وباكستان [٧]

ومن مكة انطلق « اللاعبون » ، كل الى ساحته ، ليكملوا « أدوارهم » ، الا أن احدا منهم لم يعلم أن خسارته لا بد من أن تتغلب ، في النهاية ، على أرباحه مهما تكن طائلة [٨] .

---

(٥) عن كتاب : « من جزيرة العرب الى بلاد الاغريق » (تاريخ الملك سعود) لمؤلفه : سليم واكيم ، عضو الجمعية الدولية لحقوق الانسان ، الناشر علي العوري ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ص ٧٤/٧٦

(٦) تاريخ الملك سعود ، المصدر نفسه .

(٧) تاريخ الملك سعود ، المصدر نفسه .

(٨) زكريا محيي الدين : « لعبة الامم » ص ٦٤

من أسيوط ، في مصر ، جاء رجل اسمر طويل، الى القاهرة ، وقبل ان يطوي عامه الرابع والثلاثين ، أنزل الملك فاروق عن عرشه ، وأبعد حليفه في الثورة محمد نجيب، ثم قبض بيدين قويتين على عنق مصر الذي ظهرت فيه التجاعيد فهتف له الشرق الاسلامي : « الله أكبر • الله اكبر • لا اله الا الله، لا اله الا الله، ناصر حبيب الله • ناصر حبيب الله» •

ماذا يحمل العقد السادس من هذا القرن للعرب وكل الشرق ؟

عندما خرج عبد الناصر من « رحم » السياسة المصرية ، كان عمر الدولة الاسرائيلية حوالى أربع سنوات وكانت ثورة الدكتور مصدق وحسين فاطمي الايرانيين لا تزال واقفة على الماء ، بل كان عمرها سنة واحدة فقط •

الاسمر الطويل ذكّر الغرب والجيران بأول انقلاب في سوريا • فبعضهم قال : ان حسني الزعيم الحلبي (١٨٩٩ ـ ١٩٤٩) قد علّم العرب والمسلمين صنعة جديدة اسمها: تغيير الحكام • وقال بعضهم الاخر : انها سحابة صيف ليس الا •

والواقع ان انقلاب عبد الناصر وزملائه الضباط سبقه

حريق القاهرة ـ السبت الاسود ـ الذي حدث في كانون الثاني من عام ١٩٥٢ ، وحريق أفئدة المصريين الذي استمر طيلة العهود الماضية •

لقد ربط المحللون انقلاب عبد الناصر بوصول موظف كبير في المخابرات الاميركية يدعى « كرمت روزفلت » الى العاصمة المصرية على أثر ما سمي «السبت الاسود»، قائلين: ان مندوب المخابرات الاميركية هذا ليعد « ثورة السلام » في مصر ، فقابل « الضباط الاحرار » في آذار ١٩٥٢، ورأى ان يكون الانقلاب على البرلمان وليس على الملك ، الا ان السفير الاميركي في القاهرة ، جيفرس كافري ، خالفه الرأي وقال : يجب أن يتم الخلاص من الملك والبرلمان معا •

ويؤكد المحللون ان كيرمت روزفلت حاول بالتعاون مع الملك فاروق ، ايقاف التدهور السريع الذي تشهده البلاد ، ولما لم يحالفهما الحظ ، اضطر روزفلت ان يرفع يديه للسفير كافري في أيار ١٩٥٢ ، مسلّماً بأن الجيش هو وحده القادر على الحسم ، ووحده ايضا القادر على اقامة علاقات مع الغرب وتوفير جو من المودة والتفاهم [٩] •

---

(٩) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص ٦٣

وتم الاتفاق بين روزفلت وكافري على الانقلاب اولا وتأليف، حكومة حليفة ثانيا ، كما يقول المحللون .

كان الاميركيان : كافري وروزفلت متفائلين جدا ، اذ بدت لهما صورة الحكومة المصرية الجديدة ، الاتية على احدى عربات الجيش المصري ، مطابقة تماما للحكومة التي رسماها للانقلابيين على ورقة زرقاء مصقولة وناعمة .

ولما اطمأن روزفلت الى النتائج الاولية طار من القاهرة الى طهران ، لينفذ ، في بلاد العجم ، الجزء الثاني من « المشروع الاميركي الجدي »[10]، ويعيد الشاه المخلوع قبل أن « تسقط ايران كالتفاحة العفنة في أيدي السوفيات » كما كان يظن جوزف ستالين قبل وفاته في الخامس من آذار ١٩٥٣ »[11] .

وكما في مصر كذلك في ايران :

« اللاعبون » الضعفاء يتهاوون الواحد تلو الاخر ، إما في بحر من الدموع وإما في بحر من الدم .

و « اللاعبون » الاقوياء يهبطون ، بعضهم في اثر

---

(١٠) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص ٦٣
(١١) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، ص ٨٧

بعض، المسرح كالابطال، فيلهبون مشاعر الجماهير للتصفيق وللنشيد : « ثورة . ثورة . ثورة حتى النصر » .

لم يحسن الدكتور مصدق وأقرب حلفائه « آية الله » ابو القاسم كاشاني الادارة ، فدب النزاع بينهما من جهة، وافتقد « المجلس الثوري » سيطرته من جهة أخرى ، فكان أن عمت الفوضى ، وازدادت البطالة ، مما أدى الى خروج بعض الشخصيات الايرانية المهمة ، من نواب ورجال أعمال وملاكين ، باتجاه الكويت والشارقة ، ليكونوا على اتصال بالسلطات البريطانية بغية تغيير الوضع السائد والخطير[12] .

وفي الغرب ، وضع الدكتور مصدق ومعاونوه على « القائمة السوداء » لاسباب مختلفة ، أهمها ان شركة البترول الانجلو ــ ايرانية كانت تريد استعادة امتيازاتها، وتتمنى مواصلة اعمالها. في حين ان الاميركيين كانوا يخشون « التهديد السوفياتي الواضح للاستيلاء على ايران »، وعلى ما قيل، فان وزير الخارجية الاميركي، جون فوستر دالاس أيد ما جاء في تقرير كيرمت روزفلت الذي قدمه في اجتماع الوزارة يوم ٢٥ تموز ١٩٥٣ ، وبموجبه اكد روزفلت ان التهديد السوفياتي هذا لايران «حقيقي ، وخطير، ويوشك ان يقع » . ومما قاله الوزير دالاس يومذاك : « لو تمكن

---

(١٢) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، ص ٨٧

الروس من السيطرة على ايران فانهم سيتحكمون في الخليج الفارسي » ، بل سيحققون حلما راود القيصر بطرس الكبير (١٦٧٢ ــ ١٧٢٥ م) وما زال يراودهم [١٣] •

لقد نجح ، في ٢٢ آب ١٩٥٣ ، « الانقلاب المضاد »، أو « عملية آجاكس » [١٤] كما يدعوها الاميركيون ، فرجع الشاه محمد رضا بهلوي الى القصر واعتقل بعض مؤيدي مصدق ، فيما اختبأ البعض الاخر • واما مصدق الذي استطاع ان يختفي لمدة يومين في منزل أحد أصدقائه ، فقد ذهب الى أقرب قسم للبوليس وسلم نفسه عندما سمع من الاذاعة أمر القبض عليه [١٥] •

وحدث في طهران ما لم يحدث في القاهرة ، اذ جاء « الانقلاب المضاد » أعنف من الثورة وأشرس بكثير ولعله من غير الجائز المقارنة بينهما ، مع كون عبد الناصر « متعطشا للسلطة » [١٦] هو أيضا ، و « من طراز بونابرت » [١٧] •

اذا كانت الالة الايرانية حركها الحقد ، فان الالة المصرية حركتها مياه النيل الازرق الجميل •

---

(١٣) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ص ٨٨/٨٧
(١٤) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص ٧٣
(١٥) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ص ٩٠
(١٦) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص ٧٣
(١٧) المصدر نفسه

« ففي القاهرة كان الانقلاب (الثورة) سهلا كصيد فرس نهر عجوز • جرت مقاومة رمزية قتل فيها جنديان ، وفيما عدا ذلك لم تسفك الدماء • اعلن السادات الانقلاب من الراديو الوطني بينما استنجد الملك الذي كان يقضي عطلته السنوية في الاسكندرية بالانجليز في منطقة القناة • ولكن الانجليز لم يتحركوا لان السفير الاميركي (كافري) الذي كان يدعو الضباط الشباب « اولادي » نصحهم الا يفعلوا ذلك » [١٨] •

ومما لا شك فيه ان فاروقا كان « مدينا بحياته لا للضغط الاميركي فحسب بل أيضا لخلق ناصر ، الذي قال: « رأيت أننا اذا بدأنا بالعنف والدم كالثوار الفرنسيين لن تتوقف أبدا ، ففضلت فولتير » • (على ان) كل واحد من أعضاء الزمرة اراد موت فاروق لان اعدام الملك فقط يظهر ان للثورة أنيابا ونوايا (نيات) حسنة • لكن ناصر رأى أن قتل الملك دون محاكمة يعتبر جريمة ، واذا حوكم كان في ذلك ضياع للوقت الثمين واعادة للماضي » [١٩] •

وعلم ان عبد الناصر هدد بأنه « سيتخذ خطوة خطيرة

---

(١٨) دزموند ستيوارت : تاريخ الشرق الاوسط الحديث (معبد باخوس) نقله الى العربية زهدي جار الله ، دار النهار ، طبعة ١٩٧٤ ، ص ٣٢٢
(١٩) المصدر نفسه

انتحارية،اذا أصروا على موت فاروق»[٢٠] فارتبك الثوار وتراجعـوا عن مخططهم ، فهيمن (ناصر) عليهم وفرض سيطرته التامة [٢١] .

و « في ٢٦ تموز ١٩٥٢ أبحر حفيد الخديوي الذي افتتح قناة السويس في اليخت الملكي ، ومعه مائتان واربع حقائب ، الى النوادي الليلية في اوروبا » [٢٢] .

وبعد ثلاث عشرة سنة مضت على « غربته » توفي في روما ، وبالكاد اكمل النصف الاول من عقده الخامس .

أما في طهران ، فالوضع كان على عكس ما هو في القاهرة .

فمع « الانقلاب المضاد » كانت العاصمة الشاهنشاهية تبدو كأنها « المدينة المهزومة » [٢٣] ، أو كأنها غارقة في محيط من الرماد . وقد خرجت قوات جيش الشاهوبوليسه الى الساحات لتعقد المحاكمات الفورية في الهواء الطـلق وكل من يشك في أنه من مؤيدي مصدق كان يطلق عليه

---

(٢٠) المصدر نفسه
(٢١) المصدر نفسه
(٢٢) المصدر نفسه
(٢٣) محمد سنين هيكل : مدافع آية الله ص ٩٠

الرصاص ، كأنه خنزير بري أو كلب مصاب بداء الكلب ، فقتل مئات من الطلبة واليساريين ، على مرأى من أهلهم وذويهم . حتى ان المفكر المثالي حسين فاطمي ، وزيـر خارجية مصدق والمحرر السابق لاحدى صحف طهران الرئيسية (باختار أمروز) ، قتل هو ايضا في الشـارع ، و « لم تشفع له عداوته الشديدة للشيوعية » [٢٤] .

ثم امتد غضب الشاه وجماعته الى الاقاليم حيث قام الجيش والبوليس بانزال عقوبات خاصة بالمدن التي أظهرت تعاطفا أو تأييدا لمصدق والجبهة الوطنية ، فغدت « قـم » و « شيراز » و « تبريز »و«أصفهان» (مسقطرأسحسين فاطمي) « مسرحا لعمليات دهم وتفتيش واعتقال على نطاق واسع » [٢٥] . وأزيل بيت الدكتور مصدّق في طهران بالجرافات لئلا يتحول « الى رمز وقبلة للمعارضة » [٢٦] .

بعد الانتقام والاخذ بالثأر من أعداء الشاه ، تـم توزيع « المكافآت » على الذين أبعدتهم ثورة مصدّقمن السياسيين ، وعلى الاثرياء الذين صودرت ممتلكاتهم أو تضررت أعمالهم التجارية نتيجة لسياسة التأميم التياتبعها

---

(٢٤) المصدر السابق .
(٢٥) المصدر نفسه
(٢٦) المصدر نفسه

مصدّق . وكذلك على الضباط الذين عضدوا الشاه ، ومنهم فروا خارج البلاد . جميع هؤلاء وأولئك نالوا من التعويضات كما أرادوا ، على الرغم من ان الخزانة الايرانية كانت خاوية أو شبه خاوية . وقد سارعت الحكومة الاميركية الى منح ايران الشاه قرضا قيمته ٤٥ مليون دولارا من جهة ، ومن جهة أخرى أبدت شركات البترول الاميركية استعدادا كبيرا لتقديم « القروض السخيّة » لقاء الارباح التي ستجنيها فيما بعد (٣٧) .

من الطبيعي أن يكون إلغاء تأميم البترول رأس اهتمامات الحكومة الشاهنشاهية الجديدة أو العائدة، ولذلك تألف « الاتحاد المالي الجديد » الذي مهمته ادارة شؤون البترول ، فحاز رضا الشركات الاميركية وقبولها الكامل ، بعد أن أصبحت تملك ٤٠٪ مما كان يمتلكه البريطانيون قبل التأميم (٣٨) .

واذا أردنا أن نذكر الذين كوفئوا من « الخلصاء » و « الاوفياء » للشاه ، فلا بد من أن نذكر : الكولونيل نعمة الله ناصري ، الذي سلّم مصدّق رسالة إقالته، وقد رُقّي الى رتبة جنرال وأصبح مسؤولا عن « السافاك »،

---

(٢٧) المصدر نفسه
(٢٨) المصدر نفسه

والجنرال فضل الله زاهدي قائد الانقلاب في طهران،وهو أصبح على الفور رئيسا للوزراء ، وابنه اردشير ، الذي كان يعمل ضابط اتصال مع كيرمت روزفلت ، فاليه أُهديت ابنة الشاه ، شاهيناز ، عروسا له ، وعُيّن سفيرا في لندن ثم في واشنطن ، والكابتن خاتمي قائد الطائرة التي أقلّت الشاه الى بغداد وروما ، اذ صار قائدا للقوات الجوية ، وتزوّج أخت الشاه بعد طلاقها من زوجها الاول الاميركي. ونذكر أيضا جعفر شريف إمامي ، الذي كان نائبا لرئيس المجلس ، وساهم في اقناع عدد كبير من النواب بالهرب من البلاد ، الامر الذي مهّد لـ « انهيار دستوري »،وتقديرا لاعماله عُيّن رئيسا لمؤسسة بهلوي ، وبالتالي أخذ مكان رئيس الوزراء فضل الله زاهدي ، الذي حقّق هو الآخر من المكاسب ما حقق ، اذ عُيّن مستشارا لعدد من شركات البترول (٢٩) .

المهم ان مصر استغنت عن فاروق ، رجل الانجليز الاول في المنطقة العربية ، والشاه عاد الى قصر « نيافاران»، بل الى قصوره العديدة ، بحلة اميركية كثيرة الجيوب والازرار .

والأهم هو ان اميركا بدأت تعزز مكانتها في الشرق،

---

(٢٩) المصدر نفسه ص ص ٩١/٩٢

لتصبح خلال سنوات قليلة أول القوتين العظميين • وفي ظلال الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي انطلق « اللاعبان » الاقليميان الكبيران : جمال عبد الناصر ومحمد رضا بهلوي ، يمارسان سياسة الضغط والشد والترويض من أجل شرق « بترولي » ومسلّح •

ولربما بقي اعتراف عبد الناصر الصريح والجريء بأنه اشترك ، أيام كان ضابطا ، في احدى محاولات الاغتيال، علامة بارزة في تاريخ ملوك مصر ورؤسائها ، وقد قال :

« كانت في نفسي حيرة تمتزج فيها عوامل متشابكة من الوطنية والدين ، ومن الايمان والشك ، ومن الرحمة والقسوة ، ومن العلم والجهل • ورويدا رويدا وجدتُ فكرة الاغتيالات السياسية تخبو جذوتُها وتفقد قيمتها في قلبي • وأذكر ليلة حاسمة اخترنا فيها واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق • درسنا ظروف حياة هذا الواحد ، ووضعنا الخطة بالتفاصيل ، وكانت أن نطلق عليه الرصاص وهو عائد الى بيته في الليل » •

أضاف :

« رتّبنا فرقة الهجوم ، وفرقة الحراسة ، وفرقة تنظيم الإفلات ، خرجتُ بنفسي مع فرقة التنفيذ • كان

المسرح حاميا كما توقعنا ، وكمنت الفرق في أماكنها التي حُدّدت لها ، وأقبل الواحد ، وانطلق نحوه الرصاص • انسحبت فرقة التنفيذ ، وغطّت انسحابها فرقة الحراسة، وبدأت عمليات الافلات ، وأدرتُ محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح • وفجأة دوّت في سمعي ولولة امرأة ، ورعبُ طفل ، واستغاثة • وصلتُ الى بيتي ، واستلقيتُ على فراشي وفي عنقي حمّى ، وأصوات الصراخ ما زالت تطرق سمعي » •

وقال أيضا :

« بقيتُ أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرحُ مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد خواطري على الاصوات التي تلاحقني • كنت على حق ؟ دوافعي كانت من أجل الوطن! أكانت تلك هي الوسيلة التي لا مفرّ منها ؟ وأقول لنفسي في شك : أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلّصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ؟ اننا نحلم بمجد امة ، أيمضي من يجب أن يمضي ، أم يجيء من يجب أن يجيء؟ وأقول لنفسي في يقين هذه المرة : يجب أن يتغير طريقنا ! وكان عجبا أن يطلع عليّ الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء• وهرعتُ في لهفة الى احدى

صحف الصباح ، وأسعدني أن الرجل الذي دبّرت اغتياله قد كُتبت له النجاة » (٣٠) .

ومع هذا حاول محمد نجيب والاخوان المسلمون واليسار المصري التكتل ضده ، إحساسا منهم بالخطر المشترك ، فكان ردّه عليهم خاطفا وساحقا ، وملأ السجون سرّا بالشيوعيين والاخوان المسلمين ، وطهّر الجيش والبوليس ، ثم اعتقل محمد نجيب في بيته من دون أن ترتفع همسة واحدة دفاعا عنه ، وحكم على المرشد الاكبر للاخوان المسلمين بالسجن المؤبّد ، وشنق ستة من قادتهم، وأما الأتباع فقد ترك للبوليس تَولّي أمرهم (٣١) .

ناصر يتمدد

يحلو لبعض الدارسين الغربيين أن ينظروا الى المسائل الشرقية من وراء زجاجات ملوّنة وكثيفة،فتفاجئنا ابحاثهم ودراساتهم بصور « كاريكاتورية غايتها ان تنسينا الاصل ، وتكرّسنا « تلامذة » و « قاصرين » الى الابد . ومن هؤلاء مايلز كوبلند في حديثه عن مشكلة القومية العربية ، حيث يقول :

---

(٣٠) من تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، نفسه ، ص٣٢١
(٣١) المصدر نفسه ص ص ٣٢٦/٣٢٧

« يبدو لك من العسير جدا ، بالنسبة لموضوع شائك (يقصد مشكلة القومية العربية) أن تحصل من مصري يتمتع بمركز قيادي عسكري أو مدني ، عما يفكر بشأن العرب والعروبة ، فان محاولتك هذه هي أشبه بمحاولة من يحاول (كذا) الحصول من نائب بريطاني عن رأيه في موضوع الهجرة . غير أن المبدأ الاول لكل من يخطط للانقلاب في بلد عربي هو : لتكن أهدافك مصرية أو سورية أو عراقية الخ .. انما اياك أن تجعل منها أهدافا عربية .. »(٣٢)

ويقول :

« وعلى الرغم من كل الاحاديث المتشعبة حول الاخوّة العربية وعن « كلنا عرب » .. وغير ذلك ، فهي كلها لا تخرج عن حدودها العاطفية الضيقة .. أما فيما يتعلق بالشؤون العملية ، كالانقلابات مثلا ، فان الولاء هو الذي يحسب حسابه .. وهذا ينطبق على المصريين عامة وعلى عبد الناصر نفسه خاصة » (٣٣) .

ويمضي كوبلند في رسمه « الكاريكاتوري » لعبد الناصر ، فيقول :

---

(٣٢) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص ص ٦٦/٦٧

« فعندما قام هذا (عبد الناصر) بثورته كمصري ما
لبث أن اقترب من الزعامة العربية ، وأخذت كلمة العروبة
تدخل في الاستعمال .. كما ان عبد الناصر ،قبل الانقلاب،
لم يكن يعرف الكثير عن العرب ، حتى هو نفسه لم يكن
عربيا . ولم يزر حتى ذلك الحين أي بلد عربي ولا التقى
أي شعب عربي .. وان كان ما يعرفه عن العرب لم يحرك
فيه محبته لهم . وفي عام ١٩٥٢ ، قام بزيارة بعض البلدان
العربية انما في ظروف لم تسمح له بأن يعرف الكثير عنهم
.. ولم تفعل هذه الزيارات شيئا سوى انها اكدت شكوكه
السابقة بالعرب .. فالعراقيون في نظره متوحشون
واللبنانيون مرتشون ومنحلّون واليمنيون أغبياء متخلفون
والسوريون غشّاشون .. فلا هم يشعرون بالمسؤولية ولا
يوثق بهم » (٣٣) .

واذ تمدّد عبد الناصر بزعامته نحو العرب وبعض
الدول الافريقية ، وهو ليس أول حاكم مصري يفعل
ذلك ، غيّر كوبلند طريقته في « الرسم » من دون أن يبعد
عن لوحته البيضوية مادة « الفحم » الخبيث والملوّث ،
فيقول :

« ومن الواجب التأكيد هنا أن عبد الناصر ينكر الآن

(٣٣) المصدر نفسه

انه كانت له مثل هذه المواقف ويستحيل اعترافه بها ...
وانه توصّل الى خلق شيء في العالم اسمه «الوطن العربي»
ـ أو العالم العربي ـ وان هناك طبقات مختلفة في امور
كثيرة هي طبقة من السوريين واللبنانيين والعراقيين
والاردنيين واليمنيين الخ .. وان هذه الطبقات كلها تهتف
له كلما تكلم ، وتصفق عندما يظهر على شاشة التلفزيون.
كما يجدد التأكيد هنا الى ان معاونيه الذين ساعدوه على
القيام بالثورة ، ويعود اليهم فضل كبير في استمراره في
سدة الحكم ، نراهم لا يشاركونه في نشاطه العربي انما
يسايرونه في مواقفه العربية وضمن الابعاد التي تخدم
الاغراض المصرية الخالصة . فكلما حدثت مشاكل في قلب
مصر ازداد عبد الناصر تعصبا لمصريّته وقلّ حماسه
لعروبته ..

وعندما يتحدث الى مستشاريه المقربين ، نراه يبحث
في الدرجة الاولى (عن) مصلحة مصر، قبل كل شيء .. معتبرا
أن بقية مشاكل البلاد العربية هي أمور ثانوية » (٣٤) .

الى ماذا يرمي كوبلند في قوله هذا ؟

هل يريد كاتبنا أن يلغي دور الجغرافيا المشتركة، وما
لها من تأثير مباشر على البشر والشجر والحيوان ؟ أم انه

(٣٤) المصدر نفسه ص ص ٦٧/٦٨

يريد شطب اللغة الواحدة ، ليصير اللسان الواحد ألسنة عديدة ، مما يعقّد الامور ويُبعد التفاهم بين شعوب لها ذات البين وذات الفكر والسر ؟

هنالك مصالح سياسية واقتصادية وثقافية ودينية ، كان لها القرار الاول والأهم في توسيع رقعة نفوذ عبدالناصر وزعامته • وقبل أن نخطّىء « اللاعب » عبد الناصر أو نؤيده ، ينبغي لنا أن نفتش عن الاسباب والدوافع التي تفرض على هذا الشعب أو ذاك أن يستنجد ، في الاوقات العصيبة والخطيرة ، بدولة مجاورة أو صديقة ، وعندئذ يكون تفسيرنا للاحداث موضوعيا وليس عاطفيا أو خياليا •

ان أول سؤال قد يواجهنا ونحن نصمّم على البحث الموضوعي ، هو الآتي :

ـ ماذا فعل الغرب « الحضاري » للشرق «المتخلف» و « المحزون » ؟

على أن سؤالنا هذا لا يبرّىء الشرق من مسؤولياته ، ولا يحمّل الغرب أكثر مما يستطيع حمله •

هل نسي كوبلند ان « اللاعبين » الدوليين يخطئون أيضا ؟

واذ نخشى أن تتراكم الاسئلة « الصعبة »و«المعقّدة» نكتفي بهذين السؤالين :

ـ من أنشأ « حلف بغداد » ولماذا ؟

ـ من أشعل «حرب السويس» وكيف ؟

ان كثيرا من التجاوزات يتوقف عندها الباحثون العقلانيون ، ولكن « اللاعبين » الكبار قلّما يستمعون لصوت العقل والرأي الحصيف • ويمكننا أن نباهي الكثيرين من كتّاب الغرب والشرق بمحاسن المؤرخ البريطاني دزموند ستيوارت ، حيث يقول ، وكأنه يرد على أسئلة كثيرة مما يخطر لنا :

« كان اعتراض ناصر في ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ على الصداقة الاميركية أقل من اعتراض كثيرين من العرب ، فقد تمتع بالتأييد الاميركي الدبلوماسي وبعض العون المادي • وفي أواخر ١٩٥٥ كان شديد العداء للشيوعية لاسباب غير أميركية كما أثبتت مقدّمته لكتيّب ضد الشيوعية نُشر في تلك السنة عنوانه « حقيقة الشيوعية » ، هاجم فيها الماركسية من وجهة نظر تحررية وفردية ودينية • كذلك كان يرتاب في الشيوعيين المصريين ويرى انهم أكثر ولاء لمصالح الاتحاد السوفياتي منهم لمصالح وطنهم » •

أضاف :

« لو ان الغرب فرض تسوية لقضية فلسطين قائمة على قدْر من الانصاف للاجئين ، وزوّد المصريين بأسلحة دفاعية ، ولو ان رجال الدولة الغربيين تصرّفوا بصورة أكثر براعة ، لربما غامر ناصر بالانضمام الى تحالف غربي وخسر شهرته مقابل المكاسب المادية . وما عُرف بحلف بغداد لربما أصبح بدلا من ذلك حلف القاهرة . ولكن السياسة الغربية في الشرق الاوسط كانت تكهنيّة كتصريح بلفور . وقد تمّ وضعها الى حد بعيد في العاصمة نفسها. وبينما كان البريطانيون في ١٩١٧ حكام عالم متعبين اصبحوا في ١٩٥٤ تعبين منفعلين متنازلين عن حكم العالم ، كما كانت سياستهم غير مترابطة . شدّدوا من جهة على الخطر السوفياتي الذي اقتضى تعاون البلاد جنوبي القفقاس بتعزيز قواها العسكرية ، ومن جهة أخرى قابلوا طلب العرب للاسلحة بحجة ان قوى الجيوش العربية مجتمعة يجب ألا ترجح على قوة اسرائيل التي كان عدد سكانها في ذلك الحين لا يزيد على مليون (نسمة) » .

ويقول ستيوارت أيضا :

« وقد صحب انعدام المنطق هذا جهل مطبق وذلك بجعل نوري السعيد ، رئيس وزراء العراق وحليف بريطانيا، راعيا للحلف المقترح ضد الشيوعية . وهكذا عُقدت في بغداد في ١٩٥٤ معاهدة بين عراق نوري السعيد ، وبين تركيا عدنان مندريس ، على أن تنضم اليها فيما بعد بريطانيا وايران وباكستان والولايات المتحدة . لقد أسرعت بريطانيا بوضعها نوري السعيد في هذا المقام في هدم ما شغلت بخلقه منذ ايام جيرترود بل ، لأن تأكيد زعامة الهاشميين كان أمرا لا تستطيع مصر تجاهل خطره »[35] (*[1]) .

والسبب كما حدده ستيوارت هو ان مصر « كانت اكبر الدول العربية وأكثرها تقدما . وقد اعترف دستور جامعة الدول العربية بوضعها المهيمن فنص على أن يكون الامين العام مصريا وأن تكون القاهرة مركز الجامعة. ولو جاء التحدي من لبنان لكان أقل مضايقة ، لان لبنان لن ينافس مصر الا في حقل التعليم ، أما العراق فيملك ثروة هائلة ، وقد كانت بغداد في العصور الوسطى لا القاهرة أكبر مدينة عربية ، فاذا تمّت تنمية بترول العراق وكبريته

---

(٣٥) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٣١

(*١) جيرترود بل (١٨٦٨–١٩٢٦) : مستشرقة بريطانية درست العربية والفارسية . اشتهرت برحلاتها في شبه الجزيرة العربية ١٩١٣ . لها « عرب العراق » ، وكانت تعمل مستشارة المفوض السامي البريطاني في بغداد .

وأزيل الملح من أرضه الزراعية الواسعة فعادت الى خصبها ولو كما كان في العصور الوسطى فقط ، أصبح العراق الحديث أغنى من مصر وأقوى . ولهذا كان ردّ فعل ناصر لهذا التحدي لعن حلف بغداد . وقد أظهر مؤتمر باندونغ (في اندونيسيا) (١٩٥٥) ، كما أظهرت نتائجه كم كان موقفه مستحسنا لدى العراقيين والعرب الآخرين »(٣٦) .

وفي الوقت الذي عاد فيه عبد الناصر من اندونيسيا ، وصل الدبلوماسي السوفياتي الجديد دانيال سولود ، الى القاهرة ، ومعه تفسير للسياسة السوفياتية في البلاد العربية والاسلامية ، غير ستاليني ، بل خروتشوفي ، قائم على العقل والمنطق .

كانت مهمة سولود أن يثبت لعبد الناصر « أن العرب والروس تجمعهم أهداف معينة على الرغم من اختلاف النظم الاجتماعية »(٣٧) . ومع أن روسيا « تخشى فعلا امتداد شبكة الدفاع الغربي الى الجنوب منها »(٣٨) ، فان العرب « الذين لم يكادوا يتخلصون من الحكام الغربيين »(٣٩)

---

(٣٦) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، نفسه ، ص ٣١١
(٣٧) المصدر نفسه ص ٣٢٢
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) المصدر نفسه

أبدوا تحفظا عن المطارحات السوفياتية ، لانهم لا يريدون عودة أولئك الحكام « بمظهر جديد »(٤٠) .

من المؤكد أن السفير الاميركي كان يعرف تماما تحركات سولود . وأحسب « المخابراتي » كوبلند أيضا عالما بالمناقشات التي كانت تدور بين عبد الناصر من جهة ، وسولود من جهة أخرى . فهو ، أي كوبلند ، كان يتنقل باستمرار بين القاهرة ودمشق كما أخبرنا هو بنفسه ، وله أصدقاء نافذون في كلا البلدين . وعلى قوله :

« في ذلك الوقت (كانون الثاني) ١٩٥٥ ، عندما أعلن العراق وتركيا انهما في طريقهما الى ابرام تحالف بينهما ترعاه (بريطانيا) كنت أعيش في القاهرة ، وأقوم بزيارات مستمرة الى سوريا والعراق والولايات المتحدة ، حيث كنت أجد وقتا كافيا لزيارة زملائي في واشنطن . أخبرني أفلاند أثناء زيارته الى القاهرة مع جيرهارت ، وفي شهر تشرين الثاني ١٩٥٤ ، عن سلسلة الاحداث المحتمل وقوعها وأكد لعبد الناصر أن مصر ستجد نفسها في المؤخرة ولكن أحدا لم يصدّقه ، لا السفير كافري ولا جيم

---

(٤٠) المصدر السابق . ولنا ان نلفت الى بحث اعده الدكتور مجيد خدوري عنوانه « خالد بكداش الراديكالي المتطرف » المنشور ضمن كتاب « عرب معاصرون » للكاتب نفسه الدار المتحدة للنشر ، طبعة ١٩٧٣ من ص ٢٧٧ الى ص ٣٠٦

ايشيلبرجر »(41) .

ويواصل كوبلند الحديث عن تحركاته ومساعيه التي لم تهدأ فيقول :

« أما ايشيلبرجر فقرأ عن الحديث الذي وقعت فيه تركيا والعراق الحلف فيما بينهما ، قرأ عنه في نشرة خاصة بالسفارة الاميركية ، ولم يصدر عن وزارة الخارجية الاميركية أي كلام عن الموضوع ولم يرد ذكره في البرقيات التي ترد يوميا الى السفارة . واقترح أن يذهب اثنان منا الى بيت عبد الناصر ويطلعانه على الحدث . جلس عبدالناصر صامتا برهة ثم ذكّرنا بصوت هادىء ما سبق لأفلاند وجيرهارت أن قالاه وكيف ان جميع الاميركيين الذين هم على اتصال دائم معه ، بالاضافة الى السفير كافري نفسه ، كيف طلبوا اليه جميعا أن يصدقهم القول بأننا سنتيح له الفرصة لبناء مؤسسة عربية محلية لا ترتبط بالغرب مباشرة . كان حسن التهامي حاضرا فغضب وبدأ يثور .. انما هدّأه عبد الناصر .. وتركنا الاثنين صامتيْن عندما غادرت المنزل أنا وايشيلبرجر »(42) .

وعن زيارته لدمشق في تلك الآونة قال :

«وفي اليوم الثاني ذهبتُ الى دمشق لتفقّد بعض

(41) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص 122
(42) المصدر نفسه

الاعمال الخاصة ، وأخذني صديقي القديم مجد الدين جبري (لعله رشاد جبري) ، وكان آنذاك وزيرا للاشغال العامة ، لاقابل وزير الخارجية فادي (فيضي) الاتاسي الذي طلب أن أقرأ مقاطع وعبارات لم أسمع بها أبدا ولا أعتقد أن واشنطن على علم بها .. انما اعتبرتها كافية لابداء وجهة نظر العرب وكيف كانوا ينظرون الينا .»(43)

ومن هذه المقاطع التي اطلع عليها كوبلند :« الاستعمار يحاول ابقاء العرب ضعفاء » .. « انتم (الاميركانيون) لستم سعداء ما لم تستعبدونا » .. « تفضلوننا عندما نكون خيالي ورومانطيقيين » .. « المخابرات المركزية الاميركية » .. « فاضل الجمالي عميل أميركي » ..« ولي العهد (العراقي) يطمع بحكم سوريا » (44) .

وينتقل كوبلند من دمشق الى بيروت حيث قابل مؤيدين لعبد الناصر وآخرين غير مؤيدين له ، فعامله «الناصريون» اللبنانيون بمثل ما عامله عبد الناصر نفسه في القاهرة . ويذكر كوبلند انه قابل في صالون السفارة الاميركية ـ بيروت « ناصريا » بيروتيا (؟) فجرى بينهما حوار لم يصلنا منه سوى أن « الناصري » البيروتي لمس

(43) المصدر نفسه
(44) المصدر نفسه

ذراعي كوبلند الاميركي ،وقال له : « أظننا جعلناك اخيرا من محبي ناصر ومؤيديه »(٤٥) ؟!

نعم ، كانت دمشق ، يومذاك ، تغلي وتفور •وكذلك بغداد وعمان وبيروت • الاحزاب في هذه العواصم بعضها يصارع بعضا ، أقلته على صفحات الجرائد والمجلات•منها مؤيد للعراق ، ومنها مؤيد للقاهرة ، وهنالك أحزاب لا مع هذا الفريق ولا مع ذاك • فضلا عن الشيوعيين الـذين يتحركون بسرعة هائلة في كل مجـال تقريبا ، على ما في « من يوميات جورج عبد المسيـح » أول خلفاء الزعيم أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي•

لقد رفض الحزب السوري القومي الاجتماعي«حلف بغداد » من جهة ، واستمر في عدائه للشيوعيين،الرافضين للحلف نفسه ، وابتعاده عن ناصر و « الناصريين » من جهة أخرى•ولنسمع ما يقوله جورج عبدالمسيح عن حلف بغداد:

« في غمرة الشتائم في ما بين الساسة في الدول العربية تُعِدّ الـدول الكبرى عدّتها لوضـع أكبال جديدة تستبدل بها العتيق الذي يشكو منه الشعب •

« وفي غمرة الشتائم بين القاهرة وبغداد وبين القاهرة

(٤٥) المصدر نفسه .

ودمشق وبين دمشق وبغداد ، وكانت بيروت وعمان في هامش دوامة الشتائم أيضا ، كانت بريطانيا تعمل لحلف أسمته « حلف انقرة » ثم « حلف بغداد » • والتسمية قصد منها الاسترضاء فحسب •

« صحف انقرة تجس النبض فتكتب النقـاط التي أعلنتها لحلف بغداد ــ وكانت صحف لندن قد سبقتها•

« ساستنا في غباء ينتظرون ما تطلع بـه عليهم خطط الدول الكبرى ، وهذا ما كتبنا قبل أن يعلن «حلف بغداد» رسميا »(٤٦) •

وعن زيارة ملك العراق فيصل الثاني ، لبيروت ، كتب عبد المسيح :

« الجمالي يسعى لأمر غير هذا الحلف • لكن كبار الساسة الغربيين لا يسرهم ما يقول به الجمالي • يؤكدون له أن اليهود لا يرضون عنهم اذا ما سمعوا نصح الجمالي• دالس يؤكد أن ما يطالب به الجمالي يقيم اليهود على رأس دالس في كل العالم •

« أما نوري السعيد فهذا ما يقوم به مع عبد الاله، بالرغم من بعض نصائح تقوم بها جهات مخلصة واعية »•

(٤٦) من يوميات جورج عبد المسيح ، طبعة ١٩٨٦ ، ص٤٣٦

وقال عبد المسيح أيضا :

« من الخارج عاد الملك فيصل الثاني . السعيد لا يرافقه الى لبنان . فيأتي الملك مع الامير عبد الإله للتفرج على محاسن لبنان .. أما عبد الإله فيحب أن يرى لبنان ومدى اتصاله بدمشق التي يتطلع اليها .

« زيارة الملك مجرد زيارة الى لبنان ليتعرف الى جمال مناظره (...) السعيد يحكم أما الملك فيصل فيملك . وبين الحكْم والملْك ما بين زيارة السعيد الى تركيا والى لندن وبين زيارة الملك فيصل الثاني الى لبنان . وعبد الإله يوجّه في السياسة .. وما بينه وبين التوجيه نحو السياسة الصحيحة في الوطن السوري ، ومنه العراق ولبنان ، هو ما بين الجلوس والتأمل والبحث وبين مقْوَد نفاثة تقطع المسافة ببضع دقائق وساعة من الزمن » (٤٧) .

ان هذا الغليان ، بل هذا التمزق الذي كانت تعانيه المنطقة من أقصاها الى أقصاها ، أدركه ، لا شك ، كوبلند

---

(٤٧) المصدر نفسه . أيضا للدكتور مجيد خدوري وفي كتابه المذكور سابقا بحوث تتناول هذه المرحلة منها : « نوري السعيد » ، « جمال عبد الناصر » ، « الحاج امين الحسيني » « كامل الجادرجي » ، « ميشيل عفلق » ، فضلا عن كتابيه : « الاتجاهات السياسية في العالم العربي » و « العراق المستقل » ، يفضل الرجوع اليها .

وسفراء أميركا في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد وطهران ، الا ان خوف أميركا من اليهود أو عليهم ، جعلها تراهن على « خيول تقدمية عربية » (٤٨) من دون أن تراقبهم جيدا ، وترعى شؤونهم ، وتتفهم مطـاليبهم ، وكأنها لا تعلم ان الحصان العربي قد يضرب بقوائمه السائس البليد والغبي والمتكبر . ولطالما حذّر عبد المسيح في مقالاته ورسائله وبياناته ، من خطر الشيوعيين الذين باتوا ، بفضل الزعيم الشيوعي العربي الاول خالـد بكداش ، ملء الـدوائر الحكومية ونقابات العمال والمستخدمين ، وملء المدارس والمعاهد والجامعات والمستشفيات أيضا ، ومما قاله :

« نحن اذا ما قلنا الشيوعية فلا ننسى أن شيوعيي بلادنا مرضى .. ولا ننسى أن الغرب يشجعها . الغرب هو ظهير الشيوعية في بلادنا .. وفوق هذا فهو مع موسكو في تل أبيب والقدس يعد الآلة ويدفع الإجرام اليهودي .. أترى كيف يعمل الشيوعيون السوريون في حفر قبر الامة لمصلحة اسرائيل ؟! » (٤٩) .

وقال أيضا :

« الشارع يوجّه الحكم عندنا .. الشارع في يـد الذين أتقنوا تنفيذ مخططات التخريب » (٥٠) أي الشيوعيين

---

(٤٨) مايلز كوبلند : لعبة الامم ص ١٦

(٤٩) من يوميات جورج عبد المسيح ، ص ٤٨٨

(٥٠) المصدر نفسه

و « التكتيك الشيوعي فظيع » [٥١] و « الشيوعيون يكررون الاعتداءات في كل مكان » [٥٢] (*٢) .

وبالرغم من هذا كله ، جدّد الغرب رفضه تزويد ناصر بالسلاح ، فردّ الرئيس المصري باعلان اتفاقية «تقوم روسيا بموجبها ، عن طريق تشيكوسلوفاكيا ، بتزويد مصر كمية كبيرة من الاسلحة الحديثة » [٥٣] ، فسادَ الطبقة العسكرية رضى كبير « رددت صداه عاطفيا الجماهير العربية التي لم تر في الاتفاقية تغلغلا شيوعيا في المنطقة بل عملا من أعمال التحدي » [٥٤] .

وهكذا دخلت روسيا الى مصر وبلاد العرب من الباب الواسع ، فأصبحت أوروبا الغربية ، ولا سيما بريطانيا

---

(٥١) المصدر نفسه
(٥٢) المصدر نفسه ص ٤٩٨
(*٢) ان رجوعنا هنا الى « يوميات جورج عبد المسيح » لا يعني بالضرورة التزامنا بكل ما ورد في النصوص التي اعتمدنا ، ذلك لان الشيوعيين ، في رأينا ، سواء في سوريا او في اي قطر عربي آخر ، هم عادة من فرقاء المعارضة . وبما ان موضوعنا اغتيال انطون سعادة في بيروت لم نر ما يوجب الوقوف على راي الشيوعيين في احداث ذلك الوقت. مع اعترافنا بعدالة مطارحاتهم وضرورة وجودهم .
(٥٣) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٣٢
(٥٤) المصدر نفسه

وفرنسا وايطاليا ، تشعر بحصار شديد ، في الشرق الاوسط ، أو بين كماشتين هما : أميركا وروسيا .

لم يصدر ، الى ذلك الحين ، عن الملك سعود بن عبد العزيز ما يزعج عبد الناصر ، بل هو أظهر تفهما للوضع الناشىء ، ووعد بتقديم المساعدات للجمهورية المصرية ، على أمل أن لا يتدخل ناصر في شؤون المملكة ، بيد أن المملكة العراقية استمرت تحرّض على النظام المصري الجديد ، وتدعو الى تدميره ومحوه من الوجود . فتصاعد الخلاف بين ناصر والغرب ، « ولكن كلما زاد توعّد الغرب كلما زادت شعبية عبد الناصر » [٥٥] في دنيا العرب والاسلام .

وفي كانون الاول ١٩٥٥ أرسلت بريطانيا رئيس أركان الامبراطورية الى عمّان ، فخرج الاردنيون والفلسطينيون الى الشوارع (كان الفلسطينيون يشكلون ثلثي سكان الاردن) يندّدون بالمشروع البريطاني ، ويطالبون باسقاط حلف بغداد ، فاضطر الملك حسين ومستشاروه أن يرفضوا الانضمام الى حلف بغداد بلباقة فائقة . وللتأكيد على وطنية الحسين رأينا خطوة أخرى أكثر اثارة في الاتجاه الوطني قد اتّخذت ، وهي عزل غلوب باشا قائد الجيش ، بمبادرة شخصية من الحسين نفسه [٥٦] .

---

(٥٥) المصدر نفسه
(٥٦) المصدر نفسه

أما بالنسبة الى لبنان ، فقد سبق أن وصل ، في مطلع العام ١٩٥٥ ، وتحديدا في ١٤ كانون الثاني ، الى بيروت، وفد تركي على رأسه عدنان مندريس رئيس الوزراء ، والسيد كروبولو وزير الخارجية ، بدعوة من الحكومة اللبنانية ، فقوبل هذا الوفد برفض شعبي كبير ، عبّرت عنه الجماهير التي خرجت الى الشوارع تحيّي عبدالناصر «بطل العروبة والعرب» ، وتحذّر الحكومة من خطر زيارة مندريس ، « ربيب الاستعمار » . فعلّل رئيس الحكومة سامي الصلح الدعوة قائلا : « كانت غاية الحكومة اللبنانية معرفة جميع التيارات التي كانت تحيط بلبنان، والوقوف على تفاصيل الابحاث والمناقشات المتعلقة بهذه المنطقة الحساسة التي ينتسب اليها لبنان ، ويحتلّ فيها موقعا استراتيجيا مهمّاً » (٥٧) ، و « التزم لبنان ، آنذاك ، على الصعيد الرسمي ، الحياد بين جماعة حلف بغداد والمناوئين له » (٥٨) .

وفيما كان الوفد التركي يغادر بيروت ، أصدرت الحكومة السعودية بيانا أيّدت فيه موقف عبد الناصر، واستنكرت الاتفاق التركي ـ العراقي ، وأسفت لاتخاذ الحكومة العراقية هذا الموقف . وجاء في البيان ان الحكومة

(٥٧) تاريخ الملك سعود، ص ٧٩
(٥٨) المصدر نفسه

السعودية لا تؤيد ولا تقرّ أي اتفاق لم يُبحث في الجامعة العربية ، كما وان الملك سعود قد نصح نوري السعيد بعدم توريط العراق باتخاذ هذه الخطوة (٥٩) .

عندئذ قرّر الغربيون تحطيم « اللاعب » عبدالناصر أو خضوعه لاوامرهم ، فضيّقوا عليه اقتصاديا ، بحيث قطعت بريطانيا نصف مشترياتها من القطن المصري ، وحاولت سحب التأييد الانجلو ـ اميركي لاكبر مشاريع ناصر الداخلية : السدّ العالي في أسوان ، الا أن مصر زادت بيوع القطن للكتلة الشرقية ، وأعلنت في أيار ١٩٥٦ اعترافها بالصين الشيوعية (٦٠) ، وكان مخرجا « لبقاً » عزّز ثقة مصر والعرب بالقائد ناصر ، حتى غدا على كل شفة ولسان .

حرب السويس

واصل عبد الناصر السير في مشروعه الحيوي : السد العالي ، الذي بات « ضروريا لكبرياء مصر ، ضرورة القطن لبنيانها الاقتصادي السابق » (٦١) . وكما استخدم محمد

(٥٩) المصدر السابق .
(٦٠) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ص ٣٣٦
(٦١) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٣٣

علي باشا القطن في بناء جيشه الكبير الذي بلغت حملاته
الجزيرة العربية ، كذلك استخدمه عبد الناصر لتحقيق أول
أحلامه .

قبل السد العالي « كان الكثير من مياه النيل لا يزال
يذهب هدرا ، فالري جنوبي اسيوط يتم عن طريق الحياض ،
أي غمر الارض بمياه النهر مرة في السنة ، وقوة النهر في
توليد الكهرباء »[٦٢] ، لذلك « دعا بعض المهندسين الى
بناء سلسلة من السدود الصغيرة على النيل من أسوان الى
القاهرة ، ودعا آخرون الى بناء سد كبير بين تلال الغرانيت
جنوبي السد الذي أقامته بريطانيا قرب أسوان ، فراقت
ضخامة هذا السد لرجال الثورة »[٦٣] ، فبادروا الى
تشجيعه والتسريع في تنفيذه .

وسرعان ما أثارت هذه التدابير قلق اسرائيل وتخوفها ،
فأخذت الصحف المالية للدولة العبرية تصوّر مشروع السد
العالي على غير حقيقته ، مكوّنة رأيا عاما لا يقرّ النفقات
الباهظة كما ادّعتها ، وبناءً عليه ايّدت بريطانيا والولايات
المتحدة عدم الرغبة في المساعدة على بناء السد ، حتى ان
دالاس أخبر ، في تموز ١٩٥٦ ، السفير المصري في واشنطن

(٦٢) المصدر نفسه
(٦٣) المصدر نفسه

« ان الولايات المتحدة قد سحبت عرضها لبناء السد في
أسوان نظرا الى عدم استقرار الاقتصاد المصري »[٦٤] ،
وفعلت مثلها بريطانيا التي « يُرجَّح أن تكون هي التي
دفعت دالاس الى اتخاذ هذه الخطوط »[٦٥] ، لاعتقادها
أن الاتحاد السوفياتي سينظر في تمويل السد « بعين عدائية
كعينها »[٦٦] ، كون الحزب الشيوعي « محرّما في مصر
وكثيرون من أعضائه في السجن »[٦٧] .

مرة أخرى ، قلّب عبد الناصر الطاولة على رأس
الغرب ، فتوتّر الجو العالمي وبدت « الكارثة » وشيكة
جدا ، كما لوحظ خوف العرب على الزعيم الذي أحبوه
حتى العشق ، وهم يتتبّعون ، عبر « الترانزيستور » الذي
غطّى الاراضي العربية كافة ، اللعبة السياسية الهادفة الى
« اهانة ناصر »[٦٨] ، و « الحطّ من قدره »[٦٩] .

وفجأة ، وقف ناصر خطيبا ، في ميدان محمد علي
بالاسكندرية في ٢٦ تموز ، ليحيي الذكرى الرابعة لانتصار

(٦٤) المصدر نفسه
(٦٥) المصدر نفسه
(٦٦) المصدر نفسه
(٦٧) المصدر نفسه
(٦٨) المصدر نفسه
(٦٩) المصدر نفسه

« الضباط الاحرار » على الملك المخملي فاروق . ولكي
يكون التفاعل بينه وبين الجماهير عاصفة تذهب بمراكب
الغرب الى الجحيم ، أراد أن يكون الخطاب ليلا ، وقد
تذكّر قولاً لأدولف هتلر مفاده أن الخطاب في اجتماع ليلي
يفعل في نفوس المستمعين فعل النار في الهشيم ، ويسحر
ألبابهم (٧٠) . وباللغة العامية ، لغة المقاهي والمطاعم ، أخذ
ناصر يحدّث جماهيره ، عن محنة قناة السويس . واذ أعلن ،
وسط الهتافات الصارخة ، تأميم القناة لاستخدام دخلها
في تمويل السد ، كان التأميم قد تمّ ، وكان المصريون قد
احتلّوا مكاتب « شركة قناة السويس » وأملاكها .

في تلك العشية ، أصبح عبد الناصر « الشخصية الوحيدة
التي يتطلع الشرق الاوسط اليها » (٧١) باعجاب كبير .
وتناقلت وكالات الانباء الدولية خبرا من العاصمة البريطانية
يقول : ان نوري السعيد الذي كان يرافق الملك فيصل
الثاني في زيارة رسمية للندن ، أدار احدى أذنيه نحو
ميدان محمد علي خلال العشاء ، ولما سمع نبأ التأميم شحب
وجهه ، فالتفت الى مضيفه أنطوني ايدن وقال : « يجب أن
تضرب الآن . اضرب بسرعة » (٧٢) .

(٧٠) أدولف هتلر : كفاحي ، الترجمة العربية بقلم لويس الحاج ، دار بيروت للطباعة والنشر ، طبعة ١٩٦٨ ، ص٢٦١
(٧١) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٣٤
(٧٢) المصدر السابق .

لقد ضرب ايدن ضربته فعلا ، ولكن ليس بسرعة ، ولا
وحده ، كما قصد نوري (٧٣) . وشاركت بريطانيا ، في هذا
الهجوم المتأخر بعض الوقت ، فرنسا واسرائيل ، فكان أن
خسرت مصر المعركة وربحت الحرب ، على قول احد
الصحافيين الانجليز (٧٤) .

ومن بين الخراب الهائل الذي أحدثته مدافع الحلفاء
في بور سعيد ، خرج عبد الناصر منتصرا ، و « زُينت
المدارس من بيروت الى أم درمان بتماثيل الجنود المصريين
الابطال الذين كانوا يصطادون المظليين الهابطين بالمئات ،
وصوّر اعلان" عام مُلصق حذاءَ جندي مصري يَسحقُ
شخصاً معقوف الأنف وعليه نجمة داود » (٧٥) ، ودعي يوم
٢٣ ديسمبر (كانون الاول) في روزنامة العطل المصرية
« يوم النصر » (٧٦) .

في الواقع ، لم تكن حرب السويس حادثا عابرا أو
نزاعا محدّد الاطراف والاهداف ، بل هي حرب بين كل
الشرق من جهة ، وكل الغرب من جهة أخرى . ويمكننا

(٧٣) المصدر نفسه ص ٣٣٥
(٧٤) المصدر نفسه
(٧٥) المصدر نفسه
(٧٦) المصدر نفسه

القول انها فجّرت حروبا وثورات لم يتوقّعْها الغـرب الذي أسكرته الارباح الخيالية واللامعقولة ، التي ظـل يحصدها طيلة « العصر الاستعماري » (Colonial Age)

دمشق تخضع للقاهرة

ليس من المفيد ، الآن ، مراجعة حسابات الاربـاح والخسائر ، لهذا الفريق أو ذاك ، ممن صنعـوا حـرب السويس . ولكن الذي لا بد منه ، هو الاعتراف بـأن بريطانيا وفرنسا ، اللتين كانتا صاحبتي أكبر امبراطوريتين، سرعان ما تحولتا ، بعد معركة بور سعيد ، الى « دولتين غير استعماريتين »[٧٧] . ومن نتائج هذا التحول السريع مـا ظهر في الجزائر والاردن واليمن ، حيث سفكت دمـاء غزيرة ما لبثت أن صبغت لبنان والسودان وليبيا وقبرص وسائر بلدان آسيا وافريقيا .

و « كما في المأساة اليونانية ، حيث العشاء من لحم البشر ينتج عسر الهضم بعد نصف جيل ، كذلك تـأخر ظهور آثار خلق الاساطير (التي ابتدعتها القيادات المصرية والانجليزية والفرنسية والاسرائيلية) ، وكانت نتيجـة

---

(٧٧) المصدر نفسه

النصر الفورية تمجيد ناصر في مناطق أخرى من مناطق ألف ليلة وليلة »[٧٨] .

و « كانت المنطقة الاولى والاكثر اثارة سوريا ، مائدة الشرق العربي الدوّارة ، ذات الارض المنبسطة الصحراوية الحمراء ، والسهول المرتفعة ، والواحات الزمرّديّة الموزّعة بين سكان المدن الفرديين الثرثارين وبين الفلاحين الصالحين »[٧٩] .

لقد حسب السوريون أنفسهم « طليعة مناضلة لقومية عربية أوسع بعثها النضال »[٨٠] ، فرفضوا « قومية انطون سعادة الاقليمية »[٨١] ، وتحمّسوا من دون أن يثبتوا على معتقداتهم . وما ان شعر زعماؤهم بأنهم « مهدّدون بموجة شيوعية »[٨٢] ، طاروا معا ، في الايام الاولى من سنة ١٩٥٨ ، الى القاهرة ـ المركز الجديد المُشرِق ـ « لعَرْض خضوعهم على ناصر وطلب الانضمام الى دولته »[٨٣] .

لم يدرس عبد الناصر طلب الزعماء السوريين المحنّكين

---

(٧٨) المصدر نفسه ص ٣٤١
(٧٩) المصدر نفسه
(٨٠) المصدر نفسه
(٨١) المصدر نفسه
(٨٢) المصدر نفسه
(٨٣) المصدر نفسه

والمتأنقين ، فوقع في الشرك « الحريري » الناعم ، وعيناه « الكهربائيتان » تنظران تارة الى العراق والاردن،وطورا الى لبنان ، وربما الى السعودية أيضا •على «أنميثولوجيته الخاصة وحنينه العميق الى العظمة منعاه من الرفض أو فرض الشروط »[٨٤] ، « فكانت النتيجة اتحاد مصر وسوريا في « جمهورية عربية متحدة » واحدة بعد اقتراع ساحق يفوق الاقتراع الذي جرى لانتخاب فيصل ملكا العراق »[٨٥] •

واستقبلت دمشق « رئيسها » الجديد عبد الناصر بالرقص والغناء ، مما حرّك عواطف المسلمين اللبنانيين ، فادّعوا أنهم « مظلومون » و « مقيّدون »و«محرومون»، وطالبوا بضم لبنان الى « امبراطورية » ناصر الناشئة ،بيد ان الاتحاد العراقي ـ الاردني قد تم ، في ١٤ شباط١٩٥٨، وكأن أحدا لم يعلم به •

ثم وقّع الرئيسان : جمال عبد الناصر وشكري

---

(٨٤) المصدر نفسه
(٨٥) المصدر نفسه • ولمن يرغب في الاطلاع على موقف الحزب الشيوعي السوري من الوحدة ، وكيف ان خالد بكداش غادر آنذاك دمشق الى براغ لئلا يحضر جلسة البرلمان (٢٨ شباط ١٩٥٨) ، يمكنه الرجوع الى كتاب الدكتور مجيد الخدوري : « عرب معاصرون » ، المذكور سابقا ص ٣٠٠،

القوتلي،الوحدة في أول شباط ١٩٥٨،فوُلدت«الجمهورية العربية المتحدة » ، وانتخب الرئيس عبد الناصر رئيسا ، والعقيد عبد الحميد السرّاج وزير الداخلية في سوريا وحاكما فعليا لها ، والمشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس ومقره دمشق ، وتنحّى الرئيس القوتلي لقاء لقب«المواطن العربي الاول » • وفي ٦ آذار ١٩٥٨ ، أصدر الرئيس عبد الناصر قرارا بتأليف أول وزارة لـ«الجمهورية العربية المتحدة » من مناصبها على الوجه التالي :

ـ عبد اللطيف البغدادي (مصري) نائبا لرئيس الجمهورية •

ـ صبري العسلي (سوري) نائبا لرئيس الجمهورية•

ـ أكرم الحوراني (سوري) نائبا لرئيس الجمهورية[٨٦]

وكان يوم الثامن من آذار ١٩٥٨ يوم عبد الناصر في سوريا ، اذ احتُفِل في قصر الضيافة في دمشق ، بتوقيع اتفاق الاتحاد بين « الجمهورية العربية المتحدة » والمملكة المتوكليّة اليمنية ، وقد وقّع الاتفاق الرئيس عبد الناصر والامير محمد البدر • وبهذا تكون معاهدة الصلح(١٩٣٤) بين اليمن والسعودية قد انتهى أجلها [٨٧] ، وباتت السعودية في وضع محرج للغاية •فلا قيام الاتحاد العراقي ـ

---

(٨٦) تاريخ الملك سعود ، ص ١٤٥
(٨٧) المصدر نفسه ص ١٤٦

الاردني على طول حدودها يرضيها ، ولا قيام الـوحدة أبقى سوريا على العهـد والوعد لعبد العزيز • فردّت السعودية على الاردن بسحب لوائها من الاراضي الاردنية وتوقفت عن دفع حصتها السنوية لموازنة دولة عمان،وحيال سوريا ومصر ولم يعد للاتفاقات والمواثيق التي عقدتها فيما بينها أي مفعول [٨٨] •

اذا كان الاتحاد بين العراق والاردن يشكّل وحدة طبيعية توافرت فيها عوامل الانسجام من نواحي عديدة ، من حيث المدى الحيوي ، والستراتيجية السياسية، والوضع الجغرافي ، والنفسية المتشابهة ، الى كون القيمين عليها من الاسرة الهاشمية ، وكلاهما حفيد الحسين بن علي الهاشمي شريف مكة [٨٩] ، فان الفروق بين الفلاح السوري والفلاح المصري لا تقل عن آثار مناخين متناقضين ، اذ ان منـاخ آسيا الغربية اقسى من مناخ افريقيا المصرية [١٠٠] • ولو اتحد فلاحو البلدين فان بورجوازيي دمشق وحلب، المؤيدين لمبـادىء الحريـة ، انما كانـوا فوضويين ، وصريحين، ويعتبرون حـق استبـدال العملة في بيروت كمـا يعتبر الاميركيون حق امتلاك السلاح [١٠١] • من دون أن ننسى

(٨٨) المصدر نفسه ص ١٤٧
(٨٩) المصدر نفسه ص ١٤٦
(١٠٠) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٤٢
(١٠١) المصدر نفسه

أن بين قطري هذه الدولة الأفرو–آسيوية الاولى والوحيدة حاجزا جغرافياً طبيعيا هو البحر ، وآخر جغرافياً مصطنعا يدعى الكيان الاسرائيلي [١٠٢] •

ومن الضروري أن نعرف أيضا أن حكام سوريا كانوا « نخبة من الطبقة الوسطى قائمة على التجارة والصناعة الصغيرة والالتزام الزراعي الناجح جدا » [١٠٣] • لذلك فهم مغـايرون لحاكم مصر ومعاونيه ، كما وان هـؤلاء وأولئك هم مغايرون أيضا لأمير اليمن محمد البدر وأعضاء امارته • وبالرغم من هذه الفروقات كلها كان « التحدي » المصري — السوري — اليمني الـذي ما أن وُلد حتى مات •

الوطن البركاني (لبنان)

لقـد تـوفي الشيخ بيار الجميل ، مؤسس حزب « الكتائب اللبنانية » ، وعلى فمه كلمته الشهيرة ، التي كثيرا ما كان يرددها : « نريد رياض صلح جديدا » •

والواقع ان لبنان ، في هذه الظروف المصيرية ،محتاج لا الى رياض الصلح ، بل الى ابن عمه : سامي الصلح [١٠٤] •

(١٠٢) المصدر نفسه
(١٠٣) المصدر نفسه
(١٠٤) سامي الصلح (١٨٨٧ — ١٩٦٨) وُلد في عكا وتوفي في بيروت . سياسي فذ ، ترأس الوزارة مرارا .

ومن أسف أن وطننا البركاني (لبنان) على ما يبدو ، لن يستطيع ، أقلّه في المستقبل المنظور ، أن يأتي بـرئيس للحكومة له سمات « أبي الفقراء » سامي الصلح ، الذي أدرك ، بحسه الوطني السليم ، أهميـة الحاكم العـادل والمنصف (Equitable) ، كما أدرك ، وبالحسّ نفسه، حقيقة خطر الانصياع للذين يتدخلون في الشؤون اللبنانية، سواء كانوا شرقيين أم غربيين ، جيرانا أم غير جيران .

ففي أواخر نيسان ١٩٥٧ ، مرض سامي الصلح ،على أثر اضطراب حبل الامن في البلاد ، وكان في حالة خطرة جدا ، استدعت نقله الى مستشفى الجامعة الاميركية حسبما رأى ، آنذاك ، الدكاترة : ألبير مخيبر ورياض طبـارة وألبير حلو ، و (...) شقير و (...) فرح . واذ بلـغ الناس هذا النبأ أخذتهم موجة من الرعب ، فصلى الكثيرون منهم لاجله في المساجد والكنائس ، وعاده أقطاب المعارضة اللبنانية على الرغم من اختلاف في وجهات النظر . وهبّ الى الجامعة فريق من الاطباء ، وفي طليعتهم الدكتور بول دادلي وايت ، طبيب الرئيس الاميركي ايزنهاور ، وقد أشار باستدعائه لمعالجة الصلح الحاج حسين العويني صديـق وايت نفسه ، والدكتور مارشال طبيب الملكة اليزابيت . كما أظهر سفير الاتحاد السوفياتي كل عاطفة ، بحيث اعلن عن استعدادات بلاده لارسال طبيب أو اكثر من مشاهير الاطباء

الروس . ومكث الصلح في المستشفى أسبوعين خرج بعدهما وقلبه « كالحديد » مثلما قال الطبيب الاميركي وايت [١٠٥] (*٣) .

كانت المعركة الانتخابية في أوجها ، عندما أُدخل سامي الصلح المستشفى . فانبرى الصحافيون والكتّاب والشعراء يشيدون بـالرئيس المريض راجين له الشفـاء العاجل ، ليعود الى عمله الوطني والى الفقراء والمحتاجين. ومن أبرز الذين خاطبوا سامي الصلح بالكلمة أو القصيدة، كان هو الشاعر سعيد عقل ، الذي كتب في مجلة «الصياد»، مقالة عنوانها « المريض الذي تهادنت على سريره الاحقاد» **قال فيها :**

---

(١٠٥) سامي الصلح : احتكم الى التاريخ ، سجل الوقائع وجمعها سليم واكيم ، دار النهار ، طبعة ١٩٧٠ ، ص١٥٤

(*٣) زار الرئيس سامي الصلح في المستشفى المرحوم خيري الكعكي صاحب جريدة « الشرق » ـ الناطقة آنذاك بلسان سامي الصلح وكان معه نسيب نمر رئيس تحرير الجريدة نفسها في حينه ... وطلب الكعكي ونمر من الصلح التوقف عن مؤازرة مشروع ايزنهاور فأبدى قبولا وهاجم المشروع، وعندئذ اتصل نسيب نمر بخالد بكداش في دمشق طالبا منه أن توقف الصحف الدمشقية حملتها على سامي الصلح فتم له ذلك ، فتوقفت كذلك صحف بيروت المعارضة ، فيما تابعت هجومها على الرئيس كميل شمعون . الا ان سامي الصلح عاد فأيد المشروع الاميركي ، على ما اخبرني الصديق نسيب نمر نفسه .

« للفئتين المتنازعتين على الحكم في لبنان ــ ونحن لسنا منهم ــ أن يحبوا أو يبغضوا سامي الصلح • أما نحن فنحب هذا الرجل وكفى • انـه ــ سواء أخطأ أم أصاب ــ أحد أجرأ من يتحمل مسؤوليته ، أحد أخلص من يحب لبنان ، أحد أبسط من يعمر قلبه بحب الفقير ، أحد أنشط من يزيد حرفا على كتاب المرح والآدمية في لبنان» •

أضاف :

« عندمـا مرض سامي الصلح وشارف على الخطر شعر لبنان بأن جزءاً منه حلواً اخذ يغيب • فتهادنت الاقلام لتقول في سامي الصلح ما لم تقله في أحد • واليوم وقد عاد ذلك القلب ــ الطفل الى نبضته المتعافية ، فما همّ أن يهاجم صديقه أو يحبه ؟ سامي الصلح حيٌّ يُرزق • هذا يكفي • ولأنه حي يرزق فهو يضحك ، ويحكم ، وينعطف على الفقير ، ويتحمل عداوات » •

وقال سعيد عقل أيضا :

« لم تتكلم يوما باسم لبنان ، وانما درجْنا دوما على التكلم باسمنا الخاص • على اننا هذه المرة نود لو نتكلم باسمنا وباسم آخر بما لا يحد (لبنان) لنقول للمريض الطيّب ، لا عاش من يمحو الابتسامة عن وجهك الصبيح يا عزيزنا سامي الصلح • في الساعات القلائل التي كف فيها

وجهك عن الاضاءة قطّب وجهُ الجبل • فأهلا ، وعافية، وعمرا مديدا ، يا ابتسامة أبي الفقير » (١٠٦) •

نعم • نريد سامي صلح جديدا • أي نريد النظرة الواعية الى الامور ، والفهم الواضح ، والرأي الشجاع • بل نريد المسؤول الذي تكون مواقفه ثابتة وعقلانية ، فلا يضع برقعا على وجهه في اللحظات الحاسمة ، ولا يرتجـل الاحكام ، ولا يحرّض هذا على ذاك • ونريد ايضا من اذا حالف حالف بعقله لا بعاطفته فحسب ، واذا عارض عارض بعقله لا حسدا أو غيرة • فالوطن قد انهار ، وما عاد يحتمل التسويف والتأجيل ، ولا استقالة من هنا واستقالة مـن هناك •

لقد احتكم سامي الصلح الى التاريخ ، لا لينصفه فحسب ، بل لتكون مذكراته الشاهد ــ الحق على جزء من تاريخ لبنان والمنطقة العربية الحديث •

تذكّر سامي الصلح أوّلَ انقلاب في سوريا بقيادة حسني الزعيم (٣٠ آذار ١٩٤٩) ، وما أصيبت به المنطقة، على أثره ، من الذعر والذهول ، كونها لم تألف الانقلابات العسكرية من قبل ، فقال :

---

(١٠٦) سعيد عقل : مجلة « الصياد » ١٩٥٧/٥/٩، أيضا « سامي الصلح : احتكم الى التاريخ » ص ١٥٤

« كان حسني الزعيم ، الكردي الاصل ، بعدما طُرد من الجيش في عهد الانتداب يتردّد عليّ باستمرار . فأُعيد الى الجيش بناء على تدخّل شخصي مني . لكن سرعان ما اختلف حسني مع قائد الموقع الفرنسي ، فعزلوه . عندها قصد رياض الصلح ، وكان رئيس حكومة ، فلم يساعده ، فعاد يشكو أمره اليّ فتدخلت هذه المرة ، شخصيا مع الجنرال ديغول . فأُلحِق حسني الزعيم مجددا بالجيش السوري حتى أصبح قائدا أعلى . ولم تمضِ ساعة على قيامه بالانقلاب حتى أجرى اتصالا هاتفيا معي يبلغني فرحا بما فعل ، ثم دعاني الى دمشق بالحاح شديد . (وتجدر الملاحظة الى أن هاني الصلح الضابط السوري كان قد اعتقل شكري القوتلي) فقلت له : « سأُلبي دعوتك لكن مطلبي الوحيد : « اياك وسفك الدماء » .

أضاف :

« وطلبتُ منه أثناء مأدبة عشاء أقامها تكريما لي ولوفد المعارضة اللبنانية [(١٠٧)] أن يحسن معاملة شكري

---

(١٠٧) كانت المعارضة اللبنانية في ذلك الوقت (في عهد الشيخ بشارة الخوري) ، تدعى « كتلة التحرر الوطني » ، وهي اختارت منزل سامي الصلح في « برج أبي حيدر » ـ بيروت ، لعقد اول اجتماع لها في ٦ آذار ١٩٤٨ ، وتتألف من: =

القوتلي وأن يسمح له بالذهاب الى مصر ، ففعل . ونصحت له ألا يكثر الكلام وألا يهاجم حاليا حكام العراق والملك عبدالله في العلانية ، خشية أن يدبّروا له مكيدة قبل ان يثبّت أقدامه في الحكم ، وأن يكون ، وهذا أهم من كل شيء ، محبا للبنان ، وأقول على سبيل النكتة انه لفرط اصغائه اليّ لم تنقضِ أيام حتى أضحت علاقاته بالعراق على الحضيض ، بعدما أخذ يندد بالمسؤولين العراقيين . أما فيما يتعلق بالاردن ، فقد كان يقول انه سيجعل من الملك عبدالله محافظا لعمان ، وهذا التصرف يذكّرنا باللواء (عبد الكريم) قاسم في ما بعد الذي هدّد حاكم الكويت باللهجة ذاتها . وأخيرا راح يخلق المشاكل والمتاعب لاقرب الجيران اليه بلبنان » [(١٠٨)] .

وبجرأة وموضوعية ، يختصر سامي الصلح الحديث عن عهد حسني الزعيم بكلمات قليلة ، ولكنها غنية بأبعادها ومعانيها ، فيقول :

= عبد الحميد كرامي، ألفرد نقاش، كميل شمعون ، كمال جنبلاط ، جواد بولس ، عمر بيهم ، نصوح آغا الفاضل، سليمان العلي ، وغيرهم من الشخصيات اللبنانية . وفي هذا الاجتماع أقرت المعارضة مبادىء اصلاحية حمل لواءها كمال جنبلاط وتبناها فيما بعد (١٩٥١ ـ ١٩٥٢) .

(١٠٨) سامي الصلح : احتكم الى التاريخ ص ٩٣ ٩٤ .

« ألا انه يجب الاعتراف بأنه وبطريقته العنيفة والحازمة ، قد أجرى اصلاحات لم تكن لتتم بسهولة . فقد طهّر القضاء ، وجدّد شباب الادارة ، وحاول استئصال الافكار الرجعية . واليه يُعزى الفضل في إحداث ثورة جذرية في العقلية السورية كرائد للانقلابيين . لكن أخصامه كانوا يحاولون اغتياله . وكان يحسب أن جيشه يدعمه والخطر يهبّ عليه من حلب . لكن الخطر كان يرصده في عقر داره » [١٠٩] .

ثم يلتفت سامي الصلح الى المعارضة اللبنانية ، التي نشأت لكي تتصدى لنهج الشيخ بشارة الخوري السياسي ، فيقول :

« لم تكن الاحداث المهمة والانقلاب الاول الذي أطاح بالحكم السوري ، وفقدان هيبة الحكم في لبنان ، لتحوّل بشارة الخوري عن استكمال سياسته التقليدية . وما أن تم تعديل الدستور حتى هبّ الكثيرون في البلاد يندّدون بمثل هذا التلاعب بنصوصه . وكذلك أثارت فكرة التجديد للخوري ثائرة الزعماء الموارنة الطامحين الى خلافته في رئاسة الجمهورية فهبّوا الى المعارضة ، وكان في طليعة هؤلاء كميل شمعون العضو السابق في الكتلة

---

(١٠٩) المصدر نفسه

الدستورية الذي أصبح في السنوات التي تلت التعديل زعيما للمعارضين » [١١٠] .

اذ ذاك أصيب الحكم ، في لبنان ، بما يشبه الشلل النصفي . فبعد نكبة فلسطين والانقلاب السوري « حصلت مؤامرة انتهت بحل الحزب (السوري) القومي (الاجتماعي) واعدام سبعة من أعضائه بمن فيهم زعيمهم أنطون سعادة ، فأثار ذلك السوريين ومؤيديهم ضد العهد القائم في لبنان » [١١١] ، فأوقعته في أزمة لم يعرف كيف يتخلص منها .

وكان من الطبيعي أن يتدخل سامي الصلح ليُبْعِد عن لبنان كأس المر هذه ، ولكن تعنّت الرئيسين : بشارة الخوري ورياض الصلح كان أقوى من كل المحاولات المخلصة والنبيلة ، التي بُذلت في سبيل هذه الغاية . وقال سامي الصلح :

« وأثارت هذه القضية غضبي ، فقابلتُ على الفور رئيس الجمهورية للحؤول دون اعدام سعادة ، فقال لي : « اذهب واقنع ابن عمك رياض الصلح بالامر » فكنتُ

---

(١١٠) المصدر نفسه
(١١١) المصدر نفسه

من شدة تأثري ان فاتحته بالامر • وازاء تمسّكه بالقانون قلت له : « حرام لا تتورّط • هذا رجل خطير وأتباعه خطرون » • وأضفت : « من الناحية الانسانية لا يجوز.. ثم ان الجرم سياسي ويوجب الاسباب التخفيفية » •

أضاف :

« ثم ذكّرتــه بموقفي الشخصي مــن حلّ الحزبين الشيوعي والقومي ١٩٤٥ إثر اصطدام كان حصيلته عددا من القتلى والجرحى ، اذ جمع الرئيس الخوري على الفور مجلس الوزراء ، واقترح حل الحزبين لكني رفضت بكل قواي ، ولم أوافق على اقتراح الحل » •

وقال الصلح ايضا :

« لكن يبدو أن عداوة عقائدية وسياسية كانت قد استحكمت منذ زمن بين رياض الصلح وأنطون سعادة وقد حرّكت عناصر تريد ايذاء البلد والخلاص من رياض • كما اتصلتُ فورا بحسني الزعيم وأنّبتُه على تسليم سعادة، وتخلّلت المخابرة الهاتفية عبارات جافة بيننا فبرر الزعيم موقفه بأنه لم يسلّمه ليقتلوه ، بل لاجراء محاكمته حسب الاصول ، وقد تعهّد له لبنان بذلك ، ولكني لم أقتنع بأقوال حسني الزعيم » [١١٢] •

---

(١١٢) المصدر نفسه

وبين دمشق وبيروت ، ضاع انطون سعادة ، فضاعت الحرية التي هي رأسمال لبنان وسرّ قوّته وهو الأضعف بين دول المنطقة •

« وفي مساء ٧ تموز ١٩٤٩ ، كان الامن العام اللبناني قد تسلّم من الامن العام السوري انطون سعادة • فمثل أمام المحكمة العسكرية ليلا بتهمة الخيانة العظمى والقيام بثورة مسلّحة وتهديد أمن الدولة .. وكانت المحكمــة العسكرية قد عُقدت ليلا ، فاستدعى سعادة المحامي اميل لحود للدفاع عنه ، فاستمهل المحكمة ٢٤ ساعة لإعــداد دفاعه فرفضت فاعتذر لحود اذ ذاك وتولى سعادة الدفاع عن نفسه • وكان من العبث الإطالة ، وذلك لان الحكم عليه بالاعدام كان مقررا سلفا • فلفظت المحكمة الحكم ونُقل الى سجن الرمل تحت الحراسة المشدّدة ، وما هي الا ساعات قلائل حتى أُقرّ تنفيذ حكم الاعدام به رميا بالرصاص • فأُخرج من السجن وسيق الى تلة رملية في منطقة الاوزاعي حيث أُعدم • وكانت الساعة الثالثة عند فجر الثامن من تموز » [١١٣] (*٤) •

---

(١١٣) المصدر نفسه ص ص ٩٥/٩٤

(*٤) روى لي الصديق نسيب نمر ان الاستاذ الكبير المرحوم اميل خوري ، صاحب « آثار أقدام » أخبره ان اتفاقا قد تم بين الحكمين اللبناني والسوري على أن يغتال انطون سعادة في الحدود بين البلدين ، وعند التنفيذ جبن مدير الامن العام اللبناني الامير فريد شهاب عن ذلك واكتفى بالقاء القبض عليه •

عندئذ اطمأن الذي دفع ثمن رأس انطون سعادة، فيما بدأ القلق يلاحق الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح أنّى اتجه أحدهما . وتخبطت البلاد ، فراحت الفتن تمزقها ، ولا سيما ان كمال جنبلاط، الذي هو خصم فكري لسعادة، قد فضح المؤامرة بقتل الرجل ، والاسلوب الذي تمّت به محاكمته الصوَرية في بيان استجوابي جاء فيه :

« اني أطلب استجواب الحكومة اللبنانية باسمي وباسم الجيل المخلص الواعي حول الظروف الغامضة التي أحاطت بالقضاء على الأستاذ انطون سعادة رئيس الحزب القومي الاجتماعي ، وهو رجل عُرف انه رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبيرة وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل » (١١٤) .

ثم أخذت المعارضة اللبنانية تنمو وتشتد ، بينما الحكم يزداد سوءا وبؤسا، فاجتاحت البلاد موجات الاضراب احتجاجا على الفساد في الادارة والتنكيل بالحريات، واعدام المفكر انطون سعادة، وتزوير الانتخابات ، وجمع جنبلاط أنصاره من جميع الطوائف في « الحزب الاشتراكي » داعيا الى تغيير الاوضاع ، ومستنكرا سيطرة اصحاب المصالح

(١١٤) المصدر نفسه ، عن محاضر مجلس النواب ١٦ آب ١٩٤٩

الاقتصادية الكبرى على مقدرات البلاد ، فكانت مواقف قطبي المعارضة: كميل شمعون وكمال جنبلاط منسجمة داخل البرلمان وخارجه ، فالتف حولهما عدد من النواب بينهم جوزف شادر ممثل «الكتائب اللبنانية» الوحيد في المجلس النيابي ، وزميله بيار اده ممثل « الكتلة الوطنية »(١١٥) .

قبل ان نكمل المشوار مع المعارضة، التي جاءت بكميل شمعون رئيسا للجمهورية، والذي في مطلع عهده، بل عشية انتخابه للرئاسة ، انفصل عنه شريكه كمال جنبلاط وبعض الاعضاء ، ورتبوا معارضة دائمة فجرت بعد خمس سنوات ونصف السنة ثورة شاركت فيها دول اقليمية وعالمية، ينبغي لنا مراجعة ما كتبه الرئيس بشارة الخوري، في مسألة انطون سعادة ، تاركين للقارىء حريته في الموازنة بين رواية الخوري ورواية الصلح ، على اننا نؤيد الصلح في قوله : « كنت لا اقر عقاب الموت ، ولا أريد ان يكون ثمة جان ومجنى عليه . وكنت أتوق الى اليوم الذي يعيش فيه الانسان بسلام وتسود هذه الحياة بين البشر اجمعين»(١١٦)

يقول الرئيس الشيخ بشارة الخوري :

« شهد الاسبوعان الاول والثاني من تموز(١٩٤٩)

(١١٥) المصدر نفسه ص ص ٩٥/٩٦
(١١٦) المصدر نفسه ص ٩٥

سلسلة من الحوادث المؤلمة ، ففي الرابع من تمـوز هجم
افراد مسلحون من الحزب القومي السوري على مخفـر
الدرك في حارة حريك والمتين وقتلوا دركيا وجرحوا اثنين.
ووفقت القوة الى القاء القبض في جرود المتين على قسم
من المعتدين وعرفت هوية رفقائهم الاخرين ، فنشط الدرك
الى اعتقالهم وانصرفوا هم بجميع قواهم الى الشغب،لا يهدأ
نشاطهم ليلا ولا نهارا » .

أضاف :

« وثبت لنـا ان انطون سعادة قد لجأ الى دمشق
ومضى يقود حركة أشياعه منها متمتعا بحماية حسني الزعيم
فدعوت رياض الصلح وتداولنا الرأي ، ونحن قلقان على
حالة الامن في البلاد،مستغربان سياسة الزعيم الذي تنكر،
فجأة وبدون سبب ، للبنان في هذا الظرف عينه ، على الرغم
من الأيمان المغلظة وجميع التصريحات التي أكد لنا فيهـا
ولاءه واخلاصه .

« وانتهزنـا سفر فـؤاد حمزة (الـوزير المفوض
للملكـة العربيـة السعوديـة) الـى المملكـة السعودية
وحملناه رسالة الى الملك عبد العزيز بغية ان يسدي النصح
للجار السوري الغريب الاطوار والاخلاق ، لعله ينفذ خطة
الصداقة التي طالما وعد لبنان باتباعها ، منذ ان اجرى انقلابه

الطائش ، ولكنه لم يلبث ان اخلفنا وعده ! » [١١٧] .

وتابع الرئيس الخوري يقول :

«وفي الايام التي تلت تلقّت رئاسة الوزارة وقيادة
الجيش معلومات راهنة بأن الحزب القومي السوري لمّا
يفرغ جعبته ، وانه ينوي حركات عدائية ضد مراكز الدولة،
واغتيال بعض الشخصيات السياسية ، فاتخذت الحكومة
أهبة للامر .

« ونشرت اعمدة الحزب المذكور مناشير عديدةيدعو
فيها أنطون سعادة الشعب اللبناني الى الثورة ، وأذاعت
العمدة أيضا على أنصارهـا ومجنّديها لاعمال الشغب وان
الجيش اللبناني والجيش السوري على تمام التفـاهم مع
الحزب ، وانـه في ليـل ٥ من تموز ستخرج المصفحات
والدبابات اللبنانية بقيادة ضباطها تحمل علامة «الصاعقة»
وتسلّم الى المقاتلين في الحزب ، في حين تخرق الدبابات
والمصفحات السورية الحدود وتنضم الى القوى القومية
السورية المقاتلة فينهار الوضع في لبنان من أساسه ،ويتولى
القوميون السوريون مقدرات الحكم فيه » [١١٨] .

---

(١١٧) بشارة خليل الخوري ، حقائق لبنانية ، منشورات
« أوراق لبنانية » ١٩٦١ ، الجزء الثالث ص ٢٣٧ ٢٣٨
(١١٨) المصدر نفسه

وأدرج الرئيس الخوري « أمرا » كان أصدره انطون سعادة الذي لقّب نفسه « القائد الاعلى » الى أتباعه في السلك العسكري اللبناني يقول لهم فيه :

« على جميع الرفقاء القوميين الاجتماعيين المنخرطين في السلك العسكري في الجيش أو في الدرك أو في الشرطة أن يعتبروا أنفسهم ابتداء من اليوم الثالث من شهر تموز سنة ١٩٤٩ معبّأين في صفوف الثورة القومية الاجتماعية في لبنان . فعليهم عرقلة جميع الاعمال والتدابير التي يأمر بها الطغاة القائمون على الحكم الحاضر في لبنان، والالتحاق بالمناطق المحتلة من قبل القوات القومية الاجتماعية عند أول فرصة تلوح لهم »(١١٩) .

وأدرج أيضا عبارة ختم بها « أمر » آخر ، صدر في ٤ من تموز ، عن « القيادة العليا » تنص على ما يلي :

« ... كذلك ، فان الحزب القومي الاجتماعي يعلن الثورة الشعبية العامة . فالى الثورة على الطغيان والخيانة أيها الشعب النبيل » (١٢٠) .

وبعد الكشف على الاعتداءات التي نفّذها القوميون ، ضد الدرك اللبناني ، في الغبيرة وراشيا

(١١٩) المصدر نفسه ، وقد صدر هذا « الامر » عن القيادة

(١٢٠) بشارة خليل الخوري : المصدر نفسه .

ومشغرة وحاصبيا وسرّحمول قرب عرمون الغرب، ينتقل الرئيس الخوري الى موضوع تسليم سعادة ومحاكمته ، فيقول :

« وفي الساعة الثانية والنصف من صباح السابع من تموز استيقظتُ على رنين الهاتف في غرفة نومي في عاليه ، وكان محدّثي رياض الصلح الذي أخبرني بالقاء القبض على أنطون سعادة ، وانه موقوف في ثكنة الدرك السيار . وقد استغربتُ هذه المفاجأة وعهدي بأنطون انه لاجىء الى دمشق ، ومنها يهاجم لبنان في حمى حسني الزعيم . فارتديت ثيابي حالا ونزلتُ الى بيروت ومررت برياض في بيته وتوجّهنا الى قصر الرئاسة ، وقد بلغت الساعة الثالثة والنصف » .

أضاف :

« قص عليّ رياض ما عرفه معرفة أكيدة عن توقيف أنطون سعادة قال : « تلقّى حسني الزعيم أنباء أثارت هواجسه من حيث اخلاص الحزب القومي ورئيسه للوضع الجديد في سورية . فدعا أنطون سعادة الى مقابلته في القصر الجمهوري ، وأحسنَ وفادته ولاطفه ، ولما انتهت المقابلة ودّع الزائر مضيفه خرج سعادة الى الشارع فوجد مفرزة من الامن العام تحيط بالقصر ، وأسرع قائدها فألقى

القبض عليه . وتلفن حالا مدير الامن العام الى زميله اللبناني وطلب منه مفرزة مسلحة لتتسلم المعتقل في الحدود في منتصف الليل ، شرط أن يُقضى عليه قبل وصوله الى بيروت . وكان شرط مدير الامن العام الدمشقي في وجوب هذا القتل صارما جدا . والحيلة البوليسية معروفة: الايهام بأن أنطون سعادة قد حاول الفرار من حراسه فأطلقوا عليه النار وقُتل ، وهكذا يصل جثة هامدة الى لبنان ويسدل الستار على مجازفته » .

وقال الرئيس الخوري :

« ووصل مدير الامن العام اللبناني ورجاله الى الحدود في الميعاد وتسلموا الموقوف ، ورجع رجال الامن السوريون الى دمشق . ثم جاء المدير اللبناني الى المخفر واتصل تلفونيا برئيس الوزارة وأبلغه الخبر والشرط الذي فُرض من دمشق بوجوب قتل أنطون سعادة ، فأجاب رياض : أحضِر المتهم الى ثكنة الجيش في الفياضية ، وليُنقل منها محاطا بحراسة الجند الى سجن الدرك السيار في بيروت ، ووافني مع نور الدين الرفاعي الى القصر الجمهوري .

«قلت : ودخلنا مكتبي في القصر ودعونا الزعيم فؤاد شهاب ، وعقدنا مجلسا تداولنا فيه الامر . ولمستُ حيرة

من ردة فعل متوقعة عند حسني الزعيم لعدم قتل انطون سعادة في الطريق ، فأخذت على نفسي الاتصال بدمشق وكانت الساعة قد بلغت الخامسة صباحا . وظل الهاتف يرن في القصر الجمهوري السوري ولا يُسمع جواب للنداء . حتى بلغت السادسة واذا حسني الزعيم على الخط .

« قلت له : أشكرك على مؤازرتك لبنان في هذه الليلة ، أما الرجل فهو موقوف وسيُحال الى المحكمة العسكرية لمحاكمته وفقا للقانون . فقال : حسن" حسن ، ولا شكر على واجب » .

وأضاف الرئيس الخوري :

« ثم سلمتُ السماعة لقائد الجيش فأكمل الحديث معه وبحثا في تدابير الامن .

«والتفت الي رياض وقال : « رفعتَ عن صدري وصدر معاونيك بلاطا ثقيلا » فأجبتُه : « وبرهنتَ انت على انك انسان قبل كل شيء » .

« ودعي وزير العدل (١٢١) ومديره ويوسف شربل

---

(١٢١) كان وزير العدل ، آنذاك هو الرئيس رياض الصلح نفسه ، وهي الوزارة الثامنة ومدتها من ٢٦ تموز ١٩٤٨ الى أول تشرين الاول ١٩٤٩ . =

المدّعي العام الاستئنافي ،وصدر مرسوم باحالة انطون سعادة الى المحكمة العسكرية وبوشر باستجوابه في أولى ساعات الصباح .

« وانعقدت المحكمة العسكرية وأُقرّت سرية الجلسة وبدأت باستجواب المتهم واستماع الشهود » .

وقال الرئيس الخوري :

« وبينما المحاكمة جارية اتصل كمال جنبلاط بالقصر وطلب مقابلة مستعجلة ، فأجيب الى طلبه ودخل عليّ أصفر اللون ، وقال : تملأ البلد اشاعة ان انطون سعادة سيعدَم بدون محاكمة . فطمأنتُه الى ان هذا لن يكون .

« فقال :أنا لا أشاركه عقيدته ولكن يجب أن لا يحاكَم عليها ، ومن الضروري أن تجري المحاكمة علنا ليكون للرأي العام نصيب في الحكم ، خصوصا وان المحاكم تتأثر برأي الحكومة .

« فأجبت : ان المتهم لا يحاكَم على عقيدته — مع مناقضتها للكيان اللبناني مناقضة تامة ، والامر خطير —

= « الوزارات اللبنانية وبياناتها ١٩٤٣ — ١٩٨١ » جمع وتقديم : جان ملحة ، مكتبة لبنان ، طبعة اولى ١٩٨١ ص ٤٤

بل يحاكَم على أعمال مادية ، فهو متَّهم بالتحريض على العصيان المسلّح ، وبالاشتراك الفعلي فيه ، وبقتل رجال الدرك ، وبما رافق عمله التمرّدي من حوادث يعاقب عليها القانون . وللمحكمة العسكرية دون سواها يعود الحق بالمحاكمة العلنية أو السرية . والحكومة لم تتدخل ولن تتدخل في الامر ، لا في الشكل ولا في الاساس. والعدل مؤمَّن للمتهم كسواه ، والمحكمة ستصدر حكمها بكل حرية وفقا للقانون ولما يوحيه الضمير .

« قال كمال جنبلاط : لماذا لا تُرجأ المحاكمة وقد قبضت الحكومة على ناصية الحال ؟ ان الشوف والشوفيين والبلاد كلها هادئة ، ولم ينضم أحد من انصار البيت الجنبلاطي الى جماعة أنطون سعادة ، وكذلك لم ينضم اليهم من أنصار الامير مجيد (أرسلان) سوى بعض أعوان من عرمون الغرب ... ثم ولماذا لم يحاكَم لحدّ الآن دعاة آخرون للثورة كالمطران مبارك ونهاد أرسلان ؟

« فأعدتُ (يقول الرئيس الخوري) على مسامع الزائر (جنبلاط) ما قلته له سابقا ، وعندها ودّعني وانصرف » .

ويستأنف الرئيس الخوري الحديث قائلا :

« وجرت المحاكمة طوال الثامن من تموز فاستجوب المتهم تفصيلا وتدقيقا ، واستمع الى الشهود وألقى يوسف شربل النائب العام الاستئنافي مطالعة طويلة سرد فيها الأدلة بجلاء ووضوح . وأعلن رئيس المحكمة فترة الاستراحة .

« ثم استؤنفت الجلسة ورافع وكيل الدفاع طالبا للمتهم الاسباب التخفيفية التي تستند الى عوامل نفسية وتفكيرية .

« وسئل انطون سعادة عما يقوله فألقى دفاعا طال أكثر من ساعة ، تناول القسم الاول منه مبادىء الحزب فشرحها شرحا وافيا وادّعى انه ليس ضد الكيان اللبناني! وتناول القسم الثاني حوادث الاعتداء فدفع المسؤولية وألصقها بغيره من القوميين السوريين ، وانتحل لهم عذرا بأنهم فعلوا ما فعلوه دفعا « للاستقرار الحكومي » كأن استعمال الحكومة حقّها وواجبها في الحفاظ على الامن يُعَدّ استفزازا للناس !

« ختمت المحاكمة واختلت الهيأة ساعة وأصدرت الحكم باعدام المتهم وحلّ الحزب القومي السوري .

« وأحيل ملف القضية الى لجنة العفو ، فدققت

اللجنة فيه وردّت الطلب بالاجماع . وصدر المرسوم بتنفيذ الحكم فجيء بكاهن ساعد السجين على اتمام واجباته الدينية . ونفّذ الحكم في الساعة الرابعة من صباح التاسع من تموز » [١٣٢] .

طبعا ، ان ما فعله الرئيسان : بشارة الخوري ورياض الصلح فعل ويفعل مثله وأكثر ملوك ورؤساء ، شرقيون وغربيون ، جرت ضدهم محاولات انقلابية أو محاولات اغتيال فنجوا ، ولكن ألم يكن باستطاعة الحكم اللبناني، في الثامن والتاسع من تموز ١٩٤٩ ، أن يعدّ خطواته،أو يصغي الى سامي الصلح وكمال جنبلاط ؟

ألم ترتجف يد بشارة الخوري أو رياض الصلح عند التوقيع على المرسوم بتنفيذ الحكم باعدام مفكر له «تلاميذ» ومحازبون ومؤيدون وأنصار ؟

ألم يسمع الرئيسان : بشارة الخوري ورياض الصلح، أو أحدهما ، ما قاله سعادة ، و « هو على قيد خطوات من عمود الموت »؟

« أنا أموت أما حزبي فباقٍ » قالها أنطون سعادة

---

(١٣٢) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ،الجزء الثالث ص ص ٢٤٠/٢٤١/٢٤٢/٢٤٣

« وهو واثق برسوخ عقيدته في قلوب المؤمنين (بها) رسوخ أطواد لبنان وأرزه . قالها وهو واثق من عظمة النفسية السورية الاصلية الكريمة كرم ينابيع مياه دجلة والفرات . قالها وهو واثق من جبروت الفكر السوري المشع كأنوار شمس وطنية ، والصافي صفاء قلب الجبار المؤمن بأن الحياة صراع » (١٢٣) ؟!

ثم ، ألم يدرك الرئيسان بشارة الخوري ورياض الصلح ، أو أحدهما ، ان دم المفكر أنطون سعادة سيرتفع حتى يجاوز المدى ؟ أم « أن ظروفا قاهرة » قد تجاوزت ، « في آخر لحظة » ما كان يرغب ، في قرارة نفسه ، كل من الرئيسين بشارة ورياض ؟

وشنّت صحيفة « النهار » حملة على الحكومة بسبب محاكمة سعادة والقوميين ، فلوحق صاحبها غسان تويني أمام القضاء وأوقف لبضعة أسابيع ، فقدم كل من النائبين: كمال جنبلاط وكميل شمعون استجوابين ، يتعلق الاول بمحاكمة القوميين السوريين ، والثاني بملاحقة الجريدة المذكورة . فاستغربت الحكومة هذا التصرف من النائبين، أو كما يقول الرئيس الخوري :

« وكثرت المساعي للكف عن ملاحقة صاحبي« النهار»

(١٢٣) من يوميات جورج عبد المسيح ، ص ١٨٥

غسان ووليد تويني ، فعجبنا للامر كيف لا يتدخل القانون لتخفيف الحملات الطائشة عن الحاكمين لكنهم يتدخلون لمنع العدالة من الملاحقات القانونية ، أو يسعون لتخفيف الاحكام بعد صدورها ، والأحرى أن يكون الميزان متعادلا بين المعتدي والمعتدى عليه ، ولحرية الفكر حدود»(١٢٤).

وما دمنا قد أشرنا الى موقف « النهار » الغاضب من هذا العمل الحكومي الخطير والمتسرع ، فلماذا لا نسترجع ذلك الرأي الهادىء والمتزن ، الذي كشف عنه كامل مروة، في جريدته « الحياة » ، فكان لبيروت كما الضوء في أشد لياليها حلكة ورعبا ، اذ قال :

« ... ان قضية الاستاذ (انطون) سعادة هي سابقة جديدة في حياتنا السياسية وما دام الباب قد فتح على مصراعيه فانني أخشى ألا تكون الاخيرة، وأن تصبح ذات يوم قميص عثمان جديدا . وللجيل الطالع وحده أن يحكم عليها لأن الزمن لن يسمح لغيره باصدار مثل هذا الحكم.

« لقد مات سعادة في سبيل عقيدة ولدت شخصيته معها وذابت فيها حتى النفس الاخير . هذه هي الحقيقة التي ترافق أعوانه مهما قيل في أسبابه وفي تلك العقيدة.

(١٢٤) بشارة خليل الخوري ، ص ٢٤٤/٢٤٥

وهو لا ريب أول لبناني أعدِم لاسباب سياسية، منذ الحرب العظمى في بلد لم يعرف منذ جيل معنى الدم في سبيل العقيدة، اذ طغت فيه الطائفية السياسية والمناصب على الفضائل القومية ، وحالت دون تركيزه في قلوب ابنائه تركيزا منسجما . لقد شاء أنطون سعادة أن يقول عقيدته بالدم، وشاءت الحكومة أن تقول كلمتها فيه وفيها بالدم . ولكن سعادة فرد والحكومة أفراد . وما نحن جميعا بالنسبة الى التاريخ والى الطبيعة والى تنازع البقاء بين العقائد الا نكرات عارضة تبلى في طي السنين . وتخلد ارادة الدهر فوق رؤوسنا ورموسنا جميعا بين سابق ولاحق » (١٢٥) .

وبعد سنتين وسبعة أيام ، أي في السادس عشر من تموز ١٩٥١ ، تمّ مصرع رياض الصلح في عمان ، بينما كان في طريق المطار عائدا الى بيروت . وما مرّ اربعة أيام على هذه الحادثة حتى فوجئنا بمقتل مضيفه الملك عبدالله وهو يدخل المسجد الاقصى في القدس لأداء صلاة الظهر، أي في الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة ٢٠ من تموز، وقد أرداه رصاص الفدائيين العرب القاتل .

حينئذ تساءل الناس في لبنان : هل بدأت الرؤوس تتدحرج ؟

---

(١٢٥) كامل مروة : « الحياة » ١٠ تموز ١٩٤٩ ، العدد ٩٧٠ .

وفي سوريا ، الانقلابات تتزاحم الواحد تلو الآخر . فمنذ اعدام سعادة ، حتى كانون الاول ١٩٥١ ، شهدت الشام أربعة انقلابات ، حمل أولها الحكم بالاعدام على حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي ، وذلك في الرابع من آب ١٩٤٩ . ويذكر أن منفذ الانقلاب هذا ، وهو الزعيم سامي الحنّاوي ، كان ألصق الضباط بحسني الزعيم ، وقد ترك الاحكام لأرباب السياسة ، ودعاهم لتأليف وزارة برئاسة هاشم الاتاسي ، الذي سبق له أن انتخب رئيسا للجمهورية سنة ١٩٣٦ ، واعتزل المنصب ، ثم انتخب مرة أخرى ، واستقال في كانون الاول ١٩٥١ ، لكنه أعيد للرئاسة (١٩٥٤) إثر انقلاب عسكري على أديب الشيشكلي، ثم حل محلّه شكري القوتلي ١٩٥٥، والاخير بقي في الحكم حتى قيام الوحدة السورية ــ المصرية مثلما مر معنا .

وعلى كل ، سيبقى للكلمة التي أطلقها سامي الصلح الاثر البالغ والعميق ، حيث قال :

« صُعقتُ للفاجعة التي ألمّت بي وبلبنان وتأثرت جدا لفقدان (رياض) ابن عمي . كنت قد استدركتُ المأساة في بصيرتي منذ وقوع مأساة سعادة . فأردت لا بل سعيت كي أحول دونها فعليا ، فقصدتُ أديب الشيشكلي رئيس الدولة السورية برفقة صديقي وصديق رياض ــ سامي زتتوت ــ وذلك ليحمل الحزب القومي بما له من تأثير

على الاقلاع عن تكرار المحاولة التي حصلت في حديقة الصنائع ونجا منها رياض (والجدير بالذكر ان المغفور له أسقط حقه عن الفاعل) • فوعد الشيشكلي بتحقيق امنيتي خلال شهر واحد ونصح بأن يقلّل رياض من التجوّل وعدم السفر خارج البلاد ريثما يتمكن الرئيس السوري من تدارك أي محاولة أخرى • غير أن رياض لم يبال بالأمر فسافر في هذه الاثناء الى الاردن حيث اغتيل » [١٢٦] •

بعد هذه الجولة القصيرة مع الرئيس الشيخ بشارة الخوري ، نعود الى سامي الصلح ، لنتابع واياه الاحداث السابقة على هجرة الفارعاملي موسى الصدر من قم الى جبل عامل •

من الثابت أن المعارضة قد نشأت لتقصي الشيخ بشارة الخوري عن الحكم ، ولكن هذا الهدف ما كان سيتحقق ربما لو بقي رياض الصلح حياً ، والأصح لو استمر بشارة الخوري ورياض الصلح متفاهمين ومنسجمين، وقد رأس الصلح ست وزارات ، من أصل ثلاث عشرة وزارة تألفت خلال عهد الخوري [١٢٧] • ولعلّ شقيق

---

(١٢٦) سامي الصلح : أحتكم الى التاريخ ، ص ٩٦

(١٢٧) هي : الوزارة الاولى من ٢٥ ايلول ١٩٤٣ الى ٢ تموز ١٩٤٤ ، الوزارة الثانية من ٣ تموز ١٩٤٤ الى ٩ كانون الاول ١٩٤٥ ، الوزارة السادسة من ١٤ كانون الاول ١٩٤٦ الى =

الرئيس الخوري ، الشيخ سليم ، هو المسؤول المباشر عن الخلل الذي أصاب العلاقة المتينة التي كانت بين الرئيسين، وكما يقول سامي الصلح :

« وتدهور الوضع بين رياض الصلح وسليم الخوري وبلغ التدهور مرحلة الاستفزاز والتحدي المسلّح ، وجاء من الشمال فريق من الشباب المسلّح انصار ندره عيسى الخوري ، فاستقرّوا في فرن الشباك في بيت الشيخ سليم وحوله ، وازداد التوتر بعد الانتخابات النيابية وبفضل الدور الذي لعبه الشيخ سليم وهنري فرعون فقد تم تكليف عبدالله اليافي تشكيل الحكومة » [١٢٨] •

= ٧ حزيران ١٩٤٧ ، الوزارة السابعة من ٧ حزيران ١٩٤٧ الى ٢٦ تموز ١٩٤٨ ، الوزارة الثامنة من ٢٦ تموز ١٩٤٨ الى اول تشرين الاول ١٩٤٩ ، الوزارة التاسعة من اول تشرين الاول ١٩٤٩ الى ١٤ شباط ١٩٥١

بينما رأس الوزارة الثالثة عبدالحميد كرامي، والخامسة سعدي المنلا ، والعاشرة حسين العويني ، والحادية عشرة عبدالله اليافي ، والثانية عشرة سامي الصلح ، والثالثة عشرة ناظم عكاري ، الذي ما لبث أن استقال بعد اربعة ايام ليأخذ مكانه صائب سلام ، ولدى استقالة الرئيس بشارة الخوري في ١٨ أيلول ١٩٥٢ ، حلّ فؤاد شهاب محل صائب سلام.

(الوزارات اللبنانية وبياناتها ، من ص ١٥ الى ص ٦٦)

(١٢٨) سامي الصلح : أحتكم الى التاريخ ص ٩٦

وسرعان ما امتد الخلاف المستحكم بين رياض الصلح وسليم الخوري ، والاخير وصف هذا الخلاف ، بعد مرور سنوات ، بأنه « خطة استهدفت التوازن الاسلامي — المسيحي في البلاد » (١٢٩) ، نقول امتد هذا الخلاف الى نزاع بينه (الشيخ سليم) وبين عبدالله اليافي أيضا ،وكانت البلاد تواجه أزمات عديدة ومعقدة ، منها : اضراب المحامين، وقد استغرق ثلاثة أشهر ، واضراب الاهلين ضد شركة الكهرباء ، واضراب موظفي سكة الحديد ، واضراب الطلاب ، واضراب موظفي الهاتف (١٣٠) .

ويعتبر سامي الصلح تكليفه تشكيل الحكومة ،بعد استقالة اليافي ، في ١١ شباط ١٩٥٢ ، دليلا حازما على نفوذ الشيخ سليم شقيق الرئيس الخوري (١٣١) . واذ قبل الصلح التكليف فانما بشرط اعطائه صلاحيات استثنائية تمكنه من انقاذ البلاد ، من الوضع المتردي الذي كانت عليه . الا ان اصرار المعارضة على ابعاد الرئيس الخوري عن الحكم ، وتفاقم المشكلات مع المؤسسات البترولية ومع سوريا ، لم يتح للحكومة ما ارادت ، بل هي عجزت عن ايجاد علاج ناجع لمداواة الازمات الموروثة والمتعاقبة،

---

(١٢٩) المصدر نفسه
(١٣٠) المصدر نفسه
(١٣١) المصدر نفسه

مما جعل المعارضة ، على الرغم من قلة عدد نوابها (١٢ من أصل ٧٧) ، وكان يتزعم الاكثرية وعددها ٥٦ نائبا احمد الاسعد وصبري حماده ومجيد ارسلان ، تتغلب في النهاية على العهد (١٣٣) .

على أن سامي الصلح استطاع ، بالمفاوضات التي أجراها مع المعارضة ، فك الاضرابات بعد أن شملت مختلف القطاعات العامة والخاصة . ولما اتجه الى تحقيق بعض التي نادى بها كميل شمعون وكمال جنبلاط ، وقع صراع بين هنري فرعون وسليم الخوري ، وظهرت مساع غايتها اعادة صائب سلام رئيسا للحكومة ، « فوقع الانفجار الذي عجّل الاجل » (١٣٣) .

وفي غضون أقل من أسبوع تألفت حكومتان: الاولى برئاسة ناظم عكاري من ٩ أيلول ١٩٥٢ الى ١٤ ايلول ١٩٥٢ ، وهي لم تمثل أمام مجلس النواب لنيل الثقة . والثانية برئاسة صائب سلام ، التي دامت أربعة ايام فقط لا غير (١٣٤) .

ومهما يكن ، فان الكلمة التي دوّنها الشيخ بشارة

---

(١٣٢) المصدر نفسه
(١٣٣) المصدر نفسه
(١٣٤) المصدر نفسه ص ٩٨

الخوري ، في « حقائقه » ــ بين نهاية وقائع الاستقالة وبين الخاتمة ــ باقية ــ ما بقي الصراع على النفوذ ، في لبنان، مستمرا . لقد كتب الشيخ الرئيس يقول :

« لا بد لحجر الزاوية ــ مهما كان بياضه ناصعا ــ من أن يغشاه بعض سواد ، من طول ما مرت عليه الايدي: أيدي الموالين والمعارضين في آن معا » (١٣٥) .

فاذا كان سامي الصلح قد قال للرئيس الشيخ بشارة الخوري : « يا فخامة الرئيس ، أنت الآن تقرر مصيرك بنفسك ، لن يمكنك بعد ذهابي من أن تشكل حكومة » (١٣٦) . فان صائب سلام قد قال للرئيس نفسه: « عليك أن تستقيل » (١٣٧) . وسدّت في وجه الرئيس الابواب ، ولا سيما أنه دعا صديقه الحاج حسين العويني من مصيفه في عاليه ليعرض عليه الوزارة ، فتردد الحاج في قبول الحكم بهذه الظروف (ولحظت) من كلامه أن بعض وجهاء الطائفة السنّية عزموا فيما بينهم على عدم التعاون معي وذلك لإحراج الموقف . وشعرتُ أيضا بأنه يخشى

---

(١٣٥) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية الجزء الثالث ص ٤٨١
(١٣٦) سامي الصلح : أحتكم الى التاريخ ص ٩٨
(١٣٧) المصدر نفسه ص ١٠٠

ــ وان لم يشترك شخصيا بهذا القرار ــ التجاوز عليه لئلا يتولى الحكم ضعيفا » على قول الرئيس بشارة الخوري نفسه (١٣٨) .

لعل أحدا من « اللاعبين » اللبنانيين لم يعرف حتى ذلك الوقت أن كميل شمعون الذي رفعوه الى رئاسة الجمهورية ، سيلقى هو أيضا معارضة أشد وأعنف من تلك التي لقيها سلفه .

ولنقل ان كميل شمعون الذي ضحكت له الدنيا في ٢٣ أيلول ١٩٥٢ ، لم يكن ليفكر آنذاك ان الدنيا هذه تخفي وراء البسمة ما تخفي من غضب وسخط وحسد .

« ومع تسلّم شمعون مهمّات الرئاسة بدأت قصة جديدة . فقد انقطع فجأة التحالف بينه وبين كمال جنبلاط ، ذلك أن جنبلاط ، بصفته أحد أركان الجبهة الاشتراكية التي عملت على اقالة الخوري ، وحملت شمعون الى الرئاسة ، في الظاهر تجاه الرأي العام ، طالب باشراكه في وضع سياسة العهد الجديد » (١٣٩) .

وكشفا لكل التباس ، أوضح سامي الصلح ان لا

---

(١٣٨) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية الجزء الثالث ص ٧٤٦
(١٣٩) سامي الصلح : أحتكم الى التاريخ ص ١٠٣

«الجبهة الاشتراكية» أو سواها،«يستطيع ايصال أحد الى الرئاسة ، بل ثمة عوامل أقلّ ما يمكن اعتبارها امتدادا وتكرارا لما حصل في موضوع الرئاسة ١٩٤٣ ، اذ كمنت وراءها مخططات خارجية • وكان هذه المرة أيضا كالماضي وكما سيكون في المستقبل لأصابع الدول الكبرى اليد الطولى من مسألة رئاسة لبنان » (١٤٠) •

بدأ كمال جنبلاط مناوأة العهد الجديد بالاصرار على وجوب احالة الرئيس السابق (بشارة الخوري) على المحاكمة ، وفتْح تقرير في الثراء غير المشروع • ويبدو أنه (جنبلاط) لم يغفر لبشارة الخوري « النصح » الذي أسداه له بحضور صهره الامير حسن الاطرش وحبيب أبو شهلا وهنري فرعون وبيار الجميل ، اذ قال له بوجوب الاقلاع عن بعض التخيلات والاحلام والأوهام ، وبوجوب القيام بما يمليه عليه مركزه • ومما قاله « اننا نسير على الارض لا في الجو » (١٤١) •

ويصرّح سامي الصلح قائلا :

« لا ان هذا الموقف ، وان اعتبره البعض صحيحا ، فانه لم يكن منسجما مع واقع البلاد • فالسياسة التقليدية

(١٤٠) المصدر نفسه ص ١٠٤
(١٤١) المصدر نفسه ، أيضا حقائق لبنانية ج ٣ ص ٢٦٧

التي تسود العلاقات بين العائلات والطوائف في لبنان تقضي غالبا ، ان لم يكن دائما ، بتناسي الزلاّت السياسية مهما تعاظمت ، كما أن الترابط الاقتصادي في المجتمع اللبناني بين مختلف الطبقات يفرض في كثير من الاحيان غض النظر عن أخطاء البعض حتى لا ينهار الكل » •

أضاف :

« لذلك ما كان من الرئيس شمعون الذي يعرف لمن هو مدين بالفعل بوصوله الى سدة الرئاسة ، الا انه تجاهل مطالب جنبلاط ، فعاد هذا الى المعارضة واستمر في مناوأة العهد الجديد طوال السنوات الست التي تلت ، وراح يخطط لثورة أخرى للتخلص من كميل شمعون منذ اللحظة الاولى التي تسلّم فيها هذا منصبه • وقد عبّر عن هذا الشعور لبيار اده إثر تهنئة كميل شمعون في بيت الدين » (١٤٢) •

وهكذا برزت لعبة شدّ الحبال من جديد • فانقسم المجلس النيابي الى فريقين بارزين : واحد مع الرئيس شمعون ، والآخر مع المعارضة ، فيما حافظ بعض النواب على الحياد ، ايمانا منهم بأن الديموقراطية يجب تكريسها بالحوار والمناقشة ، لا بالتصلب في المواقف والمعاندة •

(١٤٢) سامي الصلح : احتكم الى التاريخ ص ١٠٤

ويوما بعد يوم ، كانت الازمة السياسية تتفاقم وتتصعب ، حتى تداخلتها تيارات من هنا وتيارات من هناك، فتركت آثارها السلبية على الاقتصاد والامن ، واذا البلاد في وضع لا تحسد عليه . وكما للرئيس عبد الناصر من يعمل بتوجيهات منه ، كذلك لسوريا والسعودية والعراق والاردن وايران ، فضلا عن سفراء الدول الكبرى، الذين يتقنون جيدا فن « اللعب » بأعصاب السياسيين «البلديين» ومشاعرهم ، ويتقنون أيضا فن « التحريض» و « الاثارة» و « التشويق » .

والحقيقة ان السياسة عندنا تحتمل كل شيء ، ما عدا التسامح من أجل المصلحة العامة ، ذلك أن التفاهم ممنوع، وتبادل الآراء ممنوع ، والاستغناء عن الاجنبي ممنوع . ولا عجب اذا ما تنافر القيّمون على مقدرات البلاد ، وتخاصموا ، وتشاتموا ، وأقاموا الحواجز بين منطقة وأخرى ، ومدينة ومدينة ، وحيّ وحيّ ، وقرية وقرية .

وبتأثير من الأحداث الدولية والاقليمية ، مثل قيام دولة اسرائيل ، وحرب السويس ، وولادة حلف بغداد ، والانقلابات العسكرية في سوريا ، وانشاء الوحدة المصرية ـ السورية ، التي تلاها الاتحاد العراقي ـ الاردني ، كما أسلفنا ، اندلعت الثورة في لبنان ، في منتصف ليل ٨ أيار

١٩٥٨ « حين اغتال رجال المخابرات السورية ، كما جاء في الكتاب الاسود الذي صدر في دمشق بعد الانفصال، الصحافي نسيب المتني صاحب جريدة « التلغراف » ، وهو في طريقه الى منزله بعد منتصف الليل (وكان في سيارة أحد محرري الجريدة ميشال الحلوة) فأسرعت المعارضة الى استغلال الحادث ، وذلك باعلان الاضراب مدة ثلاثة أيام ، ووزعت في طرابلس نشرات تتهم الحكومة باثارة الفتنة وتدعو الاهلين الى الانقضاض عليها » (١٤٣) .

ثم عمت الاضرابات والتظاهرات الشمال والبقاع والشوف والجنوب ، ووزعت الاسلحة على الشعب ،فأخذ المسلّحون يهاجمون مراكز الدرك والجمارك ، فيقتلون ما شاء لهم أن يقتلوا ، ويسلبون ما شاء لهم أن يسلبوا ،من دون أن تنفع نداءات الخيّرين الذين طالبوا بوضع حد للأزمة وقد باتت تهدد كيان لبنان . من هؤلاء نذكر شيخ عقل الطائفة الدرزية ، الشيخ رشيد حمادة ، الذي اذاع عشية عيد رمضان ، الموافق ١٩ نيسان ١٩٥٨ ، وليس في ٥ حزيران ١٩٥٨ كما ذكر سامي الصلح ، نداء بليغا ومؤثرا طالب بموجبه المسلمين الكف عن مقاطعة رئيس الحكومة، سامي الصلح ، ودعا الى جمع الكلمة ، ووحدة الصف ،

---

(١٤٣) المصدر نفسه ص ١٧٣

والانصراف عن المنازعات الداخلية ، الى البناء والعمران ، قائلا :

« أحييكم تحية العيد الصادقة الخالصة • وأمد اليكم يدي وقلبي جميعا : يدا ساعية – بإذن الله – في سبيل خيركم ، وقلبا محبا كاد أن يكلمه ما يشهد من أحداثكم وما يرى من توزع قلوبكم • وأبتهل الى الله العلي الكريم أن يلهمكم السداد ويزعكم الاجتماع ، وان الحوادث لتكرثكم تباعا ، وان الصفوف لتتصدع صفاً إثر صف ، والكلمة لتتوزع مرة بعد مرة ، فما تتزودون من ذلك كله بعظة ولا تخرجون بحكمة ، ولا تفيدون من تجربة • فيكاد أن يعصف بي اليأس والله عصفاً ، لولا مسكة من الثقة بكم والايمان • فلا أملك الا ان اردد أمر الله الحكيم العليم : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » • فهل أنتم منتهون ؟؟؟ إن ما عند الله خير وأبقى • وإن ما تتنازعون عليه وتختلفون فيه لأيسر من ذلك وأتفه، وأهون من أن يحيل جو لبنان الصافي الجميل مكفهراً تدلهم فيه سحب المنازعات الداكنة المنذرة بالعواصف •

« لقد ودعتم شهر صوم فضيل مبروك ، كان حرياً أن يخرج منه من اتقى وأناب وعمل صالحا كما ولدته أمه • فلم لا تجعلون من شهوركم كلها رمضان ؟؟!!»

أضاف :

« أوصيكم واياي بتقوى الله تعالى على ما يحب ويرضى • بل ان في ذلك ما يوجب مقته وغضبه ، ومنهما نستعيذ به !!!

« هنا بين ظهرانيكم اخوان لكم من فلسطين العزيزة، اجتمعت عليهم قوى من الشر والطغيان لا عهد لهم بها ولا قبل للانسانية بها ، فأخرجتهم من ديارهم ، وشتتتهم يعانون الجوع والعري والمرض والخزي والحرمان ألوانا وأشكالا، وأنتم عنهم تلهون بالتنابذ فيما بينكم والشقاق • وهناك في الجزائر وتونس اخوان لكم آخرون غائصون في لجج من الدمار والدموع والعرق • يذيقهم المستعمر في كل يوم طعوم الذل والهوان والظلم فيذيقونه طعوم البأس والقوة والايمان ، وأنتم عنهم في نزاع مهين » •

وتابع شيخ العقل حمادة يقول :

«ولمثل هؤلاء وهؤلاء شرع الله الرحمة وفرض الزكاة وأمر المؤمنين بالعمل والتضحية « أما الفتنة فانها أشد من القتل » • من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا •

« نحتفل اليوم بعيد الفطر المبارك • وما الاعياد الا محطات الزمن : فيها يريح عجلاته وفيها يتزود ركّابه للرحلة ــ على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وألوانهم ــ فاحسِنوا التزوّد و« إن خير الزاد التقوى » واعلموا أن « الدين المعاملة » كما قال النبي العربي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم • فاقبِلوا على المعروف ، وانتهوا عن المنكر ، وتنكبوا عن طريق البغي ، وأحسنوا كما أحسن الله اليكم • ولا تضنوا بالصدقة في السر والعلن ، سواء أكانت قصعة من طعام أو شربة من ماء أو كسوة من صوف ، أو عيادة مريض ، أو مؤاساة منكوب ، أو اغاثة ملهوف ، او اصلاح ذات البين ، أو قولا معروفا ، أو كلمة طيبة •• فكان ذلك عند الله محتسبا مقبولا » •

وقال أيضا :

«ليس الاحتفال بالاعياد على تباينها واختلافها وقفا على قوم دون قوم ، أو دين دون دين ، ذلك أن روح الاعياد واحد ومعناها عام ومشترك • من أجل هذا أدعوكم جميعا الى الاحتفاء الحق بهذا العيد الكريم ، فتطرحوا من صدوركم الغل والموجدة والبغضاء ، وتتوجهوا الى خالقكم اخوانا متحابين متعاونين على البر والتقوى والعمل الصالح ، لا فرق بين طائفة منكم وطائفة ، ومذهب ومذهب • فجميعكم

عند الله وعندي سواء • وخير الناس من ينفع الناس • « انما الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه انفعهم لعياله » •

وختاما أستودعكم الله وأسأله لي ولكم السداد والخير والبركات ، انه السميع المجيب » (١٤٤) •

الفقير اليه تعالى
رشيد حمادة
شيخ عقل الطائفة الدرزية »

ولكن يد السوء كانت هي الأقوى • فبدت الأحداث وكأن الغرب والشرق يتحاربان على أرضنا • في حين التزم الجيش اللبناني ، بقيادة الجنرال فؤاد شهاب ، رئيس الجمهورية التالي ، الحياد لسبب أو أسباب •

كان من المتوقع أن يستمر الاقتتال في لبنان مدة أطول ، الا ان انقلابا عسكريا وقع في بغداد ، في الصباح

---

(١٤٤) من محفوظات المحامي الشيخ فريد رشيد حمادة . والمعروف ان الشيخ رشيد حمادة قد زار ، في صبيحة عيد الفطر ، على رأس وفد درزي كبير ، سامي الصلح في منزله ، كما زاره مسيحيون من قرى عديدة ، جاؤوا بالبيارق والاعلام ، مهنئين . وكانت غاية الشيخ الذهاب مع سامي الصلح الى منزل المفتي ، بعد أن يكون خرج من المسجد الكبير ، بغية المصالحة ، بين المفتي وسامي الصلح .

الباكر من يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ، كان هو الحدث الاكبر ، في المنطقة ، بعد اعلان الوحدة المصرية ـ السورية • وعلى الفور • بل في اليوم الثاني ١٥ تموز ، أُنزلت قوة من جنود البحرية الاميركية قرب بيروت بطلب سابق من رئيس الجمهورية كميل شمعون ، فعقد خروشوف مؤتمرا صحافيا مفاجئا ، دعا فيه الى وضع حد للنزاع المسلّح في الوطن البركاني ـ لبنان •

« وفي ١٦ تموز،وصل، الى بيروت ، موفد ايزنهاور ، روبرت مورفي ، وكيل وزارة الخارجية الاميركية ،« للقيام بكل جهد ممكن لاعادة السلام والهدوء الى البلد » (١٤٥) •

أجرى مورفي اتصالا مع الرئيس شمعون من جهة ، ومع المعارضة من جهة اخرى • وبعد مفاوضات استمرت حوالى اسبوعين ، « انحصرت القضية الكبرى في معركة الرئاسة التي دنا موعدُها » (١٤٦) ، فبرز المرشّحون الطامحون ، وكان أوفرهم حظاً : اللواء فؤاد شهاب الذي أيّدته مصر والولايات المتحدة ، وكذلك أيّده كميل شمعون وصائب سلام ، والاخير من أقطاب المعارضة • بينما أيّد كمال جنبلاط ترشيح الدكتور يوسف حتي "

---

(١٤٥) سامي الصلح : أحتكم الى التاريخ ص ١٨٨
(١٤٦) المصدر نفسه

وطالب سامي الصلح بالاتيان برئيس حيادي ، لا يكون له صلة بالأحداث الراهنة ، فظهر اسم جواد بولس كأقوى مرشح حيادي (١٤٧) •

وحسبما أرادت الولايات المتحدة ومصر ، تمّ في ٣١ تموز انتخاب الرئيس فؤاد شهاب في الدورة الثانية ، واعتُبرت الحرب منتهية • وفي اليوم ذاته بعث عبد الناصر ببرقية تهنئة الى الرئيس الجديد (١٤٨) •

تسلم الامير فؤاد شهاب ، في ٢٢ ايلول ، مقاليد الحكم من كميل شمعون ، فألّف وزارة جديدة من معارضي العهد السابق والمحايدين برئاسة رشيد كرامي ، أحد زعماء الثورة ، وعضوية الوزراء : رفيق نجا ،فريد طراد، يوسف السودا ، شارل حلو ، محمد صفي الدين ، فؤاد نجار (١٤٩) • فأعلن كرامي عن عزم حكومته على قطف « ثمار الثورة » مما أثار نقمة الفئات الموالية للعهد السابق• ودعا حزب « الكتائب اللبنانية » عندئذ الى اضراب عام احتجاجا على تصريح رئيس الحكومة • وتطور الاضراب الى ما سمّي « ثورة مضادة » ، فارتدت المعركة « طابع

---

(١٤٧) المصدر نفسه
(١٤٨) المصدر نفسه
(١٤٩) الوزارات اللبنانية وبياناتها ص ١٣٠

الطائفية » و « الحرب الاهلية » ، ووقع عدد من الضحايا هنا وهناك (١٥٠) . وما كادت بيروت أن تختنق بالمسلّحين الزاحفين من مختلف المناطق اللبنانية ، حتى حُسم النزاع، فتألفت في ١٤ تشرين الاول ١٩٥٨ ، وزارة اخرى رباعية برئاسة رشيد كرامي ، وعضوية الوزراء : حسين العويني وريمون اده وبيار الجميل . وسارعت هذه الحكومة الى اطلاق شعار « لا غالب ولا مغلوب » لتهدئة الحالة واعادة الامور الى نصابها ، بعد أكثر من ستة أشهر من الفوضى الدامية ، وتنفّس اللبنانيون على اختلاف ميولهم الصعداء (١٥١) .

اذا كنا سنسأل مع سامي الصلح ، الذي نبذه المسلمون ، وهُدم منزله ، وباع أملاكه لكي لا يردّ طلب محتاج : ماذا تبيّن بعد كل ما حصل ؟ ومن المستفيد يا تُرى من كل هذا ؟

فان الجواب الصحيح والقاطع هو واحد فحسب :

ان مبدأ « لا غالب ولا مغلوب » ليس الا موتوراً

---

(١٥٠) سامي الصلح : احتكم الى التاريخ ص ١٩٢

(١٥١) الوزارات اللبنانية وبياناتها ص ١٣١ ، سامي الصلح: احتكم الى التاريخ ص ١٩٢

ومصطنعا ، ذلك أن الشعب اللبناني هو ، في الحقيقة ، المغلوب والمقهور والمظلوم (١٥٢) .

لغة الدم

كان نوري السعيد (١٨٨٨ ــ ١٩٥٨) (١٥٣) يقول:

« لقد استوحيتُ عقيدتي السياسية من درس تلقيته من قائد عسكري ، فقد تحدّث الينا عقيد الماني مرة في الصف فقال : ان روح القائد الحقة تتجلى في تنفيذ العمل بما لديه من الوسائل المتوافرة . وان واجبه يحتم عليه اعتماد العقل وما تيسّر له من الجهد . لقد أوحى اليّ هذا

---

(١٥٢) سامي الصلح : احتكم الى التاريخ ص ١٩٣

(١٥٣) ذكر في أعلام المنجد انه من مواليد ١٨٩٨ . سياسي عراقي شارك فيصل بن الحسين في ثورته على الاتراك . يعتبر نوري السعيد ، بعد أن أصبح رئيسا للوزراء في ١٩٣٠، الرجل الذي رسم سياسة بلاده الداخلية والخارجية . فمن سنة ١٩٣٠ حتى وفاته سنة ١٩٥٨ ، تولى رئاسة الوزراء اربع عشرة مرة (ثلاث عشرة مرة رئيس وزراء العراق ومرة واحدة للاتحاد العربي : (العراقي ــ الاردني) ، كما شغل، مرات عديدة ، منصب وزير (للخارجية) عادة في حكومات كان هو الشخصية الرئيسية فيها .
(عرب معاصرون ، أدوار القادة في السياسة) المذكور ص ص ٥١/٦١

الكلام بالفكرة التي حملتُها واتبعتها طوال حياتي ، وهي أن أكون عمليا لا مثاليا . الا ان الذين ينتقدونني ينشدون المثل العليا . ثم ما قيمة القدرة اذا كانت الاشياء تأتي اليك منقادة هينة ؟ أما عقيدتي فهي « أن لا تكون قط مثاليا ، بل اعمل بما هو متوافر لديك ، واياك أن تنتظر وتسوّف حتى يصبح كل شيء كاملا لا عيب فيه وتفوت على نفسك فرصة قد لا تعود » (١٥٤) .

ولكن واقعية نوري السعيد لم ترافقه في رحلته الى لندن عشية اعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس .

« يجب أن تضرب الآن . اضرب بسرعة » قالها نوري السعيد لأنطوني إيدن ، فكان مثاليا ، بل مثاليا جدا ، لا واقعيا ، ان لم نقل مجنونا .

ومن لندن بدأت أسهم نوري السعيد تطيش عن هدفها .

كأني به قد نسي أما سمعه من مدرّبه الضابط الالماني،

---

(١٥٤) نوري السعيد ، عن عرب معاصرون ، ص ٤٩ . ولا يسعنا الا أن نلفت الى ضرورة قراءة مذكرات الحاج أمين الحسيني كما في كتاب : « الف يوم مع الحاج أمين » بقلم: زهير المارديني ، دار العرفان ، الطبعة الاولى ١٩٧٧ ، وقراءة كتاب « بريطانيا وفلسطين » (١٩٤٥ – ١٩٤٩) للدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الشروق ، الطبعة الاولى ١٩٨٦ ، كما ان في مذكرات الحاج أمين ما يكشف عن حقيقة علاقة نوري السعيد ببريطانيا .

وهو يصغي الى خطاب عبد الناصر الليلي في ميدان محمد علي بالاسكندرية في ٢٦ تموز ١٩٥٦ .

من المؤكد أن عبد الناصر قد أذهل ، في تلك الليلة، نوري السعيد ، حتى جعله « انكليزيا » أكثر من إيدن ، الذي كان يشرف على نهاية عقده السادس ، وأكثر ايضا من الملكة اليزابيت ابنة السادسة والعشرين .

ولما عاد نوري الى بغداد ،جرّب أن يستعيد« توازنه» ولكن بدون جدوى . أتمّ اتحاده مع الاردن فلم يبتسم له الحظ ، ربما لأن عبد الناصر « سرقه » منه على الطريقة المصرية . فالتفت الى المعارضة العراقية ، وبدلا من أن يحاورها ويجيب عن أسئلتها ، سلّط عليها الشرطة والعسس لتعلّمها « الوطنية » و « الطاعة » و « الانضباط » !!

« صحيح أن نوري تلقّى العلوم العسكرية في مطلع حياته واشترك عمليا في القوات المسلّحة ، الا أنه لم يستمر كضابط بارز في الجيش . وما أن ترك الخدمة العسكرية ليعمل في السياسة ، حتى تخلّى عن عمله العسكري،بعكس معلّمه عزيز علي المصري (١٥٥) ، الذي ظل مهتما بالشؤون العسكرية . وعندما بلغته أصداء انتشار الافكار

---

(١٥٥) عزيز علي المصري (١٨٧٩ أو سنة ١٨٨٠ – ١٩٦٥) جركسي الاصل . وُلد في مصر ، ودرس في اسطنبول ، حيث تخرج في كلية الاركان بامتياز قبل أربع سنوات من اندلاع ثورة ١٩٠٨ في تركيا. يُعتبر من المدرسة المثالية في السياسة. =

الثورية في صفوف الجيش ، قدّر تماما خطورة الوضع الا أنه لم يتخذ أية خطوة حاسمة لمواجهتها ، بل اكتفى بتوجيه التحذيرات الى بعض من الضباط الذين أشيع أن لهم ضلعا في نشر تلك الافكار الثورية وما خلا ذلك من معالجة جذرية ترك شأنها للاستخبارات العسكرية » •

و « كان تحذير نوري لمدحت الحاج سري ، احد ضباط الجيش بمثابة تنبؤ بما سيحدث بالمستقبل • فقد بادر بقوله حين رآه قبل قليل من ثورة تموز : « ما الذي فاتك في العراق لتقوم بالتآمر • وما الذي أضاعه خالك جميل المدفعي لتركب هذا المركب الخشن ؟ فأنكر مدحت التهمة الا أن نوري أردف قائلا (سأكتفي باحالتك على التقاعد ، ولكن ثقْ انكم في حالة نجاحكم في حركتكم سينْصب الواحد منكم للآخر المشانق) ويروى انه أضاف قائلا : (واذا لم تنجح حركتكم فاني سأنصب لكم المشانق بين باب المعظم وباب الشرقي) أي بين بوابتي بغداد

=
أسس « جمعية العهد » سنة ١٩١٢ وكان الهدف منها حماية حقوق جميع القوميات في الامبراطورية العثمانية وامتيازاتها، شريطة ان تصبح الامبراطورية اتحادا فيدراليا كبيرا يعيش ضمنه جميع السكان بوئام وسلام بصرف النظر عن عرقهم أو دينهم . ترجم له الدكتور خدوري في « عرب معاصرون » ص ص ٢٧/٤٥

الشمالية والجنوبية • وهكذا كان ، فما كاد العسكريون يقبضون على زمام الحكم حتى نشب الصراع بينهم • وكان مدحت نفسه وزملاؤه من الضباط أول دفعة تتأرجح على أعواد المشانق بعد أن حكمت عليهم بالاعدام زمرة منافسة من العسكريين » (١٥٦) •

ان لغة الدم ، في العراق ، كثيرا ما تلغي الكلام العذب ، ولغة الشعر العاطفي الذي اشتهر به العراقيون •

وفي موسم الدم في العراق ، تتعب المشانق ولا يتعب الجلادون •

لقد كان نوري السعيد أيأس من غريق ، في صيف ١٩٥٨ • ان خوفه من عبد الناصر الآخذ في التمدد باتجاه الهلال الخصيب ، قد سيطر على عقله وأحاسيسه ، فاعتقد ان العراق «سيصبح في عزلة اذا ما ربح ناصر لبنان»(١٥٧) •

ولكي « يوقف هذا التوسع « الفرعوني » الخطير ، ويعطل « كاسحة الالغام » الناصرية ، قدّم لشمعون في مايو

(١٥٦) الدكتور مجيد خدوري : عرب معاصرون ص ٨٠.
(١٥٧) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٤٣

(أيار) ويونيو (حزيران) التأييد المعنوي والمالي»[158]، و « قرر في يوليو (تموز) نقل فرقة من الجيش (العراقي) مؤتمنة الى الاردن لامكان استعمالها ضد سوريا»[159].

وضع نوري هاتين « الخطتين المؤقتتين » ، وهو على سفر الى أنقرة مع الملك الشاب ، فيصل الثاني ، «لحضور اجتماع عادي لحلف بغداد يبحث فيه كيفية مقاومة خطر الناصرية . وكان عدنان مندريس ، رئيس الوزارة التركية، يشارك نوري السعيد تماما خوفه من الشيوعية»[160] .

عصْر الثالث عشر من تموز ، أعطى نوري السعيد لبعض الضباط القياديين في الجيش الملكي ، أمرا بالزحف الى الحدود الاردنية ــ السورية ، فخدعته « بسمة » من اللواء الشاب عبد الكريم قاسم ، الذي أدى ، الى السياسي المخضرم ، التحية وقال : « أمرك سيدي » . ولما اطمأن نوري السعيد الى حسن سير الخطة ، ذهب الى منزله ، وعنده يقين شديد « ان هذا التحرك اذا نجح من شأنه أن يهدّىء الوضع في الاردن ويوقف الثورة في لبنان بحيث

(١٥٨) المصدر نفسه
(١٥٩) المصدر نفسه
(١٦٠) المصدر نفسه

يحاصر سوريا من جهات العراق والاردن ولبنان »[161] . وعلى ما قيل ، آنذاك ، فان شمعون ، « كان قد تفاهم سرا مع حكام العراق ليأخذ الصراع ، بعد فشل وساطة مجلس الامن ، طابعا عربيا صرفا على أساس ان التدخل السوري في لبنان جوبه بتدخل عراقي »[162] . ذلك أن « من حق رئيس الجمهورية (اللبنانية) وفقا للمادة ٥٢ من الدستور اللبناني عقْد مثل هذه المعاهدة سرا الى أجل يـراه هو مناسبا »[163] و « كان شمعون بدهائه يلعب أوراقا عدة. فالمساعي مع الجامعة العربية أخفقت ، ومـع هيئة الامم كذلك ، بقي مساعدة العراق ،واذا أخفقت ، تكون الولايات المتحدة الورقة الاخيرة »[164] . بيد أن الترياق لم يأت من العراق هذه المرة .

ففي الصباح الباكر من يوم ١٤ تموز ، « بينما كان الملك (فيصل الثاني) يحلق ذقنه ،تحدّى جنود عبدالسلام عارف وعبد الكريم قاسم أوامر الابتعاد عن العاصمة في طريقهم الى الاردن ، وزحفوا الى بغداد ، فاحتلوا محطة الراديو ودعا عبد السلام عارف العراقيين منها الى ثـورة

(١٦١) سامي الصلح : احتكم الى التاريخ ص ١٧٨
(١٦٢) المصدر نفسه
(١٦٣) المصدر نفسه
(١٦٤) المصدر نفسه

دموية . وفي الوقت نفسه أحاط الجنود بالقصر الملكي . وكانوا قد ادّخروا بعض الذخيرة من المناورات ، فقضوا على الحرس وقتلوا جميع الرجال والنساء والخدم دون انذار ، ولم ينج منهم سوى الشابة زوجة الوصي عبدالإله، فقد وجدها أحد الضباط لا تزال حية وهمس في اذنها ألا تتحرك » (١٦٥) .

وعند مساء ذلك اليوم ، « دُفنت جثة الملك في مكان سري ، وجُرِّرت جثة عبد الاله في الشوارع ، أما نوري السعيد فقد عاش يوما آخر ثم اكتُشف أمرُه حين شاهد أحدُهم حذاءه تحت العباءة (عباءة نسائية) ودُفن بسرعة ، ثم نُبش قبره وأُخرجت جثته فداستها حافلات الأمانة الى أن تحولت كما قال شاهد عيان الى ما يشبه البسطرمة » (١٦٦) .

وهكذا ختمت لغة الدم النصف الاول من القرن العشرين ، فسمي أحد الشوارع المهمة في بغداد باسم المنتصر : جمال عبد الناصر ، بعد أن كان يحمل اسم الملك فيصل . وحلّ محل كميل شمعون رئيس آخر كانت غايته

(١٦٥) تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، ص ٣٤٦
(١٦٦) المصدر نفسه

اقامة علاقات حسنة مع الجمهورية العربية المتحدة (١٦٧) واستقرار لبنان .

طلع البدر

ان هذه الاحداث والفواجع التي أسالت الجامد في كل من ايران والعراق والاردن وسوريا ولبنان ومصر ، انما هي صانعة عشية هجرة الفارعاملي موسى الصدر من قم الى جبل عامل . واذا ما اعتبرنا الأشهر الاخيرة من عام ١٩٥٩ بمثابة فترة « الطفولة » لدى الاستقرار الذي عم المنطقة، من ايران الى لبنان ، فحريٌ بنا أن نذكر صور ، التي استقبلت إمامها الآتي من مقلع « التقوى » و « الرفض »، من قم ـ مدينة « آيات الله » و «حجج الله»،و«الممهدين» لعصر ظهور المهدي .

ففي أحد أيام خريف ١٩٥٩ ، غصّ مطار بيروت الدولي بالآلاف من الشيعة العامليين ، عندما كان «السيّد» الشاب موسى الصدر يهبط أرض المطار ، من احدى الطائرات الآتية من ايران .

وما أن أطلّ « السيّد » المهاجر أو العائد ، بقامته

(١٦٧) المصدر نفسه

المديـدة ، البالغة مترين من اللحم والعظم ، وعلى رأسه عمامة حسينية سوداء ، حتى علت الهتافات من كل جانب: « الله أكبر • الله أكبر • اللهم صلّ وسلّم على محمد وآل محمد » • ومشى « السيد » نحو الجماهير بتؤدة ورفق ، فيما الشيخ حسن بيضون ينشد من وراء مذياعه:

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع » •

وجنّت الحشود ، اذ رأت « السيد » يرفع يـديه الكبيرتين مسلّما ، ووقف بعضهم على أكتاف بعض،ليروا أي « نجم » يمشي على الارض • وانتظمت حلقات الدبكة كما لو أنهم في عرس ، فسُدّت مداخل المطار ، ووقف المسافرون والقادمون ليتفرجوا على « العريس » الـذي عصف بمستقبليه مثلما الخمر تعصف بشاربيها •

ثم انطلق موكب « السيد » باتجاه صور ، تتقدمـه سيارة فيها الشيخ حسن بيضون يرتل آيات من القرآن حينا ، وحينا ينشد : « طلع البدر علينا » ، فعبر (الموكب) الدامور الى السعديات الى الجية الى الرميلة الى صيدا ، فالى الغازية والصرفند وخيزران وعدلون والقـاسميـة والبرغليـة والبص ، وكنت ترى النـاس يتراكضون الى الارصفة أو يقفون أمام الدكاكين المنتشرة على طول الطريق الممتدة بين العاصمة وصور ، ليستوضحوا الخبر ، فيقال

لهم : انه السيد موسى الصدر ، إمام صور ، جاء من المطار • وعند مدخل صور ، مدينة الامام عبد الحسين شرف الدين، ترجّل « السيد » وصحبه من السيارات ، فمشوا ومشى معهم كل الصوريين الى الكلية الجعفرية ، بينما واصـل الصيادون تفجير الديناميت في الفضاء ، حتى اهتزت الارض والبيوت ، فرحا بقدوم الضيف الكبير •

وفي الكلية الجعفرية جرى له استقبال حافل ،حضره أساتذة الكلية ، الذين منهم مصريون اوفدهم عبد الناصر على حساب الحكومة المصرية ، والطلاب ، الى جانب وجهاء المدينة وكبار موظفي الدولة والجماهـير الشعبية أيضا • وارتجل رئيس الجعفرية السيد جعفر شرف الدين كلمـة ترحيبية قال فيها :

« لقد غادركم السيد عبد الحسين شرف الدين وهو يحمل على منكبيه سبعة وثمانين عاما ، وعاد اليكم صبيحة هذا اليوم شابا في الثانية والثلاثين •

« فتأكّدوا ان الرسالة ــ الحق مستمرة ، مثلما جبل عامل مستمر • فأهلا بخليفة الامام عبد الحسين شرف الدين، في وطن آبائه وأجداده ، أصحاب الفضيلة والسماحة ، والمجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله ورسوله محمد وأئمته علي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام » •

أما « السيد » فكانت نظراته الربيعية تجول على مستقبليه ، قارئا ما في العيون وعلى الوجوه ، وما خلفها، ولسان حاله يقول مع الآية : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحرٌ مبين » [(١٦٨)] ، ويقول أيضا : ربما صور لا تشبه الكوفة • ولكن الشيعة بعضهم مثل بعض أينما كانوا وحيثما حلّوا •

---

(١٦٨) يونس : ٧٦

الفصل الخامس

الاجتماعي : السيّد
(١٩٦٠ - ١٩٦٧)

"لكي ترى عالماً في حبّة رمل
وجنّة في زهرة برّية
أمسك اللانهاية في راحة يدك
والخلود في ساعة واحدة"

الشاعر وليم بليك
عن "ارتقاء الإنسان" (تأليف: ج برونوفسكي، ترجمة: د. موفق شخاشيرو. مراجعة: زهير الكرمي) سلسلة عالم المعرفة - الكويت العدد ٣٩ آذار ١٩٨١ ص ٢٧٢

تمهيد :

لم يكن سهلا ، علينا ، الفصل بين السيد موسى الصدر الاجتماعي والإمام موسى الصدر السياسي ، وقد تداخلت أعماله بعضها في بعض منذ وصوله الى صور ـ العاملية ، وحتى اختفائه في العاصمة الليبية : طرابلس الغرب .

فاذا عرفنا أن « السيد » قد وُلد في أسرة عريقة في النضال والجهاد ، وبخاصة أن والده : السيد صدر الدين، كان من رواد النهضة الادبية العراقية في فجرها ، وزعيم درس وخطابة وجماعة ، وقائما بأمور العامة ، وعميد الجامعة الدينية في قم بعد انتقاله اليها ، ومؤسس جمعية خيرية أنقذت ، أيام الحرب العالمية الثانية ، الالوف من القميين [1] ، فان هذا معناه التسليم بأن « السيد » نفسه

(١) نجيب جمال الدين : الشيعة على المفترق أو موسى الصدر ، طبعة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ص ص ٣١/٣٠ ، عن مخطوطة « بغية الراغبين » للامام السيد عبد الحسين شرف الدين ، وقد اطلع الشاعر جمال الدين على هذه المخطوطة بفضل السيد جعفر شرف الدين على ما قال . (وسنكتفي عند ذكر كتاب جمال الدين بـ « جمال الدين ») .

قد فُطِر على السياسة والاجتماع ، كما فُطِر على الدين والادب .

أما الذي ساعدَنا على القيام بمهمتنا ، فهو « السيد» نفسه ، اذ شاء بعد تأسيسه المجلس الاسلامـي الشيعي الاعلى (١٩٦٧) أن يعطي السياسة أكثر مـن الاجتماع ، وكأن أقصى غاياته الاجتماعية قد تحققت في ١٢ أيار١٩٦٧، يوم عقد النواب الشيعة جلسة مشتركة مع لجنـة الادارة والعدلية ، بدعوة من رئيس مجلس النواب ، صبري حمادة، وقد صدّقت اللجنة المشتركة مشروع القانون الذي طالما نادى به « السيد » ، تنظيم شؤون الطائفة الشيعيـة في لبنان ، وطلبت الى المجلس النيابي الموافقة ، فـاستجاب لطلبها ، بعد ثلاثة أيام ، مؤيدا القانون بالاجماع [٢]،مع أن عـددا غير قليـل من النواب الشيعة أنفسهم كانوا

---

(٢) جمال الدين : ص ١١٧
والنواب الشيعة كانوا هم : علي الحسيني،كامل الاسعد، عبـد اللطيف الزين ، صبري حمـادة ، رشيد بيضون ، عبد اللطيف بيضون، ممدوح العبدالله ، محمد صفي الدين، عبدالله الغطيمي ، علي عرب ، محمود عمار ، محسن سليم، جعفر شرف الدين ، غالب شاهين ، فضل الله دندش ،نايف المصري ، انور الصباح ، محمد عباس ياغي (الحل المنشود لعودة السلام المفقود ، للمحامي انطوان خليل سعادة،طبعة ١٩٨٤ ، ص ص ١٨٧/١٨٨/١٨٩) .

يعارضون مطلب « السيد » هذا ، ويرفضون البحث فيه رفضا شديدا .

هل كان « السيد » اجتماعيا ليتحول ، فيما بعـد ، سياسيا وثائرا شيعيا ؟

ان الجواب عن هذا السؤال ، يقتضي منا المغامرة ، أو المشي بين الالغام ، ذلك أن احدا ممن ظلّوا يعملون مع « السيد » الاجتماعي حتى السادس من تموز ١٩٧٥ ، يوم القنبلة التي انفجرت في أحد مرتفعات قرية «عين البنيّة » من أعمال بعلبك [٣] ، فبعثرت « الشركاء » المسيحيين ، لا يسرّه كثيرا تغيير ما يحفظ ، في ذاكرته ، للامام ، من صفات ليست موجودة الا في سيَر العباقرة فحسب .

حدّثني أسقف مشرقي ، وهو من فرسان الكلمة ، قال :

« لم نكن ، نحن المسيحيين ، الذين أحببنا الامـام الصدر ، « مساطيل » كما يحسب البعض . وانما نحن طيّبون ومسالمون ، لنا الظاهر وليس لنا الباطن . ومـذ أطلّ « السيد » علينا شعرنا بنسمة من الفرح تـلامس أعماقنا ، فهتفت له قلوبنا وقلنا : « انه ، كما يبدو ، خشبة

---

(٣) الحركات الاسلامية في لبنان ، ملف الشراع ، ص ٦٢

الخلاص » • وكان لا بد من أن نمنحه منابرنا وكل اهتماماتنا ، لاجل العيش المشترك والوطن الموحّد •ولكن السياسة ، يا للاسف ، أفسدت كل شيء جميل • ان علامة استفهام كبرى حول قضية غير عادية ، بالنسبة الينا،اسمها: موسى الصدر ، ما زالت مطروحة ، وستبقى هكذا حتى يأتي الرد الموضوعي والصحيح عليها • وعسى ألا يكون في الامر ما يدعو الى الخيبة والتقاعد عن قراع العوالي وابتذال الرغائب ، على قول المتنبي في مدحه الطاهر بن الحسين العلوي »[٤]

قال هذا محدّثي الاسقف ، والحزن ، على لبنان واللبنانيين ، يغالب عينيه الزرقاوين ، ويغطي وجهه المحتشم، والذي كان قد أعياه هزال بسبب عملية جراحية أجريت له في العمود الفقاري •

لقد سبق أن كتبتُ الى الامام الصدر رسالة عنوانها: « ويسألونني عنك »[٥] ، (من كنيسة مار لويس في بيروت الى آخر كنيسة ودير في جبل لبنان) ، يفترض

---

(٤) والبيت هو :
«فتى علّمته نفسه وجدوده قرع المعالي وابتذال الرغائب»

(٥) مصطفى جحا : « رسائل من خلف المتراس » الجزء الاول ١٩٧٧، ص ص ٤٧/٣٨ ،وهي نشرت من قبل،في «الجريدة» ١٩٧٦/٣/٥ ، العدد ٧١٠٩

أن يكون الامام قد قرأها ، وكذلك فعل العديدون من الاصدقاء والزملاء (هنالك من خاطبه : يا امام كل لبنان !) وحسبنا من ذلك أن يتوقف اللبنانيون عن التذابح والتناحر ، ويعودوا الى الحوار والتفاهم ، ويبنوا ما تهدّم وانتقض ، الا أن الأحداث كانت أكبر منا جميعا ، فأوغل اللبنانيون في التباعد ، بعضهم عن بعض ، لتستمر الحرب ، ويتواصل التخريب والتدمير •

بعد تسع سنوات مضت على « غيبة » الفارعاملي تعود هذه الاسئلة الى الواجهة ، ونعود نحن الى البحث عن الجواب الصحيح والمدروس ، وقد تكوّنت لدينا معطيات وامكانات ما كان في وسعنا ، آنذاك ، أن نحصل عليها أو نحرزها •

لذلك خصّصنا هذا الفصل لـ « السيد »الاجتماعي، على أن يكون الفصل الذي يتلوه لـ « الإمام »السياسي، وبهذا نكون قد تحاشينا الفوضى التي وقع فيها الذين ألّفوا وكتبوا في الإمام موسى الصدر حتى الآن ، بل نكون قد وضعنا كلاً من « السيد » و « الامام » ، في زمانه ومكانه ، مثلما تقتضي أصول البحث وقوانينه •

اول الغيث

كان يوم وصول « السيد » الى صور ، يوم عيد

بالنسبة الى الصوريين ، فعمّت الافراح والزينة الاسواق والمنازل والشوارع ، فضلا عن المسجد ونادي الإمـام الصادق والكلية الجعفرية ، ودارة الامام المؤسس عبـد الحسين شرف الدين ، حيث نزل « السيد » وعائلته .

ان شيئا ما لم يدرك الصوريون تفاصيله ، قد طرأ على المدينة في تلك العشية ، وهو إما حلم ، وإما سحابـة ذات برق ظهرت في السماء ، فبدت على الوجوه علامات السعد والانشراح ، وما كان في خاطر أهل «حي المنارة» و « شارع الجعفرية » و « حي الرمل » أن يناموا ، لئلا ينتهي الحلم ، وتنقشع السحابة ، فأبقوا على الاضواء في المنازل والأزقة حتى الصباح ، وكم كان رائعا اليوم التالي، اذ خرج الرجال الى أعمالهم ، والتلاميذ الى مدارسهم ، والصيادون الى مراكبهم ، بعزيمة ونشاط لم يعرفوا مثلهما من قبل . وكنتَ ترى بعضهم يعايد بعضا ، والايادي تشد على الايادي ، ولسان حال الجميع يقول : لقد جاء الوعد. لقد جاء الوعد .

وكالعادة تجمّع أكَلَةُ الفول المدمّس أمام دكـان الفوّال : عبد بارود (ابو عاطف) ، غير أن أحاديثهم،في هذه الصبيحة ، كانت « غير شكل » . فكلماتهم حارّة وقوية ، وعيونهم مثل عيون السباع أو الفهود أو النمور.

ان احدا منهم لم يأت بكلام تمجّه الأسماع ، بينما كانوا، في الامس ، يتمازحون ثم يتهارشون ، بعد أن يكونوا قد أفاضوا وخلّطوا في الحديث .

قال أحدهم : رأيت في المنام أبا الحسن ، الامام علياً عليه السلام ، يعانق « السيد » موسى بحرارة ويقول له: على يدك تنتصر أمتي ، وبسببك يحصل لها كيان عظيم .

وقال آخر : بينما أنا في عِز نومي ، شعرتُ بيدي اليسرى هذه، التي سيأكلها الدود يوما،قد أصابها الخدر، ففتحتُ عيني واذا رجل ذو قامة ممشوقـة ، على رأسه عمامة سوداء ، وله لحية عظيمة تكاد أن تغطي نصف بطنه ، والتفّ بعباءة من الحرير الاسود الناعم ، فتملّكني الخوف واضطربت مفاصلي ، فمد يده نحوي وقال : انهض أيها العبد الصالح . فنهضت . فقال : أريد منك أن تخرج الى الناس لتبشرهم بأن المسافة بينهم وبين النصر المبين باتت أقصر مما بين عينك وعينك. قلت : عفوك يا سيدي، من أنت؟ قال:أنا الإمام جعفر الصادق . قلت : ومتى النصر ؟ قال : المهم أن تتبعوا سيدكم وإمامكم موسى ، الذي أرسلته اليكم مدينة الحق والتقوى : «قم» . وفجأة تركني « ابو عبد الله » واختفى .

وقال رجل كان يكسر بكفيه بصَلة : أرأيتم كيف

وقف رجال آل الخليل أمام منزل عبد الرحمن (شقيق النائب كاظم الخليل) ، عندما مرّ موكب « السيد » من هناك ؟ لقد ظهر لي كأنهم يريدون أن يفتعلوا مشكلة . مسدساتهم بانت من تحت معاطفهم . كم تمنيت لو أنقضّ عليهم فأمزقهم وأهدم البيت على رؤوسهم . انهم كلاب عند زعمائهم .

ردّ الذي كان يأكل معه : كارهُ أبيك لن يحبك . آل الخليل يكرهون لا السيد عبد الحسين شرف الدين فحسب ، بل كل آل شرف الدين ، صغيرا وكبيرا . وعلى كل ، فان الايام آتية . سنُطْعِمُهم من جلودهم .. ونسقيهم من دمهم .

عندئذ انتفض ثلاثة أو أربعة ممن سمعوا هذا الكلام، وقالوا بصوت واحد : أنت تشتم آل الخليل ؟! هذا عيب . أين أنت منهم ؟ انك لا تستطيع أن تضع رأسك حيث يضع أصغرهم حذاءه .

واحتدم الخلاف بين اكلة الفول المدمّس . فأسرع الفوّال وصانعه في لملمة صحون الفخار والسكاكين وكراسي القش ، وسُمع « أبو عاطف » يقول : « اتقوا الله يا جماعة . بيت الخليل عيننا ، والسياد عيننا أيضا » . وبرزت

المسدسات والمدى ، فذُعر الحاضرون ، وارتفعت الاصوات، حتى جاء جميع الذين في السوق ليصلحوا بين المتقاتلين ، ولكن عبثا . وباغتتهم دورية من الدرك اللبناني فألقت القبض على اثنين من المسلّحين فقط ، وساقتهما مع عدد من الشهود الى السرايا . وهناك أجري التحقيق فأُطلق الشهود كافة ، بينما أُوقف المسلّحان بعد أن تبيَّن انهما من « قبضايات » آل الخليل .

نُقِل هذا الخبر الى « السيد » الذي كان يرتاح من عناء السفَر ، فتألم وقال لزائريه : « يجب القضاء على الزعامات المحلية . لا زعيم الا من عمل في سبيل الله والمؤمنين . عندنا ، في ايران ، وبخاصة في قم ، الزعيم هو المرجع الاعلى فحسب » . واذ حان وقتُ الظهر ، دخل « السيد » المسجد ، فأمّ الذين كانوا هناك في الصلاة، ثم قرأ بعضا من أدعية للامام زين العابدين . وبعد ذلك طلب من مرافقيه أن يأخذوه الى السرايا ، فاستغربوا ما سمعوا منه . ولكن « السيد » أصرّ على طلبه هذا ، ومشى ، فمشى الجميع في السوق ، واذا الباعة وزبائنهم يكبّرون ويهللون : الله أكبر . الله أكبر . لا اله الا الله . لا اله الا الله . في حين ان « السيد » كان يلقي عليهم السلام ، بأن يضم يديه الى صدره العريض والشامخ . وتقدم من « السيد » رجل ذو لحية ربعة القامة ، أبيض ، يناهز السبعين،

على جبينه من اثر السجود ، عنده محل لبيع العطارة يدعى الحاج محمد ، فقبّل يـده وأنشده هذه الابيات وهي للحافظ رجب البرسي في مدحه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وتقول :

« يا منبع الانوار يا سرّ المهيمن في الممالك
يا قطب دائرة الوجود وعين منبعه كذلك
والعين والسرّ الـذي منـه تلقّنت الملائك
ما لاح صبح للهدى الا وأسفر عن جمالك
يا ابن الأطايب والطواهر والفواطم والفواتك
أنتَ الامانُ من الردى وأنت النجاة من المهالك
انت الصراط المستقيم ونسيم جنات الارائك
والنار مفزعها اليك وأنت مالك أمر مـالك
يا من تجلّى بالجمال فشق بردةَ كل حالك
صلّى عليك الله من هاد الى خـير المسالك
والسائل الصوْري لايخشى وأنت هنالك» (٦)

فسر منه « السيد » وانحنى عليه يعانقه ويهمس في

(٦) الحافظ رجب البرسي : مشارق انوار اليقين في أسرار امير المؤمنين ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٧٩ ، لا اسم للناشر ، ص ص ٢٠٠/٢٠١ ، وقد عدّل الرجل (العطّار) كلمتين من العجز الاخير فجعلهما : والسائل الصوري بدلا من الحافظ البرسي .

اذنه : رحم الله الحافظ رجب البرسي ، « الجامع لحقائق أسرار التوحيد ، والنبوّة والولاية » (٧) . وسأله: «أنت يا حاج محمد تقرأ مثل هذه الروائع ؟ » فأجابه الحاج : «طبعا . طبعا يا مولانا . واذا لم نقرأ ما جادت به قرائح علمائنا وشعرائنا ، فكأننا لم نقرأ شيئا يستحق الذكر » . فتبسم « السيد » فقال : « الله يوفقك يا حاج » .

لدى وصول « السيد » ومرافقيه الى السرايا ،خرج الضابط المسؤول لاستقباله :

— أهلا وسهلا بسماحة السيد . أي شرف تمنحنا اليوم !

— العفو يا أخي الحبيب . قادني اليكم ما سمعته عنكم من أخلاق كريمة وسهر على مصالح المواطنين .

— ان هذا هو واجبنا يا صاحب السماحة .

— الله يعزّكم ، ويحمي لنا لبنان ورئيسه العظيم .

— شكرا لك يا صاحب السماحة . أي خدمة ؟

— يا حضرة الضابط علمت أن مشكلة وقعت صباح اليوم في السوق ، لا أعرف تفاصيلها . ولكنني أُخبِرتُ أن اثنين من المتخاصمين قد أوقفا بأمر منكم رهن التحقيق .

(٧) الحافظ رجب البرسي : مشارق انوار اليقين ، ص ٥

— نعم ، يا سيدي • نحن ضد الفوضى والشغَب• ضد التجاوزات من أي جهة أتت •

— أشارككم الرأي ، وأؤيدكم في جميع مواقفكم• ولكن ألا ترى أن اطلاق سراح هذين الموقوفين بكفالة، أفضل من الابقاء عليهما موقوفين ؟

— نحن من جهتنا ، اتخذنا الاجراءات اللازمة •

— معك حق • الا أن الرحمة أوسعُ من القانون •

— كما تريد •

وأُطلق سراح الرجلين ، بعد أن قابلهما « السيد » وتحدّث اليهما لبضع دقائق • فانتشر الخبر في المدينة ، وراح الناس يتحدّثون به وقتا طويلا •

الفارزة (*1)

كانت الانتخابات النيابية ، يومئذ ، على الابواب • وكذلك كان رمضان ، شهر الصوم والعبادة • استحقاقان كبيران ينبغي للمدينة أن تستعدّ لهما • وطلب « السيد » موسى ، من رئيس الكلية الجعفرية السيد جعفر شرف

(*1) الفارزة : مؤنث الفارز ، الطريق يأخذ في الرمل كأنه صدع في الارض •

الدين ، أن يرافقه لردّ الزيارة لمن جاؤوا للسلام عليه يوم وصوله وبعده ، فاعتذر منه السيد جعفر ، اذ كان قد رشّح نفسه للنيابة ، وتمنى عليه أن يؤجلها الى ما بعد الانتخابات ، أو يذهب لوحده ، لأن الزيارة معا قد يُفهم منها تدخلا من « السيد » بالشؤون السياسية ، فيكثر التأويل والتفسير في وقت لا حاجة اليهما •

اذ ذاك أحس « السيد » أن الطريق ليست سهلة ، بل معقّدة وطويلة ، وهي تتطلب الصبر والعمل الدائم ، وخصوصا أن المدينة تملؤها الاحزاب والحركات السياسية• ففيها : الشيوعيون ، والبعثيون ، والقوميون العرب ، والقوميون السوريون • وفيها أيضا جماعة الاسعد ، وجماعة الخليل ، فضلا عن المستقلين والفلسطينيين ، وان لم يكونوا قد تسلّحوا بعد ، وأنصار « المكتب الثاني » الذي أنشىء في مطلع عهد الرئيس فؤاد شهاب •

وكما المدينة كذلك قرى القضاء كافة • وقلْ انجبل عامل ، من شرقه الى غربه ، ومن شماله الى جنوبه ، مثله مثل خلية النحل : شبابه في صراع ثقافي لا يهدأ ، فمنهم التغييريون ، ومنهم المحافظون • على أن الجميع متمسكون بجبلهم ، ويطالبون ، كل بأسلوبه ، بتنمية مدنهم وقراهم، وتطوير وسائل عيشهم ، وتحسين أحوالهم الثقافية والاجتماعية •

في هذا الوقت ، قدم ، الى صور ، الاسقف يوسف الخوري ، وقد عيّن مطرانا على أبرشيتي صور والاراضي المقدّسة المارونيتين • ولدى وصوله الى مشارف المدينة، وكان ذلك في أوائل آذار ١٩٦٠ ، خرج لاستقباله أهل «الحارةالمسيحية»،ومن جاء من علما الشعب والقوزح ودبل ورميش وعين ابل وغيرها من القرى الجنوبية التي يسكنها موارنة ، تتقدمهم الصلبان والرايات ، وفرقة موسيقية تعزف نشيد الفرح • وفعل الصيادون ، هذه المرة ، كما فعلوا يوم مجيء « السيد » • فظلوا يفجّرون «الديناميت» حتى دخول المطران الى الكنيسة ، حيث أقام الذبيحة وصلاة الشكر • وفي صالون المطرانية جلس راعي الابرشية على كرسيه الارجواني ، يستقبل المهنئين ، فكان هو أيضا، بوجهه المشرق والوضاء وقامته الفتيّة المعتدلة ، مشيرا للاعجاب والوقار والتعظيم•ونقل آنذاك عن مسؤول حزبي في المدينة أنه قال : « لقد صار لمدينتنا صور قمران : واحد شيعي والاخر ماروني ، والله يستر اذا ما التقيا ،وعندئذ سيحصل ما لا يمكننا تصوّره » •

وفي هذا الوقت أيضا ، صدر في العراق كتاب « الاقتصاد » للعلاّمة السيد حسن الشيرازي ، حفيد آية الله السيد محمد حسن الشيرازي ، الذي افتى في أواخر القرن التاسع عشر ، بتحريم التدخين ، مما أجبر

البريطانيين على التنازل عن مشروع احتكار التبغ الايراني• وابن أخت آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي ، مفجّر ثورة العشرين التي طردت الانجليز من جنوب العراق، في انتفاضة مسلّحة دموية عارمة • وأما والده فهو آية الله السيد مهدي الشيرازي ، الذي اشتهر بعدائه للشيوعية• وأخوه آية الله السيد محمد الشيرازي قائد الثورة الاسلامية في العراق •

والمعروف عن المؤلف أنه كان أديبا وشاعرا له: «الادب الموجه » و « العمل الادبي » ، الى ديوان شعر لا يزال مخطوطا ، ومجموعة « كلمات » بدءا بـ « كلمة الله » وختاما بـ « كلمة الامام المهدي » • وعلى صعيد المجتمع، فقد كشف النقاب عن اسلام وتشييع الآلاف من العلويين المنتشرين في سورية ولبنان وافريقيا • وأسّس الحوزة العلمية الزينبية في دمشق ، حول مرقد السيدة زينب،وهي تضم عددا من طلاب العلوم الدينية في مختلف المستويات، ومن مختلف الجنسيات • وأسّس أيضا مدرسة المهدي الدينية في بيروت ، و « جماعة علماء الشيعة » ودار الصادق للطبع والنشر ، ومجلة « الاخلاق والآداب » الشهرية في كربلاء ــ العراق في الستينات ، ومجلة « الايمان »الشهرية في بيروت • وهو قام على النظام في العراق ، فسُجن وعُذّب ، وقيل انه أوذي حتى خسر ذكورته ، وأبعد

عن وطنه العراق • والجدير ذكره أن سياسيين لبنانيين قد استغلوا وجود الشيرازي في لبنان ، فنافسوا به الامام الصدر ، الى أن لقي مصرعه بأيدي مسلحين مجهولين •

ان كتاب « الاقتصاد » هو في جانبين : أولهما ايجابي يؤكد أن الاقتصاد الاسلامي « ليس اقتصادا وحسب ، وانما هو (على) كونه اقتصادا في القمة ، اجتماع ، وتربية ، وفلسفة ، وانسانية ، وخلق وفضيلة » [٨] • وثانيهما سلبي هدفه « اثبات ان الاقتصاديات المادية المعاصرة ليست اقتصادا وحسب ، وهي في نفس الوقت مقبرة لكل فضيلة وانسانية وجميل » [٩] ؟!

وموضوعات كتاب « الاقتصاد » هي : « الرأسمالية » ، « الرأسمالية الجديدة » ، « الاقتصاد الشيوعي » ، « حساب الشيوعية » ، « الاقتصاد الاشتراكي » ، « مناقضات الاشتراكية » ، « مذاهب اشتراكية » ، و « الاقتصاد الاسلامي » •

وبما أن المبدأ ، في رأي الشيرازي ، هو « مقياس

(٨) الاقتصاد : مؤسسة الوفاء ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ، بينما صدرت الطبعة الاولى في ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠ م •

(٩) الاقتصاد : ص ١٢

عظمة الشعب ، وحضارته ، وثروته : الفكرية والمادية ، ومدى خلوده ، ومقاومته للشعوب المناوئة » [١٠] ، فان « الامة التي لها مبدأ صحيح ـ تسير على ضوئه ـ تستطيع أن تحتفظ بما لديها من حضارة وثروة ••• ! حتى ولو اتفقت الظروف المعاكسة أن تعصف بها ، وتبدد ثروتها ، وتدمر حضارتها ، وتقوض كيانها من القواعد ، وتكتسح كل غال ورخيص ، فسرعان ما تستعيد قواها المسلوبة ، وتلملم نشاطها المنهوب ـ بتوجيه من ذلك المبدأ ـ لتجدد كيانها ، وتهتدي الى حضارتها مرة أخرى ، فتعود الى مقرها الآمن الوديع » [١١] •

ويشدد السيد حسن الشيرازي على أهمية المبدأ الصحيح فيقول :

« حتى ولو ابتدأت الامة بلا حضارة ، ولا ثروة مادية ولا علمية ، فمن الهين عليها ـ بقيادة المبدأ الصحيح ـ أن تكون الحضارة والثروة ، وكل شيء ، وأن تتخذ البرامج التي تساعدها على التوسعة والإخضاع وإصهار الشعوب الاخرى في بوتقتها بكل سهولة وبساطة » [١٢] •

(١٠) الاقتصاد : من المقدمة ص ٢١

(١١) الاقتصاد : نفسه

(١٢) المصدر نفسه

لذلك ، فان « الامم التي تدين بمبدأ فاسد فانها وإن سنحت لها الظروف المؤاتية وفراغ الميدان أن تملك الحضارة والثروة ، وتصل الى الاكتشافات العلمية والمخترعات الصناعية .. لكنها ستنتهي في أشواطها الى حروب طاحنة تخسر فيها كل شيء حتى شخصيتها وكيانها »(١٣)

قرأ « السيد » موسى هذا الكتاب ، فاتخذ لنفسه مبدأ الابتعاد عن الشيوعيين والقوميين وسائر الاحزاب ، وعن الزعماء التقليديين أيضا . وليتمّ له ذلك ، انطلق في جذب من يستطيع جذبهم من الشباب ، الى ندوات رمضانية مبرمجة ومدروسة ، كأنْ يُقرأ جزء من القرآن ، وتعالَج زاوية من التاريخ الاسلامي ، يتصدّى لها مقتدر . وتُطرح مسألة فقهية يجيب عليها « السيد » بوضوح ، وتُتلى موشحات نبوية ، وتُلقى قصائد وخطب ، وتُفسَّر آية قرآنية ، ثم تُختتَم الليلة ، وكل ليلة ، بدعاء وابتهال يرفعه « السيد » بعد أن يقدّم له بتعليق (١٤) . وقد لقي هذا العمل ، عند الكثيرين القبول والاستحسان ، ما جعل قاعة نادي الامام الصادق الكبرى تغصّ وتزدحم ، كل ليلة ، بالمستمعين منذ المساء .

---

(١٣) المصدر نفسه ص ٢٢.

(١٤) جمال الدين : صص ٥٧/٥٨

وهكذا في عاشوراء أيضا ، اذ حوّل « السيد » هذه المناسبة السنوية والتراثية الشيعية ، من لقاء للتباكي واللطْم والندْب ، الى لقاء فكري وأدبي يشارك فيه أدباء وشعراء ومؤرخون وأحيانا طلاب من صفوف مختلفة ، ومزارعون وفلاحون وعمال وتجار ، منهم زجّالون ، ومنهم هواة أدب وثقافة .

ان أشهر رُوّاد هذه الندوات كانوا هم : الشيخ أحمد مغنية والشيخ كامل سليمان والدكتور شكرالله الحداد والشاعر كامل بولس والشاعر احمد حجازي (ابن البادية) والاستاذ محمد زكي بيضون والارشمندريت جبرائيل نصر ، النائب العام لمطرانية الروم الكاثوليك في صور ، والمونسنيور مارون صادر ، النائب العام لمطرانية الموارنة في صور ، والاستاذ حسين حمادي ، والشاعر الشعبي عبد الكريم بحسون ، الذي امتاز بصوته العاطفي والشديد . وغالبا ما كان السيد جعفر شرف الدين ، الذي فاز في الانتخابات النيابية هو وحليفاه : السيد محمد صفي الدين والسيد سليمان عرب ، يتردد على النادي فيشارك في كلمة أومحاضرة تجمع الدين الى السياسة الى الاجتماع . ومن خارج صور كان يأتي الشاعر الشعبي علي الحاج ، والشاعر نجيب جمال الدين ، والمطران غريغوار حداد ، والشيخ عبدالله العلايلي وسواهم .

يمكننا القول ان الفارعاملي قد أحدث، في السنة الاولى من عهده في جبل عامل ، تغييرا في أمور كثيرة كانت دائمة وثابتة • وشمل هذا التغيير الشحّاذين الذين منعهم « السيد » من (التسوّل) والاستعطاء ، بعد أن أصبح الناظر العام لـ « جمعية البر والاحسان » في صور • وفي كلمة له أذاعها اثر تعيينه يقول :

«اتصلتُ بأعضاء « جمعية البر والاحسان »المؤسّسة في صور سنة ١٩٤٨ بوحي من سيدنا المقدس الامام (عبد الحسين) شرف الدين ، فرأيتهم « فتية آمنوا بربهم فزدناهم هدى » واطّلعتُ على عملهم ، فاذا هو سعي متواصل صامت ، أنتج بأقل ما يفرض من الرصيد ، أعمالا جليلة ، وخدمات هامة ، تُذكر فتُشكر ، انهم شعروا بما يشعر به كل انسان تجاه اخوانه ومواطنيه الذين يعانون من متاعب الحياة والفقر والمرض والجهل ، ما لا يستحقون • فلبوا نداء واجبهم الديني الاسلامي على لسان نبيّه صلوات الله عليه : « من أصبح ولم يهتم بشؤون المسلمين فليس بمسلم » فجعلوا شعارهم : « التعاون على البر والتقوى »•

أضاف :

« وقد كسبوا في هذه المدة ثقة الناس • وهي أعظم رصيد للجمعيات الخيرية • دعوتهم وعرضتُ خدماتي

وطاقاتي الضئيلة عليهم • فلبوا دعوتي وجعلوني أخا مساعدا لهم في طريقهم الخيّر النيّر •

« وباشرنا معا العمل في أوائل سنة ١٩٦١ بتطوير القانون الاساسي والنظام العام ، فأصبحت الجمعية تعاونية تركّزت فيها طاقات جميع المواطنين في صور وصداقاتهم تقريبا » •

وتابع يقول :

« والآن وبعد مرور سنة واحدة على هذه التجربة، نحسّ كلنا بنجاحها • ونجد في نفوسنا ونفوس أكثر أهل بلدنا وهم أعضاء جمعية البر والاحسان الذين يبلغ عددهم رجالا ونساء ما يقرب من ألف شخص ، نجد أملا كبيرا هو الامل بالمستقبل ونجد انعكاس ذلك على نفوس كافة المواطنين » •

وقال أيضا :

« واقتنعنا جميعا بأن تركيز الطاقات وجمع الدراهم القليلة التي كنا نرميها في التراب بشكل الصدقات الفردية للسائلين بالكف •• اقتنعنا أن تركيز هذا يعمل المعجزات، ويرفع الصروح في وقت قليل • وهذا هو الطريق المرسوم لنا نحن الجماعة « يد الله مع الجماعة » •

« وبامكاننا أن نقول : ان الجمعية لا يقتصر انعكاسها على طائفة معينة • بل هي جمعية خيرية لكافة الطوائف وهذا صندوقها يدخل فيه الخير من الجميع وهذه يد الجمعية تمتد لمساعدة الجميع » (١٥) •

لن يفوتنا القول بأن « السيّد » قد زار المطران يوسف الخوري في اليوم الثاني من وصوله الى صور • ولما رأى المجد الذي عليه الاسقف الماروني ومقرّه وكنيسته ، أحبّ أن يستقل في بيت خاص ، يطبعه بطابعه الفارسي ، فكان له ما أراد ، واتخذ لنفسه ، أو قُدّم اليه ، منزل السيد حسن مصطفى بحسون ، شرق الجعفرية ، وفيه راح يستقبل أصدقاءه وزائريه ، ويحضّر للمستقبل جمهوره وفرسانه ، وأهدى اليه أحد الاثرياء ، وقيل بعض الاثرياء ، سيارة من نوع « مرسيدس » عيّن عليها سائقا ، فأصبح قادرا على التحرك والتنقل الى حيث يريد وفي أي وقت شاء •

المركب الناعم

زار « السيد » الصدر ، المطران الخوري مرة ثانية ، فاستعرضا حالة المدينة الاجتماعية والاقتصادية ، وأبدى المطران ارتياحه لضيفه ، الذي كشف له عن حقيقة رغبته في

(١٥) منبر ومحراب : ص ص ١٠/١١

جمع شمل الطائفة الشيعية ، وتنمية مناطقها وانعاشها وبخاصة جبل عامل وبعلبك — الهرمل ، لتكون هذه الطائفة عونا للدولة وليس عليها • وبأكثر صراحة ، استنكر « السيد » أن تكون ادارة الشؤون الاسلامية العامة وقفاً على السنّة ، معتبرا هذا الاجراء « ظلما لا مبرر له » •

وتكاثرت اللقاءات بين « السيد » والمطران ، فكان الاول ، في كل مرة ، يزيد الشرح والتفسير والتعليل ، فيما الثاني يصغي ويستمع • ولما اقتنع الاسقف بضرورة الاستجابة لمطاليب صاحبه ، تعهد بالاتصال بالسلطات المختصة للوقوف على رأيها ومعرفة امكاناتها • وتوقّع (الاسقف) أن يجد لدى المراجع العليا الانسجام والرضا • وليس غريبا أن يعطف المطران يوسف الخوري على مقترحات « السيد » ويدعمها ويشجع على تحقيقها • فهو ، أي المطران ، أولا ابن بكاسين — قضاء جزين ، وثانيا خير من عرف مناصرة الشيعة ، في جبل عامل ، لمسيحيي الشوف واقليم الخروب خلال فتنة ١٨٤٠ — ١٨٦٠ ، يوم شرّع الشيعة العامليون بيوتهم لجيرانهم المسيحيين ممن هجّرهم ، آنذاك ، بعض الدروز ، وأيّدوهم في مواقفهم ، وساعدوهم على محنهم ، لا كرها للدروز ، وانما بدافع من الشعور الوطني والانساني الذي يتمتع به شيعة عاملة وكل لبنان • أضف الى هذا وذاك ، تفهّمَ المطران الخوري لحقوق

الشيعة ، وايمانه بأن العدالة الاجتماعية ، اذا ما تأمنت ، قد تصون الوطن من كل خطر مفاجىء ، وتتكفل الوفاق الوطني بين الطوائف اللبنانية جميعها .

على هذا الاساس تابع « السيد » اتصالاته وكثّف اجتماعاته ، فكثر أنصاره ومؤيدوه ، وتطلّع نحو قرى القضاء ، فدخلها واحدة واحدة بقلب كبير وعقل منفتح، مستوضحا شؤون أهلها وشجونهم ، ومحلّلا ، ومناقشا، فلا يغادرها الا على موعد آخر قريب . ثم تجاوز «السيد» قضاء صور الى كل الجنوب وغير الجنوب ، محدّثا بالاصلاح ، وواعدا بالمؤسسات والجمعيات التربوية والصحية والتثقيفية ، ومحتجّاً على العزلة والانغلاق ومساوئهما . ودائما كان يقول لمن يلتقيهم :

« يجب تعويد الناس على حب لبنان ، وطائفتنا من لبنان في الصميم . ونحن نرفض المزاودة مع أحد في هذا المضمار ، إن استظهر أحدٌ بغير لبنان ، فنحن ظهر لبنان. والوفاء له نابع من علاقة الانسان بالارض ، وعلاقة الانسان بالكرامة ، وكلتاهما : الكرامة الحرة ، والرغيف الشريف، لا نملكهما الا في جو الحرية والاستقلال ، وقوتنا لا تكون الا بوحدة كلمتنا لصيانة لبنان ، من هوس الطامعين،وجشع المستعمرين » [١٦] .

---

(١٦) جمال الدين : ص ٧١

وأطلق « السيد » الشعار التالي:

« الوفاء لنا (الشيعة) يقتضينا الفداء للوطن »[١٧].

وكثيرا ما ردّد هذه المقولة :

« ماذا يصنع أخوك ان وجدك في ساعة العسرة ؟ وصديقك ان رآك في ساعة الضيق .. ينهض اليك مهما يكن الجفاء .. وبعد فاللغة والارض والعلاقات المتشابكة، والزمان ليست مسائل بسيطة »[١٨] .

ولطالما سُمع « السيد » يقول أيضا :

« الطائفة المتخلفة بسائر قراها المحرومة ، ومناطقها المظلومة ، تكاد تسوّد وجه لبنان ، ووجه لبنان يجب أن يكون مشرقا وضّاء ..»[١٩]

هل كان « السيد » يبعث برسائله هذه الى رأس الدولة ، عبر رجال « المكتب الثاني » الذين تغلغلوا في كل مدينة وقرية ودسكرة ، ان لم نقل في كل بيت ؟

انها لا شك لغة جديدة على العامليين ، ولكن هل

---

(١٧) المصدر نفسه
(١٨) المصدر نفسه ص ٧٢
(١٩) المصدر نفسه ص ٧٢

تصمد وتفرض نفسها ؟ ام انه في ظل « العملاق » : عبد الناصر لا يجوز حتى الهمس بهذه العبارات «الانعزالية» و « التقسيمية » ؟

حادثة أخرى ضمّها « السيد » الى ملفه ، فكان لها وقع عظيم عند أصحاب الشأن. وهي أن صاحب معمل «بوظة اتنيبا » في صور ، جاءه في مطلع صيف العام ١٩٦٢ ،يتظلم اليه من أحد صانعي البوظة وهو شيعي ، وقد أشاع أن شيخا كبيرا أفتى بتحريم بوظة المسيحي جوزف اتنيبا ، حتى امتنع الناس عن أكلها بحجة انها « نجسة » ، كما ان هنالك من قال انه اشترى ، مرة ، من هذه البوظة ، فوجد فيها جسما صغيرا كأنه العظم ، ثم تبين له أنه ظفر ،حسبما ادّعى . فتألم « السيد » مما سمعه من جوزف اتنيبا ، واستهجن هذا التصرف غير الانساني ، ووعده خيرا . كان ذلك يوم الجمعة ، واذ جاء موعد الصلاة ، وامتلأ الجامع بالمصلّين ، أمّهم « السيد » ثم ألقى عظة دعا فيها الى المحبة والتسامح والتعاضد ، وعرض لهم قصة صاحب معمل «بوظة اتنيبا » قائلا :

« ان هذا ظلم يجب ألا يستمر . فالانسان أخو الانسان » . وذكّر بالآية : « اليوم أُحِلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم وطعامكم حِلٌ لهم والمحْصَنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبِط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين » [٢٠] .

وعلّق قائلا :

« المسيحي أخو المسلم . كلاهما كتابي . أما أن يظلم مسلم مسيحيا ، فان هذا عند الله أمر غير مقبول . ولن يغفر الله الا لمن يرجع عن معصيته ، والويل ثم الويل للمكابرين والحاسدين والحاقدين والكارهين »

وتلا :

« لتَجدنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربّنا آمنّا فاكتبْنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدخلنا ربّنا مع القوم الصالحين» [٢١] .

وختم « السيد » موعظته فقال :

---

(٢٠) المائدة : ٥

(٢١) المائدة : ٨٢/٨٣/٨٤

« لنتقِ الله اذاً . لماذا ينفر بعضنا من بعض ونحن اخوة في الله والانسانية والوطن ؟! لماذا لا نذهب الى هذا المسيحي المظلوم ونستعذر اليه عما فعله شخص منا أو شخصان أو أكثر باسم الله والقرآن والشريعة ؟ اذا المسلم قاطع المسيحي ، والمسيحي قاطع المسلم تخرب البلاد ،وتقع مذابح ومجازر لا يرضى عنها الله ولا رسوله ولا الأئمة المعصومون عليهم السلام جميعا ...

« أيها الاخوة الاعزاء ،

« ان المسيحي هو شريككم في الارض واللغة والمصير . فأحبّوه يحبّكم ، وساعدوه يساعدكم . ان أكره العباد الى الله من قطع صلته بأخيه أو جاره أو رفيقه» .

هنا ، صاح أحد المصلّين رافعا يده : « الله أكبر . الله أكبر . اللهم صلّ على محمد وآل محمد » .

وخرج من في المسجد ، فيما بقي « السيد » وبعض من مرافقيه الشيوخ والشباب . قال لهم « السيد » : ما رأيكم في مشوار الى (الميناء) ؟ فرد الجميع : كما تريد يا مولانا .

سار « السيد » والرفقاء معا ، فعبروا السوق .ومال هو الى اليسار فمالوا معه . ولما قطعوا شارع تجار الجملة،

وكانت المحلات في معظمها مقفلة ، التفت « السيد » الى يمينه فرأى الرجل الذي كان عنده في الصباح ، يقف أمام محله . وتقدم نحوه مسلّماً عليه ، فاقتاد به الجميع وسلّموا على صاحب البوظة . قال « السيد » لجوزف أتتيبا : هل تُطعمنا بوظة يا معلم ؟ وكم كان جوزف أتتيبا سعيدا اذ سمع « السيد » يطلب منه بوظة . فهبّ الى البرّاد وأخذ يعبىء«الكبايات» بالبوظة المشكّلة والشهية، فأكل « السيد » وأكل الجميع أيضا . ولما مدّ « السيد» يده ليدفع ثمن البوظة ، ضحك جوزف اتتيبا وقال : لا يا سيدي لا تكلّفْ نفسك . انه لشرف عظيم لي انكم ذقتم بوظتي . وسأبقى أعتزّ بهذه البادرة الجليلة والكريمة ما حييت . ولكن « السيد » أبى الا أن يدفع . فأبى مثله صاحب البوظة . وبعد أخذٍ وردّ ، قال « السيد » لأحد مرافقيه : اذن ليكن ثمن البوظة التي اكلناها من عند السيد أتتيبا مساعدة منه لـ « الجمعية » . فاعطه ايصالا بالمبلغ . وسُرّ الجميع بهذا التدبير اللائق واللطيف . وحرّر « كاتب الجمعية » ايصالا باسم « جمعية البر والاحسان » في صور ، وناوله لجوزف ، ثم انصرف « السيد » والرفقاء شاكرين لجوزف أتتيبا عمله الطيّب والنظيف .

وهكذا حلّت عقدة صاحب البوظة المسيحي الارثوذكسي، وما

عاد يغيظه « أبو حسن كرّيت » الذي كان يعلّق البوظة بالخاطوف أو الشنكل ويجول في السوق صارخا بأعلى صوته : « بحاكيكي يا كنّتي تتفهمي يا جارة . هذي البوظة الطاهرة المطهّرة . هذي البوظة المش مغشوشة . ذوق وشوف . هذي البوظة الاسلامية ـ الملوكية » . بل ان « ابو حسن كريت » قد تخلى ، منذ « جمعة جوزف اتتيبا »، عن استفزاز جوزف ، حتى انه نسي ذلك الاسلوب الهجومي الرخيص ، بعد أن واظب عليه طيلة ثلاثة مواسم متتالية .

شهران مضيا على هذه الحادثة ، ووصل صداها الى آخر مكان في لبنان ، وربما الى الفاتيكان أيضا . وأوحي الى الصحف أن تهتم بنشاطات « السيد » ، فكانت «لسان الحال » في الطليعة ، بعد « الحياة » ، ثم « النهار » ، ثم « الجريدة » . ويقال ان محافظ جبل لبنان غالب الترك هو الذي نبّه جبران حايك ، صاحب « لسان الحال » ، الى ضرورة الاهتمام بـ « الشيخ » (السيد) موسى الصدر تقديرا لمواقفه «الرائعة» و « المساعدة » للدولة في الجنوب .

وجاء الى « السيد » في صور ، المطران غريغوار حداد على رأس وفد من « الحركة الاجتماعية » [٢٢] ،

---

(٢٢) نشأت « الحركة الاجتماعية » عام ١٩٥٧ وأخذت
=

فعرّف (المطران) بحركته وأهدافها التي هي : تعبئة أكبر عدد ممكن من المتطوعين والاعضاء للالتزام في الخدمة والعمل الاجتماعي المنظّم في حقول التنمية الاجتماعية الشاملة المتكاملة ، وتنمية الالتزام الاجتماعي لديهم ، واعدادهم نظريا وعمليا للعمل في حقول التنمية الاجتماعية بما فيها الاقتصادية والصحية والتربوية والثقافية ، والبحث عن مواطن النقص في الحقول المختلفة وطرق معالجتها . والعمل على اثارة اهتمام كل المجتمع بالقضايا الاجتماعية والاسهام في ايجاد الحلول لها . والعمل على ايجاد تشريعات اجتماعية مناسبة للبلاد على أساس علمي والسعي لدى المسؤولين لاجل اقرارها . والسعي لتنسيق الخدمات الاجتماعية الموجودة حاليا في البلاد . على أن هذه الحركة ليس لها أية صفة أو نشاطات حزبية أو طائفية [٢٣] .

=
تقوم ببعض الخدمات . في عام ١٩٦١ حصلت على رخصتها الرسمية من وزارة الداخلية . في عام ١٩٦٣ اعترف بالحركة الاجتماعية كجمعية ذات منفعة عامة . في عام ١٩٨٠ أعيد الاعتراف بها كجمعية ذات منفعة عامة .

غاية الحركة هي الانسان والوصول فردا وجماعات الى مجتمع أكثر انسانية وأنسنة . لقد تزامنت هذه الحركة مع وجود بعثة « ارفد » بقيادة الاب جوزف لوبريه الفرنسي ، فاستوحت الحركة بعض المبادىء التي حملها لوبريه على صعيد التنمية الاجتماعية .

(٢٣) منشور الحركة الاجتماعية ١٩٦١-١٩٨٧

فانضمّ « السيد » على الفور ، الى « الحركة الاجتماعية » ، عضوا في مجلسها المركزي المؤلف من ممثلين عن فروع الحركة في كل لبنان ، وعن اللجان الاختصاصية المركزية . الامر الذي فرض عضوية المؤسس والموجّه المطران حداد نفسه ، وذلك للمشاركة الرمزية ، كون مجلس الحركة يعمل بقيادة جماعية ، على طريقة الكوليجيوم (Collegium) ، أي ان كل عضو من أعضائه يتمتع بسلطة مساوية تقريبا لسلطة الآخرين . فأخذ « السيد » يحضر الاجتماعات التي يُدعى اليها ، ويفكر مع الجمعية في كل مشاريعها لكل البلاد ، اذ اختير عضوا في « اللجنة القانونية المركزية » للحركة ، التي ضمت عددا من المحامين والقضاة ، ومهمتها : الدفاع عن المتقاضين ممن لم يملكوا الامكانات المادية ، ودراسة القوانين الاجتماعية في لبنان ، واكتشاف الناقص فيها واقتراح مشاريع قوانين جديدة على المجلس النيابي .

ان انتساب « السيد » الى « الحركة الاجتماعية » فتح أمامه آفاقا واسعة ، ومهّد له الطريق الى الرئيس اللواء فؤاد شهاب الذي نقل اليه المطران يوسف الخوري أحسن الصور وأطيب الافكار عن « السيد » نفسه والدور الذي ينتظره على صعيد الطائفة الشيعية . ومنح الفارعاملي الجنسية اللبنانية على طبق من ذهب ، وقدّمت اليه

التسهيلات من كل نوع ، ودعي الى « الفاتيكان » ، فكانت زيارة موفّقة ومثمرة ، ومن نتائجها انه كسب عاطفة المسيحيين عموما ، والموارنة خصوصا . ولكثرة ما تردد على مؤسساتهم الدينية والاجتماعية ، صار له في الصف المسيحي معجبون كاد عددهم أن يفوق عدد المعجبين به في الصف الشيعي .

برَكة الامير

يرى أحد الكهنة الموارنة أن الرئيس اللواء فؤاد شهاب هو أعمق رؤساء الجمهورية اللبنانية ايمانا وأفقرهم مالا . وباعتقاد هذا الكاهن ، وهو صاحب مكتبة شاملة تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثة آلاف كتاب ، ان المسيحية عنده هي حق والتزام . ولذا فهو غير الرؤساء جميعا ممن سبقوه وممن جاء بعده . وليس عجبا أن يوصف الامير فؤاد شهاب بـ « الرئيس الناسك » على قول الكاهن نفسه . ذلك أن الامير لم يُرَ طوال عهده في أي من محافل البذخ والاستكبار ، بل كان يمقتها ويحتقرها ، الامر الذي لم يستسغه (أكلةُ الجبنة) (Fromagiests) ، وهؤلاء تكتلوا ضده ليعرقلوا مشاريعه التنموية والاجتماعية والاقتصادية التي رمى من ورائها الى تحديث لبنان ، كل لبنان ، وتعزيز الجيش وسائر القوى المسلّحة من « أمن

داخلي » و « شرطة » ، وتطهير الدوائر الرسمية من عناصر
الإفساد والتزوير ثم تحديثها •

وعُرف عن هذا الرئيس المؤمن ، والمتقشف،والمتواضع،
تعلقه بكسروان•اذ ان لهذه المنطقة عنده مكانتها وأهميتها•
وقد أعطاها من قلبه وعقله الكثير الكثير ، ويكفيه انه جعل
من مرفأ جونية الثاني بعد مرفأ بيروت ، وهذا ما أقرته
الأحداث عندما أصبح المرفأ الاول هدفا لبنادق القناصة
ومدافع المتحاربين •

ويمكننا القول ، والكلام لمحدّثي الكاهن ، انفؤاد
شهابهو أول وآخر رئيس لبناني واقعي وعقلاني•فقد عمل في
سبيل تنمية لبنان وتطويره ، والدليل على ذلك المؤسسات
الوطنية التي استحدثها ، مثل : « التفتيش المركزي »
و « الضمان الاجتماعي » و « مجلس الخدمة المدنية »
و « البنك المركزي » ، ولو واصل خلفاؤه طريقه وأخلصوا
لمنهجه في الحكم والادارة ، لما كانت هذه الحرب التي
دمّرت وستدمّر ، على ما يبدو ، آخر أمل لدينا نحن
اللبنانيين •

كلما ذكرنا الرئيس فؤاد شهاب ، لا بد من أن نذكر
« بعثة إرفد » بقيادة الاب جوزف لويس لوبريه
(J. L. Lubret)، ونذكر المونسنيور يوحنا مارون الذي

كان سبب استقدام لوبريه ، وأيضا الشيخ موريس الجميل،
أول من برق في خياله ضرورة التصميم واستثمار كامل
الطاقة المائية في لبنان واستغلالها •

يقول أحد الذين عرفوا الاب لوبريه عن كثب وهو
الاستاذ جبرائيل يونس (مجاز في الاقتصاد ورجل أعمال):

« كان الاب لوبريه رائدا في الاقتصاد اللبناني ،بعد
فرنسوا بيرو (F. Perroux) »•

أضاف يونس :

« رسم الاب لوبريه للبنان سياسة اقتصادية تهدف
الى القضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي والتربوي
في جميع مظاهره » •

وعن مجيء لوبريه الى لبنان قال الاستاذ يونس :

« وصلت آراء الاب لوبريه الى الرئيس شهاب،فاطلع
عليها طلاعة مدققة • وسرعان ما تأثر الحاكم اللبناني
المستنير بهذا المسيحي اللامذهبي الداعي الى « أنسنة
الاقتصاد » ، والعطف على الضالّين والمحرومين والمتخلفين
اجتماعيا واقتصاديا • ولكم كانت سعادة الامير القائد
كبيرة ، عندما قرأ : « المحبة تفترض التخلي عن الامتيازات••

وتحتم المساواة بين الناس » . « التفاوت الاجتماعي بين منطقة وأخرى من الوطن الواحد يثير الفتن ويشعل الحروب الاهلية » . « الديموقراطية هي صفحة سُلخت من الانجيل ولكنها لم تعط جميع معانيها . والشيوعية صفحة سُلخت من الانجيل أيضا ولكنها قرئت بالمقلوب » [٢٤] . وعلى كل فان الرئيس فؤاد شهاب هو أعظم رئيس للجمهورية اللبنانية منذ فخر الدين وحتى يومنا هذا » [٢٥] .

إذا كان يكفي الرئيس شهاب أن يقرأ هذه الكلمات، فيستدعي « بعثة ارفد » لكي تضع له المخططات العلمية والدراسات الميدانية للوطن — الحلم . فما بالك وعنده **الكولونيل اتاتن دان ليه** (Intendant Ley) الذي كان بمثابة ساعده الايمن في تحديث الادارة . فاذا كان الكولونيل ليه فرنسي الاصل ، فان الرئيس شهاب، اللبناني، عارف بالثقافة الفرنسية ، ومطّلع كل الاطّلاع على التيارات الفكرية الانسانية ، صانعة مجد فرنسا الثقافي والفكري ، وعلى أفضل الطرق لفهم قضية الدولة .

ومن جهة أخرى ، يعتبر المطران يوسف الخوري ان

---

(٢٤) من كلمات الاب لوبريه ، حسبما ترجمها الاستاذ جبرائيل يونس .

(٢٥) من مقابلة مع الاستاذ جبرائيل يونس ، في منزله — بانطلياس » ١٩٨٧/٧/١

الرئيس شهاب « رجل دولة من الطراز الاول . كان همه أن يرى لبنان قويا في اقتصاده وقويا في جيشه وقويا في مؤسساته وقويا في علاقاته مع العرب أولا ، والعالم الغربي ثانيا . اذا حُدّث بالاصلاح والانعاش يصغي بفرح المسيحي الحقيقي ، ودائما اذنه على « الجدار الحياتي » للبنان . فلا يمكنه الا أن ينظر الى التباين الاجتماعي بين منطقة وأخرى ، وبين طائفة وطائفة . جاء الى الحكم من المؤسسة العسكرية ، فظلّ مرفوع الرأس ونظيف الكف. فلا ساير فريقا على حساب فريق ، ولا استهان بمطلب حق أياً كان الطالب . وما من مسألة عُرضت عليه الا نالت حقها من الدرس والمراجعة والتحقيق . لقد كان بوده أن لا تبقى قضية عالقة أو ضائعة أو مجهولة .. والأهم من كل شيء ، في نظر الرئيس شهاب ، كان هو الصدق، والصدق فقط » [٢٦] .

الكثيرون شهدوا للرئيس فؤاد شهاب وترحّموا

---

(٢٦) من مقابلة مع المطران يوسف الخوري ، في منزله — بسهيلة — كسروان ، ١٩٨٧/٦/٢٧

يُذكر أن كمال جنبلاط وجورج نقاش وكمال بيضاوي والشيخ خليل الخوري والاب عبدالله داغر اليسوعي ومحمد اليافي قد شهدوا للرئيس الامير ، اثر وفاته ، بما يؤكد رأينا وآراء من ذكرنا . انظر « الاسبوع العربي » العدد ٧٢٥ ، تاريخ ١٩٧٣/٤/٣٠

عليه وعلى عهده الذي كان مختلفا عن العهود السابقة واللاحقة . فهل من أمل ، بعد ، بفؤاد شهاب جديد ؟

ان صورة هذا الرئيس « القديس » و « الصامت » و « الاصلاحي » ، ما زالت تتصدّر صالون منزل النائب البعلبكي ـ الهرملي السابق ، الشيخ فضل الله دندش،في « البزة » ـ قضاء عاليه ، وفاء للقائد والرئيس و« الأب» و « الأخ » و « الصديق » . فمن تأمل فيها وأدرك معالمها وخطوط طولها وعرضها ، ظهرت له « الحقيقة اللبنانية»التي جاءت معه وغابت بغيابه .

ربما لم يبق من « الشهابية » سوى الذكريات.ولكنها، في الواقع ، باقية ملء وجدان الشهابي المستقيم الوزير السابق فؤاد بطرس والشهابي النائب رينيه معوض وغيرهما ممن آمن بعدالة الامير ونزاهته وصدقه واخلاصه للانسان والارض . فهلاّ تغيّرت الظروف والاحوال ؟!

في ظل هذا الرئيس المميّز ، كان « السيد » يتحرك بسرعة هائلة . وكأني بكليهما : الامير و « السيد » ، قد علم أن ساعة الحظ لا تتكرر ، وأن الشمس ، وإنْ هي تطلع كل يوم ، انما يجب الاستفادة منها وانها تطلع للمرة الاخيرة . وخاف أعداء الاصلاح الشهابي ، وهم كثيرون أيضا ولا سيما المسلمون منهم ، على مراكزهم ومصالحهم

وامتيازاتهم ، فذرّوا الرماد في وجه « السيد » وأطلقوا التهم من كل جانب ولون . قال أحدهم : ان الرئيس شهاب و « السيد » الصدر يتآمران على « وحدة المسلمين » و « وحدة الصف الوطني » ؟! وقال آخر : أراد الرئيس شهاب أن « يؤدب » كامل الاسعد وبعض الزعماء الشيعة فابتدع مشروعا شيعيا اسمه : موسى الصدر ؟! ورأى فريق من السنّة أن اهتمام الرئيس شهاب بـ « السيد» يستهدف « الكيان السنّي » وعلى الأخص : « المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى » ، الذي « نصّ عليه المرسوم ١٨ تاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٥٥ » [٢٧] ، و « مؤسسة الافتاء »،وتحديدا منصب مفتي الجمهورية اللبنانية ، الذي هو « الرئيس الديني للمسلمين ، وممثلهم بهذا الوصف لدى السلطات العامة»[٢٨]، و « الرئيس المباشر لجميع علماء الدين المسلمين ، والمرجع الاعلى للاوقاف الاسلامية ودوائر الافتاء » [٢٩] .وذهبتْ، الى أبعد من هذا وذاك ، الاحزاب والحركات السياسية ، فحملت على « السيد » بشدة واصفة اياه بـ « العميل

---

(٢٧) الدكتور حسين القوتلي : لبنان بين العروبة والاسلام، مطبوعات المركز الاسلامي للاعلام والانماء ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م. ص ٧٣

(٢٨) القوتلي ، المصدر نفسه ص ٨٥

(٢٩) القوتلي : المصدر نفسه .

الاميركي » ، والبعض اعتبره « رسول » الشاه لاثارة النعرات الطائفية في الوطن التعددي ــ لبنان ؟!

والذي آلم « السيد » اكثر مما تقدم أن عددا من اخوانه في المذهب والعقيدة ، « علماء » الشيعة ، كانوا أشد من أهل السياسة وأصحاب الاحزاب عليه • فمن الشيخ موسى عز الدين الى الشيخ حسين الخطيب الى السيد علي مهدي ابراهيم الى الشيخ محمد جواد مغنية الى الشيخ محمد تقي صادق وابنه الشيخ جعفر ، الى السيد هاشم معروف الحسني ، الى الشيخ عبدالله نعمة ، الى الشيخ محمد زغيب ، والكلام على « السيد » يجرح في العمق العميق ، ويؤذي حتى الشرف والسمعة والكرامة •

وكما قيل عن الرئيس الامير انه « تخلّق بأخلاق المسلمين » ، كذلك قيل عن « السيد » انه « تخلّق بأخلاق النصارى » •

والحقيقة أن لا الرئيس « الصعب » ولا « السيد » ، « ذو الخفة » ، كانا يستحقان اللوم والتثريب والطعن في الظهر •

لنستعرضْ ما كتبه الصحافي الجنوبي الشيعي كامل مروة ، في ثلاث افتتاحيات من جريدته « الحياة » في أول

سنتين ، من عهد الامير ، ومن ثم نحكم على علاقة « السيد » بالأمير وجهاز مخابراته : « المكتب الثاني » •

ففي ١١ كانون الاول ١٩٥٩ ، كتب كامل مروة تحت عنوان : « حوادث الجنوب » يقول :

« ما يزال الجنوب دون سائر المحافظات اللبنانية ، مسرحا لاصطدامات حزبية وأمنية ، ومنازعات تسمم حياة الاهلين ، واعتداءات فردية على الآمنين ، فضلا عن حوادث نهب وسرقة وعصابات ، الخ » •••

أضاف :

« ورب قائل ان الحزبيات السياسية عريقة في الجنوب ، وان الحوادث الجارية ليست من عواقب الثورة ، وانما هي تعبير طبيعي عن أوضاع موروثة • هذا الجواب الذي نسمعه في بعض الدوائر ، بعيد عن الواقع • فالحفاظ على الامن والقانون وحقوق الناس هو قبل كل شيء ، من واجب السلطة الحاكمة ، وهي المسؤولة ــ والقادرة ــ على منع تلك الاضطرابات ، فاذا لم تمتنع فلعلّة •

« ولا نعلم أن العهد القائم يقول بتسخير سلطة الدولة في خدمة جانب ضد آخر ، وفي اشغال الناس بعضهم ببعض حتى نعتبر هذه الحوادث « تعبيرا طبيعيا » عن ارادة

الدولة • من أجل ذلك نرى من واجبنا مطالبة الحكومة بتحمل مسؤوليتها،واعارة هيبة الحكم المزيد من الاهتمام»•

وقال :

« ولا نستطيع عند بحث الموضوع أن نُسْقِط مسؤولية زعماء الجنوب أنفسهم من الحساب ، فاما أنهم لم يتعلموا شيئا من تجارب الامس ، ومن التطورات التي تعصف اليوم بالشرق العربي ، أو انهم فقدوا سلطانهم على أنصارهم وجماعاتهم ، وفي الحالين يتناولهم الخطر كما يتناول سواهم •

« وهناك نظرة أخرى يجب التنويه بها • لقد اعتاد علماء الدين في الجنوب أن يقوموا بدور كبير في تهدئة الامور ، وكبح الزعامات المتناحرة ، خاصة عند تأزم الحال• أما اليوم فاننا لا نجد لهم أثرا في الحياة العامة • فبقية السلف الصالح منهم ، والناسجون على منواله،منكمشون على أنفسهم في عزلة لا مبرّر لها • والآخرون تحوّلوا الى طلاب وظائف ، وملاحق حزبيات ، ودعاة عقائديات ومهاترات لا تشرّفهم ولا تمتّ بصلة الى المهمة التي زعموا أنهم نذروا أنفسهم لها ـ يوم اعتمروا عمة الورع والصلاح !»

وقال كامل مروة أيضا :

« ان الجنوب لا يخلو ، رغم هذه الاوضاع التي فرضت على الكرام أن يعتزلوا ، من أفاضل يستطيعون اذا ما تكتلوا ، أن يقوموا بدور نافذ في جرّ كبار المتنازعين الى هدنة ما ، تضع حدا لهذه المنازعات العقيمة ، التي لن يحصد حصيلتها غير الهدامين والأغيار • ومن الصعب علينا أن نطلب الى الغرباء أن يتدخلوا ، قبل أن يقوم ذوو المنطقة وشبابها بالحد الادنى من واجبهم » (٣٠) •

وفي ٢٨ كانون الثاني ١٩٦٠ ، كتب كامل مروة،تحت عنوان : « مرسوم زراعة الدخان » يقول :

« مما لا ريب فيه أن زراعة الدخان في لبنان كانت بحاجة الى تنظيم يضمن فيها العدالة الاجتماعية ،ويحررها من معايب الحياة والمحسوبية ، والسمسرة والتلاعب،التي تفعل فعلها فيها منذ الاستقلال • من أجل ذلك ، قامت الضجة على المرسوم الاخير ، اذ تجاوز المفروض فيه تجاوزا مريبا » (*٢) •

---

(٣٠) كامل مروة : « الحياة » ١١ كانون الاول ١٩٥٩،العدد ٤١٨٣

(*٢) ان أهم ما جاء في مرسوم تنظيم زراعة الدخان الجديد، وقتذاك،هو الغاء الاجازات الدائمة وجعلها سنوية.والمعروف =

أضاف :

« ان الغاء الحقوق المكتسبة الغاء شاملا هو اعتداء على حرية المواطنين ، يتنافى مع روح الدستور،مع النظام الاجتماعي الذي نعيش فيه ، خاصة أن الحكومة تريد أن تعيد توزيع هذه الحقوق مرة كل عام ، في زراعة ليست سنوية التجهيز ، بل تحتاج أرضها الى عناية متواصلة ، الامر الذي يجعل المرسوم ضربة قاصمة للاقتصاد الاقليمي في الجنوب ، ويضع مزارعي الدخان تحت رحمة القدر عاما فعاما » .

ويقول كامل مروة :

« واذا كان المرسوم يستهدف العدالة الاجتماعية ، كما تدّعي الحكومة ، فما أهون ما تستطيع تأمينها دون تعميم القلق والفوضى في الزراعة كلها . يكفي أن تعيّن

=

ان اكثر اجازات زراعة الدخان عمرها عشرات السنين،وان بعضها موروث أبا عن جد ، فجاء القانون الجديد يطرح مصيرها على صعيد البحث عاما فعاما ، الامر الذي يفتح الباب للتلاعبات والمداخلات على مصراعيه ، ورأى البعض في ذلك محاولة من الدولة لنقل زراعة التبغ من « الجنوب المحروم » الى مناطق لبنان الاخرى . (كما وردت في حاشية افتتاحية كامل مروة) .

الحكومة الحد الاقصى من الدونمات ، وأن تستعيد الفائض عنه بصورة تدريجية ، أو أن تفرض على صاحب الزيادة ،توزيعها على أهل منطقته . وفي استطاعة الحكومة أيضا أن تستبقي المساحات الراهنة على حالها ، مع فرض ضريبة تصاعدية على المساحات الزائدة عن رقم تعيّنه .

« أما أن تهدم الحكومة بشطحة قلم ، جهود ربع قرن في الجنوب المحروم ، دون أية ضمانة أو تعويض ، فاعتداء صريح لا يمكن قبوله » .

وقال أيضا :

« ولنذكّر الحكومة ان اساءات التوزيع لا تقع على المزارعين ، بل كانت تدور في الحلقات اللصوصية والنفوذ، عند توزيع الاجازات . وقد باع حملة الاجازات إجازاتهم في حينها ، ودفع ثمنها المظلومون الفقراء ، الذين تنادي الحكومة اليوم بانصافهم ، انصافا غريبا ، عن طريق إلغاء مساحاتهم ، في حين ان تجار الاجازات قد نعموا بأثمانها، ولن يصيبهم أذى أو قصاص !

« لقد كان الجنوب يتوقع أن تنقل الدولة اليه جزءا كبيرا من مصانع الريجي حتى تشتغل فيه اليد العاملة الموفورة ، بدلا من نقل انتاجه كله الى مراكز لا تنقصها

أسباب الرزق . فاذا بالمرسوم يحمل اليه ظلامة جديدة تزيد في حرمانه من أسباب الرزق . واننا لنستغرب كيف صدر مثل هذا المرسوم في عهد يبني أعماله على الخبراء الاختصاصيين ، فجاء يناقض كل خبرة واختصاص !

« اننا نتوقع من الحكومة اعادة النظر في المرسوم ، لإزالة عوامل القلق والريبة والازعاج فيه ، ولا شك في انها فاعلة »[٣١] .

ويحدثُ أن تقوم « الحركة الاجتماعية » بمشروع تعمير قرية « تفاحتا » في الجنوب ، على يد أربعين متطوعا من الحركة ، فيعتبره كامل مروة « مشروعا جليلا ، يستحق القائمون به أجزل الشكر وأكبر التشجيع »[٣٢] . وفي ٢٧ تشرين الاول ١٩٦٠ يكتب تحت عنوان : « يحكمون ... بالنظارة » فيقول :

« دعا نائب صور السيد جعفر شرف الدين زملاءه النواب الى زيارة بلدة صور ، ليشاهدوا بأعينهم البؤس الذي تعيش فيه .

(٣١) كامل مروة : « الحياة » ٢٨ كانون الثاني ١٩٦٠، العدد ٤٢٢٢

(٣٢) كامل مروة : « الحياة » ١٠ أيلول ١٩٦٠ ، العدد ٤٤١٦

« ولو سمع أجنبي بهذا الاقتراح لاستغربه، فصور لا تبعد أكثر من سبعين كيلومترا عن العاصمة ، أي بُعد الضواحي عن أية عاصمة كبرى ، والسيارات تملأ لبنان، فكيف يجهل من في بيروت أحوال صور ؟»

أضاف :

« ولكن هذا هو من الواقع ، وهو أغرب الوقائع في العالم كله . وهل أغرب من أن يكون حكام بلد جاهلين له ؟ »

وقال أيضا :

« في أسبوع واحد ، يستطيع المرء زيارة كل بلدة في الجمهورية اللبنانية . وفي شهر يستطيع التطواف على كل المحافظات . ومع ذلك فاننا نستطيع أن نؤكد لك بكل ثقة أن ٩٩ بالمئة من المسؤولين والنواب لا يعرفون أكثر من دوائرهم ، ومنهم من لا يتعرف عليها الا مرة واحدة في شهر الانتخابات »[٣٣] .

ألم ينشد هذا الصحافي الجنوبي (الشيعي) ايضا الاصلاح والتنمية لمنطقته وسائر لبنان ؟

(٣٣) كامل مروة : « الحياة » ٢٧ تشرين الاول ١٩٦٠، العدد ٤٤٦٣

لماذا يحق للصحافي كامل مروة الكلام على الجنوب ومآسيه ولا يحق لـ « السيد » ؟ مع انني أشك في أن يكون القائمون على الجنوب ، وخصوصا « العلماء » منهم قد وصلت الى آذانهم هذه الافتتاحيات الثلاث .

وعلى كل ، عندما يقرأ الرئيس المؤمن والمصلح، الامير فؤاد شهاب ، هذه النداءات من جنوبي ، خبير ومعروف، كيف لا يأخذ برأي المطران يوسف الخوري وتوجيهاته الرامية الى الاهتمام بـ «السيد» موسى الصدر، الحريص، حتى ذلك الوقت ، كل الحرص ، على توطيد الامن واحترام الدولة وسيادتها ؟

لقد أعطى « السيد » الدولة مما عنده ، وما أكثر ما عنده ، فدعاه الامير الرئيس اليه (*٣) ، ومنحه البركة،

(*٣) حدثني الشيخ فضل الله دندش قال : ان أول زيارة قام بها « السيد » الى الرئيس العظيم فؤاد شهاب كانت على يدي . وفي بادىء الامر ظهر « السيد » خجولا ، وبعد التعارف ، أخذا (الرئيس و « السيد ») في الحديث ، حتى شملت الجلسة موضوعات فكرية وفلسفية ، فكشف «السيد» عن براعة في الكلام وفهم عميق للمسائل الكبرى ، فأعجب به الرئيس أيما اعجاب ، وقال لي : يا فضل الله ، لو كان عند المسيحيين مثله لجعلوا منه قديسا. يجب أن نمد هذا الرجل بمختلف الوسائل والامكانات (من مقابلة معه في منزله – بالبرزة ، ظهر ٢٢ تموز ١٩٨٧) .

وشدّ على يده قائلا له : أتمنى ألا يبقى في لبنان كله محروم بعد اليوم (*٤) .

وخرج « السيد » من عند الامير ، حاملا « اكليل الغار » ليعلّقه على بوابة الجنوب ، ولو كره الحاسدون.

القمر الدوّار

كان لبركة الامير أكبر الاثر عند « السيد » الذي أدرك بذكائه وفطنته أن لا بد من كسب رضا السلطة ، والانفتاح على المسيحيين ، وبخاصة الموارنة منهم . وأدرك في الوقت نفسه أنه كلما اقترب من الدولة والمؤسسات المسيحية ، اتسع الشقاق بينه وبين « الصف الوطني والاسلامي » . غير أنه ، على ما يظهر ، استعجل الوصول، أو هو رأى أن الفرصة باتت ملائمة ، وليس من الحكمة التأجيل أو التأخير أو التهاون .

لأن « السيد » وُلد ونشأ وتعلم في بيئة فارسية ، يصح فيه ما قاله السيد جون شاردان (١٦٤٣ – ١٧١٣)

(*٤) يدعونا الواجب الى التذكير بأهمية الدراسة التي أعدها الدكتور خليل الجزائري وعنوانها : « نقد نظرية ثلاثية « أركان » الدولة في مرجع القانون الدستوري العربي » – مجلة الطريق ، العدد الرابع – ايلول ١٩٨٧ ، ص ص ١٧٦ – ١٩٨ ، فكأن الدولة التي يدرسها الدكتور الجزائري هي عينها الدولة التي سعى الى انشائها الامير فؤاد شهاب .

في وصفه الفرس ، بعد رحلة استطلاعية قام بها الى بلاد فارس ، وعاد بأغنى مصدر استقت منه أوروبا في ذلك العصر المعلومات الصحيحة والدقيقة عن تلك البلاد .

قال شاردان :

« للفرس روح لا تقل عن جسمهم جمالا وروعة ، وخيالهم متوثب ، سريع ، سلس . وذاكرتهم طيّعة خصبة . ولهم قابليات كثيرة للعلوم والفنون الجميلة والفنون التطبيقية . وعندهم استعدادات كثيرة للحرب والقتال . وهم يعشقون المجد ... انهم ينظرون نظرة فلسفية عميقة الى خير الحياة وشرها ، والى الامل في المستقبل والخوف منه . لم يفسدهم البخل ، فهم لا يريدون من جمع المال الا انفاقه ، وهم يحبّون التمتع بالحاضر ، ولا يمنعون شيئا يستطيعون منحه ، فهم لا يخشون المستقبل ، وانما يتوكلون على الله وما قدّر لهم ... » (٣٤) .

فمن الطبيعي أن تلقى هذه المزايا التي استجمعت للفارعاملي موسى الصدر ، لدى المسيحيين ، لا المناخ المؤاتي فحسب ، بل التجاوب والارتياح وحسن المعونة . وهنالك ميزة أخرى لم يلحظها أحد ربما ، قد حازها الفارعاملي ،

---

(٣٤) ذكره سليم واكيم في كتابه : « ايران في الحضارة » (لمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس الامبراطورية) طبعة ١٩٧١ ، لا ذكر للناشر ، ص ١١٢

وبفضلها استطاع أن يرسّخ علاقاته مع عدد غير قليل من المثقفين المسيحيين ، ورجال الإعلام ، ألا وهي « الحس الصحافي » ، المتمثل بالسبْق والتأمل والاستكشاف . وقد ظهرت علينا ، أول ما ظهرت ، فيما كنا نقرأ تصديره لمحاضرته : « الاسلام وثقافة القرن العشرين » التي ألقاها في الندوة اللبنانية يوم ٢٤ أيار ١٩٦٥ ، ونشرها « معهد الدراسات الاسلامية » في صور . وتحققنا من وجود هذه الميزة لدن قراءتنا كلمته التأبينية في الصحافي كامل مروة الذي اغتاله أحد « الناصريين » البيارتة في أواخر أيار ١٩٦٦ . وتعزز اكتشافنا هذا أكثر فأكثر عندما علمنا أنه كان يصدر ، في قم ، مجلة دينية كبيرة اسمها : « مكتب اسلام » أي المدرسة الاسلامية .

ففي مقدمته للمحاضرة التي سبق ذكرها ، كتب الفارعاملي يقول :

« في مطلع السنة الماضية (١٩٦٤) طلبت الندوة اللبنانية (أسسها المرحوم ميشال الاسمر) اليّ أن ألقي فيها محاضرة بعنوان « الاسلام وثقافة القرن العشرين » ونزلت عند رغبة مؤسس الندوة فلبّيت الطلب حيث وجدتُ أن في هذا البحث الشيّق دلالة واضحة على فاعلية الاسلام في هذا القرن وبرهانا على خلوده » .

أضاف :

« ومنبر الندوة اللبنانية من أهم منابر الشرق العربي، يتكلم فيها كبار رجال الفكر والفن والسياسة في العالم ، ويستمع الى محاضراته رواد العلم والباحثون عن الحقيقة، إما بحضورهم الندوات أو الاستماع الى موجزها بواسطة الاذاعة اللبنانية ، أو يقرأونها في مجلة الندوة أو على صفحات المجلات والصحف .

« ولهذا فان المحاضر في الندوة يجد أمامه آذاناً صاغية وقلوبا متفتحة وعقولاً ناقدة ، كما يجد نفسه بين طبقة من قادة الفكر والمثقفين ».

وقال :

« وكان لهذه المحاضرة طابع جديد جعلها من الدقة والحساسية بمكان . فقد كانت حلقة من سلسلةمحاضرات « المسيحية والاسلام في لبنان » التقت فيها مع محاضرة أخرى ألقاها عميد الكلية الطبية الفرنسية فرنسوا دي بري لاتور وعنوانها « المسيحية والعلم الحديث » .

« والغرض من هذه السلسلة التي نظّمتها الندوة اللبنانية أن يستمع الجمهور الى أبحاث منوّعة من نتاج الفكر الاسلامي والفكر المسيحي ، يتحدث عنها رجال العلم والفكر الملتزمين من كلتي(كذا)الديانتين ، فيتعرف الدارس الذي يعنى بهذه الشؤون على هذه الابحاثتعرّفاً

حقيقياً ويتكوّن نوع جديد من تاريخ الملل والنحل يفوق الطريقة القديمة دقة وعمقاً واتزاناً » (٣٥) .

اذاً ،كان الفارعاملي يبحث عن منبر مسموع ومقروء، فلما توصّل الى منبر « الندوة اللبنانية » ظهر وكأنه قد اختصر الزمن ، فظل قريبا منه ، بل هو جعل صاحب هذا المنبر ، ميشال أسمر ، من خاصته ، فأفاد كل منهما الآخر افادة عظيمة . فهل كان الفارعاملي سيفعل هذا ومثله لو لم يكن موهوبا ذلك « الحس الصحافي » المرقّق الحد والصائب ؟

وفي يوم كامل مروة قال :

« رحمك الله يا أبا جميل ، لقد كنتَ عبقرياً فذاً في موتك ، بعد أن كنت عبقريا فذا في حياتك .

« متّ وأنت في ساحة الصحافة ، ووقعت صريعا في محرابها » .

وخاطب الجماهير الزاحفة الى « الزرارية » ــ قضاء الزهراني ، مسقط رأس الشهيد ، قائلا :

« ان الصحافة أيها الاخوان محراب لعبادة الله وخدمة الانسان .

---

(٣٥) منبر ومحراب : ص ص ٥٩/٦٠.

« واذا لم تقم بواجبها فهي مخدع للشيطان وخراب الانسان . الصحافة من أهم ميادين الصراع وأدقها لانها هي التي تكوّن الرأي العام ، وهي التي تساعد على خلق الثقافة،وتهيىء غذاء الارواح،وتخلق مراحل جديدةلتطور الروح ، وهي التي تهذب العاطفة في الجماهير ، وتوجهها الى الخير والحق ، والصحافة بمراقبتها وتوجيهها للمجتمع وأعمدة المجتمع ، بتوجيهها للدولة والحكومة والمؤسسات، وبمساهمتها في تنظيم الاقتصاد انما تنظم مجتمع الانسان ، تنظم بيئة الانسان ، فهي خادمة للمجتمع والانسان والفرد معا ،وعلى هذا فانها دعامة من دعامات تكريم الانسان»[٣٦] .

ويمضي الفارعاملي في الكلام على الصحافي وأهميته فيقول :

« ان الصحفي (*٥) يستطيع خلق المجتمع الصالح، فهو حينما ينشر مقالة أو يكتب تعليقا أو ينشر صورة أو يبرز عنوانا أو يفسّر حدثا فانما يهدف بعمله الى توجيه الفرد وتوجيه المجتمع وبامكانه أن يكون أباً مرشدا

---

(٣٦) منبر ومحراب : ص ٦١

(*٥) وردت هكذا في كل الكلمة التأبينية . وهي خطأ . والصواب : الصحافي . وقد صححنا الخطأ حيث تكرر من دون الاشارة اليه ، فاقتضى التنويه .

مخلصا ، وموجهاً حكيما ، كما ان بامكانه أن يكون خائنا أو مضللا أو محرّفا للكلام عن موضعه » .

أضاف :

« الصحافة ، أيها الاخوان ، من أهم الميادين ، ومن أهم عوامل تكوين الانسان المدني . وهذا المقام العظيم للصحافي يفرض عليه واجبات نحو المجتمع ، ويعطيه حقا على المجتمع . ان واجبه نحو المجتمع أن يخلص توجيهه وتنويره ونصحه ، ولكن حقه على المجتمع هو أن يعطيه الحرية ، ويصونه ويحميه »[٣٧] .

ولكن لا صحافة بدون حرية،أو كما يقول الفارعاملي:

« والحرية ، ايها الاخوة ، هي أفضل وسيلة لتجنيد طاقات الانسان كلها . ولا يستطيع الفرد أن يخدم في مجتمع لا تسوده الحرية ، ولا يستطيع أن ينطلق بطاقاته، وينمي مواهبه ، اذا أعوزته الحرية . والحرية هي اعتراف بكرامة الانسان ، وحسْن الظن بالانسان ، بينما عدم الحرية اساءة ظن بالانسان ، وتقليل من كرامة الانسان».

و « الحرية هي حق للصحافي من المجتمع الذي يعيش

---

(٣٧) منبر ومحراب : ص ٦١

فيه . انها خدمة له ليعمل ، وهي خدمة للمجتمع ليعرف كل شيء ، وهي بعكس ما يقال لا تحدّ أبدا ، لا نهاية لها، انها هي الحق ، انها من الله ، واذا أردنا أن نحدد الحرية فنقول انها هي تحرير الغير ، وتحرّر من الشهوات ، وتحرر من الناس ، لان الحرية التي تصطدم بحرية الآخرين عبودية للنفس ، ومتابعة للشهوات . الحرية جهاد ، انها الجهاد الاصغر الذي عناه النبي الكريم ، انها جهاد الأجنبي، وجهاد النفس في التحرر من الشهوات ، ليكون رأي الصحافي ناصحا ، صادقا ، صافيا . فحق الصحافي على المجتمع أن يؤمّن الحرية له ، ويوفّر له الاطمئنان لئلا يقع تحت مغريات وضغط مختلف الالوان » [٣٨] .

وفي أروع دفاع عن أمن الصحافي وسلامته وحقه في القول والتعبير والمعتقد ، قال الفارعاملي :

« الصحافي ، ايها الاخوان ، لا يهان ، لا يحارَب بالضغط ، الصحافي لا يحارَب بالفقر ، الصحافي لا يُغتال.

« الاغتيال أسوأ الاساليب وأفشلها في خدمة الهدف، أي هدف كان . كان رسول الله يقول : الايمان قيد الفتك، ويقول : المسلم لا يَغدر ، مهما كان عوض الغدْر . ان مسلم بن عقيل [٣٩] امتنع في الكوفة من اغتيال عبيدالله بن

(٣٨) منبر ومحراب : ص ٦١

(٣٩) هو ابن عم الحسين بن علي بن أبي طالب ، ورسوله الى الكوفة ، توفي سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م .

زياد [٤٠] ، رغم أنه كان بامكانه اغتياله في بيت ليس فيه أحد ، امتنع مسلم عن الاغتيال ، وتحمّل مسؤوليات كثيرة وتتائج فظيعة بما فيها قتْلُ الحسين . ان الغاية لا تبرر الاغتيال مهما كانت الغاية عظيمة » .

وتابع الفارعاملي يقول :

« الغدر جريمة في الدين ، جريمة عند الضمير ، جريمة في منطق السياسات .

« الاغتيالات تعكس على المجتمع نتائج خطيرة لا يمكن حصرها ، فالخلافة الاسلامية التي كانت رسالة نور ورحمة ، وخدمة وتفاعلا مع الشعب ، وتحمّلا لكافة المسؤوليات ، هذه الخلافة النيّرة الموجّهة ، ضعفت بعد الاغتيالات التي أصيب بها رجالها الكبار ، وفي مقدمتهم الامام علي في محرابه ، هذه الاغتيالات بدّلت وجهة الخلافة عن الطريق السليم » [٤١] .

(٤٠) هو عامل الامويين في العراق . اعتقل مسلم بن عقيل وقتله . اصطدم جيشه مع انصار الحسين بن علي يوم كربلاء الذي قتل فيه الحسين ٦١ هـ / ٦٨٠ م . مات عبيدالله في معركة الخازر في شمال العراق التي جرت بينه وبين ابراهيم بن مالك الاشتر قائد جيش المختار الثقفي .

(٤١) منبر ومحراب : ص ٦٢

وكأني بالفارعاملي قد عرف آنذاك أن حاكما عربيا « طائشا » (Inconsiderate) سيأمر ، بعد اثني عشر عاما وثلاثة أشهر ، باخفائه وقتله ، فقال منددا ومحذرا :

« لقد دخل الخليفة المقصورة واحتجب عن الناس ، فتحولت الخلافة الى ملكٍ عضوض ، وتحوّل الحاكم الى مالك ، وتحوّل بيت مال المسلمين الى خزانة الحاكم،وتحول الجيش المدافع عن الوطن الى الحرس الخاص بالحاكم . فالاغتيال يبعد الحاكم ، ويبعد القادة ، ويبعد المخلصين من الشعب ، وفي هذا الاحتجاب يكون الخطر الاساسي على المجتمع ، لان الحاكم لا يطّلع الاطّلاع المباشر على الناس، ولا يسمع شكـواهم ، ولا يهدي ضالهم ، ولا يقـوّم معوجّهم ، فيقع في حاشية يتملقون له ، ويصبح سجينا لهم، ويبتعـد عن الذين يمحّصون أخطاءه ، فينحرف ويطغى ويستبد » .

وقال :

« هذا الاحتجاب يخلق جوّاً من الاوهام في نفوس الشعب ، فيظنون الحاكم من بضاعة غير بضاعتهم،ويسيئون الظن به ، ويجعلونه صنما يعبدونه من دون الله ، وفي كلا الحالين تكون الثقة معدومة ، وفي ذلك تحقير للمواطنين ، واعتبار أنهم محكومون ، وأن الحاكم هو السيد ،وفي كلا

الحالين انحراف ، وجميع هذه المآسي وردت في عهد الامام علي عليه السلام لمالك بن الاشتر ، حينما منعه من التحجب عن الناس » [٤٢] .

وقبل أن يطلب الفارعاملي الرحمة للفقيد دق ناقوس الخطر ، ورسم صورة للمستقبل قاتمة يائسة ، فقال :

« الاغتيال ، أيها الاخوة ، ظاهرة اجتماعية خطرة ، لانها تمنع الشعب من التفاعل مع قادته ، وهي ظاهرة خطرة لان المحاكمة والحكم والتنفيذ تكون في شخص واحد،قد يكون مخطئا ، فاذا انفتح هذا الباب فلا يمكن للمجتمع ان تسوده العدالة .

« وان من الواجب على حماة المجتمع لو كان في المجتمع حماة ،ان يعالجوا ظاهرة الاغتيال علاجا قطعيا جذريا» [٤٣] .

ولكن أحـدا لم يسمـع ، فاستمـرت الاغتيـالات والاعتداءات على الحريات ، حتى وصلت بنا الـى حرب مسعورة لن ينتصر فيها سوى الموت والدمار .

صحيح أن الفارعاملي في رثائه كامل مروة ، لم يكن

---

(٤٢) منبر ومحراب : ص ٦٢/٦٣
(٤٣) المصدر نفسه : ص ٦٣

« منهجيا » تماما . ولكن الصحيح أيضا أن الفارعاملي قد رثا الصحافة كلها ، والحرية ، والمجتمع .

ان الانسان الصحافي ، في الفارعاملي ، هو الذي رثا لا كامل مروة فحسب ، بل صديقه النقيب رياض طه وصاحب « الحوادث » سليم اللوزي وكل صحافي شهيد أيضا ، اذ رثا نفسه قبل أن يخرج العقيد القذافي من « رحم » السياسة الصحراوية الليبية المالحة التي لا تعرف الوفاء أو هي كثيرة الخصومات .

لقد أردنا أن نبيّن « صحافية » هذا الاجتماعي : الفارعاملي الذاهب ركضا الى الامامة والسياسة ، لنبرهن على حاجته الماسّة الى المسيحيين ، أساقفة وكهنة ، أدباء وشعراء ، محامين وأطباء ، سياسيين ورأسماليين ، صحافيين وضباطا ، وهؤلاء جميعا أدركوا حاجتهم اليه ، فعلّقوا عليه الآمال ، واعتبروه « رمز خدمة المسيحيين والالفة بين جميع الطوائف اللبنانية » على قول النائب المحامي اوغست باخوس [٤٤] . بيد أن القلق الذي غالب الفارعاملي ، بكل سماته وطاقاته ، كان هو محرّك السفينة ، والذي حرّم عليها الاستقرار في كل الشواطىء والمرافىء .

---

(٤٤) من مقابلة مع الاستاذ اوغست باخوس يوم ١٤/٧/١٩٨٧ ، في مكتبه الكائن في شارع مار يوسف .

قال عنه أحد مرافقيه من المحامين الشيعة ، البعلبكي الاستاذ نجيب جمال الدين :

« وامتصّت النشاطات المختلفة كل أوقات السيد ...

« فلقد يُرى في هذا الصباح يدرّس في ساعة مبكرة ، قبل الدوام المعتاد بساعة أو ساعتين ، في المعهد الاسلامي في صور ، وطلابه يناقشونه في البكور .

« ثم يُرى في العاشرة يشترك باحياء ذكرى أحد رجال الخير في الغازية (قضاء الزهراني) .

« وتكون الساعة الخامسة والسيارة تتسلق بنا الجبال ، عند ذرى عاليه ، لان الشباب في القماطية (قضاء عاليه) ، ينتظرون السيد لافتتاح نادٍ هناك ، وهو لا يستطيع الا أن يكون بينهم ، اذ كان وجوده يزيد من اندفاعهم ، ويلهب حماستهم .. الساعة صارت السابعة ، ونحن في رمضان ، وقد أفطر الناس الخامسة . ويقول لي : يا أستاذ ، طالما انها على كل حال أكلة واحدة ، في اليوم .. والشباب في نادي الجامعة الاميركية ، وقد دعوا للمحاضرة ، وهيأوا لها ، وهي لن تزيد قطعاً عن الساعتين ، مهما تكاثرت الاسئلة ، وتشعبت .. ننهيها ثم نأكل .. »

أضاف جمال الدين :

« الخلاصة ، أفطرنا رمضان في العاشرة ...

« الذي يرافق السيد يتعب ...

« كثيرون يقولون انهم لا يتعبون .. أما أنا بصراحة فأتعب !..

« طرابلس تحتاج الى قاضٍ شرعي يفصل في قضايا الاحوال الشخصية للطائفة هناك ، على المذهب الجعفري، السيد يلاحق القضية .

«وفي قرى جزين شيعةمسلمون يدفنون موتاهم،على الطقوس الكنسية ـ كلنا عيال الله ـ السيد هو الذي يعيدهم الى أسلوب المذهب الاسلامي . يصلّي على الميت، ويدفنه !.. رأيته مرة ينزل في القبر ، وكاد شعر رأسي يقف . ان التعامل مع الجثة ، يقتضي اعصابا من فولاذ مغلّفة بالمطاط ، أظن !..»

وتابع يقول :

« الوقف سائب في القرية الفلانية ، السيد ينبّه الى أن وجه المنفعة فيه ، يجب أن تصرف في سبيل الله والناس.

« عشيرتان استشرى بينهما الدم ، وضري الثأر ، فأعجزتا السلطة ، وأعجزتا الناس ..السيد هو الذي يصلح، لانه وحده الأقدر ..

« وتتعقد مشكلة ما ، فتسمع على لسانه العفوية البسيطة ، من فم ابن الشعب العادي : ما لها غير السيد.. وبالواقع ليس لها غير السيد . و « السيد » دون اضافة موسى اليه ، أصبح اسماً علماً في كل لبنان » .

وقال أيضا :

« الجامعة الاميركية ، تفتتح سلسلة محاضرات . لمعالجة مشكلة فلسفية ، السيد يشرق بين المحاضرين الكبار من العالم .

« ويدرك السيد أن عدّاد سيارته أشار الى انه قطع مئة ألف كيلومتر في العام .

« وكانت كل سنة تقول له انه قطع مئة الف كيلومتر فيها .

«وقال العداد للسيد:اتعبتَني وأتعبت نفسك ، لو كنتَ نبياً لما أصلحتَ الحال ، لوحدك !..» (٤٥) .

واذ يكبر الحلم فيكبر معه القلق ،يشعر الفارعاملي بأن لبنان بات يضيق به ، أو هو يريد الخروج الى العالم الارحب .

---

(٤٥) جمال الدين : ص ص ٧٣/٧٤

صار يجب أن يوسّع الفارعاملي دائرة عمله ، وينوّع المعجبين والاصدقاء •

ما أصعب ان يشعر الفارس ان حصانه الذي كسب الرهان ، غير مرة ، بات عاجزا عن السباق ويريد الانسحاب!

والمأساة الكبرى ان الفارعاملي قد استضعف كل « الجياد » التي استعملها ، واستصغر الميدان بعد أن كان الفسيح والمقصد •

وفلتَ « القمر » من سماء لبنان ، ليلغي «شموساً» و « كواكب » ، هي في اعتقاده ، ما عادت تضيء ، وغير ذات حرارة •

وكمن يقف على« شوار » وجاءته دفعة ، هكذا كان الفارعاملي عندما وقع اصطدام ، في ايران ، بين «العلماء » والسلطة •

ففي ربيع سنة ١٩٦٣ ، طرحت الحكومة الايرانية على الاستفتاء الشعبي ست مسائل ، وطلبت أن يصدّق عليها • ومن بين هذه المسائل : تقسيم الاراضي وتوزيعها على الفلاحين ، وإعطاء المرأة حقوقها السياسية • وكان لرجال الدين موقف مغاير ، فأعلنوا رفضهم لهذه التدابير ،ففتحت

السجون ، وجرى نهر الدم ، بعد مظاهرات واضرابات ، وأُبعد أحد كبار معارضي الشاه ، السيد روح الله الخميني الى تركيا • تترك الكلام على هذه الحركة الى الفصل السابع ، بحيث ان غايتنا الآن ، النظر الى الدور الذي قام به الفارعاملي وكيف اتخذ منها سببا لرحلة الى روما وبعض العواصم الاوروبية •

يقول المحامي نجيب جمال الدين :

« ••• دخل في المعركة كل علماء الشيعة المسلمين ، في سائر العالم الاسلامي الشيعي ، باستثناء الجماعة ،عندنا هنا في لبنان •

« ولا يسع الذي يؤرخ هذه الناحية من جوانب المعركة ، الا التأكيد بأن السيد وحده هنا في لبنان هو الذي نهض مدافعا عن علماء ايران ، وموضحا موقفهم النبيل ، ومهاجما خصومهم ، ومستنكرا أفعالهم ،وشارحا ضرورة مساعدة العلماء ، وقد لبّاه بعضهم هنا ، وبالاتفاق مع جماعة العلماء في النجف ، نهض السيد لتنظيم برقيات الاحتجاج ، وعقد الاجتماعات ، وتولّى ايضاح الغموض، وليكن من الحكم الايراني معه ما يكون » (٤٦) •

---

(٤٦) المصدر نفسه : ص ٨١

دفعة أخرى جاءت الفارعاملي الواقف على « شوار » مثلما قلنا ، فكانت هي التي أطلقت « القمر » من عقاله ، أو كما يقول جمال الدين :

« وفي صيف سنة ١٩٦٣ ، تلقى السيد دعوتين:الاولى من علماء الجزائر ، وطليعتهم الشيخ بشير ابراهيمي،رئيس جمعية العلماء في الجزائر ، والثانية من علماء المغرب بواسطة الشيخ منتصر الكتاني ، عضو لجنة موسوعة الفقه..فلبّى الدعوتين المتضمنتين زيارة القطرين الشقيقين ، ومعالمهما الدينية العلمية ، وإلقاء بعض المحاضرات هناك..»[٤٧]

والحقيقة ان رحلة الفارعاملي الى الجزائر والمغرب، ما كانت الا لتغطية سفرته « السرية » الى روما ...

الولادة الثالثة

ماذا كان يريد الفارعاملي من أوروبا ؟

ولماذا دخلها من البوابة الرومانية لا من سواها ؟

من الواضح أن الفارعاملي كان يراقب أعمال البابا يوحنا الثالث والعشرين الاصلاحية ، وانه علم بدعوته الى السلام ووحدة الجنس البشري .

---

(٤٧) المصدر نفسه : ص ٨٢

ومن الواضح أيضا أن الفارعاملي قد سمع أو قرأ ما أعلنه خليفة ابي « المجمع الفاتيكاني الثاني » ، البابا بولس السادس ، في موعظة ألقاها عشية انتخابه ، حيث قال : « انه لا يمكن الانحراف عن السبيل الذي اشتقّه البابا الراحل »[٤٨] . وأكد نظريته المعروفة القائلة : « ان قلب الايمان ينقسم الى شطرين ، شطر يقضي بتوحيد المسيحية ، وشطر يقضي بالعمل لارساء السلام المستقر بين الامم والطبقات الاجتماعية في العالم »[٤٩] .

واذ تزامن انتخاب البابا بولس السادس مع أحداث ايران ، التي سبقت الاشارة اليها ، رأى الفارعاملي نفسه منجذبا الى عاصمة الكثلكة ، ومن دون أن يُدعى لزيارتها رسميا ، حسبما قيل لي ، حمل بعضه وسار اليها ، ليناجيها ويبثّها هواه المحرق ، الذي ما عاد بمقدوره أن يصبر عليه.

ان احدا ممن سألناهم لم يعرف كيف سافر الفارعاملي الى روما.سألنا أساقفة وكهنة و «سادة » ، والجواب هو هو : لا نعرف على اليقين . ثم سألنا أقرب الرجال الشيعة الى الفارعاملي ، فلم يكن حظنا معهم بأحسن من حظنا مع سواهم . والغريب هو أن بعض الذين سألناهم ، من

---

(٤٨) الاسبوع العربي : ١ تموز ١٩٦٣

(٤٩) المصدر نفسه .

المسيحيين والشيعة ، قد استبعدوا أن يكون الفارعاملي زار الفاتيكان ، حتى نقلنا اليهم ما ذكره المحامي نجيب جمال الدين عن الفارعاملي نفسه ، وعندئذ قلبوا شفاههم وهزوا رؤوسهم ، وصمتوا عن الكلام . ما عدا المطران يوسف الخوري ، والارشمندريت جبرائيل نصر المخلّصي ، الذي كان نائبا عاما لمطرانية الروم الكاثوليك في صور خلال السنوات الخمس الاخيرة من عهد المطران أغابيوس نعوم أبو رجيلي الذي تسلّم مهمته سنة ١٩٣٣ واستقال سنة ١٩٦٤ . فالمطران الخوري أكد لنا مجيء الفارعاملي الى الفاتيكان ، من غير ما نحتاج الى إطْلاعه على مقولة جمال الدين . ولكن التفاصيل غابت عن سيادته ، كونها صارت من الماضي البعيد ، حوالى ربع قرن ، أو هو أحب أن يكتفي بهذا المقدار من المعلومات . أما الارشمندريت نصر ، الذي قال انه صديق الامام ، فقد أفادنا ان الفارعاملي قد ذهب الى روما بحرا ، وكان معه رجل من صور رافقه الى استنبول ، ومن هناك أكمل الفارعاملي طريقه نحو العاصمة الايطالية ، وفيها استقبله وكيل الرهبانية المخلصية (الارشمندريت) أثناسيوس نوني (العربي اللسان) ، « بناء على كتاب مني » ، وظل الوكيل في خدمة الفارعاملي طيلة الفترة التي قضاها الاخير في روما، وخصوصا في الفاتيكان خلال الاحتفال بتتويج البابا بولس السادس ، واللقاء الذي

تم بين الفارعاملي واللجنة المختصة بشؤون غير المسيحيين[٥٠] .

والجدير بالذكر ان جماعة من السنّة تقول بأن الفارعاملي طلب لدى وصوله الى الفاتيكان ، مواجهة البابا ، فلم يلق طلبُه هذا قبولا ، فأحيل الى مسؤول كبير ، مختص بالشؤون الشرقية أو بأمور الوحدة مع غير المسيحيين ، فبيَّن له الفارعاملي الغاية من هذه الزيارة ، وطلب المساعدة على تحقيق مشاريعه في لبنان ، وأهمها أن يكون للطائفة الشيعية كيان مستقل عن السنّة ، مما يعطي المسيحيين اللبنانيين دعماً لا غنى عنه في المستقبل القريب ، الذي يحمل الكثير من المفاجآت على رأي الفارعاملي . وتدعي هذه الجماعة ان الفاتيكاني، الذي التقاه الفارعاملي بدا متفهماً لما سمعه من الزائر المعمَّم ، ووعد بدرس مقترحاته ، واجراء اللازم حيث تدعو الحاجة . وقالت الجماعة نفسها ان الفارعاملي عندما رجع الى البلاد، كثّف اتصالاته بأحبار النصارى، راجيا منهم التوسط بين الفاتيكان وبينه لاخذ موعد من البابا ، لانه يرغب في مقابلته ، حتى تم ما أراد ، وسافر الفارعاملي ثانية الى روما ، فاستقبله البابا بولس السادس ، وأصغى اليه باهتمام ملحوظ ، ولما

---

(٥٠) من مقابلة مع الارشمندريت جبرائيل نصر في «يسوع ملكا» ـ أدونيس ـ قبل ظهر الثلاثاء ٢١ـ٧ـ١٩٨٧ ، كانت معنا زوجتي : ايمان .

انتهت الزيارة باركه ودعا له بالنصر والتوفيق . ومع الوقت ظهر « مفعول البركة البابوية » بحيث تمكن الفارعاملي من انتزاع مرسوم اشتراعي ينص على انشاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، وكان ذلك في أواسط عهد الرئيس شارل حلو ، المعروف بولائه المطلق للفاتيكان ، على قول المصادر السنّية المذكورة .

عرضنا هذه الاقوال على رجال من الشيعة كانوا أصدقاء للامام ، فمنهم من استنكره أشد الاستنكار، ومنهم من أيّده مع بعض التحفظ ، وهنالك من آثر الصمت ، ولكنه بدا مرتاحا نوعا ما .

هنالك أيضا رواية تقول ان الفارعاملي كان واقفا مع الحشود في ساحة القديس بطرس عندما البابا أطل من نافذة غرفته ليحيي المصلين . وظهر الفارعاملي الاطول ، بزيّه الاسلامي الشيعي . فسأل البابا عنه : من يكون هذا الرجل ؟ فقيل له : انه رئيس المذهب الشيعي في لبنان . فاستدعاه اليه ، فتعارفا وتحاورا لبضع دقائق . الا ان الفارعاملي استطاع ، على الرغم من ضيق الوقت، أن يعرض على البابا قضية الطائفة الشيعية في لبنان ، فأعطى البابا تعليماته الى المختصين ، من مستشاريه ، بالشؤون الشرقية، فكان من هؤلاء ان قدموا للفارعاملي ما طلبه .

أما المحامي نجيب جمال الدين فيقول :

« وصل (السيد) روما ... ودويّ أجراس الكنائس يملأ أجنابها ورحابها معلنة تتويج قداسة البابا بولس السادس ، والبلد يعج بكبار الشخصيات العالمية ، ديناً وسياسة وعلما ، والظروف ضيقة وحرجة ، فلم يطلب السيد مقابلة البابا ، ولكنه اتصل بالسكرتاريا ، وأوضح ملابسات المشكلة الايرانية ، وموقف العلماء ، وموقف الحكْم ، وبدورها قامت بمجهود كبير ، حتى أبلغت قداسته ، فاتخذ موقفا متجاوبا ، مع علماء الدين في ايران» .

بهذه الكلمات اختصر جمال الدين زيارة الفارعاملي للفاتيكان ، ليقول :

« كما اتصل السيد بأمهات الصحف العالمية ، وكبار الشخصيات ، من ذوي النشاطات والفعاليات في جنيف ، وهامبورج ، وبون ، وباريس ، وغيرها ..

« ولا نبالغ — يقول السيد — ، في اظهار النتائج الايجابية لهذه الرحلة ، أو في مدى تحقيق غايتها ، وانما ننقل كلام سيدنا الاستاذ الإمام (أبو القاسم) الخوئي ، حيث قال : ان اطلاق سراح السيد الخميني (اعتقلته السلطات الايرانية خلال أحداث ١٩٦٣ قبل ابعاده الى

تركيا) يعود الفضل الاكبر فيه الى رحلة السيد موسى الصدر » (٥١) .

لم يقل لنا الفارعاملي من كان معه في هذه الرحلة .
فهل لأن المحامي جمال الدين لم يطرح عليه هذا السؤال؟ أم ان الفارعاملي سمع السؤال ، ولكنه تحفظ عن الجواب لاسباب لا نعرفها ؟

ان أول ما بادرنا اليه ، بعد قراءة ما تقدم ، هو السؤال التالي :

ــ من كان مع الفارعاملي ، وكيف استطاع اجراء كل هذه الاتصالات التي تحدّث عنها ، وهي تتطلب خبيرا سياسيا واعلاميا ولغويا ، ان لم نقل فريقا من الخبراء والاختصاصيين ؟!

لقد سعينا بسؤالنا هذا الى أحد المحامين الشيعة ممن رافقوا الفارعاملي في زياراته المتكررة الى أوروبا ، بعد ترؤسه المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى فلم يفدنا بشيء يُذكر ، بينما عُرف عن هذا المحامي انه كان « ترجمان » الامام و « مستشاره » ؟! والمضحك جدا أن هذا « الاستاذ » في رده على سؤالنا ، وهو لم يردّ

(٥١) جمال الدين : ص ٨٣

أصلا ، قد هدّد وحذّر كل من يكتب عن الامام ،لاعتقاده أن الامام هو ملْك له دون سواه ، ولما قلنا له : ليس الامام قطعة « انتيكة » تملكها ، حتى ولا هو ملْك آل الصدر فحسب ، ذلك لانه (الامام) أصبح قضية ، بل مجموعة قضايا ، وليكتبْ فيه أيٌّ كان ما شاء له أن يكتب ، تضايق وقال بغضب شديد : « اذاً لن أعطيك شيئا من عندي لا سلبا ولا ايجابا . أنا الذي سأكتب عن الامام... وليس لسواي الحق في ذلك » . وسكت المحامي « العيّوق » (٥٢) و « المنطقي » عن الكلام ... فحمدت الله على أن اللقاء بيننا كان عبر الهاتف ، وأن « الاستاذ» غير « ميليشيوي » . في حين قالت السيدة الجليلة والراقية، رباب الصدر شرف الدين ، شقيقة الامام : « ان الامام كبير .. والناس تختلف عادة على الكبير لا على الصغير . لكل الحق في أن يكتب عن الامام ما يحب ويرغب .ولكن أحدا لا يمكنه أن يمنع باحثا ، مهما يكن موقعه وهدفه ، من الكتابة عن الامام . وفي جميع الاحوال تبقى الحقيقة

(٥٢) العيّوق : نجم أحمر مضيء في طريق المجرّة الايمن يتلو الثريا ولا يتقدمها ، فسمي بذلك لانه يعوّق الدّبران (منزل للقمر وهو مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور) عن لقاء الثريا .

فحسب ، فلا يزعمنّ أحد أن الامام محتاج الى غير رحمة ربه العليم بالنيّات » (٥٣) .

ان نظرة السيدة رباب العميقة والجادة ، الى القضايا العليا ، أنستني سطحية ذلك « الاستاذ » ،الذي فعل كما القنفذ ، فأدخل رأسه في جلده وتوارى .

من كان مع الفارعاملي في أول رحلة له الى اوروبا ؟ وهل فعلا كانت هي الرحلة الاولى الى القارة القديمة والعظيمة ؟

نعود الى كتاب المحامي نجيب جمال الدين وفيه يقول :

« وكان للرحلة أثر ارتياح في نفوس علماء ايران،كما مهّدت لفتح باب جديد ، كان يظن أنه موصد .. فقد تسلّم السيد في الرباط رسالة من سماحة العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية ، من لبنان يقول له فيها :

« ان السيد الخوئي ، كلّف وفدا مؤلفا منك ومني، ومن الشيخ المظفّر ـ عميد كلية الفقه في النجف ـ للسفر الى هيئة الامم المتحدة ، وعرض القضية هناك أمام العالم،

---

(٥٣) من حديث مع السيدة رباب الصدر شرف الدين ، عبر الهاتف ، في ١٦ حزيران ١٩٨٧ .

أمـا أنا فموظف لا تسمح لي ظروف الوظيفة ، بمغادرة البلاد لمدة طويلة ، وأما الشيخ المظفّر فمريض .. فإنْ أجمعت أمرك على السفر ، الى هيئة الامم المتحدة ،فاتصل بالسيد الخوئي ، لاجل تكليفك بذلك » (*٦) .

أضاف جمال الدين :

« يقول السيد : وكنتُ وحدي ... والعبء ثقيل ، والمال قليل ، وأنا بعد في هيئة الامم ، غريب اللسان ، ولغة

(*٦) لا نعرف بأية صفة كلف السيد ابو القاسم الخوئي الشيخ محمد جواد مغنية والشيخ المظفر والسيد موسى الصدر ، الذهاب الى هيئة الامم المتحدة ، ليدافعوا عن رجال الدين في ايران ، علما بأن المرجع الاعلى ،في ذلك الوقت،كان هو السيد محسن الطباطبائي الحكيم (١٣٠٦ ـ ١٣٩٠ هـ/ ١٨٨٩ـ١٩٧٠ م) .

ولد السيد محسن الحكيم في بلدة بنت جبيل (لبنان) وتعلم ونشأ في النجف . وكان أمين سر القيادة في ثورة العراق على البريطانيين (سنة ١٩٣٨) قبل أن يكون المرجع الاعلى. وصنّف كتباً قيل : ٥٠ مؤلفا أجلّها « مستمسك العروة الوثقى » و « توضيح المسائل » و « حقائق الاصول » و « دليل الناس في المناسك » . ومن أعماله تأسيس المكتبة العامة المعروفة باسم « آية الله الحكيم العامة » في النجف. وهو أول من أسس مكتبة عامة فيها . وانشأ لها فروعا في العراق واندونيسيا وسوريا ولبنان . وتوفي ببغداد ودفن بالنجف (الاعلام ـ الزركلي ، المجلد الخامس ، ص ٢٩٠).

القـوم هناك الانكليزية ، أملك منها الفهم ولا أملك بها الاقتدار على الشرح والايضاح ، ولا أملك من المـال ما يسهّل لي مهمة استخدام من يساعدني على الاداء الكامل •• ولهذا عدت أدراجي الى لبنـان ، واتصلت بالسيـد الخوئي ، ووضعتُ نفسي تحت تصرفه ، كعضو من الوفد، لا الوفد كله » (٥٤) •

في الحقيقة ، لم يكن الفارعاملي وحده في أوروبا • بل كيف يجول معمّم مثل الفارعاملي لوحده ، على روما وجنيف وباريس وهامبورغ وهلدبورغ وزوريخ والاندلس، وهو « غريب اللسان » فيها جميعا ، مثلما في هيئة الامم المتحدة ؟

قد يستطيع الفارعاملي الذهاب وحده الى اوروبا ، أو غيرها من القارات ، ولكنه لا يستطيع أن يمكث فيها مدة من الزمن ، مهما تكن قصيرة ، من دون مساعد ، وعلى الاخص انه بذل نشاطات لا يقـدر عليها سوى الخبراء والاختصاصيين مثلما قلنا ؟

ان « المساعد » الذي نبحث عنه ، إنْ لم يكن قد انطلق معه من بيروت (المحامي جمال الدين مثلا ؟) فهو

---

(٥٤) جمال الدين : ص ص ٨٣/٨٤ •

كان في انتظاره في أول محطة وصل اليها ، أي في روما • وبناء عليه يكون « المساعد » إما لبنانيا ، وإما فارسيا • وحسبما قال المحامي محسن سليم فان « اللغة الاجنبيـة الوحيدة التي يتقنها (السيد) اتقانا تاما هي « الايرانية » أما بقية اللغات الاجنبية التي قيل انه استاذ ماهر فيها فلا علم له بها ولا إلمام » (٥٥) •

من كان مع الفارعاملي في أوروبا ؟

لقد أعطانا الارشمندريت جبرائيل نصر ما هو أقـل من ربع الجواب المطلوب ، الاّ اذا كان (الارشمندريت) اثناسيوس نوني هو الـذي رافقـه من روما الى بقيـة العواصم الاوروبية ، وهذا ما لم يؤكده لنا الارشمندريت نصر •

من كان مع الفارعاملي في أوروبا ؟

أترانا نسينا المبعَدين الايرانيين، منذ عملية «أجاكس» التي أعادت الشاه الى العرش وأنهت ثورة مصدّق ، وهم منتشرون في أنحاء أوروبا كافة ؟ مـن هـؤلاء ، مثلا لا حصرا ، الامير فيروز قدر ابن شقيقـة الدكتور مصدّق

---

(٥٥) محسن سليم : هذا الامـام ماذا يريد ولماذا هوى ؟ ص ٥ •

ومؤسس « الحزب الديموقراطي » ، وقد مضى على وجوده في فرنسا الى حين رحلة الفارعاملي الاوروبية عشر سنين ، دون أن يقطع علاقته بالمعارضة الايرانية ، بل ظل على صلة وثيقة ومستمرة بها ، ينسق معها من الخارج حيث أسس « حركة فرنسا والعالم الثالث » المعروفة جيدا من قبل الذين يتعاطون السياسة في ايران .

أليس في كل عاصمة أوروبية أساتذة وطلاب وتجار ايرانيون ؟

لماذا لا نقول : ان عددا من المثقفين الايرانيين المقيمين في بعض العواصم الاوروبية ، هم الذين نظّموا هذه الرحلة وصرفوا عليها ، وجعلوا منها رحلة سياسية ناجحة ومثمرة ؟

ان « النتائج » التي نوّه بها الفارعاملي لتؤكد أنه لم يكن وحده في أوروبا .. ولتؤكد أيضا ان (الارشمندريت) نوني لم يكن « المساعد » الوحيد للفارعاملي في رحلته الاوروبية الاولى كما عرُفت .

الى ذلك الوقت ، كان الفارعاملي قد وُلد ثلاث مرات : الاولى في قم ، في سنة ١٩٢٧ أو ١٩٢٨ . الثانية في صور ، عندما دخلها كما الفاتح ، ليخلف الامام الراحل السيد عبد الحسين شرف الدين ، وكان ذلك في نهايات

١٩٥٩ حسبما مر معنا . والثالثة في روما . نعم في روما . وهذه حدثت بينما العالم الكاثوليكي يحتفل بتتويج البابا الثاني والستين بعد المئتين : بولس السادس ، المعروف قبلا باسم الكاردينال جيوفاني باتيستا مونتيني ، اسقف ميلان .. الايطالي المولد .

لقد كشف المحامي جمال الدين عن وجهين فقط لرحلة الفارعاملي الى أوروبا ، هما : واحد «يتصل بمشكلة العلماء الايرانيين » . والآخر « الذي لا يقل عن الاول بهاء واشراقا ، فهذه الدراسة الشاملة لمعالم الحياة الاوروبية ، والتغلغل العميق بمشكلة الانسان المعاصر في القرن العشرين »(٥٦) .

وبهذا ، يكون جمال الدين قد ترك الوجه الثالث والاهم محتجَبا وبعيدا عن الانظار . نعني به التماس التأييد من « دولة الفاتيكان » لحق الشيعة اللبنانيين في التنظيم وانشاء « مجلس » يكون على غرار المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى أو المجلس الدرزي . ونحن لم نر سببا لما فعله جمال الدين سوى أن الفارعاملي هو الذي صدّ الكاتب عن الولوج في هذا الباب « المسحور » مع علم الكاتب نفسه بأن « فكرة المجلس وُلدت في ذهن

(٥٦) جمال الدين : ص ٨٤ .

السيد في العام الثاني من تسلمه المركز الديني في صور»(٥٧) .
انها ارادة الفارعاملي فحسب ، والا فكيف يفسر سكوت الفارعاملي عن هذا الوجه الرئيسي للرحلة ، ان لم نقل الوجه الاوحد ، بل الرحلة كلها من ألفها الى يائها ؟!

المهم أن الفارعاملي رحل الى أوروبا ، وتحققت « الولادة الثالثة » ، التي كان لا بد منها ، وعلى قول جمال الدين :

« زار السيد مراكز المسلمين ، ومساجدهم في باريس، وهامبورغ (في المانيا الغربية) ومانهايهن (والصحيح : مانهايم « Mann-Heim » في المانيا الغربية أيضا) وهلدبوغ (والصحيح : هيدلبرغ « Heidelberg » في المانيا الغربية أيضا) وزوريخ (أحد الكانتونات السويسرية) وغيرها ، واطلع على النشاط الاسلامي الواسع ، وتعرف الى الرجالات ، وباحث المستشرقين ، وجادلهم وصادقهم ، وردّ عليهم ، وكتب ، وأفاض » .

أضاف :

« وتحدث (السيد) هناك طويلا .. وحاضر .

« ففي ذكرى أربعين الامام الحسين ، وفي نادي

(٥٧) جمال الدين : ص ١١٣ .

المسلمين في هامبورغ (Hamburg) ، كانت ليلة خاشعة ، ورائعة معا ، وبعيدة المغزى والدلالة »(٥٨) .

وينقل جمال الدين عن الفارعاملي وصفه لمشاعره في تلك الليلة اذ قال :

« .. وشعرتُ في هامبورغ ، وأنا أتحدث عن الذي قُتِل في أبعد أماكن الصحراء ، بشعور عميق .. يفنى كل شيء ، ويبقى السمُوّ والخلُق والمثل العليا ، يأنس بها عرش الله .

« ان ثائر الله ، وشهيد حقه ، كان يحيا بيننا في هامبورغ .. كما يحيا هناك في الشرق .. ذلك أن الحقيقة هي نفسها في كل مكان ، ولان شهيد الله يبقى في ذمة الخلود ، يبقى ليفعل وينتج ، ويثير ويحرك أبد الدهر ، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون »(٥٩) .

وفي باريس ، رأى « القمر الدوّار » نفسه حزينا . لان أوضاع المسلمين في العاصمة الفرنسية «محزنة»(٦٠) ، و « الجالية الاسلامية تزيد على نصف مليون مسلم ،

(٥٨) المصدر نفسه : ص ٨٥ .
(٥٩) المصدر نفسه
(٦٠) المصدر نفسه

والمسجد الكبير هناك ، يُرى وكأنه يبكي » (٦١) ،وانهمر الفارعاملي على المسؤول عن مسلمي باريس بأسئلة« كزخّ المطر » (٦٢) ،منها :

« ــ لماذا لا تفتح مكتبة عامة ؟

« ــ لماذا لا تنشيء نادياً ؟

« ــ لماذا لا تهتم بشؤون المسلمين الحياتية ؟

« ــ لماذا لا تجمعهم حول مسجدهم ؟ فتخطب فيهم وترفع صوتهم ، صوت الاسلام ، عالياً في باريس ؟

« ــ لماذا لا تدعو لالقاء محاضرات في الاسلام؟» (٦٣)

وكمن يرد نيابة عن الفارعاملي أو« القمر الدوّار» قال جمال الدين :

« أما الجواب ، فيعرفه الجزائريون في باريس ، ويعرفون ذلك المسؤول عن جامع باريس ، ويعرفون الظروف والاسباب التي رافقت مجيئه واستلامه المركز ،

(٦١) المصدر نفسه
(٦٢) المصدر نفسه
(٦٣) المصدر نفسه

بعد المرحوم الطيّب الذكر السيد قدّور الجزائري » (٦٤) .

وأوضح جمال الدين فقال عن ذلك المسؤول :

« فرضته يومئذ ظروف استعمارية ، وكان نائبا في مجلس نواب فرنسا ، عن الجزائر ... لقد كانت تأتي سيارة عسكرية خاصة ، تنقله من بيته الى المجلس ، خوفا من الرصاص ..» (٦٥) .

واذ « لاحظ السيد فقدان العناية الحكومية ، في سائر البلاد الاسلامية والغربية تجاه البعوث ، سواء في ذلك الطلاب ، والعمال وسائر أصحاب النشاطات المختلفة» (٦٦) قال بأعلى صوته :

« ان بعوثنا بالاجمال يأكلها الضياع والغربة والفساد ... وبعوثنا بالاجمال هي التي ستعود ، لاستلام المقدّرات هنا .. ولنا أن نتصوّر » (٦٧) .

وتقدم الفارعاملي نحو اسبانيا ، فزار من المدن

(٦٤) المصدر نفسه
ولدى سؤالنا الشيخ زهير الشاويش عن القدور والذي خلفه قال : « كلاهما كان في واد والاسلام والمسلمون في واد آخر » . وكتب الدكتور حسين القوتلي في « السفير » (٢٤/١٠/١٩٨٧) عن أزمة المسلمين الفرنسيين ، أو مسلمي فرنسا محذرا من خطر الانصهار في النظام العلمائي الفرنسي .
(٦٥) جمال الدين : المصدر نفسه ، حاشية رقم (١) .
(٦٦) المصدر نفسه : ص ٨٦
(٦٧) المصدر نفسه

الاندلسية اشبيلية وغرناطة وقرطبة وقادس ، فوجد التراث العربي ماثلا بين يديه : فأسماء الاشخاص والشوارع والساحات ، وكذلك اللباس والطعام والعادات ، كلها لا تزال « ممسوحة بالمعنى والطابع العربي »[٦٨] . وظهر له أن في الاندلس يكاد العربي أن « يحسّ طبقة عرقية»[٦٩]، بحيث أن كثيرين هناك « يفخرون على آخرين بأنهم من سلالة عربية ثابتة »[٧٠] .

وباعتزاز كبير يقول لك الفارعاملي :

« في الاندلس ، ادْعُ اللهَ يجنبْك شعور الزهو والخُيَلاء »[٧١] .

الشّفا (*٦)

من المؤكد ان الفارعاملي أخذ الكثير عن أوروبا ، وانما ليس قبلما دوّختْه غيومُها التي قطعت اجازة الصيف لتستقبله . وبين الحلال والحرام ظل سيف

---

(٦٨) المصدر نفسه : ص ٨٩

(٦٩) المصدر نفسه

(٧٠) المصدر نفسه

(٧١) المصدر نفسه

(*٦) الشفا : بقية الهلال قبل أن يغيب (قاموس) .

الفارعاملي يلين ويصلب ، حتى خرج والنار في عينيه ، يطلب النوم فلا يجده ، ويتلمّس عقارب ساعته ، فيرى أن الوقت يهرب منه ، وعندئذ يضع كفّيه تحت مؤخرة رأسه ، ويأخذ في تلاوة بعض الكتاب :

« ألم تعلمْ أن الله له ملْكُ السماوات والارض يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير . يا أيها الرسول لا يَحزُنْك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإنْ لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن يملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يُرد الله أن يطهّر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحْت فان جاؤوك فاحكم بينهم أو اعرضْ عنهم وإنْ تعرض عنهم فلن يضرّوك شيئا وإن حكمت فاحكمْ بينهم ، بالقسط ان الله يحب المقسطين» [٧٢] .

---

(٧٢) المائدة : ٤٠/٤١/٤٢

لم يشأ الفارعاملي أن يقول : «وداعا أوروبا » • فقد أحب القلق والاغتراب والكبت الجنسي • في هـذه اللحظات تمنى لو كان شاعرا أو رسّاما ، ليجسّد بالقصيدة أو اللوحة ، واقعه الذي يحسده عليه جان بول سارتر ، إن لم نقل الحسين بن منصور الحـلاّج ومحيي الدين ابن العربي •

« وداعا أوروبا » • قالها الفارعاملي على الرغم من ارادته • ولولا موعده مع « الولادة الرابعة » لخلع العمامة والجبّة ، واتخذ عوضا منهما القبّعة والمعطف • لا ريب أنه قارن ، غير مرة ، بين اللباس الإمامي واللباس الاوروبي، وكان في كل واحدة ، يفضل الاول على الثاني • ذلك لان الجبّة على « مترين من اللحم والعظم » هي في رأيـه ، أجمل بكثير من المعطف وسائر الملبوسات الاجنبية •الجبّة الانيقة والنظيفة خير من كل ثياب الغرب قال الفارعاملي، وصمّم على ألا يتهاون ولا بواحد من مظاهـر الجمال والنبل •

بعد اسبانيا ، نزل الفارعاملي على الجزائر ، وكانت البلاد تحتفل بالعيد الاول لجلاء القوات الفرنسية المسلّحة عنها • واذ أدرك أن رحلة أوروبا لم تبقِ من «مشرقيته» الا شَقفا ، حاول أن يستعيد ذاته ، فزار « كبـار علماء

الدين المجاهدين الذين أسسوا جماعة العلماء ، ولعبـوا الدور الرئيسي في الثورة ، سواء لجهة حمل السلاح ، او لجهة تنظيم دروس اللغة العربية ، وافتتاح المدارس لها ، وتهيئة الصفوف »[٧٣] ، في حين ان فرنسا كانت تجهد في « إبادة اللغة (العربية) ــ باعتبارها احدى صلات التوحد القومي ــ وبعثرة جهود العلماء »[٧٤] ولكن عبثا فعلت •

وممن زارهم الفارعاملي أو « الشقَفَا » : الشيخ أحمد سحنون إمام الجامع الكبير ، وهذا دخل السجون الفرنسية ما يزيد على عشر مرات • والشيخ عبد اللطيف سلطاني ، إمام جامع كشناوة ، « الذي حوّله المستعمرون الى كنيسة ، منذ مئة وست وثلاثين سنة ، ثم عاد الى أصله في أول عـام استعادت فيه الجزائر استقلالها » • وزار الفارعاملي أيضا الشيخ بشير ابراهيمي،في مصيف حكومي، في قمم الجبال ، وكان قد أُقعِد ، وهو لم يتجاوز بعد الستين [٧٥] • عن هذا الشيخ قال الفارعاملي : «•••وعلى

---

(٧٣) جمال الدين : ص ٩٣
(٧٤) المصدر نفسه
(٧٥) بل ان الشيخ ابراهيمي تجاوز الستين بأكثر من عقد على الاقل ، حسب قول الشيخ زهير الشاويش ، الذي عرف الابراهيمي عن كثب وصحبه في سوريا ومصر وغيرهما •

وجهه تقرأ متاعب الثورة ، وخطوط الجبال ، واشتعال النيران ، ومأساة استشهاد مليون جزائري »[٧٦] .

لقد حاضر الفارعاملي في الجزائر مرتين : اولاهما كانت في الجامع الكبير ، والثانية في جامع كنشاوة .

فاذا كان الفارعاملي قد اقترح ، في المحاضرة الثانية، على إمام المسجد الشيخ عبد اللطيف سلطاني ، « تأسيس مكتبة عامة في المسجد ، لكونه كثير الطرّاق والزوّار ، بسبب انتقاله من مسجد الى كنيسة ، ثم الى مسجد »[٧٧]، فانه قال في محاضرته الثانية ، بعد أن قدّمه الشيخ أحمد سحنون ، مخاطبا الجزائريين ما يلي :

« لعلكم ، يوم كنتم تتنفسون غبار المعركة،وتتنشقون دخان البارود ، ما كنتم تعرفون أبعاد الشعور العالمي والاسلامي والعربي ، الذي كان يواكب جهادكم طيلة مدته، بل أكيدا كان الاستعمار يخفي عليكم .. وعلى كل حال فالعالم الحر ،كان يعيش معكم بكل اهتمام وترقّب وتحفّز، صغاره وكباره ، رجاله ونساؤه ، وأكتفي بمثل واحد :

« لي ولد" عمره ست سنوات ، طلب مني يوما سيفا، وحينما سألته لماذا تريد سيفا يا بني قال : لكي أقتل اثنين: أحدهما يزيد الذي قتل الحسين بن علي عليهما السلام ،

---

(٧٦) جمال الدين : ص ٩٦

(٧٧) المصدر نفسه

والثاني فرنسا (الذي) قتل الجزائر »[٧٨] .

كان موضوع تلك المحاضرة : « النبي محطّم الاصنام » الا انها لم تستغن عن مدخل ملؤه الاثارة والتشويق ، وربما الدهاء أيضا . وهل أغلى على الجزائريين من أن يسمعوا ، في أول ذكرى لاستقلالهم ، أن ولداً شيعياً ، في السادسة من عمره ، أبوه وجده لأبيه وجده لأمه وعماه : السيد رضا والسيد علي ، كلهم « علماء » ، يحب الجزائر والجزائريين بمثل ما يحب الامام الحسين [٧٩] ؟!

ورجع « القمر الدوّار » الى صور ، عبر القاهرة التي توقف فيها يوما أو يومين ، التقى خلالهما بعض كبار شيوخ الأزهر ، وزار دار التقريب وشيخها القمي ، ودار الكتب المصرية ، والمتحف ، وغيرهما من المعالم القاهرية العظيمة [٨٠] .

---

(٧٨) المصدر نفسه : ص ٩٦

(٧٩) من المفيد هنا أن ندعو الى قراءة ما كتبه الدكاترة : محمد كرّو وعلي الكنز وحيدر ابراهيم علي ومحمد شقرون عن دور المثقفين العرب في تونس والجزائر والسودان والمغرب، وذلك في مجلة « المستقبل العربي » العدد (١٠٤) ١٠/١٩٨٧ ومن قبلهم كتب الدكتور بنسعيد عن « بدايات السلفية الجديدة في المغرب » وفي « المستقبل العربي » نفسها العدد (٥٨) ١٢/١٩٨٣ ، من ص ٢٧ الى ص ٣٨ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٩٦

هل استعاد « الشقّا » ما أخذته غيوم أوروبا الصيفية من الفارعاملي ؟!

كانت عينا الفارعاملي على الحازمية ، عندما قال لنجيب جمال الدين :

« والحقيقة ان رحلة أوروبا أثّرت في نفسي وعكست على صفحتها انطباعات كثيرة .. وكم تمنيت لو اتيحت فرصتها لغيري ... ذلك أن اوروبا هي مستقبل هذه البلاد بخيرها وشرّها — فاذا عرفناها — نحن حملةُ أمانة الله — عرفنا مستقبل بلادنا ، فأمكن لنا تحت ضوء هذه المعرفة، تنظيم مخططاتنا ، وترسيم مناهجنا الصحيحة . عندئذ نعرف كيف نجابه شرور الزحف ونعرف كيف نوجهه»[٨١] .

تُرى ، هل كان الفارعاملي هو كل ذاته الإمامية الفارسية — العاملية ، عندما اختار « الحازمية » ، الواقعة الى الشرق من بيروت ، مقرا له ؟ أم انه كان لا يزال « شقّا » ؟

ان ما برهنت عنه الاحداث ، مثلما رأينا في الفصلين الاولين ، وكما سنرى في الفصلين الاخيرين : السادس والسابع ، لدليل قاطع على أن الفارعاملي المولود أربع مرات ، قد عرف كيف ينظّم الطائفة الشيعية ، وكيف يختار الموقع ، وكيف ينتزع من الحكومة والدولة التأييد

---

(٨١) المصدر نفسه : ص ٧٥

والقبول، ولكنه لم يعرف أبدا كيف يستمر في التنظيم ، حتى صارت « الحازمية » ، يا للاسف ، « محرّمة » عليه ، وقد كثر خصومه ومنتقدوه ، فاعتراه اليأس الشديد الذي أوقعه في مصيدة خبيثة تدعى « لعنة الصحراء » مثلما تقدّم .

الولادة الرابعة

قد يحسب الكثيرون أننا نتعامل ، في هذا الفصل ، مع « السيد » أو الفارعاملي على طريقة فقاسة البيض ، التي ما ان تنتهي من وضع « حملها » حتى « تحمل » من جديد، وهكذا دواليك ، ما بقيت الفقاسة ، وما بقي البيض . وربما لن يعجبهم القول بأن « السيد » قد وُلد أربع مرات ، في مدة لا تتجاوز الأربعين عاما . ان ردّنا على هؤلاء وسواهم ممن يشاركهم الرأي ، لا يتطلب منا عناء التفكير والتحليل، بعد الذي تقدم ، وقد بلغت الشدائد والمشقّات التي جبهتنا غايتها ، حين كنا نلاحق هذا « القمر الدوّار » الذي ما عرف الاستقرار ولا الراحة ، من خِلقته الى غيبته ، أو كما تقول شقيقته السيدة رباب : « كان الإمام لله وللناس . كنا لا نراه الا نادرا . حتى الاعياد والاحزان التي تجمع عادة الاهل والاقارب ، مهما تباعدوا وتفرّقوا ، بعضهم الى بعض ، كانت تسرقه منا . فالإمام الذي كله حيوية ونشاط،

ودائم الانارة والاشراق ، ليس في قاموسه أي كلمة يفاد منها الملل أو الضجر ، ولا ما يبرر الحزن والاستسلام ،أيا كان السبب ، فكل الاحزان والآلام ، في رأيه ، تختصرها كربلاء فحسب » (٨٢) .

نعم . لقد وُلد الفارعاملي أربع مرات ، ولو قُدّر له أن ينجو من « لعنة الصحراء » ، لقلنا انه وُلد للمرة الخامسة . ولكن الحظ ، على ما يبدو ، تعب منه ،فأخذته غفلة" ظهيرةَ يوم تلهّبت فيه الصحراء الليبية والنفوس الحاقدة والحاسدة والمهشّمة .

عندما نقول : الولادة ، فكأنما قلنا :المخاض أو الطلْق. وكما المرأة تمخض ، كذلك الشاة والناقة والبقرة والغزالة وكل ذات رحم من البهائم . ويرى النّحاة أن المخْض يكون في أشياء كثيرة : فالبعير يمخض بشقشقته،والسّحاب يمخض بمائه ويتمخض ، والدهر يتمخض بالفتنة .

« وما زالت الدنيا تخون نعيمها
وتصبح بالامر العظيم تمخّضُ »

ويقال للدنيا : انها تتمخض بفتنة منكرة .وتمخضت

---

(٨٢) من حديث مع السيدة رباب الصدر عبر الهاتف في ١٩٨٧/١/١٦ .

الليلة عن يوم سوء اذا كان صباحها صباح سوء ، وهو مثل" بذلك ، وكذلك تمخضت المنون وغيرها

« تمخّضت المنون له بيوم
أتى ، ولكل حاملةٍ تمامُ » (٨٣)

واذا صح أن المنيّة تهيّأت لان تلد للنعمان بن المنذر أو كسرى الموت ، فليس خطأ القول بأن الحظ قد تمخض لـ « السيد » أو الفارعاملي بالتفوق على أصحابه ، ثلاث مرات ، بعد الولادة العضوية ، وفي كل واحدة كان يبدو كأنه وُلد من جديد ، حتى خانه الدهر فتمخض له بالخطف ثم التعذيب ثم بالتصفية الجسدية ، حسب تقدير المحللين المطّلعين .

فماذا عن « الولادة الرابعة » ، وقد عرفنا سابقاتها؟

انها تلك التي تمّت بانشاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى . وأما المخاض فكاد أن يكون قاتلا لولا رحمة من العهد من جهة ، ومؤازرة الاصدقاء من جهة أخرى. فلشدّة معارضة الكارهين لمطالب الفارعاملي ، استمرت حالة المخاض حوالى خمس سنوات ونصف السنة. سنحاول،

---

(٨٣) لسان العرب ، دار صادر ، المجلد السابع ص ص٢٢٩/ ٢٣٠ .

هنا ، الكشف عن هذه العملية وما أحاطها من منـازعات وظروف غامضة ومضطربة ، أوشكت أن تجهضها وتضع لها خاتمة مأسوية لا مثيل لها في تاريخ شيعة لبنان الحديث .

لقد مرّ معنا أن الفارعاملي تجاوز «الخطوط الحمر» جميعها ، بانفتاحه على المسيحيين وكسبه « برَكة الامير» ، فصار هدفا لسهام البعض ، ومع هذا رأيناه يقصد اوروبا وكأنه يريد أن يحرق المراكب كلها ، ويعلنها حربا «شيعية ـ شيعية » ، غايتها النهوض بالطائفة الشيعية الى مستوى الطـائفتين الرئيستين : المارونية والسنّية ،وبالتالي الاجهاز على الزعامات الشيعية التقليدية والغائها الى الابد .

لعلّ أعظم مشهد رآه الفارعاملي في كل اوروبـا ، واستحوذ عليه ، هو اطلالة الكاردينال موتتيني مـن شرفة الفاتيكان ، بعد انتخابه خلفا للبابا الراحل ، وقد احتشدت الجماهير في الساحة تهتف له ، وهي تتلقى بركاته . انهذا المشهد المؤثر ذكّره بمجد أئمة ايران وسلطانهم على البلاد والعباد ، ولا بد من انه سأل نفسه ساعتئذ : هل يكون لي مثل هذا المجد في لبنان ؟ وما هو المانع ما دام « المكتب الثاني » معي ، والجيل الشيعي الصاعد يكره «البكوات» و « الأفندية » و « المشايخ » بل يريد التحرر منهم والقضاء عليهم ؟

وأكثرُ ما أعجبه ، في روما ، أن البابا بولس السادس بدأ ولايته بداية ملهمة ، اذ توجه بنداء الى جميع البشر بأن يسيروا الى « عصر الفضاء »كاخوان وليس كمتنافسين . وأن « يبنوا نظاما عالميا قائما على التعاون المتبادل وعلى احترام نواميس الرب » (٨٤) .

انه لحلم جديد هذا الذي تراءى له ، وهو يتأمل في ساحة القديس بطرس ، والحشود كالبحر المتلاطمة أمواجه ، بينما البابا في شرفته يرسم شارة الصليب ويردد : السلام لكم . السلام لكم .

ولكي يتحقق للفارعاملي مثل هذا المجد ، يجب أن يغيّر لا « الماء الآسن » فقط ، بـل النظام المتّبـع ، والمفاهيم المتداولة في جبـل عامل وبعلبك ـ الهرمل ، وربما في كل لبنان أيضا .

ليس صعبا على الفارعاملي أن يجد سبيله الى «الثورة الذاتية » ، ما دامت المنابر الحسينية مفتوحة له ولسواه ممن في قلوبهم حقد على هذا « البك » أو ذاك ، وهم كثيرون بكل تأكيد .. وما ان مضت سنة على رحلة اوروبا حتى كان للفارعاملي، في كل أسرة شيعية ، جنوبية كانت أو

---

(٨٤) الاسبوع العربي : ١ تموز ١٩٦٣

بقاعية ، مؤيد أو أكثر • أما في العاصمة فحضور الفارعاملي غدا « أسطوريـا » أو يكاد • فالجمعيات الادبية والثقافيـة والاجتماعية كلها خطبت وده ، فـلا يمضي اسبوع الا وللفارعاملي محاضرة هنا أو هناك ، والمستمعون ، بل قل المشاهدون ، هم من كل المستويات ، وغالبا ما يكون العنصر النسائي هو الطاغي ، خصوصا في المنطقة الشرقية ، فملأت شهرته بيروت وكل لبنان ، عند المسيحيين والمسلمين ، سواء في سواء • ومهما يكن موضوع محاضرة الفارعاملي ، وفي أي مكان ألقيت ، فالاعجاب المسبق والصيت الصارخ ، هما ، مجتمعين ، العنصر المقرر ، ودائمـا « كـلام السيد سيد الكلام » • وبين سحْر (Magnetism) (المثقفون بالثقافة الفرنسية يدعونها (Charisma)) الفارعـاملي والاعلام المركّز والموجّه كانت تضيع محاضرات الدبلوماسي نصري سلهب و (المطران) جورج خضر والدكتور يوسف أبو حلقة ، والدكتور حسن صعب ، والاب يواكيم مبارك ، والمطران غريغوار حداد ، والشيخ الدكتور عبدالله العلايلي ، والشيخ الدكتور صبحي الصالح ، على أهميتها الادبيـة والفكرية والدينية والعلمية •

ها ان ميشال أسمر ، مؤسس الندوة اللبنانية ، يقدّم الى « جمهوره » ، مساء السادس من نيسان ١٩٦٤ ، المحاضر السيد موسى الصدر ، بكلمة جاء فيها :

« لدى اذاعة نبأ عزم السيد محسن الحكيم ، المرجع الاول للشيعة في النجف بالعراق ، على الحج الى مكـة وزيارة المدينة هذه السنة ، رغبت الندوة الى عالِم مختص بالشؤون العامة للطائفة الشيعية أن يحاضر على منبرهـا فيلقي الاضواء حول هذا الحدث ويوضح جوانبه وأبعاده للبنانيين عموما • ولقد فعلنا ذلك مشاركة مـن الندوة في ايضاح أمور يجدر بجميع اللبنانيين أن يعرفوها سعيا الى انفتاح العائلات الروحية في هذا الوطن بعضها على بعض » •

أضاف :

« ولقد لاقت رغبتنا صدى مستحباً عند السيد موسى الصدر ، وها هو الليلة بيننا في عقله وقلبه • أجل ! سيتحدث الينا سماحته بفيض من العلم ، غير أنه سيضفي على علمه العميق نُبْل الانفتاح فيخلص من الاضواء الى التأمل بما يقرّب الانسان من أخيه الانسان حيث يكمن الله ، ثم بما يشدّ بالمخلوقات جميعا الى الإله المتسامي ، عز وتعالى » •

وقال :

« وأخيرا ، لا ينسى محاضرنا انه في لبنان ، أرض التلاقي ، فلعله يعالننا ما للألفة عندنا من معنى حق يجعلنا لها رسلا أمناء للتآخي الانساني الخلاّق وللانفتاح الروحي الوضّاء » •

وقال أيضا :

« وفيما نحن تتمنى للسيد موسى الصدر سفرا سعيدا الى مكة برفقة أبناء الطائفة الشيعية الكريمة من اللبنانيين ، وفيما نسأل الله أن تكتمل حجة المرجع الاول السيد محسن الحكيم باليمن والبركة ، نستمع الى محاضرنا الممتاز في موضوع « مرجع الشيعة الاول يحج الى مكة : أضواء وتأملات » (٨٥) .

في هذه المحاضرة ، عرّف الفارعاملي بالشيعة، والخلافة، وفقه الشيعة ، والاجتهاد ، والمرجع ، والمرجع الاول ، والحج ، والكعبة ، ثم انتهى الى مقارنة خفيفة وسريعة بين حدث مسيحي من هنا وحدث اسلامي من هناك ، ثم بين آيات قرآنية وبين نصوص في رسالة القديس بولس الى كولوسي (Colossias) ومما قاله :

« منذ مدة قريبة أطلت على العالم رسالة « السلام على الارض » من القديس العظيم ، العظيم جدا ، يوحنا الثالث والعشرين ، ثم أعقبت هذه الرسالة دعوته الى انعقاد المجمع المسكوني الذي ما يزال يستمر في مهمته .

« وفي هذه السنة أخذت انباء حج قداسة البابا

(٨٥) ميشال اسمر : محاضرات الندوة اللبنانية ، السنة الثامنة عشرة ، النشرة (٥) ١٩٦٤ ، ص ص ٥/٦

(بولس) السادس الى الاماكن المقدسة تملأ مسامع الدنيا ، ذلك فضلا عن التقاء الحبرين ، قداسته وغبطة البطريرك أثيناغوراس ، في مهبط المسيح ومعراجه » .

أضاف الفارعاملي :

« وما تزال أخبار المؤتمر العام لعلماء المسلمين في القاهرة تتناقلها الألسن . والآن نسمع بنبأ رحلة المرجع الاول للشيعة الى حج بيت الله الحرام » .

ويتساءل :

« هل من صلة تربط هذه الالتقاءات الروحية وهل من مخطط لهذه النشاطات المعنوية ؟ سؤال علينا أن نجيب عنه وقد عرضنا الحلقة التي لن تكون الاخيرة من هذه السلسلة » .

ثم يجيب فيقول :

« الرسالات الإلهية ذات أطوار ثلاثة تبدأ برسالة الضمير الانساني ، تليها رسالة الانبياء ، وأخيرا رسالة التجارب المريرة والصعوبات والمشاكل التي يعانيها الانسان

والتي هي محرّكات لدفع الانسان الى الخير والكمال»[٨٦] .

ومثلما فعل في الجامع الكبير ، في الجزائر ، كذلك فعل في الندوة اللبنانية ، فأدرج الآيتين : ٤٦ ، ٤٧ من سورة المائدة [٨٧] ، واختار قبالتهما نصاً من رسالة القديس بولس الى أهل كولوسي [٨٨] ، ثم اتخذ الآية ٦٩ من سورة المائدة أيضا [٨٩] ، وعادلها بنص آخر من رسالة القديس

---

(٨٦) السيد موسى الصدر : محاضرات الندوة ، المصدر نفسه ، ص ص ٢٥/٢٦

(٨٧) هما: « وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدّقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدّقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

(٨٨) هو: «ولا يكذب بعضكم بعضا ،بل اخلعوا الانسان العتيق مع اعماله والبسوا الانسان الجديد الذي يتجدد للمعرفة على صورة خالقه حيث لا يوناني ولا يهودي ختان ولا أقلف ولا اعجمي ولا اسكوني ولا عبد ولا حر بل المسيح هو كل شيء وفي الجميع ، فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين احشاء الرحمة واللطف والتواضع والوداعة والاناة محتملين بعضكم بعضا مسامحين بعضكم بعضا . ان كانت لاحد شكوى على آخر وسامحكم الرب سامحوا أنتم أيضا » .

(٨٩) هي: «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . » .

بولس نفسها [٩٠] ، ثم الآية ٧٨ من سورة الحج [٩١] ، ليقول :

« سبحان الله ، ما أشبهه (قول بولس) بالقرآن.

« نعم ! رسم الرسل هذه الخطة الواضحة وطلبوا من الناس أن يتعارفوا وأن يستبقوا الخيرات وأن يكونوا كما أراد لهم ربّهم .

« ثم أتمّوا الحجة ، ودفعاً لكل ما يحتمل وقوعه بين أبناء دين واحد من الاختلاف في الرأي قالوا بلسان محمد : « اختلاف أمتي رحمة » .

«والحقيقة أن التفاوت في الرأي وفي الاديان من أهم أسباب الحركة الفكرية وعدم الجمود من مستلزمات ظهور المواهب الذاتية .

---

(٩٠) هو: « ليس اليهودي ولا اليوناني ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر ولا انثى ، لانكم جميعا واحد في المسيح يسوع فاذا كنتم للمسيح فانكم اذن نسل ابراهيم وورثته بحسب ابراهيم » .

(٩١) هي: «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ،وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا يكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » .

«ولكن الانسان ، ويا للاسف ، جعل من الدين أو المذهب مركبا جديدا للخلافات وتعبيرا قويا عن اهوائــه وأنانياته ، فأثار بهذا العنوان فتناً كبرى ومشاكل وأزمات أكثر من قبل »(٩٢) .

لقد سبق للمحاضر الفارعاملي أن ذكَّر ،في منتصف الكلام ، بحادثة التبغ في ايران سنة ١٩٠٠ م، ليرسم صورة لأثر « المرجع الاول » فقال :

« كانت شركة استعمارية قد نالت امتياز التبغ في ايران ، فاستغلّت جهل الحكام وحاجتهم الشخصية الــى المال ، فسيطرت ، حسب بنود الاتفاق ، على مساحــات شاسعة من الاراضي والاحراج بحجة أنها لازمة لزراعــة التبغ ، وبذلك أسست دولة قوية ضمن دولة ضعيفــة . فالتجأ المخلصون من زعماء الشعب ، وعلمائه بعدما يئسوا من اقناع الملك ، الى المرجع الاول وكان حينها السيــد محمد حسن الشيرازي (جد السيد حسن الشيرازي كما ذكرنا) المقيم في سامراء بالعراق . فحكم بحرمة التدخين في ايران . وهكذا حاربوا الشركة محاربة سلبية سليمةحتى ان الملك ناصر الدين شاه طلب ذات يوم في قصره الخاص نارجيلة ، فأنكرت عليه زوجته الملكة وغطّت وجهها عنه

(٩٢) السيد موسى الصدر:محاضرات ص ص٢٩، ٣٠، ٣١.

بحجة ان الذي حلّلني لك حرّم عليك ذلك . فأدى هذا الحكم الى افلاس الشركة وخروجهــا من البلاد وإلغــاء اتفاقيتها » (٩٣) .

والحادثة هذه يرويها محمد حسنين هيكل كما يلي :

« .. ففي مارس (آذار) ١٨٩٠ ، منحت حكومــة الشاه امتيازا الى رجل انجليزي يدعى ج. هـ.ف. تالبوت (Talbot) ، يقضي بانتاج وبيع وتصدير كل الــدخان الايراني لمدة خمسين عاما ، مقابل ١٥ر٠٠٠ « خمسة عشر ألف جنيه استرليني » تُدفع سنويا الى الشاه ، علاوة على ربع صافي الربح الذي قد يؤول الى الشركة التي ستستفيد بالامتياز » .

أضاف هيكل :

« في هذه المرة تم التوصل الى طريقة فعالة لمقاومة التدخل الاجنبي الذي سبَّب كثيرا من المرارة والامتعاض . فقد أصدر الحاج « ميرزا شيرازي » (كذا)زعيم المجتهدين، فتوى أعلن فيها ان استعمال المؤمن للدخان بأي شكل من الاشكال يعتبر رذيلة » .

وقال أيضا :

(٩٣) المصدر نفسه .

« وقـد أطـاع الناس هذه الفتوى باجماع أدهش المراقبين الاجانب . وانتشرت الاضرابـات ، وتم سحب الامتياز . وقبل وقوع ذلك قدّم الوزير الانجليزي فـي طهران تقريرا الى وزارة الخارجية يقول فيه : « نحن نشهد الآن ثورة » [94] .

طبعا ، لم يكن جمهور الندوة اللبنانية ، ليلتذاك ، مهيّئاً لان يستقرىء ما ذكّر به الفارعاملي من أثر «المرجع الاول » ، وانما أدهشته تلك المقارنة بين كلمات من القرآن وكلمات من العهد الجديد ، حتى خرج محدّثاً بـ «عظمة» المحاضر ، و « انفتاحه » و « تحرره » و « شمولية ثقافته» بل «جاذبيته» قبل «الثقافة» و «الانفتاح» و «التحرر» .

كان ينقص الندوة اللبنانية من يقول : « نحن الآن نشهد ثورة » . ولو وُجد من يقـول بهذا ، ويناقش الفارعاملي ، لقامت « ثورة نسائية » عليه ، ووصفتـه بـ « المخرّب » و « المشاغب » ارضاء للمحاضر الكبير ، وطالبت بطرده من « الفردوس » ، ولا ريب انها «منتصرة» في جميع الاحوال .

وفي الرابع والعشرين من أيار ١٩٦٥، ألقى الفارعاملي،

---

(٩٤) محمد حسنين هيكل: مدافع آية الله، ص ص ٤٣، ٤٤

في الندوة اللبنانية أيضا ، محاضرة عنوانها : « الاسـلام وثقافة القرن العشرين » ، فكانت واحـدة من سلسلـة « المسيحية والاسلام في لبنان » ، وقد حدّد المحـاضر بموجبها المقصود من كلمة الثقافة في هذا البحث ، وثقافة الاسلام أو الاسلام الثقافي ، وموقف الاسلام مـن سائر الثقافات . فنالت من الاعجاب والتقدير ما نالته سابقتها، وعبَرَتْ بسلام ، من شارع لبنان ، في المنطقة الشرقية ، الى شارع محمد الحوت ، في رأس النبع ، ومن هنـاك الى كل الوطن . بيد أن الخاتمة كانت بمثابة السؤال ،حيث يقول :

« وأخيرا هل يعالج الاسلام مشكلة القرن العشرين الكبرى ، مشكلة السلام ؟ هذا الدين الذي يأمر اتباعـه بالدخول في السلم كافة ويجعل تحيتهم سلاما ، هذا الدين هل يتنكر جوهره للمشكلة ؟ سؤال من اللازم الاجابـة عليه في استقصاء البحث عن الثقافة الحديثة » .

ويجيب الفارعاملي نفسه قائلا :

« أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته العليا ، تنعكس على الكون وتتجلى في الخلق ،فهو سبحانه السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام .

« والكون ــ هذا المحراب الكبير للسجود والتسبيح

لذات الله ــ والمجتمع ــ هذه المجموعة المنوعة المترابطة من بني الانسان ــ والانسان ــ هذا الموجود الممتاز ــ كل منها مخلوق لله ، موصوف بصفة السلام الالهي ، وكل منها نموذج عن الآخر . فالسلام الكوني والسلام الفردي يعطيان نهجا منطقيا من السلام العالمي ، فالاختلاف في العنصر والرأي والانتاج في المجتمع العالمي يجب أن نعترف به ونعتبره كمالا له وجمالا فطريا يسهل التعارف والتفاعل والوحدة » .

أضاف :

« هذا الاختلاف ، وبتعبير أوضح : هذا التنوع ، يتجلى بشكله ونتائجه في جسم الانسان وفي الصورة التي يعطيها السلام عن الكون . فلا سلام بلا تنسيق الجهد الثقافي ووحدة الخطة العامة ولا سلام مع الرغبة في فرض وحدة الانظمة والآراء والانتاج والعناصر » .

وقال أيضا :

« اخواني الاعزاء ، هذا إسلامكم . وهنا أقف معترفا خاشعا أطلب العفو عن تقصيري في التعبير عنه (؟) . فاذا وجدتم أنه يختلف عما في أيدينا أو عما كنا نتصوره ،واذا وجدتم انه يتمكن من الاحتفاظ بقيادة الانسان في هذا القرن ويقدر على خلق ثقافات جديدة ، اذا وجدتم ذلك

كله أو بعضه ، اذا وجدتم زيادة حب له ورغبة صادقة فيه فقد أديت وأدت الندوة رسالتها »[٩٥] .

الى ماذا كان يقصد الفارعاملي في خاتمة محاضرته « الاسلام وثقافة القرن العشرين » ؟؟

مهما كان هدف الفارعاملي ، فان الرأي الاول والاخير لا لهذا المستمع (المشاهد) أو ذاك ، بل لـ « السحر » و « الدلال » ، وأما النيات فعلمها عند الله ليس الا .

ان احدا من جمهور الندوة لم يتخيل ، يوما ، أن الفارعاملي سيدعو الى التسلح ، وأن منظمة عسكرية شيعية سيعلن ولادتها . لا ، ولا كان من « المعقول » ، آنذاك ، أن يتنبأ ولو واحد من رواد ندوة شارع لبنان ، بولادة حزب اسلامي « أصولي » ، يدعو الى جمهورية اسلامية،حسبما قال لي أكثر أصدقاء «السيد»ــ«الامام» من المسيحيين .

ظل الفارعاملي يحاضر في منابر المسيحيين حتى الاشهر الاولى من حرب السنتين كما دُعيت . في الجامعة اليسوعية حاضر ، بدعوة من (المحامي) ايلي اسود ، باسم « رابطة طلاب الجامعة » . في كنيسة سان لويس حاضر (*٧) . المدارس المسيحية التي دعت الفارعاملي اليها ، وظلت

(٩٥) السيد موسى الصدر : محاضرات الندوة ١٩٦٥ ، ص ص ١٤٣/١٤٤

في المعهد الانطوني – بعبدا حاضر • في جديدة غزير حاضر ، بدعوة من الاستاذ سليم رعيدي (المدير الحالي للبيت المركزي لحزب الكتائب) • في معهد القديس بولس– حريصا حاضر • في مدرسة راهبات « البيزانسون » – بسكنتا حاضر • في مدرسة عينطورة للآباء اللعازاريين حاضر• في زحلة حاضر (بدعوة من السيد عبده سعد،رئيس اتحاد نقابات الحرفيين وأصحاب الاعمال في لبنان ، وبعض وجهاء البلدة) • في عشقوت حاضر • في المدرسة الوطنية– شكا حاضر • في مدرسة دير سيدة اللويزة حاضر • وفي الثانوية الانجيلية الوطنية في ضبية ، التي أقفلتها الحرب ، حاضر بدعوة من الدكتور جبرائيل جبور ، ولما تأخر القس عن المجيء طلب اليه الدكتور جبور التريث،فقال الفارعاملي: أنا أقرأ الانجيل بدلا من القس • الا ان القس وصل فباشر الفارعاملي المحاضرة • • وربما من الصعب احصاء أو جمع المحاضرات والخطب التي ألقاها الفارعاملي على مدى خمسة عشر عاما ، اذا اعتبرنا انه حاضر في معظم المدارس والمعاهد المسيحية،عدا ما له في كل حسينية ومسجد ومنزل ومهرجان•

وتبقى مدرسة « القلب الاقدس » (Collège du Sacre-Cœur) في شارع غورو – بيروت ، وحدها بين المدارس المسيحية التي دعت الفارعاملي اليها ، وظلّت

(*٧) قدمه نيابة عن الامير عبد العزيز شهاب ، محافظ جبل لبنان السابق الشاعر جورج قازان .

الدعوة حبرا على الورق• ذلك أن (الزائر) (Visiter) الاخ برنار حبيقة ، قد طلب من الفارعاملي ، في منتصف العام الدراسي ١٩٦٨ – ١٩٦٩ م• القاء محاضرة في قاعة المدرسة ، فقبل الفارعاملي الدعوة ، الا أنه في الوقت المحدّد تخلّف عن المجيء من دون سابق علم أو انذار (؟!) وفيما المدعوون (أهالي التلاميذ وأصدقاء الرئيس) ينتظرون المحاضر ، دخل مبعوث من الإمام ليعتذر باسمه عن عدم تمكنه من الحضور ، فرفض الرئيس الاخ برنار الاعتذار ، وخرج من في القاعة وعلى الوجوه شيء من الغضب والاستنكار •

وبعد حوالى خمسة عشر يوما مرت على هذه « الغلطة » اتصل الإمام ،هاتفيا ، بالرئيس الاخ ، مكررا اعتذاره وأسفه الشديدين ، ثم رجاه لو يجدد الدعوة في أي وقت يشاء ، فلم يُبدِ رئيس المدرسة تجاوبا ، فأقفل كلاهما السماعة وفي قلبه حزن لم تمحه الايام التي مضت [٩٦] •

وفيما اسم الفارعاملي يكبر وينتشر على كامل الاراضي اللبنانية ، انبثقت في المناطق الشيعية ، تجمعات وهيئات سياسية ودينية واجتماعية ، لمنافسة الفارعاملي ، ولجم « خيوله المطهّمة » ، خوفا من « الأعظم » الذي هو « تسييس الدين » ، فكان ردّه ، على هذه الحركات والتحركات ، عنيفا لم يُبقِ مجالا للمصالحة •

(٩٦) من مقابلة مع الزائر (Visiter) الاخ برنار حبيقة في مكتبه ، الكائن في المدرسة المذكورة ، يوم ١٦ حزيران ١٩٨٧

وصمّم الفـارعـاملي على ملاحقـة خصومه أينما كانوا ، وحيثما اتجهوا . فاذا كان المثل العامي يقول : «إنْ طلع صيتك حصّاد حط منجلك واقعدْ » ، فان الفارعاملي الذي عمّ صيتُه البلاد من أقصاها الى أقصاها ، ما تـرك « المنجل » وقعد ، بل هو واصل الحصْد شمالا ويمينا ، وقيل « دونكيشوتياً »أيضا.فقضب بـ «آلته » الفارسية زرعا لآل الاسعد والخليل وعسيران الذين في الجنوب ، وزرعاً لآل حمادة في البقاع . ولم يعفُ عن زرع الاحزاب « الوطنية » و « التقدمية » . وعفّر في التراب عمائم بيضاً وسوداً ، ليست « رجعية » كما وُصفت ، بـل محافظة وصابرة ، لا ترى حاجة الى الجمع بين الدين والاحتراف السياسي ، وبخاصة في لبنان المميّز من سواه من جيرانـه لجهة تكوينه الجغرافي والاجتماعي .

وعلى قول أوساط الزعيم العاملي كامل الاسعد ،فان الفارعاملي قد تخصص في منازعة « البك » ، وكان هدفه الغاء هذه الزعامة التاريخية ، متناسياً أن ولاء العامليـين للعائلة الاسعدية ، ليس ولاء العبد لسيده ، وانمـا ولاء المواطن المتمسك بأرضه وتراثه لزعيمه المخلص الحكيم .

وبصراحة أكثر ، تقول الاوساط نفسها : ان حب العامليين لآل الاسعد هو امتداد لحب الآباء والاجـداد لمشاهير الرجال من آل علي الصغير ، أصل آل الاسعد ،

ولا سيما منهم الامير « البطل المجاهد المنقذ ناصيف بن نصار الاحمد أشهر أمراء الشرق الاوسط وأعظم أمـير عربي قام في القرن الثاني عشر للهجرة » (٩٧) . واذ أحبّ أهلنا هذا القائد الخالد ، فلأنه « اشتهر بالشجاعة والبطولة والوفاء والشهامة والمروءة . وله حوادث مأثـورة ومعارك مشهورة »(٩٨) شهد لها القاصي والداني . أما وإن بـدا من«البك»(كامل)بعض التقصير أو التهاون،فهذا لا يعني أنه « طاغية » أو « يرفض أن تتقدم طائفته » ، كما اعتقـد الفارعاملي وغيره،بل هي الظروف الصعبة التي تتحكم في جبل عامل،منذ العهد التركي الظالم والغاشم ،مرورا بـ«الانتداب الفرنسي » ، ووصولا الى « العصر الاسرائيلي » الذي معه أصبح جبل عامل كأنه فوق بركان . على أن « البك» كان عدو نفسه لا عدو الطائفة ، وستبرهن الايام على ان صمته منذ أن حالوا بينه وبين رئاسة المجلس النيابي كان أعظم وأفعل من كل أولئك الذين بقوا في الساحة يتصارعـون باسم مؤيديهم ومحازبيهم . ولكم رفض « البك »السلاح غير الشرعي والمعارضة المسلّحة !

وتضيف أوساط الاسعد : ليت « السيد » لم يحكش

(٩٧) محمد جابر آل صفا : تاريخ جبل عامل ، دار النهار ١٩٨١ ، ص ٥١

(٩٨) المصدر نفسه .

(يظلم) « البك » ، لكان خدم الطائفة خدمة جليلة،وحقق مشتهاه . ولكنها السياسة التي ما دخلت بيتا الا أفسدته ودمرته . ومن أسف ان « السيد » قد غلّب الاحتراف السياسي على الدين ، حتى أخرجنا من ديننا ومشى .

والحقيقة ان « البك » ليس كالامير ناصيف بن نصار الاحمد . فذاك شهيد الجزار والتعسف العثماني ، وهذا « شهيد » مزاجيته وعنفوانه من جهة ، وشهيد الليالي التي فاقت على ألف ليلة وليلة ، في «الكيت كات » و « الليدو» في الزيتونة من جهة أخرى ، ما أنساه الجنوب ،حتى اختلسه منه الفلسطينيون والاسرائيليون .

والحقيقة أيضا ، أن الفارعاملي قد ضخّم الامور ، اذ صوّر للشيعة اللبنانيين ، بالقار ، واقعهم ، وأشعل النار في بيادرهم وحقولهم ، فبدوا وكأنهم يغادرون كربلاء الدم والهم والانكسار حديثا . وفي الوقت نفسه صوّر لهم المستقبل بأبهى الالوان وأجملها : « جنة من جنان الله » ، فطارت عقول « الجياد » وعقول « المهار » معا .

واذ الصراع الشيعي ـ الشيعي يحتدم شيئا فشيئا، « أشرق نور جديد في سماء صور » (٩٩) . فبعد أن

---

(٩٩) الاب الياس كويتر المخلصي : أسقف ملكي مر في سماء الشرق كالبرق ، المطبعة البولسية ١٩٨٧ ص ١٧٢

« تعثرت المسيرة في أبرشية صور » (١٠٠) للروم الكاثوليك، ثم « دقت ساعة الرب (فانتخب) السينودس الملكي في ٥ أيلول سنة١٩٦٥الاب جورج حداد أسقفا على المدينة»(١٠١) و«هو لم يتجاوز (بعد) الحادية والاربعين من عمره»(١٠٢).

واستُقبل المطران جورج حداد بمثل ما استقبل من قبله : الفارعاملي والمطران يوسف الخوري الماروني .

أين الذي قال ، يوم وصل المطران الخوري :«صار لمدينتنا صور قمران»؟ أين هو اليوم ؟ لنقلْها نحن : حمى الله صور .. لقد صار لها ثلاثة أقمار .

ويا لسرعان ما نشأت صداقة بين الفارعاملي والاسقف الجديد ، عمّقتها الايام والاحداث ، واستمرت حتى شهر آب « الاسود » من عام ١٩٧٨ .

ان أول ما لفت انتباه المطران حداد ، هو « بيت الامة » أو « الدار الاسقفية » كونها « رمز الطائفة » ، و«مركز الاشعاع الراعوي والاجتماعي لكل الابرشية»(١٠٣).

---

(١٠٠) المصدر نفسه
(١٠١) المصدر نفسه .
(١٠٢) المصدر نفسه .
(١٠٣) المصدر نفسه : ص ١٧٣

وكانت هذه الدار واسعة الارجاء ، فسيحة الغرف، تتألف من طابقين وقد بنيت بسعي أساقفة دمشقيين (منهم) : اثناسيوس خوّام وافتيموس زلحف مثلما درجت عليه دور مدينتهم دمشق . و« كانت تتألف من ثلاثة أجنحة، فالجناح الارضي كان يضم قاعات مختلفة للاستقبال وللموائد والمكاتب ، أما الجناح الثاني والثالث فكانت فيهما غرف النوم للاسقف ولمعاونيه وللضيوف . وكانت كلها قد هرمت وشاخت ، اذ قد ناهز عمرها سنة ١٩٦٥ المئة سنة، ومرّت عليها أحداث كثيرة »(١٠٤) .

عندئذ ، وعلى الفور « بدأ الاسقف ورشة الاصلاح بالعمل في دار المطران أولا ، وفقا لمبدأ اعتنقه وآمن به، وقد ردده مرارا ، وهو ان البيت الذي يرتاح فيه الانسان، والذي يجد فيه الطمأنينة والاستقرار والراحة ، يسكنه بارتياح ويعمل فيه باجتهاد ونشاط ، ويرجع اليه مرارا ، ويطمئن في العمل فيه ، ويفرح بأن ينطلق منه في دروب الخير »(١٠٥) .

لقد « نظّم المطران جورج هذا البيت وفق ما صوّر له قلبه الكبير المرهف الشعور ، وفكره البعيد الرؤى ،

(١٠٤) المصدر نفسه : ص ١٧٣
(١٠٥) المصدر نفسه

ووفق ما صوّرت له نفسه الكريمة ، الاصيلة في الحسب والنسب . فبنى لكي لا يهدم مرة ثانية ، كما يقول المثل: « ان الفقير يبني بيته مرتين » . بنى فأعلى وشيّد بناءً عصرياً ، ومنظّما ورائعا ، وأصبحت مطرانية صور تضاهي في ترتيبها ونظامها أجمل المطرانيات في الطائفة ، بل في الطوائف الاخرى وأصبحت بيتا للاسقف وللكهنة والشعب يجدون فيه الراحة والطمأنينة ويفرحون بها معتزين بكرامتهم »(١٠٦) .

زار الفارعاملي مقر المطران حداد ، قبل الاصلاح وخلاله ثم بعده . فأعجب بما انتهت اليه «ورشة الاصلاح»، ففرح وتألم في آن معا . على أن الالم الذي شعر به الفارعاملي وهو يجول مع صديقه الاسقف في أرجاء البيت القديم ـ الحديث ، ليس سببه الحسد أو الغيرة ، بل الطموح الذي ما زال يغالبه ، منذ زار للمرة الاولى المطران يوسف الخوري في داره ، دار الطائفة المارونية الصورية، الواسعة والمنظمة أيضا .

لماذا لا يكون لي مركز يضارع هذا المركز أو ذاك ؟ قالها الفارعاملي لنفسه ، وهو يشرب القهوة مع مضيفه والمرافقين ، حول بركة الماء التي تتوسط فسحة دار طائفة

(١٠٦) المصدر نفسه

الروم الكاثوليك في صور . ولاحظ المطران جورج الشرود على وجه ضيفه فسأله :

— ما بك يا مولانا ؟ هل من حاجة ؟

— أبدا يا صاحب السيادة .

— ولكنني أراك تفكر في أمر ما ؟

— أجل ! انني أفكر في انشاء مركز للطائفة التي لا مركز لها حتى الآن .

— معك حق يا مولانا . فليعمّر الله معك .

— شكرا يا صاحب السيادة .

— أين سيكون هذا البيت الذي تفكرون فيه ؟هنا في صور ؟

ضحك الفارعاملي وقال لصاحبه :

— كلا . بيت الطائفة يا صاحب السيادة ينبغي له أن يكون في العاصمة .

— الله يوفقْ . ولكن صور أيضا محتاجة اليكم.

— بالنسبة الى صور ، يتجه تفكيرنا الى انشاء مؤسسة تربوية فيها .

— أخذ الله بيدكم .. وكلّل مساعيكم بالنجاح .

وشكر الفارعاملي لمضيفه استقباله الحسن وتمنياته الصادقة،وودعهوفي نفسه رغبة عظيمة في البناء والاستقلال.

لم ينس المطران حداد ، ابن بيت شباب ، ان يقول لضيفه : « ان جليل الاعمال غالبا ما يتعرض للانتقاد والحرب والمجابهة »[١٠٧] . فلما باشر (المطران) عمله قيل « ان هذا البناء لا يتوافق مع حالة الشعب الكادح ، وظروف مدينة فقيرة ، وقيل ان البناء استنزف مالاً وفيرا، كان يجب (أن يعطى للمساكين) ، وقيل ان البناء يضاهي القصور علواً وفخامة وغنى »[١٠٨] . غير أن « المطران البنّاء » تابع عمله ولم يعبأ بما قيل ويقال ، حتى زار مطرانية صور البطريرك مكسيموس صايغ « ١٨٧٨ — ١٩٦٨) فقال ردا على منتقدي البناء : « ان بيت الاسقف هو عنوان كرامة الطائفة ، وهو عزّها وفخرها ، كما ان البيت الأم الذي اذا ارتاح فيه الاسقف والكاهن عمل حسنا ، وجَدّ ونشط ، فتجني الرعية أشهى الاثمار وأطيبها »[١٠٩] .

« يجب أن يكون للطائفة الشيعية كيان وبيت » .

---

(١٠٧) المصدر نفسه
(١٠٨) المصدر نفسه
(١٠٩) المصدر نفسه

شعار رفعه الفارعاملي ، واتخذ منه قضية ، وأيـة قضية . فانقسمت « جياد » الطائفة بين مؤيدين ورافضين ، ولكـل رأيه ومفهومه . أما « المهار » فمعظمها مع « القضية »، وهي تريد « مركبا » كيفما كان ، حتى ولو من القش،لكي تعبر به الى حيث كراسي « العز » و«الشرف» المنضّدة والمعلّقة . وظن الفارعاملي أن « المهار » لا تكره ولا تحسد ولا تكذب ، فهيّجها ثم أطلقها من دون أن يُتبعها ألجمتها، فوُطئت مقامات وعلالي ، وهُتكت كرامات وقيم ، وبتنا نسمع بأن فلانا قتله فلان ، وفلانا وشى بفلان . وسمعنا أيضا عن نزاع بين كامل الاسعد و « السيد » ، وسمعنا ، ثم سمعنا ، الى أن دخلت أمرأة من صور ، ابوهـا يدعى « الأبجر » ، بيت الفارعاملي تطلب الحماية من أخيها ، لأن زوجها قد سيّبها بعد أن خطفها وافتضها [١١٠] ، فحلّ لها الفارعاملي مشكلتها ، بردّها الى « عريسها » (على الرغم من ابرازه شهادتي طبيبين شرعيين تؤكدان عذرية «السيدة المصون ») وفرض عليه المهر والنفقة ، وألزمها الطاعة ، ووصّاه بالمعروف [١١١] . والثابت ان « السيدة » كانت ترمي الى إحداث فتنة ، لا الى حل مشكلة ، فادّعت بعد أن ترددت الى بيت الفـارعاملي مستـأجَرة ، المرة بعد

(١١٠) جمال الدين : ص ١٠٣

(١١١) جمال الدين : ص ١٠٣

الاخرى ، أن الفارعاملي شُغِف بها ، وراودها عن نفسها . ومرّت ليلة ، أو ليلتان ، على الخبر ، المنفقة ، و « كـأن سلكاً من الكهرباء مسّ الشيعة في لبنان ، بل مس كـل لبنان ، وانتفض الجبل الأشم ، يدفع عن أرضه الطيبـة شائعات السوء ، وسفالات الفتنة »[١١٢] المدمِّرة .

وخاب سعي من تآمروا على الفارعاملي ، سـواء الذين اختلقوا هذه الفِرْية ، أو الذين وظفوها لخدمـة مصالحهم ، وما نال أحد من هؤلاء وأولئك مطلوبه . واذا الفرصة مؤاتية ، فعجّلت « الولادة الرابعة » التي كـان الفارعاملي على موعد معها . ذلك ان الوفود قد أمّت صور «على شكل سواقي ونهيرات،وما لبث أن صارت بحرا هادرا ، اجتث بموجه الصاخب بذور الفتنة ، وأخـرس ألسنة السوء ، فتوارت أشباح الشر ، وهي لا تعرف كيف، ومن أين تنهزم » [١١٣] وتنهار أبدا .

لقد عرف الفارعاملي كيف يتعامل مع الحدث ويسخّره في سبيل « القضية » التي يصارع من أجلها .

« وما يفيق السيد الامام من هول الافتراء السافل،

(١١٢) جمال الدين : ص ١٠٣ ومنبر ومحراب ص ص ٨٩ ٩٠

(١١٣) جمال الدين : ١٠٤ ومنبر ومحراب

حتى ينهض بايجابيته المعروفة الى انتزاع العبرة واستخلاص الحكمة ، واجتذاب تنظيم تنعكس آثاره فورا لمصلحة الطائفة الشيعية الاسلامية المسبوقة الضائعة » (١١٤) .

وعلى قول « الفارعاملي » نفسه :

« .. وبالواقع درست أسباب هذا الزحف الشيعي، فاستخرجت محتواه من اطاره، فتكشف لي عن طابعه الشيعي وقد طغت عليه شعارات الظلامة ، التي تلف الشيعة ، من الرأس الى القدم » (١١٥) .

وفي يوم ذكرى تأسيس النادي الحسيني في بعلبك ، الموافق ١٥ آب ١٩٦٦ ، دعا مفتي الديار البعلبكية الشيخ سليمان اليحفوفي (تنازع فيما بعد مع الامام وتفارقا) الى احتفال بالمناسبة ، وكان الفارعاملي من خطبائه فزحف الرجال من كل مكان ، الى النادي الحسيني ، ليعبروا عن فرحهم بنجاة « السيد » من « المؤامرة الخبيثة » التي دبرت له، وعندئذ وقف « البطل » يخاطب الزحوف بقوله :

« كنت بالامس قد مت .. واليوم عدت فحييت ،

---

(١١٤) جمال الدين ومنبر ومحراب
(١١٥) جمال الدين ومنبر ومحراب

فأنا فيما أعيش بعد اليوم مدين لكم، واذن فحياتي لم تعد ملكا لي ، وانما هي لكم ، وفي سبيلكم » (١١٦) .

ومثل بذرة القمح التي تموت في الارض لتنبت حبات ، كان الفارعاملي الذي « مات » ليبعث من جديد، وللمرة الرابعة ، ولكن في البقاع لا في جبل عامل .

وعملا بالقول : « يجب ضرب الحديد حاميا » ،دعا الفارعاملي ، بعد الانتهاء من الاحتفال ، الى مؤتمر صحافي « عرض به المسألة الشيعية ، من جميع جوانبها ، ومظاهر تخلّف الطائفة ، وحرمانها من التوجيه الديني ، والارشاد والتعليم ، وضياعها الروحي ، وزحوفها الى بيروت ،وهي عارية من التهذيب والثقافة والتعليم ، وارتماء ابنائها في أحضان المآسي الاجتماعية » (١١٧) المتعدّدة .

و « بحث في ضعف مؤسساتهم الثقافية والاجتماعية، ومشاكلهم العويصة التي تخلق كثيرا من العقد النفسية ، عندما يتكلون على مؤسسات الطوائف الاخرى » (١١٨) .

---

(١١٦) السيد موسى الصدر ، نقله جمال الدين ومنبر ومحراب
(١١٧) جمال الدين ص ١٠٦
(١١٨) المصدر نفسه

وفي هذا المؤتمر « عرض للاوقاف الشيعية ، تلك الثروة الكبرى البائرة ، في حين لو نظّمت وضُبطت لشكّلت طاقة هامة،في سبيل حل الكثير من المشاكل »[119] .

وعرض أيضا « لمسألة العجز والضعف والمهانة التي يشعر بها المواطن الشيعي ، بسبب شعوره بالحرمان،وكيف يولّد به هذا الشعور ، مسألة اللامبالاة بالمواطنية الحقة »[120] .

شاءت الظروف أن تولد زعامة الفارعاملي — على كل الشيعة — في بعلبك ، لا في صور . ولعل زعماء بعلبك — الهرمل ، ما عدا صبري حمادة ، هم الذين ساهموا في ذلك، لاعتبارات شتى أبرزها : ان الجميع زعماء ، والجميع « شيوخ » . وانه لشرف كبير لبعلبك أن تنطلق منها زعامة كل الشيعة ، التي « احتكرها » جبل عامل،وتحديدا آل علي الصغير (آل الاسعد) ما يزيد على ثلاثة قرون؟!

وفي مؤتمر بعلبك الصحافي ، كشف الفارعاملي عن مشروعه — الحل ، وذلك بالبيان التالي :

---

(١١٩) المصدر نفسه
(١٢٠) السيد موسى الصدر ، نقله جمال الدين ص ص ١٠٨/١٠٩

« هذا الزخم الذي قوبلت به الفرِية الاخيرة ، لم يكن كذلك ، لو لم يستقر في النفوس ، الشعور بالغبن من جانب ، والاحساس بأن المقصود ، لم يكن الشخص ،بل النوع ، ومن وراء هذا طائفة بأكملها تمثل جزءا كبيرا من لبنان ... بل هي جناحاه ، وما حاله اذا هيض الجناحان؟»

أضاف :

«لذلك ،وأنا أشعر الآن — أكثر من أي وقت مضى — بعظم المسؤولية خاصة وأن الجماهير التي أمّت صور تمثل شيعة لبنان بأكملهم .

« — فحبذاً في توحيد الجهود الاخيرة وتجنيد القوى والطاقات الانسانية لرفع مستوى الطائفة الاسلامية الشيعية في لبنان خلقيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا

« — ونظرا لان عملية بناء مجتمع سليم يجب أن ينطلق من صفوفنا ، ليكون منا طائفة ايجابية الاهداف والمرامي والاساليب ، منسجمة مع مخططات الاصلاح الرسمية .

« ورغبة في تركيز الروح الدينية في وقت يذهلنا أن نجد نسبة المستفيدين من التوجيه الديني عند الشيعة لا يتعدى ٢ ٪ اثنان بالمائة ، من مجموع أبناء الطائفة .

« ــ ومن أجل إحياء وتنظيم الاوقاف المهملة لمصلحة العامة ، وحفاظا على المؤسسات الاجتماعيـة والثقافيـة الموجودة ، وجهود الجمعيات والافراد من الهدر ،والوقوع تحت عجز تنوء به كواهلهم .

« ــ وفي سبيل تبادل التجارب ، وبث روح التعاون الاخوي الصادق ، بين أبناء الطائفة ، وشقيقاتها الطوائف الاخرى ، لتؤدي دورها الايجابي في بناء لبنان ، وتنسيق المسؤوليـة المواطنيـة المشتركة ، بين مختلف الهيئـات والمؤسسات والنشاطات والجمعيات والافراد ، التي منها جميعها يتكوّن هذا الوطن الحبيب لبنان .

« ــ ومحافظة على مصالح الطائفة العليا البعيدةعن المصالح الخاصة .

« وسعياً وراء رعاية العدل واحقاق الحق ، ورفـع الظلامات عن جميع المغبونين من المواطنين .

« وتدعيما لوحدة الوطن ، وتقوية كيانه ، ودفـع عجلة الاصلاح والحضارة اللذين هما من الشيم اللبنانية الاصيلة .

« ــ من أجل ذلك كله ، خرجتُ بما أستطيع تسميته

بالمؤتمرات الشعبية التي احتشدت في صور ، وأنا كثير الاقتناع بضرورة الدعوة الى بناء جهاز للطائفة الاسلامية الشيعية يضمن لها الحفاظ على شؤونها الدينية ،والاشراف على أوقافها الخيرية ومؤسساتها الخاصة ، وتتولى تنظيمها وادارتها بنفسها طبقا لاحكام الشريعة الغراء ، والقوانين والانظمة المستمدة منها بواسطة ممثلين من ذوي الكفاءة والرأي من أبنائها » [١٢١] .

على أن هذا الامر « ليس بدعاً من الاعمال ، وقـد نكون تأخرنا في اثارة هذا الموضوع لاننا الطائفة الوحيدة في لبنان التي لا تتمثل بمجلس ملي أو شرعي » [١٢٢] .

تلقّف زعماء بعلبك ــ الهرمل هذا النداء ــ البيان، فتبنّوه وأخلصوا له ، حتى ان أحدهم : الشيخفضل الله دندش ، المعروف بـ « شهابيته » ، قد « ترهّب » لهذه الدعوة ، واقتطع من بيته « جناحا » خـاصا بالفارعاملي وأسرته ، وربما فعل مثله زعماء وأثرياء شيعة بعلبكيون وعامليون .

وهكذا تضافر شيعيون ومسيحيون على تـذليـل

(١٢١) منبر ومحراب : ص ٩٠
(١٢٢) منبر ومحراب : ص ٩٠

العقبات التي وقفت في وجه المطاليب « الصدرية » • وبعد صراع دام حوالى ستة أشهر بين الزعماء الشيعة بعضهم ضد بعض ، وُضع القانون الذي ينص على « استقلال الطائفة الشيعية في شؤونها الدينية وأوقافها ومؤسساتها» وكان ذلك في ١٢ ايار ١٩٦٧ ، مثلما تقدم وسلف •وبويع الفارعاملي رئيسا للمجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، ليبدأ المرحلة الإمامية ــ السياسية ، كما سيتبين لنا في الفصل القادم • أما مقولته : « اني خرجتُ برجل الدين الى عالم الحياة والحركة ، ورفعتُ عنه غبار السنين ، ليسير مع الحياة في تطورها ورقيّها ، منسجما بذلك مع الفكر الديني الاصيل » (١٢٣) ، فما انفكّت تحفر في القلوب والتاريخ معا •

---

(١٢٣) السيد موسى الصدر : نقله جمال الدين ص ٩٧، ومنبر ومحراب ص ٨٩

الفصل السادس

السّياسي : الإمام

"في لقاء تم بين المفتي الشيخ حسن خالد والمرحوم كمال جنبلاط قال الأخير للمفتي: لولا الفلسطينيون لهزمنا ودخل الكتائب البسطة .. رأى المسيحيون والموارنة إنو إذا قوّيوا الفلسطينيين رح يقوى المسلمون. وطالبوا بحقوقهم اكثر واكثر، وقالوا في خطر من الفلسطينيين علينا، يعني على امتيازاتهم، الفلسطينيون كما كنت تقول سماحتك هم جيش المسلمين".

ذكره طوني مفرج في كتابه: "حرب الردّة" دار الجريدة، طبعة ١٩٧٩ ص ٣٩ نقلاً عن كتاب المفتي الشيخ حسن خالد: "المسلمون في لبنان والحرب الاهلية" دار الكندي - بيروت ١٩٧٨ ص ٢٨٧

"وبالنسبة الى الحق الفلسطيني، هل سمعتم أو قرأتم أو شاهدتم رجل دين إماماً يدرب ويحمل السلاح في لبنان او خارجه في سبيل فلسطين وشعب فلسطين قبل الامام الصدر ؟ حتى الحاج أمين الحسيني نفسه لم يحمل السلاح في سبيل قضية فلسطين قبل موسى الصدر. فالصدر كان اجرأهم آنذاك بين كل الطوائف ... واذا استثنينا سوريا الأسد فمن قدّم الى شعب فلسطين اكثر مما قدمه لبنان وابناء الامام الصدر"

الوزير نبيه بري
رئيس حركة "أمل"
من خطاب له في بعلبك
بمناسبة الذكرى التاسعة لاختفاء الامام الصدر
صحف ١٩٨٧/٨/٣١

"لقد قال الامام الصدر لأبي عمّار (ياسر عرفات) جملته الشهيرة: (إعلمْ يا أبا عمّار أن شرف القدس يأبى أن يتحرّر إلا على أيدي الشرفاء) فهل فعلها ابو عمّار أم لا؟"

الوزير نبيه بري
رئيس حركة "أمل"
من خطاب له في صور بمناسبة الذكرى التاسعة لاختفاء الامام الصدر
صحف ١٩٨٧/٩/١

تمهيد :

للمرة الثانية ، نجدنا مكرَهين على القول بأن الفصل بين السيد موسى الصدر الاجتماعي والإمام موسى الصدر السياسي لم يكن سهلا ولا هيّنا ، وكذلك بالنسبة الى معاينة الموقع الذي جاسه الفارعاملي بمزيد من الحرص والاستقصاء ، أو هو كوّنه لنفسه بنفسه فبات يدعى باسمه ، وعلى طريقة : « أنا الشعب والشعب أنا » .

فمنذ أن لفظ مجلس النواب قراره القاضي بانشاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، والفارعاملي يقول ويردد : « أنا الشيعة والشيعة أنا » . وتراجعت « الجياد » الشيعية جميعها نحو المنصّة ، تاركة الميدان لأطول وأجمل « جودي » ، ولسان حاله يقول : الضليعُ الفم والغليظ العنُق مصرعُه لا بد آتٍ مهما تأخر . فهو على «الجياد» ثقيل ، ولـ « المهار » خنّاق . وإنّ الله يُمهِل ولا يُهمِل .

وكما توقّع « المحافظون » ، سقط ،فعلا،«الجودي»

الساحر ، الفارعاملي ، ولمّا يبلغ منتصف الطريق،فتنازعت « المهار » و « الغلمان » الإرث والاسم : « المجلس » و « الثورة » ، وانتصر من انتصر • في حين ظلت «الجياد» ومعها « المهار » المهزومة تتفرج وكأنها ليست من هذا العالم ، أو كأنها جُرّعت حبوب النوم الطويل •

قال فريق من « الجياد » : لقد سقط « الامام» ، وبقي « السيد » •

وقال فريق آخر : لقد سقط « الإمام » و « السيد» معا •

ومن المراقبين من يقول : لو صمد معارضو «السيد» حتى مجيء الرئيس سليمان فرنجية الى الحكم ، لما غادر « راسبوتين » [1] صور ، ولأكل الغبار ملفّ مطاليب الطائفة الشيعية •

لقد تسامع بعضهم بأنني أجمعُ معلومات عن الفارعاملي فقال لي أحدهم ، وهو من المثقفين الشيعة :

« حينما اشترى الامام بيتا للطائفة في الحازمية قيل له : ان هذا القصر لمسْكون ، وتعتقد وارثتاه (شقيقتان

(١) قيل ان الرئيس الاسعد قد جعله لقبا لـ « السيد » ، وذلك في عهد الرئيس الراحل الامير فؤاد شهاب .

من آل القدسي)أن الجن لم يدعْ العائلة تعيش سعادتَها فيه ، بحيث قتل شقيقهما الوحيد • ولأجل هذا باعتا القصر • فضحك الامام وردّ قائلا : (انني سأتحدّى الجن)•ألا تعتقد معي أن هذا القصر مسكون فعلا؟»(*١)

وتابع محدّثي الكلام ، فكان بيننا هذا الحوار وقد بدأه هو بالسؤال :

— هل عرفتَ شيئا عن حياة الإمام الجنسية ؟

(*١) والحقيقة أن قصر القدسي كاد أن يشتريه السادة : جان ابو جودة وفيليب عضيمي وتوفيق عساف ، ليكون مقر « بيت المفترب اللبناني » ، ودفعوا خمسين ألف ليرة عربونا على ثمنه الاساسي وقدره ستماية ألف ليرة لبنانية . حتى ان احتفالا قد تم لاعتقاد اللجنة المؤسسة أو الممثلة لـ«بيت المفترب اللبناني » بأن الصفقة أنجزت ، آنذاك . وألقى الشاعر سعيد عقل خطابا . غير أن « انقلابا » قد حدث في دائرة الاجراء في بعبدا ، حيث بيع القصر نفسه ، بالمزاد العلني ، من المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى وكأن تدبيرا ما قد نفّذ حتى تم ذلك (؟) على ما قال الاستاذ جورج ففالي رئيس بلدية الحازمية الذي حدثني كثيرا عن فضائل الفارعاملي وحبه للحازمية وأهلها ، والدليل على ذلك هو ان الفارعاملي قد تملّك في منطقة مار تقلا ـ الحازمية شقتين: واحدة له والثانية لشقيقته السيدة رباب .

والذي حرّض الفارعاملي على شراء قصر القدسي هو صديقه النائب الدكتور بيار دكاش ، كونه أعجب بموقعه وسعة مساحته وكان يتمنى لو يستطيع هو شراءه ولكن الظروف لها أحكامها التي لا تقاوم احيانا كثيرة .

— كان الفارعاملي — حسبما ظهر لي — يؤثـر الكبت الجنسي على الإفراط ، صونا للكرامة ، وتحقيقـا للتسامي والخَلْق والعطاء وثقة الامـة فيـه • حتى ان « الحلال » — على ما يبدو — كانت تشغله عنه الشغول •

— هل عندك برهان ؟

— أجل •

— ما هو ؟

— يقول الفارعاملي في دراسة له عنوانها :« الاسلام وكرامة الانسان » ، نشرت في مجلـة « العرفان » صيف ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ما يلي :

« ان الاعتماد على مبدأ الحلال والحرام الذي يتّبعه الدّين ، انما هو لاجل المحافظة على عدم ذوبان الانسان وضياعه في العالم المادي المحيط به ، فضلا عـن المصالح الثابتة في الواجبات والمحللات والمفاسد التي توجـد في المحرّمات » •

ويقول :

« فالانسان اذا حاول أن يلبي حاجات جسده ، أو ينحرف مع عواطفه دون تردد ، فسوف يكون متأثرا بالعالم لا مؤثرا فيه • ولا يتمكن أن يكون قائدا للكون ، ولا خليفة لله في الارض ، اذ يصبح منقادا ذائبا فيها •

« أمـا رعاية الحلال والحرام ، فتحتفظ باستقـلال الانسان ، وتجعله مترفعا عن الذوبان مصونا من الضياع ،

حيث لا تكفي لتلبية الحاجة مجرد الحاجة ، بل كـونها حلالا أيضا » [٢] •

ويقول الفارعاملي عن المرأة :

« ان الاسلام منعها من العمل للإثارة والإغراء لكي لا تذوب انسانيتها في أنوثتها » [٣] •

— يبدو أنك لا تعلم كل ما قيل في هذا المجال ؟

— مثلا ؟

— قالوا : كان الإمام ، في الفترة الاخيرة من حياته ، يمارس الجنس مع فتيات مغربيات وتونسيات • فما هـو ردّك ؟

— ان هذا الادّعاء لظالم أيضا ، وهو يشبه ادعـاء تلك المرأة « الصوُرية » التي حاولت تنفيذ مؤامرة على الفارعاملي كادت أن تميته على حد قوله ، ولكنه نجا منها بسلام •

— أفهم من كلامك — اذن — أنك لن تجري على الامام تحليلا كالذي أجريته على النبي صلى الله عليـه وسلّم في كتابك « محنة العقل في الاسلام » • فاذا كان هذا صحيحا ، فهل لك أن تكشف لي عن السبب ؟

— ليس في سيرة الفارعاملي ما يستوجب اجراء مثل

---

(٢) منبر ومحراب : ص ١١٨

(٣) منبر ومحراب : ص ١٢١

التحليل الذي تتحدث عنه • ذلك لان الجنس عند النبي
كان هو طريقه الى السلطة ، فتزوّج ثم تزوج الخ• وقد
كان تحته في آن معا تسع نساء انتزعهنّ من قبائل مختلفة
ومناطق متعددة •

ــ (مقاطعا) والفارعاملي كما سميته ؟

ــ لقد كان الفارعاملي على العكس تماما من النبي
محمد • لانه (الفارعاملي) أدرك أن الذي يلبي حاجات
جسده لا يستطيع أن يكون قائدا للكون ، ولا خليفة لله
في الارض • وعلى هذا اتخذ سبيله ، الى السلطة ، لا
الجنس ، ولا تعدد الزوجات ، بل التسامي والترفع عن
الذوبان والضياع في العالم المادي المشوّه والناقص •

ــ هل ان هذا معناه أن الفارعاملي أفضل من
الرسول ؟

ــ لكل عصر رجاله •• والدليل أن محمدا استمر
حتى انتصر ، فيما الفارعاملي سقط في منتصف الطريق •
ولو ان الفارعاملي عاصر محمدا لكان مثله ميّالا الى تعدد
الزوجات ربما •

ــ ان ما سمعته الآن لهو أروعُ دفاع عن الامام•

ــ بل عن الانسان في الفارعاملي • لقد سألتُ عنه
أصدقاءه : النائب بيار حلو ، والشيخ فضل الله دندش ،
والبروفيسور فؤاد نجيب البستاني ، والشيخ سليم بطرس

الخوري(نام الفارعاملي في منزله بشري ما يزيد على
الاسبوع) ، والعقيد المتقاعد حبيب أسمر ، والسيدة أرملة
ميشال أسمر ،والمحامي انطوان ابراهيم خميس،والاخوين:
أحمد ومحمد اسماعيل ، وجاره : الشيخ زهير الشاويش
(صاحب « المكتب الاسلامي ») ورئيس بلدية الحازمية
الاستاذ جورج فغالي ، والنائب الدكتور بيار دكاش ،
والنائب المحامي نصري معلوف،فأكّد لي الجميع ان الفارعاملي
كان قدوة في النزاهة والتواضع والوفاء • وان
أحدا منهم ما اغتابه ولا ذكره بسوء ، بل عظّمه ، وأثنى
على خلقه الكريم وبيّن فضائله وحسناته في مجالات شتى•
وما زال المحامي خميس ــ مثلا ــ يؤكد على أن منزله الذي فتحه
والده المرحوم ابراهيم المعروف بـ « ابو علي » للسيد
الامام الفارعاملي لا شيء يغلقه أبدا لو عاد الفارعاملي
حيّا•وكما المحامي خميس كذلك النائب حلو الذي طالما
تردد الفارعاملي الى منزله بقصد الراحة والاسترشاد •

على أن أحبَّ الاشياء الى الفارعاملي كانت النارجيلة،
ويتلوها « الشاي العجمي » ، و « السيجار الهافاني » ،
فضلا عن السهر والجدل،مع ميل واضح الى اطلاق النكات
والطرائف • ووصفه الوزير السابق فؤاد بطرس بأنه كان
« خزّانا ثقافيا عظيما يشتمل على مجموعة كبيرة ومتنوعة
من المعلومات ، وهو في الاجمال ذو شخصية تدهشك
وتريبك في الوقت نفسه • وقد اعتبره الرئيس شهاب واحدا

من أولئك الذين وُلدوا ليكونوا قوادا ومصلحين»(٤) .

وقال أحدهم أيضا :

« نُقل عن صحافي دمشقي أنه قال : التقيت في أوائل الستينات ، الشيخ موسى الصدر عند عبد الحميد السرّاج في مكتبه بالشام ، وقد أتى من لبنان لزيارتـه ، فسمعتُ السراج يقول له : « جاءتنا أخبار عنك لا تشرّفك .. اني أحذّرك من خطر ما يُنسب اليك » . ولما غادر الشيخ موسى ديوان السراج ، سألت هذا الاخير عما وراء كلامه القاسي والحاد فقال : « لدينا معلومات عنه تفيد أنه «عميل أميركي » و « عميل فارسي » . وتُشدّد هذه المعلومات على أنه مكلّف من قبل الشاه باثارة الفتن والنعرات الطائفية في لبنان ، بين السنّة والشيعة ، ومكلّف أيضا بردّ علويي سوريا الى المذهب الشيعي » .

وقال آخر :

« يروى أن كامل الاسعد قـد كُسِرت أو انفكت رجله ، فأتى « السيد » لزيارته والاطمئنان الى صحته ، وكان عنده أحد مشايخ السنّة ، لعله المرحوم الشيخ حسن تميم . وخلال حديث طويل كان يعنف حينا ويهدأ أحيانا، قال الاسعد في لحظة غضب : أنت يا شيخ موسى لم تأت لزيارتي .. أنت أتيت لزيارة رجلي » .

---

(٤) من مقابلة معه ، في منزله ، عصر الخميس ٢٣/٧/١٩٨٧ ، وكانت معنا زوجتي : ايمان .

أضاف الراوي الذي لم يرد أن يفصح عن اسمه :

« ولما خرج الشيخ تميم خرج معه « السيد » ...

وبينما هما في المصعد سأل الشيخ « السيد » : أراكَ سكتّ عن هذه الاهانة الفظيعة ؟ فرد « السيد » : لا أريد أن اقتَل في بيت أكبر زعماء الطائفة . ولكن الايام آتية .. فإما هو وإما أنا . ألم يحطّم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الاصنام .. أصنام العرب كلهـا ؟ » ومضى كلاهما في سبيله ، ولا يدري ما الذي تخبئه الايام لكل من الشيخ والبك والسيد (*٢) .

وهنالك من روى قائلا :

« بعد دخول القوات السورية الى لبنان ، بناء لطلب الفريق المسيحي ، على اثر معركة الجبل (١٩٧٦)التي كادت أن تنتهي بانتصار كمال جنبلاط وحلفائه على الكتـائب

(*٢) لقد استبعد هذه الرواية ونفى حدوثها نفيا قاطعا كل من السادة : جعفر شرف الدين وحكمة نصرت الاسعـد ، والشيخ فضل الله دندش ، والنائب صبحي ياغي ، والنائب الدكتور رفيق شاهين . وأكد الجميع أن الرئيس الاسعد لم يقل مثل هذا لمن هو أقل بكثير من الامام الصدر ، فكيف به يقولها للامام . ومهما يكن فان أخلاق الرئيس الاسعد هي أنبل وأكرم مما يتصوره خصومه على قول النائب يـاغي والاستاذ حكمت الاسعد ..

ومن جهتنا لم نتمكن من الاتصال بالرئيس الاسعـد لوجوده خارج البلاد .

وحلفائهم ، دعا الامامُ الصدر زعماء عشائر بعلبك والهرمل ، الى اجتماع هام وخطير في أحد مراكز القوات السورية في البقاع . فلبّى الذين دُعوا هذا النداء العاجل على ما وُصف في حينه . وكم كانت المفاجأة كبيرة ومذهلة، اذ صارح الامام الحاضرين بأنه قد أعدّ هو وبعض معاونيه مشروع « الادارة الذاتية للبقاع » . وطلب من كل عشيرة مئة رجل أو ما أمكنها ، لكي يتم تدريبهم على القتال واستعمال الاسلحة ، في سبيل تكوين جيش شيعي يستطيع اجتياح كسروان وجبيل ، من أجل العودة بالشيعة الى هاتين المنطقتين ، والربط بين بعلبك والبحر من جهة ، وبين هذا الكيان الذي سينشأ وبلاد العلويين من جهة أخرى . فارتعب ، عندئذ ، أصحاب العشائر ، وعارض معظمهم هذا المشروع الطائفي التقسيمي ، وأعلنوا تمسّكهم بلبنان الواحد الموحّد ، ثم غادروا الاجتماع الذي استغرق ثلاث ساعات أو أكثر تخلّلها عرْضٌ وتحليل لتاريخ الطائفة الشيعية ونكباتها المتكررة . وقد بدا الامام حزينا لما صدر عن هذا اللقاء » (*٣) .

وقال لي المطران غريغوار حداد :

« مذ تم للسيد انشاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، بدأت العلاقة التي كانت بينه وبين « الحركة

(*٣) ونفى السيد جعفر شرف الدين أيضا هذه الرواية ، لاعتقاده بأن « السيد » كان مع الدولة اللبنانية وليس عليها.

الاجتماعية » تخف يوما إثر يوم ، حتى انقطعت كلية . لقد أخذتْه منا شؤون المجلس وهموم الطائفة الشيعية الكريمة » .

وتابع المطران حداد يقول :

« والحق أقول انه كانت لديه طاقة عظيمة على العمل الاجتماعي ، فلما افتقدناه بقينا لفترة غير قصيرة نشعر بالفراغ الذي أحدثه » .

وقال أيضا :

« واذ باشر بتأسيس « حركة المحرومين » ، اتصلنا به ، وطلبْنا منه أن يكوّن حركة لكل المحرومين في لبنان، وعرضنا خدماتنا عليه . واذا بنا نفاجأ ، بعد قليل، بالاعلان عن « حركة المحرومين » (الشيعة) ، فذهبنا اليه لنبدي ملاحظاتنا وآراءنا ، فكان جوابه : (معكم حق .. ولكنني لم أستطع أن أفعل أكثر مما هو الآن). فودّعناه ومشينا كأننا نودعه لآخر مرة » (٥) .

وحدثني جار الفارعاملي الشيخ زهير الشاويش قال:

«في احدى ليالي رمضان من سنة ١٩٧٠ أو ١٩٧١، كنا: السيد وأنا نعقد سهرة رمضانية ، فذهب بنا الحديث في ما ذهب ، الى سيد قطب ، فظهر لي أن السيد موسى لم يعرف

(٥) من مقابلة معه في مكتب «الحركة الاجتماعية» بدارو، صباح الثلاثاء ١٩٨٧/٧/٧

على اليقين أعمال هذا الكاتب الاسلامي الكبير ، القائل بأن الحضارة الحديثة ليست الا شكلا آخر من أشكال العصر الجاهلي ، فأعطيته كتاب « العدالة الاجتماعية » لسيد قطب نفسه ، بعد أن فتحت على احدى صفحاته ، وطلبت منه أن يقرأ ، فقرأ :

« فلما جاء الامويون ، وصارت الخلافة الاسلامية ملكا عضوضا في بني أمية ، لم يكن ذلك من وحي الاسلام ، انما كان من وحي الجاهلية الذي أطفأ اشراقه الروحي الاسلامي » [٦] .

أضاف الشيخ زهير الشاويش :

« فوجد هذا النص « السيدقطبي » هوى في نفس السيد موسى ، وراح يقلّب الصفحة تلو الصفحة ويهز رأسه عجبا . ثم رأيته يتوقف عند نص آخر ، فقرأه عليّ وقد بدا في مسرّة وحسن حال ، اذ يقول سيد قطب :

« وفي أيام بني أمية ثم في ايام بني العباس من بعدهم ، كان بيت المال مباحا للملوك كأنه ملك لهم خاص ، وذلك على الرغم من وجود بيتين للمال : بيت المال العام ، وبيت المال الخاص . والاول مفروض أن موارده ومصارفه للجماعة ، والثاني مفروض أن موارده ومصارفه من خاصة

---

(٦) تأكدنا من هذا النص برجوعنا الى « العدالة الاجتماعية » ـ طبعة دار الشروق ، الطبعة الشرعية التاسعة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ١٥٤

السلطان . لكنّا نجد أحيانا أن أموالا عامة تُحمل الى بيت المال الخاص ، وأن مصارف خاصة تؤخذ من بيت المال العام » [٧] .

وقال الشاويش أيضا :

« اذ ذاك رغب السيد موسى أن يضم كتاب « العدالة الاجتماعية في الاسلام » وبعض مؤلفات كاتبه ، الى مكتبته ، فكان له ذلك . وفيما بعد أخبرني السيد نفسه أنه قرأ كتاب « العدالة الاجتماعية » مرتين . واعترف بأنه تأثر بالافكار التي تضمنها ، بل بالاسلوب أيضا . وأعتقد أن السيد موسى قد طعّم بعض خطبه ومحاضراته وأحاديثه بأقوال من سيد قطب ، ان في « العدالة الاجتماعية » وان في « في ظلال القرآن » ، من دون الاشارة الى ذلك حرْزاً من أمور كثيرة قد لا يعرفها الا القلائل » [٨] .

وسمعت من يقول : ان الفارعاملي لم يكن على وفاق تام مع « المكتب الثاني » ، بل انه أُهين في الستينات على يد ضابط في النبطية لانه ألقى محاضرة انتقد فيها الدولة ، فأوقفه ذلك الضابط في المخفر مدة تزيد على الساعة ، ولما راجع الفارعاملي المسؤولين تظاهروا بالغضب والاستنكار

---

(٧) العدالة الاجتماعية : الطبعة المذكورة سابقا ، ص ١٧٧

(٨) من مقابلة معه في مكتبه بالحازمية ، ظهر السبت ١٠/٧/١٩٨٧

فاتصلوا بـ « الغريم » فأطلعهم على « الحقيقة » . عندئذ قالوا للفارعاملي: «ان الضابط يا سيد معه حق . فاما أن تعود الى النبطية وتلقي محاضرة تصحّح ما ورد في المحاضرة السابقة وإما الرجوع الى ايران » . فرطّب الفارعاملي الجو وخرج وفي نفسه بعض خوف من المستقبل .

ان هذه العلامات والمحطات ، التي تثق ببعضها ولا تثق ببعضها الآخر ، هي ، بمحاسنها ومعايبها ، جزء من شخصية الفارعاملي السياسية والاجتماعية ، وقد رأينا من الضرورة الكشف عنها وتبيانها ، في هذا التمهيد ولو طال، نظرا لأهميتها ، سواء صحّت أو لم تصح ، على صعيد البحث عن سياسة الفارعاملي التي كانت مزيجا من الاصوليتين : الدينية والسياسية . على أن مجرّد التداول في هذه الروايات والاخبار ، سرّاً أو علنا ، يؤكد واجب الاهتمام بهذه الشخصية التي « يجتهد » فريق في سبر أغوارها ، وفريق « يجتهد » في تحطيمها والقضاء عليها كأنها لم تكن .

المفصِل

ان أول ما قد يتبادر اليه القارىء هو السؤال التالي :

ـ أين يقف الفارعاملي من التيارات الدينية في المشرق العربي ، وما هو مفهومه للسياسة ؟

ان الجواب على هذا السؤال ، لا يكون الا في منحيين ليس لاحدهما غنى عن الآخر . الاول تحديد مفهوم الفارعاملي للسياسة . والثاني : تأمّل في خريطة التيارات الدينية في المشرق العربي ، وكيف كانت مسيرتها خلال ما مضى من هذا القرن حتى الآن .

من الواضح ، أن السياسة كما يراها الفارعاملي هي جزء من الدين : الاسلام . ولا تستقيم الا اذا كانت «أمراً بالمعروف » و « نهياً عن المنكر » . وبهذا يتفق ، شكلا ، وجميع الذين قالوا بأن الاسلام دين ودولة ، وناضلوا من أجل قيام « دولة الحق » : « دولة الاسلام » . وأما تمام الاتفاق فمع فئة دون أخرى ، وهذا ما سنبيّنه لاحقا .

بعد مؤتمر بعلبك الصحافي ، ألقى الفارعاملي في الجامعة الاميركية محاضرة عنوانها : « الاسلام » ، هي بمثابة المفصِل بين « السيد » و « الامام » ، ومما جاء فيها :

« ان الاسلام لم يكتفِ في تعاليمه بالعقائد وبالتوجيه الخلقي ، بل قدّم نظاما عاما يشمل صلات الفرد بالآخرين وبالدولة ، وتنظيمات ادارية ودولية ، فضلا عن قوانين الاحوال الشخصية » (٩) .

---

(٩) منبر ومحراب : ص ١٠٦ ، عن مجلة العرفان ، العدد ٥٤ تاريخ شعبان ١٣٨٦ هـ / تشرين الثاني ١٩٦٦ م.

وقال متسائلا :

« هل الذين يكتفون أو يريدون من الاديان أن تكتفي بالايمان والاخلاق يعتقدون أن صيانة الايمان والمحافظة على الاخلاق الحسنة أمران ممكنان لمن لا يرتبط في عمله الخارجي بخط يتناسب مع الايمان والاخلاق المذكورين »[١٠] .

ويلحّ الفارعاملي في السؤال فيقول :

« هل الانسان الذي يُعَدّ موجودا واحدا لا موجودات متعددة ، هذا الانسان هل يتمكن أن يعزل روحه عن تأثيرات جسده ، أو يمنع جسمه من التفاعل بروحه والاخلاق اللذين هما من أفعال النفس ، هل يمكن إبعادهما عن تأثيرات أعمال الجسد ؟» [١١] .

واذ هو يسأل هكذا ، فلكي يرد بنفسه على السؤال ويقول :

« طبعا الجواب واضح : فان التفاعل بين جوانب وجود الانسان أمر بديهي ولهذا لاجل صيانة الايمان والاخلاق لا بد من أن يتقيد الانسان بعمله وأن يرتبط برباط يتناسب مع الصيانة الروحية المذكورة . والقرآن

(١٠) المصدر نفسه
(١١) المصدر نفسه

الكريم مثل بقية الكتب المقدّسة ، يؤكد هذا ويعلن أن ممارسة الاعمال تنزع الايمان عن القلب : (ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) [١٢] . ثم هل من معقول أن يعيش الانسان في مجتمع يناقض الخط الذي يسلكه في عمله ويتنافى مع ايمانه وأخلاقه وهو لا ينفعل بذلك المجتمع ؟!» [١٣] .

ويتوسّع الفارعاملي في الجواب ، ليؤكد على صحة تفسيره للبيان القرآني ، فيقرر :

« ان الانسان في تكوينه ، في حياته ، في حاجاته ، في وعيه ، في تفكيره ، وفي جميع جوانب حياته ، الانسان في جميع ذلك موجود اجتماعي يتفاعل مع مجتمعه ، الذي يعيش فيه ، فهل يمكنه أن يعزل إيمانه وأخلاقه وأعماله الشخصية من تفاعلات مجتمعه ؟ » [١٤]

وهنا أيضا ، يجيب الفارعاملي أو هو يكرّر الجواب نفسه ، زيادة في الايضاح ، بل زيادة في التأكيد على أخلاقية وايمانية كل من المجتمع والفرد ، فيقول :

(١٢) الروم : ١٠ .
(١٣) منبر ومحراب نفسه
(١٤) المصدر نفسه

« أكّد الاسلام على لزوم ايجاد مجتمع يتناسب مع الايمان والاخلاق والاعمال الصالحة وأعلن بصراحة « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا وجاره جائع»أكرر ما آمن لكي ننتبه الى التناقض الذي يراه الاسلام بين الإيمان وبين سوء الوضع الاجتماعي الذي يوجب هذه الظاهرة » .

ويقول :

« وعلى هذا الاساس نجد أن الاسلام ، الذي يؤكد نبيّه (انما بُعثتُ لأتمم مكارم الاخلاق)،يحاول،لاجل التمكن من هذه الغاية ، أن يتدخل في الحياة العملية للانسان ، ثم في الحياة الاجتماعية ، فيضع لذلك مبدأ الحلال والحرام ، ولهذا فالأنظمة القانونية الواسعةأصبحت قريب النصف في التعاليم الاسلامية »[١٥] .

ويتشدد الفارعاملي في أحكامه ليثبت « أصوليته » الدينية فيقول :

« ان الدين ، حسب رأي الاسلام ، شريعة وضعها خالق الكون والانسان أي الله سبحانه . فهو ، حيث إنه خالق الكون ، يعرف جميع جوانب وجوده ، ظواهره

---

(١٥) منبر ومحراب نفسه

وبواطنه ، ويعرف أيضا جميع جوانب وجود الانسان وجميع حاجاته ورغباته . ان الله يعرف هذا كله فوضع قوانين لكي يتمتع الانسان بالكون فيحيى حياة طيبة كاملة . تماما مثلما تضع مؤسسات صنع السيارات توجيهات لصيانة السيارة والاستفادة الكاملة منها لان المؤسسة خبيرة بكيفية صنع السيارة ومشخصاتها وطرق الاستفادة الكاملة منها »[١٦] .

بل ان الاسلام يرى في ما يرى ، أن الله « صنع الشريعة والتوجيهات المذكورة بكلمات صادرة عنه هي الآيات القرآنية »[١٧] فحسب . وكما هو معروف « فان كلام الله يختلف عن كلام البشر تماما حيث ان فهم كلام البشر محدود بمستوى معرفة القائل ولا يمكن التجاوز لهذا الحد »[١٨] أيا كان السبب . و « كلما ازداد مستوى معرفة المتكلم ازداد إمكان تفسير كلامه والتعمق فيه»[١٩] . وليس عبثا ان « يتعمق القضاة والمحامون في تفسير نصوص القوانين الى درجات تتجاوز حدود تفسير كلام العامة من الناس »[٢٠] .

---

(١٦) منبر ومحراب نفسه
(١٧) المصدر نفسه
(١٨) المصدر نفسه
(١٩) المصدر نفسه
(٢٠) المصدر نفسه

ودائما يرجع الانسان الى الله ، ولا حيلة له الا أن يرجع الى « كلام الله »[٢١] ، الذي هو « من الحقائق الكونية » [٢٢] • ومنه يكتشف (الانسان) « في كل مرحلة شيئا جديدا ، كما تظهر كل يوم صفحة جديدة من حقيقة الانسان ، بمعرفته الجديدة »[٢٣] •

على أن « كلام الله » هو الاسلام •• والاسلام فقط • ومن لا يحكم بتعاليم الاسلام التي لا تُحدّ ، فانما يحكم بتعاليم بشرية قائلها معروف ومستواه محدود مهما علا وارتفع • وبمعنى أوضح : لا سياسة الا السياسة الدينية ، ولا دين الا الاسلام ؟!

والواقع أننا لا نرغب في القول بأن الفارعاملي قد تخلى عن رسالته الاجتماعية واتّبع السياسة • بل هي محاضرته : «الاسلام» التي حملتنا على تشخيص المفْصِل • وقد ثبت لنا أن الفارعاملي لم يترك العمل الاجتماعي نهائيا ، وان يكن قد غلّب السياسة قولا وعملا ، حتى نُصّب إماما ، والبعض يقول بأنه نصّب نفسه ، ويا ليته تأنّى في طلبه هذا بعض الوقت •

---

(٢١) المصدر نفسه
(٢٢) المصدر نفسه
(٢٣) المصدر نفسه

قبل « الاسلام » ـ المحاضرة ، أو المفْصِل ، صدّر الفارعاملي ترجمة كتاب « تاريخ الفلسفة الاسلامية » للمستشرق هنري كوربان ، بكلمة نقدية حدّد فيها مفهوم الشيعة للإمام ، فقال :

« ولا يُعَدّ الإمام عند الشيعة الإثني عشرية مرجعا في تفسير الرموز القرآنية ، فلا رمزية ولا كشف لبواطن الاحكام بالإرث العلمي من النبي •وهو ليس قيّما على كتاب الله (كما يحسب كوربان) • ولكن معنى الإمام هو انه المثل الكامل الذي جعل إماما ليقتدى به في الدين، والدين يتضمن الآراء والعقائد والاخلاق والاعمال والآداب ، ورعاية ذات الانسان بجميع جوانب وجوده وفي عامة شؤونه » •

أضاف :

« والإمام ، هو الإمام في جميع هذه الشؤون ولجميع هذه الجوانب •فهو المقتدى به والنموذج الكامل في قوله وفعله ، في فكره وعواطفه ، في رأيه بالموجودات ونظرته الى الكون في كل المسالك الفكرية والخلجات القلبية»[٢٤] •

ويصف الفارعاملي مقام الإمام بأنه « خطير » [٢٥]

---

(٢٤) المصدر نفسه : ص ٧٣
(٢٥) المصدر نفسه

و « لا يبلغه الا الأوحدي من البشر بعد التجارب الصعبة والجهاد المتواصل »(٢٦) ، مستشهدا بالآية : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمّهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين »(٢٧) .

ويرى الفارعاملي أن رأي الإمام في تفسير الآيات القرآنية،هو « الرأي المفضّل »(٢٨) لانه (الإمام) « المثل الكامل في الادراك الاسلامي لكلام الله »(٢٩) و « حامل التراث العلمي الديني من رسول الله »(٣٠) ، والحجة التي لا تقاوَم مثلما في قول الامام الصادق : «كل ما أرويه لكم فقد رويته عن أبي الباقر عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول الله »(٣١) .

ومهما اختلفت الظروف والاحوال ، فانه « يؤخذ برأي الامام في التفسير وفي بيان الاحكام لقول الرسول : « ومثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن

---

(٢٦) منبر ومحراب نفسه
(٢٧) البقرة : ١٢٤
(٢٨) منبر ومحراب نفسه
(٢٩) المصدر نفسه
(٣٠) المصدر نفسه
(٣١) المصدر نفسه

تخلّف عنها غرق » ولقوله أيضا : « إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي . ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبدا »(٣٢) .

يُفهم من هذا الكلام أن الفارعاملي قد بلغ مقام الامام مثلما بلغه ، من قبله ، الأئمة : علي وابناه الحسن والحسين ، وأحفادهم التسعة من ذرية الحسين والذين استحقوا أو نالوا هذا المنصب من بعدهم .

ماذا يقول خصوم الفارعاملي ؟

ربما لن يقولوا أكثر من:«عفا الله عنه » . فيوم كان للكلمة وقعُها وصداها ، قالوا ما كان يجب وما لم يجب قولُه ، إن تلميحا وان تصريحا ، الا أن الحكم كان لسيف « الديموقراطية » الممضّ والحاد والموجع .

« فكما لا نبي بعد الرسول محمد كذلك لا إمام بعد المهدي المنتَظر » . قالها الذين لم يهنأ لهم أن يتولى الفارعاملي منصب الإمامة . وعلى الرغم من استحضار النصوص ، التي « لو نزلت على جبل لخرّ ساجدا »، فاز « المقدّر » فوزا ساحقا . وجلس الفارعاملي على

---

(٣٢) منبر ومحراب نفسه

«العرش»،فيما كانت الجهة المعارضة توزع،في الخفاء،بيانا عنوانه : « يا شيعة علي ، هؤلاء أئمتكم » وفيه :

« قال الصادق (ع) : « الآيات السبع التي ذكرها أمير المؤمنين (ع) هي : أسماء الأئمة من ذرية الحسين(ع) وان هذا الامر يصير الى من تَلْوى اليه أعنّةُ الخيل من الآفاق ، وهو المظهر على الدين كله ومالك قافاتها وكافاتها ودالاتها ، وهو المهدي (ع) » .

أضاف البيان :

« قال (الصادق) وشرح ما قاله أمير المؤمنين (ع) على الاختصار وقال : أنا دحَوْتُ أرضها معناه انه وعترته تسكن الارض ، وقوله : أنا أرسيت جبالها معناه انه وعترته الامان من الغرق وانهم الجبال الرواسي ، وقوله : أنا فجّرت عيونها لان الأئمة من عترته هم ينابيع العلم والحكم ، وقوله : اينعت ثمارها اشارة الى عترته ،وقوله: أنا غرست أشجارها اشارة الى ان الأئمة من عترته هم شجرة طوى وسدرة المنتهى ، وقوله : أنا أنشأت سحابها اشارة الى عترته ، لانهم الغيث الهامل ، وقوله : أنا سمعت وعدها معناه أنا أنبت العلم ، وقوله : أنا نوّرت برقها لان عترته نور العباد والبلاد ، وقوله : انا البحر الزاخر معناه العلم » .

وتابع البيان السري يقول :

« وقوله (أمير المؤمنين) أنا شيّدت أطوارها معناه شيّدت الدين ، وقوله : انا قتلت مرة الشياطين يعني أهل الشام ، وقوله : أنا أشرقت قمرها وشمسها وأجريت فلكها ، المراد الائمة فهم الشموس والاقمار وسفن النجاة، وقوله : أنا جنب الله يعني حق العلم وعلم الله ، وقوله : أنا دابة الارض معناه أفرّق بين الحق والباطل ، وقوله : وعلى يدي تقوم الساعة اشارة الى المهدي (ع) يحكم في الارض زمانا طويلا ، واذا مات قامت الساعة ، وقوله :فيّ يرتاب المبطلون أي من جحد ولايتي هلك ومن أقرّ بها نجا . قال : وانما فسّر الإمامُ منها على مقدار عقل السائل » [٣٣] (*٤) .

---

(٣٣) ذكره الحافظ البرسي ، في كتابه : مشارق انوار اليقين ، في أسرار أمير المؤمنين ، السابق ذكره ، ص ١٧٢

(*٤) يذكر انه عندما أحيل قرار مجلس النواب المتعلق بانشاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، على « لجنة نواب الجنوب » ، لدرسه وتوقيعه ، قدّم مشروعان: واحد أعده الفارعاملي وحلفاؤه ، والآخر أعدته « جمعية علماء الشيعة » . واقترح الثاني أن يكون رئيس المجلس «مجتهدا» و « يحمل اجازات من الحوزات العلمية في النجف »و«لبنانيا من أب لبناني»،الامر الذي يعوق وصول الفارعاملي الى رئاسة=

وختم البيان بالقول :

« هؤلاء هم أئمتكم ، أئمة الحق والهدى ، والعدل والعدالة ، فاياكم أن تتخذوا لهم شركاء ، وليس إماما من يـدّعي لنفسه ما أعطاه الله لأئمتكم الاثني عشر عليهم السلام جميعا » .

ان الذين عرفوا غاية البيان ومصدره قالوا : لا حول ولا قوة الا بالله . اللهم نجّنا من الاعظم .

وقال الذين شغلهم الشكل عن المضمون : عجّل الله ظهورك أيها الامام المستتر محمد بن الحسن، يا صاحب العصر والزمان .

ونقل عن شقيق الفارعاملي ، آية الله رضا الصدر ، انه قال عندما سمع بتنصيب شقيقه إماما : أعوذ بالله . أعوذ بالله . ان هذا لكفر" بكل تأكيد .

= المجلس المنوي تأسيسه ، كونه «غير مجتهد» أولا ، وليس لديه الاجازات المطلوبة ثانيا ، و « لبنانيا حديثا » ثالثا . غير ان هذه الاقتراحات عدّلت بطلب من السيد جعفر شرف الدين ، حتى أصبحت موافقة لورقة الفارعاملي . وقد لوحظ آنذاك حياد الرئيس كامل الاسعد .

ومع هذا وذاك ، ترسّخ المفصل فكأنه الحبر في الصحيفة والعلم في القلب .

افكار لا تعيش

ان كل من يطالع كلمات الفارعاملي في مساجد أوروبا والمغرب والجزائر ، ويقرأ محاضرته : « مرجع الشيعة الاول يحج الى مكة » ولا سيما منها قوله : « وتجري منذ مدة غير قصيرة محاولات لدراسة الفقه المقارن وأصوله ، ولا شك أن تقارب الآراء يحدث تقدما علميا وحركة فكرية في مجالات الفقه الواسعة ، وتقاربا على أسس مدروسة بين الامة »[٣٤]، وقوله في مكان آخر: « ان الاسلام يرحب بكل حركة فكرية ايجابية وكل تطوير عقلي سليم ، ويعتبر كل هذا جزءا من رسالة الانسان في الحياة وواجبا من واجباته »[٣٥] ، نقول : من يطّلع على هذه الكلمات وتلك، لا يمكنه اكتشاف مذهب هذا الداعية الاسلامي العصري والانوق ، ولربما حسبه « أفغانياً » جديدا غايته : وحدة المسلمين والابتعاد بالاسلام عن خطر المذاهب والاحزاب .

---

(٣٤) محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٦٤ ، ص ١٤ ، منبر ومحراب ، ص ٢٩

(٣٥) محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٦٥ ، ص ١٢٩ ، منبر ومحراب ، ص ٤٧

ولكـن سرعـان ما يصاب بالخيبـة حين يقرأ رد الفارعاملي نفسه ، على المستشرق كوربان ، الذي تقـدم ذكره ، حيث يقول (الفارعاملي) مصحّحا :

« وفـي ختـام البحـث عـن الامـام أود أن ألفـت نظـر القـارىء الكريـم الـى ما ورد في هذا الكتاب (كتاب المستشرق كوربان) من أن التشيّع ليس مذهبا خامسا في مقابل المذاهب الاربعـة السنّيـة الاخرى • فاعتقادنا هو ان الفقه عند الشيعة يُعتبر فقهـا اسلاميا جديدا يعتمد على الكتاب والسنّة والاحـاديث المروية عن الأئمة والتي تمثل فهما أعمق للكتاب وأوسع للسنّة مما أوجب الاستغناء به عن القياس وعن الاعتماد على المصالح المرسلة » •

ويقول :

« أمـا الفقه عند المذاهب الاخرى فهو يعتمد على القرآن الكريم والمعـاني التي استنبطها كبار الصحابـة والتـابعين من القرآن وعلى السنّة المطهّرة التي رُويت ودُوِّنت في عهد الرسول والخلفاء ، وهي القسم القليل من السنّة النبوية لانه منع تدوينها ونقلها •

« ويعتمد هذا الفقه على آراء الصحابة الذين عاشوا جميعا في عصر متقارب وأدركوا نوعا من الحيلة بعيدةعن التطورات والاحداث التي تنجت عن تلاقي الحضارات»•

ويقول أيضا :

« ولهذا السبب بالذات بقي المشكل قائما بعدما شاهد الفقه نفسه أمام الاحداث الجسام الجديدة ،وراجع المعاني القرآنية الموجودة عنده ، وراجع النصوص القليلة من السنّة ثم اعتمد على آراء الصحابة ، فما وجد فيهـا جوابا لجميع أسئلته ولا عثر على حل لكل مشاكله،فاضطر عندها أن يعتمد على المتشابهات والنصوص الواردة فيها فأسس القياس ، وبقي العجز بالرغم من هذا كله قـائما وبقيت الموضوعات الجديدة شرعية » (٣٦) •

ان الفارعاملي اذن هو شيعي المذهب ، وليس مسلما شموليا كما حسبه البعض • هويته واضحة ، وسياسته أيضا واضحة • أما « الانفتاح » على الغير فمن جملـة السُّبل والمناهج التي سلكها الفارعاملي لاجل الوصول الى غايته المنشودة • ان هذا تؤكده علاقته مع المرحـوم ابراهيم خميس (أبو علي) المسموع رأيه عند الـرئيس سليمان فرنجية ، ولكن الاخير لم يلن ولم ينشىء علاقـة مع الفارعاملي على الرغم من محاولة المرحومين « أبو علي خميس » والشيخ بطرس الخوري ، وذلك احتراما منـه لصداقته مع الرئيس الاسعد من جهة ، وكرهاً لياسر عرفات

(٣٦) منبر ومحراب : ص ٧٧

الذي قدّسه الفارعاملي وساعده على تسليح بعض شباب
الشيعة من جهة أخرى •

ويستأنف الفارعاملي الكلام ردا على كوربان فيقول:

« وهنا التجأ الفقه الى اعتماد المصالح المرسَلة التي
تشبه الى حد كبير وضع القوانين والتشريع ، وبهذه الطريقة
تمكن من تطوير نفسه وحل مشاكله • ولكن سرعان ما
رأى نفسه أمام مشكلة أخرى ، هي مشكلة وحدة الآراء
الفقهية وقربها واجتماعها في اطار مذهبي مناسب ، حيث ان
الآراء اختلفت وازداد بُعد بعضها عن بعض حتى كاد أن
يخترق شمل المسلمين وهنا اضطر الفقهاء أن يسدّوا باب
الاجتهاد »[٣٧] •

ويحدد الفارعاملي موقع الفقه الشيعي من الفقه
السنّي فيقول :

« ان وجه الشبه بين المذاهب الاربعة الفقهية من
حيث المصادر ومن حيث التاريخ ومن حيث المصير أكثر من
أن تجعل الفقه الشيعي قسيمة للمذاهب الاربعة • فالفقه
الشيعي يقع بالضرورة المنطقية ، مقابل الفقه السنّي ثم
يقسم الفقه السنّي الى المذاهب الاربعة »[٣٨] •

(٣٧) منبر ومحراب : ص ٧٨
(٣٨) منبر ومحراب : نفسه

اذاً ، كيف يكون التقارب بين الفقهين والحالة كما
بيّنها الفارعاملي ؟

ان المسألة ، على ما يظهر ، تستدعي لا التواضع
والتسامح فحسب ، بل الرغبة العميقة والجادّة في المصالحة
والاتحاد • فأيٌّ من الفريقين : السني والشيعي ، سيكون
هو المتواضع الاول والمسامح الاول ؟

هنالك من يعتقد أن الفارعاملي كان هو « السبّاق »
الى توحيد الفقه ، عندما وجّه الى مفتي الجمهورية
اللبنانية الشيخ حسن خالد كتابا يدعوه فيه ، الى « تعميق
وحدة المسلمين » ، وبما أن الحظ لم يسْعِفه ظلت دعوته
هذه حبرا على ورق •

والصحيح أن في كتاب الفارعاملي الى المفتي خالد ،
استقواء مع التحدي ، لا تواضع أو ما يقاربه حتى • ومن
الطبيعي أن يأتي رد خالد عليه مشابها له ، أو من العيار
ذاته مثلما يقال •

فعلى اثر انتخاب الفارعاملي رئيسا للمجلس
الاسلامي الشيعي الاعلى ، (٢٢ ايار ١٩٦٩) ، كتب
الزعيم الشيعي الى ندّه الزعيم السنّي رسالة جاء فيها :

« سماحة الاخ الجليـــل الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية الموقر

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية الاسلام الطيبة ، وبعد :

« في هذه الايام العصيبة التي تلفّ الامة بالقلق ، وبين يدي هذه الاخطار المحدقة التي تجعل المنطقة كلها ، حاضرها ومستقبلها ، في مضرب الطوفان ، تبدو لنا بوضوح أكثر حاجة المسلمين الملحّة الى وحدة شاملة متلاحمة لجمع ما تفرّق من صفوفهم وتوحيد ما تبعثر من جهـودهم ، وذلك حتى تتبين لهم مواقع أقدامهم وتعود الثقة الى أنفسهم وهم في طريقهم الى المستقبل وأمـام بناء تاريخهم واداء مسؤولياتهم » .

أضاف :

« ان جمع الكلمة وتوحيد الطاقات وتنمية الكفاءات ، ليس موجبا كونها من أشرف الغايات الدينية ، ووصيـّة نبيّنا العظيم فحسب ، ولكنها أيضا تتصل بـوجـودنا وكرامتنا وبمقومات وجود أجيالنا ، انها مسألة حياتية .

« ووحدة الكلمة هذه لا ينبغي أن تظل شعارا مرفوعا أو كلمة مكتوبة بل يجب أن تكون ومضة الفكر وخفقة

القلب ودرب السلوك ، انها البعد الاساسي للمستقبل » .

وتابع يقول :

« ولا يكون ذلك الا ببذل عناية فكرية خارقة وايلائها اهتماما وجدانيا خاصا والسعي والسهر من أجل تكريسها . عندئذ تصبح الوحدة حقيقة قائمة ونموذجا عليه يُحتذى ومثلا به يقتدى » [٣٩] .

وكمن يُبدي استعدادا للامر يقول مخاطبا المفتي خالد :

« وها نحن نضع تجربتنا المتواضعة بين ايديكم وكان قد سبق وعرضنا في أول لقاء بيننا في دار الافتاء الاسلامية منذ أربعة أشهر ، أن توحيد كلمة المسلمين وعقولهم وقلوبهم ، وبتعبير أدق ، أن تعميق وحدة المسلمين وجعلها على ركائز فكرية وعاطفية متينة يتحقق بطريقين » [٤٠] هما : « توحيد الفقه » [٤١] و « طريق المساعي المشتركة » [٤٢] .

---

(٣٩) منبر ومحراب : ص ٢١٨/٢١٩ ، عن جريدة «المحرر» ١٩٦٩/١٠/٩ م .

(٤٠) منبر ومحراب : ص ٢١٩ ، عن « المحرر» نفسها .

(٤١) منبر ومحراب : ص ٢١٩ ، عن « المحرر نفسها .

(٤٢) منبر ومحراب : ص ٢٢١ ، عن « المحرر » نفسها .

وبعد أن يضرب له الامثال التي منها: كتاب «الخلاف» للشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٤٣) ، منذ ما

---

(٤٣) ترجم له السيد جعفر شرف الدين في كتابه : «جذور الثورة الاسلامية» ـ المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٢ . ومما قاله نقلا عن المؤرخ آية الله الشيخ الطهراني :

« هاجر الى العراق من (طوس) ، فهبط بغداد في سنة ٤٠٨ هـ / وله من العمر ثلاثة وعشرون عاما . وكانت الزعامة آنذاك لشيخ الامة ، الشهير بالشيخ المفيد . فلازمه ملازمة الظل ، حتى اختار الله لاستاذه دار بقائه سنة ٤١٣ للهجرة. فانتقلت الرئاسة والزعامة ، الى علامة تلاميذه ، علم الهدى، السيد المرتضى ، فلازم الحضور تحت منبره . وبالغ المرتضى في توجيهه وتلقينه . وعين له كل شهر ، اثني عشر دينارا ، « شأنه شأن تلاميذه » . وبقي ملازما له طيلة ثلاث وعشرين سنة ، وحتى توفي السيد المعظم سنة ٤٣٦ هجرية . فاستقل شيخ الطائفة بالامامة ، وظهر على منصة الزعامة . وكانت داره في الكرخ من بغداد ، مأوى الامة ، ومقصد الوفاد ، يأتونها لحل المشاكل ، وايضاح المسائل. وبلغ عدد تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة ، وما لا يحصى عدده من العامة » .

اضاف :

« وقد بلغ الامر من الاكبار له ، أن جعل له خليفة الوقت ، القائم بأمر الله ، كرسي الكلام . وقد كان لها عظمة تفوق الوصف . ولم يفتأ شيخ الطائفة ، امام عصره ، حين ملئت الفتنة بين السنة والشيعة ، واتسع نطاقها ، بأمر طغرل بك ، أول ملوك السلجوقية . فانه ورد بغداد سنة

=

يزيد على الالف سنة ، وكتاب « التذكرة » للعلامة الحلي ابن يوسف بن المطهر (٤٤) ، وكلاهما في الفقه المقارن ، (ان وضع كتاب او اكثر في الفقه المقارن لا يعني بالضرورة توحيد الفقه) . و « دار التقريب بين المذاهب الاسلامية » التي اسسها ، في القاهرة ، بعض العلماء السنة والشيعة ، يستعرض الاهداف الشرعية والاجتماعية والوطنية، كتوحيد الاعياد والشعائر الدينية ومكافحة الامية والتشرد ورعاية الايتام ، وتحرير فلسطين وحماية لبنان ودعم المقاومة

=

٤٤٧ هـ وشن على الشيعة حملة شعواء ، وأمر باحراق مكتبة الشيعة ، وكانت من دور العلم المهمة ، بين السوريين في الكرخ ، على مثال (بيت الحكمة) في بغداد . فقد تجمع فيها ما تفرق من كتب فارس والعراق . واستكتب اليها تآليف الهند والصين والروم (حتى) نافت كتبها على العشرة آلاف من جلال الآثار » .

وعن ابن الجوزي أيضا :

« وهرب ابو جعفر الطوسي ، ونهبت داره . هاجر الى النجف الاشرف ، بجوار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وصيّرها مركزا للعلم ، وجامعة كبرى للشيعة الامامية ، وعاصمة للدين الاسلامي والمذهب الجعفري ، واخذت تشد اليها الرحال واصبحت مهبط رجال العلم وقام فيها صرح للاسلام » (ص ص ٢١/٢٢) .

(٤٤) انظر ترجمته في كتابنا : نحن وصنمية التاريخ، فصل: الامامة والسياسة بين الطوسي والحلي والقوشجي ص ص ٤٦٦/٤٨٦

الفلسطينية والتعاون الكامل مع الدول العربية الشقيقة وتحصين الجنوب ، يعود فيقول :

« ولكنها كلها بحاجة ملحة الى وضع دراسات دقيقة لتنفيذها ولتحديد المسؤوليات فيها ، والى تنسيق جهود جميع ابناء هذا البلد فيما بينهم ومع المسؤولين ومع الدول العربية ولتجنيد طاقات المسلمين في العالم واصحاب الضمائر الحية والنوايا الحسنة في كل مكان » .

ويقول :

« ولاجل المشاركة الحقيقية في هذه الواجبات أي بذل جميع ما في الوسع ، علينا أن ندرس هذه الامور وبرامجها وأساليبها بصورة مشتركة تسهّل تنسيق النشاطات ومضاعفاتها .

« هذه نماذج نعرضها على سماحتكم على أمل دراسة الموضوع من كل جوانبه وتكليف ذوي الاختصاص لتكوين لجان مشتركة والشروع في العمل فورا » (٤٥) .

ثم يختتم الفارعاملي رسالته قائلا :

« صاحب السماحة ،

---

(٤٥) منبر ومحراب : ص ٢٢٢

« وقبل أن أوقّع هذه الرسالة ، نلفت نظر سماحتكم الى أن شهر رمضان المبارك أصبح قريبا ورمضان المبارك فرصة فريدة ، كما تعلمون ، لخلق جو روحي وبطولي يعيش فيه المسلم ذكرياته الخالدة لكي تنعكس تلك المواقف العظيمة على حياته في هذه الايام » .

وقال أيضا :

« ولذلك نرجو الاسراع بتكليف المسؤولين عن هذا الشأن بدار الافتاء الاسلامية للاجتماع بأعضاء لجنة النشر والإعلام في المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى بحضور وتعاون بعض الناشطين من المؤمنين الاختصاصيين في دوائر الإعلام الرسمية ، لوضع برامج متكاملة تساعد على خلق الاجواء المناسبة لهذا الشهر العظيم وتذكي في نفوس المسلمين جذوة الخير والحق والبطولات » (٤٦) .

ألا يحق للمسلم اللبناني ، بعد أن يقرأ هذه الرسالة ، أن يسأل الفارعاملي : لماذا أبيتم الا انشاء المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ما دمتم تطالبون هكذا بوحدة المسلمين ؟ هل ان المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى سنّيٌ وسنيٌ فقط ؟ ألم يبادر السنّة الى طلب استحداث

---

(٤٦) منبر ومحراب ، المصدر نفسه

مناصب من ضمن المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى ودار الافتاء ، بغية اشراك الشيعة في المناصب العليا بشكل يضمن الابقاء على وحدة المسلمين ؟

من المؤكد أن كلاً من الفارعاملي والمفتي خالد يعرف أن هذه الدعوة وما يماثلها ، غايتها « الكسب الاعلامي » ليس الا ، حسبما برهنت الايام .

ماذا كان رد المفتي خالد؟

يقول المثل : « عينك عبرى والفؤاد في ددٍ »[٤٧].

واذاً ، فالردّ لا بد من أن يكون من العيار ذاته . أما وأن الفارعاملي هو أطول من المفتي ، وأغلظ رقبة ، وأكبر رأسا، وأجمل وجها، فتلك خلقة الله الذي لا اعتراض عليه بينما الذكاء بابه مفتوح للقصير كما للطويل ، وللاعمى كما للبصير ، وللاعرج أو المقعد ، كما للقويم والسليم . على أن الدهر يطلب صيداً لا يهدأ ولا ينام . وليس الصيد من عمل الاقوياء دائما . والا فلماذا يستنعج الذئب مثلا، ولماذا تتلوّن حجال الجبال بألوان صخورها ؟

---

(٤٧) عين عبرى : عين باكية . والدد : اللهو واللعب . يضرب لمن يظهر حزنا لحزنك وفي قلبه خلاف ذلك .

لقد جاوبه المفتي خالد قائلا :

« سماحة رئيس المجلس الشيعي الاسلامي الاعلى الشيخ موسى الصدر المحترم

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

« وبعد ،

« فقد تلقيت بتاريخ ٦/١٠/١٩٦٩ بمزيد من الاهتمام والتقدير رسالة سماحتكم المؤرخة في ١/١٠/ ١٩٦٩ ، المتعلقة بالدعوة الى توحيد المواقف والجهود والاعياد لدى المسلمين كافة في لبنان ، خصوصا وأنها جاءت تحمل بوادر تحقيق لما كنا نأمل من مجلسكم الكريم إثر انتخابه ، بشكل يبدو فيه التجاوب مع ما درجنا عليه منذ القدم من عمل اسلامي ووطني موحّد ، في كل الميادين والمناسبات ، لتحقيق الاهداف التي دعت اليها مذكرتكم الكريمة » .

وقال أيضا :

« هذا وإن استحداث هيئة رسمية الآن كمجلسكم الموقّر سوف يكون بلا ريب عاملا مهماً في ترسيخ هذا العمل الخيّر على أسس من التنظيم الموحّد مع المجلس

الشرعي الاسلامي الاعلى الذي أحلتنا اليه مذكرتكم الكريمة للدراسة .

« فالأمل التكرّم بأخذ العلم ، مع الدعاء الى الله سبحانه أن يوفق الجميع الى ما فيه رضاه » (٤٨) .

كان هذا جواب المفتي الشيخ حسن خالد ، الذي يوازي رسالة الفارعاملي لجهة « الصراحة » و« الوضوح » . ولست أدري ما الذي حدث من بعده ، سوى أن كليهما انتظر الآخر وطال الانتظار حتى وقعت الحرب . وعندئذ أخذا يتلاقيان مرة في الاسبوع على الاقل ، إما في عرمون ، حيث يقع منزل المفتي ، وغالبا ما يكون اللقاء بناء لطلب من « الختيار » ــ ياسر عرفات ، اذ كان الفلسطينيون ، آنذاك ، هم « جيش المسلمين في لبنان » ، وإما في الشام ، عاصمة القرار الاسلامي اللبناني . ونادرا ما اجتمعا مستقلين ، أو على انفراد ، الا للكسب الإعلامي ، والنتيجة هي احيانا رخاء ، وأحيانا شدة . والثابت ان الذي يغضب من لا شيء يرضى من لا شيء . والثابت أيضا أنه كما الفارعاملي كذلك المفتي خالد ، وبخاصة في مجال توحيد المسلمين . هذا لا تكفيه الزعامة « الروحية » ، ويريدها

(٤٨) منبر ومحراب : ص ٢٢٣

دينية ــ سياسية ، وذاك أيضا لا تكفيه الزعامة « الروحية » ويريدها دينية ــ سياسية . ومثلما تنازع الفارعاملي والرئيس كامل الاسعد ، تنازع كذلك المفتي خالد والزعيم البيروتي الرئيس صائب سلام .

فاذا كان الرئيس الاسعد قد رفض أن يدعى الفارعاملي إماما ، لان أئمة الشيعة هم إثنا عشر فحسب ، أولهم علي وآخرهم المهدي المنتظَر ، كما قال (الاسعد) ، في حديث متلفز أجرته معه السيدة ليلى رستم ، ضمن برنامجها : « صدى السنين » ، الذي اشتهر في أوائل السبعينات ، فان الرئيس صائب سلام قد صرح في ١٣ حزيران ١٩٧٦ ، بأن المفتي خالد « لا يجوز أن يبقى مفتياً » (٤٩) ، لان « مواقفه المفضوحة وأفعاله وأقواله أصبحت أفدح من أن يتحمل وزرها مركز الافتاء ، هذا المركز الذي لا يقبل المسلمون أن يزج به صاحبه في أوحال السياسة وأن تسيّره الاحقاد طوراً وتسخّره المنافع الشخصية أحيانا » (٥٠) .

ويصعّد سلام حملته على خالد فيقول :

(٤٩) انطوان خويري : الحرب في لبنان ، ج ٢ / ١٩٧٦ ص ٤٢٠.

(٥٠) انطوان خويري : المصدر نفسه .

« ان الشيخ حسن خالد يتعلل أمام البعض بأن من حقه أن يتصرف كما يتصرف أرباب السياسة ، لكنه يتناسى أن السياسيين يتحملون بأنفسهم وزر مواقفهم وأقوالهم وأفعالهم كما يتحملون وحدهم ما يصيبهم من جرّاء ذلك من خير أو شر ، بينما هو يحمّل مركز الافتاء ما لا يجوز أن يتحمله من أوزار مواقفه وأقواله وأفعاله ، كما ان الشر من وراء ذلك كله يصيب مركز الافتاء بالذات ، وهو المركز الذي يجب أن يبقى فوق الشبهات ، بعيدا عن الاحقاد ، فلا يتعرض لنقمة المسلمين التي أصبحت نقمة عارمة ترغب في التخلص من هذا المفتي واحلال أحد العلماء الصالحين الاتقياء محله ليسير على خطى أسلافه الاتقياء الانقياء ، طيّب الله ثراهم » .

ويقول الرئيس صائب سلام أيضا :

« لقد راح الشيخ حسن خالد ، ومع مر الزمن ، يمعن في تعريض مركز الافتاء ، المرة تلو الاخرى ، لنقمة المسلمين واستنكارهم ، في ما يتورط به هو والزمرة الفاسدة من حوله ، من مواقف وأفعال ، تسيء الى مشاعر المسلمين وتصيب كرامتهم ومصالحهم في الصميم »(٥١) .

ان السبب المباشر الذي دعا الرئيس سلام الى شن

(٥١) انطوان خويري : المصدر نفسه

هذا الهجوم على المفتي خالد ، كان موافقة الاخير على دخول قوات سورية الى لبنان ، لفض النزاع بين الفلسطينيين و « الجنبلاطيين » وحلفائهم من جهة ، و « الكتائب » وحلفائهم من جهة أخرى . وبهذا الموقف يكون المفتي قد تضامن مع الفارعاملي الذي وجّه نداء الى الرئيس السوري حافظ الاسد ، يطالبه بـ « عزمة من عزماته التاريخية تنقذ لبنان الجريح »(٥٢) . وتضامن أيضا مع « الجبهة اللبنانية » التي قالت ، في بيانها الصادر عن قمة الزوق (٥ حزيران ١٩٧٦) : « ولا بد من التنويه بما تبذله سوريا الشقيقة بقيادة الرئيس حافظ الاسد من جهود في هذا السبيل ، (انقاذ لبنان) رغم الصعوبات التي تصادفها سواء على الساحة اللبنانية أو في خارجها »(٥٣) .

ولكن دخول الجيش السوري الى لبنان ، في ذلك الحين ، غيّر في المواقف والتحالفات ، فاذا الزعيم الدرزي و « التقدمي » كمال جنبلاط يصبح برفضه المبادرة السورية ، مؤيدا الرئيس سلام و « الختيار » ـ ياسر عرفات ـ والعميد ريمون اده والملازم أول أحمد الخطيب،

(٥٢) انطوان خويري : ص ص ٣٦٥/٣٦٦

(٥٣) انطوان خويري : ص ٣٢٢ . حضر اجتماع الزوق : زوق مكايل ـ كسروان الرئيس سليمان فرنجية والرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميل والآباتي شربل قسيس.

قائد « جيش لبنان العربي » ، وحزب رزكاري الكردي•
من دون أن ننسى الموقف « المميز » الذي اتخذته،وقتذاك،
منظمة « حراس الارز » ، في المؤتمر الصحافي الذي عقده
« أبو أرز » القائد العسكري للمنظمة ، حيث اعلن رفضه
تقسيم لبنان ، مؤكدا الشعار الذي أطلقه « حراس الارز»
منذ بداية المعركة وهو : « لن يبقى فلسطيني على أرض
لبنـــان » • والــذي اعتبره البعض ، في حينه ، تطرفـا
ومغالاة ، فتبــدل وأصبح : « على كل لبناني أن يقتـل
فلسطينيا » ، ومؤكدا أيضا أن « العدو الاوحد والاخطر
على لبنان ليس اسرائيل بل العرب » (٥٤) •

والغريب ، بل الغريب جدا ، أن المفتي خالد قد عاد،
قبل بيان الرئيس سلام المذكور ، عن رأيه ، ليطلب مــن
الرئيس الاسد « سحب القوات السورية من لبنان ، بعد
أن أصبح ينظر اليها وكأنها متورطة في الصدام مع المقاومة
(الفلسطينيــة) والحركة الوطنية ، ومتورطة في التقسيم
القسري ، ونقل الصدام الـدامي الى المنـاطق اللبنانية
الآمنة » (٥٥) • ثم انه (المفتي) طالب باستقالة الـرئيس
سليمان فرنجية ، « كمدخل لا غنى عنه للوفاق السياسي

(٥٤) انطوان خوري : ص ص ٤٩٢/٤٩٣
انظر ايضا بيانه في مؤتمره الخامس الذي عقده يـوم
الاحد ١٩٨٧/١١/١٥
(٥٥) انطوان خوري : ص ص ٣٩٩/٤٠٠

والامني » (٥٦) • فيما أعلنت « الجبهة اللبنانية » ، اثر
اجتماعها الذي عقدته في الكفور ، رفضها القاطع لمقررات
جامعة الدول العربية الاخيرة ، واعتبرتها باطلة وغير ملزمة،
وأكدت أن لبنان سيتصدى بجميع وسائله وامكاناته،لأية
قوة عربية تدخل أرضه دون ارادته ودون موافقته المسبقة•
وحذرت من مضاعفات هذه « الحرب الجديدة » قائلة بأنها
ستستعين بأية قوة عالمية ضد التدخل العربي الجديد ، كما
هددت بانسحاب لبنان من جامعة الدول العربيـــة لانهـا
تكون قد تحولت ـ لولا المبادرة السورية ـ الى جامعة
العرب المسلمين دون غيرهم (٥٧) •

في هذه الاثناء ، عقد الرئيس كامل الاسعد مؤتمرا
صحافيا في منزله بالحازمية ، عرض فيه أبعاد الازمة وحلولها
ورأيه في التطورات • ولعله كان أكثر عقلانية وموضوعية
من الجميع ، مسيحيين ومسلمين ، عندما قال : «ان الفريق
الرافض المبادرة السورية طالب بسحب القوات السورية
من دون أن يقترح أي حل آخر من شأنه وقف المجزرة ،
وان الفريق الآخر رهن موافقته على البادرة العربية بـأن
تتم في اطار السيادة والاستقلال ، وموافقة سوريا عليها،

(٥٦) انطوان خوري : ص ٤٠٠
(٥٧) انطوان خوري : ص ٣٩٤

من دون أن يتوقف عند تقييم مضمونها »[٥٨] • وكذلك حين اعتبر (الاسعد) انه « اذا كان الجميع التقوا حول المنطق القائل ان استمرار الاقتتال هو تنفيذ للمؤامرة فحري بهم جميعا تحديد الوسائل والطرق الايجابية الكفيلة بحل الازمة حلا فعليا جذريا ، بدلا من أن نكتفي بالرفض الذي يؤدي الى استمرار المؤامرة القذرة على لبنان والقضية العربية ، أو أن تتوقف عند اعتبارات السيادة والاستقلال، وأين هما بالنسبة الى وطن ممزق ؟»[٥٩] •

ومن أسف أن عقلانية الرئيس الاسعد هذه لم تستطع جذب الفارعاملي موسى الصدر اليها ، فبقي « البك » في مكانه يغالبه الشوق المتأخر الى الجنوب ، في حين ظل « القمر الدوّار » يجول شرقا وغربا ، ويكبر ثم يكبر ، على حساب « البك » وكل « الجياد » الشيعية ، التي ما انفكت تؤمن بأن مجد « المهار » زائف وباطل من أوله الى آخره ، وتؤمن أيضا بأن لكل ليل ، مهما اشتد وطال ، نهاية • ومن هذه « الجياد » من يقول ان الرئيس الاسعد لو لم يفضّل الحازمية على الغبيرة ، لتغيرت « القوى الشيعية » بكل تأكيد • ان أصحاب هذه « النظرية » يتسلحون بالمثل القائل : « البعد جفاء » !

---

(٥٨) انطوان خويري : ص ٤٦٨

(٥٩) انطوان خويري : ص ٤٦٩

المهم أن المفتي خالد بقي مفتيا ، على الرغم من ارادة الرئيس سلام ومحاولاته المتكررة لابعاده عن المنصب ، الذي كان ، في سنة ١٩٦٦ ، الشيخ شفيق يموت هو المرشّح الوحيد له ، لولا الضغوط السياسية والمادية التي مارسها ، آنذاك ، سفير الجمهورية العربية المتحدة في بيروت ، عبد الحميد غالب ، و « المكتب الثاني » ، وبعض القيادات السنّية ، منها الرئيس صائب سلام نفسه، والرئيس تقي الدين الصلح • والاخيران كثيرا ما قالا في اجتماعاتهما: « نريد مفتيا يكون ضعيفا فنركبه لا مفتيا قويا فيركبنا » على قول بعض المصادر • على انه بفضل مساعي الشيخ شفيق وجهوده (كان هو أيضا على صلة بالرئيس الراحل فؤاد شهاب) الذي حيل دون انتخابه مفتيا ، حصلت المحاكم : السنّية والجعفرية ، على حقوقها كاملة ، بأن تم تصديق مجلس النواب على قانون تنظيمها ، بمادة وحيدة، وبدون مناقشة • فتساوى القضاء الشرعي بالقضاء المدني للجهتين المادية والمعنوية ، وألحقت المحاكم الشرعية الاسلامية برئيس مجلس الوزراء ، من الناحية الادارية والمالية ، بعدما كانت تابعة لوزير العدل •

ليس نكأ للجراح التذكير بظروف انتخاب الشيخ حسن خالد مفتيا للجمهورية اللبنانية ، وما رافقها من

تداخلات لبنانية وغير لبنانية هدفها اقصاء الشيخ شفيق يموت بعدما لمسوا منه العناد والتمسك بالمبادىء والاصول . كما ان رفضه (يموت) انشاء مجلس شيعي ، وتصديه لمشروع الفارعاملي كان أيضا من الاسباب ، التي جعلت المتنفذين والمتزعمين يقفون منه هذا الموقف ، الامر الذي مكن الشيخ حسن خالد من تولي منصب الافتاء «في الرابع والعشرين من كانون الاول ١٩٦٦»[٦٠]، ولا يزال يشغله حتى الآن .

وليس نكأ للجراح أيضا ، القول بأن الشيخ شفيق يموت هو الذي قابل مشروع الفارعاملي بمشروع آخر توفيقي ، يعطي للشيعة نيابة رئيس المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى ونصف المقاعد التابعة لدار الافتاء ، لكي تبقى المؤسسات الاسلامية واحدة موحّدة . وكاد الفارعاملي أن يوافق الشيخ يموت في ما اقترح، لولا بعض السياسيين ، مسيحيين ومسلمين ، وهؤلاء كانوا يرون أن بعض « التغييرات » سوف تطرأ على المنطقة ، وبخاصة منها لبنان ، مما يفترض تنظيم شؤون الطائفة الشيعية وتسليم قيادتها الروحية للفارعاملي مع «تجميد» الشيخ شفيق يموت « اللبناني أكثر من اللزوم » وإبعاده عن الساحة الاسلامية ـ اللبنانية .

(٦٠) الدكتور حسين القوتلي : لبنان بين العروبة والاسلام، المذكور سابقا ص ٨٣

لا يختلف الزعماء الموارنة عن الزعماء المسلمين، لجهة النزاع والتصادم مع القيادات الدينية . وخير دليل على قولنا هذا ، ما حدث خلال فتنة ١٩٥٨ بين البطريرك الماروني الراحل مار بولس بطرس المعوشي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) من جهة ، والرئيس الراحل كميل شمعون (١٩٠٠ ـ ١٩٨٧) من جهة اخرى . فقد كان البطريرك « من أبرز المعارضين لشمعون »[٦١] ، حتى قيل ان « المعارضة الناصرية لم تكن اسلامية كلها »[٦٢] . ففي حين تعرض المعوشي (وقبله البطريرك عريضة) لانتقادات بعض السياسيين الموارنة القاسية والمتطرفة واطلق عليه كثيرون من الموارنة اسم (محمد المعوشي) ، وجد لدى المسلمين والعرب ، وبخاصة في لبنان وسوريا ، الثناء والتقدير ، وكثيرا ما خرجت التظاهرات ، هنا وهناك، تحيي بطريرك العرب (محمد) المعوشي : « رمز الوطنية والوفاء» وتعاهده « السير على خطاه الى الابد » .

وتكررت هذه التجربة ، أو هي كادت أن تتكرر ، مع البطريرك مار انطونيوس بطرس خريش (ابن عين ابل ـ الجنوب) ،

(٦١) ديزموند ستيوارت : تاريخ الشرق الاوسط الحديث، المذكور سابقا ، ص ٣٤٣
(٦٢) ستيوارت : المصدر نفسه ص ٣٤٣

الذي وصفته بعض الجهات المارونية بأنه « فلسطيني » أو « حليف للفلسطينيين ».ذلك لان رئيس الكنيسة المارونية حافظ على الاعتدال ، وآمن بالحوار والوفاق الوطني ، ودعا للسلام بين شعوب المنطقة ، على الرغم من الظروف التقسيمية المحيطة بنا .

وأما البطريرك الحالي مار نصرالله صفير، الذي زار موسكو في النصف الثاني من شهر تشرين الاول ١٩٨٧، فان أحدا ربما لا يدرك حقيقة معاناياته التي سبّبها له بعض المسؤولين المسيحيين والمسلمين . وكم كان بود هذا البطريرك لو تزال الحواجز بين شطري العاصمة ، ويعود اللبنانيون الى سابق عهدهم ، وتنتهي المأساة التي طالت وتعمّقت في النفوس ، وتتمكن الدولة من فرض سيادتها على جميع الاراضي اللبنانية ، حسبما دعا ويدعو . ولكن لا البطريرك، ولا المفتي ، أو سواهما من رجال الدين ، المسيحيين والمسلمين ، يسكنهم تجاوز القرارات السياسية المسلّحة التي تزداد يوما اثر يوم ، قوة وثباتا ، مما يؤكد أن الافكار الجميلة لا تعيش في بلادنا ، ان لم نقل انها تولد ميتة .

ان الذي ذكرناه مما يحدث في الطوائف الثلاث ، الموارنة والسنّة والشيعة ، قلّما يحدث مثله في الطائفة الدرزية ، لا لان القيادتين الدرزيتين : الدينية والزمنية، متفقتان دائما وأبدا ، بل تصوّنا وتحفّظا وتعففا عن زلة اللسان ، مع العلم بأن مشيخة العقل هي ، في الحقيقة ، صنو

الزعامة السياسية . والاصح ان شيخ العقل كلما كان مقتدرا ومهيبا تخطى الزعماء السياسيين الدروز ، من جنبلاطيين ويزبكيين وسواهم . ولطالما حصلت القطيعة بين مشيخة العقل والقيادة السياسية ، ولكن ضمن احترام الواحدة للاخرى . وما نشهده ، اليوم من « انسجام » بين شيخ العقل (الجنبلاطي) الشيخ محمد أبو شقرا والزعيم السياسي وليد جنبلاط ، فيما الواحد منهما لا يحب الآخر على ما يقال ، يثبت صحة ما قد ادعينا .

مراحل وتيارات

واذ يصل بنا البحث الى التأمل في خريطة التيارات الدينية في المشرق العربي وكيف كانت مسيرتها منذ مطلع هذا القرن ، تقع ، في مكة ، اشتباكات عنيفة دعيت « مجزرة الجمعة » (٦٣) ، فكانت حصيلتها ٦٥٠ بين قتيل ومفقود و ٧٠٠ جريح حسب المصادر الايرانية ، فيما تحدّث بيان رسمي سعودي عن مقتل ٤٠٢ بينهم ٢٧٥ إيرانياً و٨٥ سعوديا وعن اصابة ٦٤٩ شخصا بجروح (٦٤) .

---

(٦٣) ان الاشتباكات هذه وقعت يوم الجمعة ١٩٨٧/٧/٣١، فيما كان الحجاج يؤدون الشعائر الدينية ويستعدون لاستقبال عيد الاضحى الذي يصادف حلوله يوم الثلاثاء ١٩٨٧/٨/٤

(٦٤) النهار : ١٩٨٧/٨/٣

لقد هزّت هذه الاحداث الاليمة العالم الاسلامي بكل أرجائه ، فانقسمت الآراء والمواقف حولها ، كما تضاربت الروايات والمعلومات السعودية والايرانية،وأطلقت التهديدات والتحذيرات من مناطق عدة ، منها ما يندد بآل سعود ، ومنها ما يحمّل الجمهورية الاسلامية الايرانية المسؤولية كاملة وبدون تجزئة .

ففي السعودية صرح ناطق باسم وزارة الداخلية ان « بعض الحجاج الايرانيين تجمعوا بعد صلاة العصر حول الحرم المكي . وما هي الا دقائق حتى انضمت هذه المجموعات في مسيرة صاخبة تعطّل بسببها خروج المصلّين الى مصالحهم وتعرقلت حركة المرور وتوقف السير فجأة في الشوارع والطرق » .

أضاف :

« ان هذا الموقف أدى الى تدخل الحجاج والمواطنين لمنع الحجاج الايرانيين في محاولة لاقناعهم باخلاء الشارع (...) لكنهم أصروا على اكمال مسيرتهم الانفعالية على رغم كل المحاولات السلمية الهادفة التي بذلها الحجاج الآخرون على مختلف جنسياتهم ، وكذلك المواطنون ، مما أدى الى وقوع اشتباكات عنيفة بين الايرانيين ومختلف

الحجاج والمواطنين سقط خلالها بعض الضحايا والجرحى من النساء والرجال حجاجا ومواطنين » .

وأعرب الناطق عن أسفه لوقوع مثل هذا الحادث ، وعن حرص الحكومة السعودية على « استتباب الامن في كل المناسك وأماكن العبادة لتمكين حجاج بيت الله الحرام من أداء فريضتهم في يُسر وأمن واطمئنان » .

وأكد الناطق السعودي نفسه أن السلطات المدنية السعودية « لن تتهاون في القيام بواجبها اطلاقا » (٦٥) .

وفي طهران بثت الاذاعة الرسمية « أن الشرطة السعودية تدخلت لتفريق تظاهرة ضخمة جرت بعد ظهر الجمعة (١٩٨٧/٧/٣١) في مكة وضمت نحو ١٥٠ ألفا من الحجاج الايرانيين وآلاف الحجاج من جنسيات أخرى » .

وقالت اذاعة طهران أيضا :

« ان رجال الامن السعوديين تعرّضوا بالضرب لعدد كبير من المتظاهرين الذين استجابوا لنداء الزعيم الاسلامي

---

(٦٥) النهار : ١٩٨٧/٨/١

آية الله الخميني الى التظاهر ضد « الهرطقة الدولية » على رغم العراقيل التي افتعلتها السلطات السعودية »(٦٦) •

فور الافصاح عن هذا الزلزال الذي ضرب المملكة العربية السعودية ، أعلن العراق والاردن تضامنهما مع السعودية ودانا ما قام به الحجاج الايرانيون في مكة • وانضم اليهما في ذلك الملك الحسن الثاني ، بينما اتهمت مصر ايران بتحدي المسلمين ، واعتبرت تونس ان أنصار الزعيم الاسلامي الايراني آية الله الخميني دنّسوا الاماكن المقدّسة (٦٧) •

وتوالت ردود الفعل العربية والدولية على الاحداث المذكورة ، فقال الرئيس المصري حسني مبارك في بيان لرئاسة الجمهورية :

« من الغريب أن تصدر تصريحات رسمية عن مسؤولين ايرانيين عقب وقوع هذه الاحداث تحمل طابع الاقرار لاعمال العنف التي قامت بها العناصر الايرانية التي تسببت في هذه الاحداث » •

أضاف :

---

(٦٦) المصدر نفسه
(٦٧) المصدر نفسه

« لا شك في أن شعوب العالم كافة تدرك أن التهاون في مواجهة مثل هذه الاحداث كفيل بامتداد قوى الشر والعدوان الى كل المقدّسات الاسلامية وتعريضها للخطر فضلا عن الاساءة الى صورة الامة الاسلامية » •

وقال الرئيس مبارك أيضا :

« ان مصر تهيب بمنظمة المؤتمر الاسلامي أن تدعو الى مؤتمر قمة طارىء وعاجل للنظر في هذه الواقعة الخطيرة واحتواء النتائج المؤسفة التي لا بد من أن تنجم عنها »(٦٨) •

وفي القاهرة أيضا ، أصدر « الازهر » بيانا استنكر فيه « الاحداث المؤسفة التي شهدها المسجد الحرام »(٦٩) • وحضّ قادة الدول الاسلامية على « اتخاذ موقف حازم حيال هذه الاحداث والقيام بواجبهم في ما يتعلق بحماية الحرم الشريف »(٧٠) • وأكد رفضه « الاعتداء الآثم الذي قام به الحجاج الايرانيون في ساحة المسجد الحرام »(٧١) • وحذّر من أن « الاسلام والمسلمين يتعرّضون لمؤامرة تقودها هذه الفئة الباغية على حرمات الله »(٧٢) •

---

(٦٨) النهار : ١٩٨٧/٨/٣
(٦٩) المصدر نفسه
(٧٠) المصدر نفسه
(٧١) المصدر نفسه
(٧٢) المصدر نفسه

وتميّز موقف « الرئيس الطائش » ، العقيد القذافي ، عن سواه ، حين دعا الى « تدويل بيت الله اسلاميا »[٧٣] . وحسبما أوضحت « وكالة الجماهيرية الليبية للانباء » ، فان القذافي اتخذ هذا الموقف إثر استقباله سفير ايران لدى ليبيا الذي قدّم اليه تقريرا عن « المجزرة البشعة التي تعرّض لها الحجيج الايراني »[٧٤] . وانه « أعرب عن تأثره البالغ لما حدث وادانته لهذه الجريمة، موضحا أن البيت الحرام الذي أراده الله لعباده آمنا لم يعد آمنا »[٧٥] .

وأكدت وكالة الجماهيرية أن القذافي قال :

« ان الذي حصل لم يسبق له مثيل . وهذا ما يدعونا للعمل على تدويل بيت الله اسلاميا حتى يكون السفر الى مكة دونما حاجة الى اذن من أحد وتتولى كل دولة اسلامية أمن حجاجها »[٧٦] .

وفي طهران أيضا ، خرج يوم الاحد (٢/١/١٩٨٧) أكثر من مليون شخص في تظاهرة جابت شوارع المدينة

(٧٣) المصدر نفسه
(٧٤) المصدر نفسه
(٧٥) المصدر نفسه
(٧٦) المصدر نفسه

وهم يهتفون : « الثأر الثأر »[٧٧] . وأفادت وكالات الانباء أن رئيس مجلس الشورى الاسلامي (البرلمان) ، حجة الاسلام هاشمي رفسنجاني ، قال في المتظاهرين :

« نحن جند الله ومنفذو المبادىء الالهية نلزم أنفسنا الثأر لهؤلاء الشهداء باجتثاث الحكام السعوديين في المنطقة »[٧٨] .

وقال :

« ان ثمة دلائل على مخطط شامل استهدف نصب مذبحة للحجاج الايرانيين وكذلك لاولئك الذين رافقوهم في التظاهرة (بحيث) نزل مسؤولون أمنيون بين الحشود وهم يحملون السكاكين وضربوا الناس . وأطلق أولئك الذين وقفوا في التظاهرة الرصاص عليهم (المتظاهرين) من دون تمييز مستخدمين الرشاشات »[٧٩] .

وشدّد رفسنجاني على « أن مجزرة الجمعة الاسود في مكة لا سابق لها في التاريخ »[٨٠] ، موضحا انها« تمّت

(٧٧) المصدر نفسه
(٧٨) المصدر نفسه
(٧٩) المصدر نفسه
(٨٠) المصدر نفسه

بتوجيه من الولايات المتحدة، ونظـّمها النظام السعودي »[٨١] .
ودعا جميع المسلمين وأصدقاء ايران الى الثأر « بطريقة اسلامية حقة »[٨٢] .

وصرح الرئيس الايراني حجة الاسلام علي خامنيءي، لدى استقباله سفراء البلدان الاسلامية المعتمدين في طهران، قائلا :

« ان كراهية رجال الشرطة السعوديين للحجاج الايرانيين وصلت الى حد أن حياة حجاجنا ليست حاليا في مأمن ، ومنذ الجمعة (١٩٨٧/٧/٣١) لم يعودوا يجرؤون على الخروج لزيارة الاماكن المقدسة .. (لان) هجوم الشرطة السعودية على تظاهرة الجمعة كان متعمّدا وموجّها من الولايات المتحدة (من أجل) اخضاع الثورة الاسلامية »[٨٣] .

وعلم أن وزير الداخلية الايراني السيد علي أكبر محتشمي بعث برسالة الى نظيره السعودي الامير نايف بن عبد العزيز وفيها :

« ان شعبنا الباسل الذي يقف على أهبة الاستعداد

(٨١) المصدر نفسه
(٨٢) المصدر نفسه
(٨٣) المصدر نفسه

في الخليج الفارسي سيثأر للدماء الطاهرة لحجاج بيت الله من القوات السعودية »[٨٤] .

واتهم محتشمي السلطات السعودية « بالعجز عن حماية الاماكن المقدسة »[٨٥] . وقال : « ان ايران ستثير هذا الامر مع دول اسلامية لتكون الاماكن المقدسة في المستقبل القريب باذن الله تحت اشراف مسلمي العالم »[٨٦] .

وفي لبنان ، شهدت بيروت وبعلبك وصور والنبطية مجالس عزاء وتظاهرات ، ألقيت فيها كلمات تضمنت هجوما على النظام السعودي داعية الى تغييره فورا .

ففي بيروت قال الشيخ حسن طراد واصفا المجزرة بأنها « عودة كربلاء من جديد في مكة المكرّمة .. وانها بداية انهيار النظام السعودي »[٨٧] . وقال السيد حسن الامين : « ان ايران تقاتل اليوم في سبيل كل مسلم . واننا حين ندافع عن ايران فاننا ندافع عن انفسنا وكياننا لان كياننا مهدد »[٨٨] . ورأى السيد أحمد زكي تفاحة (علوي

(٨٤) المصدر نفسه
(٨٥) المصدر نفسه
(٨٦) المصدر نفسه
(٨٧) المصدر نفسه
(٨٨) المصدر نفسه

متشيع) « ان هذا الاعتداء الصارخ على هؤلاء الحجاج الكرام هو حجة جديدة في يد الامام الخميني أمام كل مدّع الاسلام في العالم بأنه هو المعني بحماية الاسلام ومواجهة الاستكبار والاستعمار من أجل أن تبقى راية الله خفّاقة عالية »[٨٩] و « ان قتل هؤلاء الحجاج هو قتل لكرامة المسلمين ، والجريمة أعظم لانها ارتكبت في المسجد الحرام »[٩٠] .

وفي بعلبك ، نظّم « حزب الله » تظاهرة مسلّحة رفع فيها المشاركون أعلام الجمهورية الاسلامية والرايات السود ولافتات ندّدت بآل سعود وبأميركا وفرنسا واسرائيل وحزب الكتائب و « القوات اللبنانية » والنظام اللبناني و « الاستكبار العالمي » . وألقى الشيخ صبحي الطفيلي كلمة قال فيها :

« اننا نعزّي إمامنا الخميني العظيم والامة الاسلامية بالمصاب الكبير والجلل الذي هزّ أركان العالم الاسلامي . ان المصاب أكبر بكثير مما يظن الناس وأكبر مما يتخيّل العالم لانهم قتلوا في مكة المكرّمة وفي ايام الحج » .

أضاف :

---

(٨٩) المصدر نفسه
(٩٠) المصدر نفسه

« سكتنا طويلا على أمل أن يرتدعوا ويبتعدوا عن طريق مسيرتنا الاسلامية ، لكنهم أعلنوا حربا معادية على الاسلام والمسلمين في بيت الله الحرام . وقد يظن البعض من الجهلة والمنافقين من أعداء الاسلام أن المسلمين في مكة يجب أن يكونوا مساكين ودراويش . ذهبوا الى الحج للعبادة ، فلماذا التظاهر وتزويد شعارات الموت لاميركا واسرائيل وفرنسا ؟ »

وقال الطفيلي أيضا :

« ان الحج الحقيقي بالتمسك بالقرآن والاسلام الذي يقول في كل مكان : الموت للاستكبار العالمي والشيطان الاكبر أميركا واسرائيل وجميع المشركين والمنافقين . لقد أدركنا وعرفنا انه لا يمكن تحرير القدس قبل تحرير مكة والمدينة المنوّرة ولا يمكن الحج بعد الآن بغير سلاح »[٩١] .

اذّاك ردّد المتظاهرون ووجوههم الى القبلة القسَم الآتي :

« قسما اننا سنبايعك يا امام جنودا في سبيل الله مدافعين عن الاسلام والقرآن ، في مكة والمدينة ، وفي

---

(٩١) المصدر نفسه

القدس وكابول ، وفي بيروت والجنوب ، وفي فلسطين ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وفي المغرب والسودان والعراق والاردن،وفي كل أنحاء العالم حتى نصرة الاسلام، والمجد للقرآن والبراءة من المشركين ومن عملائهم وأنصارهم »[٩٢] .

وفي صور ، أقفلت المؤسسات الرسمية والخاصة والمتاجر وسكتت الحركة تماما . وأقيم احتفال في نادي الامام الصادق ، حضره رجال دين ومسؤولون عن حركة « أمل » . وألقى « العلاّمة » محمد الغروي كلمة قال فيها :

« ان المسلمين في ايران جزء لا يتجزأ من مسلمي جبل عامل »[٩٣] و « ان الصراع بين الجمهورية الاسلامية والاستكبار العالمي اليوم هو صراع بين أبي سفيان وأبي جهل من جانب وبين الرحمن من جانب آخر »[٩٤] .

وحمّل الغروي السعودية مسؤولية قتل الحجاج وقال :

---

(٩٢) المصدر نفسه
(٩٣) المصدر نفسه
(٩٤) المصدر نفسه

« ان هذه المجزرة على أرض مكة تحققت بأمر أميركا واسرائيل »[٩٥] .

وقال (رئيس الهيئة التنفيذية لحركة امل)داود داود :

« ان الدماء التي أُريقت على أرض مكة هي بنزين ستحرق وستتحول الى سيول جارفة لكل الاقذار التي تحاول عرقلة سير التاريخ . ولا يمكن السكوت عنها والانسانية تبكي خجلا . وهذه ظاهرة خطيرة . تُطلق النار على حجاج بيت الله الحرام لمجرّد أنهم أدلوا برأيهم ضد الظلم والفساد والانحراف ! »

أضاف :

« اننا في حركة « أمل » ضد الظلم والفساد والانحراف . ونعلن استنكارنا ولا يمكن أن يكون الاستنكار بالكلام فقط . ان الاساطيل في مضيق هرمز هدفها تطويق الجمهورية الاسلامية وانقاذ (الرئيس العراقي) صدام (حسين) »[٩٦] .

وحمل داود على موقف مجلس الامن من ايران وقال :

---

(٩٥) المصدر نفسه
(٩٦) المصدر نفسه

« ان اسرائيل تعتدي منذ عام ١٩٤٨ ولم يتحـرك مجلس الامن . أين مجلس الامن ونصف الجنوب لا يزال محتلا ؟»

وختم قائلا :

« لقد تحررنا من الخوف والجبن . ومستعـدّون للموت من أجل الحق ونصرة المحرومين وسنبقى شوكة في أعين الظالمين وسهاما تقلع أعين الكافرين »[٩٧] .

وكما في صور كذلك في النبطية ، حيث أكد المسؤول الاعلامي عن حركة « أمـل » في المنطقة ملحم قانصو ، « تضامن الجنوب مع الجمهورية الاسلامية الايرانيـة في تصديهـا لجبهـة الكفر التي تريد النَّيـل من الفكـر الاسلامي »[٩٨] .

ومن بيروت وسائر المدن اللبنانية ، أرسلت برقيات الدعم للامام الخميني ، لتقدّم « العزاء والتبريك بالدماء المسفوكة من أجل نصرة الاسلام »[٩٩] .

---

(٩٧) المصدر نفسه
(٩٨) المصدر نفسه
(٩٩) المصدر نفسه

وفي اليوم الرابع لـ « مجزرة الجمعة » تابعت ايران حملتها على السعودية ، فقال الامام الخميني :

« ان الأسرة الحاكمة في السعودية ليست قادرة على ضمان حماية الاماكن المقدسة في مكة »[١٠٠] .

واتهم الزعيم الايراني الولايات المتحدة بأنها من وراء هذه «الجريمة» ، مؤكدا أن « ايران ستسوّي حساباتها معها في الوقت المناسب »[١٠١] .

ودعا الخميني في رسالـة وجّهها الى حجة الاسلام مهدي خرّوبي رئيس بعثة الحج الايرانية (قيل انه أصيب بجروح) «العلماء المسلمين الى ايجاد حل لمشكلة حماية الاماكن المقدسة التي لا تستطيع السلالة الوهابية الجبانة والتي يعوزها المنطق ضمانها »[١٠٢] . وخصّ المذهب الوهابي بالقول :

« ان هؤلاء الوهابيين الجبناء والكافرين كانوا دائما سيفا في ظهر المسلمين ... انهم أغبياء الى درجة أنهم لم يفهموا أن عملهم الاعمى يشكل أفضل دعاية للثورة الاسلامية الايرانية ، كما يظهر براءتنا » .

---

(١٠٠) النهار : ١٩٨٧/٨/٤
(١٠١) المصدر نفسه
(١٠٢) المصدر نفسه

وقال أيضا :

« لو أرسلنا بعثات الى العالم كله لما كنا أظهرنا على نحو أفضل أن الاسرة الحاكمة في السعودية هي خادم الولايات المتحدة وضد الاسلام . ان شعبنا يملك خبرة سنوات كثيرة من الثورة ولا يستغرب هذه الجرائم . ان القادة السعوديين الخبثاء عملوا لمصلحة الولايات المتحدة واسرائيل . ان ايديهم ملوثة بدم الحجاج الايرانيين الذين كانوا ضيوفهم وضيوف الله »[١٠٣] .

وهاجم الخميني الرئيس صدام حسين والملك حسين والملك الحسن الثاني والرئيس مبارك بسبب اعلان دعمهم للسعودية ، فقال :

« ان الامر بدا كما لو ان اراقة دماء مئات الحجاج الايرانيين عيد يُحتفل به »[١٠٤] .

كذلك هاجم السعودية آية الله حسين منتظري الخليفة المنتخَب للخميني ، فقال :

« ان جرائم الامبريالية المصّاصة للدماء والصهيونية العالمية المعادية للاسلام خرجت من كُم حكام آل سعود

---

(١٠٣) المصدر نفسه
(١٠٤) المصدر نفسه

العملاء عديمي اللياقة والذين يسيطرون على الحرمين الشريفين ، وذلك لتغطية هزائمهم في ايران ، هزائم الصهيونية والامبريالية ، ولبنان ومنطقة الخليج الفارسي »[١٠٥] .

ووصف منتظري الفاجعة بأنها « هتكت حرمة بيت الله »[١٠٦] . فمن الضروري « تحرير الحرمين الشريفين من سلطة آل سعود غير اللائقين والعملاء »[١٠٧] .

على أن اللياقة والليونة والملاطفة قد ظهرت جميعها وكما تفرض الجغرافية ــ لبنان ، في خطبة العيد التي ألقاها المفتي الشيخ حسن خالد حيث قال :

« نألم كثيرا للحادث الدامي الذي نزل بالحجيج قرب الحرم المكي منذ أيام . فلقد كان مفروضا في الحجيج أن يحافظوا على قدسية أماكن العبادة وينزّهوها عن لعبة الاهواء السياسية والصراعات الطبقية خصوصا أن الله تعالى يقول : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا »[١٠٨] .

---

(١٠٥) المصدر نفسه
(١٠٦) المصدر نفسه
(١٠٧) المصدر نفسه
(١٠٨) المصدر نفسه

أضاف :

« لقد هرع الحجاج من كل فج عميق ليشهدوا عند بيت الله الحرام منافع لهم وليذكروا اسم الله في أيام معلومات ، وليتفرّغوا للعبادة والاستغفار والذكر والدعاء وتعظيم حرمات الله وشعائره وللتلاقي والتعارف على قاعدة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »[١٠٩] .

وتابع خالد يقول :

« وان مكة المكرّمة كلها حرم . وهي مكان مقدّس يرفع فيها الحجاج شعار : « الله أكبر ولا اله الا الله ومحمد رسول الله » تلبية لامر رباني ، ويكررون عند كل منعطف ومحج : « لبّيك اللهم لبّيك لا شريك لك لبّيك ان الحمد والنعمة لك والمُلك لا شريك لك » . ومع هذا الشعار يتضامن الناس وتعنُو الجباه وتخفت الاصوات فلا يعلو فوق اسم الله اسم ولا يرتفع فوق شعار « الله أكبر ولا اله الا الله محمد رسول الله » أي شعار » .

وقال :

« واننا اذ نتألم للفاجعة التي ألمّت بمكة وبالضحايا

(١٠٩) المصدر نفسه

البرآء الذين سقطوا فيها من أهلنا واخواننا من سعوديين وايرانيين وغيرهم ، لا بد أن حكومة المملكة ستقوم بالمزيد من رعاية شؤون الحجاج والعناية بهم وتسيير أمورهم وضمان راحتهم وأمنهم حتى يعودوا الى ديارهم فائزين برضوان الله والسلامة التامة من كل ضير »[١١٠] .

ودعا المفتي خالد اللبناني « قادة المسلمين جميعا الى التحرك فورا من أجل تضميد الجروح ومعالجة الامور بالحكمة والموعظة الحسنة » اذ « كفانا ما أهرق من دماء من غير جدوى ولا طائل »[١١١] . ودعا أيضا « جميع الاخوة المتخاصمين والمتنازعين من عباد الله أمراء كانوا أم حكاما أم رؤساء أم ملوكا أم أفرادا عاديين الى التجاوب مع دعوات الوفاق والصلح فان الصلح خير »[١١٢] .

وأكد أن ليس مثل « التقاتل واستنزاف الدماء والارواح والاموال والقدرات العامة والخاصة يخدم أعداء الاسلام وأعداء الامة من الصهيونية والاستعمار ، بل ان التقاتل سيجعل الجميع في حالة عجز مخيف يدفع بهم الى أن يبحث كل واحد منهم عمّن يستنصر به ليجد لديه العون والعدة

(١١٠) المصدر نفسه
(١١١) المصدر نفسه
(١١٢) المصدر نفسه

ولو كان من غير أبناء جنسه وملّته الامر الـذي سينتهي بالكل الى عاقبة محتّمة تسرّ العدو وتمكّنه من رقـابهم، ولا ترضي عباده الصالحين »(١١٣) .

وبالمنطق نفسه تقريبا ، تحدّث المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الامير قبلان عن محنة مكة ، في خطبة يـوم العيد ، اذ قال :

« عيد الاضحى ، عيد التعارف والمصافحة ، وفرحة توحيد الصفوف . لهذا العيد اليوم ، طعم المذاق المـر ، ولون الدماء الزكية الصارخة على رمال مكة ، المعلنةعلى الملأ أن مجزرة بشرية قد ارتُكبت . مكة اليوم تستبـاح حرمتها ، وتُنتهك قداستها ويُقتل فيها الانسان الـذي تحرر من قيود المادة ، وملذّات الحياة ومغرياتها » .

أضاف :

« مكة بيت الله الذي من دخله كان آمنا ، تحولت اليوم ، من حصن حصين ، الى مسلخ بشري . من هنا ، ومع رفضنا المساس بحرمة الاماكن المقدّسة وقداستها ، جئنا نستنكر هذا العمل الاجرامي ، وندين سفك الدماء البشرية الطاهرة ، ونطالب بالمحافظة على قدسية البيت».

(١١٣) المصدر نفسه

وقال المفتي قبلان أيضا :

« وفي المقابل ، فاننا نطلب من اخواننا الحجاج الكرام، المحافظة على الشعائر وعدم المساس بحرمتها ، لئلا نهبط الى مستوى المجرم الذي لم يرع للبيت حرمة ، ولا لزواره وضيوفه كرامة »(١١٤) .

وكذلك فعل شيخ عقل الطائفة الدرزية الشيخ محمد أبو شقرا ، وقد قال في مناسبة عيد الاضحى أيضا ، مـا يلي :

« كنا نتمنى أن يحل عيد الاضحى وأحوال المسلمين والعالم أفضل مما هي حالهم اليوم . فمآسي لبنان معلومة، ومآسي الدول في الخليج مقلقة ، والاضطراب يتصاعـد ويزداد ، والخطر يتقارب ويتفاقم ، والنكبات كثيرةشاملة حتى ان مناسبة الاضحى المبارك في أبرك مكان لم تنـج من المذابح والويلات ، فسال دم المئات من الاخوةالمسلمين في مكة المكرّمة خلال ادائهم احدى شعائرهم الدينية غير مراعين قداسة ولا حرمة » .

وقال أبو شقرا أيضا :

« اننا نسأله تعالى أن يلطف بأمة وحّدته وأسلمت

(١١٤) المصدر نفسه

اليه مقاليد أمورها ، ولكن المطامع والفتن شتتتها وفرّقتها ولا حول ولا قوة الا بالله وهو القادر على تغيير ما في النفوس وتغيير الاحوال بزوال الشدائد والمكاره انه سبحانه وتعالى خير مسؤول وأكرم مأمول وهو الملجأ واليه المصير»(١١٥) •

ان هذه المواقف والآراء التي أوجبتها أحداث مكة، لهي امتداد لمواقف وأفكار بثّتها تيارات اسلامية قديمة وحديثة ، متباينة ومتقاربة • كما أن « مجزرة الجمعة »أو « مجزرة الحرم الشريف » ، ليست الا واحدة من مجازر يصعب عدّها ، منها الدينية ، ومنها الوطنية والقومية ، ودائما الغاية واحدة : قتلُ الانسان وخنْق الحريات •

ففي مكة أو النجف أو قم ، يتحول الله « زعيما محليّاً » ، والاسلام « حقا شخصيا » ، فيتذابح «العبّاد» و « الملاّكون » مثلما لو كانوا في جاهلية • وخلال كل « ابادة » أو بعدها تُصنع «المبادىء » و «الايديولوجيات» وتُكتب بالدم ، على أمل التطوير والتجديد ، حتى اذا ما هبّت ريح باردة أو حارة ، تجمّد هذا الدم أو سال ، فتحترق الديار ، وتتقطع الاوصال ، ليصبح كل عضو على حدة ، وتنتشر الاقاويل والاحاديث ، وتتنوّع الحروب،

(١١٥) المصدر نفسه •

بينما الله في مكانه على حاله ، والعروبة كالأرض التي حُفرت في غير موضع حفرها • ثم تتكرر اللعبة ، لعبة تكوّن التيارات والمذاهب•وكما في كل مرة، القديم ينازعه الحديث ، والعكس بالعكس ، فتتراكم الاجتهادات والشيع والاحزاب والهيئات واللجان والمنظّمات ، متناسية انها من الجسم الواحد ، بل جزء في الجسم الواحد ، وهي كدولاب الناعورة ، الذي اذا ما دار أو تحرّك يصبح أوله آخره، وآخره أوله ، ويسيل منه الماء ، وكأنه منه فعلا ، وهكذا يستمر (الدولاب) مخدوعا ، فلا التوقف من شأنه ،ولا هو يملك القرار •

فما هي هذه التيارات وكيف نصنّفها ؟

يرى الدكتور عبدالله حنا ، في دراسة له قدّمت في الندوة اللبنانية العربية ــ العالمية ــ طرابلس (ليبيا) (٩ــ١٢ كانون الاول١٩٨٦)، أن تكوّن التيارات الدينية في المشرق العربي قد مرّ بخمس مراحل رئيسية ، وكذلك التيارات الفكرية الاخرى •

ويعدّد الدكتور حنا هذه المراحل كما يلي :

« ١ ــ مرحلة النهضة العربية ــ ٢ ــ مرحلة النضال ضد الاحتلال الاستعماري ــ ٣ مرحلة الاستقلال الوطني

والنضال من أجل المحافظة عليه وتوطيده ـ ٤ مرحلة ما بعد صدور قوانين الاصلاح الزراعي والتأميم في عدد من الاقطار العربية ـ ٥ ـ مرحلة الثورة المضادة في مصر وازدياد هيمنة البورجوازيتين الطفيلية والبيروقراطية في عدد من الاقطار العربية » [١١٦] .

وسواء صحّ هذا التوزيع الزمنسياسي أو لم يصح، فان ما تفعله، اليوم، الأصولية الاسلامية الإمامية، والاصولية الاسلامية السلفية، على معظم ساحة الاسلام، هو عود على بدء . والعلة واحدة، يعرفها الدكتور حنا كما غيره، وهي : شمولية الاسلام الساعية، بشكل أو آخر، الى ابتلاع لا القومية العربية فحسب، بل جميع القوميات التي اخترقها الاسلام كليا أو جزئيا .

وبهذا المعنى يكون الفارعاملي مسلما، شأنه شأن أي أصولي اسلامي آخر، وقد تعاطف الفارعاملي مع كثير من الحركات الاسلامية في بلاد العرب وأفريقيا، بأن نظّم لها حملات تبرع مع رفاق له داعما اياها في نضالاتها من أجل الوصول الى الحكم . ومن هذه الحركات مثلا لا حصرا: حركة حافظ سلامة في مصر .

---

(١١٦) د. عبدالله حنا « السفير » ١٩٨٦/١٢/١٥ ص ١١ ونشر جزء من هذه الدراسة في مجلة « الطريق » العدد الرابع ـ أيلول ١٩٨٧ ص ص ١٣٠ـ١٥٦ على أن ينشر الجزء الثاني في العدد الذي يتلوه .

ولكن النزاع السياسي الاول، الذي شهده الاسلام فور وفاة محمد (النبي)، هو الحدّ والقياس معا . فمن كان إمامياً فهدفه شرق المشرق، ومن كان شوْرياً (ذا شورى) فهدفه غرب المشرق، والمصيبة هي ان كليهما يريد لهواه أن يكون هوى المشرقين والمغربين معا، لا بل هوى العالم بكل أرجائه . ولو بحثنا عن النقاوة والرهافة والصفاء، فلن نجدها كما في الشعور الوطني (National Sentiment)، الصعب المنال الا لشهداء الارض والحرية، بينما شهداء « السماء » هم الظالمون . ان الذي يموت دون أرضه انما يموت دون حقه في الوجود، وهذا هو مصير المظلوم على كل حال . فليس عبثا اقتران الارض بالعرض، أو الارض بالكرامة . ذلك لان من اغتصب كلتيهما فكأنه اغتصبهما معا . ولكي يكون الجهاد في سبيل الدين حقا يجب أن يكون هذا الدين من الارض ولها، لا من السماء ولها . وهنالك من يرى أن كلمة انسان هي من جذر أرض، وكل انسان لا ارض له ليس انسانا .

ان الارض حق، أو هي الجزء الثاني من الحقيقة المؤلفة من الارض والانسان . بيد أن «السماء» افتراض، وليس كل افتراض صحيحا أو قابلا للتصديق .

ماذا بين الدين والارض ؟

يوم يكون الدين بعيدا بنشاطاته عن الارض، ترى

الناس في انشغال عنه ، حتى يصبح في عزلة قاتلة الى حد ما.ولقد أدرك الفارعاملي هذه المسألة حق الادراك ، منذ وصوله الى لبنان . فلما وقعت هزيمة ١٩٦٧ رأى فيها الفرصة التي لا تعوّض ، فاستقبلها بكل ما توافر لديه من امكانات ، فحسبه بعض الذين حطمت هذه الهزيمة آمالهم الوطنية والقومية ، أي الشيعة منهم ، يمارس عملية انقاذ لهم نفسية ودينية . وسرعان ما صار بالنسبة اليهم هو « الطبيب » المداوي ، فتكبكبوا حوله ينشدونه الراحة والخلاص .

ليس قليلا أن يحافظ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الحميد الكواكبي ، الى اليوم ، على لقب : « قوى التنوير الاسلامي » ، وقد مضى على حركتهم ما يزيد على نصف قرن .

الا ان هؤلاء ما كانوا لينجحوا هنا ، في المنطقة السورية ، مثلما نجحوا في مصر . والسبب كما عيّنه الدكتور عبدالله حنا حيث يقول :

« ففي مصر الرازحة تحت نير الاحتلال ـ الاستعمار البريطاني منذ عام ١٨٨٢ اتخذ (التيار العلماني الليبرالي) مظهرا وطنيا مصريا مناهضا للاستعمار البريطاني ، ولم يكن يرى في الدولة العثمانية عدواً مباشرا له . بل ان بعض

أجنحة هذا التيار سعت تاكتيكياً للاستفادة من أفكار الجامعة الاسلامية أو الجامعة العثمانية لتسعير النضال ضد الاحتلال البريطاني . أما في بلاد الشام وما بين النهرين الخاضعة مباشرة للاحتلال العثماني الاقطاعي فان التيار الليبرالي كان تيارا قوميا عربيا (عروبيا) مناهضا بالدرجة الاولى للاحتلال العثماني ، الذي حكم باسم الجامعة الاسلامية . ومن هنا يمكن فهم الاسباب التاريخية لطغيان التيار الاسلامي في مصر وانتشار التيار القومي العربي في بلاد الشام والى حد ما العراق »[١١٧] .

ومن تيارات « مرحلة النهضة العربية » ما يسمى « التيار الديني المناهض للصوفية وطرقها وايديولوجيتها الاقطاعية »[١١٨]،وكان هذا التيار «يتطلع الى السير بالاسلام نحو معارج الحضارة الاوروبية البورجوازية » اذ «نادى بتطويع بعض المفاهيم الدينية لاحتياجات العصر »[١١٩] .

والحقيقة ان هذا التيار لم يقدر على « التصدي للطرق الصوفية والوقوف أمام سيلها الجارف »[١٢٠] ، لان حملة

(١١٧) د. عبدالله حنا : المصدر نفسه
(١١٨) المصدر نفسه
(١١٩) المصدر نفسه
(١٢٠) المصدر نفسه

لواء التطور الذي ينشده هذا التيار « تألفوا في البدء من الفئات البورجوازية التجارية المسيحية »[١٢١] ، ما دعا الاقطاعيين والصوفيين الى وصف محاولة التطور هذه بأنها « هجوم من المسيحية على الاسلام » [١٢٢]،فأفسحوا في المجال للأفغاني وعبده ورضا والكواكبي وقد دعوا الى الرجوع الى الينابيع الاولى : القرآن والسنّة وعهد الصحابة الاولين •

ولما انهارت الدولة العثمانية ، في عام ١٩١٨ ، وألغي منصب الخلافة ، في عام ١٩٢٤ ، « تراجعت أفكار الجامعة الاسلامية » [١٢٣] ، و « انتعشت الافكار القومية ذات المحتوى البورجوازي والعلماني واحتلّت مكانا بارزا في الحياة السياسية »[١٢٤] • ويوما فيوما ، بدأت الافكار الاشتراكية تظهر في المشرق العربي ، فتُرجم ، في القاهرة عام ١٩٢٤ ، كتاب لينين : « الدولة والثورة » • وفي عام ١٩٣٣ تُرجم البيان الشيوعي ونشر في دمشق ، فكان لهما أثر كبير ملحوظ [١٢٥] •

---

(١٢١) المصدر نفسه
(١٢٢) المصدر نفسه
(١٢٣) المصدر نفسه
(١٢٤) المصدر نفسه
(١٢٥) المصدر نفسه

وتسارعت الاحداث ، وكما لو أن اخراج بريطانيا وفرنسا من المشرق العربي بات أمرا ضروريا ، أخذت بعض الاقطار العربية تطالب بالاستقلال حتى أعطي لها • ولكن حدثاً مهماً وخطيرا فاجأ الدول العربية المستقلة ، فلم تستطع أن تحول دون تحقيقه ، اذ قامت دولة اسرائيل لتقلب الفرح حزناً ، والاستقلال قلقاً • وعندئذ استعادت التيارات العربية أنفاسها ، ولكنها بقيت من حيث القوة والتأثير وراء التيارات القومية [١٢٦] ، التي كانت تحتل مكانة الصدارة في تلك الايام •

لقد تم تأسيس الدولة الاسرائيلية في غضون أقل من خمس سنوات ، فرافق هذا العمل الاحتلالي انقلابا في الشام (انقلاب حسني الزعيم) ـ تبعته انقلابات عديدة ـ وآخر في مصر من صنع الضباط الاحرار ، مثلما مر معنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب ـ وكان لهذين الانقلابين أثر كبير إن على صعيد الفكر الديني ، وإن على صعيد الفكر السياسي • وليس خطأ أن تدعى المرحلة الممتدة بين ١٩٥٢ـ ١٩٦٧ « مرحلة ما بعد صدور قوانين الاصلاح الزراعي والتأميم » [١٢٧] ، وان يكن التأميم قد حصل فعلا ، بينما

---

(١٢٦) المصدر نفسه
(١٢٧) المصدر نفسه

الاصلاح الزراعي ظل نظرياً فقط في معظم المناطق التي شهدت التأميم القسري •

في هذه المرحلة نشطت لا التيارات القومية فحسب، بل التيارات الدينية أيضا • وظل التسابق بين الدينيين والقوميين يعنف ويشتد ، حتى كانت حرب ١٩٦٧ ، التي من أبرز نتائجها أنها أصابت التيارات القومية والوطنية في الصميم ، فيما ازدادت التيارات الدينية قوة ونشاطا • وبحسب المسح الذي أجراه الدكتور عبدالله حنا على التيارات الدينية الرئيسية في الربع الثالث من القرن العشرين ، فان عددها سبعة وهي :

« ١ — تيار أزهري يساير في أغلب الاحيان الحكام•

٢ — تيار يميني رجعي مثله حزب التحرير الاسلامي، الذي لا يزال يدعو الى اقامة « الخلافة الاسلامية » •

٣ — حركة الاخوان المسلمين ، التي يمكن تمييز تيارين داخلها :

أ — تيار معتدل مثله في سورية الخمسينات مصطفى السباعي ومحمد مبارك [١٢٨] •

---

(١٢٨) لقد انتعش هذا التيار في أجواء النضال الشعبي وسعى لكسب الجماهير المتطلعة الى الاشتراكية عن طريق =

ب — تيار متزمت مغرق في رجعيته ويمثله سيد قطب ، ومن كتاباته « ان جوهر الصراع مع الاستعمار هو صراع صليبي وليس اقتصاديا أو ماليا أو سياسيا » • ومحمد قطب رأى عام ١٩٦٩ أن « الجاهلية ليست محصورة في الجاهلية العربية ولا فترة من الزمن معينة » و « تاريخ أوروبا كله تاريخ جاهلية متصلة الحلقات » • ولا يقل عداء سيد قطب للقومية العربية عن عدائه للاستعمار ، وقد قال في القومية العربية انها « أحد الاصنام والطواغيت مثلها في ذلك مثل الاشتراكية والوطنية ولا بد من تحطيمها حتى تخلص التوحيد والعبودية لله » •

٤ — تيار سعودي يعتمد على دولة تبسط نفوذها على الاماكن المقدسة في الحجاز ، وتنهل من تيار سلفي هو

= الدعوة الى « اشتراكية الاسلام » . ولم يكن يعادي الاتحاد السوفياتي عداء مطلقا . وعلى قول محمد مبارك ، فان « للشيوعية عقيدتها ولنا عقيدتنا ، لهم دينهم ولنا ديننا والاشتراكية مذهب اقتصادي يمكن أن نستفيد من بعض نواحيه » ، « ان الخوف من الشيوعية ليس علينا نحن ابناء الشعب بل على اقطاعياتهم وعروشهم وزعاماتهم وثرواتهم التي باعدت بيننا وبينهم » (محمد مبارك / ٦ آب ١٩٥٥) د. عبدالله حنا : المصدر نفسه) .

الوهابية ، وتسبح في بحر من البترودولار يجذب اليه ما هب ودب من بني البشر .

٥ ـ تيار ديني رجعي معادٍ للتقدم يتغذى ماليـا ومعنويا من السعودية وهو مؤلف من عناصر حاقدة على التبدلات الاقتصادية ـ الاجتماعية (١٢٩) .

٦ ـ التيار الديني الشيعي في العراق ، حيث انتعش هناك هذا التيار مع انتصار الثورة الايرانية . وقد تمثل في ثلاثة اتجاهات هي :

أ ـ جماعة العلماء المجاهدين في العراق ، التي أعلنت التزامها بخط ولاية الفقيه « المتمثل بمرجعية وقيادة إمام الامة ومحقق أمانيها الامام الخميني » .

ب ـ منظمة العمل الاسلامي ، التي دعت الى قيام حكومة اسلامية في العراق بقيادة الامام الخميني (١٣٠) .

---

(١٢٩) من ممثلي هذا التيار حسب « احصاءات » الدكتور حنا : بشير العوف ، معروف الدواليبي ، صلاح المنجد ، واحمد الشيباني . والواقع هو ان هؤلاء هم كتاب سياسيون وليسوا كتابا دينيين (م. ج.) . ونحيل الدكتور حنا على دراسة للدكتور تركي الجود عنوانها : « توحيد الجزيرة العربية : دور الايديولوجية والتنظيم في تحطيم البنى الاجتماعية ـ الاقتصادية المعيقة للوحدة » ـ المستقبل العربي العدد (٩٣) ١١ـ١٩٨٦ من ص ٢٨ الى ص ٤٠ .

(١٣٠) تعتبر هذه المنظمة أن العراق هو « جزء لا يتجزأ من الخارطة الاسلامية العريضة الممتدة من الهند شرقا الى

=

ج ـ حزب الدعوة الاسلامية المتميز عن السابقين بنظرة معتدلة الى القوى السياسية الاخرى (١٣١) .

٧ ـ تيار ديني يستبصر بالقيم الديموقراطية والثورية في العصر الراهن ، ويجد مصادرها في الاصول الاسلامية الاولى وفي التراث الاسلامي عامة ، ومن ممثلي هذا التيار :

أ ـ تيار ناصري قارع السلفية بسلاحها (١٣٢) .

ب ـ تيار ذو رؤى ماركسية ، ومن أبرز ممثليه بعض محرري مجلة « الكاتب » (المصرية) .

=

المحيط الاطلسي غربا ومن تركيا شمالا الى البحر العربي جنوبا ، أي ان العراق جزء من الوطن الاسلامي الكبير » . وترى هذه المنظمة في النزعة الوطنية « مكيدة استعمارية » ، وهي في هذا الراي لا تختلف عن سيد قطب المعادي للقومية العربية .

(١٣١) مؤسس هذا الحزب آية الله محمد باقر الصدر ، الذي قتل في العراق «على يد عملاء اجهزة النظام العراقي الحالي » كما قيل . من أشهر مؤلفاته : « اقتصادنا » .

(١٣٢) العاملون في هذا التيار كما حددهم الدكتور حنا : خالد محمد خالد ، د. محمد عمارة ، د. حسن صعب المطالب بـ « تحديث العقل العربي » ، و د. حسن حنفي. ولنا ردود على أعمال بعضهم ولا سيما منهم خالد محمد خالد ومحمد عمارة ، وذلك في كتابنا : « نحن وصنمية التاريخ » طبعة ١٩٨٦

ويحاول هـذا التيـار التصدي لمحاولات أعـداء الاشتراكية الدائبة لافتعال تناقض زائف بين نصـوص الاسلام وبين الفكر الاشتراكي • ويقدم كتاب « الاشتراكية والدين » لخالد محيي الدين نموذجا من نشاطات هـذا التيار الداعي الى « وأد مخططـات الاستعمار الجديـد والصهيونية وبعث أفضل تقاليد التسامح الديني والانتصار للعقـل التي سادت أزهى عصـور الحضـارة العربيـة الاسلامية » [١٣٣] •

بعد هذا التأمل في خريطة التيارات الدينية في المشرق العربي ، هل لنا أن نبحث عن مكان فيها للفارعاملي السيد موسى الصدر ؟

ان مكانه لواضح ومعروف ، على الرغم من الغموض الذي يصطنعه الفارعاملي نفسه طيلة عقدين مـن السنين تقريبا •

ما هي حدود مكانه ؟

ان حدود مكانه ، أو موقعه الديني ، هي قم وكـل ايران شرقا ، ولبنان غربا • فمن قم انطلق الفارعاملي الى جبل عامل ، وانطلق معه رفقاء الى العراق ، ثم تبعهم روح

---

(١٣٣) د. عبدالله حنا : المصدر نفسه •

الله الخميني (١٩٦٣) بعد أن صار « آية الله » ••• و« نائب الامام» ••• و« الفقيه» الذي له « الولاية» والحق في « الحكم الالهي » • ولعل أقرب هذه التيارات التي استعرضناها ، الى الفارعاملي ، هو التيار الذي أسسه آية الله محمد باقر الصدر ، كون الفارعاملي أيضا ينظر باعتدال الى القوى السياسية الاخرى ، بما فيها غير الاسلامية •

فلننظر كيف نفذ الفارعاملي أو هو حاول أن ينفذ مهمته « الإمامية المهدية » على أكمل وجه !

حصان كل العرب

قبل ان يوقع مجلس النواب على القرار القـاضي بانشاء « المجلس الاسـلامي الشيعي الاعلـى » ، سافر الفارعاملي الى أفريقيا ، بدعوة من فريق من المغتربـين الشيعة ، وكان ذلك في الاسبوع الاخير من كانون الثاني ١٩٦٧ •

لماذا هذه الرحلة وما هي أهدافها ؟

عن هذه الرحلة يقول المحامي نجيب جمال الدين :

« أما أسباب الرحلة ، فإلحاح الجالية اللبنانية ، على لقاء السيد ، وتسطير العديد من الدعوات ، اليه ، وكلها

تشير الى أنهم ــ اللبنانيون هناك ــ يودّون لــو ساهموا بأعماله الكبيرة ، وأن نفوسهم ترتاح الى يده الامينة،وأن عطاءهم ليس فضلا ، ولكنه واجب . وقرأت كتابا(رسالة) أظهر فيه موقّعه ، وكأنه يدعو ليسهم وهو يعتذر ..»

أضاف :

« وبالواقع فان المعدن الصافي للسيد ، المستخرج من منجم آبائه وأجداده ، وقـد مهرته المدرسة الاسلاميـة الشرقية الكبرى ، بتقاليدها التاريخية ــ ذلك المعدن ضرب ألف مرة على المحك وصمد ــ هو الذي جعل جـاليتنا هناك تتصرف بحياء ورجاء ، وهي تدعوه لزيارة افريقيا..»

وقال أيضا :

« على أن السبب لم يكن كما خال أكثرهـم هنا ، وبعضهم هناك ، هو حاجة المؤسسات الاجتماعية وفقراء الشيعة ، وغيرهم ، وأيتامهم الى المال ، فقد كان كاتب هذا الكتاب (نجيب جمال الدين) أحد قلائل عرفوا سر زيارة السيد لأفريقيا »[١٣٤] .

---

(١٣٤) نجيب جمال الدين : الشيعة على المفترق ، المذكور سابقا ، ص ١٢٥

ولكن الفارعاملي توجه نحو افريقيا من أجل المال فحسب .

لم لا ؟

وهل جمعُ المال من أثرياء الطائفة الشيعية ، المقيمين والمغتربين ، اذا كان لاجل القيام بمشاريع اجتماعية تخفف من آلام هذه الطائفة ومشكلاتها ، عيب أو خطأ ؟

ان الفارعاملي الهادف الى تحسين اوضاع طائفتـه وتطويرها ، من أين يأتي بالمال ، وهو عصب كل مشروع اجتماعي وغير اجتماعي ، اذا لم يأته من الميسورين الشيعة؟

نعم . لقد دعاه بعض المغتربين الى افريقيا ، ولبى الطلب،فلما ثبت لهم انه (الفارعاملي) صادق في مطارحاته، ومنطقي ، وشجاع في الكشف عن هموم الطائفة وقضاياها، اطمأنوا اليه ودعموه بما استطاعوا ، وهذا الأمر طبيعي ، حدث ويحدث مثله في كل طائفة وملّة ، شرقية كانت أو غربية ، مسيحية أو اسلامية ، يهودية أو درزية ، وثنية أو هندوسية ، زرادشتية أو بهائية . وهل يُعقل أن تقام آلاف المعابد والمراكز الدينية الضخمة ، هنا وهناك وفي كل مكان، لولا المحسنون الذين يؤمنون بأن حسنة واحدة قد تردّ مئة سيئة ؟

لكي يكون الثري ، أي ثري ، محسنا ومتبرعا بقسم من ماله لعمل الخير ، ينبغي للطالب أو السائل أن يكون لا أمينا فحسب ، بل بنّاء أيضا وله شخصية قيادية توحي بالثقة والامان ، والا فمن الصعب ، إن لم نقل من المستحيل ، انتزاع العطاء بالقوة والتهديد ، واذا ما أُخذ « الاحسان » بهذه الطريقة أو ما يشبهها ، فلا يُعَد احسانا ، بل اغتصابا وقهرا وتسلطا . والفارعاملي ، بكل تأكيد ، هو واحد من أولئك الذين يشجعون على الاحسان والوهْب ، لما عنده من سمات آسرة ومؤثِّرة . وقد دعي الى أفريقيا ، بعد أن رأوا فيه الامل المنشود والحلم الدفين . وعلى ما قيل ، فان « الملياردير » علي جمّال عرض عليه رئاسة مجلس ادارة مصرفه : « بنك جمّال » ولكن الفارعاملي أبى الا أن يكون هو الإمام موسى الصدر ، وذلك خوفا من « الوظيفة المالية » على رسالته وشخصيته من جهة ، وعلى جماهيره الذين يبذل دونهم عمره كله وأمنه وراحته من جهة أخرى .

فهو ، اذن ، قد سافر الى غانا ونيجيريا وشاطىء العاج وليبيريا ، حيث توجد جالية شيعية لبنانية كبيرة ، لاجل المال .. والمال فقط .

ان رحلة تستغرق نصف سنة أو أكثر ، كانت ضرورية

جدا ، بل حتمية . وهي أتت في أحرج الاوقات وأصعبها : مرحلة المخاض السابق على ولادة المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى كما يقول الفارعاملي نفسه في رسالة له الى الشيخ فضل الله دندش تسنّى لنا الاطلاع عليها .

« أنا هنا في افريقيا ، مع اخوان صدق ومؤمنين ، أشعر بالراحة والاعتزاز . ولكنني ايضا مشتاق اليكم ، يا من له الفضل الاكبر ، وعليكم أنتم وسائر المخلصين اعتمادي واتكالي . ولا بد من أن تتحقق أهدافنا الكبيرة ان شاء الله سبحانه وتعالى » .

ان هذا ما كتبه الفارعاملي ، من افريقيا ، الى صديقه ، في لبنان ، النائب — آنذاك — الشهابي الشيخ فضل الله دندش السخي والمحب والمقدام ، وربما كتب مثله تماما ، مبنى ومعنى ، الى غير الشيخ فضل الله دندش من النواب والمحامين والاطباء والميسورين الشيعة ، ممن فتحوا له قلوبهم قبل بيوتهم .

وهل غير المال يستطيع حث الفارعاملي على ترك البلاد ، في تلك الآونة الدقيقة والمصيرية ، والتي تُعتبر من أهم فترات حياته ؟

مطلبان عظيمان كانا يشغلان الفارعاملي في النصف

الاول من عام ١٩٦٧ ، هما : مرسوم اشتراعي ينص على تنظيم الطائفة الشيعية ، كما سواها من الطوائف اللبنانية، والمال . الاول ضمِنه اذا ضمِن رضا العهد ،ورضا النواب الشيعة ، كما هو واضح في رسالته الى الشيخ فضل الله دندش . بقي الثاني ، وهذا لا يتحقق بدون السفَر . وكسْبا للوقت ، يجب أن يسافر مهما تكن الظروف .وعلى هذا تمّت الرحلة السوداء « الموفقة » و « المباركة » والبيضاء كالثلج على أعلى القمم . ولما قبض على أقصى ما يرجوه ، عاد الى لبنان ، وقد وفى النواب بالعهد ، ليخوض معركة « الإمام » ــ معركة رئاسة « المجلس السعيد » .

وإذ أوشكت رحلة الفارعاملي الافريقية السوداء ــ البيضاء ، مثلما قلنا ، أن تنتهي ، اشتعلت النيران على الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية ، والجبهة السورية ــ الاسرائيلية، ثم الجبهة الاردنية ــ الاسرائيلية ، فأخذ الفارعاملي يتابع التطورات ساعة فساعة ، بل دقيقة فدقيقة ، وهو العالِم بأن انتصار العرب معناه انتصار التيارات القومية والوطنية على التيارات الدينية . وعلى كل فان هذا الامر مستبعد ، لوجود عنصر المفاجأة في يد اسرائيل ، والضربة الاولى هي الضربة الاسرائيلية المحكمة والقوية لسلاح الطيران المصري الذي تحطّم في ساعات قليلة .

ماذا كان سيحدث لو ان عبد الناصر فاز في الحرب ؟

ربما لن ينفع التكهّن وقد حدث الذي حدث . غير أن الذي لا شك فيه ، انه لو قدّر لعبد الناصر أن يربح المعركة ، لاصبح « إلهاً » لكل العرب والمسلمين ، فاذا قال للشيء كن فيكون . كما وأن المتضررين لن يكونوا اليهود فحسب ، بل التيارات الدينية في شرقنا ، ومنها التيار الشيعي ــ الامامي الذي يمثله الفارعاملي السيد موسى الصدر . وعلى قول سليمان تقي الدين ، في دراسة ألقيت في حلقة دراسية نظّمتها جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية في بيروت ، خلال تشرين الثاني ١٩٨٦ ، فان هزيمة العرب في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، قد « شكلت انعطافا حاسما في الوضع العربي وافتتحت مرحلة من التراجع لحركة التحرر القومي اندرجت مباشرة على ميزان القوى اللبناني . فأحدثت بالتالي اعادة نظر واضحة على برامج القوى السياسية » (١٣٥) .

ومع هذه الهزيمة أيضا ، تمّ القضاء شبه النهائي على الشهابية ، ومحاولتها بناء دولة قوية نظاما وكيانا . ولكن نهاية الشهابية لا تعني نهاية الفارعاملي بل العكس هو

(١٣٥) سليمان تقي الدين : السفير : ١-١-١٩٨٧ .

الصحيح . ذلك لان الشهابية وان اتفقت مع الفارعاملي وغيره من طلاب الاصلاح الدينيين اللبنانيين ، هي نهج قومي لبناني ومحاولة استحداث ايديولوجية صريحة للنظام اللبناني والكيان تجدد الولاء له [١٣٦] ، وتعززه وتحميه من الطوارىء والمستجدات ،فيما التيار الذي يعمل له الفارعاملي هو تيار ديني – إمامي ، يرى الى لبنان كما يرى آية الله محمد باقر الصدر الى العراق ، أي « جزءاً لا يتجزأ من الوطن الاسلامي الكبير » .

وجاء في دراسة تقي الدين أيضا :

« فاذا كانت أحداث ١٩٥٨ التي أتت في ظل عبدالناصر قد فرضت على الفكر السياسي في لبنان أن ينطلق من واقع النهوض القومي ، وبالتالي يفرض على الفريق المسيحي أن يستوعب مطالب الشارع الاسلامي (التي أوغلت في التطرف) ، فان أحداث ١٩٦٧ أعطت نتائج معاكسة تمثلت في الارتداد المسيحي حتى عن مشروع الدولة الذي طرحته الشهابية كتجديد للميثاق الوطني . وكان تأسيس الحلف الثلاثي ايذانا لهذا الهجوم المعاكس » [١٣٧] .

« على أن الشارع الاسلامي، رغم مناخ التراجعات

(١٣٦) المصدر نفسه
(١٣٧) المصدر نفسه

العربية كان قد امتلك في لبنان عوامل قوة ظاهرة جعلته يتمسك ببرنامجه السياسي ويواجه (الحلف الثلاثي) بتطلب أكثر تشددا» [١٣٨]

ان هذه « القوة الظاهرة » التي استند اليها الشارع الاسلامي ، كانت هي المقاومة الفلسطينية ، أو « حركة التحرر الوطني الفلسطيني » التي أطلقتها هزيمة حزيران « من وصاية الانظمة العربية » ، وأحاطها « رد الفعل الجماهيري العربي بالتأييد والدعم .ورأى فيها التعويض عن الهزيمة وعن أنظمة الهزيمة » [١٣٩] ، وأتيح لها أن تمارس في لبنان « دوراً أكثر تأثيرا » [١٤٠] ، حيث أصبحت وكأنها طرف من أطراف الصراع اللبناني – اللبناني ، بما أفسد الاجواء وعطّل على اللبنانيين فرص التفاهم والوفاق .

ولما عاد الفارعاملي من أفريقيا ، أذاع بيانا تحدث فيه عن الجو الذي كان سائدا هناك ، خلال المحنة ، ودعا الى « تحسّس الخطر » ، و « توحيد الصف حكومات وقادة وأحزابا وفئات ومذاهب » ، و « العمل المخلص الصامت»،

(١٣٨) المصدر نفسه
(١٣٩) المصدر نفسه
(١٤٠) المصدر نفسه

و « الوثوق بالله وحده والرجوع اليه وحده » ،و«التهيؤ الكامل والاستعداد التام النفسي والجسمي لمواجهة العدوان » (١٤١) .

فكان هو أول بيان سياسي له ، بعد مؤتمر بعلبك الصحافي . وفيه أيضا طالب الحكومة اللبنانية « بتجهيز الجيش بالاسلحة الحديثة تجهيزا كاملا حتى ولو عصرت نفقات المشاريع العمرانية »(١٤٢) ، لان « بقاء الوطن أساس لكل مشروع عمراني أو نشاط ثقافي أو اقتصادي أو اجتماعي والشعب يضحّي بكل شيء في سبيل تسليح الجيش تسليحا حديثا كاملا » (١٤٣) .

وفي صيف ١٩٦٨ قرأ الفارعاملي قصيدة لنزار قباني عنوانها : « فتح » ، يقول فيها :

« جاءت الينا « فتح »

كوردة جميلة ، طالعة من جرْح

كنبع ماء بارد ...

يروي صحاري ملح

---

(١٤١) منبر ومحراب : ص ١٢٥
(١٤٢) المصدر نفسه
(١٤٣) المصدر نفسه

وفجأة ...

ثرنا على أكفاننا وقمنا

وفجأة كالسيد المسيح بعد موتنا نهضنا

يا « فتح » يا شاطئنا من بعد ما فقدنا

يا شمس نصف الليل لاحت

بعد فجرنا ...

يا رعشة الربيع فينا بعد ما يبسنا

حين قرأنا عنكم كل الذي قرأنا ...

خمسين قرنا ... بكم كبرنا ...

وارتفعت قاماتنا ...

وأزهرت حياتنا

من بعد ما نشفنا

يا « فتح » يا حصاننا الجميلا »(١٤٤) .

---

(١٤٤) نزار قباني : مجلة كل شيء – تموز ١٩٦٨ . انظر كتابنا : « رسائل من خلف المتراس » ج ١ ، فصل : «رماد بيروت والقيامة»،وهذا كتب ردا على نزارقباني،حول حديثه الى « الانوار » العدد ٦٠٠٧ الصادر بتاريخ ١٠/٨/ ١٩٧٨

بعد هذه القصيدة ، صار الفارعاملي أنّى تنقّل في
لبنان يتراءى له «حصان العرب الجميل» ـ «فتح» ، وقد أعجبـه
وقد أعجبه « صهيله » وركْضه من حي الى حي ، ومن
«صهيله» وركْضه من حي الى حي ، ومن مدينة الى مدينة . ولا
سيما ان هـذه الحيويـة من صفات الفـارعاملي أيضا .
حركة رجلي «الحصان» ويديه لا كما حركة رجلي ويدي
أي حصان آخر . كل شيء في هذا « الحصان » العجائبي
استهواه . حتى السرْج ظنه الفارعاملي من سروج تلـك
الأحصنة « الخالدة » التي شاركت في غزوة بدر أو معركة
أُحد ، أو التي كانت تحت الامام علي وفرسانه في البصرة
وصفّين ، أو تحت الامام الحسين ورجاله في كربلاء .

لقد عرف « الجودي الساحر » طريقه ، اذ عـرف
مركوبه .

وذات يوم من أيام رمضان ١٩٦٨ ، ظهر في أحـد
شوارع بيروت ، الزعيم الدرزي كمـال جنبلاط ، وقـد
استوى على « صهوة العز » ، ممتطيا « حصان كل العرب» ،
فعبست للفارعاملي الدنيا ، اذ أحس بالذل والانكسار .
وأخذ يفكر في ما يجب أن يفعله على وجه السرعة .

وفي اليوم الخامس ، دعا الفارعاملي الى حفلة افطار
في فندق « بيروت انترناشيونال » حضرها عدد كبير مـن

الشخصيات الاسلامية المعروفة ، وفتح خلالها باب التبرع
لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » (١٤٥) .

كـانت ليلة السادس عشر من كانون الاول ١٩٦٨
عاصفة وهائجة ، فأغرقت العاصمة بالمطر ، ومع هذا كان
الحضور في قاعة « بيروت انترناشيونال » كثيفا كمـّاً
ونوعا . وكيف لا يكون كذلك ، والمناسبة عزيزة وغالية:
دعوة من الفارعاملي ـ « الجودي الساحر » على شرف
« حصان كل العرب » .. ولنقل « حصان مسلمي لبنان»
على الأخص . انها « حفلة العمر » . و « رمضان كريم» .
كل أثرياء الشيعة والسنّة كانوا هناك . ومن لم « يحصل
له الشرف » أرسل كتابا فيه مما « تيسّر » .. وكلمة :
« الله معكم » .

ووقف « الجودي الساحر » يقول كلمته مبتدئـا
بالآية : « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون
في دين الله أفواجا ، فسبّحْ بحمد ربك واستغفرْهُ
انه كان توّابا » (١٤٦) . ثم خاطب الحاضرين قائلا :

« أيها الاخوة الاعزاء ،

---

(١٤٥) الحياة : ١٩٦٨/١٢/١٧ ، العدد ٦٦٦٤ . منبر
ومحراب : ص ١٣٦
(١٤٦) النصر : ١

« اسمحوا لي (بـ) أن أقول شكرا أو عذرا لتحملكم صعوبات الحضور في هذه الليلة وفي هذا الطقس العاصف، لان قلوبكم وأحاسيسكم التي تجلت في وجوهكم منذ دخولكم القاعة ، هي خير تعبير عن استعدادكم الكلي لمساندة هذا العمل المقدس ، مخلصين ، لا تريدون جزاء ولا شكورا » .

أضاف :

« ولا أراني بحاجة الى التأكيد على «لاشرعية» اسرائيل في تكوينها وفي تصرفاتها . فأمام اسرائيل مئات من المؤتمرات الدولية والاتفاقات المعمول بها في العالم ، اتفاقات «لاهاي» وبروتوكولات جنيف ، وقرارات مجلس الامن وتأكيدات الجمعية العمومية وقرارات لجنة حقوق الانسان ومؤتمر حقوق الانسان ، وغير ذلك مما يحتاج الى كتاب طويل » .

وقال أيضا :

« ولا أراني أيضا بحاجة الى التأكيد على «شرعية» المقاومة الفلسطينية داخل الاراضي المحتلة وخارجها من الناحية القانونية . فالمقاومة الفلسطينية ، بعد صدور قرار

مجلس الامن ، حكمها حكم الحرب المشروعة ، وأسراها يجب أن يعاملوا معاملة أسرى الحرب » [١٤٧] .

ويستدرك قائلا : « وبما ان هذه الاحاديث خارجة عن نطاق اختصاصي ، فان حديثي هو الدين وموقف الدين » [١٤٨] من شرعيتي اسرائيل والمقاومة الفلسطينية.

وينطلق عاشق « حصان كل العرب » في الحديث « الثوري » و « المخملي » ، في آن معا ، فيفسر ويشرح ويعلل ويحكم كما يلي :

« الدين يحترم كل انسان دون النظر الى دين أو رأي أو عقيدة . ولكن الانسان اذا تحول نتيجة للعقائد الخطرة الى جرثومة تعبث في الارض فسادا وتبتلي المجتمعات بالامراض ، عندئذ لا حرمة لهذا الموجود ، كما يقطع الانسان من جسده اذا ابتلي بمرض خبيث معدي» .

أضاف :

« نحن لا نكره البشر ، ولكن نقول : منذ تكونت دولة اسرائيل الاولى ، قبل مولد السيد المسيح ، بدأ

(١٤٧) الحياة ١٩٦٨/١٢/١٧ . منبر ومحراب : ص ١٣٦
(١٤٨) المصدر نفسه

اليهود يمارسون العنصرية والافكار العنصرية التي تعطيهم فكرة التفوّق على البشر . فجعلوا لأنفسهم في العالم امتيازات ، وخصصوا لانفسهم إلهاً آخر يختلف عن إله الناس ويختلف عن الإله الواحد ، حتى يعمّقوا الانفصال ويجزّئوا البشرية ويجعلوا أنفسهم فوق البشرية ، حتى في إلههم . فهم ليسوا أول من آمن بالإله الواحد إله ابراهيم . ان الفينيقيين والكنعانيين كانوا يؤمنون بالإله الواحد وكانوا يسمونه « ايل » .

وأما اليهود فقد « خصصوا إلهاً آخر وسمّوه «يهوه» . وبعد ذلك فصلوا حساباتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم عن الناس ، منذ القدم والى يومنا هذا . وفي هذا السر كل السر في محاربة الانبياء الذين جاؤوا بعد هذا التزييف في الرسالة الالهية والتحريف في الكلمة . فبدأوا يحذرون الناس من أخطارهم » (١٤٩) .

ويمضي الفارعاملي في تفسير كلمة المسيح : «لا تعطوا القدس للكلاب والخنازير » فيقول :

« هو (المسيح) لا يقصد بالقدس مدينة القدس وحدها بل كل معاني القدس . ويقول السيد المسيح عليه

(١٤٩) المصدر نفسه

السلام حينما أخرج التجار والصاغة والباعة من الهيكل، يقول لهم : « هذا بيت أبي مكان للعبادة وأنتم جعلتموه مغارة للصوص » .

ويتابع الفارعاملي قائلا :

« أنا أتساءل لو كان السيد المسيح بيننا في هذا اليوم ، فما عساه يقول ؟ انه يقول : هذا بيت أبي مكان للعبادة وأنتم جعلتموه مغارة للتآمر والدس ، وقاعدة للاستعمار ، ومكانا للفساد والحانات .. وأمثال ذلك...

« اذن السبب في محاربة السيد المسيح لهم ، ليس في انه يكره هذا البشر كبشر ، وانما يكره هذا البشر الذي تحوّل نتيجة للعقائد الزائفة الى جرثومة فساد » (١٥٠) .

ويأتي نجم ليلة « بيروت انترناشيونال » الفلسطينية الى القرآن ومحمد ليستنطقهما ، فيقول :

« ولهذا السبب أيضا ينذرنا النبي محمد (ص) فيتلو علينا في كل يوم جمعة مرتين انذارا صارخا : أيها المسلمون هؤلاء هم الظالمون . ففي سورة الجمعة ، في امكانين ، ينذر القرآن الكريم المسلمين ، فيقول : « مثل الذين حمّلوا

(١٥٠) المصدر نفسه

التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين »[١٥١] . ثم يكرر : « قل يا أيها الذين هادوا ان زعمكم انكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . ولا يتمنّونه أبدا بما قدمت أيديهم ،والله عليم بالظالمين »[١٥٢] .

ويقرر الحكم كالآتي :

« وبهذا تتوضح الاسباب واننا لا نحاربهم كبشر ، ولكننا نحاربهم كمؤمنين ، بل نحاربهم لانهم لم يحملوا الكتاب »[١٥٣] .

ويواصل الفارعاملي الشرح والتعليل قائلا :

« فاذن ليست محاربتنا لهم محاربة للانسان . انما هي محاربة للفساد والانحراف والظلم ولفكرة التفريق العنصرية »[١٥٤] .

اين المسألة القومية ؟

ان هذا السؤال لا يطيق الفارعاملي أن يسمعه .

---

(١٥١) المصدر نفسه
(١٥٢) الجمعة : ٦
(١٥٣) المصدر نفسه
(١٥٤) المصدر نفسه

لماذا المسألة القومية أصلا .. يقول لك الفارعاملي ويحوّلك الى الدين .. وموقف الدين .

ان ما يقوله الدين هو كل شيء .. ولا قرار سوى القرار الديني .

« الانبياء أنذرونا : أخرجوا اليهود من الجزيرة العربية . ولكننا لم نسمع لهم حين لم يكن لهم قاعدة . فكيف بنا في هذا اليوم وأمامنا هذا الخطر المتجسم ؟»[١٥٥]

اذا كانت « شرعية » اسرائيل قد استدعت هذا البحث ، فان شرعية المقاومة ، من الناحية الدينية ، « لا تحتاج الى بحث أبدا »[١٥٦] .

لماذا ؟

الجواب عند الفارعاملي هو التالي :

« كيف لا وأفراد المقاومة هم الذين يطبّقون شرعة الانسان ويؤتمنون على صيانة الاخلاق والمثل وينفّذون ارادة المسيح وارادة محمد ، وهم الذين يطبّقون ارادة

---

(١٥٥) المصدر نفسه
(١٥٦) المصدر نفسه

الله التي تعبّر عنها الآية الكريمة : « ضُربت عليهم الذلة والمسكنة »(١٥٧) .

ويتابع قائلا :

« فاذن هؤلاء هم الذين ينفّذون هذه الارادة السماوية ، فيد الله ويد المسيح ويد محمد ويد القيم تخرج من كفهم ومن يدهم ، وتتمثل في سلاحهم وفي دمهم وفي جهادهم لاجل تنفيذ هذه الاحكام السماوية »(١٥٨) .

ولكي يستفرد الفارعاملي أو « الجودي الساحر » بـ « حصان كل العرب » دعا الى دعم المقاومة وقال :

« اذا دعمنا هذه المسيرة العظيمة المقدّسة وهذا الجهاد المقدّس هذا اليوم ، فسوف يوفّر علينا الآن الأضعاف ، مما نبذله في المستقبل ، كما كان الامر في تقاعسنا السابق عن الدفع وعن اتخاذ موقف سليم منذ المحنة الفلسطينية ، كل ذلك جعلنا في صعوبات غير متناهية » .

أضاف :

« فالتضحيات التي يجب أن نقدمها في هذا اليوم تبلغ عشرات أضعاف ما كان يكفي تقديمه يوم بدأت هذه

(١٥٧) من آية ٦١ البقرة .
(١٥٨) الحياة ... منبر ومحراب ص ١٣٨

الحركة الصهيونية على أرضنا . ولو كنا نطبّق التعاليم الدينية منذ مئةسنة لتوفر علينا الشيء الكثير والجهاد الكثير والمال الكثير . أما وانا تتأخر عن ذلك ، فلا تتأخر في هذا اليوم »(١٥٩) .

وفي عملية « تشليح » خفيفة وناعمة ، التفتَ الفارعاملي ذو العينين الوسيعتين الى المدعوين وقال :

« فكل ما نملك ، وكل ما نسعى ، وكل ما تفكر ، نرجو أن يكون في خدمة هذه القضية المقدّسة . ونحن أيها الاخوة ، لا يكفي أن نصفّق وأن نرحّب وأن نبذل من عاطفتنا واحترامنا ، فهذا لا يكفي . بل يجب علينا أن نقدم كل ما يمكننا تقديمه من مساهمات ومساعدات وتأييد ، بكل معنى الكلمة ، وهكذا نؤدي واجبنا»(١٦٠) .

ولاحظ الفارعاملي الدهشة والارتياب على بعض الوجوه ، فألقى المسؤولية عن كاهله ، ليحمّلها المرجع الاول : محسن الحكيم ، وذلك درءاً للاسئلة الصعبة و « المزعجة » ، فقال :

« ثم انني قبل شهر رمضان المبارك كنتُ في العراق

(١٥٩) المصدر نفسه .
(١٦٠) المصدر نفسه

وفي النجف الاشرف،فرأيت في الحفلة التي اقيمت بمناسبة ذكرى سيد الشهداء الامام الحسين عليه السلام ، وهي الحفلة الكبرى السنوية التي تقام برعاية سيدنا الإمام المرجع السيد محسن الحكيم . وجدتُ في هذه الحفلة شاباً من حركة « فتح » اشترك وألقى كلمة . ووجدتُ في مكان الاحتفال جماعة من اللجنة العراقية لدعم حركة « فتح » يجمعون التبرعات » .

أضاف :

« ثم شاهدتُ شوارع النجف الاشرف ، وخاصة الدورة التي هي حول قبر الامام علي عليه السلام ، مليئة بالشعارات والشارات التي صدرت عن حركة «فتح »» . والسيد الحكيم استقبل جماعة منهم ودعا لهم بالنصر والتوفيق . فمن هذا أيضا تتمكن أن تتخذ موقفا مذهبيا سليما يؤدي الى وجوب دعم هذه الحركة في أقطار العالم »(١٦١) .

فتبادل فريق من المدعوين النظرات الحائرة والمستفسرة، وكم تمنّوا لو يخرجون قبل « تنف ريشهم » .

متران من اللحم والعظم والذكاء والأناقة واللياقة ،

---

(١٦١) المصدر نفسه

هو « الجودي الساحر » ، الذي عيناه على « حصان كل العرب » . فمن الذي يجرؤ على الكلام بما يزعجه أو يعكّر مزاجه ؟!

الجو في الخارج مطر وبرق ورعد . وفي الداخل تصفيق .. و « فبركة » مقالب .. وصفقات ..وتشليح بمهارة فائقة ، وتسمع الفارعاملي يغرّد كالحسّون ويقول:

« أيها الاخوة الاعزاء ،

« هذا واجبنا الديني والانساني ، ونحن في هذه الحفلة المباركة التي أقيمت بهذه المناسبة الكريمة ، شهر رمضان ، شهر الصيام والسمو ، شهر الصبر والاستقرار، شهر ليلة القدر وتقرير المصير ، شهر فتح مكة وواقعة بدر الكبرى ، شهر الانتصارات » .

أضاف :

« نلتقي في آخر هذا الشهر في هذه الحفلة المباركة، ونرجو أن يكون لنا فيها مكسب يرضي الله ، فيكون من صميم مكاسب هذا الشهر المبارك ، كما كان في أول الامر. أو تقول ان في هذا الشهر دخل النبي محمد عليه الصلاة والسلام مكة وانتصر انتصارا نهائيا . دخل مكة في هذا الشهر ونزلت السورة المباركة : « اذا جاء نصر الله والفتح

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبّح بحمد ربك واستغفره انه كان توّابا » .

وقال :

« واننـا نأمل أن نقرأ في شهر مشابه مثل هـذه السورة حينما تدخل حركة « فتح » ومن حولها الـذين دعموها وساندوها وواكبوها ، في الحرم الثاني ، كما دخل سيدنا محمد من الحرم الاول . اننا ننتظر نصر الله على أيدي هؤلاء الشباب ، يحققون الارادة الالهية »(١٦٢) .

اذا تحقق مشتهى «الجودي الساحر»، فان « قرآنا» جديدا سوف يُكتب . ولكن من الذي سيكتب هـذا « القرآن » ؟

« النبي » واحد .. والكتبة كثيرون .. وكثيرون جدا .

« أبو عمار » هو النبي المنتظَر .. والصحابة هم : جورج حبش و « أبو اياد » و « أبو اللطف » و « أبـو الزعيم » ونايف حواتمة وأحمد جبريل و « أبو حسن » و « أبو جهاد » و « أبو الغضب » و « أبو الليل »وشفيق

(١٦٢) المصدر نفسه ص ١٣٩

الحـوت والخالـديـون : طريف ووليـد ورشيـد ، ومحمـود درويش وسميـح القاسم وهـارون هاشم رشيد وأبو سلمى ، وكل الشعراء والادباء الفلسطينيين .
ومن هؤلاء الصحابة: المستشار والكاتب والترجمان والسفير الخ ...

باب الصحابة مفتوح لمن يرغب في الدخول .
باب النبوّة المقفل منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن، فُتح الليلة ، في فندق « بيروت انترناشيونال » على يـد حفيد رسول الله أمّاً وأبا : الامام الفارعاملي مـوسى الصدر ، فاستعدّوا أيها المسلمون ، وكونوا على حذر .

وكمن يضع حجر الاساس لبناء عام ، هكذا وضع « العرّاب الطويل » برميل البارود تحت بيروت التي مـا زال طعم الزلازل على لسانها . النبي الاول (محمد)اتخذ لـه مقرّين في مكـة والمدينة . وما على النبي الثاني (الختيار) الا أن يبني « مكّتَـه » في بيروت ،و«مدينته» في جبل عامل .

ليكن لك ما تريد أيها «النبي» الآتي من الهزائم العربية المتراكمة . وأما أنتم ايها الصحابة « الأبوات » فلكم المال والسلطان ..

خذوا يا رجال « فتح » ما شاء لكم أن تأخذوا ..
وافعلوا ما أردتم وأحببتم .. فالأرض أرضكم ، والشعب
شعبكم ، والآمال معلّقة عليكم ...

أما أنا ،

فلأنني أطول منكم بقليل ، أذكى منكم بكثير .وهذه
نعمة من ربي تغنيني عن الدنيا وباطلها وكذبها .

ان لي عندكم ، يا فاتحي الآمال في قلوبنا ، مطلبا
واحدا .. واحدا فقط .. فاسمعوا جيدا .. وافهموا
جيدا .. ولكنه ليس مطلبي أنا فحسب .

انه مطلب الله سبحانه وتعالى . ومطلب الجميع ..
الذين حضروا منهم .. والذين لم يحضروا .

انه الآية الاولى في «القرآن»الجديد ، الذي ادعوكم
الى وضعه

بل انه الكلمة الاولى

والوحي الاول

أقول : اسمعوا يا شباب « فتح » .. ويا أيها
الضيوف الكرام

اسمعوا ما أنا قائل لكم :

خذوا « الجياد » كلها

خذوا « المهار » كلها

خذوا الجنوب .. وأهله

خذوا عباءتي وعمامتي .. خذوا لحيتي

واتركوا لي ، الآن ، وليس غدا ، « حصان كل
العرب »

لا أريد لهذا « الحصان الجميل » أن يمتطيه أحد
سواي

ان أحدا من الدنيا لا يعرف ما أعرف

نعم ، يا شباب « فتح » ، أنا أطول منكم ..وأعرف
منكم .. وأثقل من أي « جودي » ، غريباً كان أم شرقياً.

أنا قاهر « الجياد » و « خنّاق » المهار

لكنني لطيف بهذا الحصان ..

وألطف ممن خلق الله وسيخلق

اتركوا لي هذا الحصان ، فأنا العليم به بعد الله
والنبي والأئمة عليهم السلام جميعا .

أقول لكم : اتركوا لي هذا الحصان ، ليكون لي شرف الدخول الى الحرم الثاني •• وشرف انتظاركم هناك •

قسماً بالله يا شباب « فتح » : لن أدخل قبلكم

سندخل معاً

سنفتح القدس معا

ومعا سنقتل اليهود الذين لم يحملوا الكتاب

لقد أنهى الفارعاملي خطبته هذه وسط تصفيق مجنون • الا ان أحدا من الذين أكلوا ودفعوا ، لم يفهم شيئا مما قاله ذو الطرّة الموشّحة •ولكن من المؤكد أن بعضهم قد حسبه يغنّي شعرا ، نصفه عربي ونصفه الآخر فارسي •

واستمرت الحفلة الى ما بعد منتصف الليل • وبينما كان المدعوون يغادرون القاعة،شوهد رجل يلبس«الكاكي» وعلى رأسه كوفية وعقال • كان هذا الرجل يسلّم على الفارعاملي ، الذي بدا منحنيا ، لجاما أو ما يشبه اللجام ، وقد دار بينهما حوار بدأه الفلسطيني صاحب «فتح» :

— لقد كانت خطبة رائعة يا مولانا • نحن نحيا فيكم وأنتم تحيون فينا • لذلك يسعدني جدا أن أضع بين يديك

الكريمتين هذا اللجام الذهبي ، لتكون الهدية متكاملة • ذلك لان الله سبحانه وتعالى يحب الكمال والتكامل ، ولا يحب الشحّ والنقصان • لقد فهمت أنا تماما ما تريد ، فأرجو منك أن تفهم أنت أيضا ما أريد •

— لقد أدركت كم انك ذكي • ان عبقريتك أيها الثائر منطلقها عيناك ، فحافظ عليهما ، وابعدْ عنهما بريق الذهب وصدأ الحديد وغبار الحرب • من ليس عنده حصان ليس له كيان • انني أريد أن أقضي على « الصنم الاكبر » في جبل عامل • فمنك البندقية ومني الفتوى •

— ومني المال أيضا • لن يبقى بعد اليوم صنم في جبل عامل

— وصنم الشوف ؟

— وصنم الشوف أيضا

— وصنم بيروت ؟

— وأصنام بيروت ؟

— وصنم البقاع ؟

— وصنم البقاع

— وصنم الموارنة ؟

ـ وأصنام الموارنة . هؤلاء ، يا مولانا ، زعاف .

ـ منك البندقية .. ومني الفتوى

ـ ومني المال والرجال والاضواء

ـ الاضواء ؟!

ـ أجل !

ـ آه ! كم أحب الاضواء !

ـ والحصان ؟

ـ الحصانقبل الاضواء

ـ اعطيتك الاثنين معا

ـ لا تنسَ الاحزاب

ـ هذه متصلة بصنم الشوف

ـ ولكن ...

ـ ما عليك

وخرج الفارعاملي على ظهر « حصان كل العرب » منشدا :

الآن صار عندي حصان

ادخلي ايتها « الجياد » في الزريبة

الآن ، يا ثورة ، عرفت طريقي

أناديك يا قم .. هل تسمعين ؟

أناديك يا نجف .. هل تسمعين ؟

الثورة آتية .. وحصاني سريع سريع

حصاني كلمْع البرْق

وأنا من الشرق

أناديك يا خميني .. هل تسمعني ؟

بدأ الشاه يتساقط

بدأ لبنان يتساقط

متى الموعدُ يا منتظَر

متى الحق والفجرُ

متى الحكمُ والعدلُ

أناديك يا منتظَرُ

أناديك يا خميني .. هل تسمعني ؟

الواح على ضريح الغائب

ان الـذي يتتبع نشاطـات الفارعاملي الاجتماعيـة

والسياسية ، لا يمكنه الا أن يسأل : كيف يستطيع متران من اللحم والعظم أن يدخل في أدقّ الثقوب والمنافذ ويخرج منها ، وكأنه لا دخل ولا خرج ؟!

لقد سألتُ عنه عددا كبيرا من الناس ممن عرفوه ، في الشرقية والغربية ، مسيحيين ومسلمين ، رجال دين ورجال دنيا ، مؤمنين وملاحدة ، سياسيين وعسكريين ، رأسماليين وفقراء ، دارسين ومتوسطي الثقافة ، أطباء وأدباء ، صحافيين وشعراء ، محامين وقضاة ، أساتذة وطلابا ، فأجمع الكل على أنه ساحر وجذاب وممتلىء ثقافة ومعرفة ، وعنده سرعة الخاطر والتنبّه الدائم مع التواضع الذي غالبا ما يفوق الخجل والاستحياء .

صحيح أنه كان لدى الفارعاملي « الحس الصحافي »، كما تبين معنا في الفصل الخامس . ولكن الصحيح ايضا هو انه جمع أحاسيس كثيرة ومختلفة ، مما يجعلك تحتار في تصنيفه . فهو في ميدان الصحافة صحافي كبير ، وبين رجال الدين شيخ المشايخ ، وبين السياسيين منظّر من الدرجة الاولى ، وبين المحامين المحامي الملمّ بكل الشرائع والدساتير ، وبين القضاة صاحب الرأي الحكيم والسديد، وبين الرهبان راهب بل ناسك ، وبين الشباب الافتى والأهيب ، وبين الطوال الأطول ، وبين المصلحين الرائد،

وبين الثوار القائد ، وبين الخطباء الأفصح والأبلغ . على أن السؤال عن السر متعب" في كل الاحوال . ولكن السؤال الذي لا بد منه هو التالي :

ــ ألم يخش الفارعاملي أن تُبعد عنه ليلة فندق « بيروت انترناشيونال » الرمضانية ــ الفلسطينية الاصدقاء والمعجبين ممن يريدونه رجل دين لا رجل دنيا ؟

لكي يكون الفارعاملي ثائرا ينبغي له أن يصْعد بالشيعة اللبنانيين الى أعلى السطوح . وينبغي له أيضا أن يكون قادرا على امتطاء كل « الأحصنة » التي لا تحب الشيعة ولا الشيعة يحبّونها .

واذ هو أعطي له شرف ركوب « حصان كل العرب »، فان هذا معناه أنه أصبح في غنى عن سائر « الاحصنة » مهما تكن جميلة ورشيقة .

فبعد تلك الليلة « التاريخية » ، صار الفارعاملي مادة صحافية شيّقة ومثيرة .

كان الفارعاملي لا يزال في صور ، عندما قصدتْه مندوبة « ملحق النهار » ، الصحافية حنان معلوف، لتحاوره في موضوعات حديثة وقديمة ، دينية وسياسية . وقد أثار

الحديث الذي نشر في الملحق الصادر بتاريخ ٢٧/٤/١٩٦٩، شهية الياس الديري ، وكان يومئذ يشرف على « ملحق الدستور » ، فسعى الى مقابلته وقال عنه أحسن الكلام ، وأثار أيضا شهية عادل مالك ، الذي اشتهر ببرنامجه التلفزيوني : « سجل مفتوح » ، فعقد معه جلسة مطوّلة، نشرت « الجريدة » وقائعها كاملة في عددها الصادر بتاريخ ٢١/٦/١٩٦٩ . كما أن « الجريدة » نفسها وجهت اليه ، إثر حرْق منبر المسجد الاقصى، بعض الاسئلة، ونشرت أجوبته عليها في العدد الصادر بتاريخ ٢٦/٨/١٩٦٩ . ما عدا البيانات التي أصدرها الفارعاملي في المناسبات ، وهذه كانت تُنشر في مختلف الصحف اللبنانية العاملة آنئذ .

لقد أحبّه الصحافيون اذ رأوه نيّرا ولامعا ومضيئا (Photogenic) . وأحبوه أكثر عندما تأكدوا من غزارة علمه وسعة اطلاعه ووقاره وحلمه . فكيف اذا ما جاء الايعاز من « فتح » وأصدقائها ؟!

طلب الفارعاملي مرة ، من الارشمندريت جبرائيل نصر المخلّصي ، أن يقول كلمة في « الإمام المهدي » ، وكانت المناسبة ذكرى مولد المهدي المذكور . فاعتذر الارشمندريت نصر ، كونه لا يعرف شيئا يُذكر عن هذا « الإمام » ، فردّ الفارعاملي ، بمنتهى المهارة والبساطة

قائلا : « ان الإمام المهدي يا أبونا يعادله عندكم مار الياس الحي . فباستطاعتك أن تتحدث عن مهديّنا كما لو انك تتحدث عن إلياسكم » . وهكذا اقتنع الارشمندريت نصر ، فألقى ، في نادي الامام الصادق في صور ، خطبة مهدوية « نالت استحسان جميع الذين سمعوها »[١٦٣] .

وعن سرعة خاطر الفارعاملي وحدّة ذكائه في مثل هذه المواقف وغيرها ، حدّثني النائب بيار حلو ، قال : دعي الامام الى حضور مهرجان تأبيني للشيخ المربّي والاديب والسياسي والمؤرخ والاداري والمجاهد عارف النكدي ، في عبيه ، فطلب منه أن يتكلم في المناسبة ، فاستمهل بعض الوقت . ولما استمع الى من تقدّمه من الخطباء ، وقف فألقى كلمة في المربي والتربية ، تركت أثرا عميقا في النكديين وجميع الحاضرين . ولما ترك المنبر التفّ حوله الكبير والصغير مبدين اعجابهم وتقديرهم .

وحدثني البروفيسور فؤاد نجيب البستاني ، انه دعاه غير مرة الى « أوتيل ديو » ليحاضر في أطباء وممرضي المستشفى ، فكان في كل مرة يجيد ويحلّق حتى أصبح معظم أطباء المستشفى اصدقاءه . وقال أيضا : انه سافر واياه مرتين أو أكثر الى بعض الاديار المسيحية الكاثوليكية،

---

(١٦٣) من مقابلة مع الارشمندريت نصر ، مذكورة سابقا .

الواقعة في شمال باريس ، وهناك كانا يمارسان « الرياضة الروحية » والتأمل . ثم ان الامام كان يُظهر خشوعا يذهل جمهور الدير ، وكم كانت دهشتهم عندما علموا أن الزائر هو رجل دين مسلم وليس راهبا مشرقيا .

وقال عنه جاره الشيخ زهير الشاويش : انه كان لحدة ذكائه يستمد أحيانا الحجة من محاوره فيردّها اليه وكأنها حجته هو . وتلك هي صفة الأذكياء البلغاء .

وأثنى الشيخ فضل الله دندش على مقدرة الفارعاملي الفائقة على استيعاب أدق القضايا التي من أجلها كانت تتنازع عشائر بعلبك ـ الهرمل . فكثيرا ما دعا الفارعاملي الى الصلح الدائم بين العشائر كافة ، ونبذ النزاعات وأسبابها وتركها للتاريخ . وقد فعل ذلك بأسلوبه المستحدث الذي فيه كان يرجح كفة الذكاء على كفة العلم ، حسبما يقول دندش .

ولن تنسى بعلبك ـ الهرمل مهرجان الخامس من حزيران ١٩٧٠ ، الذي دعي «يوم توقيع عريضة الغاء الثأر» . فبدعوة من الشيخ فضل الله نفسه اجتمعت عشائر وعائلات بعلبك والهرمل ، بحضور الفارعاملي ورعايته ، فوضعت حدا فاصلا بين الماضي والحاضر . بين ماضٍ كان الدم وحده يغسل فيه الاهانة مهما صغرت ، وحاضر يريدونه تطورا

وانفتاحا على عادات أكثر تسامحا واحتراما لحق البريء الذي يؤخذ بجريرة المذنب (١٦٤) .

وما زال النائب الدكتور بيار دكاش يردد ما قاله له الفارعاملي ذات يوم : « لو ان امرأة مؤمنة وذات زند قوي مزجت ، في جرن الكبة ، لحمك بلحمي ودمك بدمي ، فان أحدا عندئذ لن يمكنه التمييز بين دمي أنا المسلم ودمك أنت المسيحي » .

ويعتبر النائب كاظم الخليل تجنّب الفارعاملي

---

(١٦٤) الاسبوع العربي ١٦ تموز ١٩٧٠ ، تحقيق نازك باسيلا .

ومما قاله الشيخ فضل الله دندش للاسبوع العربي :

« منذ سنوات عدة ونحن نحاول حمل ابناء بعلبك ـ والهرمل على التخلي عن عادة الثأر . ولدى اجتماعي بممثلين عنهم ممن يدينون بهذه العادة من تقاليد قبلية تجاوزها الزمن . الا ان الجميع رفضوا أن تكون عشيرتهم أو عائلتهم هي البادئة بالاقلاع عن الاخذ بالثأر لئلا توصم بالجبن وهو أقبح النعوت وأذلها لديهم . فتقدمت من ثم باقتراح وافقوا عليه بالاجماع ، وهذا الاقتراح يقضي بوضع ميثاق يتعهدون فيه بالتخلي عن العادة القديمة » .

وعن القانون في الهرمل قال الشيخ فضل الله :

«القانون ... أرجو تسجيل جوابي بالحرف الواحد .. القانون بعيد عن هنا .. لم يطبّق الا في عهد الرئيس فؤاد شهاب الذي ندين له بالكثير .. فتح ٧٥ مدرسة في سنة واحدة على سبيل المثال .. ونحن قوم أوفياء» .

الاصطدام معه « نوعا من الذكاء »(١٦٥) • ولما قلت للخليل : ان سبب هذا كره الفارعاملي الشديد للرئيس كامل الاسعد ، هزّ رأسه وقال : صحيح • صحيح •

وكما هو معروف ، فان الفارعاملي في تأييده للدكتور رفيق شاهين في الانتخابات الفرعية التي جرت في النبطية عام ١٩٧٤ ، على أثر وفاة النائب فهمي شاهين ، قد تلاقت سياسته وسياسة كل من الرئيس عادل عسيران والنائبين : عبداللطيف الزين وكاظم الخليل • والمعروف أيضا أن المعركة، آنذاك ، ما كانت ضد خصم الدكتور شاهين، أي المهندس كامل علي أحمد، بل ضد مرشّحه الرئيس كامل الاسعد بالذات• وقد لعب الفارعاملي دورا كبيرا ومؤثرا ، فجاءت النتائج مذهلة جدا ، أي بفارق ما يزيد على ستة آلاف صوت لصالح الدكتور شاهين (١٦٦) • بيد أن كاظم الخليل يرى أن دور الفارعاملي ، في هذه المعركة ، لم يكن كما وصفناه، وحجته « أن دائرة النبطية الانتخابية تتقاسمها ثلاثة قوى

---

(١٦٥) من مقابلة مع النائب كاظم الخليل، في منزله بالحازمية، قبل ظهر الاربعاء ١٩٨٧/٨/٥ ، شاركت في هذه المقابلة زوجتي : ايمان •

(١٦٦) لم يشأ الدكتور رفيق شاهين الذي زرته مع زوجتي: ايمان، في منزله بالحازمية ، صباح الاربعاء ١٩٨٧/٨/٥، أن يجيب عن أسئلة حملناها اليه ، وآثر الصمت .. الا عن سؤالين فقط كما هو أعلاه •

رئيسية هي : كامل الاسعد وعادل عسيران واولاد المرحوم يوسف الزين • فعندما يتعاون الزين وعسيران وسائر الفئات الاخرى التي لها موقف معاد من الاسعد ، فان الفوز يكون حليفهما حتما » • على أن كاظم الخليل الذي له في منطقة النبطية بعض المحازبين ، هو الخصم الطبيعي للاسعد •

واللافت أن كاظم الخليل يتحدث عن الفارعاملي من فوق ، فيصفه بـ « المتهور » ، ويُنكر عليه بعض أفعاله ومواقفه، وبخاصة منها تعاونه معه في معركة ١٩٧٢ الانتخابية في جويا وغيرها من قرى ودساكر قضاء صور • في حين اشتهر عن الفارعاملي آنذاك ، انه سخّر امكاناته كلها ضد مرشحي الرئيس الاسعد ، وعلى الاخص منهم السيد جعفر شرف الدين • وقيل ان الفارعاملي قد أقنع بعض أثرياء منطقة صور بضرورة دعم المرشح (يوسف) جو حمود، بعد ما ثبت له أن فوز حمود اذا ما تم سيكون على حساب شرف الدين من جهة ، وتأمينا لفوز كاظم الخليل على السيد محمد صفي الدين من جهة أخرى • وقد كانت فعلا معركة حامية وعنيفة ومميّزة ، فاز فيها كل من كاظم الخليل و (يوسف) جو حمود ، والمرشح المستقل الدكتور علي الخليل •

ان أول ما قاله لي كاظم الخليل عندما سألته عن علاقته مع الفارعاملي : « لم أعرف موسى الصدر تماما •

لقد رأيته مرة أو مرتين فقط » . وبعد قليل أسهب في الكلام
ثم أسهب ، متناسيا ما قاله في أول المقابلة .

« أنا نائب منذ خمسين سنة . ووزير في حكومات
عديدة . لا أذكر عدد الدورات النيابية التي فزت فيها .
ولا أذكر كم وزارة دخلت . أصواتي في جويا ومعركة
والعباسية والبازورية هي هي . اذا زادت فلن تزيد الا
قليلا ، واذا نقصت فلن تنقص الا قليلا أيضا » يقول كاظم
الخليل .

والحقيقة ان الخليل قد انتُخب نائبا عن صور
لخمس دورات هي :

ـ دورة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ ، كانت على عهد اميل اده
الذي ابتدأت ولايته في ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ وانتهت في
٤ نيسان ١٩٤١

ـ دورة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٧ على عهد الرئيس الشيخ
بشارة الخوري .

ـ دورتا ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ ، ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ ، كلتاهما
على عهد الرئيس كميل شمعون .

ـ دورة ١٩٧٢ ، على عهد الرئيس سلميان فرنجية .
وهذه أوجبت الاحداث أن يجدَّد لها مرارا (١٦٧) .

---

(١٦٧) انطوان سعادة : الحل المنشود لعودة السلام المفقود ، ص ١٨٨ . أيضا : عبدالله جحا : لبنان تحت المجهر ، من ص ٩٢ الى ١٥٠

وعُيّن النائب كاظم الخليل وزيرا سبع مرات منها:
أربعا على عهد الرئيس شمعون ، وثلاثا على عهد الرئيس
فرنجية . وكلها شملت : الصحة والبريد والبرق والهاتف
والشؤون الاجتماعية والتصميم العام والاقتصاد الوطني
والزراعة والعمل والعدل (١٦٨) .

ويروي الخليل في ما يروي قائلا :

« عدت ظهر ذات يوم ، من صيف ١٩٧٧ على وجه
التقريب ، الى البيت ، فوجدت السيد موسى الصدر في
انتظاري ومعه الشيخ عبد الامير قبلان . بعد السلام، قال
الصدر : « طلبْنا أن يحضّروا لنا النارجيلة الى ما بعد
الغداء» . ففهمت أن السيد «عازم نفسه » . تغدينا معا ،
وجلسنا في الصالون مع الزوار . فلما أخذ السيد في الحديث
عن بعض الامور الصعبة والمعقّدة ، قلت له : اذا كان
الموضوع الذي جئت من أجله هاما وخاصا فينبغي أن نجلس
على انفراد . فقال : « لا بأس » . وعندئذ صعدنا ، الى
المكتب ، نحن الثلاثة . كان الموضوع الذي حمله اليّ هو
طلب التنسيق معي في الجنوب ، لان الوضع ما عاد يطاق
على حد قوله . وبعد عرض مسهب قدمه لي ، قلت له
معاتبا وبلهجة شديدة وحادة : أنا لا اريدك في هذه الخفة .
تحمل عباءتك وتدور من مكان الى مكان . مرة تكون في

---

(١٦٨) عبدالله جحا : لبنان تحت المجهر من ص ١٥٢ الى ص ٢١٣ .

الشرق ، ومرة تكـون في الغرب ، ومرات في الفضاء .
المطلوب منك أن تستقر رحمة بمركزك وبعمامتك وجبتّك
ولحيتك . فلنحسب انني كنت أمشي في الطريق ورأيت
أحدا من الناس يتطاول عليك ، أنت السيد والامام ،فماذا
سيكون موقفي ؟ لا شك أنني سأنتقم منه ، وربما أخذت
مسدّسي وأطلقت عليه النار . انت رجل دين فحسب .
السياسة ليست من شأنك . لست من أهلها . حافظ على
مركزك وعلى حب الناس لك . والا خسرت كل شيء .
بعد هذا رد الصدر قائلا : معك حق . أنا تسرّعت فعلا .
أنا تدخلت في شؤون ليست شؤوني . المهم انه يجب أن
ننسق الآن معا . فقلت : خير إن شاء الله . وخرج هـو
والشيخ قبلان على أمل أن تكون لنا لقاءات أخرى . ولكن
يبدو أنه نسي أو هو تناسى ، ما قلته له ، حتى حصل ما
قد حصل » (١٦٩) (*٤) .

هل يتفق حقا الفارعاملي وكاظم الخليل وكيف ؟

ماذا بقي لكاظم الخليل في صور ؟

---

(١٦٩) أيضا من مقابلة معه .. مذكورة سابقا .

(*٤) سألنا ، عبر الهاتف ، المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الامير قبلان عن هذه الرواية فلم يفدنـا لا سلبا ولا ايجابا .. وانما قال : لا اذكر شيئا من هذا . فيما اكد لي القاضي الشيخ عبد الحميد الحر ، عبر الهاتف أيضا ، انه سمع من كاظم الخليل هذه الرواية بحرفيتها .

ان أصغر مسلـّح ، في حركة « أمل » ، أو « حزب
الله » هو ــ اليوم ــ أقوى من كل أنصار كاظم الخليل
ومحازبيه . واني لأعتقد أن رصيد الخليل الشعبي فـي
منطقة صور قد تراجع كثيرا ، ولربما انهـار ايضا تحت
جنازير حافلات « أمل » و « الفلسطينيين » و « حزب
الله » . ان الجنوبيين ما زالوا يتذكرون عودة الخليل الى
صـور إثر الاجتياح الاسرائيلي . فقد حسب الخليـل
« الانتصار » الاسرائيلي كأنه « انتصاره » هو ، ولكن
سرعان ما ظهر له العكس ، اذ أُخرج من صور في ليلـة
ليست ذات قمر . حتى ان الرئيس الاسعد ، الذي كان
يحلو للفارعاملي أن يصفه بـ « الصنم » قد تحطم هـو
أيضا ، على الرغم من رفضه التعامل مع اسرائيل ، وعلى
الرغم أيضا من حب العامليين التراثي له ولابيه من قبله ،
الزعيم الشعبي أحمد الاسعد ، ولجده كامل بك الاول ،
المناضل الكبير في سبيل الدولة العربية ، المتحدر من آل
علي الصغير ، من آل وائل ، وهؤلاء واولئك هم صانعو
البطولات والمواقف المشرّفة في جبل عامل ، على مـدى
ثلاثة قرون تقريبا (١٧٠) .

غاب الفارعاملي فبرز أصحاب « العضلات » القائلون:
نحن فحسب . هذا يقول : لولاي لما كان موسى الصدر.

---

(١٧٠) محمد جابر آل صفا : تاريخ جبل عامل ، نفسه من ص ٣٣ الى ص ٢٣٠

وذاك يقول : أنا الذي حملت الصدر بأسناني . وذلك يقول : أنا الذي سلّحت الصدر بفتوى قانونية تخوله البقاء في رئاسة المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، حتى بلوغه الخامسة والستين من عمره . وهنالك من يقول :ان الصدر جاء الى لبنان بأمر من دول كبرى ،ليفصل الشيعة عن السنّة.بل انه واحد من اليهود الاثني عشر الذين انتشروا في الشرق الاوسط ليدمّروا أنظمته وشعوبه !؟

ومن قائل أيضا :ان السفير الايراني في بيروت منصور قدر كان يدفع للصدر مبالغ طائلة . وذات يوم سلّمه شكاً بقيمة خمسة ملايين ليرة فردّه الصدر قائلا للسفير : ما هذا آغاتي ؟ المبلغ زهيد .. زهيد جدا . فرجا منه السفير ، عندئذ ، أن يقبله حتى تأتي الدفعة الثانية ، التي ستكون أكبر بكل تأكيد . فقبله غير ممنون .

ان المثل القائل : « اذا وقعت البقرة يكثر السلاّخون»، ينطبق في حقيقته على الكثيرين ممن جرّبوا ويجرّبون عضلاتهم على الفارعاملي الغائب أو المقتول . والظاهرة الخطيرة أن بعض أصحاب « العضلات » يحدّثونك عن العلاقات المزعومة التي تربط الفارعاملي بأجهزة مخابرات كبرى الدول ، وكأنهم هم العملاء والمخبرون لهذه الاجهزة نفسها .

قال أحدهم ، وهو مثقف شيعي وسياسي حالم في احد الاجتماعات : عندما جاء الصدر الى لبنان ،كانت ايران

اقليميا على علاقة مع اسرائيل من جهة ، وتركيا من جهة أخرى . وكانت ، دوليا ، على علاقة مع أميركا . معنى القول ان الصدر كان يملك رضا كل من ايران واسرائيل وتركيا وأميركا . وفور وصوله تلقت جريدة « النهار»أمرا من مصدر مختص (...) يطلب منها أن تبذل أقصى اهتماماتها بالسيد موسى .

فبرز للرد عليه صحافي كان موجودا فقال : لقد عُرف عنك أنك كنت من السياسيين الشيعة الاوائل الذين ناصروا الصدر وأيّدوه وخطّطوا له . والآن وقد حدث ما حدث ، فهل لي أن أسألك أنت الحامل على الصدر بهذه الشراسة : ما الذي كنت تطلبه منه ؟

رد السياسي الشيعي ووجهه الى المضيف قائلا : لا شك أن السيد موسى عبقري وذو طلعة مهيبة . فلما جاء الى لبنان وعرفناه وتأكدنا من مقدرته العلمية والاجتماعية، اتجه تفكيرنا الى توحيد المسلمين : السنّة والشيعة ،وذلك عبر ترؤسه هو الطائفتين الاسلاميتين .

الصحافي : وهل كان هذا بالامكان ؟

السياسي : أجل . ان مؤهلاته العلمية وشخصيته المهيبة كانت كفيلة بأن توصله الى هذه المكانة . ولو حصل

ذلك وتعاون مع العرب لتم لنا جميعا ما نريد • أي لبنان العربي الحضاري •••

الصحافي : أي عرب ؟

السياسي : العرب

الصحافي : ولماذا لم تتحقق أمانيكم هذه ؟

السياسي : لقد جاء السيد موسى الصدر بتكليف من الشاه للفصل بين الشيعة والسنّة •

الصحافي : ولكن الصدر أبعد الناس عن الشاه وسياسته • • كما وأن الشاه لم يكن ليفكر مرة في شؤون الطائفة الشيعية في لبنان ، وان يكن ساعد أو دعم بعض السياسيين الشيعة والهيئات الدينية الشيعية •

السياسي : هنالك كتاب يحضّر ، الآن ، في باريس •• سيكشف عن ارتباطات الصدر بالمخابرات الدولية •

الصحافي : ان هذا ، في رأيي ، ظلم لا يجوز الاخذ به • فالصدر هو في الحقيقة مسلم أصولي إمامي كما يقول عنه أحد المفكرين • ويرى ان لبنان جزء لا يتجزأ من الوطن الاسلامي الكبير •

السياسي : اراك تعيش مع الايديولوجيات ؟

الصحافي : يقول أحد المفكرين : هنالك اصوليتان اسلاميتان • واحدة إمامية من ممثليها الصدر • والأخرى سلفية من ممثليها سيد قطب • وكلتا الاصوليتين تتطلع الى الوطن الاسلامي الكبير • فهل يمكن القول بأن سيد قطب مثلا ، الذي استشهد من أجل عقيدته ، عميل للغرب؟وهل يعقل أيضا القول بأن السيد محمد حسين فضل الله الأكثر راديكالية من علماء المسلمين في لبنان هو عميل كذلك ؟

السياسي : السيد محمد حسين فضل الله لبناني • بينما السيد موسى الصدر جاء من ايران •

الصحافي : ولكن الاسلام لا يقر بالحدود الجغرافية •• ولا يفضل عربيا على أعجمي •

عندئذ شعر السياسي بالحرج ، فلملم بعضه وغادر •

لقد سألنا النائب كاظم الخليل عن علاقات مزعومة بين الشاه والفارعاملي ، فقال :

« كان السيد موسى الصدر من ألدّ أعداء الشاه • وقد آوى عددا غير قليل من الايرانيين المعارضين للنظام الايراني ، منهم معمّمون وغير معمّمين • حتى ان السفير قدَر فجّر سيارته من أجل ايجاد ذريعة تسمح له بأن يتقدم من الحكومة اللبنانية بطلب اقصاء هؤلاء الايرانيين الذين

يأويهم الصدر عن البلاد . عُرضت عليّ هذه المسألة المختلَقة ، في وقتها ، بصفتي وزيرا للعدل [١٧١] ،فرفضت الاستجابة لطلب قدَر لعدم وجود أدلة تثبت صحة دعواه » .

وقال أيضا :

« في وقت من الاوقات أخذ ابني خليل ، عندما كان سفيرا للبنان في طهران ، السيد موسى الى الشاه ليعرّفه اليه . فسُرّ به الشاه ووعد بمساعدته اذا ما طلب منه . وبعد فترة وجيزة جدا كتب السيد مقالة أو نُشرت له مقابلة في احدى المجلات اللبنانية ، لعلها « الحوادث » على ما أذكر ، فوردت في سياق هذه المقالة أو المقابلة عبارة : الخليج العربي . مما أغضب الشاه . فظل السيد على موقفه غير مكترث لا لغضب الشاه ولا لرضاه » [١٧٢] ؟!

---

(١٧١) لم يتذكر الخليل التاريخ تماما . ولكننا نستطيع تحديده على التقريب عندما نعرف أن الخليل نفسه قد أسندت اليه وزارة العدل مرتين : الاولى من ٢٥ نيسان ١٩٧٣ الى ٨ تموز ١٩٧٣ ، والثانية من تموز ١٩٧٣ الى ٣١ تشرين الاول ١٩٧٤ (عبدالله جحا : لبنان تحت المجهر ص ص ٢٠٤/٢٠٥) وبهذا يمكن للحادث أن يكون قد وقع خلال الفترة الممتدة بين نيسان ١٩٧٣ وتشرين الاول ١٩٧٤

(١٧٢) من مقابلة مع الخليل مذكورة سابقا .

الجدير ذكره ، هنا ، ان النائب الخليل ما زال يعتبر الفارعاملي من خصومه ، وانما لا كسلفه الامام المؤسس عبد الحسين شرف الدين . والاخير قال عنه كاظم الخليل :

« ان المرحوم والدي (الحاج اسماعيل يحيى) هو الذي أرسله الى العراق لكي يتعلم العلوم الدينية . ولما أتمّ اختصاصه استدعاه والدي الى صور ، فظل حليفا له زمنا طويلا » [١٧٣] .

وسألنا الخليل عن سبب نزاعه هو مع السيد شرف الدين فقال :

« ان السبب المباشر هو هيمنة السيد عبد الحسين على الاوقاف في صور . وقد سجلها السيد في الدوائر العقارية تحت اسم : « أوقاف ذرية » ، مما يعطي أولاده الحق في أن يتوارثوها واحدا إثر واحد ، الى أن تنقرض سلالته ، وعندئذ تنتقل الاوقاف الى من يكون إمام المدينة في حينه » [١٧٤] (*٥) .

---

(١٧٣) المصدر نفسه

(١٧٤) المصدر نفسه

(*٥) في الحقيقة ان هنالك ثلاث رخاميات مثبتة على الداخل الشرقي للثانوية الجعفرية تبين عكس ما يقوله النائب الخليل . وهنا نص الرخاميات الثلاث :

١ ـ الرخامية الاولى :

=

ليست مهمتنا الآن البحث عن أسباب النزاع بين السيد عبد الحسين شرف الدين والنائب كاظم الخليل • ولكننا لا نوافقه الرأي تماما لما نعرفه عن الامام شرف الدين من سمات قلما اجتمعت لغيره من رجال الدين الشيعة • وفي كل

— بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين . وفقني الله سبحانه لبناء هذا الصرح سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م. وقد أسميته « بناية المهاجر » اعترافا بفضل ابنائي الاعزاء في افريقيا الغربية . ثم وقفته معهدا علميا لناشئتنا الحبيبة في كل خلق من هذه الامة الى أن يرث الله الارض ومن عليها . أما رائع هندسته فتفضل من المهندس الكبير سعيد حجال » .

(عبد الحسين شرف الدين الموسوي)

٢ ـ الرخامية الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين . وفقني الله تعالى الى انشاء هذه المدرسة سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م. وقد انبرى للنهوض بأعبائها ولدي جعفر فصرف اليها عزائمه ناصحا ، وآثرها على نفسه مخلصا ، حتى سما بها ، ولله الحمد الى مصاف المعاهد الراقية فقرت عيني وعين أمتي بنهضته . وفقه الله بما يوجب له الأجر وحسن الذكر مدى الدهر » .

(عبد الحسين شرف الدين الموسوي)

٣ ـ الرخامية الثالثة :

ذكرى تأسيس الجمعية الخيرية الجعفرية

« أنشأها سماحة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين =

الاحوال فاننا نترك هذا الامر بين ورثة الامام شرف الدين وكاظم الخليل • ولعل السيد جعفر شرف الدين لم يقصر عن الرد والتصويب •

وأما لجهة قول الخليل بأن والده : الحاج اسماعيل يحيى قد أرسل السيد عبد الحسين شرف الدين الى العراق ليدرس العلوم الدينية ، ففيه الكثير من المغالطات • ذلك أن الحاج اسماعيل لم يكبر السيد عبد الحسين سناً الا ثلاث أو أربع سنوات ، كما لا أعرف أحدا من آل الخليل قد درس العلوم الدينية أو أوفد ابنا له أو أخا الى العراق لمثل هذه المهمة • بيد ان السيد عبد الحسين هو ابن السيد يوسف الذي يقول فيه الشيخ محمد مغنية ، عم الشيخ حسين مغنية وجدّ الشيخ محمد جواد مغنية ، في مخطوطه : « جواهر الحِكم ونفائس الكلم » : انه « كان يدرّس ويفيد ويباري الشيخ الطوسي والشيخ المفيد • فهو شيخ الاسلام والمسلمين وعى الشريعة والدين • ومؤسس مدرسة شحور

= في ربيع الاول ١٣٧٦ هـ / تشرين الاول ١٩٥٦ م. من رجالات الخير والاصلاح الذين ساعدوه في تحقيق مشاريعه الدينية والاجتماعية والثقافية . وأقام هذه الجمعية على ولاية الاوقاف التي أنشأها في صور وانمائها واكمال ما رسمه من مشاريع لله فيها رضاً وللامة فيها صلاح . وفقها الله للعمل بهداه والسير على خطاه » .

سنـة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨٠ م. ومـدرسـة طـورا سنـة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م. » . ثم ان السيد عبد الحسين هـو ابن أخت السيد حسن الصدر « اخطر مجتهدي الكاظمين » كما وصفه أمين الريحاني في الجزء الثاني (ص ٣٢١) من كتابه « ملوك العرب » . فمن كان والده في جبل عـامل السيد يوسف شرف الدين ، وخاله في العراق السيد حسن الصدر ، كيف يرسله الى العراق من لم يعلم أياً من اولاده العلوم الدينية ؟!

ما أكثر الالواح التي يجب وضعها ، غدا ، فـوق ضريح الفارعاملي اذا ما عُرف على اليقين !

انها لا شك شواهد وشهادات .

وكلها باقية . غير أن الوجه الحسن والمشرق أفضل من الوجه المشوّه والقبيح .

ومهما يكن ، فانـك لا بـد ستشعر بالاعتزاز وأنت تسمع النائب الشيخ الدكتور جبران طوق والمحامي مارسيل جعجع يتحدثان عن محاضرة الفارعاملي صيف ١٩٧٢ في بشري . قال النائب طوق : « كانت محاضرة هامة ورائعة

ورؤيوية » . وقال المحامي جعجع : « كانت مقبولة .. بل أكثر من مقبولة » (١٧٥) .

ويأخذك الاعتزاز نفسه ، حين يحدثك العميد المتقاعد نخله مغبغب عما سمعه من الفارعاملي في جون ــ قضاء الشوف ، وهو يرثي المرحومة « أم حسن عيد » والدة أحد وجهاء البلدة : السيد ابراهيم عيد . وقد تحدث الفارعاملي عن الأم ودورها في بناء المجتمع ، حوالى ساعة من الوقت ، فأتى بما لم يأت به خطيب عربي من قبل ، على قول العميد مغبغب (١٧٦) . أضف ، الى كل ما تقدم ، كلمة مختصرة من الدكتور شارل مالك ، قالها عندما سألته تقويم الامـام موسى الصدر . لقد قال الدكتور مالك وهو يغالب الالم النفسي الناجم عن الاقتعاد الذي سببته له عملية جراحية رهيبة أفقدته ساقيه :« كان الامام الصدر متشعب العاقات والعقد . لا أستطيع أن أقول رأيي فيه كما يجب ، لانني لم أدْرسه بعد . ولكنه يستحق التقويم والاحترام » (١٧٧) .

ولمحافظ جبل لبنان السابق الشاعر جورج قازان اكثر من قصيدة في الفارعاملي ، تسمعها فتتخيل انك في القرن

---

(١٧٥) من مقابلة مع الدكتور الشيخ جبران طوق والمحامي مارسيل جعجع ، في منزل الدكتور طوق بالنقاش ــ قبل ظهر ١٩٨٧/٨/١٢

(١٧٦) من مقابلة معه في منزله بالربوة ظهر ١٩٨٧/٨/١٢

(١٧٧) من مقابلة معه في منزله بالرابية ، ظهر ١٩٨٧/٨/١٢ ، بحضور السيدة الجليلة قرينته .

العاشر أو الحادي عشر : شاعر « نصراني » يمدح « سيّداً » من « سادات » الشيعة ، فيلغي من ذاكرتك الازمنة الحديثة وأنظمتها وقوانينها وشرائعها وعلومها واختراعاتها، وقد دعي « شاعر الامام » . على ان هذا وفاء من الشاعر نفسه للفارعاملي الذي قال في رثاء شقيقه الراحل المحامي والشاعر أنطون قازان أطيب الكلام وأعذبه .

لقد كان الفارعاملي يقصد اهمج ــ قضاء جبيل مرة أو مرتين كل صيف ، فينام في منزل الشاعر قازان ، حيث يلقى الحفاوة والتكريم عند الصغار كما عند الكبار على حد سواء . بل ان كل شيء في البيت وحوله كان يفرح بقدوم الفارعاملي . فعند « مزار العذراء » ، على يمين البوابة ، والمقاعد الحجرية ، وشجرة الارز ، والساحة الرحبة ، أخبار عن الفارعاملي كأنها من حكايات الجن أو الاساطير .

بعد أول زيارة لبيت قازان في اهمج ، قالت له السيدة « أم رفيق » زوجة الشاعر ــ (أديبة ومترجمة) :
« عندنا كنيسة صغيرة (مصلّى) » . فردّ :
« ليتك قلت لي هذا حين وصولي ، كان أحب اليّ أن أصلّي في كنيسة بيتكم » . وبعدها صار الفارعاملي كلما جاء « شاعره » في بلدته الجبلية يصلّي في « كنيسة » البيت .

عصر يوم عيد انتقال السيدة (١٥ آب ١٩٨٧) قادتنا

الفضولية ، أنا وزوجتي ايمان ، وكان معنا طفلانا: مصطفى (الصغير) وغريد ، لزيارة هذه العائلة الكريمة في اهمج، واذا بنا وللمرة الاولى كأننا بين أهلنا البعداء . وفي جو شاعري جلس الجميع : الجد (الشاعر جورج) والجدة (الاديبة مي) والمهندس رفيق وزوجته (الانكليزية : باتريسيا) وشقيقته مهى قازان بدوي والاحفاد : وسيم (تلميذ حقوق) ابن سامي ، وصوفيه وجورج وأنطوني أولاد رفيق ، الذي كان وأسرته على سفر الى لندن ، يتذكرون « الإمام » الذي كان ينزل عليهم كالآية أو كالقصيدة .. فيشغلهم حتى الفجر وهو وراء نارجيلته التي كانت عنده من الضرورات ، كالعباءة والعمامة وسواهما . وما أجمل وسيماً وهو يحمل الينا صورة مع الفارعاملي وكأنه يملك كنزا لا مثيل له . مضى جزء كبير من تلك الليلة التي لم يُهيَّأ لها ، في قراءة مخطوطات الجد (جورج) حتى ونحن الى المائدة ، فتأكد لنا أن الفارعاملي كان بمثابة « الطفل الاوحد » لهذه العائلة الاهمجية الجبلية ــ المارونية ، الصافية والطيبة كهواء اهمج ومائها .

ومما قرأه علينا « شاعر الامام » قصيدة له ألقاها في منزل الامير عبد العزيز شهاب في الاشرفية ، الذي كان قد دعا الى سهرة حضرها الفارعاملي والنائب المحامي نصري المعلوف وعدد من الوزراء والنواب والأعيان ، وفيها يقول

قازان :

« شاءك الله أن تكون الاماما
فانشر الحق واستردّ الزماما

ومن الطور (*٦) هل سمعت نداء
يملأ الارض والسماء ابتساما

أنت موسى كفاك نهج عليّ
أخصب الكون حكمة وانتظاما

فأعدْ نفحةَ الإمام الى البيت
وذاك الرضى وتلك اليتامى (*٧)

وأحاديث لو أراد لكانت
للكتابين ثالثا وختاما »

ويقول :

« من يدانيك يا ابن أكرم عرْقٍ
بالنهى بالحجى بخلق تسامى

صدرُك اليمّ بالمآثر يضفو
رأيك الحدّ ان عزمت الكلاما

لحظك السهمُ إن تجاوز عادٍ
طبعك الحلم إنْ اليك ترامى

فاحمل العبء واستلم أمر قوم
فبك الامر يا إمامُ استقاما

(*٦) استعملها الشاعر هنا لان اسم « الامام » موسى .
(*٧) يقصد الدرر في الكلام .

وعلى الاهل قد نزلتَ فطافوا
حولك اليوم يكبِرون المقاما

ويقول أيضا :

« من قريش تحدّروا فتساموا
يستعيدون ذكريات قدامى

رشفوا المجد في المهود فما
ملّوا ولا في الشباب راموا فطاما

أنت فيهم كما أردت إمام
وأرادوك صدرهم والوساما »

وقرأ الشاعر أيضا قصيدة نظمها على اثر عودة الفارعاملي من الحج وكان في عهد الملك خالد ، وفيها يقول :

« عاد الإمام ويا له من عائد
بأطايب البركات منية زاهدِ

طوفوا به وتنشّقوا ذاك الشذا
فعرارُ نجدٍ غمر صدرٍ ناهد

نور النبوّة في المحيّا والحيا
أغضى الجفون ولم يكن بالهاجد

ملأ الحجاز زئيره لما علا
متن الاريكة يستهل بخالد

بالعاهل الحامي حمى بيت بـــه
عزّت بيوتـات" فعزّ بواحد »

ويقول :

« والفهد سيف الله في أرجائـه
فيه الهدى وبه الردى للجاحد
ومضى البيان وكل سمع لم يـزل
نشوان من سحْر البيـان التـالد
تدنو السماء هناك من روّادهـا
ويهزّ معبـوداً نـداءُ العـابد
وهناك نـاشد ربّـه فبكى وعن
لبنـان كلّمه بـدمعة نـاشد
لبنان مزّقت العيـونُ جمالَـه
وجمالُه مِلَكٌ بقلب واحد »

ويقول أيضا :

« فأعدْ اليه ما ذوى في بسْمةٍ
من ثغر أمٍّ ثـاكل أو والـد
هذا نشيد الصدر في طوَفانه
وصلاته في ردْه كـل مساجد
يـا وارث المجد التليـد
وقبة البيت الشهيد فمن سواك بقائد

جرّد حسامك أو يراعـك ان في
حدّيهمـا حدّاً لغـاية كـائد
وسواك بعد فتى النجابة لا فتـى
ختم العلي لـه بخير محامد »

وختم يقول :

« عيني عليـك من العيون وانما
فرْطُ المهابة حِرْزُ ليْثٍ جاهد
تأبى القوافي أن اكون أميرهـا
انلم تكن يا صدرُ صدرَ قصائدي»

ولعل من الضرورة القول ان الشاعر جورج قازان – «شاعر الامام» – قد دفع الرئيس الاسبق كميل شمعون الى زيارة الفارعاملي في مقره في الحازمية لتهنئته بـاعادة انتخابـه رئيسـا للمجلس الاسلامي الشيعي الاعلـى حتى الخامسة والستين من عمره ، فكانت زيارة سياسية واجتماعية مفيدة لو لم تفاجئنا الاحداث على قول الشاعر نفسه .

وكذلك في منزل المرحوم ابراهيم خميس (ابو علي) في الاشرفية . فعندما دخلت المنزل وقد استقبلتني السيدة « أم علي » ببسمتها البقاعية الطبيعية والاصيلة ، تراءى لي

أن الفارعاملي وصاحبه المرحوم « أبو علي » لم يغـادرا البيت من زمن بعيد ، ولا بد سيعودان معا .

هنـا كـان الفارعاملي يجلس . وهناك ، في سرير المحامي انطوان كان الفارعاملي ينام . البيت بيته وأعزّ . و « أبو علي » شيخ بقاعي وصاحب الهمّات ، ما دعي مرة الا قال نعم . مثل ملك الريح هو الصديق « ابو علي ». فما يصعب على الفارعاملي فهو عليه هيّن وحلّه عنـده موجود ، ودائما الطريق « قدومية » ، اذ الشجاع يـده طائلة وكريمة ، يعطي بيمينه فلا تدري يساره ، والخير في الحي لا في الميت .

أهدى الفارعاملي الى السيدة « أم علي » خميس انجيلا محفورا في صندوق خشبي جاء به إما من القدس وإما من طهران ولكن أحدا لا يمسّه . ذلك أن هـذه الهدية بالنسبة الى « أم علي » هي أغلى الهدايا وأهمها ، ولذا يجب أن تحفظ في منأى لا عن الايدي فحسب ، بل عن الاعين أيضا ، وقاية من الحسد وخلافه .

ويحدثك المحامي انطوان خميس عـن الفارعاملـي وانسانيته وذكائه ووفائه ومصداقيته ، ويأتيك بـالحجج والادلة والبراهين ليقول لك : هكذا لبنان .. وهكـذا

يجب أن نكون .. وطننا واحد ومتنوع .. وليس مثل الاحترام المتبادل يصون هذا البلد الجميل والمميَّز .. فاللبناني يجب أن يحترم حق مواطنه اللبناني ، وحقه في التنوع والاختلاف عن غيره. استطيع الادعاء أنني ما زلت أحتفظ بمناعة قوية ضد هذه الحرب اللاانسانية . أنـا لبناني ولبناني فحسب . على هذا نشأنا، أنا واخوتي، ولن تتخلى عن أصدقاء الوالد ، الذين منهم الامام موسى الصدر ، مهما ساءت الظروف وابتعدت الايام والسنون . لقد علّمنـا « أبو علي » الوفاء .. وعلّمنا أن هذا البيت ينبغي له أن يبقى مفتوحا للاصدقاء من أي طائفة كانوا ومن أي مكان أتوا .

ويقول المحامي خميس أيضا :

كان أبي وفيا للامام ... وللرئيس سلميان فرنجيه وآخرين .. وعلى خطه ما زلنا سائرين .

فشقيقة الامام هي شقيقتنا .. وأولاد الامام هـم اخوتنا .. وأحباء الامام هم أحباؤنا . ولو قدر للامام أن يعود فسوف يجد باب منزل « ابو علي » في الاشرفيـة مفتوحا على مصراعيه لاستقباله مثلما كان يستقبلـه في الامس .

على طريق الثورة

مع نهايات العقد السابع من هذا القرن ، بدأت أعضاء

الجسد المسمّى : لبنان ، تكبر وتتكابر • والبندقية الفلسطينية أيضا بدأت تكبر وتتكابر ، اذ راحت تدخل بيوت اللاجئين في المخيمات ، وبيوت بعض الشيعة المقيمين في المناطق الشرقية من العاصمة ، ولا سيما منها الدكوانة والنبعة وبرج حمود •

الجيش اللبناني على الحدود الجنوبية يبعث بتقارير تتحدث عن فلسطينيين يتحرشون بالاهالي والجنود • والقرى الأمامية تشهد ، يوميا تقريبا ، تسللا مسلّحا باتجاه اسرائيل • الزمان يمضي ، وكل شيء في لبنان آخذ في التضخم •

الانتقام من الدولة و « الحضارة » اللبنانية ، صار الكثيرون يرونه عملا يغري ويثير •

لماذا هنا فقراء ومسحوقون ، وهناك أثرياء ومتنعّمون؟
الى متى سيبقى الفلسطينيون في بيوت التنك ،وغيرهم يسكن القصور والعلالي ؟

ان لغة جديدة قد وُضعت في التداول ، بين سكان المخيمات والذين حولهم : لا بد من الثأر من « المكتب الثاني » • الدولة ليست منا ولا هي لنا • الجيش لن يحارب اسرائيل • الدرك اللبناني عدو الكرامة الفلسطينية•

ان فلسطينيا واحدا لن ينسى كيف كان « زبانية المكتب الثاني » يدخلون هذا المخيم أو ذاك ليجرّوا الرجال والنساء الى سياراتهم مثلما تُجرّ الاغنام للذبح • فتقلّهم السيارات الى أقبية التعذيب والتنكيل • المصانع اللبنانية ما هي الا مصانع للعار والذل والخيانة •

والحقيقة ان بعض اللبنانيين كانوا أيضا يبثون هذه « اللغة » في أحيائهم ، وبين أهلهم ، فكأنهم فلسطينيون أكثر من الفلسطينيين أنفسهم •

عند مدخل كل مخيم أو تجمع فلسطيني ، علّقوا لوحة تصوّر شرطيا لبنانيا يسحق شيخا فلسطينيا ، أو يجلد امرأة فلسطينية ، أو يصفع طفلا فلسطينيا • ومهما كانت « الصورة » فمكتوب عليها : بدون تعليق •

لقد زرع القياديون الفلسطينيون الاحقاد في نفوس سكان المخيمات على الدولة اللبنانية وأجهزتها ، بقصد تدميرها وإزالتها من الوجود • وهم اذ فعلوا ذلك ، فلكي يصيبوا بسلاحهم فئة لبنانية لم تفكر يوما في مقاومة الفلسطينيين ومنازعتهم ، الا بعد أن أصبحت مناطقها « سجونا » أو « قلاعا » لا تدخلها الشمس • فمنذ أن استقلت البندقية الفلسطينية عن الانظمة العربية تحوّلت

الدكوانة مثلا الى ساحة للصراع بين الفلسطيني واللبناني، على الرغيف ، على الموقف ، على الوظيفة ، وبالتالي على الهواء والماء .

كان الاقتصاد اللبناني يتنامى من جهة ، والانتقام منه يتنامى من جهة أخرى . فأيّهما يسبق الآخر يا ترى ؟

ولكن لم يبق الفلسطينيون وحدهم أعداء التطور اللبناني الآخذ في التصاعد . بل ان فريقا من السياسيين اللبنانيين ، مسيحيين ومسلمين ، وبخاصة منهم أولئك الذين كانوا على عداء مع الرئيس الراحل الامير فؤاد شهاب وجهاز حكمه ، صاروا هم « فلسطينيين » بشكل أو آخر . على ان اختلاف الطرق والاساليب لا يعني الغاية التي هي القضاء على النهج الشهابي والشهابيين . وقد تكاثر « الشمشونيون » و « الدليليون » ، تحت السقف الواحد، مع ان الكل يريد خراب الهيكل ، والكل يجز شعور بعضهم البعض ، ويسلّم الى الفلسطينيين بعضهم البعض.

يصف الخبير الاقتصادي فرنان اميل سنان الوضع الاقتصادي الذي كان سائدا آنذاك فيقول :

« وفي تلك الفترة بالذات ، جاءت الى لبنان ، خاصة من مصر وسوريا ، رؤوس أموال وكفاءات صناعية ، كما

عاد الى الوطن الأم عدد من المغتربين بهدف انشاء صناعات جديدة . وقد أنشأ القادمون الجدد صناعات مشابهة للتي كانوا يعملون فيها في بلدهم أو في بلد الاغتراب » .

أضاف :

« كذلك قام بعض المستوردين بتشجيع الشركات الاجنبية التي يمثلون على انتاج بعض السلع أو تركيبها محليا (صحناوي ، أبو عضل ، فتال ، شلهوب ، الخ) .. الشيء الذي حقق للصناعة تطورا ملموسا في حجمها ، وتنوّع انتاجها وطاقاتها على التصدير »[١٧٨] .

ولو رجعنا الى ما قبل هذه الفترة الصناعية النوعية، لرأينا كيف أن لبنان استطاع خلال خمس عشرة سنة ، أي المدة التي بين ١٩٥١ — ١٩٦٧ ، أن يكوّن لنفسه مكانة اقتصادية نالت ثقة العالمين : الشرق والغرب واعجابهما . وعلى قول فرنان سنان أيضا فان « ١٩٥١ — ١٩٦٧ ، هي فترة بدأت بفسخ الوحدة الجمركية بين لبنان وسوريا . وكان الصناعيون اللبنانيون معارضين لهذه « القطيعة » خوفا من ضيق السوق اللبناني . ومن جراء فسخ الوحدة،

(١٧٨) فرنان اميل سنان : واقع الاقتصاد اللبناني وتطوره، بنك التوظيف طبعة ١٩٧٩ ص ١٠٢

طرحت قضية السياسة الاقتصادية على بساط البحث فنادى بعضهم ، وهم فئة من كبار التجار، بتحويل لبنان الى منطقة حرة ، وكاد هذا الرأي أن يسيطر لولا خوف المسؤولين من فقدان الواردات الجمركية ومن نقمة الصناعيين وعمالهم. وأخيرا غلبت فكرة حماية الانتاج الوطني وبصورة خاصة انتاج القطاع الصناعي الناشيء » (١٧٩) .

وتم في عام ١٩٥٢ توقيع الاتفاق التجاري الثنائي بين لبنان وسوريا ، فكان له « أثر جيد على الصناعة (مما خفف) من مساوىء الانفصال الجمركي (كونه) يشجع على تبادل المنتجات الصناعية »(١٨٠) .

تلا هذا الاتفاق اللبناني ـ السوري « الاتفاق الاقتصادي العربي » ـ الذي عقد في سنة ١٩٥٣ ـ وقد « شمل بالاعفاء عددا محدودا جدا من السلع الصناعية »(١٨١) .

واذ زادت الموارد المالية في المنطقة العربية ، زاد الطلب بنسبة كبيرة على البضائع الاستهلاكية التالفة ، وعلى المواد

---

(١٧٩) المصدر نفسه ص ١٠٠
(١٨٠) المصدر نفسه
(١٨١) المصدر نفسه

الغذائية والملبوسات ومواد البناء والاثاث والادوات المنزلية (١٨٢) . وعندئذ تحولت بيروت التي « كانت في ما مضى مركزا تجاريا لتوزيع هذه المنتجات في المنطقة»(١٨٣) « مركزا للانتاج الصناعي والتصدير » (١٨٤) .

والذي « شجّع على تصدير المنتجات الصناعية اللبنانية (هو) ان قسما كبيرا من النشاط العربي تحقق على أيدي تقنيين لبنانيين يعرفون المنتجات اللبنانية ويسهل عليهم استخدامها والتعامل معها » (١٨٥) .

وفي أقصر مدة ، « استطاعت سوق العمل اللبنانية أن تؤمن للصناعة المتوسطة الاعداد اللازمة من العمال المزودين بالخبرة الكافية والذين يتقاضون أجورا معقولة»(١٨٦) .على ان هذا يعود بالفضل الى « حرية الانتقال من سوريا الى لبنان »(١٨٧) ، التي كانت تعطى للجميع ، فضلا عن «اغراء الظروف المعيشية اللبنانية لاعداد كبيرة من العمال المهرة السوريين والتقنيين »(١٨٨) ومن مختلف الجنسيات .

---

(١٨٢) المصدر نفسه
(١٨٤) المصدر نفسه
(١٨٥) المصدر نفسه
(١٨٦) المصدر نفسه
(١٨٧) المصدر نفسه
(١٨٨) المصدر نفسه

الى هذه الاسباب وغيرها ، نضيف عاملا آخر من الاهمية بمقدار ، وهو اقفال قناة السويس اثر الحرب العربية ـ الاسرائيلية ١٩٦٧ ، وقد « تعرقلت خطوط التجارة العالمية التقليدية » [١٨٩] ، فاكتسب مرفأ بيروت امتيازا جديدا عدا الامتياز الذي ناله بسبب الاحتلال الاسرائيلي للموانىء الفلسطينية• حتى راحت البلاد العربية تستورد حاجاتها عبر هذا المرفأ ، الامر الذي شكل « حافزا قويا للصناعة اللبنانية على التوسع والتنوع في الاتاج ومحاولة اكتساب اسواق جديدة في السعودية وبلدان الخليج العربي» [١٩٠] ، حيث كانوا « يعانون الارتفاع الملحوظ لاسعار البضائع الاوروبية ، وزيادة اجور نقلها عن طريق رأس الرجا الصالح » [١٩١] •

ان هذا التطور الصناعي والتجاري ، الذي عزته أحداث ابرزها الانقلابات العسكرية التي تتالت في البلدان العربية المجاورة ، وعدم الاستقرار الذي كان ينتج عنها ، وكذلك الحرب العربية ـ الاسرائيلية ١٩٦٧ ، أو هزيمة ١٩٦٧ كما اصطلحوا على تسميتها ، قد عكس أثرا طيبا على

---

(١٨٩) المصدر نفسه
(١٩٠) المصدر نفسه ص ١٠٣
(١٩١) المصدر نفسه

القطاعات الاخرى مثل : قطاع البناء وقطاع النقل، والمواصلات والقطاع السياحي ، والقطاع المصرفي، في حين ظل القطاع الزراعي ، على أهميته ، يحتاج الى « جهود كبيرة في سبيل انمائه » [١٩٢] ، بحيث لم يكف التحسين والتحديث اللذان طرءا عليه • ومن أسف ان هذا القطاع قد تراجع أمام بقية القطاعات الاقتصادية وعلى الاخص منها قطاع الخدمات [١٩٣] فبدت العاصمة كأنها هي الوطن•• كل الوطن• والمسؤولون عن هذا غافلون !

لقد هبت على بيروت وضواحيها، الشرقية والغربية كتل بشرية متعددة وكثيفة ، بعضها من الارياف ، وبعضها الاخر من الخارج • واذا بمدينة الخدمات قد حاصرتها تجمعات سكانية أرمنية وكردية وفلسطينية• وهذه التجمعات خالطها أو امتزج بها سوريون وعراقيون وأتراك، وخالطها أيضا اولئك السكان الذين واصلوا الهجرة الداخلية من جبل لبنان ولبنان الجنوبي والبقاع ولبنان الشمالي •

فاذا علمنا ان سكان لبنان المقيمين ، حسب احصاء ١٩٧٠ ، قد بلغ عددهم ٢،١٢٦ مليون نسمة ، واذا أضفنا اليهم سكان المخيمات وراعينا هامش السهو والخطأ، لوصل

---

(١٩٢) المصدر نفسه ص ٨٥
(١٩٣) المصدر نفسه

عدد السكان المقيمين الى ٢،٤ مليون نسمة ، من هـؤلاء ٤٥ ٪ يعيشون في بيروت وضواحيها • ولا عجب اذا مـا اعتبر لبنان اكثر البلدان العربية كثافة بعد البحرين[١٩٤] •

في هذه « العنابر » تكدست اللحوم البشرية ، لتصبح عما قريب منطلقا لجميع أنواع الشغب والتمرد والارهاب والعصيان •

وفي هذه «العنابر» أيضا، انتشر المتعطلون عن العمل بعد أن أصبح الفلسطينيون يزاحمون اللبنانيين على الوظائف في المعامل والمشاغل والمتاجر والمزارع ، في بيروت والجنوب والبقاع وجزء من الشمال •

ويمكننا القول بأن تلك البساتين الغناء التي أنشئت في الجنوب ، والمزارع الوسيعة في سهول البقاع ، وأيضا المصانع الراقية التي استحدثت حول بيروت، كان معظم الذين يديرونها ، أو يشغلونها ، أو يستثمرونها ، أو يخدمونهـا ، من الفلسطينيين والسوريين، يوم لم تكن البندقية الفلسطينية قد استقلت بعد ، وقد ظن أرباب العمل واصحاب المصالح، آنذاك، أن هذا الوضع مستمر الى الابد ، فانصرفوا ـ الى

---

(١٩٤) انظر الفصل الثاني من كتاب فرنان نفسه : السكان والقوى العاملة ، من ص ٤١ الى ص ٦٥

حد ما ـ عن عدد غير قليل من اللبنانيين ، ممن كانوا يطلبون تشغيلهم ، مؤثرين تشغيل الفلسطينيين أو سواهم من غير ابناء البلاد ، على تشغيل مواطنيهم[١٩٥] ، فتفاقمت البطالة في صفوف اولئك الريفيين الذين سرقتهم المدينة من قراهم ومزارعهم ، وتحوّلت أجسادهم متاريس بين تـل الزعتر والدكوانة ، ثم بين النبعة وسن الفيل ، ثم بين الشيـاح الغربي والشياح الشرقي • على ان الحرب اللبنانية ـ الفلسطينية التي تطورت حتى وصلت الى ما هي عليه ، انما بدأت فعليا من الدكوانة ـ تل الزعتر ، وليس من « عين الرمانة » كما يحسب الجميع •

وفيما هذه الشرائح تنتظر من يهيّجها أو يثوّرها ، جاءها الفارعاملي و « النبي الفلسطيني » في آن معا • الاول يحمل القرآن والراية السوداء • والثاني يحمل بندقيـة فلسطين وعلمها • وشوهد الاثنان يمشيان معا على الطريق وفي الاسواق • وفجأة راح يظهر الفارعاملي وحده ، ولكن على ظهر « حصان كل العرب » •

---

(١٩٥) انظر محاضرتنا: «أي استقلال ندعي؟» (١٩٧٧) القيت في مدرسة راهبات القلبين الاقدسين ـ الحدث ، ومـدرسة راهبات القلبين الاقدسين ـ بيت شباب . ونشرت في كتابنا: « رسائل من خلف المتراس » ج ٢ ـ ص ص ١٤٦/١٤٨

لقـد آثر «النبي الفلسطيني» العمل في الخفـاء . فاتخذ لنفسه مقراً في «الفاكهاني»، ليظل بين سكان صبرا وشاتيلا، وبازاء برج البراجنة . إما لانه لم يكن، آنذاك، يحسن الكلام ... والمثل يقول : عيٌ صامت خير من عيٍّ ناطق . وإما لان شكله ليس ملائما للصالونات البيروتية الى ذلك الوقت . وربما للسببين معا .

أما أنه لم يتخذ هذا «النبي الفلسطيني» من تل الزعتر أو جسر الباشا أو ضبية مقراً، فلأنه مسلّح، ومن جماعة «عباد الرحمن»، الذين علّمتهم النكبات أن «الخطأ لا يكمن في الجهاز السري، وانما في بعض أعضائه»[196] . وعنـده «أسطوانة» ذات وجهين، يجب أن يسمَعها المسلمون اللبنانيون دائما، ويقول الوجه الاول منها : اذا كان الجيش اللبناني ليس للمسلمين فيه كما للمسيحيين، فليمتْ الفلسطينيـون ويحيا المسلمون اللبنانيون سـادة وأحرارا . ويقـول الوجه الثاني : اذا كنتم أيها الاخوة المسلمون لا تريدون الحكم لان الامر يحتاج الى التضحية بمئة ألف شهيد، فلا بأس من أن يكون الفلسطينيون هم

---

(١٩٦) الاخوان المسلمون : أعدها ريتشارد ب. ميتشل، ترجمة : عبد السلام رضوان، تقديم : صلاح عيسى، دار القلم ـ بيروت، طبعة ١٩٧٨، ص ١٨٣

الضحية هذه . المهم أن تستلموا أنتم الحكم اليوم وليس غدا[197] .

بيد أن الفارعاملي الانيق والجميل واللائق واللبق والمتكلم والعملاق والمعمَّم، قد أبى الاقامة الا في قصر . ذلك لانه يريد أن يمد قدميه، ويأخذ راحته إن جلس أو وقف أو مشى أو نام . فعنابر اللحم لن تسعه، وإن هي وسَعت أفكاره وآراءه ومطارحاته .

وفي ساحة قصر الفارعاملي، أو «بيت الطائفة الشيعية» كما دعي، ظل «حصان كل العرب» يرابط، حتى كان الجدل الشيعي ـ الفلسطيني الحاد . ومذ كشف الفارعاملي عن قصته مع المقاومة، غادر «الحصان الجميل» الحازمية، تاركا «الثائر الجميل» ليمشي على قدميه .

---

(١٩٧) هنا يدعونا الواجب الادبي والعلمي الى التأكيد على موضوعية دراسة الكاتب المغربي : عبد الإله بلقزيز، وعنوانها: «أزمـة منظمة التحرير الفلسطينية : العوامل البنيويـة والاوضاع الراهنة» (المستقبل العربي، العدد (٩٣) ١١/ ١٩٨٦، من ص ٤ الى ص ٢٧) .

الفصل التاسع

الثَّوْرَتان

"الإمام الخميني قال لي: (ان الإمام الصدر إبني وتلميذي وصديقي، ولن يحضر القذافي الى طهران قبل خروج الإمام الصدر)، فكيف اجازوا لأنفسهم التعامل مع القذافي؟ لقد اصبح اسم الشيعي مرادفاً للارهاب بسبب اعمال هؤلاء؟"

الوزير نبيه بري
رئيس حركة "أمل"
من خطاب له في صور بمناسبة الذكرى التاسعة لاختفاء الامام الصدر.

صحف ١/٩/١٩٨٧

"إن على الثورة الايرانية أن تقدم طلباً رسمياً وعلنياً الى القذافي للاطلاق الامام الصدر فوراً. وننذر المسؤولين في الجمهورية الاسلامية باننا سننفذ في مهلة ١٥ يوماً وثائق تثبت تورطهم في اخفاء الامام الصدر".

أنور بك الصدر
"النهار" ١٩٨٧/٩/١

"إن علاقة الجمهورية الإسلامية الإيرانية وقيادتها بالإمام السيد موسى الصدر ليست علاقة عادية أو طبيعية، وليست علاقة تضامن أو تحالف أو التقاء مصالح ظرفية، إنها علاقة الأب بالابن، علاقة الجسد بالعضو، ذلك أن الإمام الصدر ترعرع ونما في أحضان تلك الثورة، نهل من منهلها وجاهد في سبيلها، وإنما غُيِّب قبل سطوع فجر الانتصار لتحجيم تلك الثورة وإطفاء شعلتها. لذلك لا نشعر بالحاجة إلى الحديث عن عمق الأثر الذي تركته فينا وفي نفوس شعبنا وقيادتنا في الجمهورية الإسلامية وعلى رأسها الإمام الخميني، جريمة تغييب هذا القائد المجاهد لهذا الشعب المجاهد في لبنان"

من بيان توضيحي للسفارة الإيرانية في بيروت
صحف ١٩٨٧/٩/٣

"ما هذه الفتنة التي تُخطَّط الآن وتُدبَّر؟ يقولون إن نبيه بري تعرّض للجمهورية الإسلامية في إيران، نحن أولاد الخميني، نحن من وقف مع ثورتها، عندما قامت الثورة المنتظرة ووقفنا معها عند الضيق ونترك غيرنا أن يستفيد من الغير.

ومن هنا من جبشيت (قضاء النبطية - الجنوب) من بلدة الأئمة والشهداء، أتوجه بالرسالة إلى سيدي وإمامي الخميني العظيم. يحاولون أن يفرقوا بين شيعتك ويجدوا عنواناً لما ربما حصلوا عليه من عرفات من جهة والقذافي من جهة أخرى".

الوزير نبيه بري
رئيس حركة "أمل"
من خطاب له في حسينية جبشيت بمناسبة ذكرى عاشوراء
صحف ١٩٨٧/٩/٥

تمهيد :

يسأل الكثيرون ممن علموا أنني أعدّ لهذا الكتاب: أين كان سيقف الفارعاملي من ثورة الامام الخميني ؟وهل هو مؤيد لها أم معارض ؟

ويسأل هؤلاء أيضا : لو بقي الفارعاملي حياً هل كان سينشأ في لبنان « حزب الله » الاكثر تطرفاً وتصلبّاً من الايرانيين أنفسهم ؟ ما رأي الامام الغائب أو الشهيد في الدعوة الى « اقامة جمهورية اسلامية » في بلدنا التعددي؟

ولكن معظم من لديهم هذه الاسئلة وغيرها يملكون أيضا الاجوبة عنها ، مفصّلة وغير مفصّلة ، وليس الذي يكره الفارعاملي مثل الذي يحبه ، ولا جواب هذا كجواب ذاك . فاذا قلنا مع المثل : حبُّك للشيء يعمي ويصمّ ، أي يخفي عليك مساوئه ويصمّك عن سماع العذل فيه،فكأننا نقول : كرهك الشيء يعمي ويصمّ أيضا ، أي يخفي عليك مآثره ويصمّك عن سماع مدحه وتعظيمه ، وفي الحالتين يصحّ قول الشاعر :

« وعين الرضى عن كل عيب كليلة
ولكنّ عين السخط تبدي المساويا»

قال الذين يحبون الفارعاملي الغائب أو الشهيد :لو ظلّ الامام بيننا فان أمرا آخر كان سيحدث بكل تأكيد : صورته أمامنا واضحة وجليّة • فالرجل إن لم يكن ضد الخميني فليس معه تماما • وحجة هؤلاء مجمل ما في محاضرته التي ألقاها في مطلع ١٩٧٥ في كنيسة سان لويس للآباء الكبوشيين ، وعلى الأخص قوله :

« ولبنان بلدنا ، البلد الذي يُعتبر انسانه رصيده الاول والاخير ، انسانه الذي كتب مجد لبنان بجهده وبهجرته وبتفكيره وبمبادراته • انساننا هذا هو الذي يجب أن يُحفظ في هذا البلد » (١) •

وتفسير هذا القول عندهم أن الفارعاملي يرفض العنف مثلما يرفض الظلم والاستبداد • وعلى رأيهم فان الذي جلس ، عشية الصوم الكبير ، تحت الصليب ، ليحاضر ليس الامام الصدر بل المسيح الذي في الامام • ومن كان فيه من المسيح ففيه للبعيد كما للقريب ، وللعدو كما للصديق،

---

(١) الامام السيد موسى الصدر : الاسلام عقيدة راسخة ومنهج حياة ، دار التعارف للطباعة والنشر ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م• ص ١٧

وللاسْود كما للأبيض • ويستعيرون من كلامه أيضا ما يدعم رأيهم ويثبته ، اذ يقول :

« فاذا كان لغير هذا البلد ، بعد الانسان ثروة ، فثروتنا في لبنان بعد الانسان ، انساننا أيضا • لذلك يتجه جهدنا في لبنان ، من المعابد حتى الجامعات والمؤسسات ، يتجه نحو صيانته • وصيانته بصيانة انسانه ، كل انسانه ، والانسان كله ، وفي مختلف مناطقه » (٢) •

ويمضي محبّو الفارعاملي في الشرح والتأويل فيقولون : ان هذه الكلمات الجريئة والصحيحة لا تصدر عن أي كان • وحده الامام ـ المسيح ، أو المسيح ـ الامام القادر على البوْح بها واظهارها للملأ في الزمن الغاشم والمجنون • ويتذكر أحدهم أن الشاعر سعيد عقل قال لبعضهم في حفلة عشاء أقيمت على شرف الفارعاملي في أوائل السبعينات في منزل السيد وسيم جمال الدين (٣) ، الكائن في كورنيش المزرعة ـ بيروت الغربية ، وهو ينظر الى الامام يتحدث : « يخرْبْ بيتكم يا الشيعة • ما بتستاهلوه لها الامام • لو بتعطونا ياه لعملنا منو أعظم بطرك ع الكنيسة» •
ويروي آخر فيقول : « حدثني فلان (•••) قال : دعا الرئيس شارل الحلو ، وعلى عادة كل رئيس جمهورية ، الى مأدبة افطار رمضانية ، وكانت في أواخر عهده ،

---

(٢) المصدر نفسه
(٣) شقيق المحامي والشاعر نجيب جمال الدين •

فحضرها رجال الدين من كل الطوائف والوزراء والنواب وبعض الشخصيات السياسية والعسكرية والصحافية . واذ تأخر الامام لبضع دقائق لاحظ الرئيس الحلو أن مكان الامام لا يزال شاغرا ، فسأل الرئيس صبري حماده : انني أرى سماحة الامام قد تأخر يا دولة الرئيس ، فما هو رأيك؟ فرد الرئيس حمادة : لقد اتصل سماحته بي مؤكدا مجيئه . انها بعض دقائق ويكون هنا . فبدت على وجه الرئيس علامات الرضى والفرح فقال : ان ليلتنا هذه ستكون اذن ليلة فكرية ما دام سماحته مشرّفاً . عندها امتعض المفتي الشيخ حسن خالد مما سمعه من الرئيس حلو وأخذ يلبِّد عمامته البيضاء بعصبية ظاهرة .

ويحكى ان ثلاثة من العمال الشيعة اختطفتهم احدى الفرق المسلَّحة ، فاتصل صاحب المعمل الذي يعمل فيه هؤلاء بالزعيم المسؤول عن الخاطفين فقال له : انهم عندنا ولن يُفرج عنهم الا بعد أن يتصل بي صاحبك الامام . فأُخبر الامام بما قاله الزعيم (...) وعلى الفور أدار الامام قرص الهاتف طالبا صاحب الميليشيا الخاطفة فقيل له: انه ليس في البيت . انه موجود على الرقم كذا . فهتف له الى هناك فقيل له : انه موجود على الرقم كذا . وسأل عنه ثم سأل حتى أُرشد الى حيث هو فعلا . فطلبه الى هناك، واذا على الخط سيدة أرملة أو عانس وقد ردّت متثائبة : مين؟

قال : الامام موسى الصدر . أرجو أن لا أكون قد أزعجتك . أريد .. قالت مقاطعة : تريده « هو » ؟ وأخذ الزعيم « الارمل » و « العاشق » السماعة قائلا : نعم يا سماحة الامام ؟ قال الامام : ان فرقة من فرقك خطفت ثلاثة عمال .. وقبل أن يكمّل الامام قال « هو » : فهمت . فهمت . الآن سيُفرج عنهم . دعني وشأني يا سماحة الامام . تصبحون على خير . ولما أنهى الامام مهمة البحث عن الزعيم :«هو» ـ « الأرمل » ـ « العاشق » ، وأمَّن على العمال الثلاثة هتف الى صاحبه الصناعي قائلا له : هنا الامام يتكلم . الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل . اليك هذا الخبر السار شِعرا وعليك الفهم :

« ليست شفاعةُ من يأتيك مرتديا
كمثل شفاعة من يأتيك عريانا »

ويتفق محبّو الفارعاملي على أن الذي أحب المسيحيين وعاشرهم فوجدهم أهلا للصداقة والوفاء لن يضحّي بهم، بل سيكون لهم الدرع الواقية والحليف الامين مهما ساءت الاحوال واشتدت الظروف [٤] .

(٤) انظر مثلا كلمة المطران خليل أبي نادر ، رئيس أساقفة بيروت ، في ذكرى غياب الفارعاملي يوم الاحد ١٩٨٦/٨/٣١، المنشورة في كتاب الحكمة السنوي (Palmares) ١٩٨٥ — ١٩٨٦ ، ص ص ٤٥/٤٨

أمـا الـذيـن يكـرهـون الفـارعـاملـي وأكثرهم من زعمـاء الشيعة ، السياسيين والـدينيين ، فيقولون : لو بقي السيد موسى الى حين نجاح ثورة الامام الخميني لأيّدها حتماً بكل قواه • وكان سيطالب بجمهورية اسلامية في لبنان ، لا اقتناعا منه بحاجتنا اليها ، بل لانـه انتهازي ويتقن اقتناص الفرص ، اذ عنده لكل لحية مشط ، ولكل مركب مجذاف • والذي لا تصهره النار لا بد أن تصهره الاحداث والايام • ويشبهه البعض بـ « معصرة الجزر » التي تفصل السائل أو العصير عن الثّفْل • أي ان أصدقاء الفارعاملي هم عنده مثل الجزَر •• وهو كالمعصرة، يأخذ منهم ما ينفعه ، والباقي الى المزبلـة فالى المحرق • ويدّعي أحد الذين كانوا يخرجون معه على رأس التظاهرات في السبعينـات فيقـول : كان الامام يقول للشباب عندمـا يتظاهرون : كسّروا المحلات •• حطّموا أعمدة الكهرباء • خرّبوا ما شاء لكم أن تخربوا •• فاذا ما أتيتكم وكان معي « غرباء » وأمرتُكم بوقف أعمال التخريب فتوقفوا على الفور • ويقول هذا الدعيّ أيضا: وفعلا كان الشباب يفعلون ما يأمره بهم الامام بأمانة فائقة • لقد كان بالنسبة الينـا « نبياً» وكان « الحلم » الذي يراودنا •• و « الامل » •• وكل شيء • وما أبرعه عندما يطلب « الويسكي » في فنجان شاي • كـان يشرب « الويسكي » ويتظاهر انه يشرب

الشاي • لقد دخل فينا نحن الشباب كما يدخل النعاس على الاطفال •• أو على المتعبين ••

لقد أوشك الحزن أن يقضي على رغبتي في متابعـة هذا البحث عندما سمعتُ بعض المصادر الشيعية تقول : كان موسى الصدر متقلبا لا يحب الا مصلحته • أرْسلتْه الاجهزة الايرانية الى لبنان ليقلّب الطوائف بعضها على بعض • فلما حاز الجنسية اللبنانية غضب مدير « السافاك » فاستدعاه الى طهران ، وهناك أنّبه وهدده اذا ما خان العهد ثانية ، وأبقاه في الاقامة الجبرية ما يزيد على ستة أشهر • ولما أُطلق سبيله رجع الى لبنان حيث عـاود اللعب على الحبال • ان الفرق بين والده وبينه لكبير وكبير جدا • ذاك تقيٌّ نقي ، وهذا « محتال » و « صاحب أهواء لا خير فيها على الاطلاق » •

حسبتُ أنني أسمع عكس ما يقال فسألت : أليس ما تقولون ظلماً وافتراء ؟! فرد كبيرهم : كان غفرَ الله له الظالم الاكبر • لقد مزّق الطائفة بدلا من أن يوحّدها • وغدَر بالسنّة ليفيد الموارنة • وأطلق كلمته المشؤومة :« السلاح زينة الرجال » لئلا يبقى شيعي كريم في لبنان •

وقال معمّم في العقد الرابع : لو كانت لي مكانة سيدنا المقدّس المرجع الاعلى لحكمتُ على موسى الصدر بالكفر

والهرطقة . ان الذي ينام في بيوت النصارى ويأكل من
طعامهم ويشرب من شرابهم ويجالس رجالهم ونساءهم أنّى
له أن يكون إماماً ؟ انه بكل تأكيد مخالف للأصول
والاعراف .. أعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد انتقم منه
على يد عبده الصالح العقيد معمّر القذافي .

تضايق أحد الحاضرين من الشيخ الشاب فقال متعجبا:
القذافي ؟! هذا عدو الشيعة . فقال المعمّم : أظنك لم تفهم
القذافي جيدا . هذا الزعيم اسلامي أصولي . والحقيقة أنه
ليس عدوّ الشيعة . بل عدو حركة « أمل » وعلى الاخص
نبيه بري ، خليفة معلمه ، والمتآمر على المخيمات الفلسطينية.

وقبل أن يحتدم النقاش أخذ رئيس المجتمعين الكلام
وراح يقرأ من أقوال الفارعاملي ويهز رأسه مستنكرا
وساخرا :

« يقول الحكام انه يجب على رجال الدين الصلاة
فقط وعدم التدخل في الشؤون الاخرى. ينصحوننا بالصوم
والصلاة حتى لا تتزعزع أسس سلطتهم ، بينما هم يبتعدون
عن الدين ويستغلونه للبقاء في مراكز السلطة . لا تظنوا أن
رجال السلطة الذين يعلنون معارضتهم للشيوعية هم ضد
الالحاد ... انهم الاكثر كفرا من الكافرين والاكثر إلحادا

من الملحدين . يريدوننا أن نستسلم لهم »[٥] .

ويتابع شيخ الجماعة القراءة وهز الرأس :

« نحن من هنا (من صور) من هذا المهرجان نمدّ
يدنا للحوار ، ولكن نقول لكم ، للدولة ، انه اذا لم تلبّ
طلباتنا فنحن نخشى على وطننا منكم ، أصبح حماة الوطن
يشكّلون خطرا على الوطن . عندها لا نعود نقدر على
الصبر ، وسنستعين على درء الخطر عنا بالرفق أولا وبالقوة
ثانيا . قوّتنا في صوتنا ، في ضميرنا ، قوّتنا في اخلاصنا،
في صفاء رؤيتنا ، في عدم التفاتنا الى المصالح الخاصة»[٦] .

وتوقف « العالِم » الكبير عن القراءة ليعلّق على
هذه المقتطفات « الصدرية » فقال :

« يتظاهر صاحبنا بالثورة الامامية . والحقيقة انها
مناورة لا ثورة . كانت الحرب في شهرها الاول عندما
تراجع ليصبح « الحمَل الوديع » . اعتصم . خطب .
عقد المؤتمرات الصحافية . استقبل مندوبين عربا وأجانب.
زار سياسيين وعسكريين . جال على دول الشرق والغرب.

---

(٥) من أقوال الفارعاملي انظر النهار ١٨ آذار ١٩٧٤ .
وايضا كتاب الدكتور عجمي ص ٢٠٠

(٦) من أقوال الفارعاملي في مهرجان صور المسلح . انظر
«النهار» ٦ ايار ١٩٧٤ ، وايضا كتاب الدكتور عجمي ص٢٠٣

ولما أوشك أن ينتصر الفلسطينيون وحلفاؤهم على الكتائب
استصرخ الاسد مطالبا اياه بحسم الامور . هلّل للسوريين
عندما كانت القوى الاسلامية والوطنية تندد بالتدخل
السوري . انه باختصار : انتهازي وليس ثائرا كما يدّعي
أولئك الذين ضلّلتهم كلماته التي كأنها الحَب الذي يُلقى
للطائر أو السمك ليُصاد . الشيعة هم الذين أكلوا الطُّعم
والسم ، ولن ينقذهم سوى قيام الجمهورية الاسلامية » .

ولما لم يعد من مجال للحوار مع هـذا « العـالِم »
وجماعته ، غسلتُ حزني وصمّمت على انجاز البحث بهذا
الفصل السابع والاخير ، وقد خصصته للمقارنة بين ثورة
الخميني في ايران وثورة الفارعاملي في لبنان ،وأرجو ان لا
اكون قد جانبت الموضوعية التي تعهدتها واخلصت لها في
الفصول الستة السابقة .

في الاسباب

ليست الموازنة أو المقارنة بين أسباب ثورة الخميني
وأسباب ثورة الفارعاملي اقرارا منا بأن للظلم مفاهيم ومعاني
عديدة ومتباينة .ولكنها بحث في الشكل فحسب ،أي كشف
عن مقاييس الطول والعرض لكلتا الثورتين . ومما لا ريب
فيه ان الحجوم اذا ما اختلفت فان سواها من المقادير
والنتوءات والارتفاعات وغيرها مختلف أيضا .

والكلمة مثلها مثل كل ذي جوهر . أي ان معنى
الكلمة قلبها . وكل كلمة غير ذات معنى هي غير ذات جوهر .
ولا شيء يفترض التوازن كالذي في داخله معنى أو مضمون
واذ يقتصر بحثنا ، هنا على الشكل ، فلان للمضمون: الظلم
مفهوما واحدا لا جدال فيه . وعلى ما في «لسان العرب»
فان الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه [٧] . وأمثاله
كثيرة فيما الغاية واحدة : من « أشبه أباه فما ظلم » أي
ما وضع الشبه في غير موضعه ، حسب تفسير الاصمعي [٨] .
« من استرعى الذئب فقد ظلم » أي من طلب من الذئب
أن يرعى الماشية فهو ظالم بكل تأكيد ، ذلك أن الماشية
يجب أن يرعاها الانسان العاقل والرحيم ،لا الذئب الافتراسي
الذي تسيِّره الغريزة علة كل فعل بالنسبة الى الحيوان .

فاذا كان « أصل الظلم الجور ومجاوزة الحد » [٩] ،
فان المجاوزة لا بد من أن تخضع للقياس فتقل او تكثر حتى
اذا ما دخلت في « اللامعقول » ، وعندئذ يقع الانفجار ،وكل
حادث يأتي على قدر ظروفه المادية وما يتصل بها ، والبشرية

---

(٧) لسان العرب : ج ١٢ مادة ظلم ص ٣٧٣
(٨) المصدر نفسه
واصل البيت :
« بأبيه اقتدى عديّ في الكرم   ومن يشابه أباه فما ظلم »
(٩) المصدر نفسه

وما يتصل بها أيضا . وفي جميع الاحوال فان الظلم هو الميل عن القصد ، الامر الذي جعل الاديان الايمانية تعتبر اعظم الظلم هو الشرك ، أو جعل النعمة لغير ربها [10] . على أن العامل الاقتصادي كان وسيبقى العامل المهم في استثارة نفوس الشعوب وسخطها على القائمين بالامر [11] ، وهو يغذي العامل السياسي وغيره من مظاهر المعارضة ليجعلها ثورية ، ترى الاخطار ولا ترى الى سواها ، فتصور الدنيا كأنها مجموعة أخربة آخذة في الانهيار ، وتطلق شعارها : « اما الثورة واما الزوال » ، ومن الطبيعي حينئذ ان يؤثر ذوو النفوس المهيجة والمثورة التمرد حتى الاستشهاد على الموت تحت الانقاض .

ان هذا ما فعله ، في شكل أو آخر ، كل من الامامين المتزامنين : « الخميني » والفارعاملي ، فكأن « الظلم » الذي قاومه الاول هو عينه « الظلم » الذي قاومه الثاني ، فكانت ثورة هناك وثورة هنا . ولكن ما حققته الاولى لم تستطع اليه الثانية سبيلا ، الا اذا اعتبرنا القتل والذبح وما اليهما هدفا لا وسيلة ، وفي هذا المجال لم تقصر أي من الثورتين .

---

(١٠) المصدر نفسه

(١١) سامي العياش : الاسماعيليون في المرحلة القرمطية ، دار ابن خلدون ، بدون تاريخ ص ٢٤

لقد أطاح الخميني بالشاه وعهده فاستحق « المنصب الالهي » الذي طالما انتظره ، في حين اختفى الفارعاملي ونفسه يائسة من « المنصب » والثورة ، ويائسة أيضا من « المهار » و « الجياد » ومن كل ما يحيطه ، حتى من « حصان كل العرب » العدّاء وذي القوائم التي نافت على الالفين .

لماذا انتصر الخميني واختفى الفارعاملي ؟

سؤال نطرحه على العقل ، ومن العقل سنتخذ الجواب عنه ، فان رضينا كان به ، والا فان للزمان أحكامه التي لا ترحم ولا ترد .

أولا : عن الظلم الذي صوّره الفارعاملي

يذكر أدولف هتلر في كتابه : « كفاحي » كلمة قالها قائد الماني هو فون مولتكه (P. Moltke) [12] هنا نصها :

« في الحرب تكون أساليب القتال العنيفة اكثر الاساليب

---

(١٢) مولتكه (فون) (P. Moltke) : اسم قائدين المانيين. هلموت (١٨٠٠ – ١٨٩١) قاد الجيش الالماني في الحرب مع فرنسا ١٨٧٠ / ١٨٧١ . ابن أخيه هلموت (١٨٤٨–١٩١٦) رئيس اركان الحرب ١٩١٤ .

انسانية لانها تعجل بوضع حد للنزاع . والنضال الذي يهدف الى حفظ كيان شعب من الشعوب ينتفي معه كل اعتبار جمالي ، لانه ليس في حياة الانسان أقبح من نير الاستعباد » (١٣) .

ويعلق هتلر على كلمة مولتكه هذه فيقول :

« لقد كان مولتكه على حق . وقوله هذا ينطبق على الدعاوة انطباقه على القتال . فالشعب الالماني قد حمل السلاح للدفاع عن كيانه ، فالدعاوة التي تهدف الى اذكاء الحماسة الوطنية يجب ان تتوخى قبل كل شيء بلوغ هذا الهدف بقطع النظر عن الوسائل المؤدية اليه ، فكل سلاح مهما يكن متعارضا والمبادىء الانسانية ، يصبح وسيلة انسانية ما دام الغرض من استخدامه الذود عن حريتها » (١٤)

ونأخذ نحن ، في دورنا الان ، رأي مولتكه وتعليق هتلر معا ، لننظر الى انطباقهما على القتال الدائر في لبنان حتى يومنا هذا ، والذي كان الفارعاملي من الداعين اليه ، والقتال في ايران الذي دعا اليه الخميني وانتهى بتحطيم دولة وبناء دولة جديدة تخوض منذ نشأتها حربا ، مع الجمهورية

---

(١٣) كفاحي : ص ٩٨
(١٤) كفاحي : نفسه

العربية العراقية ، امتدت ألسنة نيرانها الى المملكة العربية السعودية والكويت وغيرهما من دول الخليج .

فوق مساحة صغيرة ، حدودها بعلبك ــ الهرمل شرقا وصور جنوبا ، تحرك الامام الثائر الفارعاملي بقوة ونشاط (Dynamical) ، فأقلق الدولة وبعض الطوائف والاحزاب والهيئات . وفي أقل من خمس سنوات أسس « هيئة نصرة الجنوب » بالاشتراك مع اساقفة الجنوب وشيوخه ، وكان ذلك على اثر اضراب وطني عام سلمي دعا اليه في السادس والعشرين من ايار ١٩٧٠ ، تبعه وضع قانون نيابي مصدق من رئيس الجمهورية يقضي بانشاء « مجلس الجنوب » المخصص « لتلبية حاجات منطقة الجنوب وتوفير اسباب السلامة والطمأنينة لها » . وأسس ايضا « حركة المحرومين » التي اعلن ميثاقها في اجتماع « الهيئة العامة للمجلس الاسلامي الشيعي الاعلى » في التاسع والعشرين من آذار ١٩٧٥ ، وهو ينص على انها « حركة جماهيرية غير طائفية ولا فئوية ، تنطلق من الايمان الحقيقي بالله ، وتؤمن بالحرية الكاملة وترفض الظلم والتصنيف ، وتتمسك بالسيادة الوطنية وبسلامة ارض الوطن كما تتمسك بالمصالح القومية ، وتعتبر ان تحرير الارض العربية هو من صميم التزاماتها الوطنية ، وان صيانة لبنان الجنوبي وتنميته هي جوهر الوطنية ، وان فلسطين ــ الارض المقدسة ــ التي تعرضت

ولم تزل لكل انواع الظلم ، هي في قلب الحركـة وعقلها ، وأن السعي لتحريرها هو أول واجباتها ، وان الوقوف الى جانب شعبها وصون مقاومته والتلاحم معها ، شرف الحركة وايمانها ، خصوصا ان الصهيونية تشكـل الخطر الفعلي والمستقبلي على لبنان وعلى القيم التي تؤمـن بها وعلى الانسانية جميعا وترى بتعايش الطوائف في لبنان تحديا دائما لها ولكيانها »[15] (*1) .

---

(١٥) عن كتاب « مع الاعتذار للامام الصدر » لمؤلفه الصحافي المصري : عادل رضا ، المذكور سابقا ، ص‌ص ١٢١/١٢٢ .

(*1) لقد أطلعني النائب (الوزير السابق) الاستاذ بيار حلو على رسالة وصلته من الفارعاملي لا تحمل تاريخا وفيها:

« معالي الاستاذ بيار حلو المحترم

« سيادة الاخ النائب السيد حسين الحسيني الموقر

« مع التحيات والأدعية : لعلكما تتذكران حديثنا حول امكانية تشكيل هيئة برلمانية لحركة المحرومين ، لا تتعارض مع الالتزامات الاقليمية البرلمانية ، تهتم بمطالب المحرومين على صعيد التشريع والتنفيذ والملاحقة والإعلام .

« وها ان الظروف قاهرة مضطر للسفر دون انجاز هذه المهمة والوقت يسبقنا لان أملي أن تبدأ الهيئة عملها مع طرح الثقة للحكومة .

« أرجو ملحاً أن تعملا على دعوة السادة النواب (وهم: بيار حلو ، حسين الحسيني ، محمد بيضون ، دكتور طارق حبشي ؟ (الاستفهام من وضع الفارعاملي) د. علي الخليل ، عبـداللطيف الزين ، د. ألبرت منصور ، سليم معلوف ،
=

وقد سبق للفارعاملي او « ابو المحرومين » ـ كما يدعوه « الصدريون » ـ ان بدأ مع العقيد المتقاعد عباس مكي في اواخر ١٩٧٤ تأسيس « أفواج المقاومة اللبنانيـة » (أمل) ، لتدريب الجنوبيين على الدفاع عن قراهم وأنفسهم في وجه الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة ، وكانت « المقاومة الفلسطينية » هي المشرفة على تدريبهم واعدادهم ليكونـوا « فدائيي حدود الارض اللبنانية »[16] . وعلى هذا اعتبر قتلى « أمل » « شهداء الثورة الفلسطينية »[17] ، ولكـن لفترة وجيزة لم تتعد مرحلة التأسيس ، اي الى حين دخـول القوات السورية بيروت وكل لبنان .

نكرر القول بأن أمر « أمل » المسلحة لم يكشف عنه الا بعد قنبلة « عين البنيّة » التي بعثرت أصدقاء الفارعاملي الـذيـن همهـم « لبننـة » حركته ولا سيمـا المسيحيـين منهم كمـا مرّ معنـا . ويـروى أن بعض

=

عبداللطيف بيضون ؟ (أيضا الاستفهام من عند الفارعاملي) د. رفيق شاهين ، د. حسن رفاعي ، حسين منصور ، يوسف حمود ؟ (الاستفهام من عند الفارعاملي) .. للاجتمـاع وللاعلام عن تشكيل الهيئة وان ارتأيتم زيادة أو نقيصة فأنتما معاً مفوضين . فالى اللقاء ، وسأكتب رسالة موجهة اليهم » .

موسى الصدر

(١٦) مع الاعتذار للامام الصدر نفسه

(١٧) المصدر نفسه

هؤلاء الاصدقاء جاؤوا الى الفارعاملي في مقره في الحازمية ليستنكروا حادثة « عين البنية » وعلى وجوههم الارتيـاب وفي عيونهم الحزن ، فكان رده : « هذا هو الواقع الذي لم استطع تغييره فاعذروني ايها الاصدقاء » • وعندئذ قال لـه احدهم بلهجة قاسية وعنيفة : « ولكنك بهذا العمل صرت مثلك مثل ابراهيم قليلات » • فسكت الفارعاملي طويـلا حتى خرج الزوار الذين كانوا هم « الاغلى » و « الاعز » ، وعند كل واحد منهم شعور بأنه ربما لن يعود الى هذا المقر بعد اليوم •

لم تكن لغة الفارعاملي في الستينـات كلغتـه في السبعينات • ذلـك ان لسان الفارعاملي مهما يكن طويلا وعريضا لا يمكنه ان يبلغ بمقاييسه لسان « الامام » ، وهذه حقيقة أردنا اظهارها مع تأكيدنا على ان الفارعاملي لم يكن اجتماعيا ـ سياسيا (Sociopolitical) فحسب ، بل متعدد جوانب الثقافة (Polyhistor) وتواقا (Desirous) الـى غايات كثيرة وعظيمة •

ففي الاضراب الاول (٢٨ ـ ٥ ـ ١٩٧٠) وقـف الفارعاملي في قاعة الاجتماعـات العامة التابعة للجامعـة الاميركية في بيروت ، وقال :

« لقد ألقيتُ ستين محاضرة وأصدرت عشرة بيانات وعقـدت ستماية وعشرين مناقشة وأجريت العديد مـن المقابلات الصحافية في موضوع الجنوب ووجوب الدفاع

عنه ، ولكن أحدا لم يسمع • المسؤولون لم يسمعوا » •

وتابع بنبرة أشدّ يقول :

« ان السكوت عن الاعتـداءات الاسرائيليـة على الجنوب ، هو رضا بالذل وخيانة لبنان وان اسرائيل تهدد العرب والفلسطينيين واللبنانيين ، والحل هو التصدي لها بمساندة ودعم المقاومة الفلسطينية التي عليها أن تتصاعـد لتكون نواة الحرب الشعبية الشاملة » [١٨] •

وفي صور ، أمّ الفارعاملي المصلّين يوم الجمعـة الموافق ١٨/٥/١٩٧٣ ، ثم ألقى خطبة أعلن فيها « قداسة السعي والجهاد في سبيل تحرير فلسطين » [١٩] ، مثبتا أن السعي لتحرير فلسطين هـو « سعي لانقاذ المقدّسات الاسلامية والمسيحية ، وسعي لتحرير الانسان » [٢٠] ، وأيضا « سعي لعـدم تشويـه دين الله في الارض لان الصهيونية بتصرفاتها تشوّه دين الله » [٢١] •

من بعلبك الى بيروت الى الجنوب وبالعكس كـان الفارعاملي يسافر على ظهر « حصان كل العرب » • محاضراته وخطبه وأحاديثه ونداءاته كلها مفعمة بـ «الفلسطينيات» • فأول الكلام فلسطيني وقلبه فلسطيني وخاتمته فلسطينية •

---

(١٨) المصدر نفسه
(١٩) المصدر نفسه
(٢٠) المصدر نفسه
(٢١) المصدر نفسه ص ص ١٣٣/١٣٤

ماذا يريد من وراء هذا ؟

انه يريد أن يصنع ثورة ..

ولكي يصنع الفارعاملي ثورة لبنانية لا بد أن تكون ببندقية فلسطينية .. وبلحم فلسطيني . ولكن الفلسطينيين يخططون العكس . فهم يريدون ثورة وانما ببندقيتهم وباللحم الشيعي لا باللحم الفلسطيني . اللحم الفلسطيني يوفرونه ليوم فلسطين الذي هو غير يوم لبنان .

لذلك قلناها ونقولها : ان منطلق الحرب ، حقيقة ، ليست عين الرمانة بل الدكوانة ومنذ أن بدأت البندقية الفلسطينية تكشف عن وجهها اللثام . فالخطيب الثائر والخيّال ذو الجبّة والعمامة السوداوين ينفخ في كور المقاومة ، في المساجد والحسينيات والجامعات ، وفي الاعراس والاحزان ، كما في المطاعم والمحافل ، فيما « المقاومة » تحشو بالبارود بيوت الشيعة في رأس الدكوانة وتل الزعتر وجسر الباشا والنبعة والفنار والجديدة، وكذلك في الشياح والغبيرة وبرج البراجنة مثلما في الجنوب وبعلبك.

ان أي مواطن عادي في الدكوانة ، وليس من الضرورة أن يكون مسؤولا حزبيا أو سياسيا ، يتذكر اليوم كيف أن الفلسطينيين سلّحوا شبابا من الشيعة ، لا ليقاتلوا اسرائيل بل ليذلّوا المواطنين الآمنين ، فكأن تحرير فلسطين يبدأ من الدكوانة قبل أن يبدأ من أي مكان آخر . ولربما تأخر « أبو إياد » عندما قال « ان طريق القدس تبدأ من جونية ».

والواقع أن طريق القدس هذا الذي لم يتعد لبنان قد بدأ من ساحة الدكوانة حيث كان المسلّحون الفلسطينيون والشيعيون يمارسون الارهاب والقمع عشوائيا حتى على سائقي السيارات العمومية وطلاب المدارس وطالباتها في الدكوانة ، لينتهي الى مغدوشة والقرى المجاورة لها .

يطرح اليوم مدير البيت المركزي لحزب الكتائب ، الاستاذ سليم رعيدي ، الصوت على كل جنوبي وكل بعلبكي أقام في منطقة الدكوانة وسواها من مناطق بيروت الشرقية : ماذا فعل المسيحيون حتى نزل عليهم هذا العذاب؟ لماذا كانت الدكوانة ستُهدم على رؤوس أهلها ما دامت القضية أكبر من الدكوانة وبيروت وكل لبنان ؟

ويتذكر رعيدي فيما يتذكر أن الشيخ محمد مهدي شمس الدين لم يُبد أي اهتمام بمعاناة أهل الدكوانة وسواهم بل تعاطف بحرارة مع البندقية الفلسطينية على حساب بعض اللبنانيين . ويتذكر أيضا الشيخ حسن المصري، وهذا لعله المسؤول الشيعي الوحيد الذي تفهّم حقيقة المسألة ، وله قصائد لبنانية وطنية مؤثرة ، الا أن التيار كان أقوى منه . ويتذكر ثم يتذكر الشيخ محمد يعقوب وأحمد صفوان والمحامي أحمد قبيسي . والاخير يثني عليه جميع عارفيه ويقدرون فيه وعيه الوطني وتفهّمه لدقائق الامور ، ولكن هذا أيضا كان التيار أقوى منه .

ويرى رعيدي كما نرى نحن أن منطلق الحرب

الدكوانة وتل الزعتر على اليقين ، ويقـول : اسألوا توفيق الصفدي و « أبو الزعيم » .. اسألوا بعشيي ذلك الوقت ولا سيما منهم بلال الحسن وحسين الموسوي رئيس حركة « أمل الاسلامية » .. اسألوا الشيوعيين والقـوميين . اسألوا هؤلاء وأولئك وكل الناس : مـا ذنب الدكوانـة وكل المنطقة الشرقية ؟ اسألوا الجنوبيين عن ابن الدكوانة: رشيد أبو عبود الذي كان بيته مفتوحا لكل شيعي يقيم في جوارنا حتى دعي « مختار الشيعة » !

ويترحّم مدير البيت المركزي لحزب الكتائب على القيادي الفلسطيني : « أبو حسن » الذي كثيرا ما أحزنته تجاوزات الفلسطينيين والمسلّحين الشيعة . وقد اشتهر عنه انه بصق ذات يوم على بعض المقاتلين الفلسطينيين وقال لهم: « أهذه هي الثورة ؟ ان هذا عهر وكذب وتزوير لا أكثر ولا أقل »[٢٢] (*٢) .

وفيما الاخطار المحدقة بالدكوانة وكل ساحل المتن

---

(٢٢) من مقابلة مع الاستاذ رعيدي في مكتبه صباح يـوم الثلاثاء ١٩٨٧/٧/٧

(*٢) والواقع ان في كل حي من احياء المنطقة الشرقية كان يوجد مثل رشيد أبو عبود .. نذكر مثلا لا حصرا السيد جول باخوس المعروف بـ « الماريشال » وشقيقه النـائب المحامي اوغست ، والسيد ايلي أبـو عبود والسيد داود أبو جودة لما قدموا من خدمات جليلة للذين سكنوا جديدة وسد البوشرية والفنار من الشيعة البعلبكيين .

الشمالي تتصاعد ، كان الفارعاملي يصعّد ثورته ويكثّف خطبه ضد الظلم فقال عندما اندلعت حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ العربية ـ الاسرائيلية :

« اذا كان رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام قد أكّد اننا خلال شهر رمضان في ضيافة الله الكريمة ، فان الجهاد في سبيل نصرة الدين وتطهير المقدّسات وكرامـة الانسان ، هو افضل الشروط لهذه الضيافة وأشرف النتائج منها »[٢٣] .

كان الفارعاملي أنّى يذهب يذهب معه الامام علـي والامام الحسين والزهراء وفاطمة وزينب . ودائما عنـده كلمات « أشدّ من الرصاص »[٢٤] .

ففي عاشوراء ١٩٧٤ وصف الفارعاملي أمة الحسين بأنها كانت « صامتة »[٢٥] و « الرجال الاحرار كـانـوا هاربين »[٢٦] ، اذ « الخوف أجبر الناس على الصمت »[٢٧] والاسلام « كان مهددا »[٢٨] . وبالرغم من هذا وذاك أخذ الحسين طريقه الى الموت فوضع « عائلته وقواته وحتـى

---

(٢٣) عن كتاب « مع الاعتذار للامام الصدر » ص ١٢٠

(٢٤) النهار ١٩٧٤/٣/١٨ ـ كتاب الدكتور عجمي ص ١٩٩

(٢٥) الحياة ١٩٧٤/٢/١ ـ كتاب الدكتور عجمي ص ١٩٥

(٢٦) المصدر نفسه

(٢٧) المصدر نفسه

(٢٨) المصدر نفسه

حياته - الميزان ضد الطغيان والفساد • (و) بعدئذ انفجر العالم الاسلامي بهذه الثورة »[٢٩] ، وهي « وديعة وُضعت بين ايدينا لعلنا نستفيد منها ، ونستخرج منها مصدرا جديدا من الاصلاح ، موقعا جديدا ، حركة جديدة ، ثورة جديدة ، نصدّ الظلام ، لايقاف الطغيان وسحق الشر »[٣٠] •

ولكن يوم الحسين ليس لعاشوراء فقط ، وانما لكل مناسبة وكل اجتماع جماهيري • فهذا الامام (الحسين) « كان له ثلاثة أنواع من الاعداء » بتحديد الفارعاملي وهم : « الذين قتلوه » ، و« الذين حاولوا محوه » : « العثمانيون الذين منعوا أي احياء ذكرى له »[٣١] ، والذين أرادوا تحجيره وهم « الاخطر لانهم ينذرون بتدمير الجذور الحية لذكرى الحسين »[٣٢] ولانهم شيعة أيضا • ولكي ترسخ الفاجعة في العقول والقلوب « رفعت زينب جثة الحسين وقدّمتها الى الله قائلة : يا الله تقبّل منا تضحيتنا »[٣٣] •

ان أحدا لن يطفىء نار كربلاء •• وإلاّ فالكلام على الظلم يصبح كطحن الهواء أو كنقل البحر بقمع (كشتبان) الخياط • « وفروا رصاصكم • مدينة بعلبك بدون مدرسة

---

(٢٩) المصدر نفسه
(٣٠) المصدر نفسه
(٣١) النهار : ١٩٧٤/٣/١٨ كتاب الدكتور عجمي ص ص ٢٠٠/١٩٩/١٩٦
(٣٢) المصدر نفسه
(٣٣) المصدر نفسه

ثانوية • ومدرستها الآن من مخلّفات الحكم الفرنسي • قبل ألفي عام تمّ ريّ بعلبك من خلال شبكة خزانات • واليوم تهدر مياه بعلبك ، والحكومة لا تزال تريد معرفة لماذا نحن نيأس منها »[٣٤] • وكما مياه بعلبك كذلك مياه الجنوب : « سرقوا ثلاثماية مليون متر مكعب من مياه الجنوب • والآن يريدون ستين مليون متر مكعب أخرى • يريدون تحطيم آخر أمل بقي لشعب الجنوب في مياهه الخاصة »[٣٥] •

وعلى طريقة زينب والإمام زين العابدين خاطب الفارعاملي الشيعة والحكومة فقال :

« الشيعة كانوا دون التمثيل في المناصب العالية في الدوائر الحكومية • لا يوجد عمداء شيعة في الجامعات • السفراء الشيعة يعيّنون في البلاد المتخلفة • متر الارض في بيروت يقدّر ثمنه بأكثر من عشرة آلاف ليرة لبنانية (تسعيرة عام ١٩٧٤) ، بينما يقدّر ثمن متر الارض في البقاع بأقل من عشرة قروش » •

وقال أيضا :

« دعونا ننظر الى أحياء بيروت : يا رجال السلطة ، ألا تشعرون بالخجل أنه على مسافة كيلومترات قليلة من

---

(٣٤) المصدر نفسه
(٣٥) المصدر نفسه

منازلكم توجد بيوت غير صالحة لسكن الانسان ؟... اذا
كان هنالك ألف طفل مشرّد في شوارع بيروت ، تسعماية
منهم هم بالتأكيد شيعة . هل يقبل الامام الحسين هذا
لاطفاله ؟ هل يقبل الامام علي ؟»[36] .

هذا هو الظلم الذي ثار عليه الفارعاملي متناسيا ظلما
من نوع آخر هو أشد وأفتك : الوجود الفلسطيني المسلّح
في العاصمة بيروت ، وقد تحوّل نارا تلتهم بيوت الابرياء
من كل الطوائف بدءاً من الدكوانة مثلما قلنا . ولما انتقلت
الحرب الى عين الرمانة والشياح والاسواق كتبنا الى
الفارعاملي على أمل أن نخفف من غضبه وحدّته طالبين
منه أن يفتش « عن أسباب الحرمان في الفوضى الاجتماعية
التي نعيش نحن الشيعة فيها ، لا أن نضع مسؤولية تخلّفنا
على الآخرين الابرياء مما ينسب اليهم »[37] . فاعتبر صوتي
هذا « نشازا » وقامت عليّ القيامة ولم تقعد : فريق من
السنّة قال : « هذا الكاتب المستعار يريد أن يفرّق بين
السنّة والشيعة » . المقاومة الفلسطينية حكمت عليّ بأنني
« عميل للجيش والكتائب والحكومة .. وعميل لأميركا
واسرائيل » . ولكنني واصلت كتابة الرسائل الى الفارعاملي
والزعماء : كمال جنبلاط ، كامل الاسعد ، كاظم الخليل ،

---

(٣٦) المصدر نفسه

(٣٧) انظر كتاب مصطفى جحا : « المخالب » طبعة ١٩٧٦
ص ٩٠

والى الكتائب و « الاحرار » كما الى الرئيسين : حافظ
الاسد ومعمّر القذافي ، والى كل العرب[38] ، حتى قال
لي الفارعاملي نفسه: «لقد خرجتَ عن جلدك» والحقيقة أنني
خرجتُ من جلدي الطائفي العفن متخذا لنفسي جلدا
انسانيا لا هو اسلامي ولا هو مسيحي ، ولكنه نقي وبريء
من كل الشوائب المذهبية والطائفية والعنصرية ... وبريء
كذلك من كل أثر لسلطان جائر وحاقد ولئيم .

لقد أردتُ لهم العزة والكرامة والسيادة فأرادوا لي
التهجير والعزلة والموت . انهم يا للاسف يفرحون بالمديح
الذي يدمّرهم ويكفرون بالنقد الذي ينقذهم !

ثانيا : عن الظلم الذي صوّره الخميني

بعد عملية « آجاكس » كما يسميها الاميركيون ،أو
« الثورة البيضاء » كما يسميها الشاه ، ظهر في ايران
« ساحر » في العقد السابع من عمره هو السيد روح الله
الموسوي بن مصطفى بن أحمد الموسوي الخميني . وقد
جاء ليقذف وجه « الثورة البيضاء » بالأسيد والقطران .
وهو اذا لم يفعل هذا! فان رجال الدين الايرانيين سيخسرون

---

(٣٨) انظر كتب مصطفى جحا : المخالب ، اية عروبة اية
قضية ، صدى ونغم ، رسائل من خلف المتراس ، لبنان في
ظلال البعث.

مراكزهم وربما عمائمهم وجبابهم أيضا • لقد ذكّرتْهم هذه « الثورة البيضاء » بحرب مصطفى كمال أتاتورك على الدين والتقاليد والازياء القديمة فخافوا أن يصابوا بما أصيب به الاتراك •

لقد أدرك الخميني الخطر فحذّر منه • وشخّص الظلم فوصف العلاج ، والصحيح أنه حدد «الآلة» الصالحة والمنقذة لا الدواء المسكّن والمهدّىء • ففي أول نداء له وكان في شوال ١٣٨٢ هجرية ، أعلن أن ليس لعلماء الدين عيد ••• لان « المصائب والنكبات قد تواردت طوال هذه السنة على الكيان الاسلامي » [٣٩] و « هي نتيجة المؤامرات الاستعمارية المستمرة للنيل من كيان الامة الاسلامية وكرامتها وتعاليم دينها الحنيف »[٤٠] •

ويؤكد الخميني على أهمية علماء الدين ووعيهم واخلاصهم للاسلام والشعب فيقول :

« ان علماء الدين حتى هذه اللحظة من تاريخ المشرق المشرّف ، قد خدموا الامة وجاهدوا في سبيل مصالح الشعب وأهداف الدين ، وهم جادّون في كشف المؤامرات

---

(٣٩) دروس في الجهاد : وثائق ومواقف من سيرة جهاد الامام القائد آية الله الخميني ، منشورات مجلة فلسطين المحتلة ، مهّد له هاني فحص ، ٥ رمضان المبارك ١٨٩٨ هـ، ص ٣٢

(٤٠) المصدر نفسه •

ونوعية أفراد الشعب ، وهم في ذلك لا يخشون قسوة الجائرين وبطش الظالمين ، لانهم كما وصفهم رب العالمين : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » (فصّلت : ٣٠) [٤١] •

لذلك ، فان على الناس أن يكونوا « صامدين ومستقيمين في كل الامور » [٤٢] ويكونوا « أمة حية مؤمنة لا ترضخ لقوى البغي والطغيان»[٤٣] •و«يجب أن لا يخافوا من القتل والصلْب ، لان الله يحرسهم وينزّل عليهم ــ بعد أن آمنوا واستقاموا ــ ملائكة من السماء تحرسهم • ومقرّهم ومصيرهم جنة ونعيم ومنزلة ومقام كريم »[٤٤] •

ولذلك أيضا ، فان « أسعد أيامنا وعيدنا الحقيقي هو يوم استشهادنا في سبيل ديننا العظيم ، وان الحياة هذه الايام تُعدّ هانئة وسعيدة بالنسبة للمسلمين ، ونحن لم

---

(٤١) المصدر نفسه

(٤٢) دروس في الجهاد : ص ٣٣

(٤٣) المصدر نفسه

(٤٤) المصدر نفسه

نقبل بالعيش الخانع تحت ظلم حكم الجائرين المنحرفين الذين استعملوا كل قواهم وهمجيتهم لضرب الاسلام والمسلمين » [٤٥] •

يُفهم من كلمات الخميني هذه أن «الثورة البيضاء» كانت تستهدف في ما تستهدف رجال الدين وسلطة المرجع الاعلى لتبقى البلاد تحت سلطة الحاكم السياسي فحسب •

والواقع أن الحكم في ايران الاسلامية كان خلال جميع عهود الدول التي تعاقبت في السلطة حكما ثنائيا ، (Dyarchy) أي له سلطتان : واحدة للحاكم السياسي والاخرى للمرجع الشيعي الاعلى •

فمن البويهيين [٤٦] الى الايلخانيين الى الصفويين الى الدولة الافشارية ثم الى الدولة الزندية والحكم في ايران « كان يتم بناء لوفاق بين الملك أو الشاه وبين المرجع

---

(٤٥) المصدر نفسه
(٤٦) صدر في بيروت كتاب متخصص بتاريخ هذه الدولة لمؤلفه الدكتور حسن منيمنة ، عنوانه : « تاريخ الدولة البويهية » (السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي) — مقاطعة فارس — (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ / ٩٤٥—١٠٥٥ م) دراسات في التاريخ العباسي ، وهو جدير بالدرس والقراءة . الدار الجامعية طبعة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م •

الشيعي الاعلى • ولم يحدث خلاف كبير بينهما خلال تلك العهود » [٤٧] • ولكن في ظل الدولة القاجارية التي خلفت الزندية شهدت البلاد مواجهة بين الحكم الممثّل بالشاه وبين المرجعية الدينية العليا الممثّلة بآيات الله والعلماء • وقد اغتيل ناصر الدين شاه عام ١٨٩٦م• أو ١٣١٣ هجرية على يد فدائي من جماعة كانت تنادي بضرورة الاصلاح الديني ، فتمكن العلماء بعد الشيرازي « من تغيير الحكم الاستبدادي الذي كان سائدا يومذاك » [٤٨] • وتحت ضغط الشعب بقيادة الشيخ فضل الله النوري « الذي استشهد سنة ١٣٢٧ هجرية » [٤٩] ، تم في ظل حكم مظفر الدين بن ناصر الدين وضع دستور ، عُرف بدستور ١٩٠٦ ، وأنشيء مجلس نيابي [٥٠] • بينما يقول الامير فيروز قدر ، الذي مرّ ذكره في الفصل الخامس ، بأن جده صدر الدين آغا ، آخر ملوك أسرة أفيشار التي حكمت ايران مئة وخمسين سنة ، هو الذي وضع هذا الدستور بعد ثورة مماثلة لثورة الخميني • على ان هذا الدستور

---

(٤٧) سامي ذبيان : ايران والخميني ، منطلقات الثورة وحدود التغيير ، دار المسيرة طبعة ١٩٧٩ ص ٣٦
(٤٨) المصدر نفسه
(٤٩) جعفر شرف الدين : جذور الثورة الاسلامية، المذكور سابقا ص ٣٦
(٥٠) سامي ذبيان : ايران والخميني ص ٧١

(١٩٠٦) لم يُنفَّذ عمليا ، وان يكن ساري المفعول نظريا [٥١] .

ويأتي الخميني لا ليعيد الى هذا الدستور الاحترام فقط ، بل ليوحّد الحكم (to predominate) فيجعله دينيا ذا سلطة واحدة هي سلطة الفقيه أو نائب الامام . وعلى قوله ، فان معارضة رجال الدين للاستفتاء العام (رفراندم) ، (الذي دعا اليه الشاه ورئيس حكومته أمير عباس هويدا عام ١٩٦٢)[٥٢] ليست بسبب اشراك المرأة في الحكم وما الى ذلك ، بل لانهم يريدون الكيد بالاسلام وقلب مجمل القيم والمثل رأسا على عقب [٥٣] .

من الطبيعي والحالة هذه أن يحرّض الخميني على مقاومةهذا «الظلم» الذي لا هو اقتصادي ولا اجتماعي ، بل سياسي — ديني ، فيسأل قائلا :

« أفنسكت ولا نقول الحق وهم يريدون التلاعب بالقوانين الالهية المقدسة ؟! ولماذا تمارس الدولة أبشع

(٥١) الحوادث : عدد ٢/١٢/١٩٧٩ ، اجرى معه المقابلة : انطوان فرنسيس ص ٢٣
(٥٢) سليم واكيم : ايران في الحضارة ، المذكور سابقا ، ص ١٣٢
(٥٣) دروس في الجهاد : ص ٣٤

أنواع القمع ضد خطباء المساجد ورواد الاصلاح ؟ لماذا يحاولون اخماد صوت الاسلام والدعاة له ويمنعون الطباعة ويفرضون الرقابة المشدّدة على كتابة المواضيع الاسلامية في الصحف والمجلات ؟ » [٥٤] .

ويعنف الخميني اكثر فيقول :

« يا لوقاحة هؤلاء وصلفهم .. فباسم الامام الصادق (ع) يريدون القضاء على القرآن .. باسم الامام الصادق (ع) يريدون القضاء على آثاره الاسلامية الخالدة وتعاليمه الرشيدة » [٥٥] .

ويخاطب الشاه ورئيس الوزراء عباس هويدا وسائر الحكام فيقول لهم :

« ان عشرات الملايين من المواطنين الايرانيين يرفضون أهدافكم — أيها الحكام — ورغم ذلك ما زلتم تفرضون مشيئتكم عليهم بالقوة والاكراه ، فاسحبوا أيديكم عن القيادة والحكم فليس ضروريا (يا رئيس الوزراء) أن تكون مترئسا على الشعب ، فالشعب يرفضكم جميعا » [٥٦] .

(٥٤) المصدر نفسه
(٥٥) المصدر نفسه
(٥٦) المصدر نفسه

فالشعب اذن يريده الخميني أن يقول : لا للمبادىء الستة التي أعلنها الشاه وهويدا وهي : ١ ـ الغاء نظام الاقطاع وذلك لتنفيذ قانون الاصلاح الزراعي ٢ ـ تأميم الغابات والاحراج ٣ ـ بيع الاسهم للمعامل الحكومية لمنفعة الاصلاح الزراعي ٤ ـ اشراك العمال في أرباح المعامل ٥ ـ اصلاح قانون الانتخابات ٦ ـ تشكيل جيش للعلم والثقافة يشمل مكافحة الامية [٥٧] (*٣) ، ويريده أيضا أن لا يسلّم مقاديره الا الى رجال الدين أو كما يقول :

« أفنسكت ولا نحتج ! وهم يهجمون على المدرسة الفيضية فيكسرون أبوابها وينهبون أموال أبناء الشعب ورجال العلم (رجال الدين) بأمر منك (يخاطب رئيس الوزراء) وبعلم قائدك وسيدك (يقصد الشاه) !! حتى وكأنكم فتحتم فتحا مبينا أو فتحتم الهند ؟ » [٥٨] .

---

(٥٧) سليم واكيم ، ايران في الحضارة ص ص ١٣٢/١٣٣

(*٣) نلفت الى ان الاستاذ واكيم لم يأت في كتابه:ايران في الحضارة على معارضة رجال الدين لمقررات الشاه ورئيس الحكومة . وهذا ، في رأينا ، عيب كبير سيظل متحكما في كتابه ، ولا سيما أن ثورة الخميني قد برهنت أن «الحضارة» التي حققها الشاه لم تصمد أمام « أصولية » الآيات والمجتهدين .

(٥٨) دروس في الجهاد : ص ص ٣٤/٣٥

وسواء سمع الشاه وهويدا أم لم يسمعا ، فان الخميني وكل المعمَّمين قد صمموا على أن يكونوا للحكام « بالمرصاد » [٥٩] ولن يجعلوهم « يستمرون في تطبيق أحكام الكفر » [٦٠] في بلادهم « المسلمة العزيزة » [٦١] . وعلى الحكام أن يعلموا بأن رجال الدين سيقفون بوجههم حتى آخر رمق من حياتهم « دفاعا عن تعاليم القرآن وأحكام الاسلام ومصالح الشعب الحقة .. » [٦٢] وكذلك الاسلام بحكمه السياسي « يعلنها قتالا صارما ضد كل مخططاتهم المشبوهة ولا يقف مكتوف اليدين أمام أعمالهم الاجرامية » [٦٣] .

وفي الشهر الذي تلاه ، أي في ذي القعدة من العام نفسه ١٣٨٢ هجرية (١٩٦٢ م) بعث الخميني الى علماء مدينة طهران برقية جوابية يتحدث فيها عن « مجزرة قم » وما قبلها فيقول :

« ان الحملة المسعورة التي شنّها رجال الشرطة

---

(٥٩) المصدر نفسه

(٦٠) المصدر نفسه

(٦١) المصدر نفسه

(٦٢) المصدر نفسه

(٦٣) المصدر نفسه

والكـوماندوس ومـأمور الـدولة على الجامعة الدينية وهجومهم على العلماء وطلبة العلم تعيد الى أذهاننا تلك الصورة البشعة التي مرّت بتاريخ البشريـة أيام الغزو المغولي والتتاري • غير أن المغـول كانوا يغزون البلدان الاجنبية بالنسبة اليهم ، وان هؤلاء الجلاوزة يغزون أبناء شعبهم العزّل • بل ويعتدون على العلماء والطلبة العزّل في يوم شهادة الامام الصادق (ع) وهم يهتفون بحياة الشاه !»[٦٤] •

ويذهب الخميني في الكلام على الوقائع كيف حدثت فيقول :

« لقد هجموا على مركز الامام الصادق (ع) واعتدوا على علماء الاسلام وشباننا الاعزاء • وفي زهاء ساعة أو ساعتين أغاروا على غرف الطلبة وسرقوا أثاثهم وحطموا أبواب الغرف ونوافذها وأحرقـوا عمائم الطلاب وذرية رسول الله (ص) • وكان الطلبـة يفرّون الى كل جانب ويقذفون بأنفسهم من السطح هربا من قسوة رجال الامن والشرطة وهمجيتهم ، فتكسرت عظامهم وسالت دماؤهم» •

ويتابع قائلا :

---

(٦٤) دروس في الجهاد : ص ٣٩

« وفي تلك الاثناء قذف الجلاوزة أبناء الطلبـة من على السطوح الى الارض !! وكما روي لي ، ان « أنصار الشاه » أحرقوا الكتب العلميـة بما فيها القرآن الكريم ومزقوا قسطا وافرا منها أيضا »[٦٥] •

وكمـن يرسم لـوحة تجمع بـين الحاضر وجراحه والمستقبل وتطلعاته ، صوّر الخميني بالكلمات حالة الطلبة في « بلد العلم والتقوى »[٦٦] على أنها « أصبحت في خطر عظيم ••• »[٦٧] يجب ازالته قبل أن يزول الدين وأهله • فمن جهة « الشاهنشاهيون محدقـون بمنازل العلمـاء ومحاصرون بيوت مراجع التقليـد »[٦٨] ، ومن جهـة أخرى « فان مأموري السلطة يهددون المدارس الأخرى بمثل تلك الاعمال التي قاموا بها في المدرسة الفيضية»[٦٩] • حتى ان الخوف من رجال الامن بلغ حدا لدى بعض الطلبة دفعهم « لتغيير (زيهم) الـديني »[٧٠] وبخاصـة ان « الجلاوزة تلقوا التعليمات من « الشاه » بمنع رجال العلم

---

(٦٥) المصدر نفسه
(٦٦) المصدر نفسه
(٦٧) المصدر نفسه
(٦٨) المصدر نفسه
(٦٩) المصدر نفسه
(٧٠) المصدر نفسه

من ركوب وسائل النقل الحكومية والاهلية » [٧١] .

والاخطر من هذا كله ان كبار رجال الدولة ومأموريهم باتوا « ينتهزون الفرص للنيل من كرامة علماء الدين» [٧٢] بمختلف الوسائل والطرق . وقد توصلوا الى توزيع منشورات في الليل تسيء الى « كرامة الدين » [٧٣] و«هي موقعة بتواقيع مستعارة » [٧٤] .

أما « ليحيَ الشاه » فله عند الخميني غير مدلول وغير معنى . ذلك ان أصحاب هذا الشعار « يتطاولون على مقدسات الدين بكل جرأة ووقاحة » [٧٥]، ليصبح معناه « السرقة والتطاول على الاسلام ونهب حقوق المسلمين وهتك مراكز العلم والمعرفة » [٧٦] وايضا « توجيه الضربة القاضية لحكم الاسلام والقرآن وتحريف التعاليم الاسلامية ومحاولة محو آثارها » [٧٧] . ثم ان معناه عنده « ضرب علماء الدين ومحاولة القضاء على رسالة محمد (ص)» [٧٨] .

---

(٧١) المصدر نفسه
(٧٢) المصدر نفسه
(٧٣) المصدر نفسه
(٧٤) المصدر نفسه
(٧٥) المصدر نفسه
(٧٦) المصدر نفسه
(٧٧) المصدر نفسه
(٧٨) المصدر نفسه

وينتقل الخميني في برقيته هذه من الوصف الى استجواب رئيس الحكومة ، باسم الشعب الايراني ، في قضايا عديدة منها : الهجوم على سوق طهران واهانة العلماء والهجوم على سوق مدينة قم ونهب اموال المسلمين، والاعتداء على المدرسة الفيضية وضرب علماء الدين وقتلهم وحبس رجال الاسلام ، فضلا عن صرف المبالغ الطائلة من اموال الشعب على الاستفتاء وانتزاع موافقة جميع موظفي الدولة عليه [٧٩] .

ثم يأخذ الخميني على نفسه العهد بتغيير هذا السلوك الظالم و « الهمجي » [٨٠] و « القمعي » [٨١] فيقول :

« أنا الان مصمم ومستعد لاضع روحي على كفي وأنازل الجلادين والمأمورين وأقارع الظلم والظالمين . ولن أصبر يوما واحدا على أباطيلكم وأكاذيبكم ولن أركع أمام جبروتكم وطغيانكم الهمجي » [٨٢] .

أضاف :

« أنا بعون الله وارادته سأبقى اقول الحق كل الحق

---

(٧٩) المصدر نفسه
(٨٠) المصدر نفسه
(٨١) المصدر نفسه
(٨٢) المصدر نفسه

وبأعلى صوتي حتى الرمق الاخير ، وسوف أفضح كل ما تتخذونه ضد مصالح الوطن والشعب في كل مناسبة، ما دام القلب ينبض واللسان ينطق واليد قادرة على الكتابة » .

وقال أيضا :

« ان عيون المسلمين في هذا اليوم تبكي دنياها ودينها .. وان حكومتكم المنهارة ـ رغم كل ادعاءاتكم المزيفة وتبجحاتكم السخيفة ـ أصبحت في خطر وآن الاوان لسقوط سلطتكم الباغية .. » (٨٣) .

بعد هذا العرض الموجز لاسباب كل من الثورتين : « الفارعاملية » و« الخمينية » يمكننا الحكم بأن الواحدة منهما ليست متشابهة ولا متطابقة مع الثانية بل متباينة ومتفاوتة . والعلة أن الظلم كما صوره « الفارعاملي » لايداني الظلم الذي عبر عنه الخميني . فهنا الوطن ، بعض الوطن ، والمقاومة الفلسطينية في خطر . وهناك الدين والشريعة ورجال الدين في خطر . وعلى كل الاحوال فان المبالغة تسود خطب كليهما ونداءاتهما ، لان « الدعاوة » لكي تذكي الحماسة الوطنية ، حسب تعبير أدولف هتلر ، ينبغي لها أن تكون في مستوى العامة من الشعب لا الخاصة .

(٨٣) المصدر نفسه

و« عندما تناضل الشعوب من أجل كيانها لا يبقى محل للاعتبارات الانسانية والمالية » (٨٤) . والاصح ان الدعاوة الى القتال أو التمرد « كلما كان عدد الذين توجه اليهم كبيرا وجب خفض مستواها الفكري ، ليتسنى للجميع ان يفهموا ما يقال لهم وان يهضموا ما تريد الدعاوة ان يهضموه » (٨٥) . وقد أجاد في هذا الفارعاملي كما أجاد الخميني وبالمقدار عينه .

ولكن الدعاوة المتماثلة في ظل اختلاف الاسباب لا تؤتي الثمار المتماثلة ، فكيف اذا ما اختلفت الامكانات والطاقات وهي العنصر الاساسي لكل حركة تغييرية ؟

في الامكانات

لا نستطيع البحث في امكانات الثورتين والمقارنة بينها الا اذا أحطنا بالجوانب الطبيعية والسكانية والفكرية لكل من ايران ولبنان . والواقع ان هذه الجوانب هي أساس موضوعنا الان بكليته ، وأساس البحث المقارن . وليست غايتنا ايقاع شيعة لبنان في اليأس ، ولا هي مناقضتهم وهدم رجائهم ، بل البحث العلمي المجرد . وشعارنا المثل القائل : « رحم الله امرءا عرف حده فوقف عنده » .

(٨٤) كفاحي : ص ٩٨
(٨٥) المصدر نفسه

اولا : امكانات شيعة لبنان

لا شك أن الطائفة الشيعية في لبنان هي جزء لا يتجزأ من شيعة العراق وايران ، ان في السلم وان في الحرب • وربما لا ثورة شيعية في لبنان اذا لم تكن اجواء « الاخوان » العراقيين والايرانيين مؤاتية ، فما بالك اذا كانت في غليان أو كان الحكم هناك وهنالك دينيا واماميا ؟! والصحيح أيضا أن لكل طائفة من الطوائف اللبنانية لا سيما منها الموارنة والسنّة والشيعة روابط قديمة متجددة مع الخارج، وهي تكاد أن تكون ثابتة ومتساوية الى حد بعيد • فالرابط بين الشيعة وايران مثل الرابط بين الموارنة والبابوية [٨٦] والرابط بين السنة والعواصم العربية وبخاصة مكة ودمشق والقاهرة • وتشد الاماكن المقدسة في مكة والنجف وخراسان وروما وغيرها من المدن ، الشرقية والغربية اللبنانيين ، كل طائفة في اتجاه ، الامر الذي فرض وجود سياسات ذات ايديولوجيات الى جانب المصالح الطائفية ، وقد انتشرت آراء مختلفة حول هوية لبنان وما يجب ان

---

(٨٦) الدكتور البرت حوراني : من دراسة له عنوانها : « المجتمع السياسي في لبنان » قدمها في ندوة « مركز الدراسات اللبنانية » التي عقدت في اكسفورد : ١٩/٢٠/ ٢١/١٠/١٩٨٦ ، ترجمها غسان مكحل ونشرتها «السفير» ٢٧ ، ٢٨ /١٠/١٩٨٦

يكون عليه • وكانت النظرة المارونية انه بلد مسيحي مرتبط بالعالم المسيحي • ونظرة سنّية للبنان عربي • وكانت نظرتا الدروز والشيعة ،أبطأ في الظهور،ولكن يمكن رسمهما من خلال تقليد طويل من التفكير [٨٧] • على ان للفلسطينيين آراءهم وأفكارهم الخاصة ، « كونهم ليسوا جزءا من المجتمع السياسي اللبناني ، وهم يتطلعون الى وحدة وطنية فلسطينية وسط نوع مختلف من العالم العربي »[٨٨][*٤] •

وكما البراءات والاجازات التي صدرت عن مراجع دينية : عثمانية وحجازية وعراقية ومصرية وايرانية في تأسيس مدارس وجمعيات وجوامع سنية وشيعية في لبنان، كذلك براءة البابا غريغوريوس الثالث عشر في تأسيس المدرسة المارونية في روما ومما جاء فيها :

« ان الموارنة الذين يعيشون منذ اجيال في جبال ، بين غير المؤمنين والهراطقة يحافظون ، بطاعة وتقوى ، على الايمان الكاثوليكي ضمن الكنيسة الرومانية • ومن عادتهم في بعض السنوات زيارة مدافن الرسل والاعتاب الرسولية

---

(٨٧) المصدر نفسه

(٨٨) المصدر نفسه

(*٤) في موضوع « تناقضات الدولة العربية القطرية » كتب الدكتور بهجت قرني دراسة قيّمة ومفيدة • لمن يرغب الاطلاع عليها يراجع « المستقبل العربي » العدد (١٠٥) ١١/ ١٩٨٧ ، من ص ٣١ الى ص ٥١

المقدسة للاعتراف بها وتكريمها • ولهذا أعددنا منذ زمن قريب للوافدين الى رومية من هـذه الطائفة مكانـا يستضيفهم • لاننا لا نريد ان يتضاءل تعلق هذه الطائفة بالكرسي الرسولي ، ولا أن ييبس زرع ايمان حافظوا عليه بجهد عظيم » •

اضافت البراءة البابوية :

« وفي سبيل ذلك حررنا كنيسة مار يوحنا فيكوشيا في تريفو برومية ، حررناها من واجباتها الرعائية حتى نجعل منها ومن البنايات والعقارات التابعة لها بيتا يستقبل سواح الموارنة الفقراء »[٨٩] •

ولئلا تقتصر هذه اللفتة البابوية على انشاء بيت للضيافة يستقبل السواح الموارنة ، و « ان كان انشاؤه عملا خيرا وحسنا ومفيدا للطائفة المارونية »[٩٠] تم تحويل « البيت الماروني » هذا الى مدرسة « تستقبل اولاد الطائفة المارونية، الذين هم اهل لأن يتثقفوا بالعلوم الصالحة »[٩١] • والغاية منها ايضا « انه لما كانت تلك الانحاء الخاضعة للنير التركي الظالم الثقيل لا يوجد فيها امكانية الحصول على تعليم

---

(٨٩) براءة البابا غريغوريوس الثالث عشر في تأسيس المدرسة المارونية ، كما ترجمها الاب فيليب سمراني ، المنارة ، السنة ٢٥ ، العددان الاول والثاني ٨٤ ص ٥٣

(٩٠) المنارة : المصدر نفسه

(٩١) المنارة ص ص ٥٣/٥٤

العلوم الصالحة ، بحيث ان العديد من الذين يخالفون الايمان الكاثوليكي يبقون في الظلام الدائم ، كما يبقى البسطاء والاميون عرضة لترك الحقيقة التي تلقنوها • لذلك لنا الامل الوطيد بأن تلاميذ هذه المدرسة ، على مدى الايام المستقبلية ، بعد امتلائهم من عبير التقوى ، والديانة الحقيقية الصادر من شجر سرو صهيون ،وتعاليم الكنيسة الرومانية المقدسة ، رأس كل الكنائس ، لنا الامل الوطيد بأن يوزعوه على ارز لبنان وعلى طائفتهم،عاملين في خدمة الرب ومجددين في بلدانهم الايمان الضعيف وساندينهم• وهكذا يتحول عمل مادي لا يفيد الا القليلين من زائري رومية ، الى عمل روحي يكون لفائدة الطائفة كلها ولخلاصها »[٩٢] •

وفعلا صارت هذه « المدرسة المارونية » الرومانية ، التي اقفلت نهائيا في مطلع الحرب العالمية الثانية[٩٣] ، مدارس ومعاهد وكليات مارونية لبنانية من الجبل والشوف والجنوب والبقاع والشمال ، دمرت بعضها ، يا للاسف ، الحروب والفتن الطائفية الراهنة[٩٤] •

---

(٩٢) المصدر نفسه

(٩٣) الاب سامي خوري اليسوعي : اليسوعيون والمدرسة المارونية ، المنارة ، العدد المذكور سابقا ، ص ٨٩

(٩٤) مصطفى جحا : « رسالتي الى المسيحيين » الطبعة الثانية ١٩٨٦

قبل تأسيس « المدرسة المارونية » وتحديدا في بداية القرن السادس عشر ، قرر الشاه اسماعيل الصفوي الاول اعلان التشيع المذهب الرسمي في ايران • ولما لم يكن هناك سوى القليل من الفقهاء الشيعة (•••) استدعى فقهاء من العراق ولبنان ، فهاجرت عائلات فقهاءمهمين من لبنان الى ايران ، وساعد هؤلاء في اقامة نظام قضائي ونظام تعليم على المذهب الشيعي [٩٥] • وتعاقب على سدة المرجعية في ايران وحيدر أباد علماء عامليون هم :

- الشيخ علي عبد العالي ، المعروف باسم المحقق الكركي • وهو اول مرجع عاملي دعي الى ايران ليتبوأ المرجعية فيها • ولد في كرك نوح قرب زحلة في البقاع ، توفي سنة ٩٣٧ هـ •
- السيد حسين ابو الحسن بن السيد محمد ، صاحب « المدارك » • تولى مشيخة الاسلام في خراسان بمشهد الرضا •
- الشيخ محمد بن الحسن المعروف باسم « الحر العاملي » ، خلف صاحب « المدارك » في خراسان • له « وسائل الشيعة » و « أمل الآمل في علماء جبل عامل »، واليه انتسب آل الحر في جبع من جبل عامل •

(٩٥) الدكتور البرت حوراني : المصدر السابق •

- الشيخ حسين عبد الصمد ابو الشيخ البهائي • تولى مشيخة الاسلام في (هرات) من خراسان •
- الشيخ محمد بن حسين عبد الصمد ، المعروف باسم « بهاء الدين العاملي » •
- الشيخ علي بن صبح العاملي • تولى مشيخة الاسلام في يزد من ايران •
- الميرزا حبيب الله العاملي • تولى مشيخة الاسلام في اصفهان •
- السيد صدر الدين شرف الدين المعروف باسم السيد صدر الدين العاملي • تولى الرئاسة العامة في ايران •وهو ابو المرجع الاعلى في عصره السيد اسماعيل ، الذي مر ذكره في الفصل الثالث •
- الميرزا علي رضا : تولى مشيخة الاسلام في اصفهان بعد الميرزا حبيب •
- السيد محمد مهدي : كان عميد العلماء في اصفهان بعد اخيه الميرزا علي رضا •
- الميرزا محمد معصوم : تولى بعد ابيه السيد مشيخة الاسلام في اصفهان •
- الشيخ محمد الحرفوشي : تقلد رئاسة العلماء في ايران •
- السيد جمال الدين الموسوي العاملي الجبعي ، هو

الذي تحدر منه آل ابو الحسن ثم آل نور الديـن ثـم آل شرف الدين ثم آل الصدر • تولى المرجعية العامة في حيدر أباد •

● الشيخ محمد خاتون : المعروف باسم ابن خاتون • هو ابن اخت الشيخ البهائي • تولى وزارة السلطان عبدالله قطب شاه في حيدر أباد الدكن [٩٦] •

وكذلك بالنسبة الى علاقة السنّة بالعالم الاسلامي• وهي أقدم تاريخيا من علاقة الشيعة بايران وعلاقةالموارنة بروما • وبما ان المجال هنا يضيق بذكر نماذج عنها نكتفي بذكر « جمعية المقاصد الاسلامية » أعظم المؤسسات التعليمية السنية ، وهي تغذيها المملكة العربية السعودية •

وعلى الرغم من ان شيعة لبنان أمدّت ايران بالفقهاء، فقد ظلت هذه الطائفة ذات العدد القليل والارضية الصغيرة والامكانات المادية المحدودة دون مستوى أحلامها • ومرد ذلك الى التطورات التي حدثت في المنطقة السورية فكانت قاسية على الشيعة وسائر الفرق المنبثقة منها كالاسماعيليين والدروز والعلويين •

---

(٩٦) جعفر شرف الدين : جذور الثورة الاسلامية ص ص ٣٣/٣٤

لقد كانت سوريا في معظم اجزائها الجغرافية ، خلال القرنين العاشر والحادي عشر (٩٠٩ ــ ١١٧١ م) في عهدة الدولة الفاطمية التي قامت اول أمرها في تونس ثم اخضعت الشمال الافريقي كله ثم مصر حيث انشأ القائد جوهر ، وفي عهد المعز لدين الله ، مدينة القاهرة التي غدت عاصمة الفاطميين ، فكان من الطبيعي ان ينتشر التشيع بكثرة في سوريا « وربما كانت غالبية السكان من الشيعة » [٩٧] ، وبخاصة في المدن والسواحل ، بينما ظهرت في الجبال « تشكيلة من مختلف الفرق الشيعية ، من بينها احدى الفرق المتميزة ذات الاهمية : الدروز » [٩٨] ، وهذه برزت « كجماعة منفصلة » [٩٩] عقيدة وسياسة ، وعرفت بـ « الباطنية » كونها تنطلق « من اصطلاح النفس الجزئية لمعالجة قضية البشر كمجموعة أفراد يشكلون جماعات متفاوتة ويسرون بمراحل مختلفة » [١٠٠] • وهؤلاء الباطنيون هم أصحاب « فلسفة تاريخ مميزة تنسجم مع بنائهم الفلسفي وتوجهاتهم العملية ، وتحاول تقويم مراحل الماضي ، وموقعهم في الحاضر : الموحّدون وغير الموحدين،

---

(٩٧) الدكتور البرت حوراني . المصدر نفسه
(٩٨) المصدر نفسه
(٩٩) المصدر نفسه
(١٠٠) سامي العياش : الاسماعيليون في المرحلة القرمطية، ص ١٥٣

ومهماتهم في الظرف الذي يعيشون ، كما ينطلقون الى أهداف مستقبلية يسعون الى انجازها »[١٠١] .

واذ بدأت الدولة الفاطمية تتلاشى جاء الصليبيون من أوروبا الغربية ، فأقاموا « دويلات كاثوليكية أوروبية في المنطقة (السورية) مثل مملكة القدس ودوقية طرابلس » [١٠٢] ، ولكن هذه الممالك لم تعش طويلا . غير انها استطاعت أن تترك «تأثيرا كبيرا على الكنيسة المارونية التي استمرت في الوجود في شمال لبنان بعد مجيء الاسلام بنظامه وتقاليده »[١٠٣] ، أي منذ البطريرك يوحنا مارون « أول البطاركة الموارنة على كرسي انطاكية»[١٠٤]، و« الذي افتتح عصره بربط السلطة الزمنية ربطا وثيقا بالسلطة الروحية »[١٠٥] . ومن تأثير الصليبيين في الموارنة، وخصوصا موارنة الساحل ، أنه « نتج ميل هؤلاء ومعهم الاكليروس

(١٠١) المصدر نفسه

(١٠٢) الدكتور البرت حوراني : المصدر نفسه .

(١٠٣) المصدر نفسه

(١٠٤) الدكتور الياس القطار : المقدمون والبطاركة الموارنة من القرن السابع الى القرن السابع عشر ، المنارة ، السنة ٢٦ ، العددان الاول والثاني ١٩٨٥ ص ١٧٩

(١٠٥) المصدر نفسه : ص ١٨٢

الماروني للدخول في طاعة روما والاتحاد معها » [١٠٦] بالرغم من معارضة أبناء العشائر في جبة بشراي ومرتفعات بلاد جبيل والبترون . و« بحلول العام ١٢١٥ م كانت العلاقة (بين الموارنة والبابوية) قد أصبحت قوية الى درجة أن البطريرك الماروني (إرميا العمشيتي ١٢٠٠ ـ ١٢٣٠ م) شارك في المجلس الاكبر للكنيسة الكاثوليكية في روما »[١٠٧] .

ثم انهزم الصليبيون على يد صلاح الدين الايوبي (يوسف بن أيوب) الذي كانت انطلاقته بعزل الخليفة الفاطمي سنة ١١٧٠ م. وانتصر على الزنكيين قرب حمص واستولى على سورية والموصل ، وبعدهما على طبرية ، وهناك كانت معركة حطين سنة ١١٨٧ م. التي أنهت الوجود الصليبي السياسي والعسكري في المنطقة ، وقد تم أسْر ملك القدس : غي دي لوزينيان وفتح بيت المقدس .

لقد أصاب هذا الانتصار الاسلامي السنّي الكاسح الشيعة أيضا في الصميم . و« نشأت دولة قوية تضم كلا

(١٠٦) الدكتور الياس القطار : المصدر نفسه نقلا عن الدكتور كمال الصليبي في مقالات له صادرة في اللغة الانكليزية .

(١٠٧) الدكتور البرت حوراني : المصدر نفسه

من سوريا ومصر ، حكمتها سلالتان متتابعتان :الايوبيون
والمماليك ، فانتشرت المذاهب السنّية في المدن الكبرى
ومراكز القوة والثروة : حلب ودمشق وطرابلس »[١٠٨]
مما أدى الى إضعاف الوجود الشيعي وحصره في الجبال
من جهة ، ومنع تعليم الفقه الشيعي أو الكف عن دعمه من
جهة أخرى • ولا يزال الشيعة يحتفظون بالعداء الشديد
لشيخ الاسلام : ابن تيمية الذي قيل انه أفتى بـ « قتل
الشيعة »(؟) فمنهم من دخل في السنّة ، ومنهم من تنصّر
أو هاجر تاركا طرابلس والكورة والبترون وجبيل
وكسروان الى الجنوب نحو جبل عامل ونواحي بعلبك
والهرمل •

واستمرت الطائفة الشيعية في لبنان تعاني الاضطهاد
والقمع والملاحقة طيلة ثمانية قرون ونيف • فكان صمودها
في جبل عامل وبعلبك ـ الهرمل عملا بطوليا لا يسع المؤرخ
الموضوعي الا أن يعجب به ويقدره حق قدره • ذلك ان
تمسك هذه الطائفة بأرضها ومعتقدها هو ذاتي فحسب ،
اذ ان المساعدات التي كان يفترض أن تأتيها من الدولة
الايرانية والعراق الشيعي بقيت ضئيلة بسبب الحصار
الشديد الذي استمرت تطوقها به الحكومات السنّية منذ أوائل

(١٠٨) المصدر نفسه

القرن الثاني عشر وحتى الانتداب الفرنسي • ولا يستغرب
أحد مقولة السيد هاشم محسن الامين : « وكلمة أخيرة
أخص بها الشيعة وحدهم من بين الداعين الى الدولة
الاسلامية • وهي تذكيرهم بأن لبنان كان أول دولة في
التاريخ تعترف رسميا بالمذهب الشيعي »[١٠٩] •

من المؤكد أن هذا الواقع السياسي المقهور والمظلوم،
الذي انتهت اليه الطائفة الشيعية في لبنان ، قد طبع حياة
الطائفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بطابعه الدرامي،
فكادت أن تكون غريبة عن المجتمع اللبناني لولا بعض
الشخصيات السياسية والادبية والفكرية العاملية والبعلبكية
التي ناضلت في سبيل دمج المناطق الشيعية في لبنان ـ
الوطن ، كما هو ظاهر في جليل آثارها ومواقفها •

بهذه الامكانات حاول الفارعاملي أن يثور على
الحكومة والحكام من أجل التغيير ، وقد آمن بأن
« المقاومة الفلسطينية » هي الحليف الطبيعي له ولثورته •
الا ان التوازن الطائفي في الداخل من جهة ، والظروف
الاقليمية والدولية من جهة أخرى ، حالت دون ذلك ، فكان
أن غرق لبنان في بحر من الدم لم تتمكن الجهود المخلصة
من تجفيفه ووضع حد له الى الآن •

(١٠٩) هاشم محسن الامين : السفير ٢٧/١٠/١٩٨٦

ومع « الحالة الاسلامية » الناشئة عن الاحداث في ايران والمنطقة عاد شيعة لبنان ليرتبطوا من جديد بالجمهورية الاسلامية الايرانية وبشكل أوثق ، وحسبما أعلن السيد محمد حسين فضل الله في معرض تعليقه على أحداث مكة بعد رجوعه من الحج اذ قال :

« اننا عندما أيدنا ايران لم نؤيدها بصفتها الفارسية، ولو انها انطلقت بصفتها الفارسية لرفضناها كما رفضنا الشاه ، ولو انها انطلقت اقليميا لرفضناها أيضا ، لكننا أيدنا ايران لانها حملت لواء الاسلام في قلبها وحركتها وفي كل نشاطها السياسي ، وهي تحاصر الآن من دول العالم لانهم يرون فيها دولة تتجه الى أن تكون قوة عظمى على أساس الاسلام ولهذا تحاصر من خلال الاسلام» (١١٠) .

وكانت « ايرانية » نائب رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين وهو أيضا كان في مكة ، واضحة ومكشوفة وان يكن قد حاول « التوفيق » بين الفريق الايراني والفريق السعودي حيث قال :

« اننا نعبر عن عميق الالم والاسى والتفجع ونستنكر بكل ألم أيضا من حيث المبدأ والشكل ما حدث في مكة في موسم الحج ، وننبه في الوقت نفسه الى خطورة

(١١٠) محمد حسين فضل الله : النهار ١٥/٨/١٩٨٧

التفاعلات والآثار والانطباعات التي يولدها هذا الحدث بالنسبة الى الوضع الاسلامي العام » .

أضاف :

« نقطع بأن الحجاج الايرانيين لم يكونوا في صدد الاساءة بأي شكل من الاشكال الى حرمة المسجد الحرام أو الى حجاج بيت الله الحرام ، وكانوا يقومون بنشاط مشروع من الناحية القانونية كما كان يحدث في كل سنة (...) » .

وقال أيضا :

« وعلى مستوى الشكل الذي هوجم به الحجاج وهذا الحجم الكبير في الاصابات يجعل من الصعب على الانسان الذي يحاكم الوقائع التصديق والاقتناع بأن هذا الحجم من الاصابات حدث بمجرد الشجار بالايدي أو الرفس أو الرهس . لا استطيع أن أكون لنفسي اطلاقا هذه القناعة وهذا العدد يحكم على عقولنا بأن هناك وسائل أخرى غير الرهس والرفس والشجار بالايدي استعملت في هذا العمل » (١١١) (*٥) .

تحدثنا عن امكانات الثورة الفارعاملية — وبالاحرى

(١١١) محمد مهدي شمس الدين : النهار ١٥/٨/١٩٨٧

(*٥) لا يمكننا هنا الا ان نذكر بالقرارات التي اتخذتها قمة عمان العربية ، أو « قمة الملك حسين » كما دعيت ، والتي استمرت من ٨/١١/١٩٨٧ الى ١١/١١/١٩٨٧ ، وقد أكد =

امكانات شيعة لبنان ــ وبيّنّا حدودها وأشكالها التاريخية منها والحالية ، فظهر لنا أن شيعة لبنان هي احدى الطوائف الثلاث الكبرى وليست الطائفة الاكبر والاقوى . وقد عجزت عن متابعة ثورتها لاسباب عديدة أهمها التوازن الطائفي في الداخل ، مما برر المداخلات الاقليمية والدولية التي كرست منظومة « لا غالب ولا مغلوب » من جهة وعقّدت الامور الى أن بلغت الحد الذي يقف عنده اللبنانيون اليوم بكل طوائفهم وأحزابهم والفلسطينيون بكل فِرقهم ومنظماتهم من جهة أخرى ، ولا يمكننا القول ان المخطئين والمجرمين موجودون في معسكر واحد دون سواه . فماذا عن امكانات الثورة الخمينية وكيف تغلبت على أقوى ملوك الشرق وأضخم جيوش المنطقة الاسلامية ؟

ثانيا : امكانات شيعة ايران

ان أحدا من المراقبين أو خبراء السياسة والعسكريتاريا

= المؤتمرون تضامنهم مع العراق « في دفاعه المشروع عن أرضه وسيادته » ، ومع المملكة العربية السعودية « حيال احداث الشغب والفتنة التي قام بها الايرانيون في موسم الحج » ، وأيضا مع الكويت ضد « الاعتداءات الايرانية المتكررة » عليها (انظر البيان الختامي الصادر عن قمة عمان ، في صحف ١٢/١١/١٩٨٧) .

فكان من الطبيعي أن تفجر هذه القرارات التناقضات في لبنان حتى في الحزب الواحد والجماعة الواحدة .

لم يتوقع للشاه الذي كانت لديه أغنى الموارد وبإمرته أحدث الجيوش أن يسقطه من « قمة هذا العالم » [112] ، كما كان يشعر ، الى قبر برسم الإعارة والتأجير ، رجل دين رأسماله: عمامة وجبّة وكتاب وحنجرة و « كليشيه » صالحة لكل زمان ومكان : « قال الامام الصادق عن أبيه عن جده رسول الله عليهم جميعا السلام » .

وان أحدا أيضا لم يحاول أن يدرك لماذا قال الشاه لأحد الملوك الذي كان ينزل ضيفا على ايران « نحن السادة الآن ، وسادتنا السابقون هم عبيدنا الآن . كل يوم يسلكون طريقهم الى أبوابنا يسألوننا معروفا . يسألوننا ما هو السبيل ليكونوا في خدمتنا ؟ هل نريد سلاحا ؟ هل نريد محطات قوى نووية ؟ كل ما علينا هو أن نفصح عن رغبتنا ، وسرعان ما يسرعون لتلبيتها » [113] .

ولكن جميع الذين سمعوا أو قرأوا هذه العبارات الشاهنشاهية ، ومنهم محمد حسنين هيكل ، اعتبروها « كلمات مغرورة »[114] و « متوقّعة من رجل ضعيف يقف على رأس أمة مضطهَدة ويتصور نفسه حرا يتحدث بالنيابة عن أمة حرة أيضا »[115] .

---

(١١٢) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ص ١٢٩
(١١٣) المصدر نفسه
(١١٤) المصدر نفسه
(١١٥) المصدر نفسه

أين الخطأ الذي وقع فيه الشاه في ما قاله لملك «قريب لأسرة بهلوي »[116] في جلسة مكاشفة ومراجعة ؟

هل نقول ان الشاه لم يقرأ التاريخ جيدا ؟!

لقد استعبد بعض الغرب كل الشرق ، والآن بعض الغرب يكذب على كل الشرق ، لمقايضة بترول الشرق وثرواته بسلاح الغرب ونيرانه • ففي كل يوم يهددوننا بالحرب النووية ، ونهددهم نحن بالاسلام • في حين أن الشاه لم يفعل لا هذا ولا ذاك • الملك الغني والمثقف بحث في التاريخ عن الأصالة الفارسية ، عن مجد قورش الاول مؤسس السلالة الأخمينية ، وقورش الثاني الذي وصلت جيوشه الى ميديا وآسيا وبابل • وبحث كذلك عن عظام داريوس (دارا) المتوفى في مصر بعد ما هزمه اليونان في ماراثون (Marathon) قرب اثينا • وقد عُرف عن هذا (دارا) انه احتل بابل والسوس (Suze) في خوزستان وميديا ونظّم شؤون الدولة وأخضع تراقيا (Thracia) ومقدونيا (Macedonia) في البلقان •

لماذا يفكر الشاه في التاريخ ؟

ان بلادا مثل ايران ينبغي لها أن تحفظ عن ظهر قلب تاريخها العريق والقديم • فلماذا حرّق هذا التاريخ وهذا التراث ؟

---

(116) المصدر نفسه •

كل شيء جميل محتاج الى قوة تحميه وتصونه من مطارق المتمردين والعابثين •

وكل شيء جميل يحتاج أيضا الى من يعشقه ويتعبّد له • فالزهرة مثلا في بستان أو حديقة مهذّبة ومسيّجة ليست مثلها زهرة في مكان مغطى بالاشواك والحشائش الضارة • والزهرة أيضا على صدر البطل لا تشبهها زهرة على صدر الخائن أو الجبان ولو كانتا من فصيلة واحدة •

بهذا المفهوم قرأ الشاه تاريخ ايران •• فأراد أن يبني دولة نموذجية لا تعتدي على أحد ولا تقبل أن يقاومها أحد •

« وكان الشاه يرى أن الخليج في طريقه لان يصبح أهم منطقة اقتصادية واستراتيجية في العالم »[117] •

أين وجه العيب في هذا التصميم والتخطيط ؟

اذا أصبح الخليج كما أراد له الشاه ، فان اوضاع الشرق الاوسط كلها تتحسن ، ويعم الازدهار والتطور شعوب المشرق والمغرب •

وفي عام ١٩٧٥ اعلن الشاه : « ان قوّتنا في الخليج الفارسي الآن تفوق قوة بريطانيا التي كانت هنا في أي وقت عشر مرات بل عشرين مرة »[118] •

---

(117) المصدر نفسه ص ١٢٤

(118) المصدر نفسه

أيضا أين وجه العيب في هذا القول ؟

نريد للخليج قوة أميركية وفرنسية وانكليزية وسوفياتية ، ولكننا لا نريدها ايرانية فارسية • ومنا أيضا من لا يريدها عربية قومية •

هل ما زال الاستاذ هيكل راضيا عن « مدافع آية الله » أم أن ما كُتب قد كُتب ؟

يقول هيكل مفسرا كلمات الشاه كما يلي :

« كان هذا التعليق تعبيرا نموذجيا عن جنون العظمة الذي بدأ الشاه يعاني منه بشكل واضح عندما استقر دوره كحاكم مطلق لبلد في موعد مع المقادير • لذا كان لا بد أن يصبح كل شيء مبالغا فيه حتى يجذب أنظار العالم • وكانت حفلة التتويج هي أول مناسبة ترمز لهذه العظمة الجديدة • كانت زوجة الشاه الثانية ثريا لم تنجب ، فطلّقها عام ١٩٥٨ • وفي ديسمبر (كانون الاول) تزوج من فرح ديبا التي أنجبت له ابنا ووريثا عام ١٩٦١ • والآن آن الأوان لأن يقام ذلك الاحتفال الذي تأخر طويلا » [١١٩] •

يقول هيكل هذا ، وكأنه من المفترض أن يبقى الشاه بدون ضنى •• وبدون وريث ؟!

---

(١١٩) المصدر نفسه

انها الغريزة ان لم نقل الطبيعة والعقل • الحيوانات تتناسل والنباتات تتكاثر والحشرات تتوالد • أي ان كل ذي حياة يستولد ليستمر • وعلى قول المثل : « من خلّف ما مات » • والانسان ، سيد الطبيعة ، عندما يفكر في من يخلفه فانما يفكر في بقائه ، فضلا عن الهدف الآخر : المتعة واللذة والسعادة • وفي مختلف الاحوال فان السعادة في التكامل •• ومتى فقدت أياً من عناصرها كانت في اضطراب وقلق وتشنج • ولا أظن الاستاذ هيكل الا من القائلين بضرورة التواصل البشري وبأهمية العدد ، الذي تقلص في البلدان الاوروبية بتدبير « حضاري » حتى غدا همّاً من هموم أوروبا بل همّها الاكبر ، وتحت وطأته تستقدم الشباب من كل مكان لكي يعملوا في المصانع والمؤسسات والبيوت ، ويتزوجوا من البنات الاوروبيات بغية التكاثر وتحقيق المتعة لهن والاستقرار • واذ اختار معظم المسيحيين الشرقيين لانفسهم ما اختارته أوروبا منهجا ونمط حياة ، وعلى الاخص في ما يتعلق بالنسل وعدد أفراد الاسرة ، فهم اليوم ، ولا سيما في لبنان ، يشكون القلّة بعد أن قالوا بتفوق النخبة والنوعية ، فكنائسهم بدأت تشعر بالحاجة الى الكهنة ، وكذلك اديارهم ، بينما أسواقهم ومؤسساتهم وبيوتهم تغص بالمستخدَمين

والمستخدمات من الفيليبين وتايلند وسيريلانكا والهند وسواها من بلدان الشرق الاقصى .

ويأخذ الاستاذ هيكل على الشاه « جنونه بالاحتفالات » [١٢٠] فيذكر احتفال ٢٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٧ في قصر الجوليستيان بمناسبة عيد ميلاده الثامن والاربعين ، واحتفال عام ١٩٧١ لمرور ثلاثين عاما على تتويجه ، ثم احتفال اكتوبر ١٩٧٢ الذي خُصص لانقضاء ألفين وخمسمائة عام على قيام الحكم الملكي في فارس .

ولكن الشاه في عيد ميلاده الثامن والاربعين ، أي في ٢٦ أكتوبر (تشرين الاول) قال :

« لقد توّجتُ نفسي بنفسي لان الشعب الايراني يعيش الآن في رخاء وطمأنينة . لقد قطعتُ على نفسي عهدا منذ زمن طويل ألاّ أكون ملكاً على شعب من الشحّاذين أو المضطهَدين ، والآن وقد غمرت السعادة الجميع، اذنتُ باقامة حفل التتويج » [١٢١] .

طبعا ، ليس كل الشعب الايراني في رخاء وسعادة كما يقول الشاه ، ولكن جزءاً غير قليل من هذا الشعب بدأ يأخذ طريقه الى الرخاء والطمأنينة . وكان من الممكن أن يتناقص عدد الفقراء والمعدمين والبائسين لو تسنّى

---

(١٢٠) المصدر نفسه ص ١٢٠
(١٢١) المصدر نفسه ص ١٢١

للشاه أن ينفذ برامجه البورجوازية الاصلاحية التي دعا اليها .

ليست غاية الشاه التغييرات المادية والاجتماعية فحسب ، بل « التغييرات النفسية » [١٢٢] أيضا ، وهذه تعزز عند الشعب الايراني «الثقة في النفس والاعتزاز» [١٢٣]، فهو (الشاه) قضى أو كاد أن يقضي على «الاقطاع» [١٢٤]، وحوّل ايران « من بلد غارق في القرون الوسطى الى بلد حديث خليق بالقرن العشرين » [١٢٥] .

لا بد لنا من استعراض بعض انجازات هذا الشاه « المغرور » و « المصاب بجنون العظمة » كما يصفه هيكل، وذلك إنصافا لمن خلعته العمائم والسياسات الغربية والشرقية الحاقدة والمتهوّرة .

يقول سليم واكيم :

« عكف الشاهنشاه محمد رضا بهلوي بعد أن استتبت له الامور في الداخل (في الحقيقة لم تستتب الامور للشاه ولكنه كان رجل التحدي) على تعمير البلاد، وتعميم الاصلاح الزراعي بتوزيع الاراضي ، وتطوير الصناعة والعمران ، وتوسيع شبكات الطرق والسكك الحديدية،

---

(١٢٢) ايران في الحضارة ص ١٣٠
(١٢٣) المصدر نفسه
(١٢٤) المصدر نفسه
(١٢٥) المصدر نفسه

وتنظيم الطيران المدني والموانىء والملاحة والمعارف والصحة والرياضة والجيش ، ورعاية الاعمال الخيرية ، وتوطيد العدالة الاجتماعية ، ومنح المرأة حقوقها المدنية » .

أضاف :

« وبنتيجة « الثورة البيضاء » والاصلاحات التي قام بها الشاه ، ارتفعت محاصيل ايران الزراعية على اختلاف انواعها . وعلى سبيل المثال ، ضرب محصول الارزّ في موسم ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ رقما قياسيا ، فبلغ ٧٥٠ ألف طن ، كما ازدهرت محاصيل القمح والقطن والشمندر السكري ، والشاي ، والتبغ ، وغيرها من المحاصيل والفاكهة »[١٢٦] .

وبسبب استصلاح الاراضي « بلغت المساحة المستخدمة للزراعة في البلاد ٢٠،٥٠٠،٠٠٠ هكتار أي ١٣،٥٣٪ من مجموع مساحة البلاد »[١٢٧] ، وذلك « بفضل القنوات والسدود والآبار التي حققتها مشاريع الشاه الانسانية »[١٢٨] اضافة الى « التطور الذي أصاب حقل الآليات الزراعية والتحسينات التي طرأت عليه من الناحية التقنية ، بفضل مخططات التنمية التي وضعها وحكومته موضع التنفيذ »[١٢٩] .

---

(١٢٦) المصدر نفسه

(١٢٧) المصدر نفسه

(١٢٨) المصدر نفسه

(١٢٩) المصدر نفسه

وكذلك عمل الشاه على تنظيم الدولة والادارات ومجالس القضاء ، وطوّر التعليم الجامعي فأسس « ٣٦ جامعة ومعهدا للتعليم العالي »[١٣٠] و « توطدت برعايته العلوم والفنون الرياضية »[١٣١] وقوّى الجيش الايراني : البري والجوي والبحري ، وجهّزه بأحدث الاسلحة ، وشجّع صناعة صيد الاسماك ، ونظّم قوانين المصارف الوطنية والاجنبية ، فبلغ عدد المصارف الخاصة العشرين أو اكثر ، ونشّط الاتصالات اللاسلكية ووسائل الاتصال بالجماهير ، والتربية الوطنية ، والرياضة الكشفية ، ومنظمات البرّ والاحسان والبناء الاجتماعي ، ورفع أجور العمال ، وفرض خطة المشاركة بالارباح ، لترفيه العمال وتحسين عيشهم[١٣٢] .

وكثّف الشاه مشاريع التخطيط والانماء والمشاريع الصناعية الناجمة عن النفط ، كصناعات الغاز الطبيعي والصناعة البتروكيمائية ، وأيضا صناعة المنسوجات ، وتبريد الفاكهة ، وما الى ذلك من تطور التجارة والنقل والمواصلات ، والنقل البري والبحري والجوي ، والطاقة المائية والكهربائية ، وسائر المشاريع الحيوية الاخرى[١٣٣] .

ومهما يكن رأي الباحثين البريطانيين : السيدة

---

(١٣٠) المصدر نفسه ص ١٣١

(١٣١) المصدر نفسه

(١٣٢) المصدر نفسه

(١٣٣) المصدر نفسه ص ١٣٤

فرنسيس مور لابيه (Frances Moore Lappe) والسيد جـوزف كولينز (Joseph Collins) في كتـابهما القيِّم والنفيس « Food First : The Myth of Scarcity » (*[٦]) فان برنامج الاصلاح الزراعي في ايران قد منح حوالى ١٥ مليون نسمة بعض الاراضي ، فأصبحوا « ملاّكين بعد أن كانوا لا يملكون شيئا من حطام الدنيا »[١٣٤] . وتم وضـع قانون جديد أقرّه البرلمان الايراني « يقضي بأن لا يبقى في كل ايران مزارع واحد دون ملكية »[١٣٥] .

وعلى صعيد التعاون الزراعي بين الفلاحين الايرانيين أنفسهم بلغ عدد التعاونيات الريفية ما يقارب ٨٢٠٠ تعاونية، تضم مليون ونصف مليون عائلة . و « بلغ عدد الشركات الزراعية الكبرى ٢٠ شركة مزوّدة بـ ٢٢٠ دارا ثقافيـا ريفيا مجهّزة تجهيزا عصريا »[١٣٦] .

(*٦) ترجمه الى العربية الاديب المصري الاستاذ احمد حسان ، تحت عنوان : « صناعة الجوع » (خرافة الندرة) بعد حذف الفصول الاربعة الاخيرة من الكتاب الاصلي (؟!)، وتـولى نشره المجلس الوطني للثقافـة والفنون والآداب ، الكويت ، ضمن سلسلة « عالم المعرفة » الرقم ٦٤ ، جمادي الآخرة ــ رجب ١٤٠٣ هـ / ابريل ــ نيسان ١٩٨٣ م .

(١٣٤) إيران في الحضارة ، نفسه .

(١٣٥) المصدر نفسه

(١٣٦) المصدر نفسه

وتؤكد الاحصائيات وسجلات التعليم انه « كان في ايران عام ١٩٦٢ مليونا طالب (بينما في ١٩٧٠ ــ ١٩٧١) ارتفع عدد الطلبة الى ٣،٤ ملايين في المدارس الابتدائية، وأكثر من مليون طالب في المدارس الثانوية ، بالاضافة الى ٣٦،٠٠٠ طالب في الجامعات ومراكز التدريب المهني، و٦٠٠٠ طالب في معهد التكنولوجيـا و ٦٠٠٠ طالب في معاهـد لتدريب المعلمين و ٢٠،٠٠٠ طفل في صفوف الروضة » .

وتؤكد هذه الاحصائيات والسجلات نفسها انه كان في ايران عام ١٩٦٢ « ١٤،٠٠٠ مدرسة ابتدائية وثانويـة (في حين) بلغ (عام ١٩٧٠) عدد المدارس ٣٠،٠٠٠ مدرسة، وأنشىء ٢٢،٠٠٠ مدرسة تديرها كتائب مكافحة الامية ، كما تم تنظيم ٥٠٠٠ مدرسة للتعليم العالي »[١٣٧] .

على « أن نفقات التعليم التي صرفتها الدولة عـام ١٩٧٠ بلغت ٦ مليارات ريال تقريبا »[١٣٨] .

لقـد شمل هذا التطـور أيضا الطبابة والصيدلة ، فانضوى في «كتائب الصحة ٢،٧٥٠ طبيبا و٦٩٥ طبيبـا للاسنان وصيدليا ، و ٥٠،١٧٩ من خريجي التعليم الثانوي

---

(١٣٧) المصدر نفسه

(١٣٨) المصدر نفسه

خدموا في الارياف (وكان الاهل يدعون) هذه الكتائب الصحية « ملائكة الرحمة » »[١٣٩] •

ثم ان عدد الاسرّة في مستشفيات البلاد أصبح عام ١٩٧٠ حوالى ٣٥،٠٠٠ سرير بعد أن كان عام ١٩٦٢ لا يزيد على ٢٠،٠٠٠ سرير ، فيما كان هنالك ١١٠٠ عيادة في سنة ١٩٦٢ • واستفاد من المعالجة ثمانية ملايين مريض عام ١٩٧٠ أي بزيادة قدرها سبعة ملايين عن سنة ١٩٦٢[١٤٠] •

هذا وكان من المتوقع أن « تبلغ ايران مستوى الاكتفاء الذاتي الزراعي ، لا بل يُتوقع أن تعيل خمسين مليون نسمة بدلا من ٣٠ مليونا ، العدد الحالي للسكان »[١٤١] (*٧) •

وهنالك اتفاقيات أيضا عقدتها ايران مع بعض الدول لتثمير ملايين الريالات إن في القطاع الصناعي وإن في القطاع الزراعي ، ومنها استثمار مساحة مليون هكتار (٨٠٠،٠٠٠ هكتار في خوزستان) ، في تصنيع الفاكهة والخضار •

---

(١٣٩) المصدر نفسه
(١٤٠) المصدر نفسه ص ١٣٥
(١٤١) المصدر نفسه ص ١٣٦
(*٧) كان عدد سكان ايران عشية سقوط النظام الشاهنشاهي ٣٣،٥٩١،٨٧٥ نسمة •

وكذلك تحوّلت مساحة ٦،٠٠٠ هكتار من الصحارى أو الأراضي شبه الصحراوية الى أحراش وغابات[١٤٢] •

ومع ذلك تمرّد الخميني ورجال الدين على الدولة وبرامجها ، فكفّروا الشاه واعتبروه العدو الاول للاسلام والقرآن والشعب •

لماذا الثورة ؟

لقد تحدثوا عن بذخ الشاه وفحشه وجوره واستبداده وارهابه وجبروته وارتباطه بالغرب واسرائيل • وتحدثوا أيضا عن قصور الشاه وداراته وشركاته وجواهره وثيابه وأحذيته وسياراته وأحصنته وكلابه • ولكنهم لم يتحدثوا ابدا عن كرمه واحسانه ولطفه وحبه لشعبه وايمانه بعظمة تاريخ بلاده ؟!

لماذا الثورة ؟

الشاه أرادها دولة منفتحة على الشرق والغرب ذات سيادة واحدة وقيادة واحدة موحّدة •

ورجال الدين أرادوها دولة برأسين (Dyarchy) فحملوا عليه وهيّجوا الناس ضده ، وقذفوه بشتى أنواع التهم

---

(١٤٢) ايران في الحضارة ص ١٣٦

والمسبات والشتائم ، وهـددّوا بقتلـه وبابادة اسرتـه وجيشه •

واشتد الخلاف بين الطرفين • فخرج التيار الديني الى الشوارع وخرجت معه التيارات «اليسارية» و«الوطنية» تثير الشعب وتتحرش برجال الامن مطلقة الشعارات المعادية للشاه والنظام • وعبثا حاولت الشرطـة تهدئة المتمردين، وأخذنا نرى « بحرا من الجماهير » يكبر يوما إثر يوم• فصدرت نشرة عن « الروحانيين الاحرار ـ مجموعة ١٥ خرداد أو ٥ حزيران ١٩٦٣ » تقول :

« ان نهضة الشعب الايراني الوطنية والاسلاميـة بقيـادة العلمـاء الاحرار أصبحت نقطة انطلاق مضيئة ، تسببت في ايجاد تيارات دينية ووطنية حادة ، أخذت تنذر الظـالمين بالخطر وصارت عاصفة مدوّية تهـدد عروش الطغيان ومعاقل الاستعمار بالخراب والدمار » •

أضافت النشرة تقول :

« ان الشاه المأجور لما رأى الخطر يهدد عرشه الخاوي المتزلزل ، وأحسّ بقرب أجله المحتوم ، كشف عن وجهـه الحقيقي البشع وظهر كالوحش الكاسر الذي أفلت مـن قيوده ، فاعتقل مئات من العلمـاء الاحرار وفي مقدمتهم

المرجع الديني الاعلى حامل مشعل الثورة الوطنية الاسلامية (الامام الخميني) وذلك في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٣ ، وأودعهم في غياهب السجون ، وسدّد رصاص رشاشاته وقذائف مدافعه الى الشعب الاعزل » •

وقالت أيضا :

«ويومذاك وقعت المجزرة الرهيبة التي ذهب ضحيتها خمسة عشر ألف مواطن ايراني شريف ، في طول البـلاد وعرضها • وبذلك سجل الشاه الطاغية أبشع جريمة يقوم بها حاكم ضد ابناء الشعوب الابرياء • غير ان هذه الاعمال الاجرامية والاجراءات التعسفية لم تمنع الجماهير الشعبية من مواصلة الكفاح لتأييد رجال الدين وقائدها الجـريء المقدام وحمايته » (١٤٣) •

رجال الدين اذن يطلبون السلطة •• والسلطة فقط•

ولكن « العروس » ـ « الكنز » في القصر المسحور أو المسكون •

ما العمل ؟

ان الغاية عند رجال الدين الايرانيين أيضا تبـرّر الواسطة •

---

(١٤٣) عن كتاب « ايران والخميني » ص ص ٩١/٩٢/٩٣

فلا بد من المحالفات والمعاهدات •• وكل ما يحقق لهم الهدف أو الغرض •

مع من ؟

مع الجميع •• الى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا •

ولكن من هم هؤلاء الجميع ؟

صحيح أن ايران مثلها مثل كثير من بلدان العالم ذات مجتمع متنوع وتعددي ، ولكن الصحيح أيضا ان الاقليات الايرانية مجتمعة « تشكل ربع السكان ، وتتنوع تنوعا ظاهريا »(١٤٤) الى درجة أن بعضها « لا يقرب البعض الآخر »(١٤٥) • حتى ان مصالحها اذا ما حتّمت التماسك « في وجه الكثرة العددية الساحقة من الفرس ، فان هذا التماسك لا يزيل الفروقات فيما بينها »(١٤٦) وهذه ، على كل حال ، هي محنة الاقليات في كل مكان من العالم في شكل أو آخر •

كان حكم الشاه محمد رضا بهلوي يعتمد على الاقليات حتى شجّعها وأمّن مصالحها فكادت أن تصبح

(١٤٤) المصدر نفسه ص ص ٦٢/٦٣/٦٤

(١٤٥) المصدر نفسه

(١٤٦) المصدر نفسه

« طبقة الدولة والحكم »(١٤٧) ، وبالرغم من هذا « لم تستطع أن تتوحد في وجه الثورة »(١٤٨) الخمينية الإمامية •

تظهر الخريطة السكانية لايران ان الشيعة هناك يؤلّفون ثلاثة أرباع الشعب ، أي انهم الجماعة الفارسية الكبرى والاصيلة ، ولغتهم لغة رسمية تدرّس في مؤسسات التعليم كافة ، وهي لغة الموسيقى والفنون والآداب • بينما الفئات الاخرى تتنوع قوميا ودينيا ، اذ الاكراد سنّة ، وقبائل « اللورس » التي تقطن سلسلة جبال زغروس في كردستان شيعية ولكنها أقلية اثنية ، والبختياريون بعضهم ينطق بلهجة فارسية ، وبعضهم الآخر يتكلم لغة تجمع بين العربية والتركية ، ويعتبرون أنفسهم من أصول منغولية ، ويكوّن هؤلاء فريقين : « الهافت لانج » و « التشاهار لانج » وكلهم من الشيعة • ومن الشيعة أيضا العرب وهم يتوزعون في الجبال والمدن والشواطىء ، وعددهم قليل فلا وزن سياسيا لهم • أما التركمان فمسلمون سنّة ، عددهم محدود ، وهم الى الشمال من خراسان والى الشرق من مازندران • أصلهم منغولي ، بدأوا يستقرون في سهول جُرجان جنوب شرقي بحر قزوين • ويوجد في آذربيجان

(١٤٧) المصدر نفسه

(١٤٨) المصدر نفسه

شيعة من أصل تركي ، كما يضم مجتمع ايران الى المسلمين عشرات الالـوف مـن اليهـود والآشوريين والارمـن والزرادشتيين والاسماعيليـين والآغـاخانيين والعلويين والبهائيين ، ومعظم هذه الجماعات يقيم في طهران ويزد وكرمان وشيراز وأصفهان وتبريز ومراغة ورضائية ومهران ونجف أباد (١٤٩) (*٨)

فاذا كان الجيش الشرعي ، جيش الشاه ، عـدده نصف مليون جندي ، فان المتمردين يُعدّون بالملايين • سلاح الشرعية الحديد والنار • وسلاح الخصوم : اللحم وصيحة : « الله أكبر » •

هل يقتل الجند الشعب وكيف ؟

ان المصيبة الكبرى هي في حزب العمائم والجبب، الذي يضم حوالى ١٥٠ ألف رجل دين ، وسواء اتفقوا أم اختلفوا ، فكل عضو منهم موعود بـ « المنصب الالهي » • ويحسب نفسه (منظّر) العقيدة الذي لا يبارى •

منذ الاسبوع الاول من حزيران ١٩٦٣ بدأت عجلة الشاه الذهبية تسير الى الوراء • فالأرض ذهب لبنُهـا ،

---

(١٤٩) المصدر نفسه

(*٨) ولمن يريد الاطلاع على التكوين التاريخي لهذه الطوائف والاقوام يمكنه الرجوع الى كتاب الدكتور حسن منيمنة : «تاريخ الدولة البويهية » ، الذي نوهنا به سابقا ، وبخاصة القسم الاول منه ، وأيضا الفصل الخامس أي « بـويهيو فارس » ٠١

والناس جرفها التيار كأنها السمك الصغير الذي يدخل في الشبكة طائعا وبدون ارادة منه • الإعلام الغربي فتّحت أمامه أسواق لم ير مثلها من قبل • أحزاب دينية ومـادية وقومية ألّفت جبهة واحدة مهمتها الاطاحة بالشاه• الجميع قالوا : ليسقط الرأس أولا ، ولكل حادث حديث •

هذا الاجماع لا يدرك أحد سرّه كاملا الى اليوم • حتى الذين كانوا هم الحلفاء طيلة سبع عشرة سنة (١٩٦٣ـ ١٩٧٩) لم يعرفوا كيف تحالفوا ولا كيف انتصروا ولا كيف تفرقوا • ما يعلمه هؤلاء وأولئك ان رأس الثورة : الامـام الخمينـي قـد سُجـن ثم أُفرج عنـه حاملا لقب « آيـة الله » ثـم نفـي ثم عـاد وفـي عصمته « ولاية الفقيه » • مثل حلم وانتهى كانت الثورة• الذين استيقظوا من غفوتهم لعنوا تلك الساعة المشؤومـة وغادروا البلاد لا يدرون ماذا يفعلون • لقد تفشى الطاعون بالشعب ، بالقادة ، بالاطفال ، بالحيوانات ، وبكـل خفي وظاهر •

بهـذه الامكـانـات الضخمـة ثـار شيعـة ايـران المتعالون على المشاعر القومية بقيادة رجال الدين ليحطموا الامكانات الحضاريـة التي منحها الشاه لبلاده وشعبه •

لماذا كانت الثورة ؟

الجواب عند الخميني وحده ، ولكن هل يقولـه أم سيبقيه سرا من الاسرار التي ينطوي عليها صدرُه الذي هو كالبيت المنقور في الجبل ؟

الامام المتردد والامام المستقيم

تقودنا الموازنة بين أسباب الثورة الفارعاملية وأسباب الثورة الخمينية ، والموازنة بين امكانات هذه وامكانات تلك،الى النظر،وبطريقة المقارنة أيضا ، في منهجيتي القائدين: الامام الفارعاملي موسى الصدر والامام الخميني روح الله الموسوي • وبهذا نكون قد أتينا على نهاية الكتاب الذي تشعبت موضوعاته وبحوثه وتعددت أبوابه ومداخله حسبما اقتضى الحال • واننا على ثقة بأن ما ظهر لنا أو تبيّنّاه ليس الا جزءا من الحقيقة التي اتخذناها غاية لنا منذ فكّرنا في القيام بهذه المهمة الصعبة والمعقّدة •

ولكن قبل البدء في ما عقدنا ضميرنا على فعله سندع النازي : أدولف هتلر ، زعيم الحزب الوطني الاشتراكي الالماني ، يرسم لنا لوحة من تجاربه تعيننا ربما على فهم بعض الاسرار والامور الغامضة التي قد تواجهنا في هذا البحث • على ان شعورا غريبا وغير عادي خالجني حين كنت أطالع كتابه : « كفاحي » فقلت لنفسي : تُرى هل من عودة الى النازية ؟ واذا ما حدث فأية نازية سوف يطل بها

الالمان على العالم ؟ في هذا الوقت أُعلن عن انتحار نائب هتلر السابق رودولف هس في حديقة سجن شباندو،(قصر شباندو) (Spandau) ووزعت على وكالات الاخبار والصحف صورة شاب ألماني يرتدي قميصا عليه صورة أدولف هتلر والصليب المعقوف يؤدي التحية النازية ـ قبالة السجن نفسه [١٥٠] • ولا عجب اذا ما بُعثت النازية (Nazism) أو الفاشية (Fascim) في هذا الزمن القمعي والانهياري الذي أسقط الاقنعة عن كل الوجوه ، وعن كل الانظمة والمفاهيم والايديولوجيات • بل ان هنالك من يحلم برجوع تلك المبادىء (Doctrines) التي ألغتها ثورات هذا القرن وحروبه •

يقول هتلر :

« لنعدْ الى سياسة المانيا الاقتصادية خلال السنوات التي سبقت نشوب الحرب الكبرى •

« لقد أنسانا نجاح التكنيك والصناعة الالمانيين وازدهار التجارة الالمانية ان استمرار هذا الازدهار وهذا النجاح هو رهن بقيام دولة قوية • وأنكى من هذا ان بعض الاوساط ذهب الى حد الزعم أن الدولة نفسها مدينة

(١٥٠) النهار : ١٩٨٧/٨/٥ ، الحوادث : ١٩٨٧/٨/٢٨ ، تحقيق بقلم : دافيد بيشاي

بوجودها للاقتصاد والتجارة المزدهرين ، وأنها ، أي الدولة، هي قبل كل شيء مؤسسة اقتصادية » .

أضاف هتلر :

« ولكن الدولة مؤسسة لا شأن لها مع حالة اقتصادية معيّنة وليست بالتالي متحدا يضم أطرافا متعاقدين اقتصاديا. انها مؤسسة تضم جماعة من النـاس متجانسين جسديـا ومعنويا ، وقد أقاموها ليتطوروا في كنفها ، ويؤدوا الرسالة التي شاءت العناية أن تكل أمرها اليهم . هذا هو معنـى الدولة ، ولكنه ليس علة وجودها ، ولا يمكن ان يكون الغاية من وجودها الا اذا كانت الدولة تقوم على اساس غير سليم .

« ان الدولة التي تجعل من الاقتصاد غاية وجودها ليس لها ما للدول من مقومات البقاء . انها اشبه ما تكون بدولة لا حدود لها » .

ويتابع الفوهرر رسم هذه اللوحة الرائعة والخالدة فيقول :

« في تاريخ المانيا أكثر من شاهد على أن مستـوى المانيا الاقتصادي كان يرتفع في كل مرة يتزايد نفوذهـا السياسي ويشتد ساعدها في المجال الدولي الفسيح ، وإنّ انصراف أمتنا الى الاقتصاد وحده كان يتم دائما على حساب فضائلنا القومية ومناقبنا ومثلنا ، ولا يلبث أن يسبب انهيار الدولة وانهيار الاقتصاد معا » .

ويطرح هتلر على نفسه السؤال التالي :

« فما هي القوى التي تنشىء الدولة وتصونها ؟ »

ثم يرد قائلا :

« انها العقل والادارة والمثل العليا والتضحية، فالانسان لا يضحي بنفسه من أجل صفقة تجارية ، ولكنه يفعل من أجل فكرة أو مثل أعلى .

« في الحرب العالمية الكبرى حاربْنا نحن مـن أجل الخبز ، أما الانكليز فقد حاربوا من أجل « الحرية » ، حريتهم هم وحرية الامم الصغرى . وقد رأينا الانكليز يحاربون الى النهاية بعناد واخلاص ، أمـا نحن فقد استبسلنا في الاشهر الاولى ظنا منا أننا نحارب من أجل مثل أعلى، فلما قيل لنا اننا نحارب من أجل اللقمة انهارت معنوياتنا وتبخرت حماستنا .

« وفي هذا دليل كافٍ على خطل الرأي القائل بأن الاقتصاد هو دعامة الدولة بل علة وجودها » .

ويمضي الزعيم هتلر في الحديث عن تجربته ، تجربة كل المانيا والالمانيين ، فيقول :

« لم تقم دولة قط على الاقتصاد السلمي ، بل كانت الدول ولا تزال وستبقى وليدة غريزة حب البقاء ، بقـاء العرْق ، سواء تجلّت هذه الغريزة في الحقل البطولي أو في مضمار الحيلة والدسيسة . فاذا تجلّت في الحقل الاول

ولدت دولا آرية يسودها العمل الجدي . اما اذا تجلت في المضمار الثاني فانها تولد مستعمرات فضولية لليهود » .

ويتساءل هتلر والالم يكاد يحرق قلبه فيقول :

« أليس غريبا أن تصاب المانيا في غريزتها السياسية، فتنحرف عن الجادة التي سلكتها من قبل بروسيا التي كانت وليدة الاعمال البطولية الخارقة ، لا وليدة المضاربات والصفقات »[151] .

كم من المسؤولين القياديين في لبنان وايران ان لم نقل في العالم يقرأ اليوم هذا البيان الهتلري متأملا ومدققا ؟

نعم ، ان كل أمة محتاجة الى دولة قوية تضم «جماعة من الناس متجانسين جسديا ومعنويا » على حد تعبير هتلر الذي «يضعه كثير من الناس في الولايات المتحدة خارج الجنس البشري»[152]؟! فأية أمة في هذا العصر عندها مثل هذه الدولة ؟

في الحقيقة وددت لو كان في استطاعتي أن أتجنّب المقارنة بين الفارعاملي والخميني ، لا لسبب ، وانما لخوفي

---

(١٥١) كفاحي : ص ص ٧٨/٧٩

(١٥٢) عن جون لوكاس : اضواء على شخصية هتلر ، مجلة « الثقافة العالمية » (الكويتية) العدد ١٢ ، السنة الثانية ذو القعدة ١٤٠٣ هـ / ايلول ١٩٨٣ ، ص ٩٨ . والعنوان الاصلي للمقال عن : « Hitler becomes a man » « The American Scholar Summer : 982 »

على هذه اللوحة الرائعة التي رسمها لنا الفوهرر بدمه الاحمر القاني ، وخطّها بأنامله القوية التي ما ارتعشت لحظة ، وأسبغ عليها من قلبه الذي كان بحجم المانيا والعالم، ولكنني عدت عن رغبتي هذه بعدما ثبت لي أن الامام الشاب الفارعاملي كان هو المتردد والمضطرب والقلق والمتقلب والمتساهل حتى الهزيمة ، فيما أكّد الامام العجوز (الخميني) على صلابته واستقامته وتوازنه وعناده واخلاصه لفكرته حتى النصر، مما يفيد ان الاول قد حارب او دعا الى الحرب من أجل اللقمة، لقمة الشيعة، والثاني حارب من أجل « الحرية » حرية رجال الدين ، فثبت ان القوة ليست في الشباب دائما بل هي في الشيخوخة أيضا ، وربما كانت في الحالة الثانية أشد وأعتى منها في الحالة الاولى .

فماذا بين الفارعاملي والخميني من فوارق جعلت الاول ضعيفا حتى الاستسلام ، والثاني شرسا حتى التفوق ؟ ان هذا ما سنحاول كشفه الآن .

اولا : القائد المتردد (Hesitant)

لقد انتهى الفارعاملي من حيث بدأ ، فكأن الولادات الثلاث التي تدرّج فيها ، بعد الولادة الاولى الطبيعية وخلال تسع عشرة سنة (١٩٦٠-١٩٧٨) هي نوع من «الخفة الاجتماعية - السياسية» أو ما يمكننا أن ندعوها «المراهقة السياسية»

التي غالبا ما تكون خاتمتها غير سعيدة • وكذلك انتهى الخميني ، اذا أخذنا تقدّمه في العمر بعين الاعتبار ، من حيث بدأ • ولكنه (الخميني) لم يكن متطلب ولادات كالفارعاملي بل اكتفى ، بعد الاولى ، بواحدة فقط ، تمّت عندما رُفع الى مرتبة « المرجع الاعلى » وذلك عام ١٩٦٣ على اثر سجنه بأمر من السلطات الايرانية • وكما لا مكانة تعلو المرجعية كذلك لا مجد يحاكي المجد الذي أعطي له وهو سجين • فالأهم بالنسبة اليه أن يدعى « نائب الامام » وبعدها تهون الامور والقضايا ، كل الامور وكل القضايا ، من أي نوع كانت •

ولعل اختلاف أسباب الثورتين بعضها عن بعض ، وامكانات الثورتين بعضها عن بعض ، هو الذي فرض هذا البعد البعيد بين القائدين • فاذا صح القول في الفارعاملي انه كالحادي وليس له بعير ، فانّ أصحّ ما يقال في الخميني أنه حلب الدهر بالساعد الأشدّ • الاول أشعل نارا فأرعبه منظرها فانطلق يطفئها بجبته وعمامته ، أو كيفما كان ، والثاني أشعل نارا وقودها الغضا (*٩) ، فأعجبه منظرها فكان لها الوقاد

(*٩) الغضا : شجر من الاثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمنا طويلا ، وهو من أجود الوقود عند العرب •

ولسان حاله يقول : ان الذليل ليست له عضد • وكان كل يوم يذهب بما فيه •

في مقارنة بين دور رجال الدين الايرانيين أيام ثورة الدكتور مصدّق ودورهم في ثورة الخميني يقول الامير فيروز قدر :

« في تلك الفترة (أي ثورة مصدّق) كان رجال الدين يتمتعون بنفوذ قوي وكانوا يساندون حركة المعارضة لكنهم لم يشاركوا فيها بشكل فعلي • أما ما يجري اليوم (اواخر عام ١٩٧٨) فيمكن أن نفسره بالشكل التالي : عندما نتحدث عن الجماعات الدينية نقصد بالدرجة الاولى شخصية دينية من طراز اول هي آية الله الخميني • فاذا تمكن رجال الدين من تحريك الشارع ، ودفع كل هذه المجموعات البشرية ضد الشاه فلأنه يوجد على رأسهم قائد ثورة جبار هو الخميني • ولولاه لما وصلت ثورة ايران الى هذه المرحلة من النجاح » •

أضاف الامير فيروز قدر يقول :

« استطاع الخميني أن يتحين الظروف السياسية المناسبة ليحقق ثورته ، وعرف كيف يدير اللعبة حتى النهاية • يوم حركة مصدّق لم تكن هناك شخصية دينية من وزن

آية الله الخميني ، ولم يكن في ايران الظلم الذي عاشته البلاد في المرحلة الراهنة . فبعد سقوط مصدّق على يد المخابرات المركزية الاميركية ، وعودة الشاه من جديد الى الحكم في البلاد ، عاد محمد رضا بهلوي بشكل مختلف وبطريقة متسلطة . رجع لينفذ السياسة الاميركية في تلك المنطقة وينفذها باخلاص مطلق للأميركان ، يفوق اخلاص الاميركيين أنفسهم . ومارس على الشعب الايراني ضغوطا واستبدادا وظلما لا مثيل له وهذا لم يكن موجودا في السابق » .

وخلص الامير فيروز قدر الى القول :

« ان الثورة في ايران لم يصنعها رجال الدين ، بل تولوا قيادتها . الثورة اليوم أسبابها اجتماعية وداخلية محضة . لقد تعب الشعب من تجاوزات الشاه ورجال « السافاك » ، وكانوا يحلمون بقدوم منقذ يخلّصهم من الضغط والاستبداد . وهذا الامل المنتظم تجسّد بشخص آية الله الخميني . فتوحدت جميع مصالح الشعب الايراني وراء الخميني ، وتجسدت أهدافه باسقاط الشاه . الثورة الايرانية لم تكن ممكنة التحقيق لولا شعارات رجال الدين . لقد تحركت مدافع رجال الدين لان امكانية الحشد كانت ممنوعة خارج الجوامع والمقابر . هناك كان رجال

الدين يستطيعون أن ينظموا كوادرهم ويوجهوا ثورتهم ضد النظام »[١٥٣] .

اذا كنا سنأخذ بهذا الرأي وهو صحيح بنسبة كبيرة، فان حكمنا على ثورة الفارعاملي لا بد من أن يكون التالي:

ليس الفارعاملي الذي دعا الى التسلّح ، وقدّس البندقية الفلسطينية ، وحرّض اللبنانيين عموما والشيعة خصوصا على مؤازرة « المقاومة الفلسطينية » والقتال في صفوفها ، ثائرا اجتماعيا ولا وطنيا ولا قوميا ، بل اجتماعي عبثي وسياسي مراهق ، أحلامه أكبر من قدراته ، ولسانه أعرض من فمه ، وقلبه أصغر مما هو مطلوب ، أو « طيب أكثر من اللزوم » على قول الشمولي الثقافة والواسع الاطلاع الوزير السابق ميشال أدة . فعندما انطلقت شرارة الحرب في ١٣ نيسان ١٩٧٥ اجتمع على الفور بقادة « المقاومة الفلسطينية » وقادة الاحزاب « بهدف خنق الفتنة وتهدئة الوضع »[١٥٤] ، ووجه نداء عاما استنكر فيه « المجزرة الرهيبة » (حادثة بوسطة عين الرمانة) و « حذّر من مؤامرات العدو ومخططات الفتنة »[١٥٥] . ومما قاله في هذا النداء :

(١٥٣) الامير فيروز قدر : الحوادث ١٩٧٩/٢/٢.
(١٥٤) عادل رضا : مع الاعتذار للامام الصدر ص ١٢٤
(١٥٥) المصدر نفسه

« ان الثورة اللبنانية والثورة الفلسطينية تنطلقان من مبدأ واحد ، وتسيران في طريق واحد نحو هدف واحد ، وتتصديان لعدو واحد »(١٥٦) •

ماذا يُفهم من نداء الفارعاملي هذا ؟

هل ان الفارعاملي باغته الحدث الكبير : « مجزرة عين الرمانة » كما سماها ، فارتبك وخاف من « السلاح الآخر » (السلاح الكتائبي) ؟ أم انه كان يعدّ لحدث مختلف في مكان ما من لبنان يكون فيه البادىء ليكون المنتصر على طريقة : الضربة لمن سبق ؟

حقاً إن حادثة عين الرمانة هي التي قلبت الطاولة على الفارعاملي و « المقاومة الفلسطينية » و « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » • وأياً كان الذي أطلق النار على « بوسطة عين الرمانة » فهو الذي افتتح الحرب لتكون فرصة للمسيحيين في المناطق الشرقية من بيروت كي ينقذوا أنفسهم من خطر الوجود الفلسطيني المسلّح بين منازلهم وحولها • بل ان حادثة عين الرمانة نفسها قد سلبت من الفارعاملي مقومات الثورة وعناصرها لتسلّمها الى شباب الدكوانة من « كتائبيين » و « أحرار » و « تنظيميين »

(١٥٦) عن « مع الاعتذار للامام الصدر » ص ١٢٥

و « حراس الارز » و « باشمارونيين » (نسبة الى « الباش » مارون خوري ، مؤسس « حركة الشبيبة اللبنانية ») ، الذين خرجوا الى الشوارع بأبسط أنواع الاسلحة ، منها أسلحة الصيد ، ليحاربوا من أجل البقاء وليس من أجل اللقمة • وقد صمّم هؤلاء على تحرير مناطقهم من كل وجود مسلّح غريب وغير شرعي ، وأقسموا أن يدافعوا عن آبائهم وأمهاتهم واخوانهم وأخواتهم ،وعن نسائهم وأطفالهم وأرزاقهم ومدارسهم حتى النصر • وعمت «ثورة الدكوانة» ــ «ثورة من أجل البقاء» ــ المناطق الشرقية كافة ، فتحوّل الفارعاملي الذي طالما خطب وحاضر وناظر وهدّد بـ « ثورة الرغيف » الى « طبيب مغربي » يداوي العمى بالكحل والانهيار العصبي بالحجب والرقى •

وتمّ في بيروت تشكيل قيادة موحدة لـ « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » (١٥٧) برئاسة كمال جنبلاط ، مهمتها « متابعة تطورات المعركة على اساس موقف وطني واحد » • فلما أعلن كمال جنبلاط أمين عام « الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية » بتاريخ ٢٦/٥/١٩٧٥ مقررات الجبهة ومنها « العمل على عزل حزب الكتائب سياسيا ومقاطعته » ، حذّر الفارعاملي من « استمرار

(١٥٧) هي : الحزب التقدمي الاشتراكي والحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي •

المعركـة والانقسام في الوطن العربي وتعريض الثـورة الفلسطينية للخطر » كما دعا الى « مد الجسور بين مختلف الطـوائف اللبنانيـة بواسطة المثقفين والمفكرين ولقاءات الرؤساء الدينيين » ليؤكد على ضرورة التعايش الاسلامي ـ المسيحي » وعلى « التعايش اللبناني ـ الفلسطيني »[١٥٨]، ولكن التقسيميين من هنا وهناك قطعوا الطريق على الثقافة والمثقفين فاستمرت الحرب على حساب « ثورة الدكوانة » (ثورة من أجل البقاء) و « ثورة الرغيف والجنوب » وبالتالي على حساب كل لبنان الوطن الواحد والمتنوع .

هـذا وشكّل الفارعاملي لجانا لملاحقة الحوادث ، من خطف وتهجير وأعمال سرقة وغيرها ، وكان يتـولى بنفسه الاتصالات لمنـع مثـل هذه التجاوزات ، فالتقى المسؤولين عن الاحزاب وقادة « المقاومة الفلسطينيـة » ورجال الدين « من أجل تنقية الاجواء »[١٥٩] .

أين الثورة ؟

لقد سبقه اليها شباب الدكوانة والمناطق الشرقية من بيروت .

---

(١٥٨) عادل رضا : المصدر نفسه ص ١٢٥

(١٥٩) المصدر نفسه

بعد شهر تقريبا من « حادثة البوسطة » كما سموها، أي في العاشر من أيار ١٩٧٥ تنـادى المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى لانتخاب الهيئتين الشرعيـة والتنفيذية ، فكانت للفارعاملي كلمة في المناسبة جاء فيها :

« لنتبنّ القضية الفلسطينية دون خجل ولا خوف. ولنرفـعْ هـذا الشعار قبل العرب الآخرين ، ولنضحّ والضحايا التي سنقدّمها ستكون أقل بكثير من الضحايا التي نقدمها عندما تفقد طموحنا ونعيش في أرضنا الصغيرة ونبتلى بمشاكلنا الصغيرة ...

« سنحفظ فلسطين ، ونحفظ لبنان ، ونحفظ التعايش، وسنبني أسس الحضارة للمستقبل »[١٦٠] .

لقد تنازل الفارعاملي في هذا الخطاب عن « الثورة » ولم يتنازل عن « حصان كل العرب » . فالفلسطينيـون والوطن عنده سواء في سواء . لذلك نسي أو هو تناسى الشيعة الذين امتلأت بيوت معظمهم في المناطق الشرقيـة بالبنادق والرشاشات الفلسطينية ، فدعا الى التضحية اليوم وليس غدا . وفيما النار تهـدد الدكوانة والفنار والنبعة

---

(١٦٠) عن « مع الاعتذار للامام الصدر» ص ص ١٢٦/١٢٧/١٢٨

وسن الفيل وجسر الباشا وعين الرمانة والاشرفية كان الفارعاملي لا يزال يلعب « الورقة الفلسطينية » المزوّقة والمفخخة ، في قلب « ثورة من أجل البقاء » أي في الحازمية (*١٠)؟!

الى ذلك الوقت لم يكن معروفا أن أفواجا من حركة « أمل » في البقاع تدربهم « المقاومة الفلسطينية » على السلاح والقتال .

واستمر الفارعاملي يتنقل بين بيروت ودمشق لعقد الاجتماعات مع الرئيس الاسد ووزيره (نائبه الحالي) عبد الحليم خدام من جهة ، ومع « الختيار » ـ ياسر عرفات وقادة الاحزاب والشخصيات اليسارية من كل الطوائف اللبنانية من جهة أخرى ، حتى قال عنه كمال جنبلاط :

(*١٠) حدثني رئيس بلدية الحازمية الاستاذ جورج فغالي قال بعد الثناء على الامام وفضائله : « استقدم الامام في مطلع الحرب مسلحين ليحرسوا مقره ، فنصحته أن يكف عن هذا متعهدا له الحراسة والحماية بواسطة الشرطة البلدية فأخفى السلاح ما عدا المسدسات ، ولكن الاحداث ، يا للاسف ، كانت أقوى منا جميعا ، ففرقت بيننا حتى بات بعضنا أعداء لبعض » .

« ان سماحة الامام الصدر في طليعة الساعين الى الخير والملتزمين بمطالب الفئات الاجتماعية والعائلات الروحية المحرومة . وهو يتلاقى مع الحركة الوطنية وجميع الزعماء المخلصين الذين يقودون الجماهير في هذه الفترة العصيبة »[١٦١] .

والواقع ان الفارعاملي لم يكن محتاجا الى قرار العزل من كمال جنبلاط . فهو ، كما قلنا ، اعتزل الثورة وإن لم يتخلّ عن « الورقة الفلسطينية » ، ولكن كمال جنبلاط أراد بهذه الشحطة من قلمه الاحمر المروّس لا أن ينحّي الفارعاملي عن موضعه الثوري فحسب بل لينتزع منه « اللجام الذهبي » و « حصان كل العرب » اللذين أُهديا اليه في تلك الليلة العاصفة والهوجاء من كانون الاول ١٩٦٨ في فندق « بيروت انترناشيونال » كما ذكرنا في الفصل السادس .

وتجددت الحوادث والاشتباكات الدامية في الشياح وعين الرمانة رافقتها أزمة تأليف الحكومة ، فاعتصم الفارعاملي واعتصم معه الكثيرون من مسلمين ومسيحيين في

---

(١٦١) المصدر نفسه

مسجد الصفاء في بيروت • في هذا « الاعتصام » حسب الفارعاملي نفسه « غاندي لبنان » فقال :

« نعتصم لنفرض على المواطنين الاعتصام عن السلاح الذي يُستعمل ضد اللبنانيين والاخوان • اننا نريد ان تخنق صفحة العنف بصفحة العبادة والاعتصام والصيام•• فالسلاح لا يحل الازمة بل يزيد في تمزيق الوطن »(١٦٢) •

وختم الفارعاملي أو « غاندي لبنان » كما تمنى أن يدعى « اعتصامه » فلا صفحة العنف خنقت ولا « السلاح الآخر » تراجع وانكفأ • بل أتَّى للمحاربين « من أجل البقاء » أن يرموا سلاحهم وقد باتوا في فم التنين ذي الرؤوس المتعددة ؟

لقد تابع «السلاح الآخر» (السلاح الكتائبي) (*١١) تحرير المناطق الشرقية من السلاح الفلسطيني ، فكان

---

(١٦٢) المصدر نفسه

(*١١) لقد اجمعت « الاحزاب الوطنية والتقدمية » على اعتبار حزب « الكتائب اللبنانية » المسؤول الاول والمباشر عن « المقاومة المسيحية » ، الامر الذي يجعلنا نفسر « السلاح الآخر » الذي ندّد به الفارعاملي بـ « السلاح الكتائبي » وليس معنى هذا اننا لا نعير أهمية للاحزاب المسيحية الاخرى التي قاتلت الى جانب « الكتائب » •

الصراع حادا ومصيريا • ذلك أن المسيحيين رفضوا مشروع الوزير الاميركي السابق : هنري كيسينجر الذي كان يقتضي ترحيلهم على متن سفن أميركية الى أي مكان من العالم ، كخطوة أولى لتوطين الفلسطينيين في لبنان واتخاذه وطنا بديلا من فلسطين • ان هذا المشروع « الكيسينجري » حمله المبعوث الاميركي : دين براون لعرضه على القيادات المسيحية حسبما يقول البطريرك مكسيموس الخامس حكيم (١٦٣) ، وكما أعلن الرئيس سلميان فرنجية أكثر من مرة ، وفي ظنه (براون) أنه سيلقى الموافقة والقبول دون عناء • ويحكى ان براون نفسه قد حرّض المسلمين على المسيحيين بأن وصف زعماء الموارنة بـ «الاسماك المتحجرة» فأخذ عنه جنبلاط هذه العبارة وراح يكثر من استعمالها في بياناته وتصريحاته السياسية •

وفي غضون سنة ، وبعد سقوط بلدة الدامور المسيحية ، أخليت ضبية وحارة الغوارنة والجديْدة وسن الفيل والفنار والدكوانة وتل الزعتر وجسر الباشا والحدث وعين الرمانة والاشرفية والكرتينا والنبعة من الفلسطينيين وحلفائهم الشيعة ، كما أخليت المناطق الشرقية كافة من المسيحيين الشيوعيين والقوميين السوريين والبعثيين ولا سيما منهم الذين رفضوا وقاوموا

---

(١٦٣) السفير : ١٩٨٧/٤/١١

« المارونية السياسية » . واتهم الفارعاملي ، وهو البريء، بـ
« التواطؤ » مع الكتائب على تهجير الشيعة من المناطق
المسيحية ، وكانت بداية مأساته التي استمرت تغالبه حتى
الواحد والثلاثين من شهر آب ١٩٧٨ الذي دعي « يوم
الغيبة الصغرى » لئلا يقولوا : « الغيبة النهائية » .

وتقلبت مواقف الفارعاملي كثيرا في المرحلة الممتدة بين
سقوط معاقل الفلسطينيين وحلفائهم الشيعة في المناطق
الشرقية وبين غيبته ، ولكنه عاد ليتذكر لبنان الذي عرفه
مدينة مدينة وبلدة بلدة وقرية قرية ، فبكى واستبكى ،
كأن عنده شعورا بالذنب ، ودعا الى المصالحة الوطنية
ومصافحة القلوب مع علمه بأن هذا الامر صعب ان لم يكن
مستحيلا اذا قال :

« انني أدرك جيدا كم هو صعب في جوّنا المشحون
بالحذر والقلق ، وفي خضم الآلام والويلات ، والى جانب
الدماء والدمار والثأر ، أن يتولى شخص أو مجموعة امر
مصالحة اللبنانيين مع أنفسهم ومع تاريخهم ورسالتهم » .

أضاف :

« انني أدرك ذلك وأتوقع صعوبات ومخاطر . غير
أني ، بعد التأمل الطويل والمشاورات الواسعة مقتنع تمام

الاقتناع بعدم توافر وسيلة حقيقية أخرى للخروج من
محنتنا وللمبادرة الى اصلاح أوضاعنا .

« ان الظروف المحلية والعالمية قاسية جدا ، وان
المخاطر والمؤامرات التي وجدت في المأساة ونتائجها ثغرات
واسعة بالمرصاد .

« فالحد الادنى أن يتلهى لبنان والمقاومة الفلسطينية
عما يجري في المنطقة وعن التاريخ والمصير اللذين يرسمان
لهـا » .

وتابع يقول :

« ولذلك تراني أعد العدة كاملة بالتعاون مع الحكومة
التي أعلن رئيسها مرات عن ضرورة الاسراع في اجراء
المصالحة ، وبالتعاون مع ضمائر المواطنين وعقولهم ، ومع
القادة الذين يتفقون معنا في الرأي ، ومع الاشقاء والاصدقاء
الذين آلمهم اخوانهم في لبنان »[١٦٤] .

ورجع الفارعاملي ليتحدث عن « مشروع » له جديد،
ولكنه « توفيقي » لا « ثوري » هذه المرة فقال :

---

(١٦٤) من حديث صحافي مطوّل اجراه معه الصحافي المصري
عادل رضا ، ص ص ٨٣/٨٤

« أعدّ العدّة لكي نبدأ جميعا في اجراء مصالحة وطنية شاملة تنقذ الوطن وتحفظ البقية من الارواح والكرامات . وفي ذهني صيغة لها تتدارسها مع فرقاء عدة سنبدأ قريبا باذن الله في وضعها موضع التنفيذ ، راجيا من الله الكريم أن يسدّد الخطى ويلهم الجميع ويربط على قلوبهم لكي تتخطى الصعوبات وتنجح في تنفيذ مرحلتها الفورية العملية والجوهرية والجذرية ... ولعلّي لا أخفي شعوري بالحاجة الملحّة الى الإعلام المؤثر المتطور»(١٦٥) .

وكم كان حنين الفارعاملي الى الإعلام قويا وعميقا عندما قال :

« إن كثيرا من الحوادث الدامية لم تكن تحدث أو لم تكن تتطور لو كان الإعلام يقوم بدوره المطلوب .أقول ذلك ، شهادة ممن عاش الاحداث عن قرب وبكل وجوده واحساسه . ان الإعلام يتجاوز في تأثيره كل حد ولا تقف أمامه أية مشكلة ولا يجوز بقاؤه خارج المسرح في يومنا الصعب هذا »(١٦٦) .

---

(١٦٥) عادل رضا : ص ٨٥

(١٦٦) المصدر نفسه

والحقيقة أن الإعلام في تلك الايام كان خارج مسرحه هو دون سواه ، وليس خارج المسرح الفلسطيني مثلا .

لقد ذهبت مع الريح مشاريع الفارعاملي هذه كما ذهبت سابقاتها . وكذلك ذهب متران من اللحم والعظم والايمان والذكاء ، كما ذهب من بعده بشير الجميل ورشيد كرامي ، ومن قبلهم جميعا كمال جنبلاط .

ما أكثر ما تحدث الفارعاملي عن « غياب العدالة » في لبنان ، وعن حقوق « المحرومين » في ما دعاه « حزام البؤس » . ولكنه حمل على العرب والفلسطينيين كما حمل على اسرائيل ، ورفض العلمنة ، وخاصم الدولة والاحزاب كافة : اليمينية منها واليسارية . فلم يبق لديه شيء لا من « الثورة » ولا من « السياسة » ولا من « العلاقات الاجتماعية » التي بناها عقدة عقدة وسهر عليها الليالي وكرّسها في محاضراته وخطبه التي لم يُعرف عددها على اليقين . وبعد أن استعصى عليه الخروج من هذه الازمات جميعها ، الظاهرة منها والخفية ، حملته المنية أو حمل نفسه الى صحراء الجدْب والموت (١٦٧) .

---

(١٦٧) انظر الفصلين : الاول والثاني من هذا الكتاب .

ثانيا : القائد المستقيم (Opinionated)

أما القائد الثاني : الامام الخميني ، فكان على العكس من « تلميذه » وصاحبه الامام الفارعاملي •

بدأ الخميني محاربا ، واستمر في المنفى محاربا حتى عاد الى ايران على أنقاض خصمه الشاه وحاشيته ووزرائه ونوابه وجنرالاته وأجهزته كما وعد • وقبل أن ينصرف الى قضايا الداخل وشؤون الامة التي انفجرت كالبركان ،وجد نفسه وجها لوجه مع العراق ، وأياً كان المسبِّب لهذه الحرب الملعونة فكلا الطرفين مخطىء ومسؤول • فأمَر الفقيه بالقتال حتى الاستشهاد ، وككل حرب بين جيشين قويين سقطت الضحايا بالالوف ، ومُني البلدان بالخسارة العظيمة والفادحة التي لو بُذلت في سبيل العمران والتنمية لأدهشت ، بينما بقي الرئيس العراقي على موقفه المثير والاستفزازي ، والفقيه العجوز في برجه المتواضع أو « برّاده » يستحضر ، كعادته منذ الستينات ، تارة الامام عليّاً وتارة أخرى الامام الحسين ،وغالبا ما يستحضر الائمة جميعهم ليقول ويردد القول للشعب الايراني وللشيعة أينما كانوا :

« في عصر غيبة وليّ الامر إمام العصر ، يقوم نوابه بالنيابة عنه ــ وهم الفقهاء والجامعون لشرائط الفتوى

والقضاء والحكم ــ مقامه في اجراء السياسات وسائر ما للإمام عليه السلام » (١٦٨) •

ست عشرة سنة قضاها الخميني في منفاه يدرس ويخطط للقضاء على الشاه وحكومته • وكان من المفترض أن يفتر هذا الامام ولو عن جانب من جوانب قضيته ، الا انه كان يزداد ثقة بنفسه وأملا بالنصر،فلا ساوم على فكرة، ولا تساهل بنص من نصوصه ، ولا ضحك على ذقن أحد، أجنبيا كان أو وطنيا •

قبل أن يدخل الخميني السجن قال لجماهيره :

« ••• فان شتموني أو سبّوني فسأصبر ولن اتزعزع • فلنا في رسول الله أسوة حسنة ، ولنا في علي أمير المؤمنين أسوة حسنة ••• فالرسول ابتلى بمشركي قريش حيث شتموه وسبوه •• وعلي بن أبي طالب ابتلى بمعاوية ابن أبي سفيان الذي أوجب سبه على المنابر • فصبر النبي وصبر الامام الى أن حان الوقت واندلعت الثورة وجاء الحق وزهق الباطل •• ونحن أيضا لا نبالي ولا تأخذنا في الله لومة لائم أو مسبة كافر فاجر ، فهذه هي سيرة الصالحين

---

(١٦٨) الخميني : من كتابه : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عن ايران والخميني ص ص ١٩٦/١٩٧

الاقدمين من رجال امتنا المجاهدين نسير على هديها فلا نسكت عن حق ونثور ضد حكم الجائرين عندما يقتضي الامر ذلك » (١٦٩) .

وكأني به قد عرف أن ثورته لن ينضج ثمرها ولحمها قبل ان يبلغ هو العقد التاسع من عمره ، حين ضرب لهم مثلا : عمار بن ياسر الذي « شهر السيف في وجه القاسطين وهو في العقد التاسع (والصحيح في العقد العاشر) من عمره الشريف حتى قتلته الفئة الباغية في حرب صفين (١٧٠) (*١٢) .

وظلت خطبته في عاشوراء (محرم ١٣٨٣ هجرية — أيار ، حزيران ١٩٦٣) التي على أثرها اعتقل وأخذ الى السجن حيث مكث عشرة أشهر ، هي الوعد والعهد الذي لا رجوع عنه ، بل الوعد الذي تحقق بحذافيره . فيومذاك قال الخميني مخاطبا الشاه :

« ايها « الشاه » لعل غرض هؤلاء (أجهزة الامن) افهام الشعب بأنك يهودي لكي اقوم بتكفيرك فتطرد من

---

(١٦٩) دروس في الجهاد ص ص ٣٦/٣٧
(١٧٠) المصدر نفسه
(*١٢) عمار بن ياسر : صحابي من المسلمين الاوائل وممن عذب لاسلامه . قتل في حنين وهو ابن أربع وتسعين سنة.

البلاد ويصفي الشعب معك الحساب . ولعلك تجهل كيفية اضطراب الاوضاع عندما تدوي الصرخة في يوم من الايام. أجل ، فاذا دوت الصيحة لن تجد أحدا ممن يلتفون حولك اليوم رفيقا أو نصيرا .. فهؤلاء هم اصدقاء الدولار ولا يؤمنون بدين وليسوا بأوفياء ، وانما هم يسعون لالقاء المسؤوليات على عاتقك انت ايها المسكين .. » .

وقال ايضا :

« وذلك الجاهل القزم الذي لا اذكر اسمه الان حتى أوعز ببتر اذنيه .. هذا القزم جاء الى المدرسة الفيضية وصفر بصفارته وتجمع الكوماندوس حوله وأصدر أوامره بالهجوم صارخا فيهم : اهجموا ، واضربوا ، وحطموا ، ودمروا ، انهبوا موجودات الغرف ، وأبيدوا أي شيء تجدونه .. واذا ما استفسرت منهم : لماذا اقترفتم هذه الجرائم ؟ أجابوا : انها وصايا الشاه ! هو الذي أمرنا بهدم المدرسة الفيضية وقتل هؤلاء وابادتهم » .

وأُخرج عدو الشاه ، الامام الخميني، من المعتقل الكبير، فكانت له خطبة في « المسجد الاعظم » في قم يوم الاربعاء

---

(١٧١) دروس في الجهاد ص ص ٥٨/٥٩

٢ ذي الحجة ١٣٨٣ هجرية الموافق ١٥ نيسان ١٩٦٤ ، ومما قاله مخاطبا الشاه أيضا والعلماء والجماهير :

« اني لست ممن اذا قال قولا تركه هدرا .. واذا وجدت مصلحة الاسلام مقتضية في أن أصدر حكما فسوف أجد في انجازه بكل طاقاتي ولن أقف مكتوف اليدين ازاءه.. بل أقف في وجه الظلم دون وجل ، واني لا أخاف أحدا سوى الله تعالى . ولم يسبق لي أن خفت احدا .. اني لم أخف ولم أرتعد حتى في اليوم الذي هجموا عليّ في داري واعتقلوني . بل كنت أنا الذي أوصي المهاجمين بأن لا يخافوا .. وكنتُ أسلّيهم وأخفف عنهم لان الخوف لهم وليس لي » (١٧٢) .

هل كان ذلك الامام يمارس السحر على الناس ، أم انه كان يكشف جزءا من أوراقه ومخططاته ؟

ان أكثر ، لا بل كل الذين سمعوا أو قرأوا هذا الخطاب « المحرّمي » حسبوا الامام الخميني مثل الذي يطلق النار على القمر . حتى ان الذين يُفترض فيهم أن يسمعوا ويقرأوا ويفهموا كل كلمة قالها هذا الخارج من رحم « الثورة الحسينية » — كربلاء ، لم يكلفوا أنفسهم عناء فك الرموز التي أطلقها من وراء منبره في « المسجد الاعظم » في قم ، ولا سيما أنه قال آنذاك :

---

(١٧٢) المصدر نفسه ص ٧٥

« ان أول الهاربين ساعة الشدّة هم أصحاب الرتب العسكرية العالية .. أما نحن فصامدون — والحمد لله — الى آخر ساعة ، الا اذا استشهدنا أو اعتقلنا فيسقط عنا حينئذ الواجب » (١٧٣) .

هل كان الخميني متوهما أم كان يرسم لوحة اسمها « هزيمة العسكر » أو « العسكر الجبان » ؟

لقد رسم الخميني هذه « اللوحة » ووقّعها ، ثم علّقها فوق محراب « المسجد الاعظم » لتشهد في الوقت المحدد على « نبوءته » أولا ، وعلى تخاذل العسكر الذي كان يُضرب به المثل في الشرق والغرب ثانيا .

وأُبعد الخميني عن ايران في الرابع من تشرين الثاني ١٩٦٤ الى تركيا ، بسبب خطبته النارية التي ألقاها في اكبر تجمع شعبي عرفته اللقاءات الجماهيرية في قم ، وكانت المناسبة عيد ميلاد الزهراء . عالجت هذه الخطبة « قانون الحصانة » الذي أقرته السلطات الايرانية لصالح المستشارين العسكريين وكل الرعايا الاميركيين الموجودين في ايران ، وقد استهلها بقوله :

---

(١٧٣) المصدر نفسه ص ٨٦

« انني لا أستطيع ابداء كل ما في قلبي من آلام .

« فلقد ضاق صدري منذ ذلك اليوم الذي سمعتُ فيه بعض الاخبار السياسية .

« لقد سيطر عليّ الارق والغم .

« يا ليتني متّ قبل هذا ، وما شاهدتُ هذا العار .

« فليس لايران بعد اليوم من عيد .. لقد حوّلوا العيد الى مأتم .

« لقد باعونا وباعوا استقلالنا .. وفي نفس الوقت أضاءوا المشاعل وأقاموا حفلات الرقص العامة .

« ولو كانت لديهم ذرة من الشعور بالكرامة لاعلنوا الحداد العام وأمروا برفع الاعـلام السوداء في الشوارع وعلى الاسطح بدل الاحتفال والرقص .

« لقد داسوا كرامتنا وأذهبوا عزتنا ..

« ومرّغوا سمعة جيشنا بالوحول ..

« انهم صدّقوا على قانون الحصانة الذي ألحقنا بمعاهدة فيينا » (١٧٤) .

---

(١٧٤) المصدر نفسه ص ١٠٥

ثم حمل الخميني على أميركا ورئيسها وعلى كل من يأتمر بالاوامر الاميركية فقال :

« فليعلم رئيس جمهورية امريكا اليوم أنه أقـذر انسان على وجه الارض لدى الشعب الايراني بسبب هذه الجريمة والمظالم التي أوقعه ويوقعها علينا . ولتعلمْ أمريكا بأنها قد تورّطت بهذه السياسة الرجعية ونحن في القرن العشرين . لقد مضى زمن الامتيازات الاجنبية» (١٧٥) .

بعد هذه الخطبة ، تقبّل الخميني قرار النفي بهدوء وأعصاب باردة ، فغـادر البلاد وعيناه على علماء الاسلام وطلاب العلوم الاسلاميـة ، وعلى كل منبر ومحراب في ايران ، مؤكدا العودة مهما طال الفراق .

ماذا حمَل الامام المبعَد معه وماذا ترك ؟

لقد حمَل كل شيء .. وترك كل شيء أيضا .

حمل حبّاً لايران لا يموت .. وترك عهدا لا يموت.

بيـد أن « رؤوس الاجهزة » ظنت « المنفيّ » قد انتهى وانتهت معه حركته المعادية للشاه والنظام .

---

(١٧٥) المصدر نفسه ص ١١٠

في تركيا وجد الامام « المهجّر » نفسه غريبا ، فتسلل الى النجف حيث اخوانه في العقيدة والمصير . هناك لم يثر الضجة حوله بل أخذ يعمل بصمت وبعيدا عن الاضواء. ان أحـدا من النجفيين أو المقيمين في النجف لم يذكر أنه رأى الامام الخميني يمشي في الاسواق ، أو يدخل النوادي الادبية ، أو يحضر الاعراس ، أو يأتي الى اللقاءات العامة. فالرجل كالبحر تقصـده الناس وهو لا يقصدها ، يُسأل فيجيب ، وجوابه لا يُرد ، وقل انه مقبـول على الرأس والعين . كل الاتجاهات في الحركة الدينية الايرانية تأخذ من بحر الخميني وتصب فيه . فهو الاتجاه العام الشامل ، والآخرون كالسواقي والروافد ، وان تناقضت أفكارهم مع أفكاره . فالمهم أن يبقى الاصـل ، وأما الفروع فحياتـه حياتها ، وهيبتها من هيبته ، ونشاطها من نشاطه .

اذا قلنا الاتجاهات في الحركـة الدينية الايرانية ، فانما نعنـي آية الله محمـود الطالقاني وآية الله كاظـم شريعتمداري وآية الله مرتضى مطهري وآية الله حسين منتظري وآية الله خامني إي وآية الله روحاني .

كان الطالقاني « يجسد الاتجاه الدينـي التقدمـي المباشر في الحركة الدينية »(١٧٦) ، فحالف القوى التقدمية

---

(١٧٦) سامي ذبيان : ايران والخميني ص ٧٩

واليسارية ، وله رأي عقلاني في الشيوعيين اذ قال عنهم : « لقدكان النظام السابق يخافهم الا اننا يجب أن لا نشعر بهذا الشيء نحوهم ، وهم سيصبحون قوة ذات شأن اذا عملنا على قمعهم »(١٧٧) . وعلى الرغم من كونه إمام طهران والزعيم الروحي لـ « مجاهدي الشعب » فقد قال : « ان الخميني سيبقى زعيمي دائما وأنا أمشي على خطاه »(١٧٨) . رفض الطالقاني أن تحل الدكتاتورية الدينية محل الدكتاتورية الاقطاعية السابقة ، ودعا الى نظام اسلامي جمهوري اكثر انفتاحا وتسامحا مع كافة الفئات الدينية والقوميـة يصل الى حد منح الحكم الذاتي لبعضها ، الامر الذي لم يلـق عند الخميني القبول والاستحسان، ولعله وهو الرجل الثاني بعد الخميني قد قضى شهيد أفكاره هذه .

بعد الطالقاني يأتي آية الله شريعتمداري ، والاخير يمثل الاتجاه الديني المحافظ ، الذي لا يصل بمواقفه الى حـد الثـورة الجماهيرية كالتي تمت في ايران(١٧٩) .

---

(١٧٧) النهار : ١٩٧٩/٤/٢٠ . ايضا ايران والخميني ص ٨٠

(١٧٨) النهار : ١٩٧٩/٤/٢٢ . ايضا ايران والخميني ص ٨٠

(١٧٩) سامي ذبيان : ايران والخميني ص ص ٨٢/٨١

وقد اشتهر عنه رفضه لـ « تصفية النظام القديم ورموزه العسكرية والسياسية »[180] •وربما كان الفارعاملي موسى الصدر من مؤيديه كما تشير المساعدات المادية والمعنوية التي بذلها الشهيد شريعتمداري في سبيل جبل عامل[181] • وأظهر هذا المرجع الشيعي مثالية في ابقائه على المفاهيم المطلقة والطوباوية للدين ، وفي كرهه للمفاهيم النضالية الثورية • على أن التغيير عنده ينبغي أن يتم عبر « الديموقراطية » وليس عبر الانقلابات والحركات الثأرية الدموية ، فكأنه بهذه الافكار يوحي نوعا من الارستقراطية الدينية ، وبخاصة انه « عارض تأميم المصارف وشركات التأمين ومصادرة الصناعات الثقيلة والشركات الزراعية »[182]، وعلى الاخص ايضا انه يرى اختلافا اساسيا بين الاسلام والماركسية حيث يقول : « ان شهداءنا لم يبذلوا ارواحهم من أجل الشيوعية بل من أجل الاسلام »[183] •

---

(١٨٠) المصدر نفسه

(١٨١) جعفر شرف الدين : جذور الثورة الاسلامية ص٣١

(١٨٢) النهار ١٩٧٩/٤/٢٩ . ايضا ايران والخميني ص ٨٢

(١٨٣) ايران والخميني ص ٨٢ وهذا القول تناقلته الصحف في لبنان في حينه عن مجلة ديرشبيغل الالمانية التي كانت قد أجرت معه حديثا قبل انتصار الخميني وبعد تظاهرات « قم » الخمينية

والحقيقة ان الخميني وطالقاني وشريعتمداري هم الحركة الدينية الايرانية الامامية بمختلف تياراتها واتجاهاتها، **وبين هؤلاء يتوزع الباقون من آيات الله والمجتهدين الكبار ،على ان العدد الاكبر منهم يؤيد الخميني في كل** أعماله ومواقفه،وقد رأينا كيف قُتل أو عُزل أو أُبعد عن البلاد كل من خالفه أو خالف الاجراءات التي اتخذها على اي صعيد كان •

كيف استطاع الخميني جذب هذه القوى والجماهير الى تياره وهو لم يسع اليها ؟

لقد حير هذا السؤال المحللين الدوليين والمراقبين والخبراء ، فمنهم من قال : انها ارادة أميركا واسرائيل الراغبتين في تغيير النظام الايراني ، من ملكي قوي ومنفتح على العالم الى ديني انغلاقي يكون سدا منيعا في وجه المد الشيوعي ، ولا سيما ان ايران هي دولة مجاورة للاتحاد السوفياتي • وقال آخرون : انها في الاساس حركة شيوعية غايتها رفع القبضة الاميركية عن ايران وثرواتها الطبيعية الهائلة • وهنالك من اعتقد ان الخميني ليس الا منتحلا المذهب الشيعي والامامية والثورة ، وهو مكلف ، يقول هؤلاء ،تخريب ايران وتدميرها لكي يتقاسمها الروس والاميركان ، ومن مهماته ايضا تدمير العراق والخليج

كخطوة لتفتيت منطقة الشرق الاوسط واعـــادة توزيعها حسب المعطيات الجديدة •

اما نحن فنقول : انها « الامامية » فحسب •

فكما « الماركسيـــــة » و « الصهيونية » كذلـــك « الامامية » • هذه الايديولوجيات الثلاث ، دينية وغير دينية ، تكاد ، اليوم،أن تغطي نشاطاتها معظم المساحـة الكونية ثقافة وفكرا وسياسة • ومتى فهمنا «الامامية»وما تقدم من افكار وحلول للمشكلات الاقتصادية والانسانية، فهمنا اهميتها وأدركنا اسرار مواقف دعاتها والمناضلين على طريقها ومن اجل مفاهيمها•

لقد كان الخميني واضحا كل الوضوح عندما قال :

« ان تحديد واجبات الفقهاء وعلماء الدين بمراسـم العبادات وبيان أحكامها وشرائطها من طهارة ونجاسة ودعاء ومناجاة فحسب هو من مخلفات سموم المستعمرين ، اعداء الاسلام قاتلهم الله أنى يكونون •

« ان اول واجبات الفقيه العارف بأحكام الشريعـة الاسلامية هو النهضة والقيادة من اجل اعلاء كلمة اللـه في الارض والجهاد المستمر لتطهير أرض الله من أعداء الله عز وجل •

« ومن واجبات الفقيه حمل السلاح وقيادة الجيوش ومكافحة اعداء الاسلام في ميادين الجهاد المشرفة •

« ان من صلب واجباتنا الدينية العمل الدائب مـن اجل تشكيل حكومة اسلامية صحيحة قائمة علـى اساس العدل والمعرفة » [١٨٤] •

وبالمقدار عينه من الوضوح قال الخميني ايضا :

« يجب علينا من الان محاولة بناء الاسس لحكومـة حقة ، واخراجها الي حيز الوجود ، والبحث عـن العناصر المؤيدة لهذا المشروع العظيم ، وللقيام بحملة دعاية واسعة النطاق حتى نستطيع ان نحدث وعيـا جماهيريا للمشروع الكبير ونحقق ممارسات نضالية نافعة » [١٨٥] •

عندما نادى الخميني بـ « الحكومة الاسلاميـة » ودعا الى احلالها محل « الشاهنشاهية » لم يخطر ببـال « مهندسي » السياسات الدولية ان يدرسوا بتعمق تاريـخ الحركات الامامية ، ولا كلفوا انفسهم البحث في المصادر والمراجع اقلها التي حققها وصنفها بعض المستشرقين عـن الثورات الاسلامية التي لن تكون الثورة الخمينية آخرها•

---

(١٨٤) الخميني : من كتابه « الحكومة الاسلامية » ص ٤٩، عن ايران والخميني ص ص ١٨٠/١٨١

(١٨٥) المصدر نفسه

لماذا ؟

ربما لانهم أجمعوا على « كش » الملك ـ الشاه دون ان يفكروا في البديل . ويمكننا القول ان هؤلاء « المخططين » و « المهندسين » لم يعطوا الخميني حقه بل اعتبروه « عبيطا » و « غشيما » لا يقيم وزناً للمسائل الخارجية ، ولا يهتم بالسياسة ، وانما اقصى غاياته القضاء على نظام الشاه ليس الا ، فسهّلوا له الاقامة في باريس ، وليس في أنقرة أو النجف أو دمشق أو طرابلس الغرب ، وشجعوا الاعلام الدولي على خدمته وبث افكاره ونقل نصوصه وترجمة بعض كتبه ، وعلى الأخص منها ما سمي « الكتاب الاخضر » (Livre Vert) (هو في الاصل : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، مما يدل على سخف في التصرف ، وقصر نظر ، وعدم خبرة في الشعوب والمذاهب والعقائد والرجال ، فكان الامام الثائر في واد وهم في واد آخر . فهو يعرف ما الذي يفعلون ، لانه يعرف حقيقة قضيته ، بينما غاب عنهم لا ما فعله هو فحسب بل ما فعلوه هم ايضا ، حتى انهم تركوا شهبور بختيار يواجه هذه الانكسارات وحيدا الى ان أرغموه هو أيضا على الاستسلام والخروج من بلاده .

ليس صحيحا ان الغرب « مفعم بالنيات الحسنة » ،

بل ان العالم بأجمعه ومنذ اربعين سنة يبرهن عن عدم مبالاة مطلقة ازاء ما يحدث من مآس في الشرق الاوسط ، على قول آلان غريش في الـ« لوموند ديبلوماتيك »[186] (*13).

الكل دخل في الثورة الخمينية . لكن احدا منهم لم يكتشف غاية الاخر تماما . العنوان الكبير الذي مشى اليه الجميع في ايران هو : « الثورة على الشاه » . والعنوان الكبير الذي اتفق عليه العالم هو : « الحرية يجب ان تعطى لمن يطلبها » ... فحدث ما حدث !!

لقد روى الجنرال الفرنسي الارستقراطي العتيق ـ العريق كونت الكسندر دي مارانش ، المدير السابق لهيئة الاستخبارات الفرنسية الخارجية ، للصحافية الفرنسية

---

(186) الغرب والشرق الاوسط : اخطاء وعواقب ، بقلم آلان غريش ، ترجمتها الى العربية عايدة عبدالله، «السفير» ١٩٨٦/١٢/٢٠.

(*13) لا يسعنا الا ان نثمّن الكتاب التاريخي المصوّر للشعب الفلسطيني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٨) وعنوانه « قبل الشتات » ، اعداد وتأليف الدكتور وليد الخالدي ، الصادر عن «مؤسسة الدراسات الفلسطينية » ١٩٨٧ ، ذلك لانه يبيّن بالصورة « نية الغرب » على حقيقتها ، وان في زمان لا هو عثماني ولا هو عربي .. ولكن ماذا يقول الدكتور الخالدي (ابن القدس) اذا ما صدر غدا كتاب تاريخي مصوّر للشعب اللبناني اذا ما تشتت كذلك بسبب الفلسطينيين والقضية الفلسطينية ؟
=

كريستيان اوكران كيف ان سفير الشاه في باريس طالب بابقاء الخميني في العاصمة الفرنسية ، فقال :

« ذات يوم دخل علي مدير ديوانـي باسما منشرح الاسارير وقال لي : « سيدي المدير العام ، لقد نجحت في مسعاك • سوف يتم اخبار الخميني ظهر اليوم او غدا بأن عليه ان يغادر التراب الفرنسي • سوف نبلغه ذلك بتهذيب• ولكن سوف نقوله له بالتأكيد » • ثم جاءني الموظف نفسه في النهار التالي وقال لي : « سيدي المدير ، ان الاخبار سيئة ، وسوف يبقى الرجل هنا ، لان اتجاه الرياح قد انقلب » • اما لماذا حصل ذلك ، ولماذا صدر هذا الامر والامر المضاد ، فلان سفير الشاه في باريس تدخل لدى وزارة الخارجية وأخبرها بأن الامبراطور محمد رضا بهلوي لا يرى ان شيئا يمنع من بقاء الخميني في فرنسا » (١٨٧) •

= على انني اثمن وبالطريقة نفسها الكتابين النفيسين : « الاسرائيليون الاوائل » (١٩٤٩) للكاتب الاسرائيلي توم سيغف ، و « حرب فلسطين » (١٩٤٧ – ١٩٤٨) (الرواية الاسرائيلية الرسمية) ، وكلاهما صادر عن « مؤسسة الدراسات الفلسطينية » نفسها (الاول طبعة ١٩٨٦) (الثاني طبعة ١٩٨٤) •

(١٨٧) محمد باهي : فريق الرعب والقلق وهتك الاسرار في فرنسا ، الحلقة الثالثة ، « السفير » ٦/١٠/١٩٨٦

ويتابع الجنرال حديثه فيقول :

« لم أطمئن لما سمعته من مدير الديوان ، فقررت ان اقوم برجلة عاجلة في طائرة خاصة الى طهران لاطلع من الشاه مباشرة على الحقيقة • وبعد الانتهاء من طقوس التحية التي تفرضها اللياقة افصحت للشاه عن الدهشة والصدمة اللتين اصبت بهما عندما علمت بأن فكرتي المتعلقة بابعاد الخميني عن باريس قد تم الاعتراض عليها من قبل جلالته• وبعد ان اخبرته بالوقائع الباريسية قلت له : انني اخشى يا صاحب الجلالة ان تكونوا وقعتم بالمصادفة ضحية لاحد افراد حاشيتكم ، ولمداخلة في مستوى بث الرسائل او لخيانة من قبل سفيركم في باريس » •

أضاف الجنرال دي مارانش يقول :

« وكان جواب صاحب الجلالة :

« لا اطلاقا • فكل ما بلغكم مطابق تماما للتعليمات التي أصدرتها بهذا الشأن»•وبعد أن كبتّ ذهولي(يقول الجنرال) اضاف الشاه قائلا : « والآن اريد ان اوضح لك أسباب تصرفي،كتبتُ بيني وبينك:اذا لم تحتفظوا بالخميني فانه سوف يذهب الى دمشق وهي قريبة من ايران • ولدي

معلومات بأنه اذا احضر للعاصمة السورية فسوف يذهب ايضا لزيارة القذافي في طرابلس ، وذلك اسوأ احتمال يمكن ان يقع • ولما كانت علاقتي مع فرنسا ممتازة جدا ، فانني اطلب منكم ان تبلغوا رئيس الجمهورية (فاليري جيسكار ديستان) وأنا أعتمد على صداقته ، انني أريد منه أن يضيق الخناق على الخميني » (١٨٨) •

ويتذكر الجنرال الكسندر دي مارانش ان الشاه قد أعلن امامه في اللحظة الدرامية من اللقاء قائلا :

« تذكرّ دائما يا سيدي الكونت انني لن أصدر الامر باطلاق النار ضد شعبي » • فرد عليه الجنرال الذي شاهد وهو في طريقه من المطار الى القصر كيف كانت الجماهير تبث الرعب في شوارع طهران يقول :

« في هذه الحالة انت خاسر يا صاحب الجلالة » •

ويكمل الجنرال روايته هذه فيقول :

« وعندما قابلت الرئيس جيسكار في اليوم التالي نهض من مكتبه وتقدم نحوي فقلت له حتى من قبل ان

(١٨٨) المصدر نفسه

أجيبه : « انه لويس السادس عشر » ، وكان تعليقه : « هي النهاية اذن » (١٨٩) •

ويستمر الجنرال الكسندر دي مارانش في هتك الاسرار ، ولكن في الولايات المتحدة الاميركية هذه المرة ، وليس في فرنسا • وقال لمحاورته الصحافية كريستيان اوكران نفسها :

« لقد غادر الشاه طهران دون ان يكون له جهاز ارسال او مبرق بالراديو يمكنانه من البقاء على اتصال بالقوات المسلحة التي بقيت وفية له • والسبب هو ان ادارة الرئيس الاميركي كارتر ، رغبة منها في تغيير النظام السياسي في ايران ، قد ضغطت على الشاه المريض والضعيف ودفعته الى اصدار اوامره الى الجيش بعدم الرد على المتظاهرين ، بل ان جيمي كارتر ارسل الجنرال هاوز مبعوثا عنه ليقوم بجولة في الثكنات وليتصل بكبار قادة الجيوش الثلاثة (الطيران والبحرية والقوات البرية) التي كان تسليحها أميركيا مئة في المئة وليقول لهم انهم لن يتلقوا قطعة غيار واحدة ولا خرطوشة واحدة اذا صدر منهم اي رد فعل » (١٩٠) •

(١٨٩) المصدر نفسه
(١٩٠) المصدر نفسه

وتم أيضا فضح سر آخر في ملف المشاورات الاميركية ـ الفرنسية في اثناء أزمة رهائن السفارة الاميركية الذين احتجزهم « طلاب خط الامام » في طهران في شهر نيسان ١٩٨٠ ، وهو ان الاستخبارات الفرنسية والاستخبارات الاميركية قد توصلت بعد التشاور الى الاتفاق على تنفيذ مشروع « خطف الخميني من قم » ، وقد دُرست العملية جيدا ، فتبين ان الخميني « يكثر من الذهاب الى منزله في مدينة قم المقدسة ، حيث كان يسكن حيا هادئا يقع بالقرب منه مكان خلاء يمكن أن تهبط فيه السمتيات» و « الفكرة (التي انتهت اليها الاستخبارات) كانت تقتضي احتجاز سماحته ونقله بتهذيب وبحزم الى باخرة في شمال المحيط الهندي ، ببحر عمان » لاجل « مبادلة رجل الدين برهائن السفارة » • ولكن رئيس البيت الابيض آنذاك ، لدى اطلاعه على هذا المشروع ، رفض الخطة رفضا قاطعا وقال : « لا يمكن أن نمارس مثل هذا العمل » (١٩١) •

لقد سبق للخميني ان قال في شتاء ١٩٧٨ العاصف والغاضب :

« والله يعلم اذا ما سحبت امريكا الخبيثة يدها من خلف هذا الشاه ليوم واحد فان الشعب لن يبقي له شيئا » (١٩٢) •

---

(١٩١) المصدر نفسه

(١٩٢) دروس في الجهاد : ص ٣٠٨

وفعلا سحبت أميركا يدها من خلف الشاه لا لان الخميني « نبي » أو « امام » بل لان اميركا لا تحمي اصدقاءها ، وان حمتهم فكما الجزار الذي يعلف الثور ليذبحه ويتاجر بلحمه ، او قبلما تكون هيأت اصدقاء آخرين «أكثر قبولا» من شعوبهم يحلون مكانهم •

لماذا رغب الرئيس الاميركي جيمي كارتر تغيير النظام في ايران ؟

مهما يكن الرد الكارتري الاميركي ،

ومهما قيل ويقال عن الاحداث الدولية والاقليمية التي فرضت هذا التغيير الدرامي ، او ساهمت في نجاحه ، فان لـ « الامامية » القرار الاول والاخير • على ان الامام الخميني كان « الرجل المناسب في الوقت المناسب » حسب المنطق « الامامي » الذي ، يا للمصادفة ، توافق مع «المنطق الكارتري الاميركي » وربما مع « المنطق الامرائيلي ـ الصهيوني » ايضا •

فأي منطق ، يا ترى ، عدا المنطق القذافي ، فرض اخفاء الفارعاملي الامام موسى الصدر في العاصمة الليبية ؟

لا شك ان عدد « اللاعبين » على الساحة اللبنانية

كبير ... وكبير جدا ، ولكن اللغز الاكبر هو ان الامام الخميني لم يبادر الى « انقاذ » « ابنه » و «تلميذه» و « صاحبه » : الفارعاملي حتى الان ؟

لماذا ؟

لقد قيل ، في ذلك الحين ، ان الخميني لا يريد قطع « شعرة معاوية » مع العقيد القذافي ؟ !

وقيل ايضا : ان الخميني لن يسره غضب « الختيار » ياسر عرفات ، ولا غضب الرئيس السوري حافظ الاسد؟!

ولكن احدا من « الخمينيين » لم يقل ان الامام الكبير ، الذي ساعده « العالم الحر » ، قد اهمل هذه القضية ، لان الفارعاملي ، الذي تخلى عنه العرب و «العالم الحر » لم ينصهر في « نار الامامية » مثلما ينبغي ، فذوّبته نار الشياطين « كبارهم » و «صغارهم» معا .

الكلمة الاخيرة

تمت طباعة هذا الكتاب ، وهو الخامس في «سلسلة نافذة على المعرفة » ، يوم الخميس الموافق ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧ ، بينما العالم يتطلع بشوق عظيم الى القمة المقبلة للرئيس رونالد ريغان والامين العام للحزب الشيوعي السوفياتي السيد ميخائيل غورباتشيوف ، وقد تنبأ لها بـ « النجاح » وزيرا الخارجية الاميركي والسوفياتي : السيدان جورج شولتز وادوارد شيفاردنادزه، وذلك في المؤتمر الصحافي الذي عقده الوزيران في مقر البعثة الديبلوماسية الاميركية في جنيف يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧

وعلى قول المراقبين ، فان من شأن معاهدة ريغان - غورباتشيوف ، اذا ما تحققت ، ان تزيل الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى من اوروبا ، وتعزز الجهود التي يبذلها الملك حسين من اجل عقد مؤتمر دولي غايته احلال السلام العادل والدائم في منطقة الشرق الاوسط (؟).

(م. ج.)

تنبيه

لقد حتمت الظروف التي رافقت طباعة هذا الكتاب، والمعروفة من قبل الجميع – منها انقطاع التيار الكهربائي يوميا ولساعات طويلة – الاخطاء المطبعية التالية :

الخطأ	الصواب	الصفحة
وحين يقوم ...	« وحين يقوم ...	١٧
أُقيه	أُقيم	٢٣
١٠٠	٩٠	٤٣٢
عبد الحميد الكواكبي	عبد الرحمن الكواكبي	٦٠٤
تكرر السطر الثالث : « وقد أعجبه « صهيله » ...		٦٢٤
يسلتم على	يسلتم الى	٦٤٠
العاقات	الطاقات	٦٦٥
أدْدرسه	أدْرسه	٦٦٥
ونوعية أفراد الشعب	وتوعية أفراد الشعب	٧٢١
الطاعون	« الطاعون »	٧٦٧

لذلك اقتضى التنويه مع الاعتذار

(م . ج)